مكتبة الجاحظ

أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ

١٥٠ - ٢٥٥

بتحقيق وشرح

عبد السلام محمد هارون

رسائل الجاحظ

الجزءان، الثالث والرابع

الناشر

مكتبة الخانجي للطبع والنشر والتوزيع

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
١٥٠ - ٢٥٥

عبد السلام محمد هارون

رسائل الجاحظ

الجزء الثالث

القسم الأول من

الفصول المختارة من كتب الجاحظ

اختيار الإمام عبيد الله بن حسان

[الطبعة الأولى]

١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م

الناشر
مكتبة الخانجي بمصر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

أيدك الله ، وأسبغ عليك من عظيم فضله وجميل نعمته ، ماترضى به وتطمئن إليه . وحفظك أخاً كريماً ترعى الود ، وتقيم على العهد .

وكنت قد وعدتك من قبل أن أتبع المجموعة الأولى من الرسائل ، وهى (مجموعة مكتبة داماد) ، بمجموعة أخرى لاتقل عنها قدراً إن لم تفقها ، وهى (مجموعة مختارات عبيد الله بن حسان) .

وعدت عواد أن أبادر بإنجاز هذا الوعد ، مع بقائى عليه ، علم الله ، وامتداد بصرى إلى صونه ورعايته .

فلما أذن الله ، وله الحمد ، أن أنهض بإتمام تحقيق هذه المختارات ، ضاعفت شكره ، وسعيت إلى نشرها بين يديك ، لتعلم أنى على موعدى .

وقد أشرت فى مقدمة الجزء الأول من رسائل الجاحظ إلى حصر أبرز المجموعات التى حفظت بها هذه الرسائل ، وهى :

١ ــ مجموعة مكتبة داماد (وقد نشرتها سنة ١٣٨٤ فى جزأين بهما ١٧ كتاباً ورسالة) .

٢ ــ مجموعة فان فلوتن .

٣ ــ مجموعة الفصول المختارة لعبيد الله بن حسان .

٤ ــ مجموعة محمد ساسى المغربى .

٥ ــ مجموعة ريشر .

٦ — مجموعة حسن السندوبى .

٧ — مجموعة يوشع فنكل .

٨ — مجموعة بول كراوس وطه الحاجرى .

ولست أعيد القول فيما اشتملت عليه كل مجموعة من هذه المجموعات الثمانية ، فإنها مسطورة بالتفصيل فى مقدمة الجزء الأول من الرسائل .

وإنما يعنينى القول فى مجموعة واحدة هى المجموعة الثالثة من هذه المجموعات، وهى (الفصول المختارة من كتب الجاحظ) ، إذ هى الأصل الذى اعتمدت عليه فى إخراج الجزأين الثالث والرابع من رسائل الجاحظ .

وقد طبعت هذه المجموعة من قبل محرفة مبتورة ، على هامش كامل المبرد بمطبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٣ بعناية الشيخ على بن أحمد الهوارى .

وكان الذى حدانى إلى إعادة نشر هذه الفصول المختارة أمور :

أولها : مالها من القدر الأدبى والتاريخى ، إذ أنها تشتمل على عيون من كتب الجاحظ ، هى فى قمة ما أنشأه ، من حيث موضوعاتها المختلفة فى الشئون الإنسانية العامة . فهى دراسات نفسية واجتماعية ، ودينية وكلامية وجدلية ، وأدبية عالية ، وترفيهية سامية ، وإن كانت معظم كتب الجاحظ تلم بأطراف مما ذكرت ، ولكن التناول العميق لهذه الدراسات ، مما اختصت به أفراد هذه المجموعة النادرة .

فلا ريب أن الجاحظ قد تكلم فى الحاسد والمحسود فى أثناء كتبه كلاماً عابراً ، ولكنه حين يخص هذا الأمر بالدراسة والقول المستفيض ، يضىء لنا جميع الجوانب التى يمكن أن تحيط به ، بقدر ما يثير إعجابنا وإمتاعنا .

وهو حين يقدم دراسة عن المعلمين ، يبسطها لنا مستوعباً أقصى مايمكن كتابته فى هذا اللون الأدبى من الكتابة فى طائفة عظيمة من طوائف الناس .

وحين يتكلم على النساء والمرأة يجلو صفحة عريضة من نظرته ونظرة

دنياه ، بل دنيانا نحن ، إلى نصف هذا البشر الذى يعاملنا ونتعامل معه ، فى ثقة العالم وصراحة الدارس الموضوعى .

كما أن الدراسة التاريخية والسياسية فى «مناقب الترك» تطلعنا على جوانب كانت غامضة على الكثير منا ، إذ فيها تباين نظرة الناس إلى هذا العنصر البشرى وغيره من عناصر الدولة الإسلامية فى ذلك العهد السحيق . وهى وثائق سياسية لها قدرها السياسى إلى جانب قدرها الاجتماعى والإنسانى . وهو الأمر الذى دعا أحد الأدباء[1] إلى أن يضع كتاباً عنوانه : « الترك فى مؤلفات الجاحظ » ، وهو بحث له قدره ووزنه .

وكتابه فى « المعلمين » حملنى من قبل أن أكتب فى هذا الجانب دراسة مستفيضة نشرت فى مجلة « الكتاب » فى عدد أغسطس سنة ١٩٤٦ .

وآراء الجاحظ فى « حجج النبوة » ، و « خلق القرآن » جديرة بأن تلقى دراسة وتمحيصاً .

وكتاب « الرد على النصارى » مظهر مضىء من مظاهر الحركات الفكرية التى كانت سائدة فى أزهى العصور الإسلامية ، ونموذج رائع للجدال العلمى الرفيق مع أهل الكتاب بالتى هى أحسن .

وفى الحق أن فى كل كتاب أو رسالة فى هذه المجموعة التى بلغ تعدادها ٢٩ تسعة وعشرين كتاباً أو رسالة ، مثاراً للبحث والتأمل ، والمتعة التى لا حدود لها .

وإنا لنجد بين القدماء من يغلو فى تقدير كتب الجاحظ ، ويتجاوز حدود الوقار فيقول[2] : « رضيت فى الجنة بكتب الجاحظ عوضاً عن نعيمها » .

---

(١) هو الأديب زكريا الكتابجى . وقد نشر كتابه فى دار الثقافة ببيروت سنة ١٩٧٢ .

(٢) هو أبو محمد عبد الله بن حمود الزبيدى الأندلسى ، تلميذ السيرافى والفارسى والقالى . بغية الوعاة ٨٢٢ .

والأمر الثانى : أن النشرة الأولى لهذه المجموعة نشرة غير علمية ، وإن كان لناشرها المغمور فضل السبق فى إظهارها ، وتمكين الباحث إلى قدر ما من الاستعانة بها فى المجال العلمى .

وثالثها : أن بتلك النسخة المطبوعة سقطاً كبيراً تناول نحو عشر رسائل . وهو قدر كبير كان لابد من إثباته فى نشرة جديدة، كتب الله لى فضل إخراجها .

وهذا السقط يبدأ من منتصف كتاب النصارى إلى أوائل كتاب « النبل والتنبل وذم الكبر » .

ورابعها : أن أصل النسخة المطبوعة غير معروف ، شأنها فى ذلك شأن كثير مما نشر من أفراد التراث العربى وأظهرته المطابع فى هذا العهد المتطلع إلى النهوض من عثرات التخلف .

وخامسها : أن مخطوطة التيمورية التى جعلتها أحد أصول التحقيق فى نسختى هذه ، تنتمى إلى أصل عتيق ، ففى نهايتها نجد هذا النص :

« انتهاء الفصول التى اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله . وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة فى يوم الجمعة المبارك الموافق لثلاث خلت من شهر ذى القعدة من شهور سنة ١٣١٥ خمسة عشر وثلاثمائة بعد الألف من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم . وقد تم نسخها بيد العبد الحقير، المعترف بالعجز والتقصير ، عبد أهل السنة والجماعة ، الخاضع لله بالدعاء والطاعة ، الراجى لطف ربه الغنى ، محمد بن عبدالله بن إبراهيم الزمرانى ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين بمنه وكرمه ، والصلاة والسلام على خير خلقه ، والحمد لله وحده . تمت بحمد الله وعونه وحسن توفيقه آمين .

وقد نقلت هذه النسخة المباركة من نسخة تاريخها فى أوائل شهر رجب الأصم سنة ٤٠٣ ثلاث وأربعمائة ، كاتبها أبى القاسم (كذا) عبيد الله بن على » .

وهذه النسخة التيمورية وقرينتها نسخة الأزهر المودعة برقم [٢٣١] أباظة ٦٨٣٦ كتبهما وراق واحد، هو محمد بن عبدالله بن إبراهيم الزمرانى ، كتب نسخة التيمورية سنة ١٣١٥ ومن قبلها نسخة الأزهر سنة ١٣١٣ . وفى آخر نسخة الأزهر ما نصه :

« انتهاء الفصول التى اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله . وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة خامس يوم شهر محرم الحرام افتتاح سنة ٣١٣ من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل السلام وأزكى التحية ، بقلم العبد الفقير المعترف بالعجز والتقصير محمد بن عبدالله بن إبراهيم الزمرانى ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين » .

وقد رجح لدى أن هاتين النسختين منقولتان من نسخة واحدة هى التى أشار إليها الناسخ فى ختام التيمورية .

لذلك ، ولأن الكاتب للنسختين وراق واحد ، ولأن التحريف والأسقاط والزيادات فيهما واحدة اعتمدت على النسخة التيمورية، واكتفيت بها عن صنوها نسخة الأزهر .

وهذه النسخة التيمورية تعد من حيث الصحة والكمال فوق نسخة المتحف البريطانى .

وعلى هذا فقد استقرت المقابلة فى نشرتى هذه على ثلاثة أصول :

١ ــ الأصل الأول : نسخة المتحف البريطانى ، وهى أقدم الأصول الثلاثة تاريخاً ، وكتب على صدرها :

« هذا كتاب مختارات فصول الجاحظ عفى عنه ، كتب برسم خزانة الأمير الفاضل موسيو كريمر النمساوى(١)، بمحروسة مصر سنة ١٨٧٧ م » . وهى تقابل سنة ١٢٩٤ الهجرية .

---

(١) هو البارون النمساوى فون كريمر (١٨٢٨ – ١٨٨٩) . ولد فى فيينا وتخرج فى جامعتها، فأرسلته دولته قنصلا لها بمصر ثم بيروت سنة ١٨٧٠ . وكان من أصحاب النشاط =

ومنها نسخة مصورة بمكتبة جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٦٩ وهى فى ٢٩٩ لوحاً فى مجلدين ، تشتمل صفحة اللوح على ١٧ سطراً بكل سطر نحو ثمانى كلمات . وقد التزم فيها علامات الإلحاق فى أسفل الصفحات اليمنى . وقد كتبت النسخة بخط نسخى جيد مجرد من الضبط . وجاء فى خاتمتها :

« انتهاء الفصول التى اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله تعالى . وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة يوم الجمعة المبارك الثامن عشر من شهر صفر الخير من سنة ١٢٩٤ بعد الألف من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة وأتم التحية ، على يد كاتبها الفقير عبد الله المنصورى . اللهم اغفر له ولوالديه . آمين آمين .

وقد رمزت إلى هذه النسخة فى التعليقات والمقابلات بالرمز (ب) إشارة إلى المتحف البريطانى .

٢ — الأصل الثانى : نسخة المكتبة التيمورية ، وهى مودعة بدار الكتب المصرية برقم ١٩ أدب تيمور . وكتب على صدرها :

« هذا كتاب مختارات فصول الشيخ الهمام، العالم العلامة والبحر الفهامة، أبى عثمان الجاحظ ، تغمده الله برحمته ، وأسكنه فسيح جنته ، بمنه وكرمه . آمين » .

وهى كتلك مكتوبة بالخط النسخى الجيد ، مجردة من الضبط ، إلا ما قام به المغفور له أحمد تيمور باشا من بعض الضبط والمقابلات فى الرسالة الأولى منها ، وهى « رسالة الحاسد والمحسود » . وهى مقابلات على مطبوعة الساسى فى مجموع رسائله . وكذلك بعض المقابلات على تلك المطبوعة أيضاً فى رسالة الجاحظ إلى الفتح بن خاقان فى « مناقب الترك وعامة جند الخلافة ».

= السياسى والاستشراق . وقد ابتاعت مكتبة المتحف البريطانى مكتبته الشرقية، كما ذكر نجيب العقيقى فى كتابه المستشرقون ٢ : ٦٣١ . ومن منشوراته : المغازى للواقدى بمقدمة وشروح انجليزية (كلكتا وبرلين ١٨٥٥ — ١٨٨٨) ، والقصيدة الحميرية لنشوان بن سعيد الحميرى (ليبزيج ١٨٦٥) .

وهى فى ٢٠٨ ورقة عدد صفحاتها ٤١٧ صفحة ، بكل صفحة ٢١ واحد وعشرون سطراً بكل سطر نحو ١١ كلمة .

وقد أشرت إلى ختام هذه النسخة فيما سبق .

ورمزت لهذه النسخة بالرمز (م) مقتبساً من التيمورية .

٣ ـ الأصل الثالث : أصل استئناسى ، هوالنسخة المطبوعة بهامش كامل المبرد فى مطبعة التقدم العلمية سنة ١٣٢٣ وعنوانها : « الفصول المختارة من كتب الإمام أبى عثمان عمرو الجاحظ بن بحر بن محبوب الكنانى البصرى المتوفى بالبصرة سنة ٢٥٥ هجرية ،اختيار الإمام عبيد الله بن حسان رحمه الله ونفعنا به آمين » .

وخاتمتها : « انتهت الفصول التى اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله تعالى ، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآله وصحبه أجمعين » .

وهى فى جزأين : الأول فى ٣٩٦ صفحة ، والثانى فى ٣٠١ صفحة . وهذه النسخة بها كثير من النقص كما أشرت إلى ذلك من قبل ، ولكنها مصححة محررة بشىء من العناية ، قام على تصحيحها مقرونة بكامل المبرد « راجى عفو البارى ، على بن أحمد الشهير بالهوارى » .

ولايعلم الأصل الذى طبعت منه ، ولاريب أنه غير النسخ التى سبق الكلام عليها ، أى النسخة الأزهرية ونسخة تيمور ، ونسخة المتحف البريطانى .

وقد أشرت إليها بالرمز (ط) .

وإليك فهرسها مقارناً بفهرس النسخة التيمورية ونسخة المتحف البريطانى :

فالرقم الأول لصفحات التيمورية ، يليه رقم ألواح مصورةنسخة المتحف البريطانى ،وبعده أرقام صفحات النسخة المطبوعة على هامش الكامل للمبرد:

	التيمورية	المتحف البريطانى	مطبوعة هامش الكامل
١ ــ الحاسد والمحسود	٢ ــ ١٣	٢ و ــ ٨ و	١ : ٢ ــ ١٦
٢ ــ المعلمين	١٣ ــ ٣٢	٨ ظ ــ ١٩ و	١٧ ــ ٣٠
٣ ــ التربيع والتدوير	٣٢ ــ ٦٩	١٩و ــ ٣١ ظ	٣٠ ــ ٩٧
٤ ــ مدح النبيذ	٧٠ ــ ٨١	٤٢و ــ ٤٩ و	٩٧ ــ ١٢٠
٥ ــ طبقات المغنين	٨١ ــ ٨٦	٤٩و ــ ٥٢ و	١٢٠ ــ ١٣٠
٦ ــ النساء	٨٦ ــ ١٠٤	٥٢و ــ ٦٢ و	١٣٠ ــ ١٦٦
٧ ــ مناقب الترك	١٠٥ ــ ١٤٣	٦٢و ــ ٨٨ و	١٦٦ ــ ٢٧٥
٨ ــ حجج النبوة	١٤٣ ــ ١٩٠	٨٨و ــ ١٢١ و	٢٧٥ ــ ٣:١١٧
٩ ــ خلق القرآن	١٩٠ ــ ٢٠٢	١٢١ و ــ ١٢٩ظ	١١٧ ــ ١٤٨

---

(١) نشر أيضاً فى صدر مجموعة الساسى ٢ ــ ١٣ بأرقام مستقلة عن المجموعة ، كما ورد فى دراسات ريشر ١٨٠ ــ ١٨٢ .

(٢) هو أيضاً فى مجموعة ريشر ١٠١ ــ ١٠٨ .

(٣) نشر فى مجموعة فان فلوتن ٨٦ ــ ١٥٦ والساسى ٨٢ ــ ١٤٧ وريشر٢١٢ ــ ٢٥٥ والسندوبى ١٨٧ ــ ٢٤٠ ، ونشره مستقلا شارل بلا فى دمشق سنة ١٩٥٥ .

(٤) السندوبى ٢٥٨ ــ ٢٩١ وريشر ١١١ ــ ١١٢ .

(٥) مجموعة الساسى ١٨٦ــ ١٩٠ وريشر ٢٠٤ ــ ٢٠٦ .

(٦) أو العشق والنساء . مجموعة الساسى ١٦١ ــ ١٦٩ وريشر ١٨٨ ــ ١٩٤ والسندوبى ٢٦٦ ــ ٢٧٦ .

(٧) سبق نشره من مجموعة داماد فى ١:٨٦ . وهو فى مجموعة ريشر ٢٠٧ــ٢١٠ باسم فضائل الأتراك ، ذكر فيها محتوياته .

(٨) نشر أيضاً فى مجموعة ريشر ١١٢ــ١٥٩ والسندوبى ١١٧ــ١٥٤ . وهو فى الحيوان ١ : باسم «كتاب الحجة فى تثبيت النبوة».

(٩) لم ينشر منه شىء إلا فى هامش الكامل . وانظر الحيوان ١ : ٩ إذ أشار إليه .

	التيمورية	المتحف البريطاني	مطبوعة هامش الكامل
١٠ — الرد على النصارى	٢٠٢ — ٢٣٦	١٢٩ظ — ١٥٥ظ	١٤٨ — ١٨٤
١١ — الرد على المشبهة	٢٣٦ — ٢٤٤	١٥٥ظ — ١٦١ و	—
١٢ — مقالة العثمانية	٢٤٤ — ٢٦١	١٦١ و — ١٧٥ و	—
١٣ — المسائل والجوابات فى المعرفة	٢٦١ — ٢٧٥	١٧٥ و — ١٨٥ظ	—
١٤ — المعاد والمعاش	٢٧٥ — ٢٨٢	١٨٥ظ — ١٩٠ظ	—
١٥ — الجد والهزل	٢٨٢ — ٢٨٧	١٩١ظ — ١٩٤ظ	—
١٦ — الوكلاء	٢٨٧ — ٢٩٣	١٩٤ظ — ١٩٩ و	—
١٧ — الأوطان والبلدان	٢٩٣ — ٣١٩	١٩٩ و — ٢١٩ظ	—
١٨ — البلاغة والإيجاز	٣١٩ — ٣٢٠	٢١٩ظ — ٢٢٠ظ	—

---

(١٠) مجموعة ريشر ٤٠—٦٧ ويوشع فنكل ١٠—٣٨ و قد أشار إليه الجاحظ فى الحيوان ١ : ٩ بقوله « وكتابى على النصارى واليهود » والكتاب يتناولها معاً ، ولكن هكذا وردت تسميته مختصرة فى المخطوطات والمطبوعات .

(١١) لم تنشر قبل . ولكن نشر مثيل لها فى الموضوع ، وهو « نفى التشبيه » . انظر الجزء الأول من الرسائل ٢٨٣ — ٣٠٨.

(١٢) نشر السندوبى خلاصتها فى مجموعته ص ١ — ١٢ . ونشرت كاملة بتحقيق عبد السلام هارون . دار الكتاب العربى ١٣٧٤ — ١٩٥٥ . وانظر الحيوان ١ : ١١ .

(١٣) لم يسبق نشر شيء منها . وهى وسابقتها مما سقط من النسخة المطبوعة على هامش الكامل . وانظر الحيوان ١ : ٩ .

(١٤) سقط من النسخة المطبوعة على هامش الكامل أيضاً . وسبق نشره من مجموعة داماد فى الجزء الأول من الرسائل ١ : ٨٧ — ١٣٣ .

(١٥) سبق فى مجموعة داماد بالجزء الأول ص ٢٢٧ — ٢٧٨ . (١٦) مجموعة الساسى ١٧٠ — ١٧٢ وريشر ١٩٤ — ١٩٥ .

(١٧) ويسمى أيضاً « الأمصار وعجائب البلدان ». وهو غير كتاب « الحنين إلى الأوطان» الذى سبق نشره فى الرسائل بتحقيقنا ٢ : ٣٧٩.

(١٨) لم تنشر من قبل .

١٩ ـــ تفضيل البطن على الظهر	٣٢٠ ـــ ٣٢٩	٢٢٠ظ ـــ ٢٢٧ظ	ـــ
٢٠ ـــ النبل والتنبل وذم الكبر	٣٢٩ ـــ ٣٤٢	٢٢٧ظ ـــ ٢٣٨ظ	١٨٤ ـــ ١٩٩
٢١ ـــ المودة والخلطة	٣٤٢ ـــ ٣٥٢	٢٣٨ظ ـــ ٢٤٥ظ	١٩٩ ـــ ٢١٢
٢٢ ـــ استحقاق الإمامة	٣٥٢ ـــ ٣٥٨	٢٤٥ظ ـــ ٢٥٠ظ	٢١٢ ـــ ٢٢٠
٢٣ ـــ استنجاز الوعد	٣٥٨ ـــ ٣٦٢	٢٥٠ظ ـــ ٢٥٤ و	٢٢٠ ـــ ٢٢٧
٢٤ ـــ تفضيل النطق على الصمت	٣٦٢ ـــ ٣٧٠	٢٥٤ و ـــ ٢٦٠ظ	٢٢٧ ـــ ٢٣٨
٢٥ ـــ صناعة الكلام	٣٧٠ ـــ ٣٧٦	٢٦٠ظ ـــ ٢٦٥ و	٢٣٨ ـــ ٢٤٦
٢٦ ـــ مدح التجارة وذم عمل السلطان	٣٧٦ ـــ ٣٧٩	٢٦٥ و ـــ ٢٦٨ و	٢٤٦ ـــ ٢٥١
٢٧ ـــ الشارب والمشروب	٣٧٩ ـــ ٣٩١	٢٦٨ و ـــ ٢٧٨ظ	٢٥١ ـــ ٢٦٩
٢٨ ـــ استحقاق الإمامة	٣٩١ ـــ ٤٠٧	٢٧٨ظ ـــ ٢٩١ و	٢٦٩ ـــ ٢٩١
٢٩ ـــ مقالة الزيدية والرافضة	٤٠٨ ـــ ٤١٧	٢٩١ و ـــ ٢٩٩ و	٢٩١ ـــ ٣٠١

---

(١٩) لم تنشر من قبل .
(٢٠) لم ينشر منها إلا قطعة على هامش كامل المبرد .
(٢١) هي رسالة إلى أبي الفرج السندوبي ٣٠٠ — ٣١٦ . وقد سبقت في ١ : ٣٢١ — ٣٣٢ .
(٢٢) ريشر ١٦٨ — ١٧٩ والسندوبي ٢٤١ — ٢٦٠ .
(٢٣) الساسي ١٧٣ — ١٧٧ وريشر ١٩٥ — ١٩٩ .
(٢٤) الساسي ١٤٨ — ١٥٤ وريشر ١٨٢ — ١٨٦ .
(٢٥) ريشر ١٥٩ — ١٦٣ .
(٢٦) الساسي ١٥٥ — ١٦٠ وريشر ١٨٦ — ١٨٨ .
(٢٧) ريشر ١٦٣ — ١٦٨ والسندوبي ٢٧٦ — ٢٥٨ .
(٢٨) السندوبي ٢٤١ — ٢٥٩ .
(٢٩) لم يسبق نشرها إلا في الفصول المختارة على هامش الكامل . وقد أشار إليها الجاحظ في الحيوان ١ : ٧ .

أجمعت المخطوطات والمطبوعات أن جامع هذه الفصول ومختارها هو (عبيد الله بن حسان) لم تزد على ذلك شيئاً . فليس هناك مايدل على بلده ، ولا على نسبته ، أو مايدل على صفته العلمية بين أهل العلم من الفقهاء ، أو المحدثين أو المؤرخين ، أو المشتغلين بعلوم العربية . وليس هناك أيضاً مايعين مولده أو ينص على سنة وفاته .

وقد بحثت ما أمكننى البحث ، وتقصيت ما أمكن التقصى ، أن أعثر له على ترجمة أو خبر فيما لدى من المراجع ، وكذا فى جميع المظان ، ولاسيما تلك التى تعنى بتراجم الرجال من أهل الحديث أو الأدب أو علوم العربية ، وساءلت عنه فلم أجد له ترجمة أو خبراً .

ولكن ما لاريب فيه أنه أديب قديم جداً ، أمكنه أن يظفر بجمهرة عظيمة من كتب الجاحظ قبل أن تبيد ويعفى عليها الزمان ، فحفظها لنا ، واستحق بذلك أن يخلد اسمه على كتب صانها وانتزعها من أكف البلى والضياع .

وإذا حاولنا أن نعرف زمنه استطعنا أن نقول : إن حياته لم تتجاوز القرن الخامس الهجرى ، إن لم نقل الرابع ، أى إنه قريب عهده من عصر الجاحظ نفسه المتوفى سنة ٢٥٥ ، أى فى النصف الثانى من القرن الثالث .

وهذا مستفاد مستخلص مما كتبه الوراق محمد بن عبدالله الزمرانى فى ختام النسخة التيمورية ، إذ نص على أنه نقل نسخته من نسخة تاريخها فى أوائل شهر رجب الأصم سنة ٤٠٣ ثلاث وأربعمائة ، كاتبها أبى القاسم (كذا) عبيد الله بن على [١].

---

(١) أمكننى أن أعثر على ترجمة لهذا الفاسخ القديم ، فهو أبوالقاسم عبيد الله بن على بن عبدالله الرقى . قال الخطيب : سكن بغداد فى درب أبى خلف من قطيعة الربيع . وكان أحد العلماء بالنحو والأدب واللغة ، عارفاً بالفرائض وقسمة المواريث ، وحدث شيئاً يسيراً عن أبى أحمد الفرضى كتبت عنه وكان صدوقاً . وسألته عن مولده فقال : ولدت فى سنة إحدى وسبعين وثلثمائة . ومات فى يوم الخميس الثانى من شهر ربيع الآخر سنة خمسين وأربعمائة . ودفن فى يومه فى مقبرة باب حرب . تاريخ بغداد ١٠ : ٣٨٧ — ٣٨٨ .

ومما لا ريب فيه أيضاً أن عبيد الله بن حسان قد جمع فأحسن التأليف ، واختار فأجاد الاختيار ، وكأنه لم يرتفع إلى القدر الذى يرقى به إلى أن يوضع فى دائرة المترجمين الأعلام.

وأما بعد، فهذا جهد متواضع أضمه إلى ماسبق لى من جهود . وعسى أن أوفق فيما أستقبل من دهرى إلى أن أقوم بنشر مالم تمسه يد التحقيق منى من مؤلفات شيخنا الجاحظ وآثاره الحسان ، مما أفلتته عوادى الزمان وصار إلينا كنزاً وذخراً .

والله الموفق والمستعان .

مصر الجديدة فى { أول ربيع الثانى سنة ١٣٩٩هـ
٢٨ من فبراير سنة ١٩٧٩ م }

عبد السلام محمد هارون

١

من كتابه في
الحاسِد والمحسُود

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه ثقتي

١ – فصل
من صدر كتابه
في الحاسد والمحسود(١)

وهَبَ الله لك السلامة ، وأدام لك الكرامة ، ورزقَكَ الاستقامة ، ورفع عنك النَّدامة .

كتبت إليّ – أيَّدكَ الله – تسألُني عن الحسد ما هو ؟ ومن أين هو ؟ وما دليلُه وأفعاله ؟ وكيف تُعرف أُموره وأَحواله(٢) ، وبم يُعرف ظاهره ومكتومه ،وكيف يعلم مجهوله ومعلومه ، ولم صارفى العلماء(٣) أَكثَرَ منه فى الجهلاء ؟ ولِم كثُر فى الأَقرباء وقلَّ فى البعداء(٤) ؟ وكيف دبَّ فى الصَّالحين أَكثَرَ منه فى الفاسقين ؟ وكيف خُصَّ به الجيران مِنْ بَيْن جميع أَهل الأَوطان(٥) .

والحسد – أَبقاك الله – داءٌ يَنْهك الجسد ، ويُفسد الودّ(٦) ، علاجُه

(١) نشرت كاملة من قبل فى مجموعة رسائل الجاحظ نشرة الساسى ١٣٢٤. وقد أشرت إليها بالرمز « مج » .

(٢) مج : « وكيف تفرقت » . وفى ب : « أموره أحواله » ، تحريف .

(٣) ب : « ولم صاروا العلماء » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٤) مج : « وقل منه فى البعداء » .

(٥) مج : « من جميع الأوطان » .

(٦) م : « الرد » تحريف . وفى ط ، مج : « الأود » ، وهى بضم الواو جمع ود بالكسر وهو الحبيب ، مثل قدح وأقدح .

عَسِير[١]، وصاحبه ضجِر[٢]. وهو بابٌ غامضٌ وأمر متعذِّر، وما ظهر منه فلا يُداوَى، وما بطن منه فمُداويهِ فى عَناء. ولذلك قال النبى صلى الله عليه وسلم: «دبَّ إليكم داءُ الأُممِ[٣] من قبلِكم: الحَسَدُ والبغضاء».

[وقال بعض الناس لجلسائه: أىُّ الناس أقلُّ غفلة؟ فقال بعضهم: صاحبُ ليلٍ، إنَّما همُّه أن يُصبح. فقال: إنه لكذا وليس كذا. وقال بعضهم: المسافر، إنَّما همُّه أن يقطع سفره. فقال: إنه لكذا وليس كذا. فقالوا له: فأخبرنا بأقلِّ النَّاس غفلة. فقال: الحاسدُ، إنما همُّه أن ينزِع الله منك النعمةَ التى أعطاكها، فلا يغفُل أبداً.

ويروى عن الحسن أنه قال: الحسد أسرعُ فى الدِّين من النار فى الحطب اليابس[٤]].

وما أُتِىَ المحسودُ من حاسده إلّا من قبل فَضْل الله عنده ونعمه عليه[٥] قال الله عزّ وجلّ: ﴿أم يَحْسُدون النَّاسَ على ما آتَاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ فقد آتينا آلَ إبراهيمَ الكتابَ والحِكمَة وآتيناهُمْ مُلكاً عظيماً[٦]﴾.

والحسد عَقِيدُ الكُفر، وحليفُ الباطل، وضدُّ الحقّ، وحربُ البيان. فقد ذمَّ اللهُ أهل الكتاب به فقال: ﴿وَدَّ كثيرٌ من أهلِ الكتاب لو يَرُدُّونكم من بعد إيمانِكم كُفَّاراً حَسَداً من عِنْدِ أنفسهم[٧]﴾.

---

(١) ب: «وعلاجه عسير» م «علاجه عسير»، وأثبتت ما فى ط، ومج.
(٢) م «ضجير»، تحريف.
(٣) داء الأمم، ساقطة من ب. والحديث رواه أحمد والترمذى. الجامع الصغير ١ : ٥٦٣.
(٤) هذه التكملة من ط، مج.
(٥) مج: «من قبل فضل الله تعالى إليه ونعمته عليه».
(٦) الآية ٥٤ من سورة النساء.
(٧) من الآية ١٠٩ من سورة البقرة.

منه تتولد العداوة[١] ، وهو سببُ كلِّ قطيعة ،ومُنتج[٢] كلِّ وحشة ، ومفرِّق كلِّ جماعة ، وقاطع كلِّ رحمٍ بين الأَقرباء[٣] ، ومُحدث التفرُّق بين القُرَناء ، ومُلْقح الشرِّ بين الخلطاء[٤] ، يكمُن فى الصدر كمونَ النَّار فى الحجر .

ولو لم يدخل على الحاسد بعدَ[٥] تراكُم الغموم على قلبه ، واستمكان[٦] الحزن فى جوفه ، وكثرة مَضَضه ووَسواسِ ضميره ،وتنغُّص[٧] عمره وكدَرِ نفسه ونكد عيشه[٨] ، إلا استصغارُه[٩] نعمةَ الله عليه[١٠] ، وسخطُه على سيِّده بما أَفاد غيره[١١] . وتمنِّيه عليه أَن يرجع فى هبته إِيَّاه ، وأَن لا يرزق أَحداً سواه ، لكان عندَ ذوى العقول مرحوماً[١٢] ،وكان لديهم[١٣] فى القياس مظلوماً . [وقد قال بعضُ الأَعراب : ما رأَيتُ ظالماً أَشبه بمظلومٍ من الحاسد : نَفَسٌ دائم ، وقلبٌ هائم ، وحزنٌ لازم[١٤]]

---

(١) مج : « فمنه » ، ب فقط : « يتولد » .

(٢) ب: « وسخ » بإهمال الحرف الثانى ، ولعلها « سنخ » بكسر السين ، بمعنى الأصل . وأثبت ما فى سائر النسخ .

(٣) ب ، ط : « من الأقرباء » .

(٤) ب ، ط : « بين الحلفاء » .

(٥) م : « غير » .

(٦) ب ، ط : « واستكان » ، تحريف .

(٧) مج : « وتنغيص » .

(٨) مج : « ونكد لذاذة معاشه » .

(٩) م : « إلى » .

(١٠) ط ، م : « نعمة الله » فقط ، وفى مج : « لنعمة الله عنده » ، وأثبت ما فى ب .

(١١) مج : « بما أفاده الله عبده » .

(١٢) م ، ط : « مرجوماً » بالجيم . وفى هامش م : « لعله مرحوماً » .

(١٣) مج : « وكان عندهم » وكذا أثبتت بخط مخالف فوقها فى م .

(١٤) التكملة من ط ، مج .

والحاسد مخذول وموزور[1] ، والمحسود محبوب ومنصور . والحاسد مغموم ومهجور ، والمحسود مَغْشيٌّ ومَزُور[2] .

والحسد - رحمك الله - أول خطيئة ظهرت فى السموات . وأول معصية حدثَت فى الأَرض ، خُصَّ به أَفضلُ الملائكة فعصَى ربَّه ، وقايسه فى خلقه[3] ، واستكبر عليه فقال : ﴿خَلَقْتَنِى من نارٍ وخَلَقْتَه مِنْ طِينٍ[4]﴾ ، فلعنَه وجعله إبليساً ، وأنزله من جِواره بعد كان أنيساً ، وشوّه خلقه تشويهاً ، وموّه على نبيِّه[5] تمويهاً نسِيَ به عزمَ ربِّه . فواقع الخَطيئة ، فارتدع المحسود[6] وتاب عليه وهدى ، ومضى اللعين الحاسد فى حسده[7] فشَقِيَ وغَوى .

وأما فى الأَرض فابنا آدم[8] حيث قَتل[9] أَحدُهما أَخاه ، فعصى ربَّه وأَثكل أَباه . وبالحسد طوّعت له نفسُه قتلَ أَخيه فقتلَه فأَصبح من الخاسرين .

لقد حمله الحسدُ على غاية القسوة[10] ، وبلغ [به[11]] أَقصى حدود

---

(١) موزور ، من الوزر ، وهو الذنب والإثم ، ويقال مأزور ، أيضاً بالإبدال ، ومنه فى الحديث : « ارجعن مأزورات غير مأجورات » . وفى مج : « ومأزور » على الإبدال .

(٢) مغشى : يغشاه الناس ويزورونه . م : « مغمور ومسرور » وبخط مخالف فوقها : « مغشى ومزور » كما فى مج . وفى ب : « مغشى ومسرور » .

(٣) مج وتعليقات م : « وقايسه بخلقه » .

(٤) من الآية ١٢ من الأعراف ، ٧٦ من سورة ص .

(٥) ب ، ط : «على مثله» ، م : « على تمثيله » ، مج : «على أنبيائه» ولعل وجهه ما أثبت .

(٦) ب : « فارتجع » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .

(٧) مج وبخط مخالف فى م : « على حسده » .

(٨) ب فقط : « فأبناء آدم » ، تحريف .

(٩) ب ، ط : « حسد » موضع « حيث قتل » .

(١٠) ب ، ط : « فقد حمله الحسد إلى غاية القسوة » .

(١١) التكلة من م ، مج .

العقوق ، فأنساه من رَحِمه جميعَ الحقوق[1] ، إذ ألقى الحجر عليه شادخاً[2] وأصبح عليه نادماً صارخاً .

ومن شأن الحاسد إن كان المحسود غنيًّا أن يوبِّخه على المال فيقول[3] : جَمَعه حراماً ومنعه أَثَاماً[4] . وأَلَّبَ[5] عليه محاويجَ أقاربه فتركهم له خُصَماءَ[6] ، وأعانهم فى الباطن وحمل المحسود على قطيعتهم فى الظاهر وقال له[7] : لقد كفروا معروفَك ، وأظهروا فى الناس ذمَّك ، فليس[8] أمثالهم يُوصلون ، فإنهم لا يَشْكرون . وإن وجد له[9] خصماً أعانه عليه[10] ظلماً ، وإنْ كان ممن يعاشره فاستشارَهُ غَشَّه ، أَو تَفَضَّل عليه بمعروفٍ كَفَرَه[11] ، أَو دعاه إلى نصرٍ خذله ، وإن حضَر[12] مَدْحَه ذَمَّه وإن سُئل عنه همزه ، وإن كانت[13] عنده شهادةٌ كتمها ، وإن كانت منه إليهِ زَلَّة[14] عظَّمها ، [وقال : إنَّه[15]] يحب أن يعاد ولا يعود ، ويُرى عليه العُقود[16] .

---

(١) ب ، ط : « من رحمته » ، وأثبت ما فى م ، وهذه العبارة ساقطة من مج .

(٢) الشدخ : الكسر والتهشيم . ماعدا مج : « تفادخا » ، والمعروف الفدخ ، فدخه يفدخه فدخاً : شدخه .

(٣) م ، مج : « وقال » .

(٤) الأثام ، كسحاب : الإثم والذنب . ماعدا مج : « أيتاماً » .

(٥) ألبهم تأليباً : جمعهم على عداوته . ماعدا مج : « وغاب » .

(٦) خصماء : جمع خصيم ، وهو المخاصم ، كالجليس بمعنى المجالس . ب ، ط : « خصما »

(٧) ب ، ط : « فقال » فقط .

(٨) ب ، ط : « ليس » فقط . م : « وليس » ، وأثبت ما فى مج .

(٩) ط ، ب : « لهم » ، صوابه فى م ، مج .

(١٠) م : عليهم » ، تحريف .

(١١) ب : « أو يفصل عليه معروف كفره » ، صوابه فى سائر النسخ .

(١٢) م ، مج : « أو حضر » .

(١٣) مج : « أو كانت » .

(١٤) الزلة : الخطيئة والسقطة . ب فقط : « ذلة » تحريف .

(١٥) التكلة من مج .

(١٦) هذا ما فى مج . وفى سائر النسخ : « القعود » . وكان العرب يقعدون الخزز لرؤسائهم وملوكهم . انظر ما سيأتى فى نهاية هذا الفصل ص ١٠ .

وإن كان المحسود عالماً قال : مبتدع ، ولرأيه مُتَّبِع[1] ، حاطبُ ليلٍ ومبتغي نَيْل[2] ، لا يدري[3] ما حمل ، قد ترك العمل ، وأقبل على الحيل[4] . قد أقبل بوجوه النَّاس إليه ، وما أَحْمقَهم إذ انثالوا عليه[5] . فقَبَّحه الله من عالمٍ ما أعظم بليّته[6] ، وأقلَّ رِعَته[7] ، وأسوأ طعمته[8] .

وإن كان المحسود ذا دِينٍ قال : مُتَصنِّعٌ يغزُو ليُوصَى إليه[9] ، ويحجُّ ليثنَى بشيءٍ عليه[10] ، ويصوم لتُقبَل شهادته[11] ، ويُظهِر النُّسك ليُوَدَع المالُ بيتَه ، ويقرأُ في المسجد لِيزوِّجه جارُه ابنتَه ، ويَحضُر الجنائز لتُعرفَ شُهرته .

وما لقيتَ[12] حاسداً قطُّ إلَّا تبيَّن لكَ[13] مكنونُه بتغيُّر لونه وتخوُّص عينه[14] وإخفاءِ سلامه، والإقبالِ على غيرك والإعراض

(١) أي إنه يتبع غيره في الرأي ، ليس بذي رأي . ب ، ط : « لرأيه » بسقوط الواو .

(٢) مج : « ومتبع نيل » .

(٣) م ، مج : « ما يدرى » .

(٤) ب ، ط : « فأقبل على الحيل » .

(٥) انثالوا عليه : انصبوا وتتابعوا . ب : « انتالوا » صوابه في سائر النسخ .

(٦) ب : « بالتيه » ، صوابه في سائر النسخ .

(٧) الرعة ، كعدة : الورع والكف عن السوء والقبيح . م ، مج : « رعيته » وهي الاسم من الرعي ، كما في اللسان (رعى ٤٢) .

(٨) الطعمة ، بالضم والكسر : وجه المكسب » .

(٩) ب ، ط : « يتصنع أن يوصى إليه » ، صوابه في م ، مج .

(١٠) ب « ويحج لشيء عليه » م ، مج : « ليثني عليه » ، وأثبت ما في ط . وما بعده من الكلام إلى « بيته » ساقط من مج .

(١١) ب ، م : « ليقبل شهادته .

(١٢) م : « وما رأيت » .

(١٣) كلمة «لك» ساقطة من ط ، م وبدلها في ب : « لي » .

(١٤) التخوص ، من الخوص، وهو ضيق العين وغؤورها . والمعروف المخاوصة والتخاوص . م : « وتغوص » مج : « وتخويص » ، وأثبت ما في ب ، ط .

عنك[١] ، والاستثقالِ لحديثك[٢] ، والخلاف لرأيك[٣] .

وكان عبد الله بن أُبَىّ[٤] ، قبل نفاقه ، نسيجَ وحدِه[٥] لجودة رأْيه وبُعد همّته ، ونُبل شيمته ، وانقياد العشيرة له بالسِّيادة ، وإذعانهم له بالرِّياسة . وما استوجَبَ ذلك إلّا بعدما استجمع له لُبُّه[٦] ، وتبيَّن لهم عقله ، وافتقدوا منه جهله[٧] ، ورأوه لذلك أهلًا ، لمَّا أطاق [له[٨]] حملًا. فلما بعثَ الله نبيَّه صلى الله عليه وسلم وقدِمَ المدينة ،ورأى هو عزَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم[٩] شمَخ بأنفه[١٠] فهدم إسلامَه لحسده[١١] ، وأَظهر نفاقه. وما صار منافقاً حتَّى كان حسوداً ، ولا صار حسوداً حتَّى صار حقوداً . فحُمقَ بعد اللُّبّ[١٢] ، وجَهِل بعد العَقْل ، وتبوَّأَ النَّار بعد الجنَّة .

---

(١) مج : « والإعراض عنك والإقبال على غيرك » .

(٢) ب ، ط : « والاستقبال لحديثك » ، تحريف .

(٣) بعده فى مج : ولذلك قال القائل :

طـــال على الحاســد أحـزانه ⁂ فاصفــر من كثرة أحــزانه
دعــه فقــد أشعلت فى جوفـه ⁂ مـا هـاج منـه حر نيرانه
العيـب أشهى عنــده لــذة ⁂ من لـذة المـــال لخزانه
فــارم عـلى غـاربه حبــله ⁂ تســلم من كثرة بهتــانه

وقد انفردت نسخة ط بهذا الإنشاد فى نهاية هذا الفصل ، كما سيأتى .

(٤) عبد الله بن أبى بن سلول ، رأس المنافقين فى أول الإسلام . وسلول جدته نسب إليها . وجده مالك بن الحارث بن عبيد بن مالك بن سالم الحبلى بن غنم بن عوف بن الخزرج . وابنه عبد الله ابن عبد الله كان من فضلاء الصحابة بدرياً ، قتل يوم اليمامة . جمهرة أنساب العرب ٣٥٤-٣٥٥.

(٥) يقال هو نسيج وحده ، أى لا نظير له ، كما أن الثوب إذا كان كريماً لم ينسج على منواله غيره لدقته . ط : « يسبح وحده » وكذا فى أصل م . وأثبت ما فى ب ، ومج .

(٦) م : « له إليه »، ط : « لهم لبه »، وأثبت ما فى ب ، مج .

(٧) ب : « وفقد بينهم جهله » ، والوجه ما أثبت من سائر النسخ .

(٨) التكملة من م ، مج .

(٩) ب ، م ، ط : « ورأى غيره » وصححت فى م : « ورأى عز رسول الله » ، وأثبت ما فى مج .

(١٠) شمخ بأنفه : تكبر . ماعدا مج : « تشمخ بأنفه »، تحريف .

(١١) مج : « فحسده فهدم إسلامه » .

(١٢) اللب : العقل . ب فقط : « بعد الله » تحريف .

ولقد خطب النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة فشكاه إلى الأَنصار . فقالوا : يا رسول الله لا تَلُمْه(١) ، فإنَّا كنا عقدْنا له الخرَز(٢) قَبل قدومك لنتوِّجَه .

ولو سَلَّم المخذول(٣) قلبَه من الحسد لكان من الإسْلام بمكان : ومن السُّودد فى ارتفاع . فوضعه اللهُ لحسده ، وأَظهَرَ نفاقه(٤) .

[ولذلك قال القائل :

طال علىٰ الحاسد أَحزانُه فاصفرَّ من كثرة أَحزانه
دعْهُ فقد أَشعلتَ فى جوفه ما هاجَ من حرٍّ نيرانه
العيبُ أَشهى عنده لـذَّةً من لذَّة المال لخُزَّانه
فارم على غاربه حبلَه تَسلمُ من كثرة بهتانِه(٥)]

---

(١) ب فقط : « لا تكلمه » .

(٢) خرزات الملك : جواهر تاجه . ويقال : كان الملك إذا ملك عاما زيدت فى تاجه خرزة ليعلم عدد سنى ملكه .

(٣) يعنى عبد الله بن أبى ، خذله الله . ط ، ب : « المخذول » . سلم قلبه من الحسد : وقاه إياه وبرأه منه .

(٤) مج : « بحسده وإظهار نفاقه » .

(٥) التكلة من ط . وقد وردت فى مج قبل هذا الموضع كما سبقت الإشارة إليه فى ص ٩ وأثبتها أحمد تيمور بخطه فى هذا الموضع .

٢ — فصـــل
فى حســـد الجـيران

وذلك أَنَّ الجيران – يرحمك الله – طلائعُ عليك ، وعيونهم نواظرُ إِليك ، فمتى[١] كنتَ بينهم مُعْدِماً[٢] فأَيسرت ، فبذلت وأَعطيت ، وكسوت وأَطعمت ، وكانوا فى مثل حالك فاتَّضعوا ، وسُلبوا النعمة وأُلبِستَها [أَنت[٣]] ، فعظمت عليهم بليّة الحَسد ، وصاروا[٤] منه فى تنغيص آخر الأَبد[٥] . ولولا أَن المحسود بنصر الله إِيّاه مستور ، وهو بصنعه محجوب[٦] لم يأْت عليه يوم إِلَّا كان مقهوراً ، ولم تأْت ليلة إِلا وكان عن منافعه مقصوراً . ولم يُمْسِ إِلَّا وماله مسلوب ، ودمُه مسفوك ، وعرضه بالضَّرب منهوك .

---

(١) ب ، مج : « فعسى » .
(٢) معدماً ، ساقطة من ب .
(٣) التكملة من مج .
(٤) ب فقط : « وساروا » .
(٥) م : « لآخر الأبد » .
(٦) ما عدا مج : « محجور » بالراء .

٣ — فصـــل منـه

وأنا أقول حقاً[١] : ما خالط الحسد قلباً إلَّا لم يمكنه ضبطه ، ولا قدر على تَسْجِينِهِ[٢] وكتمانه ، حتّى يتمرَّد عليه بظهوره وإعلانه ، فيستعبده[٣] ويستميله[٤] ، ويستنطقه لظهوره عليه[٥] فهو أغلب على صاحبه من السيِّد على عبده ، ومن السُّلطان على رعيّته ، ومن الرَّجل على زوجتِهِ ومن الآسر على أسيره[٦] .

وكان ابنُ الزُّبير بالصبر موصوفاً ، وبالدَّهاء معروفاً ، وبالعقل موسوماً ، وبالمداراةِ منهوماً[٧] ، فأظهر بلسانه حسداً كان أضبَّ عليه[٨] أربعين سنةً لبني هاشم ، فما اتَّسع قلبه لكتمانه ، ولا صَبرَ على اكتتامه ، لمَّا طالت[٩] في قلبه طائلته[١٠] أظهره وأعلنه ، مع صبره على المكاره ، وحمله نفسَه على حتفها[١١] ، وقلة اكتراثه والتفاته

(١) مج : « وأقول » .

(٢) التسجين : تفعيل من السجن ، أي الحبس ، والمراد الكتمان . وفي اللسان : «وسجن الهم يسجنه ، إذا لم يبثه » . وأنشد :

ولا تسجنن الهم إن لسجنــه عناء وحمله المهارى النواجيا

والكلمة محرفة في النسخ ، فهي في ب : « تسخينه » وسائر النسخ : « تشحينه » ، والوجه ما أثبت .

(٣) ب ، ط : « فليستعبده » . وفي هامش م : « فيستفيده » ، وما أثبت من مج.

(٤) ما عدا ط : « ويستعمله » .

(٥) ب م : « لقهوره عليه » ، مج : « لقهره عليه » ، وأثبت ما في ط وهامش م .

(٦) ب : « على الأسيرة » م : « أسيرته » ط : « الأسير » وأثبت ما في مج .

(٧) المنهوم بالشيء : المولع به . وفي الحديث : « منهومان لا يشبعان : منهوم بالمال ومنهوم بالعلم . ط فقط : « متهوماً » .

(٨) يقال أضب فلان على غل في قلبه ، أي أضمره وأخفاه . م ، ط : « واظب عليه » تحريف . والكلام بعده إلى « اكتتامه » ساقط من مج .

(٩) م : « لما طال » .

(١٠) ما عدا مج : « طيلة »

(١١) الحتف : الهلاك . ما عدا مج : « خسفها » .

لأحجار المجانيق التى[1] [كانت[2]] تمرّ عليه فتذهب بطائفة من قومه[3] ما يلتفت إليها .

حُدِّثت بذلك عن علىّ بنُ مُسْهر[4] عن الأعمش، عن صالح بن حَبَّاب[5] ، عن سعيد بن جُبَير قال : قُدتُ ابنَ عباس[6] حتَّى أدخلتُه على ابن الزُّبيرِ ، قال : أنت الذى تؤنِّبنى ؟ قال : نعم ، لأنِّى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ليس بمؤمن من بات شبعاناً[7] وجارُه طاوٍ[8] » . فقال له ابن الزُّبير : لمن قلت ذلك ؟ إنِّى[9] لأَكتم بُغضَكم أهلَ البيت مُنذُ[10] أربعين سنة . فحسر ابن عباس عن ذراعيه كأنَّهما عَسيبا نخل ، ثم قال لابن الزبير : نعم فليبلغ ذاك منك ، ما عرفتُك .

ولقد أَجلْتُ الرأى ظهراً لبطن وفكَّرت فى جوابه لابن عباس أن أَجد له معنى سوى الحسد فلم أَجده ، وكانت وخْزةٌ[11] فى قلبه فلم

---

(١) ب : « الذى » ، تحريف .
(٢) التكلة من مج .
(٣) ب ، م : « ثوبه » ، وأثبت ما فى ط ، مج . وهامش م .
(٤) بضم الميم وسكون المهملة وكسر الهاء ، كما فى التقريب . وهو أبو الحسن على بن مسهر القرشى الكوفى قاضى الموصل . ذكره ابن حيان فى الثقات وقال : مات سنة ١٨٩ . تهذيب التهذيب .
(٥) مج : « طلح بن حيان » . ولعله « صالح بن حبان » المترجم فى تهذيب التهذيب .
(٦) كان عبد الله بن عباس رضى الله عنه قد عمى فى آخر عمره ، كما عمى أبوه وجده . وقال له معاوية يوماً : ما لكم تصابون فى أبصاركم يا بنى هاشم ؟ فقال له : كما تصابون فى بصائركم يا بنى أمية ! نكت الهميان ١٨٠ — ١٨٢ .
(٧) كذا جاء مصروفاً منوناً ، وهذا بالنظر إلى أن مؤنثه شبعانة . وبالنظر إلى أن مؤنثه شبعى يمنع من الصرف ، وكلاهما مسموع . وفى مج : « شبعان » بالمنع من الصرف .
(٨) الطاوى : الجائع الخالى البطن ، كأنه طوى بطنه .
(٩) ب : « لأنى » .
(١٠) م : « منذ » .
(١١) الوخزة : الطعنة . ب ، م : « وخذة » بالذال ، تحريف ، وليس لوخذ مادة فى المعاجم المتداولة . وفى مج : « وخزة ثقيلة فلم يبدها له » .

يُبدِها . وفروعُ بنى هاشم حول الحرم باسقة ، وعروق دَوْحاتهم بين أطباقها راسية ، ومجالسُهم من أعاليها عامرة[١] ، وبحورها بأرزاق العبَاد[٢] زاخرة ، وأنجمُهَا بالهدى زاهرة . فلمَّا خلت البطحاءُ من صناديدها استقبله بما أكنَّ فى نفسه[٣] .

والحاسد لا يغفل عن فرصته إلى أن يأتِىَ الموتُ على رِمَّته ، وما استقبلَ ابنَ عبّاسٍ بذلك إلَّا لمَّا رأى عمرَ قدَّمه[٤] على أهل القَدَم ، ونَظَر إليه وقد أطاف به أهل الحَرَم ، فأوسعهم حُكْماً ، وثَقَبوا منه رأياً وفهماً[٥] ، وأشبعَهم[٦] علماً وحِلماً .

---

(١) مج : « غامرة » .
(٢) ب ، ط : « بأوراق العباد » م : « بأوراق العبادة » . والصواب من مج .
(٣) مج : « بما أكن فى نفسه » .
(٤) م ، ط : « لما رأى من تقدمه » .
(٥) ثقب رأيه ثقوباً : نفذ . وفى قول أبى حية النميرى :
ونشرت آيات عليه ولم أقــل من العلم إلا بالذى أنا ثاقبــه
ط : « ونقبوا » . مج : « وتعصبوا » .
(٦) ب : « وأسبقهم » ط ، م : « وسبقهم » ، وأثبت ما فى مج .

٤ – فصـــل

وكيف يَصبر من استكنّ الحسدُ فى قلبه على أمانيه[١] . ولقد كان إخوةُ يوسفَ حُلماء ، وأجلَّةً علماء ، وَلَدَهُم الأنبياء ، فلم يَغفلُوا عمَّا قَدَح فى قلوبهم من الحسد ليوسف ، حتَّى أَعطَوْا أبَاهم المواثيقَ المؤكَّدة ، والعهودَ المقلَّدة[٢] ، والأيمانَ المغلَّظة ، إنَّهم له لحافظون ، وهو شقيقُهم وبَضعةٌ منهم . فخالفوا العهود ووثبوا عليه بالظلم والقوة[٣] ، وألقَوْه فى غَيابة الجُبّ ، وجاءُوا على قميصه بدمٍ كذب ، فبظلمهم يوسفَ ظَلموا أباهم ، طمعاً أنْ يخلوَ لهم وجهُ أبيهم ويتفرّدوا بحبّه[٤] ، وظنُّوا أنَّ الأيَّام تُسْليه ، وحبَّه لهم من بعد غمّه[٥] يُلْهبه ، فأسالوا عَبْرته وأحرقوا قلبه .

وكيف لا تقرُّ أعين المحسودين[٦] بعد يوسف وقد ملَّكه الله خزائن الأرض ، بصبره على أذى حُسَّاده ومقابلته[٧] إيّاهم بالعفو والمكافأة ، وحُسن العشرة[٨] والمواخاة ، بعد إمكانه منهم[٩] لمَّا أتوه ممتارين ، ووفدوا عليه خائفين وهم له منكرون ، فأحسنَ رِفدهم ، وأكرمَ قِراهم[١٠] ،

(١) ب : « أمانته » م : « إماتته » ط : « إمامته » ، وأثبت ما فى مج .
(٢) يقال قلده الأمر : ألزمه إياه . ماعدا مج : « المقبلة » .
(٣) والقوة ، ساقطة من ط ، م ، مج .
(٤) م : « وينفردوا بحبه » .
(٥) فى هامش م : « عن بعده عنه » مج : « من بعده عنه » .
(٦) ب : « لا تفتر » ، م : « وكيف تفتر » ، وأثبت ما فى ط ، مج . وفى ط ، م : « الحاسدين » .
(٧) مج : « ومقاصته » . وكذلك هامش م .
(٨) ما عدا مج : « بحسن العشرة » .
(٩) ب فقط : « منه » تحريف .
(١٠) ما عدا مج : « وكرم قراهم » .

فأَقرُّوا له لمَّا عرفوه بالإذعان ، وسأَلوه بعد ذلك الغفران ، وخرُّوا له سُجَّداً لمَّا وردُوا عليه وفداً[١] .

فإذا أَحسستَ — رحمك الله — من صديقك بالحسَد فأَقلِلْ ما استطعت من مُخالطته ، فإنَّه أَعون الأَشياءِ لك[٢] على مسالمته . وحصِّن سرَّك منه تسلم من شرِّه وعوائق ضُرِّه[٣] . وإيَّاك والرغبة فى مشاورته ، ولا يَغُرنَّك خُدعُ مَلَقِه ، وبيان ذَلَقِه[٤] ، فإنَّ ذلك من حبائل نفاقه .

فإن أَردتَ أَن تعرفَ آيةَ مِصداقه فأَدنِيَنْه[٥] إليه من يُهينُك عنده ، ويذمُّك بحضرته ، فإنَّه سَيَظْهَر[٦] من شأْنه لك ما أَنتَ به جاهلٌ ، ومن خلاف المودّة ما أَنت عنه غافل . وهو أَلحُّ[٧] فى حسده لك من الذُّباب ، وأَسرع فى تهريقك[٨] من السَّيل إلى الحَدُور[٩] .

---

(١) مج : « لما قدموا عليه وفداً » .
(٢) ب فقط : « فإنه أهون » تحريف . وكلمة « لك » من مج وهامش م .
(٣) ط فقط : « وبوائق ضره » .
(٤) الذلق : فصاحة اللسان . ما عدا مج : « زلقه » تحريف .
(٥) ب : « فدنين » تحريف ، وأثبت ما فى م ، ط . وفى هامش م : « فدس » ، وهى مما جاءت به نسخة مج .
(٦) م فقط : « يظهر » وحورت فيها إلى « سيظهر » .
(٧) « ألح » بالحاء المهملة ، كما فى الدرة الفاخرة للأصبهانى ٣٦٩ . ونظيرها فيما أورده : ألح من الخنفساء ، ومن الكلب ، ومن الحمى . وفى مج : « ألج » بالجيم ، وهو المطابق لما فى جمهرة الأمثال للعسكرى ١٨٠ حيث أورد هذه الأمثال كلها بصورة « ألج » بالجيم . وكلاهما اقتصر فى التفسير على « ألح من كلب » واتفقا فى قولهما « لأنه يلح بالهرير على الناس » ، ولا ريب فى أخذ العسكرى المتوفى نحو سنة ٤٠٠ عن حمزة الأصبهانى المتوفى سنة ٣٥١ . كما صرح بذلك العسكرى فى مقدمة كتابه ص ٦ . وهذا مما يؤيد رواية « ألح » بالمهملة ، إذ يقال ألح عليه ، ولا يقال ألج عليه .
(٨) ط ، مج : « تمزيقك » .
(٩) الحدور ، بالفتح : الموضع المنحدر . ب : « الحدود » ، تحريف .

وما أُحِبُّ أن تكون عن حاسدك غبيًّا، وعن وهمك[١] بما في ضميره نسيًّا[٢]: إلَّا أن تكون للذلِّ محتملًا، وعلى الدناءة مشتملًا[٣]، ولأخلاق الكرام مجانباً، وعن محمود شِيَمهم ذاهباً، أو تكون بك إليه حاجة[٤] قد صيَّرتْك[٥] لسهام الرُّماة هدفاً، وعرضَك لمن أرادك غَرَضاً[٦].

وقد قيل على وجه الدَّهر[٧]: «الحرّة تَجُوع ولا تأْكل بثدييها[٨]».

وربّما كان الحسودُ[٩] للمصطنِع إليه المعروفَ أكفرَ له وأشدَّ احتقاداً[١٠]، وأكثر تصغيراً له من أعدائه.

٥ — فصل منه [١١]

ومتى رأيت حاسداً يصوِّب لك رأياً إن كنت[١٢] مصيباً، أو يرشدك

---

(١) وهم إلى الشيء وفيه: ذهب وهمه إليه. مج: «فهمك».

(٢) ب: «بما في ضمير نسياً»، صوابه في سائر النسخ.

(٣) ب: «مستمثلا»، صوابه في سائر النسخ.

(٤) ما عدا مج: «أوتكون بك لحاجة».

(٥) ب: «صيرتها»، صوابه في سائر النسخ.

(٦) ما عدا مج: «لمن أبادك».

(٧) أي في قديم الزمان. ب: «الأرض»، م، ط: «العرض»، صوابهما في مج.

(٨) ب: «تأكل ثديها» وهي رواية صحيحة مثلها في المستقصى ٢: ٢٠: «ثدييها» بدون باء. قال الزمخشري: معناه جعل ثدييها، كقوله:

* يأكلن كل ليلة إكافا *

أي ثمن إكاف. والجعل، بالضم: أجر العامل ونحوه ويروى: «تجوع الحرة»، و«قد تجوع الحرة»: انظر الفاخر ١٠٩ والميداني ١١٠: وجمهرة العسكري ٢٦١، ٤٩٤.

(٩) ب، ط: «الحسد» مج: «الحاسد»، وأثبت ما في م.

(١٠) احتقد عليه: حقد. ط: «احتقاداً منه». و«منه» مقحمة. وفي مج: «وأشد اجتهاداً»، تحريف.

(١١) منه، ساقطة من ب.

(١٢) ب، ط، مج: «وإن» في هذا الموضع وتاليه، والصواب ما في م بدون واو.

إلى صواب إن كنت مخطئاً ، أو أَفصحَ[(١)] لك بالخير فى غَيبتِهِ عنك[(١)] ، أو قصَّر من غِيبتِه لك[(٢)] .

فهو الكَلْب الكَلِب ، والنَّمر النَّمر[(٣)] والسُّمُّ القِشب[(٤)] ، والفَحلُ القَطِم[(٥)] ، والسَّيل العَرِم[(٦)] . إن مَلَكَ قتل وسَبَى[(٧)] ، وإن مُلِكَ عَصَى وبَغَى . حياتُك موتُه ، وموتُك عِرْسُه وسروره[(٨)] . يصدِّق عليك كلَّ شاهدِ زُور ، ويكذِّب فيك[(٩)] كلَّ عدلٍ مرضىّ . لا يحبُّ من النَّاس إلَّا مَن يُبغضك ، ولا يُبغض إلَّا من يحبُّك . عدوُّك بطانةً وصديقُك عَلانيَةَ[(١٠)] .

وقلتَ : إنَّك ربَّما غَلِطت فى أَمرِه لما يَظهر لَك من برِّه . ولو كنت تعرف الجليل من الرأى[(١١)] ، والدقيقَ من المعنى ، وكنتَ فى مذاهبك فَطِناً نِقاباً[(١٢)] ، ولم تكُ فى عَيب مَن ظهر لك عَيبُه[(١٣)] مُرتاباً ،

---

(١) م : « أو أنصح لك بالخير فى غيبة لك » مج : « أو نصح لك فى غيبه عنك » ، ب : « أو أفصح لك بالخير فى غيبه عنك » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٢) ب ، م : « من غيبه » ، وأثبت ما فى ط .

(٣) يقال نمر ينمر نمراً ، إذا غضب وساء خلقه . ب : « والنمر والنمر » ، صوابه فى م ، ط . وفى مج : « والنمر الحرب » . وهو الذى قد كلب واشتد غضبه .

(٤) القشب : المخلوط .

(٥) القطم : الشديد الشهوة إلى الضراب .

(٦) العرم : السيل الذى لا يطاق .

(٧) وسبى ، ساقطة من ب .

(٨) ب فقط : « وسوره » ، تحريف .

(٩) ب فقط : « عليك » .

(١٠) مج : « عدوك بطانته ، وصديقك علاوته » .

(١١) م فقط : « الكليل » وصححت فوقها بالجليل .

(١٢) النقاب ، بالكسر : العالم بالأشياء المبحث عنها الفطن الشديد الدخول فيها . وفى قول أوس بن حجر :

نجيح جواد أخو مأقط نقاب يحدث بالغائب

ب ، ط : « نهايا » ، صوابه ، فى م ، مج .

(١٣) مج : « من أوضح لك عيبه » .

لاستغنيت بالرَّمز عن الإشارة ، وبالإشارة عن الكلام ، وبالسِّرّ عن الجهر ، وبالخفض عن الرفع[١] ، وبالاختصار[٢] عن التطويل ، وبالجُمَل عن التفصيل ، وأرحتنا من طلب التّحصيل[٣] ولكنى أخاف عليك أنَّ قلبك لصديقك غير مستقيم ، وأن ضمير قلبك له غير سليم[٤] ، وإن رفعت القذى عن لحيتِه[٥] ، وسوَّيت عليه ثوبَه فوق مركبه ، وقبّلتَ صبيَّه بحضرته ، ولبست له ثوبَ الاستكانة عند رؤيته ، واغتفرت له الزَّلَّة[٦] ، واستحسنتَ كُلَّ ما يقبحُ من جهته[٧] ، وصدَّقتَه على كذبه ، وأعنتَه على فَجْرته . فما هذا العَنَاءُ[٨] ! كأنَّك لم تقرأ المعوِّذة ، ولم تسمع مخاطبته[٩] نبيَّه صلى الله عليه وسلم ، فى التَّقدِمة إليه بالاستعاذة من شرِّ حاسدٍ إذا حسد .

أتطلب[١٠] وَيحك أثراً بعد عَين ، أَوْ عطراً بعد عَرُوس[١١] ، أو تريد أن تجتنِىَ عنباً من شوك ، أَوْ تلتمسَ حلبَ لبنٍ من حائل[١٢] .

---

(١) ماعدا مج : « وبالجهر عن الرفع » .
(٢) ب ، ط : « والاختصار » .
(٣) ب : « عن طلب التحصيل » .
(٤) ب : « أن قلبك لصديقك غير سليم له » . وفيه نقص وتحريف .
(٥) فى هامش م : « عن عينه » وليست بشىء . وقد تكون : « عن جبته » .
(٦) الزلة ، بفتح الزاى : السقطة والخطيئة . ب فقط : « الذلة » تحريف .وفى مج : « الزلة بعد زلته » .
(٧) مج : « من شيمته » .
(٨) ما عدا مج : « فما هذا الغباء » ، ولا يقولها الجاحظ . وفى مج : « فما هذا العناء ، وما هذا الداء العياء » .
(٩) ب ، : « ولم تسمع على مخاطبته » ، مج : « ولم تسمع مخاطبة الله تعالى لنبيه » .
(١٠) ب ، م : « تطلب » .
(١١) ب فقط : « وعطراً بعد عروس » وكذلك فيما بعده « وتريد أن تجتنى .. » .
(١٢) م : « وتلتمس » . والحائل : الناقة انقطع حملها سنة أو سنوات حتى تحمل . ب ، ط : « من جمل » ، صوابه فى م ، مج .

إنَّك إذن أعيا من باقل ، وأَحمَقُ من الضبع ، وأَغْفَل من هَرِم[١] .

إنْ كنتَ تجهَلُ بعد ماأعلمناك ،وتعوجُّ بعدما قوَّمناك ، وتَبَلَّدُ[٢] بعدما ثقَّفناك[٣] ، وتضلُّ إذْ هديناك ، وتنسَى إذْ ذكَّرناك[٤] ، فأنت كمن أَضلَّه الله على علمٍ فبطَلَت عنده المواعظ ، وعمِيَ عن المنافع[٥] ، فخَتَم[٦] على سمعه وقلبه ،وجَعل على بصره غشاوة . فنَعُوذ[٧] بالله من الخذلان .

إنَّه لا يأْتيك ولكن يُنادِيك[٨] ولا يحاكيك ولكن يوازيك[٩] . أَحسنُ ما تكون عنده حالًا [أَقلَّ ما تكون مالًا ، وأَكثرَ ما تكون عيالًا ، وأعظمَ[١٠]] ما تكون[١١] ضلالًا . وأفرحُ[١٢] ما يكون بك أقربَ ما تكون[١٣] بالمصيبة عهداً ، وأَبعدَ ما تكون من الناس حمداً[١٤] .

فإذا كان الأَمر على هذا فمجاورةُ الموتى ، ومخالطة الزَّمنَى ،

---

(١) الهرم : المسن الذى بلغ أقصى الكبر .
(٢) تبلد ، أى تتبلد ، بحذف إحدى التاءين . م فقط : « وتتبلد » .
(٣) ب فقط : « شففناك » تحريف .
(٤) مج وحواشى م : « لما ذكرناك » .
(٥) ب فقط : « وعز من المنافع » .
(٦) ب فقط : « وختم » .
(٧) ب فقط : « ونعوذ » .
(٨) مج : « ولكنه يناديك » .
(٩) ب : « يوازيك » تحريف ، وفى مج : « ولكنه يوازنك » .
(١٠) التكملة من مج .
(١١) ماعدا مج : « ما يكون » .
(١٢) ب فقط : « وأفرج » بالجيم ، صوابه فى سائر النسخ .
(١٣) ماعدا مج : « ما يكون » ،تحريف .
(١٤) ماعدا مج : « وأبعد ما يكون » بالياء ، مع سقوط الكلمات بعدها .

والاجتنان بالجدران[(١)] ، ومَصْر المُصران[(٢)] ، وأَكل القِرْدان[(٣)] ، أَهون من معاشرته ، والاتِّصال بحبله .

والغِلّ نتيج الحسدِ[(٤)] ، وهو رضيعُه[(٥)] : وغصنٌ من أَغصانه ، وعَون من أَعوانه ، وشُعبةٌ من شُعَبه ، وفِعلٌ من أَفعاله[(٦)] ، كما أَنَّه ليس فرعٌ إِلَّا له أَصل ، ولا مولودٌ إِلَّا له مُولِد ، ولا نباتٌ إِلَّا من أَرض ، ولا رضيعٌ إِلَّا من مُرضع[(٧)] ،وإِن تغيَّر اسمه ؛ فإِنَّه[(٨)] صفة من صفاته ، ونبت من نباته ، ونعتٌ من نعوته .

ورأَيتَ الله جل جلاله ذكَر الجنَّةَ فى كتابه فحلَّاها بأَحسن حِلْية ، وزيَّنها بأَحسنِ زينة ، وجعلَها دارَ أَوليائه ومَحلَّ أَنبيائه ، ففيها ما لا عينٌ رأَت ، ولا أُذنٌ سمعت ، ولا خطر على قلب بشر[(٩)] . فذكر فى كتابه ما منَّ به عليهم من السُّرور والكرامة عندما دَخلوها وبوَّأَها لهم، فقال : ﴿ إِن المتَّقين فى جَنَّاتٍ وعُيون . ادخُلُوها بسَلامٍ آمِنينَ . ونَزَعْنا ما فى صُدورِهِمْ من غِلٍّ إِخواناً على سُرُرٍ مُتَقابلينَ . لا يَمَسُّهُمْ فيها نصَبٌ وما هُمْ مِنْها بمُخْرَجين[(١٠)] ﴾ .

---

(١) ب : « والأكسل بالجدران » م : « والكسل » وصححها أحمد تيمور بلفظ : « والاجتنان » ، موافقاً ما فى ط . والاجتنان : الاستتار . وفى مج : « والاكتنان بالجدران ». وهما بمعنى .

(٢) مصر المصران : استخراج ما فيها . وفى مج : « ومض المصران » .

(٣) جمع قراد بالضم ، وهو دويبة تعض الإبل .

(٤) ب ، مج : « ينتج الحسد » .

(٥) هذا ما فى مج . وفى ب ، ط : « ورضيعه » فقط . وفى م : « ورضيع رضيعه » ـ

(٦) بعده فى مج : « وحدث من أحداثه » .

(٧) مج : « إلا له مرضع » .

(٨) ب فقط : « فهو » .

(٩) ب فقط : « على لب بشر » .

(١٠) الآيات ٤٥ – ٤٨ من سورة الحجر .

فما أنزلهم دارَ كرامته إلّا بعد ما نزع الغِلَّ والحسدَ من قلوبهم[١]، فتهنّوا بالجنّة، وقابلوا إخوانَهم على السُّرر، وتلذّذوا بالنظر فى مقابلة الوجوه لسلامة صدورهم، ونزع الغِلّ من قلوبهم[٢]. ولو لم ينزع ذلك من صدورهم ويخرجْه من قلوبهم، لافتقدوا لَذاذة الجنّة[٣]، وتدابَرُوا وتقاطَعوا وتحاسدوا، وواقعوا الخطيئة[٤]، ولَمسَّهم فيها النَّصَب، وأُعقبوا منها الخروجَ، لأنّه عزّ وجلّ فضَّل بينهم فى المنازل، ورفع درجاتٍ بعضهم فوقَ بعض فى الكرامات[٥]، وسَنَّى العطيات.

فلمّا نزع الغِلَّ والحسَدَ[٦] من قلوبهم ظنَّ أدناهم منزلةَ فيها[٧]، وأَقربُهم بدخول الجنّة عهداً، أنّه أفضلهم منزلةً، وأكرمُهم درجة، وأوسعُهم داراً بسلامة قلبه[٨]، ونزع الغلّ من صدره، فقرَّت عَينُه وطاب أُكله. ولو كان غير ذلك لصاروا إلى التنغيص[٩] فى النظر بالعيون[١٠]، والاهتمام بالقلوب، ولحدثت[١١] العيوبُ والذُّنوب.

وما أَرى السّلامةَ إلّا فى قطع الحاسد، ولا السُّرورَ إلّا فى افتقاد

---

(١) بعده فى مج: «فبافتقاد الغل والحسد تهنوا بالجنة».
(٢) مج: «بسلامة صدورهم، ونزع الحسد والغل من صدورهم».
(٣) م: «لذاذات الجنة».
(٤) مج: «وأوقعوا الخطيئة» م: «وواقعوا الخطية».
(٥) ب فقط: «فى الدرجات».
(٦) ب، مج: «الحسد والغل».
(٧) م فقط: «فيهم».
(٨) م: «لسلامة قلبه».
(٩) ب، ط: «التبغيض».
(١٠) ب فقط: «بالعيوب».
(١١) ب: «ولحدث لهم» م: «ولحدث فيهم» ط: «وحدثت فيهم». وأثبت ما فى مج.

وجهه ، ولا الرّاحةَ إلّا فى صَرْم مداراته(١) . ولا الرِّبح إلّا فى ترك مصافاته(٢) .

فإذا فعلتَ ذلك فكل هنيًّا مريًّا(٣) ، [ونم رَضيًّا(٤)] ، وعش فى السُّرور مَليًّا(٥) .

ونحن نسأل اللهَ الجليل أن يُصفِّىَ كدرَ قلوبنا(٦) ، ويجنِّبنا وإياك [دناءة الأَخلاق ، ويرزقنا وإيّاك(٧)] حُسْن الأُلفة والاتِّفاق(٨) ، ويُحسِنَ(٩) توفيقك وتسديدك . والسَّلام .

---

(١) ب ، م : « مداواته » ، تحريف

(٢) ب ، م ، ط : « مكافأته » ، وأثبت ما فى مج وهامش م .

(٣) ب ، م : « فكل هنيئاً مريئاً » ، وأثبت ما فى ط . وفى مج : « فكل هنيئاً واشرب مريئاً » .

(٤) هذه من مج .

(٥) ملياً ، أى زماناً طويلا . ب فقط : « مريئاً » ، تحريف .

(٦) ما عدا مج وأسفل م : « كدر صدورنا » .

(٧) التكملة من م ، مج .

(٨) ب ، ط ، : « سوء الألفة والاتفاق » .

(٩) ب ، م : « وحسن » ، وأثبت ما فى ط . وفى مج : « أحسن الله » .

٢

من كتاب في

المعلّمين

١ — فصل

من صدر كتابه فى المعلمين[١]

أعانك الله على سَوْرة الغَضَب[٢] ، وعصَمكَ من سَرَف الهوى . وصرف ما أعاركَ من القوّة إلى حبِّ الإنصاف ، ورجَّح[٣] فى قلبك إيثارَ الأَناة . فقد استعملتَ فى المعلِّمين نوك السُّفهاء[٤] ، وخَطَل الجُهَلاء ، ومُفاحَشَة الأَبذِياء ، ومُجانبة سُبل الحكماء ، وتهكُّم المقتدرين[٥] ، وأَمْنَ المغْتَرِّين . ومن تعرّضَ للعداوة وجدها حاضرة ، ولا حاجةَ بك إلى تكلُّف ما كُفِيت[٦] .

٢ — فصل منه

ولولا الكتابُ لاختلَّت أَخبار الماضين ، وانقطعت آثار الغائبين . وإنَّما اللسانُ للشاهد لك[٧] ، والقلمُ للغائبِ عنك ، وللماضى قبلَك والغابرِ بعدك[٨] . فصار نفعُه أَعمّ ، والدَّواوينُ إليه أَفْقر .

---

(١) لى بحث عنوانه (الجاحظ والمعلمون) فى مجلة الكتاب ، عدد أغسطس ١٩٤٦ .

(٢) سار يسور سوراً : ثار . ب : « صورة » تحريف . م : « ثورة » ، والوجه ما أثبت من ط . وأنشد فى اللسان (عفا ٣٠٦) :

خذى العفو منى تستديمى مودتى ولا تنطقى فى سورتى حين أغضب

وانظر لنسبة هذا البيت عيون الأخبار ٣ : ١١ / ٤ : ٧٧

(٣) ب : « ورهج » ، والصواب من ط ، م .

(٤) النوك ، بالضم والفتح : الحمق . ب ، م : « نوق » ، صوابه فى ط .

(٥) التهكم : التكبر ، والتبختر طرباً .

(٦) ب فقط : « ما كفيت منه » .

(٧) المراد بالشاهد : الحاضر .

(٨) المراد بالغابر هنا الباقى ، والغابر من الأضداد ، يقال للماضى والباقى أيضاً . ب ، م : « والعابر » بالمهملة ، صوابه فى ط .

والمِلكُ المُقيمُ بالواسطة(١) لا يدرك مصالحَ أطرافه وسدَّ ثغوره ، وتقويمَ سُكَّان مملكته ، إلَّا بالكتاب .

ولولا الكتاب ما تمَّ تدبير(٢) ، ولا استقامت الأُمور . [وقد(٣)] رأينا عمودَ صلاحِ الدِّين والدُّنيا إنَّما يعتدل فى نِصابه ، ويقوم على أَساسه بالكتاب والحساب(٤) .

وليس علينا لأَحدٍ فى ذلك من المنَّة بعد الله الذى اخترع ذلك لنا ودلَّنا عليه ، وأخذ بنواصينا إليه ، ما للمعلمين الذين سخَّرهم لنا ، ووصل حاجتَهم إلى ما فى أَيدينا . وهؤلاءِ هم الذين هجوتَهم وشكوتَهم وحاججتَهم وفَحَشت عليهم ، وأَلزمت الأَكابرَ ذنبَ الأَصاغر ، وحكمت على المجتهدين بتفريط المقصِّرين ، ورثَيْتَ لآباء الصِّبيان مِنْ إبطاءِ المعلِّمين عن تحذيقهم(٥) ، ولم تَرْثِ للمعلِّمين مِن إبطاء الصِّبيان عمّا يراد بهم ، وبُعدِهم عن صرف القلوب لما يحفظونه ويدرسُونه . والمعلِّمون أَشقى بالصِّبيان من رُعاة الضَّأْن ورُوَّاض المِهارة(٦) .

ولو نظرتَ من جهة النظر علمتَ أَنَّ النعمةَ فيهم عظيمةٌ سابغة ، والشكرَ عليها لازم واجب .

---

(١) أى حاضرة الملك ، وهى فى وسط البلاد غالباً .

(٢) م : « لم يتم » ط : « لما تم » .

(٣) التكلة من م ، ط .

(٤) ب ، ط : « فى الكتاب والحساب » ، وأثبت ما فى م .

(٥) ط فقط : « عن إبطاء » تحريف . والتحذيق : إكساب المهارة والإتقان فى العلم والعمل وفى جميع النسخ : « تحديقهم » بالدال المهملة ، والوجه ما أثبت .

(٦) المهار والمهارة ، بكسر الميم فيهما : جمع مهر ، بالضم ، وهو ولد الرمكة والفرس .

٣ - فصـــل منه[١]

وأجمعوا على أنَّهم لم يَجدوا كلمةً أقلَّ حرفاً ولا أكثر رَيْعاً، ولا أعمّ نفعاً، ولا أحثَّ على بيان[٢]، ولا أدعى إلى تبيُّن، ولا أهجى لمن ترك التفهُّمَ وقصَّر في الإفهام، من قول أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضوان الله عليه: «قِيمة كلِّ امرئٍ ما يحسن».

وقد أحسَنَ من قال: «مُذاكرة الرِّجالَ تلقيحٌ لألبابها».

وكرهت الحكماءُ الرؤساءُ، أصحابُ الاستنباط والتفكير[٣]، جودةَ الحفظ[٤]، لمكان الاتِّكال عليه[٥]، وإغفال العقل من التمييز، حتَّى قالوا: «الحِفْظ عِذْقُ الذِّهن». ولأنَّ مستعمِل الحفظ لا يكون إلَّا مقلِّدا، والاستنباط هو الذى يفضى بصاحبه إلى برد اليقين، وعزّ الثقة.

والقضيَّة الصحيحة والحُكم المحمود: أنَّه متى أدام الحفظَ أضرَّ ذلك بالاستنباط، ومتى أدام الاستنباط أضرَّ ذلك بالحِفْظ، وإن كان الحفظُ[٦] أشرفَ منزلة منه.

ومتى أهملَ النظرَ لم تسرع إليه المعانى[٧]، ومتى أهمل الحفظَ[٨]

---

(١) منه، هنا ساقطة من ب.
(٢) الحث: الحض. ب فقط: «ولا أحس»، تحريف.
(٣) م: «والتفكر».
(٤) الكلام بعده إلى كلمة «الحفظ» التالية ساقط من م.
(٥) ب: «لمكان اتكال عليه».
(٦) ب، م: «التحفظ».
(٧) ب: «لم يسرع إليه المعانى».
(٨) ب فقط: «التحفظ».

لم تَعلَقْ بقلبه[١] ، وقلَّ مُكثُها فى صدره .

وطبيعة الحفظ غير طبيعة الاستنباط . والذى[٢] يُعالَجانِ به ويستعينان متَّفَقٌ عليه[٣] ، [ألَا[٤]] وهو فراغُ القلب للشىء ، والشَّهوةُ له ؛ وبهما يكون التّام ، وتظهر الفضيلة[٥] .

ولصاحب الحفظ[٦] سببٌ آخر يتَّفقان عليه ، وهو الموضعُ والوقت .

فأَمَّا الموضع فأَيُّهما يختاران[٧] إذا أَرادا[٨] ذلك الفَوْق[٩] دون السُّفل[١٠] .

وأمَّا السَّاعات فالأَسحار دون سائر الأَوقات ، لأَنَّ ذلك الوقتَ قبلَ وقت الاشتغال ، وبِعَقِبِ تَمامِ الراحة والجَمام[١١] ، لأَنَّ للجَمام[١٢] مقداراً هو المصلحة ، كما أَنَّ للكدِّ مقداراً هو المصلحة .

٤ — فصــل منه

ويُستدَلُّ أَيضاً بوصايا الملوك للمؤدِّبين فى أَبنائهم ، وفى تقويم

---

(١) فى جميع النسخ : « لم يعلق بقلبه » ، والضمير راجع إلى المعانى .
(٢) م ، ب « واللذين » ط : « واللذان » ، والوجه ، ما أثبت .
(٣) ب : « مشفق عليه متفق عليه » .
(٤) التكملة من ط .
(٥) ب فقط : « ويظهر الفضيلة » .
(٦) ب فقط : « التحفظ » .
(٧) م ، ط : « يختار » .
(٨) م : « أراد »
(٩) ب : « الغرف » م ، ط : « الفرق » ، وأرى الوجه فيما أثبت .
(١٠) ط فقط : « الشغل » . والسفل ، بضم السين وكسرها : مقابل الفوق .
(١١) الجمام كسحاب : الراحة . م ، ط : « والحمام » بالحاء المهملة ، تحريف . وفى جميع النسخ : « وتعقب تمام » ، وأثبت ما رأيته الصواب ، كما يصح أن تكون : « ويعقب » .
(١٢) م ، ط : « للحمام » ، تحريف

أحداثهم ، على أنّهم قد[١] قلّدوهم أمورهم وضميرهم ببلوغ التّمام[٢] فى تأديبهم . وما قلّدوهم ذلك إلّا بعد أن ارتفع إليهم فى الحنوّ حالُهُم[٣] فى الأدب ، وبعد أن كشفهم الامتحان وقاموا على الخلاص .

وأنت - حفظك الله - لو استقصيت عددَ النحويّين والعروضِيّين والفَرضيّين ، والحُسَّاب ، والخطَّاطين ، لوجدت أكثرَهم مُؤدِّبَ كبارٍ ومعلِّمَ صغار ، فكم تَظنُّ[٤] أنّا وجدنا منهم ، من الرُّواة والقضاة والحكماء ، والوُلاة من المناكير والدُّهاة ، ومن الحُماة والكُفاة ، ومن القادة والذّادة[٥] ، ومن الرُّؤساء والسّادة ، ومن كبار الكتاب والشعراء ، والوزراء والأُدباء ، ومن أصحاب الرسائل والخطابة ، والمذكورين بجميع أصناف البلاغة ، ومن الفُرسان وأصحابِ الطعان ، ومن نديمٍ كريم ، وعالمٍ حكيم ، ومن مليحٍ ظريف ، ومن شابٍّ عفيف .

ولا تعجَلْ بالقضيَّة حتى تستوفىَ آخر الكتاب[٦] ، وتبلغَ أقصى العذر ، فإنك إنْ كنت تعمّدت تذمَّمت[٧] ، وإن كنت جهلت تعلَّمت ، وما أظن من أحسن بك الظَّنَّ إلّا وقد خالف الحزم .

٥ — فصــل منه

قال المعلِّم : وجدْنا لكلٍّ[٨] صنفٍ من جميعِ ما بالناس إلى تعلُّمه

---

(١) قد ، ساقطة من ب .

(٢) فى جميع النسخ : « بلوغ » .

(٣) ب : « حالتهم » .

(٤) م : « فلم يظن » تحريف . ب : « فكم نظن » ، وأثبت ما فى ط .

(٥) جمع ذائد ، وهو المدافع والرجل الحامى الحقيقة . م : « والزادة » تحريف .

(٦) م : « حتى تستو آخر الكتاب » ، تحريف .

(٧) تذمم : استنكف . يقال : لو لم أترك الكذب تأثماً لتركته تذمماً . ب : « تزممت » صوابه بالذال كما فى ط ، م .

(٨) ب ، ط : « كل » ، والوجه ما أثبت من م .

حاجة ، معلمين[١] ، كمعلِّمِى[٢] الكِتابِ والحساب ، والفَرائض والقرآن ، والنحو والعروض والأَشعار ، والأَخبار والآثار ، ووجدنا الأَوائل كانوا يتَّخذون لأَبنائهم من يعلِّمهم الكتابة[٣] والحساب . ثم لَعِب الصَّوالجة ، والرَّمى فى التَّنْبُوك[٤] ، والمجثَّمة[٥] ، والطَّير الخاطف، ورَمْى البنجكاز[٦] . وقبل ذلك الدَّبُّوق[٧] والنَّفخ فى السَّبَطانة[٨] . وبعد ذلك الفُروسيّة ، واللَّعب بالرِّماح والسُّيوف ، والمشاولة[٩] والمنازلة والمطاردة ، ثم النُّجوم واللُّحون ، والطبّ والهندسة ، وتعلُّم النَّرْد والشِّطْرَنج ، وضرب الدُّفوف وضرب الأَوتار ، والوقع والنَّفْخ فى أَصناف المزامير.

ويأْمرون بتعليم أَبناء الرعيّة الفِلاحةَ والنِّجارة[١٠] ، والبُنيانَ والصِّياغة والخياطة ، والسَّرد والصَّبْغ[١١] ، وأَنواع الحياكة . نَعَمْ حتَّى علَّموا البلابل وأَصناف الطَّير الأَلحانَ .

---

(١) ط : « المعلمين » .

(٢) ب فقط : « كمعلم » .

(٣) الكتاب : الكتابة . م فقط : « الكتابة »

(٤) هى كذلك فى الفارسية. انظر استينجاس ٣٢٧ وقد فسرها بالقوس الخفيفة : **Weak bow** ولعل مايقابلها بالعربية « المقتدرة » . وفى المخصص ٦ : ٣٩ عن ثعلب : قوس مقتدرة : خفيفة متوسطة . ب : « التبنوك » صوابه فى م ، ط .

(٥) المجثمة : كل حيوان ينصب ويرمى ويقتل . وفى الحديث أنه نهى عن المصبورة والمجثمة

(٦) م : البنجكار » بالراء المهملة ، تحريف . وهى لفظة فارسية مكونة من كلمتين بنج بمعنى خمسة . وكاز بمعنى الغصن ولعلها خمس خشبات تنصب هدفاً .

(٧) فى القاموس والتاج أن الدبوق كتنور : لعبة يلعب بها الصبيان . ب : « الدبوب » وأثبت ما فى ط ، م .

(٨) السبطانة محركة ، كما فى القاموس : قناة جوفاء يرمى بها الطير . وفى اللسان : قناة جوفاء مضروبة بالعقب يرمى بها الطير ، وقيل يرمى فيها بسهام صغار ينفخ فيها نفخاً ، فلا تكاد تخطىء . وفى جميع الأصول : « الشيطار » ، صوابه ما أثبت .

(٩) يراد به حمل الأثقال ، من قولهم شاول الحجر : رفعه ، فانشال . والمشوال : حجر يشال . يقال شال به وأشاله وشاوله .

(١٠) ب ، ط : « والتجارة » ، والوجه ما أثبت من م .

(١١) السرد : الخرز فى الأديم ، وهو أيضاً نسج الدروع . ب : « والصبع » بالعين المهملة صوابه فى ط ، م .

وناساً(١) يعلِّمون القرود والدِّبَبة والكلابَ والظِّباءَ المكِّيَّة(٢) والبَبَّغاءَ ، والسَّقر(٣) وغراب البَيْن ، ويعلِّمون الإبلَ ، والخَيْلَ ، والبغالَ ، والحميرَ ، والفيلةَ ، أصنافَ المشى ، وأجناس الحُضْر(٤) ، ويعلِّمون الشَّواهين والصُّقور والبوازى(٥) ، والفهود ، والكلاب ، وعَنَاقَ الأَرض ، الصَّيد .

ويعلِّمون الدَّوابَّ الطَّحنَ ، والبخاتىَّ الجمز(٦) حتَّى يَرُوضوا الهِملاج والمِعناق(٧) ، بالتخليع وغير التخليع(٨) ، وبالموضوع والأَوسط والمرفوع .

ووجدنا للأَشياء كلِّها معلمين .

وإنَّما قيل للإِنسان العالَم الصَّغير ، سليل العالم الكبير(٩) ، لأَنَّ فى الإِنسان من جميع طبائع(١٠) الحيوان أشكالًا ، من خَتْل الذئب(١١)

(١) كذا بالنصب فى جميع النسخ ، بإضمار « وجدنا » . وانظر ما سبق فى أول هذا الفصل .

(٢) الذى ذكره الجاحظ فى الحيوان هو الغنم المكية. انظر ٢ : ١٧٩/٦ : ٣١٦ : ٧ : ١٠٤ ومثلها فى ذلك الغنم الحبشية . انظر الحيوان ٦ : ٣١٦ عند تفسير الجاحظ لقصيدة بشر بن المعتمر :

والدب والقرد إذا علما والفيل والكلبة واليعر

(٣) السقر : الصقر . وانظر لتعليمه ما جاء فى الحيوان ٤ : ٤٧ . ب : « والسقل » م ، ط : « والسعل » ، صوابهما ما أثبت .

(٤) ط : « الخطو » .

(٥) البوازى : جمع البازى . وفى جميع النسخ : « البوازين ». وانظر لتعليم البوازى ماجاء فى الحيوان ٤ : ٤٧ .

(٦) الجمز : الوثب . م ، ط : « الممز » تحريف .

(٧) الهملجة : حسن سير الدابة فى سرعة . والمعناق : السريع . أعنقت الدابة فهى معنق وعنيق ومعناق . فى الأصول : « والعناق » .

(٨) فى القاموس : الخلع الأليتين ، كمعظم : المتفككهما ، والتخليع مشيه ، أى مشى المخلع .

(٩) ب فقط : « وسليل العالم الكبير » . وما أثبت من م ، ط يطابق ما فى الحيوان ١ : ٢١٢.

(١٠) ب ، م : « طبايع » بالتسهيل .

(١١) الختل : الخداع . وختل الذئب الصيد : تخفى له. م ، ب :« حيل الذئب » . وفى الحيوان : « غدر الذئب » .

ورَوَغان الثعلب (١) ، ووثوب الأَسد ، وحِقْد البعير ، وهِداية القَطاة . وهذا كثير ، وهذا بابَةٌ (٢) .

ولأَنَّه يحكى كلَّ صوتٍ بفيه ، ويصوِّر كل صورةٍ بيده . ثم فضَّله الله تعالى بالمنطِق والرَّوِيّة (٣) وإمكان التصرف .

وعلى أَنا لا نعلم أَنَّ لأَحدٍ من جميع أَصناف المعلِّمين لجميع هذه الأَصناف ـ كفضيلة المعلِّمِ من الناس الأَحداثَ المنطقَ المنثور (٤) ، ككلام الاحتجاج والصِّفات ، والمناقلات من المسائل والجوابات فى جميع العلامات ، بين الموزون من القصائد (٥) والأَرجاز ، ومن المزدَوِج والأَسجاع (٦) ، مع الكِتابِ والحساب ، وما شاكل ذلك ووافَقَهُ واتَّصل به ، وذَهَب مذهبَه .

وقالوا : إنَّما اشتُقَّ اسم المعلِّم من العِلْم ، واسم المؤدِّب من الأَدب . وقد علمنا أَنَّ العلم هو الأَصل ، والأَدب هو الفرع .

والأَدب إمَّا خُلُق وإمَّا رواية ، وقد أَطلقوا له اسم المؤدِّب على العموم .

---

(١) ب : « وزوغان » تحريف ، وإنما يقال راغ الثعلب روغاناً . وفى أمثالهم : « أروغ من ثعلب » ، و « أروغ من ثعالة » . وانظر الدرة الفاخرة ٢٠٩ وجمهرة العسكرى ١ : ٥٠٠ والمستقصى ١ : ١٤٥ والميدانى ١ : ٢٩٠ . والروغان : المخادعة .

(٢) البابة : الوجه . والبابات : الوجوه ، وفى الأصول : « وهذا بابه » .

(٣) الروية : التفكر فى الأمر ، والتمهل فى الفكر . وفى جميع النسخ : « الرؤية » والوجه ما أثبت . وإلا فالرؤية مشتركة بين جميع ضروب الحيوان .

(٤) م ، ب : « الأحداث هى من المنطق المنثور » ، وعبارة « هى من » مقحمة لم ترد فى ط .

(٥) ب : « عن القصائد » ، صوابه فى م ، ط .

(٦) فى جميع النسخ : « من المزدوج » بدون واو . والمزدوج ضرب غير الرجز ، مثل له الجاحظ فى البيان ٢ : ١١٦ — ١١٧ . كما أورد نماذج للأسجاع فى ١ : ٢٨٤ — ٢٩٠ ، وفى السجع يغلب التزام التقفية . وفى الازدواج مراعاة التزاوج فى المعانى ، وقد يصحب بالتزام القافية . وفى جميع النسخ : « والأسماع » والوجه ما أثبت .

والعلم أَصلٌ لكلِّ خير ، وبه ينفصل الكرم من اللُّؤْم ، والحلال من الحرام . والفضلُ من الموازنةِ بين أَفضل الخيرين ، والمقابلة بين أَنقص الشرين .

فلم يَعْرِضوا لأَحدٍ من هذه الأَصناف التى[1] اتَّخذ النَّاس لها المعلِّمين من جميع أَنواع الحق والباطل ، والسَّرف والاقتصاد ، والجِدِّ والهزل ، إِلَّا هؤلاءِ الذين لا يعلِّمون إِلَّا الكتابَ[2] والحسابَ ، والشِّعر ، والنحو ، والفرائض ، والعَروض . وما بالسماءِ[3] من نجوم الاهتداءِ والأَنواءِ والسُّعود ، وأَسماءِ الأَيَّام والشُّهور ، والمناقلات[4] .

ويمنعهم العَرَامة[5] ، ويأْخذهم بالصَّلاة فى الجماعة ، ويُدَرِّسُهُمُ القرآنَ[6] ، ويهدِّنُ[7] أَلسنتهم برواية القصيد والأَرجاز ، ويُعاقب على التَّهاوُن ، ويضرب على الفِرار[8] ، ويأْخذُهم بالمناقلة[9] ، والمناقلة [من[10]] أَسباب المنافسة .

لحقير[11] بخلاف هذه السِّيرة ، وبضدِّ هذه المعاملة .

---

(١) ب ، م : « الذى » ، صوابه فى ط .

(٢) الكتاب : الكتابة . ط فقط : « الكتابة » .

(٣) ب : « وما السماء » ، صوابه فى م ، ط .

(٤) فى القاموس : «والمناقلة فى المنطق : أن تحدثه ويحدثك» .وفى أساس البلاغة : « وناقله الحديث ، إذا حدثته وحدثك . وناقل الشاعر الشاعر : ناقضه » .

(٥) العرامة ، بالمهملة : الشراسة والأذى . م : « الغرامة » . تحريف .

(٦) يقال درسته الكتاب درساً ، وأدرسته إدراساً ،ودرسته إياه تدريساً . وأصل الدرس التذليل ، يقال درست الكتاب أدرسه درساً ودراسة ، أى ذللته بكثرة القراءة حتىخف حفظه .

(٧) يقال هدنوه بالقول حتى رضى وسكن . وتهدين المرأة ولدها : تسكينها له بكلام إذا أرادت إنامته . ط فقط : « ويهذبون ألسنتهم » .

(٨) ب فقط : « على الضرار » .

(٩) انظر ما سبق فىالحاشية الرابعة .

(١٠) تكلة يلتئم بها الكلام .

(١١) يبدو أن الكلام بترا . كما يبدو أن هذه الكلمة محرفة عن «لحقيق » . وهذا فىكله نطاق الدفاع عن المعلم .

٦ — فصـــل منه

وقد ذهب قومٌ إلى أَنَّ الأَدبَ حُرْف(١) ، وطلبَه شُؤم . وأَنشد قول الشاعر :

ما ازددت فى أَدبى حَرفاً أُسرُّ به إلّا تزيَّدتُ حُرْفاً تحته شُوم(٢)
إن المقدَّم فى حِذقٍ بصنعتــه أَنَّى توجَّهَ فيها فهو محـروم(٣)

ولم نر شاعراً نال بشعره الرَّغائب ، ولا أَديباً بلغ بأَدبه المراتب ، ذكَرَ يُمْن الأَدب ، ولا بركةَ قولِ الشعر(٤) . فإذا حُرم الواحدُ منهم ، والرجل الشاذُّ ذَكَرَ حُرْف الأَدب(٥) وشؤم الشعر . وإن كان عددُ من نال الرغائبَ أَكثرَ من عدد من أخفق .

ومهما عَيَّرنا مَنْ كان فى هذه الصِّفة(٦) فإنا غير مُعايرين(٧) لأَبى يعقوب الخُرَيمى(٨) ؛ لأَنَّه نال بالشِّعر وأَدرك بالأَدب .

---

(١) الحرف ، بالضم : الحرمان ، من قولهم : رجل محارف ، أى منقوص الحظ لا ينمو له . ومثله « الحرفة » بالكسر : اسم كذلك ، يقال : أدركته حرفة الأدب . ط فقط : « خرق » ، وهو الحمق .

(٢) فى البيت مجانسة بين الحرف والحرف بالضم .

(٣) ب فقط : « فى حزق بصنعته » ، تحريف .

(٤) الكلام بعده إلى كلمة « الشعر » التالية ساقط من م .

(٥) فى الأصول : « فإنما حرم » . والوجه ما أثبت. وفى ط فقط : « خرق الأدب » .

(٦) ط : « الصنعة » .والتعبير هنا بمعنى الموازنة.

(٧) المعايرة ، من قولهم : عاير بينهما : قدرهما ونظر ما بينهما . وفى الأصول : « غير عايرين » .

(٨) الخريمى بالراء المهملة : نسبة إلى خريم بن عامر المرى،وكان لأبى يعقوب اتصال به وبآله فنسب إليه . وفى جميع الأصول: « الخزيمى » ، تحريف . واسمه إسحاق بن حسان بن قوهى، وقد ذكره البغدادى فى التاريخ ٣٣٦٩ وقال: « أصله من خراسان من بلاد السغد » ، وقال : « وله مدائح فى محمد بن منصور بن زياد،ويحيى بن خالد وغيرهما . وقال أبو حاتم السجستانى : الخريمى أشعر المولدين ، وروى عنه شيئاً يسيراً من شعره أبو عثمان الجاحظ ، وأحمد بن عبيد ابن ناصح » وانظر لخريم الناعم قاموس الزركلى وأمثال الميدانى ٢ : ٢٨١ . وكان إسحاق هذا من العميان روى له الجاحظ شعراً يذكرفيه عماه فى الحيوان ٣ : ١١٣ . وانظر نكت الهميان ٧١ وعيون الأخبار ٤ : ٥٧ .

وليس الذى يحمل(١) أكثر الناس علىهذا القول إلّا وِجدانُ المعانى والألفاظ ، فإنهم يكرهون أن يُضيعوا باباً من إظهار الظَّرف وفَضْـــل اللسان(٢) وهم عليه قادرون .

٧ — فصـــل

وقد قالوا : الصبىُّ عن الصبى أَفهَمُ ، وبهأشكل . وكذلك الغافل والغافل(٣) ، والأَحمق والأَحمق ، والغبىُّ والغبىّ ، والمرأةُ والمرأة . قال الله تبارك وتعالى : ﴿ ولو جَعَلْنَاهُ مَلَكاً لجعلناهُ رَجُلًا(٤) ﴾ . لأَنَّ الناس عن النَّاس أَفهم ، وإليهم(٥) أَسكن . فممّا أعان الله تعالى به الصِّبيان ، أنْ قرَّب طبائعَهم ومقاديرَ عقولهم من مقادير عقول المعلِّمين(٦) .

وسمع الحجَّاجُ — وهو يسيرُ — كلامَ امرأةٍ من دار قومٍ ، فيه تخليطٌ وهذَيان ، فقال : مجنونة ، أَو ترقِّص صبياً !

أَلا ترى أنَّ أَبلغ الناس لساناً ، وأَجودَهم بياناً وأَدقَّهم فطنةً ، وأَبعدَهم رويّةً(٧) ، لو ناطق طفلًا أَو ناغَى صبيًّا ، لتوخَّى حكايةَ مقادير عقول الصِّبيان ، والشَّبَهَ لمخارج كلامهم ، وكان لا يجد بدًّا من أن ينصرف(٨) عن كلِّ ما فضَّله الله به بالمعرفة الشريفة ، والألفاظ الكريمة . وكذلك تكون المشاكلة(٩) بين المتَّفقِينَ(١٠) فى الصناعات .

---

(١) م : « وأليس »، تحريف . ب ، م : « يجعل » ، صوابه فى ط .
(٢) م ، ط : « الشأن » .
(٣) م : « العاقل والعاقل »
(٤) الآية ٩ من سورة الأنعام .
(٥) ب ، م : « وإليه » تحريف .
(٦) ب ، ط : « العالمين » .
(٧) ب ، م : « رؤية » ، صوابه فى ط . وانظر ما سبق فى حواشى ص ٣٤ .
(٨) ب ، م : « يصرف » ، وأثبت ما فى ط .
(٩) ب ، م : « يكون مشاكلة » ، صوابه فى ط .
(١٠) م : « المتقين » ، صوابه فى ب ، ط .

٨ — فصــل

فى رياضة الصبى

وأمَّا النَّحو فلا تشغل قلبَه[١] منه إلَّا بقدر ما يؤدِّيه إلى السلامة من فاحشِ اللَّحن ، ومن مقدارِ جهل العوامّ فى كتابٍ إن كتبه[٢] ، وشعرٍ إن أنشده ، وشىءٍ إن وصفَه . وما زاد على ذلك فهو مَشغلةٌ عمَّا هو أولى به ، ومُذهلٌ عمَّا هو أَردُّ عليه[٣] منه من رواية المثل والشاهد[٤] ، والخَبرِ الصادق ، والتعبيرِ البارع[٥] .

وإنَّما يرغب فى بلوغ غايته ومجاوزة الاقتصار فيه ، مَنْ[٦] لا يحتاج إلى تعرُّف جسيمات الأُمور ، والاستنباط لغَوامض التدبُّر ، ولمصالح العباد والبلاد ، والعلمِ بالأَركان[٧] والقُطبِ الذى تدور عليه الرَّحى ؛ ومَن ليس له حظٌّ غيره ، ولا معاشَ سواه.

وعَويص النحو[٨] لا يجرِى فى المعاملات ولا يُضطَرُّ إليه شىء .

---

(١) م ، ب : « قلبهم » ، صوابه فى ط .

(٢) ط : « فى كتاب كتبه » .

(٣) أرد عليه : أنفع له . وهذا الأمر لا رادة له ، أى لا فائدة له .

(٤) هذا ما فى ط . وفى م ، ب : « المثل الشاهد » .

(٥) ب ، م : « والفقير البارع » ، صوابه فى ط .

(٦) م : « عمن » ، تحريف .

(٧) ب ، ط : « والعلم وبالأركان » ، صوابه فى م .

(٨) ب ، م : « وغويص النحو » ، صوابه فى ط .

فمن الرأى أن يُعتمد به(١) فى حساب العَقْد(٢) دون حساب الهِنْد ، ودون الهندسة(٣) وعَويص(٤) ما يدخل فى المساحة . وعليك فى ذلك بما يحتاج إليه كُفاة السُّلطان وكُتَّاب الدواوين .

وأنا أقول : إن البلوغ فى معرفة الحساب الذى يدور عليه العمل ، والتَّرقِّى فيه(٥) والسبب إليه ، أردُّ عليه من البلوغ فى صناعة المحرِّرين ورءُوس الخطَّاطين ؛ لأنَّ فى أدنى طبقات الخطِّ مع صحَّة الهجاء بلاغاً . وليس كذلك حالُ الحساب .

ثمّ خذه(٦) بتعريف حجج الكتَّاب وتخلُّصهم باللفظ السَّهل القريب المأْخذ إلى المعنى الغامض(٧) . وأَذِقْهُ حلاوة الاختصار ، وراحةَ الكفاية ، وحذِّره التكلُّف واستكراهَ العبارة(٨) ؛ فإنَّ أكرم ذلك كلِّه ما كان إفهاماً للسامع ، ولا يُحوِج إلى التأْويل والتعقُّب ، ويكون مقصوراً على معناه لا مقصِّراً عنه ، ولا فاضلًا عليه .

فاختر من المعانى ما لم يكن مستوراً باللفظ المتَعقِّد(٩) ، مُغْرِقاً فى الإكثار والتكلُّف(١٠) . فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع

---

(١) ب : « أن يصمد به » ، وأثبت ما فى م ، ط .

(٢) حساب العقد : ضرب منه يكون بأصابع اليدين . وفى الحديث أنه « عقد عقد تسعين » وقد ألفت فيه كتب وأراجيز . انظر الخزانة ٣ : ١٤٧ بولاق والحيوان ١ : ٣٣ والبيان ١ : ٧٦ وفتح البارى ١٣ : ٩٥ — ٩٦ والألف المختارة من صحيح البخارى ٨٩٦، ٩٢٥.

(٣) م : « ودون حساب الهندسة » .

(٤) ب ، م : « وغويص » ، تحريف .

(٥) ب ، م : « والتوق » ط : « والتوفى » ، والوجه ما أثبت .

(٦) ط فقط : « ثم خذ » .

(٧) ب : « المغامض » ، صوابه فى م ، ط .

(٨) ب : « واستكرائه العبارة » ، صوابه فى م ، ط .

(٩) ب ، ط : « المنعقد » ، وأثبت ما فى م .

(١٠) فى جميع الأصول : « مفرقاً » بالفاء ، والوجه ما أثبت .

بَرَاعة اللّفظ وغموضِه على السامع بعد أن يتّسق له القول[١] ، وما زال المعنى محجوباً لم تكشف عنه العبارة . فالمعنى بعدُ مقيمٌ على استخفائه وصارت العبارة لغواً وظرفاً خالياً .

وشرُّ البلغاءِ من هيَّأَ رسم المعنى قبل أن يهيّئ[٢] المعنى ، عشقاً لذلك اللفظ ، وشَغَفاً بذلك الاسم ، حتّى صار يجُرُّ إليه المعنى جَرًّا ، ويُلزِقه به إلزاقاً . حتّى كأَنَّ الله تعالى[٣] لم يخلق لذلك المعنى اسمًا غيره ، ومنعَه الإفصاحَ عنه إلّا به .

والآفة الكبرى أن يكون ردئ الطّبع[٤] بطئ اللفظ ، كليلَ الحدّ ، شديدَ العُجْب ، ويكونَ مع ذلك حريصاً على أن يُعدَّ فى البلغاء ، شديدَ الكَلَف بانتحال اسم الأُدباء[٥] . فإذا كان كذلك خفِيَ عليه فرقُ ما بين إجابة الأَلفاظ واستكراهه لها .

وبالجملة[٦] إنَّ لكل معنًى شريفٍ أو وضيعٍ ، هزلٍ أو جدٍّ[٧] ، وَحزم أَو إضاعة[٨] ، ضرباً[٩] من اللفظ هو حقُّه وحظُّه ، ونصيبُه الذى لا ينبغى أَن يجاوزه أَو يقصِّر دونه[١٠] .

ومن قرأَ كتبَ البلغاءِ ، وتصفَّح دواوين الحكماءِ ، ليستفيد

---

(١) م : « يتسوله القول » ط : « يتبين له القول » . وأثبت ما فى ب .

(٢) ب فقط : « يهيا » .

(٣) ب ، م : « كأن الله مراده تعالى » !

(٤) ب : « ردى الطبع » بالتسهيل .

(٥) ط فقط : « الأدب » .

(٦) ب : « والجملة »

(٧) ط : « هزلا أو جداً » .

(٨) ب ، م : « أو حزم » ، ط : « وحزم أوضاعه » ، والوجه ما أثبت .

(٩) ط : « ضرب » ، تحريف .

(١٠) ب : « ويقصر دونه » .

المعانىَ ، فهو على سبيلِ صَواب . ومَن نظر فيها ليستفيد الأَلفاظ فهو على سبيل الخطأ . والخُسرانُ ها هنا فى وزن الرِّبح هناك ؛ لأَنَّ من كانت غايته انتزاعَ الأَلفاظ[١] حملَهُ الحرصُ عليها ، والاستهتارُ بها إلى أَنْ يستعملَها قبلَ وقتِها ، ويَضعَها فى غير مكانها . ولذلك قال بعض الشُّعراء[٢] لصاحبه : أَنا أَشعر منك ! قال صاحبه : ولِمَ ذاك ؟ قال : لأَنِّى أَقول البيت وأَخاه ، وأَنت تقول البيتَ وابن عمِّه .

وإنَّما هى رياضة وسياسة[٣] ، والرفيق : مصلحٌ وآخَرُ مفسد[٤] .

ولا بدَّ من هِدانٍ وطبيعةٍ مناسبة[٥] .

وسماع الأَلفاظ ضارٌّ ونافع[٦] .

فالوجه النافع : أَن يَدور فى مسامعه ، ويغبَّ فى قلبه[٧] ، ويختمر[٨] فى صدره ، فإذا طال مكثُها تناكحت ثم تلاقحت فكانت[٩] نتيجتها أَكرمَ نتيجة ، وثمرتُها أَطيبَ ثَمَرة ؛ لأَنَّها حينئذ تخرج غير مُستَرَقةٍ ولا مختلَسة[١٠] ولا مغتصَبة ، ولا دالَّةٍ على فَقر ؛ إذْ لم يكن القصد إلى شىءٍ بعينه ، والاعتمادِ عليه دونَ غيره . وبَيْنَ الشىء إذا عشَّش فى

---

(١) ب : « أنواع » م : « انتواع » ، صوابهما فى ط .
(٢) هو عمر بن لجأ ، كما فى مقدمة الشعر والشعراء ٩٠ .
(٣) م ، ط : « وسياحة » .
(٤) ط ، ب : « والآخر مفسد » .
(٥) الهدان : المهادنة . م . ط : « هذان » مع سقوط واو « وطبيعة » من ط .
(٦) ب ، م : « ضارة ونافعة ».
(٧) يغب : يمكث ، ومنه قولهم : « رويد الشعر يغب » ، أى دعه يمكث يوماً أو يومين . م ، ط : « ويغيب فى قلبه » .
(٨) هذا الصواب من ب : وفى م ، ط : « ويخيم » .
(٩) ط : « وكانت » .
(١٠) هذا الصواب من م ، ط . وفى ب : « ولا محترسه » .

الصَّدر ثم باض ، ثم فَرَّخ ثم نهض ، وبين أن يكون الخاطر مختاراً ، واللفظ اعتسافاً واغتصاباً ، فرقٌ بيِّن .

ومتى اتَّكَلَ صاحبُ البلاغة على الهوينَى والوِكال ، وعلى السَّرِقة والاحتيال ، لم ينَلْ طائلًا ، وشقَّ عليه النزوع ، واستولى عليه الهوان ، واستهلكه سوءُ العادة .

والوجه الضارّ : أن يتحفَّظ ألفاظاً بعينها[1] من كتابٍ بعينه ، أو من لفظ رجل ، ثم يريد[2] أن يعدَّ لتلك الألفاظ قسمها من المعانى ، فهذا لا يكون إلا بخيلًا فقيراً ، وحائفاً[3] سروقاً ، ولا يكون إلَّا مستكرِهاً لألفاظه ، متكلِّفاً لمعانيه ، مضطرب التأليف منقطع النظام . فإذا مرَّ كلامُه بنقَّاد الألفاظ وجهابذة المعانى استخفُّوا عقله ، وبَهرَجُوا علمه .

ثم اعلم أنَّ الاستكراه فى كل شيءٍ سَمِج ، وحيث ما وقع فهو مذموم ، وهو فى الطُّرَفِ أسمج ، وفى البلاغة أقبح . وما أحسن حاله ما دامت الألفاظ مسموعة من فمِه[4] ، مسرودة فى نفسه[5] ، ولم تكن مخلَّدة فى كتبه .

وخير الكتب ما إذا أعدتَ النَّظر فيه زادَك فى حسنه ، وأوْقفكَ على حدِّه[6] .

(١) تحفظ الكتاب : استظهره شيئاً بعد شيء . م ، ط : « أن يحفظ » .
(٢) م فقط : « أن يؤيد » .
(٣) من الحيف والجور . ب : « وحايفا » بالتسهيل .
(٤) ب : « من فهمه » ، صوابه فى م ، ط .
(٥) مسرودة : منتظمة متتابعة . ب : « مسرورة » .
(٦) م : « أوقف » ب : « وأوقف » ، والوجه ما أثبت من ط .

٩ - فصل

فى ذم اللواط

والذى يدلُّ على أنَّ هذه الشَّهوةَ معيبةٌ فى نفسها(١) ، قبيحة فى عينها ، أَن الله تعالى وعزّ لم يعوِّض فى الآخرة بشَهوةِ الوِلْدانِ من تَرَك لوجْهِه فى الدُّنيا شهوة الغِلْمان ، كما سقى فى الآخرة الخمرَ مَنْ تَرَكها له فى الدُّنيا ، ثمّ مَدحَ خمر الجنَّةِ بأَقصر الكلام ، فنَظَم به جميع المعانى المكروهةِ فى خَمْر الدنيا فقال: ﴿ لا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا ولا يُنْزَفُون(٢) ﴾ . كأَنه تبارك وتعالى قال : لا سُكر فيها ولا خُمار(٣) .

وفى اكتفاءِ الرِّجال بالرِّجال والنِّساءِ بالنِّساءِ انقطاعُ النَّسل ، وفى انقطاع النَّسل بُطلانُ جميعِ الدِّين والدنيا . وغِشيانُ الرَّجلِ الرجلَ والمرأَةِ المرأَةَ من المنكوسِ المعكوس(٤) ، ومن المُبدَل المقلوب ؛ لأَنَّ الله جلّ ذكره إنَّما خلق الذَّكرَ للأُنثى ، وجعل بينهما أَسباب التحابِّ وعلائق الشِّرْكةِ ، وعلل المشاكلة(٥) وجعل الذَّكر طِبْقاً للأُنثى ، وجعل الأُنْثى سكناً للرجل . فقلب هؤلاءِ الأَمرَ وعكَسُوه، واستقبلوا من اختار اللهُ لهم بالردِّ والزُّهدِ فيه .

---

(١) م ، ب : « معيبة نفسها » .
(٢) الآية ١٩ من سورة الواقعة .
(٣) الخمار ، بالضم : ما أصاب من ألم الخمر وصداعها وأذاها .
(٤) ب فقط : « من المنكوس والمعكوس » .
(٥) ب فقط : « المشاركة » .

١٠ — فصــل

ومن المعلمين ثم مِن البلغاء المتـأدِّبين[(١)] : عبد الله بن المقفَّع ، ويكنى أَبا عَمرو ، وكان يتولّى لآلِ الأَهتم[(٢)] ، وكان مقدَّماً فى بلاغة اللسان والقلمِ والتَّرجمة ، واختراع المعانى وابتداع السِّيَر . وكان جواداً فارساً جميلًا ، وكان إذا شاءَ أَن يقول الشعرَ قاله ، وكان يتعاطى الكلام . ولم يكن يُحسن منه لا قليلًا ولا كثيراً . وكان ضابطاً لحكايات المقالات ، ولا يعرف من أَين غُرّ المغترُّ ووَثِق الواثق . وإذا أَردت أن تعتبر ذلك ، إنْ كنتَ من خُلَّص المتكلِّمين ومن النُّظَّارين ، فاعتبر ذلك بأَنْ تنظرَ فى آخر رسالته (الهاشمية) ، فإنَّك تجدُه جيِّد الحكاية لدَعوى القوم ، رديَّ المدخل فى مواضع الطَّعن عليهم .

وقد يكون الرجُل يُحسن الصِّنف والصنفين من العلم ، فيظنُّ بنفسه عند ذلك أَنَّه لا يَحمل عقلَه على شىءٍ إلَّا نَفَذ به فيه[(٣)] ، كالذى اعترى الخليلَ بن أَحمدَ بعد إحسانه فى النحو والعروض ، أَن ادَّعى العلم بالكلام وبأَوزان الأَغانى[(٤)] ، فخرج من الجهل إلى مقدارٍ لا يبلغه أَحدٌ إلَّا بخِذلان الله تعالى . فلا حرمنا الله تعالى عِصمتَه ، ولا ابتلانا بخِذلانه .

١٠م — فصــل[(٥)]

وهذان الشاعران جاهليَّان[(٦)] ، بعيدان من التوليد ، وبنَجْوةٍ من التكليف .

---

(١) ب : « ثم البلغاء المتأدبين » ، بإسقاط « من» .
(٢) انظر طرفاً من أخبارهم فى الأغانى ١٣ : ٥٨ .
(٣) م : « إلا تعدته فيه » ، ط : « إلا بعد به فيه » . والوجه ما أثبت من ب .
(٤) م : « المغانى » .
(٥) لم ترد هذه الكلمة فى ب . والاختيار التالى مقتضب لايمت إلى ماقبله ولا إلى مابعده بصلة.
(٦) ب : « جاهلان » ، تحريف .

١١ – فصل

ومن خصال العبادة وإن كانت كلُّها راجحة فليس فيها شيءٌ أردَّ في عاجل[١] ، ولا أفضلَ في آجل من حُسْنِ الظنّ بالله تعالى وعزَّ[٢] .

ثم اعلم أنَّ أعقلَ النَّاس السُّلطانُ ومَن احتاج إلى معاملته ، وعلى قدر الحاجة إليه ينفتح له باب الحيلة ، والاهتداءُ إلى مواضع الحجة . وما أقربَ فضل الرَّاعي على الرعية من فضل السَّائس على الدابَّة . ولولا السُّلطانُ لأَكل النَّاسُ بعضُهم بعضاً ، كما أنَّه لولا المُسِيم لوثَبَ السِّباعُ على السَّوامِ[٣] .

ودَعْني من تدريسه كتب أَبي حنيفة[٤] ، ودعني مِن قولهم : اصرفْه إلى الصَّيارفة ؛ فإنَّ صناعة الصَّرف تَجْمع[٥] مع الكتَاب والحساب المعرفةَ بأَصناف الأَموال ، ولا تجد بُدًّا[٦] من جِلَّة السُّلطان[٧] .

ودَعني مِن قول من يقول : قد كانت قريش تجَّاراً ؛ فإن هذا بابٌ لا ينقاس ولا يطَّرد . ومَن قاس تُجّار الكَرْخ وباعَتَه ، وتجّار الأَهواز والبصرة ، على تُجّار قريش ، فقد أخطأَ مواضع القياس ، وجَهل أقدارَ العلل .

---

(١) أرد ، أى أنفع .

(٢) وأعز ، ساقطة من م .

(٣) المسيم : الراعى ، أسامها إسامة : خلاها ترعى ، ومثله سامها سوماً ، والسوام : الإبل الراعية تسوم حيث شاءت ، وهو اسم جمع للسائم والسائمة ، وميمها مخففة ، وضبطت فى طبعة القاموس بالتشديد خطأ . وفى ب ، م : « لأثب السباع » ، صوابه فى ط .

(٤) ب ، م : « من تدرسه » ط : « من تدريس » ، والوجه ما أثبت . وانظر ما أسلفت من حاشية على « ويدرسه القرآن » فى أواخر الفصل الخامس ص ٣٥ . والضمير عائد إلى الصبى .

(٥) ب ، م : « يجمع » ، صوابه فى ط .

(٦) ب فقط : « يدان بالياء » ، تحريف .

(٧) ب ، م : من جلة السلطان » بالجيم . والمراد أنها لها علاقة بالسلطان .

قريش(١) قومٌ لم يزل الله تعالى يقلِّبهم فى الأَرحام البريئة من الآفات(٢) ، وينقلهم من الأَصلاب السليمة من العاهات ، ويعبِّيهم لكل جسيمٍ(٣) ، ويربِّيهم لكل عظيمٍ .

ولو علِم هذا القائل ما كانت قريش عليه فى التِّجارة لعرَف اختلاف السُّبُل ، وتَفاوُتَ ما بين الطُّرق . ولو كانت علَّتهم فى ذلك كعلَّة تجَّار الأُبُلَّة(٤) ، ومحتكرى أَهل الحيرة ، لتلَمت دقَّة التجارة فى أَعْراضهم(٥) ولنَهَكَ سخف التربُّح(٦) من مروءاتهم ، ولصغَّر ذلك من أَقدارهم فى صدور العرب ، ولوضع من علوِّهم عند أَهل الشرف . وكيف وقد ارتحلت إليهم الشُّعراء كما ارتحلت إلى الملوك العظماء ، فأَسنَوْا لهم العطيَّة ، ولم يقصِّروا عن غاية ، فسقَوُا الحجيج وأَقاموا القِرى لزوَّار الله تعالى ، وهم بوادٍ غيرِ ذى زرعٍ . فلو أَنَّه كان معهم من الفضل ما يَبْهَر العقول ، ومن المجدِ ما تَحْرَج فيه العيون(٧) ، لما أَصلح طبائعَهم الشىءُ الذى يفسد جميع الأُمة(٨) . ولقد أَورث ذلك صدورَهم من السَّعَة بقدر ما أَورث

---

(١) م فقط : « وقريش » .

(٢) ب ، م : « البرية » بالتسهيل .

(٣) عباه تعبية وتعبئة : هيأه وأصلحه . م ، ط : « ويبقيهم » . وأثبت ما فى ب .

(٤) الأبلة : بلدة على شاطىء دجلة البصرة ، وهى أقدم منها ، لأن البصرة مصرت فى أيام عمر ، وكانت الأبلة حينئذ مدينة فيها مسالح وقائد من قبل كسرى .

(٥) فى جميع الأصول : « أغراضهم » بالغين المعجمة ، وإنما يثلم العرض ، بالعين المهملة أى يطعن فيه ، وفى أساس البلاغة : « هذا مما يكلم الدين ويثلم اليقين » .

(٦) ب ، م : « التربح » ط : « الربح » ، والوجه ما أثبت من الجمع بينهما . والتربح : طلب الربح والمكسب .

(٧) حرجت عينه حرجاً : حارت ، قال ذو الرمة :

تزداد للعين إبهاجاً إذا سفرت وتحرج العين فيها حين تنتقب

وقيل معناه أنها لا تنصرف ولا تطرف من شدة النظر . وفى جميع الأصول : « ما يخرج فيه العيون » وهو من ملح التصحيف .

(٨) ب ، م : « لما صلح » ، صوابه فى ط .

غيرهم من الضِّيق . ولو كانت سُبُلهم[١] عند الملوك إذا وفدوا عليهم ، أَوْ وَرَدوا[٢] بلادهم بالتجارات،سُبُلَ[٣] غيرِهم من التُّجَّار لما أَوجَهُوهم وقرّبوهم[٤] ، ولَما أَقاموا لهم قِرى الملوك وحبَوْهم بكرامة الخاصّ .

وإذا كانت قريش حُمساً تَنَسَّكُ فى دينها ، وتتألَّه فى عبادتها[٥] وكان مانعاً لهم من الغارات والسِّباء ، ومن وطءِ النِّساء من جهة المَغنم ، ولذلك لم يَئدوا البناتِ ولا ولدت منهم امرأَةُ غيرهم من جهة السِّباء[٦] ، ولا زوّجوا أَحداً من العرب حتَّى يتحمّس ويدينَ بدينهم . ولذلك لمَّا صاروا إلى بناءِ الكعبة لم يُخرجوا فى بنائها من أَموالهم إلَّا مواريثَ آبائهم ونسائهم[٧] ، خوفاً من أَن يخالطه شيءٌ من حرام ، إذْ كانت[٨] أَرباح التجارات مَخُوفاً عليها ذلك . فلما كانوا بوادٍ غير ذى زرع ويحتاجون إلى الأَقوات[٩] ، وإقامة القِرَى ، لم يجدوا بدّاً من أَن يتكلَّفوا ما يُعيشهم ويصلح شأْنهم ، فأَخذوا الإيلاف[١٠] ، ورحلوا إلى الملوك بالتِّجارات . فهذا هو السبب .

---

(١) ب : « سلبهم » . تحريف .

(٢) ب : « وأوردوا » .

(٣) ب ، م : « سبيل » .

(٤) وجهه السلطان توجيهاً ، وأوجهه إيجاهاً : شرفه ، وأوجهته : صادفته وجيهاً .

(٥) تتأله : تتنسك وتتعبد . ط : « وتتاله فى عبادتها » ، تحريف .

(٦) ب ، م : « وغيرهم من جهة السباء » . والمراد لم يعتدوا على نساء غيرهم من القبائل الأخرى فيلدن لهم .

(٧) من أموالهم ، ساقطة من ب .

(٨) ب ، م : « إذا كانت » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٩) ب ، م : « إلى الأوقات » ، والصواب فى ط .

(١٠) الإيلاف : العهد والذمام والإجارة . وكان الإخوة الأربعة : هاشم،وعبد شمس ، والمطلب ، ونوفل ، بنو عبد مناف ، يجيرونقريشاً بميرهم، وكانوا يسمون المجيرين . فأما هاشم فإنه أخذ حبلا من ملك الروم ، وأخذ نوفل حبلا من كسرى ، وأخذ عبد شمس حبلا من النجاشى ، وأخذ المطلب حبلا من ملوك حمير ، فكان تجار قريش يختلفون إلى هذه الأمصار بحبال هؤلاء الإخوة فلا يتعرض لهم .

فانظر كم بين علّتهم وعلّةِ غيرهم ! فيسرُّك بعد هذا أن يتحوّل ابنُك فى مسلاخ صالح الزّرازريشى (١) ، أو فى طباع ابن بادام (٢) ، أو فى عقل ابن سامرى (٣) .

فإنْ زعموا أنَّ أصحاب السلطان بِعَرَض مكروهٍ فليعلموا أنَّ كلَّ مسافرٍ فبعرَض مكروه (٤) ، وقد قال بعض الحكماء : « المسافرُ ومتاعُه علىٰ قَلَت إلا من حفظَ اللهُ (٥) » ، يعنى على هلاك .

وراكب البحر أشدُّ خطراً ، ومشترى طعام الأهواز أشدُّ تهوُّراً (٦) ، ورافع الشِّراع بعَرَض هَلَكة . والمتعرِّض للمِلاحة (٧) والمعرِّض نفسَه للسِّباع أقلُّ شفقة (٨) . وسكان الجزائر والسواحل أحقّ بالتعرُّض ، وأولى بالخوف . والمنهوم بالطعام الردىّ (٩) ، والمدمنُ للشّراب أشبه بأصحاب التغْرير (١٠) ، والمتبارِى فى ذلك والمتزيِّدُ منه أحقُّ بتوقُّع الحِدثان وحوادث الأزمان ، قد جرت عليه عادةُ الدهر (١١) وسِيرةُ الأيام . وهذا كلُّه أحقُّ بالاهتمام .

---

(١) ب : « الدزازريشى » ط : « الذراليرى » ، وأثبت ما فى م . وأصل معنى المسلاخ الجلد ، والمراد أن يكون مثله .

(٢) ط ، ب : « ابن آدم » ، وأثبت ما فى م . وبادام ، من الأعلام الفارسية ، ويقال أيضاً باذام . وانظر حواشى رسائل الجاحظ ٢ : ٢٩٢ .

(٣) ب ، ط : « وفى عقل » .

(٤) ط : « بعرض مكروه » .

(٥) الذى فى البيان ٢ : ١٠٥ واللسان (قلت) : « وقال أعرابى : إن المسافر ومتاعه لعلى قلت إلا ما وقى الله » . وفى جميع الأصول : « على قلة » تحريف .

(٦) التهور : السقوط ، والمراد التعرض للخطر .

(٧) فى جميع النسخ : « للملام » والوجه ما أثبت .

(٨) الشفقة : الخوف من وقوع مكروه . ولعله يعنى أنهما أكثر أمناً من التاجر الذى يستعمل السفر .

(٩) ب ، م : « الردى » بالتسهيل .

(١٠) ب : « التعزير » . والتغرير : حمل النفس على الغرر ، وهو الخطر والهلكة .

(١١) سقطت كلمة « قد » من ط . وبدلها فى ب : « حتى » .

وإن كنت إلى الإشفاق تذهب ، وإلى إعطاءِ الحزمِ أكثر من نصيبه ، وكيف دار الأمر فإنَّ التاجر قد استشعر الذُّلَّ ، وتغَشَّى ثوب المذَلَّة .

وصاحب السلطان قد تجاوز حدَّ العزِّ والهيبة . وإنما عيبُه سُكْر السُّلطان[١] ، وإفراط التعظيم . قد استَبطَن بالعزِّ ، وظاهَرَ بالبِشْر واستحكمت تجربته ، وبعُدَت بصيرته حتَّى عرف مصلحة كلِّ مِصْر[٢] ، وإصلاح كلِّ فاسد ، وإقامةَ كلِّ معوجّ ، وعمارةَ كلِّ خرب .

ولا أَعلم فى الأَرض أَعمَّ إفلاساً ولا أَشدَّ نكبةً ، ولا أَكثر تحوُّلاً[٣] من يُسر إلى عسر ، ولا رأَينا الجَوائح[٤] إلى أَحدٍ أَهدى منها إلى أموال الصَّيارفة . فكيف يُقاس شأْنُ قومٍ تعمُّهم المَعَاطب[٥] بشأْن قوم أَهلُ السَّلامةِ فيهم أَكثر ، والنَّكَباتُ فيهم أَقلّ .

وبعد هذا فإنى أَرى أَلَّا تستكرهه فتبغِّض إليه الأَدب ، ولا تُهملَه فيعتادَ اللهو .

على أَنِّى لا أَعلم فى جميع الأَرض شيئاً أَجلبَ لجميع الفساد من قُرناءِ السَّوءِ ، والفراغِ الفاضل عن الجَمام[٦] .

---

(١) هو ما يسمونه الملح بما يشبه الذم . وسكر السلطان : نشوته والشعور بالزهو . وفى اللسان : « السكر ثلاثة : سكر الشباب ، وسكر المال ، وسكر السلطان » . ط ، م : « شكر » بالشين المعجمة ، تحريف .

(٢) المصر : واحد الأمصار ، المدينة الكبيرة . ط فقط : « كل مضر » ، تحريف .

(٣) ب : « تجولا » بالجيم .

(٤) الجوائح : جمع جائحة ، وهى الشدة والنازلة العظيمة التى تجتاح المال ، أى تذهب به وفى جميع النسخ : « الحوائج » ، صوابه ما أثبت .

(٥) المعاطب : المهالك ، واحدها معطب . ب ، م : « المعاطر » بالراء ، صوابه فى ط .

(٦) الجمام ، كسحاب : الراحة . ط فقط : « الجهاد » محرف .

درسه العلمَ(١) ما كان فارغاً من أشغال الرجال ، ومطالبِ ذَوِى الهِمَمَ . واحتلْ فى أن تكون أَحبَّ إليه من أُمِّه . ولا تستطيع أن يَمحضك المِقَةَ ، ويُصفِىَ لك المودَّة مع كراهته لما تحملُ إليه من ثِقَل التأْديب عند من لم يبلغ(٢) حالَ العارف بفضلِه(٣) .

فاستخرجْ مكنونَ محبَّته ببرِّ اللِّسان ، وبذْلِ المال . ولهذا مقدارٌ من جازَه أَفرط(٤) . والإفراطُ سَرَف . ومن قصَّر عنه فرّط ، والمفرِّط مِضياع(٥) .

ولا تستكثرنَّ هذا كلَّه فإنَّ بعضَ النِّعمة فيه تأْتى على أَضعاف النعامة(٦) ، والذى تحاول من صَلاح(٧) أَمر من تؤمِّل فيه أَن يقوم فى أَهلِكَ مَقامك ، وإصلاح ما خلَّفتَ كقيامِك ، لحقيقٌ بالحَيطة عليه ، وبإعطائهِ(٨) المجهود من نفسك .

وقال زكريا عليه السلام : ﴿ ربِّ لا تَذَرْنى فرداً وأَنتَ خيرُ الوَارِثين(٩) ﴾ . فَعَلِمَ اللّٰه تبارك وتعالى ، فوهب له غلاماً ، وقال اللّٰه

---

(١) انظر للتدريس مامضى فى حواشىص ٣٥ . ط : « فى دراسة العلم » كأن الكلام متصل بما قبله. وهو تحريف .

(٢) ب ، م : « التأديب عنه من يبلغ » ، صوابه فى ط .

(٣) أى العارف بفضل التأديب . وفى جميع الأصول : « بفضل » .

(٤) جازه : تجاوزه . وفى جميع الأصول : « من حازه » بالحاء المهملة ، تحريف .

(٥) م : « مضاع ».

(٦) كذا فى جميع الأصول .

(٧) ط : « إصلاح » .

(٨) م ، ب : « وبإعطاء » .

(٩) الآية ٨٩ من سورة الأنبياء .

عزّ وجلّ : ﴿ وليس الذَّكَرُ كالأُنْثَى[(١)] ﴾ .

اعلم أنَّه أعطاك ولداً عَبْرَةَ عَيْنِ العدوّ[(٢)] ، وقُرَّةَ عينِ الصديق الولىّ. فاحمدِ الله وأَخلِصْ فى الدُّعاءِ ، وأَكْثِرْ من الخَيْر إنْ شاءَ الله تعالى .

---

(١) الآية ٣٦ من سورة آل عمران .

(٢) العبرة ، بالفتح : الدمعة ، وفى أساس البلاغة : يقال أراه عبر عينيه ، وإنه لينظر إلى عبر عينيه ، أى ما يكرهه ويبكى منه . ومنه قوله يصف رجلا قبيحاً له امرأة حسناء :

إذا ابتز عن أوصاله الثوب عندها رأت عـبر عينيها وما عنه مخنس

وفى جميع الأصول : « غيرة عين العدو » ، تحريف .

٣

من كتابه في

التَّربيع والتَّدوير

١ – فصـــل

من كتاب التربيع والتدوير[١]

فانظر فى مسالمة النفوس[٢] مع تقارب منازلها ، ولِمَ تجاذبت عند تقارب مراتبها ، ولِمَ اختلفَ الكثير واتَّفق القليلُ ؟ ولِمَ كانت الكثرة علةً للتخاذل ، والقلَّة سبباً للتناصر ؟ وما فرق ما بين المجاراة[٣] والتحاسد ، وبين المنافسة والتغالب ، فإنك متى عرفت ذلك استرحت منَّا ورجَوْنا أن نستريحَ منك .

وكيف يعرف السَّببَ من يجهل المسبَّب ، وكيف يعرف الوصل من يجهل الفصل ، وكيف يعرف الحدود من لم يسمع الفصول . بل كيف يعرف الحجّة من الشُّبهة ، والغدر[٤] من الحيلة[٥] ، والواجبَ

---

(١) هذه الرسالة التى وجهها الجاحظ إلى أحمد بن عبد الوهاب ، نشرها كاملة فان فلوتن فى ليدن سنة ١٩٠٣ . وتابعه محمدالساسى فنشرها فى مجموعة رسائل سنة ١٣٢٤ هـ = ١٩٠٧ م. ثم السندوبى فى رسائل الجاحظ سنة ١٩٢٣ . ثم نشرها محققة شارل بلا فى دمشق سنة ١٩٥٥. وقد رمزت لنسخته بالرمز (ش) .

وقد أشار إليها الحصرى فى جمع الجواهر ٢٦٠ . حيث أورد فقرات من رسالة لأبى بكر الخوارزمى ، وجهها إلى بديع الزمان الهمذانى ، وقال الحصرى فى أعقابها : « وهى طويلة جداً مر له فيها إحسان كثير . وإنما احتذى فى أثرها مثال رسالة أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ لأحمد بن عبد الوهاب ، المعروفة برسالة الطول والعرض ، وتعرف برسالة التوسع (التربيع) والتدوير ، ورسالة المفاكهات . واتبع أيضاً طريق أبى الفضل بن العميد فى رسالة لابن سمكة النحوى» .

ورسالة الخوارزمى نشرت كاملة فى مجموعة رسائله المطبوعة بالقاهرة سنة ١٧٢ . وفى ديباجتها : « وكتب بها إلى أبى الحسن البديهى الشاعر يعبث به » . والوجه ما ذكره الحصرى .

وقد عثرت على بعض ردود لأحمد بن عبد الوهاب فيما يتعلق بالرسالة ، وذلك فى الهوامل والشوامل لأبى حيان التوحيدى ومسكويه ، فى الصفحات ٣٢٠ ، ٣٢٢ ، ٣٢٧ .

(٢) مج ، ش : « لم تسالمت النفوس » .

(٣) ب : « المجازات » م ، ط : « المجازاة » ، صوابها فى مج .

(٤) هذا ما فى ب ومج . وفى سائر النسخ : « والعذر » .

(٥) ب فقط : « من الجبلة » .

من الممكن، والغُفْلَ من الموسوم ، والمُحال من الصَّحيح ، والأَسرارَ من المجهول ومن كبار الدلائل الخفيَّة(١) وما يُعلم مما لا يُعلم ، وما يُعلم باللفظ دون الإشارة مما لا يعلم إلَّا بالإشارة دون اللفظ ، وما يعلم معتمداً ولا يعلم مكيَّفاً ولايعلم معتقداً(٢) . وما المستغلق الذى يجوز أن يفارقه استغلاقه ، والمستبهمُ الذى لا يفارقه استبهامه ، ومن هو طائرٌ مع العوامّ حيث طارت ، وساقطٌ معها حيث سقطت ، مع الزِّراية والرَّغبة عنها(٣) . قد طَلَبها بفضل طلبه لنفسه(٤) ،وجرى معها بقدر مناسبتهاالقَدْره.

فاعرف الجنسَ من الصِّنف ، والقسم من النِّصف ، وفرقَ ما بين الذم واللَّوم ،وفصلَ ما بين الحمد والشكر ، وحدَّ الاختيار من الإمكان ، والاضطرار من الإيجاب . وسنعرِّفك من جملة ما ذكرنا باباً باباً أَنت إليه أَحوجُ ، وهو علينا أَرَدُّ .

٢ — فصل

وما فى الأَرض(٥) إقرارٌ أَثبتُ ، ودليلٌ أَوضحُ ، وشاهد أَصدق ، من شاهدى عليك على ما ادّعيتَ لنفسك من الرِّفعة مع ما ظهر من حسدك لأَهل الصَّنعة(٦) . وهل يكون كذلك(٧) إلَّا فاسدُ الحسّ ظاهرُ العُنود(٨) ، أَو جاهلٌ بالمحال .

---

(١) مج ، ش : « والأسرار المجهولة من ذوات الدلائل الخفية » .
(٢) كذا فى ب ، م، ط . وفى مج : « وما يعلم معتقداً ولايعلم مكيناً ، مما يعلم مكيناً ولايعلم معتقداً » . وفى ش : « وما يعلم معتقداً ولا يعلم يقيناً ولا يعلم معتقداً » .
(٣) ب ، م : « ورغبة عنها » .
(٤) مج : « قد ظلمها بفضل ظلمه لنفسه » .
(٥) مج ، ش : « وهل فى الأرض » .
(٦) مج ، ش : « لأهل الضعة » .
(٧) مج ، ش : « وهل تكون بعد ذلك » .
(٨) م : « العتود » بالتاء ، تحريف ، ط : « العناد » والعنود والعناد بمعنى ، وهما الميل عن الحق مع العلم به .

وبعد فأنت ـ أبقاك الله[١] ـ في يدك قياسٌ لا يكسر[٢] ، وجَوابٌ لا ينقطع[٣] ، ولك حدٌّ لا يُفَلّ وغربٌ لا ينثَنِي[٤] ، وهو قياسك الذى إليه تنسب ، ومذهبك الذى إليه تذهب : أَنْ تقول[٥] : وما علَيّ أن يرانى الناس عريضاً وأكون فى حكمهم غليظاً وأنا عِندَ الله[٦] تعالى طويلٌ جميل ، وفى الحقيقة مقدودٌ رشيق . وقد علموا ـ حفِظك الله ـ أنَّ لك مع طول البادِّ[٧] راكباً ، طُولَ الظَّهر جالساً[٨] ، ولكنْ بينهم فيك إذا قمتَ اختلاف ، وعليك لهم إذا اضطجعت مسائل .

ومن غريب ما أُعطيتَ ، ومِن بديع ما أُوتيتَ أَنَّا لم نر مقدوداً واسع الجُفرة غيرك[٩] ، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك . فأنت المديد وأنت البسيط ، وأنت الطويل وأنت المتقارب .

فيا شعراً جمعَ الأعاريض ، ويا شخصاً جمع الاستدارةَ والطُّول .

بل مايهمُّك[١٠] من أقاويلهم ، ويتعاظمُك من اختلافهم ، والراسخون فى العلم ، والناطقون بالفهم ، يعلمون أنَّ استفاضَة عَرضِك قد أدخلت

---

(١) مج : « وبعد أبقاك الله فأنت » .

(٢) مج ، ش : « لا ينكسر » .

(٣) م ، ط ، ب : « وجوار لا يقطع » ، صوابه فى مج ، ش .

(٤) ب : « لا بشىء » م : « لا شىء » تحريف . ط : « لا يثنى » ، وأثبت ما فى مج ، ش .

(٥) هذا ما فى مج ، ش . وفى سائر النسخ : « أو تقول » .

(٦) ب ، م ، ط : « وأنا عبد الله » .

(٧) الباد : « باطن الفخذ » وما يلى السرج من فخذ الفارس . ب ، م ، ط : « البال » صوابه فى سائر النسخ . وفى م : « أن ذلك » ، تحريف .

(٨) كلمة « طول » الأخيرة من مج ، ش .

(٩) الجفرة ، بالضم : الجوف ، وجفرة كل شىء : وسطه ومعظمه . ط فقط : « أوسع الجفرة » ، تحريف .

(١٠) ب ، م : « بل ما يهما » ، صوابه فى سائر النسخ .

الضَّيم على ارتفاع سَمْكك(١)، وأنَّ ما(٢) ذهب منك عرضاً قد استَغْرَق ما ذهبَ منك طولًا. ولئن(٣) اختلفوا فى طولك لقد اتَّفقُوا فى عرضك(٤). وإن أكانوا قد سلَّموا لك بالرَّغْم(٥) شطراً، فقد حَصَّلتَ(٦) ما سلَّموا وأنت على دعواك فيما لم يُسَلِّموا.

ولَعمرِى إنَّ العيون لتُخطئُ، وإن الحواسَّ لَتَكْذِب، وما الحكمُ القاطعُ إلَّا للذِّهن، وما الاستبانةُ الصَّحيحةُ إلَّا للعقل؛ إذ كانَ زِماماً على الأَعضاء(٧)، وعِياراً على الحواسّ.

ومما يُثبت أيضاً أنَّ ظاهرَ عَرْضِك مانعٌ من إدراك حقيقة طولك قولُ(٨) أبى دُوَادٍ الإيادىِّ فى إبلِه:

سَمِنَتْ فاستَحَشَّ أكرعُها لا الـ ـنَّىُّ نَىٌّ ولا السَّنامُ سَنامُ(٩)

ولو لم يكن فيك من العَجَب إلَّا أنَّك أوّلُ من عوّده الله تعالى بالصَّبْر(١٠) على خَطاءِ الحسّ(١١) وبالشُّكر على صواب الذهن، لقد

(١) الضيم: الظلم وانتقاص الحق. ما عدا مج، ش: «قد أدخلت الميم فى ارتفاع سمكك»، تحريف.

(٢) ب فقط: «وإنما»، تحريف.

(٣) ما عدا مج، ش: «وإن».

(٤) ما عدا مج، ش: «لقد اختلفوا» تحريف. ب: «على رضك» م، ط: «على عرضك»، وأثبت ما فى مج، ش.

(٥) ما عدا مج، ش: «بالزعم».

(٦) ب فقط: «فقد حصلك» تحريف.

(٧) ب فقط: «إذ كانا ذماما»، صوابه فى سائر النسخ.

(٨) ب، م: «وقول»، تحريف.

(٩) ديوان أبى دواد ٣٣٩ والأصمعيات ١٨٨ واللسان (حشش). استحش: استدق. والنى، بالفتح: الشحم. ط: «لا النىء نىء»، تحريف.

(١٠) ب، م، ط: «بالصد»، صوابه فى مج، ش.

(١١) ب، م: «على خطأ الحس»، والخطاء والخطأ بمعنى، وكثيراً ما يستعمل الجاحظ «الخطاء» بالمد. انظر الحيوان ١: ٢١٣ / ٣: ٢٥٨، ٥٠٠ والبيان ٤: ١٦، ٦٧ ورسائل الجاحظ: ١: ٣٥٣.

كنت فى طُولك غايةً للعالمين[١] ، وفى عرضك مناراً للُمِضلِّين .

وقد تظَلَّمَ[٢] المربوع مثلى من الطويل مثل عُمر ، ومن القصير مثل عَمرو[٣] إذ زعم[٤] أنه أفرط فى الرَّشاقة ونُسب إلى القضافة ، لأَنَّ إفراط عرضه غَمَر[٥] الاعتدالَ [من طوله ، وكلاهما يحتاج إلى الاعتذار ، ويفتقر إلى الاعتدال[٦]] .

والمربوع بحمد الله تعالى قد اعتدلت أجزاؤُه فى الحقيقة ، كما اعتدلَتْ فى المنظر[٧] ، فقد استغنى بعزِّ الحقيقة[٨] عن الاعتذار ، وبحكم الظاهر عن الاعتلال[٩] .

وقد سمِعنا من يذمُّ الطِّوال كما سمعنا من يُزرى على القصار ، ولم نَسْمَع أَحداً[١٠] ذمّ مربوعاً ولا أَزرى عليه ، ولا وقف عنده ولا شكَّ فيه . ومن[١١] يذمُّه إلَّا من ذمّ الاعتدال ، ومن يُزرى عليه إلَّا من أَزْرى على الاقتصاد ، ومن يَنصب للصَّواب الظاهر[١٢] إلَّا المعاند ، ومن يُمارى فى العيانِ إلَّا الجاهل ؛ بل من يُزْرِى على أَحد بتفاقم التركيب[١٣] ،

---

(١) مج ، ش : « آية للسابلين » والمراد بالسابل هنا : السالك فى الطريق .

(٢) ما عدا مج ، ش : « وقد تكلم » ، تحريف .

(٣) مج ، ش : « من الطويل مثل محمد ومن القصير مثل أحمد » .

(٤) مج ، ش : « إذ زعم أحد » .

(٥) ب ، م : « عمر » بالعين المهملة ، تحريف .

(٦) ما بين الحاصرتين ساقط من ب ، لكن فى ط : « ويفتقر إلى الاعتدال » .

(٧) ب فقط : « فى المنظرة » .

(٨) ب ، م : « بعد الحقيقة » ، ط : « بعدل الحقيقة » ، وأثبت ما فى مج ، ش .

(٩) الاعتلال : بيان العلة . ما عدا مج ، ش : « الاعتدال » .

(١٠) ب ، ط : « ولم يسمع أحد » م : « ولم بسمع أحداً » ، والوجه ما أثبت من مج ، ش

(١١) الكلام بعده إلى « أزرى على الاقتصاد ومن » ، ساقط من م .

(١٢) نصب له : عاداه وتجرد له . ط : « ومن يعيب الصواب الظاهر » ، صوابه فى سائر النسخ .

(١٣) تفاقم التركيب : أن يجرى على غير استواء ، وأصله من تفاقم الأمور وتراكبها .

وبسوءِ التنضيد(١) مع قول الله عز وجل : ﴿ ما تَرَى فى خَلْقِ الرَّحْمنِ مِنْ تَفَاوُتٍ(٢) ﴾ .

وبعد فأَىُّ قدٍّ أَردأُ(٣) ، وأَىُّ نظامٍ أَفسدُ من عَرْضٍ مجاوزٍ للقَدْر(٤) ، أَو طُولٍ مجاوزٍ للقصد . ومتى يَضرِبِ العَرْض بسهمه على قدر حقِّه ، ويأْخذِ الطُّول من نصيبه على مثل وزنِه ، خرجَ الجسم من التقدير ، وجاوزَ التعديل . فإِذا خرج من التقدير تفاسد ، وإذا تفاسَد وجاوز التَّعديلَ تباين .

ولو جاز هذا الوصفُ ، وحَسُنَ هذا النَّعت(٥) ، كان لإِبراهيم ابن السِّنْدِىّ(٦) [من الفضيلة(٧)] ما ليس لأَحمد بن عبد الوهاب .

وهذا كله بعد أَن يصدِّقوك(٨) على ما ادَّعيتَ لطولك فى الحقيقة ، واحتججتَ [به(٩)] لِعَرْضك فى الحكومة . كما أَنَّك بإِعمالك لما يَنْفِيهِ

(١) ب فقط : « التنضديد » ، تحريف .
(٢) الآية ٣ من سورة الملك أو تبارك .
(٣) كلمة « فأى » ساقطة من ب.
(٤) ط فقط : « القد » .

(٥) ب ، م : « حسن هذا النعت »بلا واو قبله . ط : « من حسن النعت هذا » .تحريف .

(٦) مج ، ش : « كان لقاسم التمار » . وإبراهيم بن السندى بن شاهك ، يروى عنه الجاحظ كثيراً . وأبوه السندى بن شاهك كان يلى الجسرين ببغداد للرشيد : انظر الجهشيارى ٢٣٦ — ٢٣٧ . وقد نعت الجاحظ إبراهيم هذا بأنه « مولى أمير المؤمنين » . الرسائل ٤٧ ساسى،

وكذلك قاسم التمار ، كان من الرجال الذين يروى عنهم الجاحظ كثيراً . انظر فهارس الحيوان والبيان .

(٧) التكملة من مج ، ش .
(٨) ط فقط : « صدقوك » .
(٩) التكملة من مج ، ش .

العِيان(١) ، واستشهادك(٢) لما تنكره الأَذهان(٣) ، معترضٌ(٤) للصِّدق من المتكرِّم ، ومتحكِّك بالْحِلم من المُتخافِل . وأَىُّ صامت لا يُنطقه هذا المذهب ، وأَىُّ ناطق لا يُغْرِيه هذا القول(٥) .

وإذا كان هذا ناقضاً لعزم المتسلِّم(٦) فما ظَنُّك بعادة المتكلِّف(٧) .

فأَنْشُدُك اللهَ أَن تغرىَ بك السُّفهاءَ ، وتنقض عزائم الحكماء(٨) .

وما أَدرى – حفظك الله – بأَىِّ الأَمرين أَنت أَعظم إِثماً ، وفى أَيِّهما أَنت أَفحش ظلماً : أَبتعرُّضك للعوامّ ، أَمْ بإِفسادك حكم الخواصّ(٩) .

وبعد فما يحوجك إلى هذا ، وما يَدْعوك إليه وأَشباهُك من القصار كثير ، ومَن ينصرك منهم غير قليل(١٠) .

٣ – فصـــل

وقلتَ : ولولا فضيلة العَرْض على الطول لمَا وصف الله تعالى وعزَّ ، الجنَّةَ بالعَرْض دون الطُّول ، حيثُ يقول : ﴿ وجَنَّةٍ عَرْضُها كعرض السَّماء والأَرض(١١) ﴾ . فهذا برهانك الواضح(١٢) .

---

(١) ب : « يتقنه العيان » م ، ط : « تيقنه العيان » ، صوابه من مج ، ش .

(٢) ب ، م : « واستشهارك » ، صوابه فى ط ، مج ، ش .

(٣) ما عدا مج ، ش : « لما تذكره الأذهان » ، تحريف .

(٤) مج ، ش : « متعرض » ، والوجه ما فى سائر النسخ ، والمراد لا يمكن تصديقه .

(٥) ما عدا مج ، ش : « لا يغويه هذا القول » .

(٦) ب ، م : « قضاء لعزم » ط : « قضاء العزم » ، والوجه ما أثبت من مج ، ش .

(٧) مج ، ش : « بعداوة المتكلف » .

(٨) ش : « الحلماء » .

(٩) ما عدا مج ، ش : « بتعرضك للعوام أو بإفسادك حكم الخواص » .

(١٠) ما عدا مج ، ش : « غير ذليل » .

(١١) من الآية ٢١ من سورة الحديد ، وأولها : « سابقوا إلى مغفرة من ربكم » . وفى ب فقط : « عرضها السموات والأرض » وهى من الآية ١٣٣ من آل عمران ، وأولها : « وسارعوا إلى مغفرة من ربكم » .

(١٢) مج ، ش : « فهذه براهينك الواضحة ، ودلائلك الظاهرة » .

ولو لم يكن فيك من الرضا والتسليم، ومن القناعة والإخلاص إلّا أنّك ترَى[(١)] ما عند الله خيراً لك مما عند الناس، وأن الطُّول الخفىَّ أحبُّ إليك من الطُّول الظاهر، لكانَ[(٢)] فى ذلك ما يقضى لك بالإنصاف، ويحكُمُ لك بالتوفيق.

وأنا - أبقاك الله - أَعشَقُ إنصافك كما تُعْشَق المرأةُ الحسناء[(٣)]، وأتعلَّم خضوعَك للحقِّ كما أتعلم التفقُّه فى الدين[(٤)]. ولرُبَّما ظننتُ أنَّ جَورَك إنصافُ قومٍ آخرين، وأن تَعَقُّدك سَماحُ رجال منصفين[(٥)].

وما أظنُّك صرت إلى معارضة الحجّة بالشبهة، ومقابلة الاختيار بالاضطرار، واليقينِ بالشَّكِّ، واليقظة بالحُلْم إلّا لِلذى[(٦)] خُصِصتَ به من إيثار الحقِّ، وأُلهمتَهُ من فضيلة الإنصاف، حتَّى صرتَ أحوجَ ما تكون إلى الإنكار أذعَنَ ما تكونُ بالإقرار؛ وأشدَّ ما تكون إلى الحيلة فقراً أشدَّ ما تكون للحجَّة طلباً. غير أنَّ ذلك بطَرْفٍ ساكن، وصوتٍ خاضع، وقلبٍ جامع، وجأْش رابطٍ[(٧)]، ونيَّةٍ جَسُور، وإرادة تامَّة، مع غفلةِ كريم، وفِطنة عليم. إن انقَطَع خصمُك تغافلت، وإن خَرِق[(٨)]

---

(١) ب، م: «أنك ترى» بإسقاط «إلا».

(٢) ب، م، ط: «لكن»، تحريف.

(٣) مج، ش: «أتعشق إنصافك كما أتعشق المرأة الحسناء».

(٤) ب فقط: «الفقه فى الدين».

(٥) ب، م: «وأن يعقدك سماع رجال منصفين» ط: «وأنك يقنعك سماع رجال منصفين»، والوجه ما أثبت من مج، ش.

(٦) ب، م: «إلا الذى».

(٧) ب فقط: «راطب». والجأش: النفس أو القلب، والرابط: الثابت الذى لا يرتاع.

(٨) خرق يخرق خرقاً: حمق ولم يرفق. مج، ش: «وإن حرف». تحريف.

تَرَفَّقت[١] ، غير منخوبٍ ولا متشعِّب[٢] ، ولا مَدخولٍ ولا مشتَرَك ، ولا ناقص النَّفس ، ولا واهن العَزْم ، ولا حسودٍ ولا منافس ، ولا مُغالبٍ ولا مُعاقِب[٣] . تَفُلُّ الحَزَّ[٤] وتُصيب المَفْصِل ، وتقرِّب البعيدَ وتُظهر الخفيّ ، وتُميِّز الملتبس[٥] وتلخِّص المشكل ، وتعطِي المعنى حقَّه من اللفظ كما تُعطِي اللفظَ حظَّه من المعنى[٦] . وتُحِبُّ المعنى إذا كان حيًّا يلوح ، وظاهراً يَصبح[٧] ، وتُبغضه مستهلَكاً بالتعقيد ، ومستوراً بالتغْريب[٨] .

وتزعم أن شر الألفاظ ما غرَّق[٩] المعانيَ وأخفاها ، وسترها[١٠] وعمّاها ، وإن راقت سَمع الغُمْر ، واستمالت قلبَ الرِّيِّض[١١] .

أعجب الألفاظ عندك مارقَّ وعذُب ، وخفَّ وسهُل ، وكان موقوفاً على معناه ، ومقصوراً عليه دون ما سواه . لا فاضلٌ ولا مقصِّر ، ولا مشتَرَك ولا مستَغْلِق ، قد جمع خِصال البلاغة[١٢] ، واستوفى خلال المعرفة[١٣] .

---

(١) ما عدا مج ، ش : « توقفت » ، تحريف .

(٢) مج ، ش : « ولا متشغب » بالغين المعجمة .

(٣) ب ، م : « ولا متغالب ولا معاقب » ، ط : « ولا متغالب ولا متعاقب » ، وصوابهما في مج ، ش .

(٤) الحز : « أراد به موضع الحز ، أي القطع . الفل : الكسر والضرب . ط : « يفل الحد » ، مج ، ش : « تفل الحز » ، والوجه ما أثبت . وانظر البيان ١ : ١٤٧ . وقد ورد هذا الفعل « تفل » وما بعده من الأفعال في ب ، م ، ط بياء الغائب : والوجه أن تكون كلها بتاء الخطاب كما أثبت من مج ، ش .

(٥) ب ، فقط : « الملبس » .

(٦) مج ، ش : « حقه من المعنى » .

(٧) م : « يصبح » ، صوابه في سائر النسخ .

(٨) ب : « بالتعزيب » ط : « بالتقريب » ، صوابه من سائر النسخ .

(٩) ط فقط : « ما أغرق » .

(١٠) ط فقط : « وأسرها » .

(١١) الريض : الذي بدئ في رياضته . وانظر البيان ١ : ٢٠٣ . ط : « المريض » تحريف .

(١٢) ما عدا مج ، ش : « وقد جمع خصائك البلاغة » ، والوجه ما أثبت منهما .

(١٣) ب فقط : « خلاك المعرفة » .

فإذا كان الكلامُ على هذه الصِّفة ، وأُلِّف على هذه الشَّريطة ، لم يكن اللفظ أسرعَ إلى السَّمع من المعنى إلى القلب ، وصار السامع كالقائل ، والمتعلِّم كالمعلِّم ، وخفت المؤْنة واستغنى عن الفِكرة ، وماتت الشُّبهةُ وظهرت الحُجَّة ، واستبدلوا بالخلاف وِفاقاً ، وبالمجاذبة موادعة ، وتهنَّئُوا بالعلم(١) ، وتقنَّعوا ببَرْدِ اليقين ، واطمأَنُّوا بثَلَج الصُّدور ، وبَانَ المنصِفُ من المعانِد ، وتميَّز الناقصُ من الوافر ، وذُلَّ الخطِل(٢) وعِزّ المحصِّل ، وبَدَتْ عَورةُ المُبْطل ، وظهرت براءة المُحِقّ .

وقلت : والنَّاس وإنْ قالوا فى الحَسَن : كأَنَّه طاقَةُ رَيحان ، أَو خُوط آس(٣) ؛ وكأَنَّه قَضِيب خَيزُرانٍ ، وكأَنَّه غُصْن بان ، وكأَنَّه رمحٌ رُدَينىٌّ ، وكأَنَّه صفيحةُ يَمانٍ(٤) ، وكأَنَّه سيفٌ هُندُوانىّ ، وكأَنَّه جانٌّ ، وكأَنَّه جَدْل عنان(٥) ؛ فقد قالوا : كأَنَّه المُشْترِى ، وكأَنَّ وجهَه دينارٌ هِرَقلىّ . وما هو إلَّا البحر ، وما هو إلَّا الغيث . وكأَنَّه الشمس ، وكأَنَّها دارة القمر(٦) ، وكأَنَّها الزُّهَرة ، وكأَنَّها دُرَّة ، وكأَنَّها غمامة ، وكأَنَّها مهاة(٧) .

---

(١) ما عدا مج ، ش : « ورهبوا بالعلم » .

(٢) الخطل : العجل الأحمق . ب ، م : « ودل الخطل » بالدال المهملة ، صوابه فى سائر النسخ .

(٣) الخوط ، بالضم : الغصن الناعم ، أو الغصن لسنة . والآس : ضرب من الرياحين ، وخضرته دائمة أبداً ويسمو حتى يكون شجراً عظاماً ، الواحدة آسة .. مج ، ش ، : « وكأنه خوط بان » .

(٤) الصفيحة : وجه كل شىء عريض ، كوجه السيف أو اللوح أو الحجر . واليمانى : السيف المنسوب إلى اليمن . ب ، م ، ط : « صحيفة يمان » تحريف . وفى مج ، ش : « صفيحة يمانية » .

(٥) يعنى ما جدل من الأعنة ، سماه بالمصدر . وانظر الحيوان ٦ : ٢٦٢ ورسائل الجاحظ ٢ : ١٢١ . ما عدا مج ، ش : « جدل عيان » تحريف .

(٦) ب ، م : « وكأنه دارة القمر » .

(٧) ط فقط : « وكأنه الزهرة » ، وكأنه غمامة ، وكأنه مهاة » .

وقد نراهم[١] وصفوا المستدير والعريضَ بأَكثرَ ممّا وَصَفُوا القضيفَ الطَّويل[٢] .

وقلت : ووجدنا الأَفلاكَ وما فيها ، والأَرضَ وما عليها ، على التَّدوير دون التطويل ، كذلك[٣] الورَق والحَبُّ ، والثَّمَر والشجر .

وقلت : والرُّمح وإن طال[٤] فإن التَّدوير عليه أغلب[٥] ؛ لأَنَّ التَّدوير قائم فيه مُوصَّلًا ومُفصَّلا[٦] ، والطُّولَ لا يوجد فيه إلَّا مُوصَّلا[٧] . وكذلك الإِنسان وجميع الحيوان .

وقلت : ولا يوجَد التربيع إلَّا فى المصنوع دون المخلوق ، وفيما أُكرِهَ على تركيبه دون ما خُلِّيَ وسَوْمَ طبيعته[٨] .

وعلى أَنَّ كل مُربَّع[٩] ففى جوفه مدوَّر ، فقد بان المدوَّر بفضله[١٠] ، وشارك المطوَّل فى حصّته .

ومن العجب أَنَّك تزعُم أَنَّكَ طويلٌ فى الحقيقة ثم تحتجُّ للعِرَض والاستدارة ، وقد أَضْربتَ عمَّا عند الله صفحاً[١١] ، ولَهِجتَ بما عِند النَّاس .

(١) ب فقط : « وقد نراه » .
(٢) القضافة : قلة اللحم ودقة العظم . م ، ط : « القضيب » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٣) ط فقط : « وكذلك » .
(٤) ما عدا مج ، ش : « والريح وإن طالت » ، تحريف .
(٥) ما عدا مج ، ش : « عليها أغلب » .
(٦) ما عدا مج ، ش : « فيها » فى هذا الموضع وتاليه ، تحريف . وفى مج ، ش : « موصولا ومفصلا » .
(٧) مج ، ش : « إلا موصولا » .
(٨) سوم طبيعته ، بالفتح ، أى وفق طبيعته وهواها . ط فقط : « رسوم طبيعته » ، تحريف . وقد ضبطت « سوم » فى ش بضم السين وتشديد الواو المكسورة سهواً .
(٩) ما عدا مج ، ش : « كل مرتفع » ، تحريف .
(١٠) م فقط : « بفصله » بالصاد المهملة .
(١١) يقال ضرب عنه صفحاً ، إذا أعرض ، كأنه ولاه صفحة وجهه . ب : « وقد اضطربت » ، م ، ط : « وقد أضربت » ، صوابه فى مج ، ش .

فأمّا حَوَر العين فقد انفردت بحسنه ، وذهبتَ ببهجته ومِلحه ، إلّا ما أبانَك الله تعالى به من الشُّكْلة[١] فإنّها لا تكون فى اللئام ، ولا تُفارِق الكرام[٢] .

وأمّا سواد الناظر وحُسن المحَاجر ، وهَدَبُ الأشفار[٣] ، ورقّة حواشى الأجفان ، فعلى أَصلِ عُنصُرِك ومجارى أعراقك[٤] .

وأمّا إدراكك الشخصَ البَعيدَ ، وقراءتُك الكتابَ الدَّقيقَ ونَقْشَ الخاتَم قبل الطَّابَع ، وفهم المُشكِل قبل التأمُّل ، مع وَهْن الكَبْرَة وتقادُم الميلاد ، ومع تخوُّن الأيّام وتنقُّص الأزمان ، فمن تُوتِيا الهند ، ولترك الجماع[٥] ، ومن الحِمْية الشّديدة وطول استقبال الخُضْرة[٦] ، فأنتَ يا عمٍّ حين تُصلِح ما أفْسده الدهر ، وتسترجع ما أخذَتْه الأيّام ، لكما قال الشاعر :

عجوزٌ تُرَجِّى أَنْ تكونَ فَتيَّةً وقد لحِبَ الجنبانِ[٧] واحدَوْدَبَ الظَّهْرُ
تدسُّ إلى العطَّار سِلعةَ أهلِها ولن يُصلحَ العطّارُ ما أفسَدَ الدَّهرُ[٨]

---

(١) الشكلة ، بالضم : كهيئة الحمرة تكون فى بياض العين . ب ، م : « المشكلة » ط : « المشاكلة » ، صوابهما فى مج ، ش .

(٢) أنشد الجاحظ لهذا شاهداً فى التربيع والتدوير ٢٢ والحيوان ٣ : ٢٣٠ / ٥ : ٣٣٠ :

ولا عيب فيها غير شكلة عينها كذاك عتاق الطير شكل عيونها

(٣) الهدب فى أشفار العين : طول الشعر النابت على حروفها .

(٤) ما عدا مج ، ش : « وجائز أعراقك » .

(٥) ما عدا مج ، ش : « فن توتياء الهند وترك الجماع » .

(٦) م ، ط : « الحضرة » بالحاء المهملة ، تحريف .

(٧) نسبهما المبرد فى الكامل ١٧٦ إلى شيخ من الأعراب . وذكر أبو الحسن الأخفش فى حواشيه على الكامل بعدهما بيتين من القصيدة نسبا فى ديوان جران العود « إلى الرحال بن عزرة ابن المختار . وفى عيون الأخبار ٤ : ٤٤ : « كانت لرجل من الأعراب امرأة عجوزة ، وكانت تشترى العطر بالخبز ، فقال » . وأنشد البيتين . وانظر رسائل الجاحظ ٢ : ١٢٢. والتمثيل والمحاضرة ٢١٩ . ط : « وقد يبس الجنبان ».

(٨) الكلام بعده إلى « مريضاً موئساً » ساقط من ب .

وكيف أطمع[١] فى نزوعك[٢] عن اللَّجاج وقد مَنَعْتَنيه قبله[٣] . وكيف أرجو إقرارك جهراً وقد أبيته سرًّا[٤] ، وكيف تجود[٥] به صحيحاً مطمعاً وقد بَخِلتَ به مريضاً مؤيساً .

وكيف يرجو خَيرك من رآك تُطاوِل أبا جعفرٍ وتُحاسِنُه[٦] ، وتنافره وتراهنه ، ثمَّ لاتفعلُ ذلك[٧] إلَّا فى المحافل العِظام ، وبحضرة كبار الحُكَّام ، ثم تستغرِبُ ضحِكاً من طمعِه فيك[٨] ، وتعجِّب الناس من مجاراته لك[٩] .

وأشهد لك بعد هذا أنك ستحاسِنُ[١٠] عَمْراً الجاحظ وتُعاقِله[١١] ، ثم تظارفُه وتُطاوِله[١٢] ، وتتغنَّى[١٣] مع مُخارق ، وتنكر فضل زَبْزَب[١٤] ، وتستجهل النَّظَّام ، وتستغبِى[١٥] قيس بن زهير ، وتستخفُّ

---

(١) م ، ط : « يطمع » .

(٢) م : « تروعك » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٣) كذا فى مج ، ش . وفى م : « وقد سعمه قبل الحجاج » وفى ط : « وقد سقيته قبل الحجاج » .

(٤) م ، ب : « وقد أتيته سراً » ، صوابه فى مج ، ش .

(٥) م فقط : « يجود » تحريف .

(٦) ب ، م : « وتحاشه » ، وفى سائر النسخ : « تخاشنه » ، والوجه ما أثبت ، وهو مفاعلة من الحسن .

(٧) كلمة « ثم » من مج ، ش فقط . ب : « لا تعقل » م : « لا يعقل » ، صوابهما فى سائر النسخ .

(٨) ب فقط : « من طعمة فيك » .

(٩) ما عدا مج ، ش : « من محاولته لك » ، تحريف .

(١٠) ب ، م : « ستحاشن » ، وفى سائر النسخ : « ستخاشن » ، والوجه ما أثبت .

(١١) أراد تباريه فى العقل . ما عدا مج ، ش : « وتغافله » .

(١٢) مفاعلة من الظرف والطول . ماعدا مج ، ش : « ثم تطارقه » وفى م : « ثم تطارقه وتطاوله » .

(١٣) مج ، ش : « وتغنى » .

(١٤) ذكره الجاحظ فى رسالة الجد والهزل ، مقروناً بالمهارة فى الشطرنج . رسائل الجاحظ ١ : ٢٦٦ . وفى مج ، ش : « فضل زرزور » .

(١٥) ب ، م : « وتستغنى » ، صوابه فى سائر النسخ .

الأحنف بن قيس[١] وتبارزُ علىّ بن أبى طالب ، ثم تخرج من حدِّ الغَلَبة إلى حدِّ المراء[٢] ، ومن حد الأحياء[٣] إلى حُدود الموْتَى .

هذا وليس لك مساعدٌ ، ولا معك شاهدٌ واحد ، ولا رأيت أحداً يقِفُ فى الحكم عليك[٤] ، أَوْ ينتظر تحقيقَ دعواك ؛ ولا رأيتُ منكِراً يُخْليك من التأْنيب ، ولا مؤنِّباً يُخْليك من الوعيد ، ولا مُوعِداً يُخْليك مِن الإيقاع ، ولا مُوقِعاً يَرْثى لك ، ولا شافعاً يشفع فيك .

يا عمِّ ، لِمَ تحمِّلنا على الصِّدق ؟ ولِمَ تُجرِّعُنا مرارةَ الحق ؟ ولِمَ تُعرِّضنا لأداء الواجب ؟ ولِمَ تَستكثر من الشُّهود عليك ؟ ولِمَ تَحمل الإخوانَ على خلاف محبَّتهم فيك ؟

اجعلْ بدلَ ما تَجْنِى على نفسك أن تجنىَ على عدوِّك ، وبدلَما يَضطرُّ الناسَ أن يصدِّقوا فيك أن تَضطرَّهم إلى أن يُمسكوا عنك .

ولا بدَّ — يرحَمُك اللهُ — لمن فاتَه الطُّول من أن يُلقِىَ بيدِه[٥] ، إنَّما يقولُ[٦] خلافَ ما يجِدُه فى نفسه . فوالله إنك لجيِّدُ الهامة[٧] ، وفى ذلك خَلَفٌ لحُسْن القامة[٨] .

وإنَّكَ لحسَنُ الخطِّ ، وفى ذلك عوضٌ[٩] من حُسْن اللَّفظ . وإنَّك

---

(١) وكان الأحنف معروفاً بالحلم .
(٢) المراء والمماراة : المخالفة والجدال .
(٣) ب ، م : « العنك »، ط : « الفتك » ، وأثبت ما فى مج ، ش .
(٤) ما عدا مج ، ش : « اتفق فى الحكم عليك » .
(٥) مج ، ش : « من أن يلقى بيده إلى التهلكة » .
(٦) مج ، ش : « أو أن يقول » .
(٧) ب فقط : « لجميد الهامة » ، تحريف .
(٨) مج ، ش : « خلف من حسن القامة » .
(٩) ب ، م : « وإنك لعوض » ، تحريف . ط : « وذلك عوض » . وأثبت مافى مج ، ش .

لتَجِدُ مقالًا(١) ، وإنَّك لتُعدُّ خصالا . فقُلْ معروفاً فإنَّا من أعوانك ، واقتصِدْ فإنَّا من أنصارك . وهاتِ فإنَّك لو أسرفْتَ لقلْنا قد اقتصدت ، ولو جُرْتَ لقلنا قد اهتديت(٢) ، ولكنك تجيءُ بشيءٍ ﴿ تَكاد السَّمواتُ يتفطَّرْنَ منه وتَنْشَقُّ الأَرضُ وتَخِرُّ الجِبالُ هَدًّا(٣) ﴾ .

لو غششناك لساعدناك ، ولو نافقناك لأَغرَيْنَاك .

٣ – فصــل

وقد كنتُ – أطال الله بقاءَكَ – فى الطُّول زاهداً ، وعن القصر راغباً(٤) ، وكنتُ أَمدح المربوعَ وأَحمد الاعتدال . ولا واللهِ لن يقوم خيرُ الاعتدالِ بشَرِّ قِصَر العُمْر ، ولا جمالُ المربوع بما يَفُوت من منفعةِ العلم .

فأَمَّا اليومَ فياليتَنى(٥) كنتُ أَقصَرَ منك وأَضْوَى ، وأَقل منك وأَقما(٦) .

وليس دُعائى لك بطول البقاءِ طلباً للزيادة(٧) ، لكن(٨) على جهة التعبُّد والاستكانة ، فإذا سمعتنى أَقول أَطال الله بَقاءَك فهذا المعنى أريد ، وإذا رأَيتنى أَقول لا أَخلَى الله مكانَكَ فإلى هذا المعنى أَذهب .

---

(١) ما عدا مج ، ش : « وإنا لنجد مقالا » .

(٢) جار عن الطريق يجور ، إذا مال وضل . ب ، م : « حرت » بالحاء المهملة ، صوابه فى سائر النسخ .

(٣) الآية ٩٢ من سورة مريم .

(٤) ب ، م : « وعن القصور راغباً » .

(٥) ب ، م : « فبالشيء » ط : « بما فليتنى » ، صوابهما فى مج ، ش .

(٦) أقما : تسهيل أقمأ من القماءة ، وهى صغر الجسم . وكتبت فى م ، ط : « أقمى » ، وهو مذهب جائز فى الرسم . وفى مج ، ش : « وأوهى » .

(٧) م فقط : « للزيارة » . وكلمة « طلباً » ساقطة مما عدا مج ، ش .

(٨) ب : « لا لكن » م ، ط : « لكن » ، وأثبت ما فى مج ، ش .

وقد زعموا ، جُعلت فِداءَك ، أنَّ كلَّ ما طال عمرُه من الحيوان زائدٌ فى شدَّة الأَركان ، وفى طُول العمر وصِحَّة الأَبدان ، كالوَرَشان والضِّباب وحُمُر الوَحْش ، وكلَحمِ النَّسر لمن أَكلَه ، ولحمِ الحيَّة لمن استحلَّه فإذا كان هذا حقًّا[1] وكان نافعاً ، وكنتَ له مستعملاً وفيه متقدِّماً ، وتراه رأْياً ، أَخذْنا منه بنصيب ، وتعلَّقنا منه بسبب .

وفيك أَمران غريبان ، وشاهدانِ بديعان : جواز الكَونِ والفسادِ عليك ، وتعاوُرُ النُّقصان والزِّيادة إيَّاك. وجوهرك فلكىٌّ وتركيبُك أَرْضِىٌّ . فمنك طول البقاء ، ومَعَك دليلُ الفناء . وأَنت علَّةٌ للمتضادِّ[2] وسببٌ للمتنافى . وما ظنُّك بخلْقٍ لا تضرُّه الإحالة ، ولا يُفسِده التَّناقض .

٤ – فصـــل

جُعلتُ فداك ، قد شاهدتَ الإنسَ منذ خلقوا ، ورأَيتَ الجنَّ قبل أَن يُحْجَبوا ، ووجدتَ الأَشياءَ بنفسك خالصةً وممزوجة ، وأَغفالًا وموسومةً[3] ، وسالمةً ومدخولة ، فما يخفى[4] عليك الحجَّةُ من الشُّبهة ، ولا السَّقَم من الصِّحة ، ولا المُمكنُ من الممتنِع ، ولا المستغلِقُ من المُبْهَم ، ولا النَّادرُ من البَديع ، ولا شِبْهُ الدَّليل من الدَّليل .

وعَرَفتَ علامةَ الثِّقة من علامة الرِّيبة ، حتَّى صارت الأَقسامُ عندك محصورةً ، والحدودُ محفوظة ، والطَّبقاتُ معلومة ، والدُّنيا بحذافيرها

(١) مج ، ش : « هذا الأمر حقاً » .

(٢) م فقط : « للمتضارب » .

(٣) ما عدا مج ، ش : « وأغفالا موسومة » ، تحريف . فإن الأغفال مالاسمة عليها ، والموسومة : ذوات السمات ، وهى العلامات .

(٤) ط فقط : « فما تخفى » بالتاء .

مصوّرة . ووجدت السبب كما وجدتَ المسبَّب ، وعرفت الاعتلال كما عرفت الاحتجاج ، وشاهدت العلل وهى تُولَد ، والأَسبابَ وهى تُصنَع ، فعرفتَ المصنوعَ من المخلوق ، والحقيقةَ من التَّمويه .

٥ – فصل

إنَّك[١] – جُعِلتُ فداكَ – كما أَنَّك لم تكن فكنت ، فكذا لا تكون[٢] بعد أَن كنتَ . وكما زدتَ فى الدَّهر الطويل فكذا تنقُص فى الدَّهر الطويل . وكلُّ طويل فهو قصير ، وكل متناهٍ فهو قليل . فإيَّاك أَنْ تظنَّ أَنَّك قديمٌ فتكفُرَ ، وإيَّاك أَن تنكر أَنَّك مُحْدَث فتشرِك ؛ فإنَّ للشَّيطان فى مثلك أَطماعاً لا يصيبُها فى سِواك ، ويجد فيك عِللًا لا يجدُها فى غيرك[٣] .

٦ – فصل

وقد علمتَ أَنَّ الخبرَ إذا صحَّ أَصلُه وكان للنَّاسِ علَّةٌ فى نَشْ ه ، كان فى الدلالة على الحقِّ كالعِيان ، وفى الشِّفاءِ[٤] كالسَّماع .

على أَنَّ الخبر لا يُعرفُ به تكيُّف الأُمور[٥] ولكن تُعرف به جُمَلُ الأَشياء ، إلَّا خَبَرَك فإنَّك لا تحتاج إلى إشارة ولا إلى علَّة ، ولا إلى

---

(١) ما عدا مج ، ش : « أنا » ، تحريف .
(٢) ب فقط : « لا يكون » ، تحريف .
(٣) ما عدا مج ، ش : « غليلا لا يجدها فى غيرك » ، تحريف .
(٤) ب : « فى الشفا » ط : « فى الشفاه » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .
(٥) ب ، م : « فكيف » ، صوابه فى ط ، مج ، ش وهامش م .

تفسير(١) حتَّى يقوم خَبرُك فى الشفاء(٢) وفى كيفية الشَّىء(٣) مقامَ العِيان .

وقد كنت أَتعجَّب من محمد بن عبد الملك(٤) وأَقول : ما يقولون فى رجلٍ لم يقل قطُّ بعد انقضاءِ خصومته وذَهابِ خَصْمه : لو كنتُ قلتُ كذا(٥) كان أفضل ، أَو كنتُ لم أَقلْ كذا كان أَمثل ! فما بال عَفْوِه أَكثَرَ من جَهْدكم ، وبديهتِه أَبْعَدَ من أَقصى فكرتكم ؟ !

فلمَّا رأَيتُك علمتُ أَنَّك عذابٌ صبَّه الله تعالى على كلِّ رفيع ، ورحمةٌ أَنشأَها الله لكلِّ وضيع .

فخبِّرنى عَمَّا جرى(٦) بينك وبين هِرْمِسَ فى طبيعة الفَلَك ، وعن سماعك مِن أَفلاطون ، ومادار بينك وبين أَرسطاطاليس(٧) ، وأَىَّ نوعٍ اعتقدتَ وأَىَّ شىءٍ اخترت ؟ فقد أَبتْ نفسى غَيْرك ، وأَبَتْ أَن تتشفَّى(٨) إلَّا بخبرك .

ولولا أَنِّى كلِفٌ برواية الأَقاويل ، ومُغرَمٌ بمعرفة الاختلاف وأَنِّى لا أَستجيزُ(٩) مسأَلتَك عن كلِّ شىءٍ ، وابتذالَك فى كلِّ أَمر ، لما سمعتُ من أَحدٍ سواك ، ولما انقطعتُ إلى أَحدٍ غيرِك .

---

(١) ما عدا مج ، ش : « إلى نفس » .
(٢) ب : « فى الشفا » ، ط : « فى الشفاه » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .
(٣) م فقط : « وفى كيفية إقامة الشىء » .
(٤) ما عدا مج ، ش : « من عبد الملك » .
(٥) ما عدا مج ، ش : « لو قلت كذا » .
(٦) ما عدا مج ، ش : « فخبرنى ما جرى » .
(٧) ب فقط : « أرسطوطيلس » .
(٨) ب : « وأنت أن تشتفى » م : « وآيت أن تشتفى »، صوابهما فى ط ، مج ، ش .
(٩) ب : « وأنى لأستجيز » ط : « وأنى أستجيز » ، صوابهما فى م ، مج ، ش .

اعلمْ ، جُعِلتُ فِداك ، أَنِّى لم أُرِد بمزاحك إِلَّا أَنْ أُضحِكَ سِنَّك ، ولا كانت غايتى فيك إِلَّا لأَنْفُقَ عندك . وقد كنتُ خفتُ أن لا أَكونَ وقفْت على حدِّهِ[١] ، وأَشفقتُ من المجاوزة لقدره .

والمزاح بابٌ ليس المخوفُ فيه التقصير ، ولا يكون الخطأُ فيه من جهة النُّقصان . وهو بابٌ متى فتَحه فاتحٌ ، وطَرَّق له مطرِّق[٢] ، ولم يملك مِن سدِّه [مِثْلَ[٣]] الذى يملك مِن فَتْحه ، ولم يَخرُج بقدرِ ما كان قدَّم من نفسه[٤] ، لأَنَّه بابٌ أَصلُ بنائِه على الخطأ ، ولا يخالطه من الأَخلاق إِلَّا ما سَخُف . ومِنْ شأْنِه التزيد ، وأَن يكون صاحبُه قليل التحفُّظ .

ولم نَرَ شيئاً أَبعدَ من شىءٍ[٥] ولا أَطولَ له صُحبة[٦] ولاأَشدَّ خلافاً ولا أَكثر له خُلْطةً ، من الجِدِّ والمُزَاح ، والمناظرة [والمراء[٧]] .

فإن كنتُ لم أَقصِّر عن الغاية ، ولم أَتجاوزْ حدَّ النهاية فَبِمَا أَعرفُ من يُمْن مكالمتك ، وبَرَكة مُكاتَبتِك ، ومِنْ حسن تقويمك[٨] وجودة تثقيفك . وإنْ كنتُ أَخطأْتُ الطَّريق ، وجاوزتُ المقدار ، فما كان ذلك عن جهلٍ بفضلك ، ولا إِنكارٍ لحقِّك ، ولكنَّ حدودَ الأَشياء إذا خفيتْ ، ومقاديرَها إذا أَشكلَتْ ، ولم يكنْ مع النَّاظر فيها مثلُ

---

(١) ما عدا مج ، ش : « وقعت على حده » .
(٢) م : « أو طرق له مطرق » .
(٣) التكلة من مج ، ش .
(٤) مج ، ش : « فى نفسه » .
(٥) ما عدا مج ، ش : « من شر » ، تحريف .
(٦) ما عدا مج ، ش : « ولا أبعد له صحبة » ، ولكن فى م : « صحة » .
(٧) التكلة من مج ، ش .
(٨) ب ، ط : « تقويتك » ، صوابه فى سائر النسخ .

تمامك ، ولا مع المتكلِّف لها(١) مثلُ كمالك ، دخَل عليه من الخَلَل بقدر عَجْزه ، وسَلِم منه بقدر نَفَاذِه . نَعَمْ ولو كان من العلماءِ الموصوفين ، ومن الأُدباءِ المذكورين .

و[من(٢)] المزاح – جعلت فداك – باب مَكْر وجنسُ خُدَع(٣) يتَّكل المرءُ(٤) فى إساءته إلى جليسه ، واستنامِه لصديقه على أن يقول «مَزَحْتُ»، وعلى أن يقول عند المحاكمة : «عَبِثْتُ(٥)» ، وعلى أَن يقول : مَن يغضَبُ من المُزاح إلَّا كزُّ الخلق ؟ ! ومن يَرغب عن المفاكَهة إلَّا ضيِّق العَطَن ؟ !

وبعد فمتى أَعدَّتِ النفسُ عذراً كانت إلى القبيح أَسرع ، ومتى لم تُعِدَّه(٦) كانت عنه أَبطأَ .

ومن أَسباب الغلطِ فيه ومن دواعى الخطأ إليه أَن كثيراً ممن تُمازحه(٧) يضحك وإن كنت أَغضبتَه ، ولا يقطع مزاحكَ وإن كنت قد أَوجعته . فإنْ حَقَد ففى الحقد الدَّاء ، وإنْ عَجِلَ فذلك البلاء .

فإن قلت : فما أَدخلك فى شىءٍ هذه سَبيلُه(٨) ، وهكذا جوهرُه وطريقُه ؟ قلت : لأَنى حين أَمنتُ عقابَ الإساءة ، ووثقت بثوابِ

---

(١) ط فقط : «بها» .

(٢) التكلة من م ، مج ، ش .

(٣) ب : «باب مكدر جنس خدع» م ، ط : «نكد وجنس خدع» ، صوابهما فى مج ، ش .

(٤) ب فقط : «المرء» ، تحريف .

(٥) مج ، ش : «لعبت» .

(٦) ماعدا مج ، ش : «ومتى لم تجده» .

(٧) ب : «يمازحه» ، تحريف .

(٨) السبيل : الطريق ، مذكر ويؤنث . وفى الكتاب العزيز : «قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة» . م فقط : «هذا سبيله» .

الإحسان ، وعلمت أنَّك لا تقْضِى إلا على العَمْد[١] ، ولا تعذِّب[٢] إلى على القَصْد ، صار[٣] الأَمن سائقاً ، والأَملُ قائداً .

وأَىُّ عملٍ أَردُّ ، وأَىّ مَتْجرٍ أَربَحُ مِمَّا جَمَع السلامةَ والغنيمة ، والأَمْنَ والمثوبة .

ولو كان هذا ذنباً كنت شريكى فيه ، ولو كان تقصيراً لكنتَ سببى إليه ، لأَنَّ دوام التَّغافُلِ شبيهٌ بالإهمال ، وتَرْكَ التعريف يورث الإغفال ، والعَفوَ الشائعَ والبِشْرَ الدَائمَ يُؤْمنان من المكافأَة[٤] ، ويَذْهَبان بالتحفُّظ ؛ ولذلك قال عُيينة بن حِصْنٍ لعثمانَ بنِ عفَّان : «عُمَر كان خيراً لى منك ، أَرْهبنى[٥] فاتَّقانى ، وأَعطانى فأَغنانى» .

فإن كنت اجترأْت عليك فلم أَجترئ[٦] عليك إلَّا بك[٧] ؛ وإن كنتُ أَخطأْتُ فلم أُخْطِئ عليك[٨] إلَّا لك ؛ لأَنَّ حُسْنَ الظنِّ بك والثِّقَةَ بِعفوِك[٩] سببٌ إلى قلة التحفُّظ[١٠] ، وداعيةٌ إلى ترك التحرزُ[١١] .

---

(١) م ، ط : « لا تقتص » ب : « لا تقفض » صوابهما فى مج ، ش. وفى ط : « إلا على العهد » ، تحريف .

(٢) ما عدا مج ، ش : « ولا تقرب » ، تحريف .

(٣) ب : « سار » ط : « ترى » ، صوابهما فى سائر النسخ .

(٤) ب : « المكافات » ، تحريف .

(٥) ب : « رهبى » م ، ط : « رهبنى » ، صوابهما فى مج ، ش . وفى المعارف لابن قتيبة ١٣٢ : « فإنه أعطانا فأغنانا ، وأخشانا فاتقانا » . وفى أسد الغابة ٢٠٠٥ فى ترجمة عينية : « وتزوج عثمان بن عفان ابنته ، فدخل عليه يوماً فأغلظ له ، فقال له عثمان : « لو كان عمر ما أقدمت عليه بهذا . فقال : إن عمر أعطانا فأغنانا ، وأخشانا فاتقانا » .

(٦) ب فقط : « فلم أجتر » .

(٧) ما عدا مج ، ش : « إلا به » .

(٨) عليك ، ليست فى مج ، ش . وفى م : « فلم أخط » وفى ط : « فلم أخطأ » وكلاهما صحيح . يقال خطىء يخطأ ، وأخطأ يخطئ ، ويسهل المضارع منهما فيجزم بحذف الألف أو الياء.

(٩) ب فقط : « والشفقة » ، تحريف .

(١٠) ط فقط : « قلة فى التحفظ » .

(١١) م ، ط : « التجوز » .

وبعدُ فمَنْ وَهَب الكبيرَ كيف يقِف عندَ الصغير(١) ، ومن لَمْ يزل يعفو عن العمد(٢) كيف يعاقب على السَّهو ؟ !

ولو كان عِظَمُ قَدْرى هو الذى عظَّم ذنبى لكان عِظَمُ قدرى هو الذى شَفَع لى . ولو استحقَقْتُ عقابَك بإقدامى عليك مع خوفِى لك(٣) لاستوجَبْتُ(٤) عفوَك عن إقدامى عليك بحسن ظنِّى بك(٥) .

على أنِّى متى أَوجبْتُ لك العفو فقد(٦) أَوجبتُ لك الفضل ، ومتى أَضَفْت إليك العِقابَ فقد وصفتُك بالإِنصاف . ولا أَعلم حالَ الفَضْل إلَّا أَشرفَ من حال العدل ؛ والحالَ التى توجب لك الشُّكر إلَّا أَرفعَ من الحال التى توجب لك الصبر(٧) .

وإنْ كنتَ لا تَهَبُ عِقابى لحُرْمَتى فهبْه لأَياديكَ عندى ؛ فإنَّ النِّعمة تشفع فى النِّعمة(٨) .

فإنْ لم تفعل ذلك للحُرمة فافعلْه لحُسْن الأُحدوثة(٩) ، وعُدْ إلى حُسن العادة . وإنْ لم تفعل ذلك لحُسن العادة فائت ما أَنتَ أَهلُه .

واعلم أنِّى وإيَّاكَ متى تحاكَمْنا إلى كَرمِك قُضِىَ لى عليك ، ومتى ارتفَعْنا إلى عدلك حَسُن العفو عنِّى عندك .

---

(١) م : « يعف عن الصغير » ب ، ط : « يعف عند الصغير » ، صوابهما فى مج ، ش.
(٢) ب ، م : « ولمن لم يزل يعفو العمد » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٣) ش فقط : « منك » .
(٤) م : « لاستجبت » ، تحريف .
(٥) ما عدا م ، ط : « لحسن ظنى بك » .
(٦) التكملة من مج ، ش .
(٧) بعده فى بعض نسخ ش : « ولا الحال التى توجب لك الصبر إلا أرفع من الحال التى توجب العذر » .
(٨) ش فقط : « فى النقمة » .
(٩) م ، ط : « لحب الأحدوثة » .

وفَضْلُ[١] ما بيننا وبينَك ، وفَرْقُ ما بَيْنَ أقدارنا وقدرِك[٢] ، أنَّا نُسىء وتَغفِر، ونُذنِب وتَستر ، ونعوَجُّ وتُقَوِّم ، ونَجهَلُ وتُعلِّم ؛ وأنَّ عليك الإنعامَ وعلينا الشُّكر . ومن صِفاتك أنْ تفعَلَ[٣] ومن صفاتنا أن نَصِفَ .

وإذا فعلتَ ما تقدر عليه من العقاب كنتَ كمن فعَلَ ما يقدر عليه من التعرُّض ، وصرتَ ترغب عن الشُّكر كما رغبنا عن السِّلم[٤] ، وصار التعرُّض لعفوك بالأَمنِ باطلًا ، والتعرُّضُ لعقابك بالخوف حقًّا ، ورغِبتَ عن النُّبل والبهاء ، وعن السُّودُد والسَّناء ، وصرتَ كمن يَشفى غيظاً أو يُداوِى حقداً ، أو يظهرُ القُدرة أو يحبُّ أن يُذكَرَ بالصولة .

ولم نجدْهُم — أبقاكَ الله — يَحمَدون القُدرة إلَّا عند استعمالها فى الخير ، ويذُمُّون العجزَ إلَّا لما يَفُوتُ به من إتيان الجميل .

وأنَّى لك بالعقابِ وأنت خيرٌ كلُّك ، ومن أَين اعتراك المنْعُ وأنت أنهجْتُ الجُودَ لأَهله[٥] . وهل عندك[٦] إلا ما فى طبعك ، وكيف لك بخلاف عادتك ؟ فلمَ تَستكرِهُ نفسَك على المكافأة وطباعُها الصَّفح[٧] ؟ ولِمَ تكُدُّها بالمناقَشَة ومَذهبُها المسامحة[٨] ؟

---

(١) ب ، م : « وفضل » بالضاد المعجمة .
(٢) م ، ط : « قدرنا وقدرك » .
(٣) ب فقط : « تنفل » ، تحريف .
(٤) ش : « التسليم »
(٥) أراد بين طريقه ومنهاجه . والفعل بهذا المعنى لم يرد فى المعاجم المتداولة .
(٦) ما عدا مج ، ش : « وهل عنك » ، تحريف .
(٧) م : « وطباع الصفح » ، تحريف . وفى مج ، ش : « وطباعك الصفح » . وأثبت ما فى ب ، ط .
(٨) بالمناقشة ، من إحدى نسخ ش . وفى سائر النسخ : « المنافسة » . والمناقشة : استقصاء الحساب . ما عدا مج ، ش : « زومذهبها السماحة » .

سبحانَ مَنْ جَعل أخلاقَك وَفْق أعراقك ، وفِعلَكَ وَفْق عملك ، ومَنْ جَعَل ظنَّك أكثر من يقيننا[١] ، وفِراسَتَك أثقبَ من عِياننا[٢] ، وعَفْوَك أرجحَ من جُهْدنا ، وبَدَاهَتَك أجودَ من تفكُّرنا ، وفِعلَكَ أرفعَ من وصفنا ، وغَيْبَتَك أهْيَبَ من حضور السَّادة[٣] ، وعَتْبَكَ[٤] أشدَّ مِن عقاب الظَّلَمة .

وسُبحانَ من جعلك تعفو عن المتعمِّد،وتَتجافَى عن عِقاب المُصِرِّ[٥]، وتَتغافَل عن المُناوِى[٦] وتصفح عن المتهاون[٧] حتَّى إذا صرت إلى من ذنبه نسيانٌ[٨] وتوبتُه إخلاص ، وهَفْوتُه بِكرٌ ، وشفاعته الحُرْمَة[٩] ومن لايعرفُ الشُّكرَ إلَّا لك ، والإنعام إلَّا منك ، ولا العلمَ[١٠] إلَّا من تأْديبك ، ولا الأَخلاقَ إلَّا من تقويمك ، ولا يقصِّر[١١] فى بعض طاعتك إلَّا لما رأى من احتمالك ، ولا نَسِيَ بعضَ ما يجبُ لك إلَّا لما داخَله من تعظيمك ــ صِرْتَ تتوعَّده بالصَّرْمِ[١٢] وهو دليلُ كلِّ بليَّة ، وتستعمل الإعراضَ وهو قائدُ كلِّ هَلكة .

وقد علمتَ أنَّ عتابك أشدُّ من الصَّريمة ، وأنَّ تأْنيبك أغلَظُ من

---

(١) ش : « أقوى من يقيننا » .
(٢) أثقب : أضوأ وأنفذ . وهذا ما فى م ، وفى سائر النسخ : « أقوى من عياننا » .
(٣) ما عدا مج ، ش : « الشاكة » . والسادة : جمع سيد .
(٤) ما عدا مج ، ش : « وعينك » ، تحريف .
(٥) ط فقط : « عذاب المصر » .
(٦) من المناوأة ، وهى المعاداة . م ، ط : « المنادى » تحريف .مج ، ش : « المبادى » ، وأثبت ما فى ب .
(٧) م ، ب : « التهادن » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٨) ما عدا مج ، ش : « شيان » .
(٩) م ، ط : « وشفعته الحرمة » مج ، ش : « وشفيعه حرمة » ، وأثبت ما فى ب .
(١٠) ب : « والعلم » بإسقاط « لا » .
(١١) مج ، ش : « ومن لا يقصر » .
(١٢) ما عدا مج ، ش : « صرت تتعود » . ط فقط : « بالصد » .

العقوبة ، وأَنَّ مَنْعَك إذا مَنعتَ فى وزن إعطائكَ إذا أَعطيت ، وأَنَّ عِقابَك على حسَب ثَوَابك ، وأَنَّ جزعى من حرمانك فى وَزْنِ سُرورى بفوائدك ، وأَنَّ شَيْنَ غضبِك كزَيْنِ رضاك[١] ، وأَنَّ موت ذكرى بانقطاع سببى منك كحياةِ ذِكرى مع اتِّصال سببى بك .

وما[لى[٢]] اليوم عملٌ أَنا إليه أَسكَنُ ، ولا شفيعٌ أَنا به أَوْثَقُ ، مِنْ شدَّة جزعى من عتبك ، وإفراط هَلَعى من خَوْفك . ولستَ مِّمن إذا جادَ بالصَّفح ومَنَّ بالعفو لم يكن لصاحبِه منهُ إلَّا السَّلامة والنَّجاةُ من الهَلَكة . بل تَشْفَعُ ذلك بالمراتب الرَّفيعة ، والعطايا الجزيلة ، والعزِّ فى العشيرة، والهيبة فى الخاصَّة والعامَّة ، مَعَ طِيب الذِّكر وشَرَف العُقْب[٣] ، ومحبَّةِ الناس[٤] .

وأَما ذِكرىَ القَدَّ والخَرْط، والطُّولَ والعَرْض، وما بيننا وبينك فى ذلك[٥] من التنازع ، والتَّشاجُر والتنافر[٦] ، فإنَّ الكلام قد يكون فى لفظِ الجدِّ وهو مِزاح[٧] .

ولو استعمل الناس الدَّماثةَ فى كلِّ حال ، والجِدَّ فى كلِّ مقال ، وتركوا التسمُّح والتَّسهيل وعَقَدوا فى كلِّ دقيق وجليل[٨] ، لكان

---

(١) الزين : الحسن . ما عدا مج ، ش : « كذم رضاك » .
(٢) التكلة من ط ، مج ، ش .
(٣) العقب ، بالضم : العاقبة . وفى كتاب الله : « هو خير ثواباً وخير عقباً » .
(٤) مج ، ش : « ومحبة النفس » .
(٥) ب ، م : « وبيننا وبينك فى ذلك » بسقوط « ما » .
(٦) مج ، ش : « والتحاكم والتنافر »
(٧) مج ، ش : « فى لفظ الجد ومعناه معنى الهزل ، كما يكون فى لفظ الهزل ومعناه معنى الجد » .
(٨) مج ، ش : « وعقدوا أعناقهم فى كل دقيق وجليل » .

الشرّ صُراحاً خيراً لهم ، والباطلُ محضاً أَرَدَّ عليهم . ولكنْ لكلٍّ شيء قَدْر ، ولكلٍّ حالٍ شِكْل . فالضَّحِك فى موضعه كالبُكاء فى موضعه ، والتبسُّم فى موضِعِه كالقُطوب فى موضعه . وكذلك المَنْعُ والبَذْل ، والعقاب والعَفْو ، وجميعُ القبض والبسط .

فإنْ ذَممنا المِزاح ففيه لعمرى ما يُذَمُّ ، وإنْ حمِدناه ففيه ما يُحمد. وفَصْل[(١)] ما بينه وبين الجدِّ أَنَّ الخطأً إلى المزاح أسرع ، وحالَه بحال السُّخف أَشبه. فأَمَّا أَن يُذَمَّ حتَّى يكون كالظُّلم ، ويُنْفَى[(٢)] حتَّى يصير كالغَدْرِ فَلاَ[(٣)] ؛ لأَنَّ المِزاح مما يكون مرَّةً حسناً ومرَّةً قبيحاً . فإذا صِرْنا إلى الجِدِّ[(٤)] ، ورغِبْنا عن الهَزْل وتركنا المزاح ، وجلسنا للحُكْم[(٥)] ، فقد أَغناك الله تعالى عن الحُجَّة ، كما سلَّمك من الشبهة ، ولم نكلِّفْك الاحتجاجَ كما نرغب بك عن الاعتلال[(٦)] ، فأَصبحتَ لا محتجًا ولا مَحجوجاً ، ولا غُفْلا ولا موسوماً ، ولا مَلُوماً ولا معذوراً[(٧)] ، ولا فيك اختلاف ولا بك حاجةٌ إلى الائتلاف .

وليس مع العِيان وَحْشة ، ولا مع الضَّرورة وَجْمَة[(٨)] ، ولا دون اليقين وقفة .

---

(١) ب فقط : « وفضل » .
(٢) ما عدا مج ، ش : « ويبقى » .
(٣) ب ، م : « كلا » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٤) مج ، ش : « فإذا ملنا إلى الجد » .
(٥) مج ، ش : « الحكمة » .
(٦) مج ، ش : « ولم يكلفك الاحتجاج كما رغب بك عن الاعتدال » .
(٧) ب : « وملوماً » بإسقاط « لا » . وفى م : « ولا ملوماً ولا معذولا » .
(٨) الوجمة من الوجوم ، وهو السكوت على غيظ أوهم أو كآبة .ب فقط : « وجهة » .

وهل فى تمامكَ ريب [١] حتَّى يُعالج بالحجّة ؟ وهل يَرُدُّ فضلك جاحدٌ [٢] حتَّى يُثْبَتَ بالبيِّنة [٣] .

وهل لك خَصْمٌ فى العلم أَو نِدٌّ فى الفَهْم [٤] ، أَو مُجَارٍ فى الحِلْم ، أَو ضدٌّ فى العزم [٥] ؟

وهل يَبلُغك الحَسَد أَو تضرُّك العَيْن [٦] ، أَو تَسْمو إليك المُنَى أَو يطمعُ فيك طامع [٧] ، أَو يتعاطَى شَأْوَكَ باغ ؟

وهل غايةُ الجميلِ إلَّا وصْفُك ، وهل زَيْنُ البليغ إلَّا مدحُك ، وهل يأْمُل الشريف [٨] إلَّا اصطناعَك ؟ وهل يقدِّر الملهوفُ إلَّا غياثك [٩] ؟ وهل للطُّلَّابِ غايةٌ سِواك ؟ وهل للغَوانى مَثَلٌ غيرك ؟ وهل للماتِح [١٠] رجَزٌ إلَّا فيك ، وهل يَحدُو الحادِى إلَّا بك [١١] ؟

ولولا أَنْ يأْخذ الواصف لك بنصيبه منك،وبحصَّته من الصِّدق [١٢] ،

---

(١) ما عدا مج ، ش : « وهل فيك ريب » .
(٢) ب : « ماد » ، م ، ط : « حاد » ، صوابهما فى مج ، ش .
(٣) ب ، م : « حتّى تثبت بالصينة » ط : « حتّى تثبت بالصبغة » صوابهما فى مج ، ش .
(٤) ما عدا مج ، ش : « أويد فى الفهم » تحريف . والند ، بالكسر : النظير والمثيل .
(٥) المجارى : الشبيه ، وأصله من يجرى مع غيره . ما عدا مج ، ش : « أو مجاز » تحريف .
(٦) مج ، ش : « وهل يتبلغك الحسد » . ب ، م : « أو يضرك العين » .
(٧) ما عدا مج ، ش : « طاغ » ، تحريف .
(٨) ب ، م : « يؤمل » .
(٩) مج ، ش : « وهل يرجو الملهوف إلا غياثك » .
(١٠) كانوا يرجزون عند المتح ، وهو الاستقاء من أعلى البئر . ماعدا مج ، ش : « وهل المادح » ، تحريف .
(١١) ش : « أوهل » ، مج ش : « إلا بذكرك » .
(١٢) ش : « من الصدق فيك » .

وبسهمِهِ من الشُّكر(١) لك، لكانَ الإطنابُ عندهم فى وصفك لَغْواً، ولكان تكلُّفه فَضْلًا .

ومَنْ هذا الذى يَضَعُه(٢) أن يكون دونك ، أو يُهجَى بالتَّسليم(٣) ، ولم نَعُدَّ(٤) إقرارَه إحساناً ، وخُضوعَه إنصافاً ؟

وهل تقع الأَبصار إلَّا عليك ، وهل تُصْرَفُ الإشارة إلَّا إليك(٥) ؟

وأىُّ أَمرِك ليس بغايةٍ ، وأىُّ شىءٍ منك ليس فى النهاية ؟ وهل فيك شىءٌ يَفُوق شيئاً أَو يفوقُه شىءٌ ؟ أَو يقال : لو لم يكن كذا لكان [أَحسن(٦)] ، أَو لو كان كذا لكان أَتَمَّ ؟

وأَين الحُسْنُ الخالصُ والجمالُ الفائق ، والمِلْح المحْضُ والحلاوةُ التى لا تستحيل ، والتَّمام الذى لا يُحيل(٧) ، إلَّا فيك ، أَو عندَك ، أَو لكَ أَو معك ؟

لا بل أَينَ الحُسن المُصْمَتُ والجمالُ المفْرد ، والقَدُّ العجيب ، والمِلْح المنثور والفضل المشهور ، إلَّا لك وفيك ؟

وهل على ظهرها جميلٌ حسيبٌ أَو عالم أَديب(٨) إلَّا وظلُّك أَكبر

---

(١) ما عدا مج ، ش : « وشيمته من الشكر » .

(٢) ط : « نصفه » .

(٣) ب : « أوتهجى بالتسليم » ، تحريف صوابه فى م ، ط . وفى مج ، ش : « ويمتحن بالتسليم لك » .

(٤) ما عدا مج : « أو تعد » .

(٥) ب ، م : « وهى تعرف الإشارة إلا إليك » ، وأثبت ما فى ط . على أن هذه الفقرة بتمامها لم ترد فى نسخ التربيع والتدوير .

(٦) التكملة من مج ، ش .

(٧) ط فقط : « لا يحل » .

(٨) مج : « أو عالم أديب » ب ، ط ، م : « وعالم أديب » ، وأثبت ما فى ش . والأريب : العاقل ذو الدهاء .

من شَخْصه ، وظنُّك أكثرُ مِنْ علمه ، واسمُك أفضلُ من معناه ، وحُلْمُك أثبت من نَجْواه ؟

ولربَّما رأيتُ الرجلَ حسناً جميلًا ، وحُلواً مليحاً ، وعتيقاً رشيقاً ، وفخْماً نبيلًا[١] ، ثم لا يكون موزونَ الأعضاءِ ولا معتدلَ الأجزاء .

وقد تكون[٢] أيضاً الأقدارُ مُتساويةً غير متقاربة ولا متفاوتة[٣] ويكون قصداً ، ومقداراً عَدْلًا ، وإنْ كانت هناك دقائقُ خفيَّةٌ لا يراها الغبيُّ[٤] ، ولطائفُ غامضةٌ لا يعرفها إلَّا الذكيّ .

فأمَّا الوزن المتحقِّق[٥] ، والتَّعديل الصحيح ، والتركيب الذى لا يفضحه التفرُّس ، ولا يحصُره التعنُّت[٦] ، ولا يتعلَّل جادِبُه[٧] ، ولا يطمَعُ فى التمويه ناعته[٨] ، فهو الذى خُصِصْتَ به دون الأَنَام ، ودامَ لك على الأيَّام .

وكذا الحُسْن إذا كان حرًّا مُرسَلًا ، وعَتيقاً مُطْلقاً[٩] ، لا يتحكَّم

---

(١) الفخم : العظيم القدر . وفى حديث أبى هالة أن النبى صلى الله عليه وسلم كان «فخماً مفخماً» ، أى عظيماً معظماً فى الصدور والعيون . ما عدا مج ، ش : « وفخيماً نبيلا » ، ولم تعرف المعاجم الفخيم .

(٢) ب فقط : « وقد يكون » .

(٣) التكلة من مج ، ش .

(٤) مج ، ش : « إلا الألمعى » .

(٥) ب : « التحقيق » م : « التحقق » مج ، ش : « المحقق » ، وأثبت ما فى ط .

(٦) ما عدا مج ، ش : « التغيب » .

(٧) الجادب : العائب . قال ذو الرمة :

فيالك من خــد أسيل ومنطق رخيم ومن خلق تعـلل جادبه

يقول : لا يجد فيه مقالا ولا عيباً يعيبه به ، فيتعلل بالباطل وبالشىء يقوله وليس بعيب . ما عدا مج : « جاذبه » بالذال المعجمة ، تحريف .

(٨) ما عدا مج ، ش : « غايته » ، تحريف .

(٩) ب فقط : « وعتقاً مطلقاً » ، تحريف .

عليه الدَّهر[١] ، ولا يُذْبِلُه الزمان[٢] ، ولا يحتاج إلى تعليق التَّمائم ، ولا إلى الصَّون والكِنّ ، ولا إلى المِنْقاش والكُحْل[٣] .

ولو لم يكنْ لحُسْنِ وجهك إلَّا أنه قد سُهِّل فى العيون تسهيلًا ، وحُبِّب إلى القلوب تحبيباً ، وقُرِّب إلى النفوس تقريباً ، حتَّى امتزج بالأَرواح وخالَط الدِّماء ، وجرى فى العُروق وتمشَّى فى العَظْم بحيث لا يبلغه السَّمَر ولا الوهم[٤] ، ولا السُّرور الشديد ، ولا الشَّراب الرقيق ، لكان فى ذلك المزيَّةُ الظاهرةُ ، والفضيلة البيِّنة .

ولو لم يكن لك إلَّا أنَّنا لا نستطيع أن نقول فى الجملة ، وعند الوصف والمِدْحة : لهو أحسَنُ من القمر[٥] ، وأضوأ من الشمس ، وأبْهَى من الغَيْث ، وأحسن من يَوْم الحِلْية[٦] ؛ وأنَّا لا نستطيع أن نقول فى التَّفاريق : كأَنَّ عُنقَه إبريقُ فِضَّة ، وكأَنَّ قدمَه لسانُ حيَّة ، وكأَنَّ وجهه ماويّة[٧] ، وكأَن بَطْنَه قُبْطيَّة[٨] ، وكأَنَّ ساقه بَرْديَّة[٩] ، وكأَنَّ لسانَه وَرَقة ، وكأَن أَنْفَه حدُّ سيف ، وكأَنَّ حاجبَه خُطَّ بقلَم[١٠] ، وكأَنَّ لونَه الذَّهب ، وكأَنَّ عوارضَه البَرَد ، وكأَنَّ فاه خاتَم ، وكأَنَّ

---

(١) ما عدا مج ، ش : « الذهن » .

(٢) ما عدا مج ، ش : « ولا يذيله الزمان » .

(٣) المنقاش : آلة النقش ، والمراد به ما ينتف به الشعر ، مج ، ش : « المناقيش » .

(٤) مج ، ش : « السم ولا الوهم » . والسمر : الحكايات التى يسمر بها ليلا .

(٥) ط ، مج ، ش : « هو أحسن من القمر » .

(٦) يوم الحلية : يوم الزينة فى الأعياد ونحوها . مج ، ش : « يوم الحلبة » بالباء الموحدة .

(٧) الماوية : المرآة . مج ، ش : « وكأن عينه » .

(٨) القبطية ، بالضم : ثياب من كتان مصر بيض رقاق . ط : « قنطية » تحريف .

(٩) البردية ، بالفتح : واحدة البردى ، وهو نبت مائى معروف يضرب به المثل فى الغضاضة واللين .

(١٠) ب ، م : « تعلم » تحريف . فى ط : « قلم » وأثبت ما فى مج ، ش .

جبينَه هِلال . ولهو أَطْهَر من الماء ، وأَرقُّ طِباعاً من الهَوَاء ، ولهو أَمضَى من السَّيل، وأَهدى من النَّجم ـ لكان فى ذلك البرهانُ النيِّرُ ، والدليل البيِّن .

وكيف لا تكون كذلك وأنتَ الغايةُ فى كلِّ فضل ،والمَثَلُ فى كُلِّ شَكْل . وأَمَّا قول الشاعر(١) :

يَزيدك وجهُــــه حُسنـــاً إذا مازِدتَـــه نَظَـــرا

وقول الدِّمشقيِّين : ما تأَمَّلْنا قطُّ تأْليف مسجدنا ، وتركيبَ مِحرابنا وقُبَّة مُصَلَّانا إلَّا أَثار لنا التأَمُّلُ ، واستخرج لنا التفرُّس ، غرائبَ حسنٍ لم نَعرِفْها(٢) ، وعجائبَ صنعةٍ لم نقِفْ عليها . وما ندرى أَجَوَاهِر مقطَّعاته أَكرمُ فى الجواهر ، أَم تنضيد أَجزائه فى تنضيد الأَجزاءِ(٣) ؟ فإنَّ ذلك معنًى مسروقٌ منِّى فى وصفك ، ومأْخوذٌ من كتبى فى مدحك .

والجملةُ التى تنفى الجِدالَ ، وتَقطَعُ القِيلَ والقال ، أَنِّى لم أَركَ قطُّ إلَّا ذكرتُ الجَنَّة ، ولا رأَيتُ أَجملَ الناس فى عَقِب رؤيتك ! إلَّا ذكرتُ النار !

ولا تَعجَبْ أَيُّها السامعُ واعلم أَنِّى مقصِّر . وإذا رأَيتَه علمتَ أَنِّى مقصِّر . وإذا رأَيتَه علمت أَنِّى فيما يجب له مفرِّط .

هو رجلٌ طينتُه حُرَّة ، وعِرقُه كريم ، ومَغرِسُه طيِّب ، ومَنشؤُه

---

(١) هو أبو نواس . ديوانه ١٢٥ ودلائل الإعجاز ١٩٤ ومعاهد التنصيص ١ : ٢٨ وديوان المعانى ١ : ٣٣١ .

(٢) ط فقط : « التفرس بين غرائب حسن لم نعرفها » » ، تحريف .

(٣) ب فقط : « تنضيض »، محرفة . وفى ش: « فى تنضيدات الأجزاء » وفى مج : « أم جواهر تنضيدات أجزائه فى تنضيدات الأجزاء » .

محمود ، غُذِىَ فى النَّعمة(١) ، وعاش فى الغبطة، وأَرْهَفَه التَّأْديب ، ولطَّفه طول التفكير(٢) ، وخامَرهُ الأَدب ، وجرى فيه ماءُ الحياء . فأَفعالُه كأَخلاقه ، وأَخلاقُه كأَعراقه ، وعادتُه كطبيعته ، وآخِرهُ كأَوّله ، تحكى اختياراتُه التَّوفيقَ ، ومذاهبُه التَّسديدَ . لا يَعرِف التكلُّف ، ويرغَب عن التجوُّز(٣) ، وينبُل عن ترك الإنصاف(٤) . لا تمتنِع عليه معرفة المُبْهَم(٥) ، ولا يُلَحَّجُ باستبانة المُشْكل(٦) ، ولا يعرِف الشكَّ إلَّا فى غيره ، ولا العِىَّ(٧) إلَّا سماعاً .

فمن يطمع فى عَيْبِك(٨) ، بل من يطمع فى قدرك . وكيف وقد أَصبحتَ وما على ظهرها خَوْدٌ(٩) إلَّا تعثُر باسمك(١٠) ، ولا قَينةٌ إلا وهى تَغَنَّى بمدْحِك(١١) ، ولا فتاةٌ إلَّا تشكو تباريحَ حبِّك(١٢) ، ولا محجوبةٌ

---

(١) ب فقط : « غذى » ، تحريف. مج ، ش : « بالنعمة » .
(٢) مج : « وألطفه طول التفكر » ش . : « وألطفه طول الفكرة » .
(٣) ما عدا مج ، ش : « التجرد » .
(٤) كلمة « ترك » من مج ، ش فقط ، وفى ب : « عن الأوصاف » . م ، ط : « عن الإنصاف » .
(٥) ب ، م : « لا يمتنع عليه معروفه المبهم » صوابه فى سائر النسخ .
(٦) يقال لحج عليه الخبر تلحيجاً ، إذا خلطه عليه وأظهر غير مافى نفسه . ب ، م ، ط : « ينجح باستبانته المشكل » ، تحريف . وفى مج « ولا يلتحج باستبانة المشكل » .
(٧) ما عدا مج ، ش : « ولا ألغى » بالغين المعجمة ، تحريف .
(٨) ما عدا مج ، ش : « فى عينك » ، بالنون .
(٩) الخود ، بفتح الخاء : الشابة الناعمة الحسنة الخلق . ب ، م : « جود » ، ط : « جواد » ، صوابهما فى مج ، ش .
(١٠) مج ، ش : « إلا وهى تعثر باسمك » ، أراد يعتريها الاضطراب لتقع فى العثار .
(١١) ما عدا مج ، ش : « إلا وهى تبغى » ، وفى ط أيضاً : « تمدحك » .
(١٢) ب : « إلا وتشكو » م: « ولا فتاة تشكو إلا تباريح حبك » ، وأثبت ما فى ط . وفى مج ، ش : « إلا وهى تشكو تباريح حبك » .

إلَّا وهى تَنْقُب الخروقَ لمرِّك[١] ، ولا عجوزٌ إلَّا وهى تدعو لك ، ولا غَيورٌ إلَّا وقد شقِىَ بك[٢] .

فكم من كبد حَرَّى[٣] مُنْضَجة ، ومَصدوعةٍ مفرَّثة[٤] ، وكم حشاً[٥] خافقٍ وقلبٍ هائم ، وكم عينٍ ساهرةٍ[٦] وأُخرى جامِدة[٧] وأُخرى باكية ؟ وكم عَبْرَى مولَّهة وفتاةٍ معذَّبة ، قد أَقرحَ قلبَها الحُزْن ، وأَجمَدَ عينَها الكمَد ، واستبدلت بالحَلْى العُطلة[٨] وبالأُنْسِ الوَحْشة ، وبالتكحيل المرَه[٩] ، فأَصبحتْ والهة مبهوتة[١٠] ، وهائمة مجهودة ، بعدَ ظَرْف ناصع[١١] ، وسِنٍّ ضاحك ؛ وبعد أَن كانت ناراً تتوقَّد وشُعلةً تتوهَّج .

وليس حُسنُك – أَبقاكَ الله – الحُسْنَ الذى تبقَى معه تَوْبة ، أَو تَصِحُّ معه عقيدة[١٢] ، أَو يَدُومُ معه عهد[١٣] ، أَو يثبت معه عَزْم ،

---

(١) ط فقط : « تثقب » بالثاء المثلثة .

(٢) ب ، ط : « شفى » بالفاء ، صوابه فى سائر النسخ .

(٣) ب ، م : « حسوى » ، والصواب فى سائر النسخ .

(٤) مفرثة : مفتتة . ب : « ومعربة » م : « ومعرية » ط : « ومعذبة » ، صوابها فى مج ، ش .

(٥) ش فقط : « وكم من حشا خافق » .

(٦) ش فقط : « وكم من عين ساهرة » .

(٧) الجامدة : التى لا تدمع . مج فقط : « جاهدة » .

(٨) كذا فى جميع النسخ . وفى المعاجم أن « العطلة » بالضم : اسم للتعطل ، وهو خلو المرأة من الحلى ، وخلو العامل من العمل .

(٩) المره : خلو العين من الكحل ، أو فسادها لتركه . والنعت أمره ومرهاء .

(١٠) المبهوت : المتحير ، والذى اعترته الدهشة .

(١١) الناصع : الخالص الظاهر . فى الأصول : « طرف » بالمهملة ، صوابه بالظاء المعجمة .

(١٢) ب ، م : « أو يضح معه عقدة » ، صوابه فى سائر النسخ .

(١٣) ب ، م : « عهدة » .

أَو يُمهِلُ صاحبه للتثبُّت(١) ، أَو يتّسع للتحيُّر(٢) ، أَو يُنهنِهُهُ زَجْر(٣) ، أَو يفيده خوفٌ(٤) . هو – أَبقاك الله – شيءٌ يَنْقضُ العادة(٥) ، ويَفْسخ المُنَّة ، ويُعجِل عن الرويَّة(٦) ، ويطوِّح بالعَزَاء(٧) ، ويُنْسَى معه العواقب .

ولو أدركك(٨) عمر بن الخطاب لصَنَع بك أَعظَمَ(٩) ممَّا صنع بنصر ابن الحجَّاج(١٠) ، ولرَكِبَك بأَعظمَ ممَّا ركب جَعْدَةَ السُّلَمى(١١) . بلْ لدعاه الشُّغْل بك إلى ترك التَّشاغُل بهما ، والغيظُ عليكَ إلى الرَّحمة لهما .

---

(١) مج ، ش : « التثبت » .
(٢) ب ، م : « أو تتسع » .
(٣) نهنه عن الأمر فتنهنه : كفه وزجره فكف ، وأصلها نهنه ، بالتضعيف ، فأبدلت الهاء الثانية نوناً . ما عدا مج ، ش : « أو ينهيه » ، تحريف .
(٤) ب : « خوفاً » ، تحريف . ومج ، ش : « أو يهذبه خوف » .
(٥) ط فقط : « ينقص العادة » ، تحريف .
(٦) المنة ، بالضم : القوة . روى فى الأمر تروية : نظر وفكر ، والاسم الروية . ب ، م : « عن الرؤية » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٧) مج ، ش : « ويطرح » ب فقط : « بالعرى » .
(٨) ب ، م : « أدرك » .
(٩) ط فقط : « أحسن » ، ووجهها « أخشن » .
(١٠) ط فقط : « حجاج » . وهو نصر بن الحجاج بن علاط السلمى . وكان قد عشقته فريعة بنت همام ، أم الحجاج بن يوسف ، وهى إذ ذاك تحت المغيرة بن شعبة ، فمر عمر ابن الخطاب ذات ليلة فسمعها تقول :

ألا سبيل إلى خمــر فأشربهـــا أو لا سبيل إلى نصر بن حجاج

فسير عمر نصراً إلى البصرة ، فنزل على مجاشع بن مسعود فعشق امرأته شميلة وعشقته ، وعرف مجاشع ذلك فأخرجه من منزله ، فنزل على بعض السلميين فرض من حبها مرضاً شديداً فتمثل به أهل البصرة فقالوا : « أدنف من المتمنى » . كما قيل « أصب من المتمنية » ، وهى فريعة بنت همام . جمهرة الأمثال ١ : ٥٨٨ والميدانى ١ : ٣٧٩ والمستقصى ١١٩ .
(١١) أدرك جعدة هذا زمان الجاهلية ، وكان غزلا صاحب نساء يحدثهن ويمازحهن ، فكن يجتمعن عنده ، فيأخذ المرأة فيعقلها ثم يأمرها بأن تمشى ، فتمرّ فتقع فتتكشف ، فيتضاحكن من ذلك ، فنفاه عمر من المدينة إلى عمان . الإصابة ١٢٨٥ .

فمن كان عيب حُسْنِه[١] الإفراطَ ، [والطعنُ[٢]] عليه من جهة الزِّيادة ، كيف يرومُه عاقلٌ أو يَنْتَقِصُه عالم .

وما نَدْرِى[٣] فى أىِّ الحالين أنت أجمل ، وفى أىِّ المنزلتين أنتَ أَكمَل ، إذا فرّقناك أو إذا جمعناك[٤] ، وإذا ذكرناكَ كلَّكَ[٥] أمْ إذا تأمّلنا بعضَك ؟

فأمَّا كفُّك فهى التى لم تُخَلقْ إلّا للتقبيل والتوقيع ، وهى التى يَحسُنُ بحُسْنِها كلُّ ما اتّصل بها ، ويختال بها كلُّ ما صار فيها[٦] .

وكما أَصبَحْنا وما ندرى: آلكأْسُ التى[٧] فى يدك أَجملُ أَمِ القلمُ ، أَم الرُّمح الذى تحمله أم المِخْصَرة ، أَم العِنانُ الذى تمسكه ، أَمْ السَّوطُ الذى تعلِّقه ؟

وكما أَصبَحْنا وما ندرى أىُّ الأُمور المتَّصلةِ برأسك أَحسنُ ، أَم أَيُّها أجمل وأَشكل : آللِّمَّةُ أَم مَخَطُّ اللِّحية[٨] ، أَم الإكليلُ أَم العِصابة ، أَم العِمامةُ أَم القِناعُ أَم القَلَنْسُوة ؟

وأَمَّا قدمُك فهى التى يَعلَمُ الجاهلُ كما يعلم العالمُ ، ويعلم البعيد

---

(١) ب ، م : « حسبه » بالباء .
(٢) التكلة من مج ، ش .
(٣) ب ، م : « وما يدرى » .
(٤) هذا ما فى مج . وفى ب ، م ط : « وإذا جمعناك » . والذى فى ش : « إذا فرقناك أم إذا تأملنا بعضك » . بهذا النقص .
(٥) م ، ط : « ذكرناك كلك » . وبعده فى مج : « أو إذا تأملنا بعضك » .
(٦) ب ، م : « ويحتال » بالمهملة ، صوابه فى سائر النسخ . وفى ب ، م : « كل من صارفيها » ، تحريف .
(٧) م ، ط : « الذى » ، صوابه فى ب فإن الكأس مؤنثة . وفى مج ، ش : « الكأس فى يدك » .
(٨) مخط اللحية : خطوطها وهيئة خرطها . م ، ط : « محط اللحية » ، تحريف .

الأقصى كما يعلم القريب الأدنى ، أنها[١] لم تُخْلَق إلّا لمنبرٍ عظيم ، أو ركابِ طِرْفٍ كريم .

وأمّا فُوك[٢] فهو الذى لا ندرى : أىُّ الذى تتفوّهُ[٣] به أحسن ، وأىُّ الذى يبدو منه أجمل[٤] : الحديث أم الشعر ، أم الاحتجاج ، أم الأمر والنهى ، أم التعليم والوصف ؟

وعلى أنّنا لا ندرى أىُّ ألسنتِكَ أبلَغُ ، وأىُّ بَيانِكَ أشفى : أقلمك أبلغ أم [خطُّك ، أم[٥]] لفظُكَ ؟ أم إشارتُك أم عَقْدك[٦] ؟ وأنت فى ذلك فوقهم — والحمدُ لله — وواحدُهم . وأعيذك بالله تعالى[٧] .

وقد علِمْنا أنَّ القَمَر ، وهو[٨] الذى يُضرَب به الأمثالُ ، ويُشَبَّه به أهلُ الجمالِ ، يبدو مع ذلك ضئيلًا ونِضواً ، ويظهر معوجًّا شخْتاً[٩] ؛ وأنت أبداً قمرٌ بدر ، وفَخمٌ غَمْر[١٠] .

ثمّ مع ذلك يَحترق فى السِّرار[١١] ، ويُتشاءَمُ به فى المحَاق ، ويكون نحساً كما يكون سَعداً ، ويكون ضَرًّا كما يكون نَفْعاً ، ويَقرِض

---

(١) ب ، م : « إلا بها » ، صوابها فى سائر النسخ .

(٢) ما عدا مج ، ش : « قولك » .

(٣) ب فقط : « تثقوه » ، تحريف .

(٤) ط : « تبدأ به » ب : « نبدو به » م : « تبدو به » صوابه فى مج ، ش .

(٥) التكملة من مج ، ش .

(٦) العقد : ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين ، ويقال له حساب اليد أيضاً . وفى الحديث أنه : « عقد عقد تسعين » . وقد ألفت فيه كتب وأراجيز . انظر الخزانة ٣ : ١٤٧ والحيوان ١ : ٣٣ والبيان ١ : ٧٦ .

(٧) بعده فى مج ، ش : « وأنت تجوز الغاية وتفوق النهاية » .

(٨) وهو ، ساقطة من ب ، وبدلها فى مج ، ش : « هو » بدون واو .

(٩) ويظهر ، ساقطة من ب ، م . والشخت : الدقيق الضئيل .

(١٠) ش : « وبحر غمر » . ط : « وفخم ذمر » : والذمر ، بالكسر : الشجاع ، والظريف اللبيب المعوان . وأما الغمر ، بالفتح ، فهو الواسع الخلق الكثير المعروف .

(١١) السرار ، بكسر السين وفتحها : آخر ليلة فى الشهر ، وفيها يستسر القمر .

الكتّان ، ويُشحِبُ الألوان[١] ، ويخمّ فيه اللّحم[٢] . وأنت دائمُ اليُمْن ، ظاهرُ السّعادة ، ثابتُ الكمال ، شائعُ النّفع ، تكسُو مَنْ أعراهُ ، وتُكنّ من أشحبه[٣] .

وعلى أنّه مَحَقَ حُسْنَه المحاق[٤] ، وشانَهُ الكَلَف ، وليس بذى توقُّدٍ واشتعالٍ ، ولا خالصٍ ولا مُتلألئ ، ويَعْلُوه بَرَدٌ[٥] ويكسِفه ظِلّ[٦] ، ثم لا يُعتبر ذلك إلّا عند كمالِهِ ، وليلةَ فَخْرِه واحتفاله .

وكثيراً ما يَعترِيه الصُّفار[٧] من بُخَار البحار . وأنتَ ظاهر التَّمام ، دائمُ الكَمال ، سليمُ الجَوْهَر ، كَرِيم العُنصُر ، نارىُّ التوقُّد ، هوائىُّ الذِّهن[٨] برِىُّ اللَّون[٩] ، رُوحانىُّ البدن .

وإن احتجُّوا عليك له بالجَزْر والمدِّ، احتججتَ عليهم بالحلم والعلم، وبأنَّ طاعتك اختيارٌ ، وطاعته طباع واضطرار[١٠]، وبأنَّله سِيرةً

---

(١) لم أجد فى المعاجم إلا «شحب» اللازم . والشحوب : تغير اللون ، والهزال .

(٢) خم يخم بكسر عين المضارع وفتحها ، خماً وخموماً: أنتن. ط ، م : «ويختر »،ووجه هذه «يخنز » بالنون والزاى ، خنز اللحم أيضاً : فسد وأنتن .

(٣) ما عدا مج ، ش : «شحبة » .

(٤) المحاق بفتح الميم وضمها : ليال ثلاث فى آخر الشهر . ب ، م : «المحوق » ، تحريف .

(٥) ش فقط : «يعلوه الغيم » .

(٦) ب ، م : «وتكسفه ظل » . وفى مج ، ش : «ويكسوه ظل الأرض » . والكسوف والخسوف مشتركان بين الشمس والقمر ، وإن كان الخسوف فى القمر أكثر والكسوف فى الشمس أغلب .

(٧) الصفار : بالضم : صفرة تعلو اللون والبشرة . اللسان (صفر ١٣٤) .

(٨) ما عدا مج ، ش : «هوائى الدهر » .

(٩) برى : مسهل برىء ، وبراءة اللون : صفاؤه ونقاؤه . مج ، ش : «درى اللون »

(١٠) الطباع ، ككتاب ، والطبع والطبيعة ، كلها بمعنى السجية يجبل عليها الإنسان وغيره ط فقط : «طبع » . وانظر الحيوان ٢ : ١٣١ / ٤ : ٤٥٢ / ٥ : ٤٨ ورسائل الجاحظ ١ : ١٠٤ ، ١١٢ .

قد قُصِرَ عليها ، ومَنازِلَ لا يُجاوزها ، ولا يُمكنه البَدَوات(١) ، وليس فى قُواهُ فضلٌ للتصرُّف(٢) .

على أنَّ ضِياءه مستعارٌ من الشَّمس ، وضِياؤك عاريَّةٌ عند جميع الخلْق(٣) . وكم بين المُعِير والمُستعير ، والمتبيِّن والمتحيِّر ، وبين العالم ومالا خيرَ فيه .

تُعِير نَسِيمَ الهواءِ طِيباً(٤) ، وتُرابَ الأَرضِ عَبَقاً .

إنْ تفتَّيتَ فالرَّشاقة والمِلْح(٥) ، وإنْ تنسَّكتَ فالرَّهبانية والإخلاص(٦) ، وإن ترزَّنت فثَهْلانُ ذُو الهضَبات ما يتحلحل(٧) .

وطِباعُك(٨) ــ جُعِلتُ فِداك ــ طِباعُ الخَمْر ، إلَّا أنَّك حَلالٌ كلُّك . وجَوهرُك جوهرُ الذَّهب إلَّا أنَّك رُوحٌ كما أنت . وقد حَويتَ خِصال الياقوت إلَّا ما زادك الله ، وأَخذْتَ خِصال المُشتَرِى(٩) إلَّا ما فضَّلك الله به ، وجمعتَ خِلال الدُّرِّ إلَّا ما خُصِصتَ به دونه . فلك من كلِّ

---

(١) البدوات : جمع بداة ، كما يقال قطاة وقطوات . والبدوات : الآراء تظهر للمرء فيختار بعضاً ويسقط بعضاً . ط فقط : « البدار » . مج ، ش : « لا تمكنه » بالتاء .

(٢) ما عدا مج ، ش : « وليس فى قوله » ، تحريف . وفى ط أيضاً : « فضل للتعرف » .

(٣) أى يستعيره جميع الخلق ، لا ضياء لهم إلا منه .

(٤) ب ، م : « يعير » ، ط : « يعيره » ، وفيها جميعاً : « الهوى » ، والوجه ما أثبت . والذى فى مج ، ش : « فلا زالت الأرض بك مشرقة ، والدنيا معمورة ، ومجالس الخير مأهولة ونسيم الهواء طيباً ، وتراب الأرض عبقاً » .

(٥) ما عدا مج ، ش : « إن هبت » ، وفى ط فقط أيضاً : « فللرشاقة » .

(٦) ما عدا مج ، ش : « وإن تمكنت » .

(٧) ب : « يتحلل » ط : « يتخلخل » ، صوابه فى سائر النسخ . يتحلحل : يتحرك ويبرح مكانه . وهو ناظر إلى قول الفرزدق فى ديوانه ٧١٧ :

فادفع بكفك إن أردت بناءنا ثهلان ذا الهضبات ، هل يتحلحل

(٨) يعنى طبعك ، انظر ما سبق فى حواشى ص ٩١ .

(٩) يسميه المنجمون السعد الأكبر ، لأنه فوق الزهرة فى السعادة . وأضافوا إليه الخيرات الكثيرة والسعادة العظيمة . عجائب المخلوقات ٢٥ .

شیءٍ[١] صَفوتُه وشَرَفُه ، ولُبابُه وبهاؤه . وهل يَضِيرُ القَمرَ[٢] نُباحُ الكلب[٣] ، وهل يُزعزِعُ النَّخلةَ سُقوطُ البعوضة ؟ !

فأَمَّا القول فی المِزاح فقد بقیَ أكثرُه ومَضَی أقلُّه .

وقد ذهَبَ النَّاسُ فی المِزاح فی مذاهبَ متضادَّة ، وسَلَكوا منه فی طرقٍ مختلفة ، فزعَم بعضُهم أَنَّ جميع المزاح خيرٌ من جميع الجِدِّ ، وزَعم آخرون أَنَّ الخير والشَّرَّ عليهما مقسومانِ ، وأَنَّ الحمدَ والذمَّ بينهما نِصفان[٤] .

وسنأْتِی علی جُملِ هذه الأَقاويل ، ثم نذكر جملةَ ما نقول إنْ شاءَ الله .

فأَمَّا المُحامِی عن الهَزْل والمفضِّلُ للمَزْح فإنَّه قال :

أَوَّل ما أَذكرُ من خِصال الهَزْل ، ومن فضائل المَزْح ، أَنَّه دليلٌ علی حُسنِ الحالِ وفراغِ البال ، وأَنَّ الجِدَّ لا يكون إلَّا من فضل الحاجة ، والمَزْحَ لا يكون إلَّا من فَضْلِ الغِنَی ، وأَنَّ الجِدَّ نَصَبٌ[٥] ، والْمَزحَ جَمَام[٦] ، والجدَّ مَبْغَضَةٌ والْمَزْحَ محبَّة . وصاحبُ الجدِّ[٧] فی بلاءٍ ما كان فيه ، وصاحب المزح فی رخاءٍ إلی أنْ يَخرُجَ منه .

---

(١) ب فقط : « فی كل شیء » .
(٢) ب : « يغير القمر » م : « يغير القهر » ط : « يغير الفهد » صوابه فی مج ، ش والحيو ان ١ : ١٣ .
(٣) مج ، ش والحيوان : « نباح الكلاب » .
(٤) م فقط : « نصفا » .
(٥) ب : « وأن الغضب جد » م ، ط : « وأن النصب جد » ، صوابهما فی مج ، ش.
(٦) الجمام ، كسحاب : الراحة .
(٧) ب ، م : « صاحب الجد » ، بدون واو .

والجِدُّ مؤلم وربّما عرّضك لأشدَّ منه ، والمَزْح مُلِذٌّ[١] وربّما عرّضك لألذَّ منه . فقد شاركَه فى التّعريض للخير والشّرّ ، وبايَنَه بتعجيل الخَيْر دون الشّرّ .

وإنما تشاغَلَ الناس ليَفرُغوا[٢] ، وجَدُّوا لَيَهْزِلوا ، كما تذَلَّلوا ليعزُّوا ، وكدُّوا ليستريحوا ، وإنْ كان المِزاح إنّما صار معيباً ، والهزلُ مذموماً ، لأَنَّ صاحبَه لا يكون إلّا معرَّضاً لمجاوزة الحَدّ ، ومُخاطراً بمودّة الصّديق .

فالجِدُّ داعيةٌ إلى الإفراط ، كما أَنَّ المزاح داعيةٌ إلى مجاوزة القدر والتجاوز للجدِّ[٣] قاطع[٤] بين الفريقين فى جميع النوعين .

فقد ساواه المزح فيما هو له[٥] وبايَنَه فيما ليس له . وإن كان المزْح إنّما صار قبيحاً لأَنَّ الذى يكون بعده جدّ ، [ولم يَصِر الجدُّ قبيحاً لأَن الذى يكون بعده مَزْح[٦]] ، وكان[٧] الجِدُّ فى هذا الوزن أَقبح ، وكان المزح[٨] على هذا التقدير أَحسن ، لأَنَّ ما جعل الشىء قبيحاً أَقبحُ من الشّىء ، كما أَنَّ ما جعل الشّىء حسناً أَحْسَنُ من الشىء .

فأَمّا الذى عَدَل بينهما فإنّه زعمَ أَنَّ المِزاحَ فى موضعه ، كالجدِّ فى موضعه ، كما أَنَّ المنْع فى حقِّهِ كالبذْل فى حقّه .

---

(١) ط فقط : « مله » .
(٢) ط فقط : « ليفزعوا »
(٣) ب ، م : « والتجاوز ولجد » ط : « والتجاوز لجد » ، صوابهما فى مج ، ش .
(٤) ما عدا مج ، ش : « قالع » .
(٥) ب فقط : « فيما له » .
(٦) ما بين المعقفين ساقط من ب . وفى مج ، ش : « لأن الذى بعده المزح » .
(٧) ب ، م ، ط : « كان » بدون واو .
(٨) ما عدا مج ، ش : « وكان الوزن » ، تحريف .

قال[١] : ولكلِّ شيءٍ موضعٌ ، وليس شيءٌ يصلُح فى كلِّ موضع . وقد قَسَّم الله تعالى الخِيَرة[٢] على المَعْدَلة ، وأجرى جميعَ الأُمور إلى غاية المصْلَحة ، وقسَّط أجزاءَ المثُوبة على العزيمةِ والرُّخصة[٣] ، وعلى الإعلانِ والتَّقيَّة ، وأَمَر بالمداراة كما أَمر بالمباداة[٤] ، وجوَّز المعاريضَ كما أَمَر بالإفصاح ، وسوَّغ المُباحَ كما شدَّد أَمرَ المفْروض[٥] ، وجعل المُباحَ جَماماً للقلوب[٦] ، وراحةً للأَبدان ، وعَوناً على معاودة الأَعمال ، فصار الإطلاقُ كالحَظْر ، والصَّبْرُ كالشُّكر .

فليس للإنسان من الخِيَرَة فى الذِّكر شيءٌ إلَّا وله فى النِّسيان مثلُه ، ولا فى الفِطنةِ شيءٌ إلَّا وله فى الغَفْلة مثله ، ولا فى السَّرَّاءِ إلَّا وله فى الضَّرَّاءِ مثلُه .

ولو لم يرزُقِ الله تعالى العبادَ إلَّا بالصَّوابِ مَحْضاً ، وبالصِّدق بَحْتاً[٧] ، وبمُرِّ الحقِّ صفحاً[٨] ، لهلَكت العوامُّ ، ولانتقض[٩] أَمرُ الخاصِّ .

---

(١) مج فقط : « فقال » .
(٢) مج فقط : « الخير » . والخيرة : الاختيار .
(٣) ط فقط : « وعلى الرخصة » .
(٤) المباداة : المجاهرة . ط فقط : « بالمبادأة » بالهمزة ، تحريف .
(٥) مج ، ش : « فى المفروض » .
(٦) ما عدا مج ، ش : « وجعل الحمام » تحريف . والجمام ، كسحاب : الراحة . ب: « حاماً » م : « حمام » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٧) مج ، ش : « وبالصدق صرفا » .
(٨) الصفح : البسط .
(٩) انتقض : انتكث . ب، م : « ولا ينقض » ط : « ولم ينقض » ، ووجههما ما أثبت . وفى مج ، ش : « وانتقض » .

ولو ذكَر الإنسانُ كلَّ ما أُنسِيَه(١) لشَقِيَ ، ولَوْ جَدَّ فى كلِّ شىء لانتكث(٢) .

وقد يكون الذِّكر إلى الهَلَكة سُلَّما كما يكون النِّسْيانُ للسَّلامة سبباً . وسبيلُ المزاح والجِدِّ كسبيل المنْع والبذل . وعلى ذلك يجرى جميعُ القَبْض والبسط .

فهذا وما قبله جُمَلُ أقاويلِ القوم .

ونحنُ نعوذ بالله أن نجعل المزاح فى الجملة كالجدِّ فى الجملة ، بل نزعُم أَنَّ بعض المَزحِ خيرٌ مِن بعضِ الجِدِّ ، وعامَّة الجِدِّ خيرٌ من عامَّة الهزل . والحقُّ أن يُنضَح(٣) عن بعض المزْح ، ويُحتجّ لجمهور الجِدِّ(٤) . وكيف لنا بذمِّ(٥) جميعِ المزْح مع ما نحن ذاكرون .

وقد مَزَح رسولُ الله صلى الله عليه وسلم(٦) . ولا يقال : كان فيه مُزاح ، ولا يقال مَزَّاح(٧) . وكذا الأَئمَّة ومن تبذَّل(٨) فى بعض الحالاتِ من أهل الحِلْم والوقار .

وقال عمر رضوان الله تعالى عليه : « إنَّا إذا خَلَوْنا كُنَّا كأَحَدِكم » .

وقد كان عُمرُ عبوساً قطوباً .

---

(١) ط فقط : « أتيته » ، تحريف .

(٢) ما عدا مج ، ش : « مما لا تنكث » ، تحريف .

(٣) النضح : الدفاع والذب بالحجة . م : « ينضبج » ط : « ينصبح » ، محرفتان .

(٤) ط : « ويجنح » .

(٥) ط : « وكيف يتم لنا بذم » م : « وكيف لنا بنم » ، صوابهما فى سائر النسخ .

(٦) بعده فى ب ، ط : « وعلى آله » .

(٧) ط فقط : « مزح » ، تحريف .

(٨) ب ، م : « ومن تبدل لى » ، صوابه فى ط . وفى مج ، ش : « ومن هزل » .

وكان زيادٌ مع كُلوحِهِ وقُطوبِهِ[١] ، يمازِح أهلَه فى الخَلَا كما يَجِدُّ فى الملَا .

وكان الحجَّاج مع عُتوِّه وطُغيانه ، وتمرُّدِه وشدَّة سلطانه ، يُمازِح أزواجَه ويرقِّص صِبيانِه . وقال له قائل[٢] : أيمازح الأَميرُ أهلَه ؟ قال : «والله إنْ تَرَوْنى[٣] إلَّا شيطاناً ؟ والله لربَّما رأيتُنِى وإنِّى لأُقبِّل رِجْلَ إحداهنَّ ! » .

فقد ذكرنا خَير العالَمين، وجِلَّةً من خيار المسلمين، وجبّاراً عَنيداً، وكافراً لعيناً .

وبعدُ فمن حرَّم المِزاحَ وهو شُعبةٌ من شعب السُّهولة ، وفَرْعٌ من فروع الطَّلاقة . وقد أتانا رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بالحنيفيَّة السَّمْحة ، ولم يَأْتنا بالانقباضِ والقَسْوة ، وأمرنا بإفشاءِ السلام ، والبِشْرِ عند الملاقاة ، وأَمَرَنَا بالتوادُدِ[٤] والتَّصافح والتَّهادى .

٧ — فصـــل

قد اعتذرنا[٥] فى مَعصيتك والخلافِ على محبَّتك مرَّةً بالمزاح ، ومرّة بالنِّسيان ، ومرّةً بالاتكال على عَفْوِك وعلى ما هو أولَى بك .

(١) الكلوح : التكشر وبدو الأسنان فى العبوس . والقطوب : تزوى ما بين العينين عند العبوس . ب ، م : « وكان زياد معه كلوحة وقطوبة » ، ط : « وكان معه زيادة كلوحة وقطوبة » ، صوابهما فى مج ، ش .

(٢) ب : « قايد » م ، ط : « قائد » ، صوابهما فى مج ، ش . والقائل هذا هو عنيسة ابن سعيد ، كما سيأتى فى الفصل الرابع من كتاب النساء .

(٣) كذا فى جميع النسخ بحذف إحدى النونين ، وهو جائز فى العربية . وفى المغنى فى باب النون : « ونحو تأمرونى يجوز فيه الفك ، والإدغام ، والنطق بنون واحدة . وقد قرىء بهن فى السبعة . وعلى الأخيرة قيل النون الباقية نون الرفع ، وقيل نون الوقاية . وهو الصحيح » .

(٤) كذا بالفك فى جميع النسخ ، و فى مج فقط : « بالتّزاور » .

(٥) ما عدا مج ، ش : « قد اعتدنا » .

والجملةُ[١] أنَّا لو تعمدنا ثم أَضْرَرْنا ثم أنكرْنَا ، لكان فى فَضْلك ما يتغمَّدنا[٢] ، وفى كَرَمك ما يُوجِب التَّغافُلَ عنَّا[٣] . فكيف وإنَّما سَهَوْنا ثمّ تذكَّرنا ، واعتذرنا ثمّ أَطنبنا .

فإنْ تقبل[٤] ، فحظَّكَ أَصبْتَ ، ولنفسك نَظَرت . وإنْ لم تَقْبلْ فاجهَدْ جَهْدَك[٥] ، ولا أَبقَى اللهُ عليك إنْ أَبقيتَ ، ولا عفا عنك إنْ عفوتَ . وأَقول كما قال أَخو بنى مِنْقر[٦] :

فما بُقْيَا علىَّ تركتُمـــانى ولكنْ خِفْتُما صَرَدَ النِّبالِ[٧]

واللهِ لَئِن رميتَنى ببَجِيلةَ لأَرمينَّك بكِنانة ، ولئنْ نهضْتَ بصالح بن علىٍّ لأَنهضنَّ بإسماعيل بن علىّ[٨] ، ولئن صُلْتَ علىّ بسليمان بن وهب[٩] لأَدمغنَّك بالحَسنِ بنِ وهب ، ولئن تِهْتَ[١٠] علىّ بمنادمة جعفر الخياط[١١]

---

(١) مج ، ش : « وفى الجملة » .

(٢) ما عدا مج ، ش : « ما يتغمده » .

(٣) ما عدا مج ش : « التغافل عنه » .

(٤) ب ، م : « فلم تقبل » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٥) مج ، ش : « فاجهد جهدك ثم اجهد جهدك » .

(٦) هو اللعين المنقرى . الحيوان ١ : ٢٥٦ واللسان (صرد ٢٣٦ ، بقى ٨٦) .

(٧) البيت من أبيات يخاطب بها جريراً والفرزدق . والصرد : الإصابة ، والخطأ ، فهو من الأضداد . فعلى الأول يراد : خفتما أن تصيب نبالى ، وعلى الثانى يراد : خفتما أن تخطىء نبالكما . والبقيا : الاسم من قولهم : أبقيت على فلان ، : إذا أرعيت عليه ورحمته .

(٨) مج ، ش : « بأحمد بن خلف وبإسماعيل بن على . وإسماعيل هو ابن على بن عبد الله ابن العباس ، وهو عم السفاح والمنصور . ولى لأبى جعفر فارس والبصرة . المعارف ١٦٣ والطبرى ٨ : ٨٥ .

(٩) ابن وهب ساقطة من ب .

(١٠) ب ، م : « بهت » ، صوابه فى سائر النسخ .

(١١) هو جعفر بن دينار الخياط ، أحد قواد المأمون والمعتصم والمستعين والواثق والمتوكل . وجهه المأمون سنة ٢١٥ إلى صاحب حصن سنان فى حرب الروم . كما وجهه المعتصم سنة ٢٢٢ إلى الأفشين مدداً له . الطبرى ٨ : ٦٢٣ و ٩ : ٢٩ .

لأَتيهن(١) عليك بحِسْبة(٢) وهبِ الدَّلَال(٣) .

وأنا أرى لك أنْ تقبل العافية ، وترغب إلى الله تعالى فى السّلامة .

واحذَر البَغْىَ فإنَّ مصرَعَه وخيم ، واتَّقِ الظُّلم فإنَّ مَرعاهُ وبيل .

وإياك أنْ تتعرَّض لجريرٍ إذا هجا ، وللفَرزدقِ إذا فَخَر ، ولهَرْثَمَةَ إذا دبر(٤) ، ولقَيْس بنُ زُهير إذا مكَر(٥) ، وللأَغلب إذا كرّ(٦) ، ولطاهرٍ إذا صال(٧) . ومَن عَرَفَ قدْرَه عَرَفَ قدرَ خَصمِه ، ومن جَهِلَ نَفْسَه لم يعرِفْ قدرَ غيره .

وعليك بالجادَّة ودع البُنَيَّات(٨) فإنَّ ذلك أَمثلُ لك .

(١) ما عدا مج ، ش : « لأُبهتن » .

(٢) ب : « بحبسة » . تحريف ما أثبت من م ، ط . والحسبة : الاكتفاء ، والمراد بكفايته لى . وفى مج مع تصحيح : « بمجالسة » ، وفى ش : « بجسة » .

(٣) فى البيان ٤ : ١٣ من يدعى وهبا المحتسب .

(٤) هرثمة بن أعين : قائد عباسى ، ولاه الرشيد مصر ثم أفريقية ، ثم عقد له على خراسان ثم قاد الجيوش للمأمون أيام الفتنة ، ثم حبسه حتى مات سنة ٢٠٠ . النجوم الزاهرة والطبرى فى حوادث سنة ٢٠٠ .

(٥) قيس بن زهير سيد بنى عبس ، وكان يقال فيه « أدهى من قيس بن زهير » . جمهرة العسكرى ١ : ٥٤٧ والميدانى ١ : ٢٥٠ والمستقصى ١ : ١٢١ .

(٦) الأغلب بن جشم بن سعد بن عجل بن لجيم ، العجلى ، وهو أحد المعمرين ، عمر فى الجاهلية عمراً طويلا ، وأدرك الإسلام فأسلم وحسن إسلامه وهاجر ، ثم كان فيمن توجه إلى الكوفة مع سعد بن أبى وقاص ، فنزلها واستشهد فى وقعة نهاوند ، فقبره هناك فى قبور الشهداء . وانظر أخباره فى الأغانى ١٨ : ١٦٤ — ١٦٧٩ والشعراء ٥٩٥ .

(٧) طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق بن حمزة الرستمى ، من ولد رستم بن دستان وهم موالى خزاعة فى الإسلام وإليهم ينتمون ، وقد ندبه المأمون للقاء على بن عيسى بن ماهان قائد الأمين ، فهزم جيشه وفض جموعه سنة ١٩٥ فحينئذ سلم على المأمون بإمرة المؤمنين ، وسمى طاهر ذا اليمينين ، لأن المأمون كتب إليه لما فرغ من أمر المخلوع : يا أبا الطيب ، يمينك يمين أمير المؤمنين ، وشمالك يمين فبايع بيمينك يمين أمير المؤمنين . التنبيه والإشراف ٣٠٠ — ٣٠١ وثمار القلوب ٢٩١ .

(٨) البنيات : جمع بنية ، تصغير ابنة . وبنيات الطريق ، هى الصعاب والمعاسف . يقال للرجل فى الوعظ : الزم الجادة ودع بنيات الطريق . وقال محمود الوراق :

تنكب بنيات الطريق وجوزها فإنك فى الدنيا غريب مسافر

ثمار القلوب ٢٧٨ . وفى اللسان (بنى ٩٨) أن بنيات الطريق هى الطرق الصغار تتشعب من الجادة ، وتسمى أيضاً الترهات .

وأنت ـ والله يا أخى ـ تَعلمُ عِلم الاضطرار وعلمَ الاختيار وعلم الأَخبار، أنّى[(١)] أظهرُ منك حرباً، وألطف كيداً، وأكثر علماً، وأوْزَن حِلماً، وأخفُّ روحاً، وأكرمُ عيناً، وأقلُّ غَثًّا[(٢)] وأحسَنُ قدًّا وأبعدُ غَورا، وأجْمَلُ وجهاً، وأنصع ظرفاً[(٣)]. وأكثر مِلْحاً[(٤)]، وأنطَقُ لساناً وأحسَنُ بياناً، وأجهر جَهارةً، وأحسن شارة[(٥)].

وأنت رجلٌ تشدو من العلم، وتَنتِف من الأَخبار[(٦)]، وتموّه نفسَك[(٧)]، وتُعِزُّ مِن قَدْرِك، وتتهيَّأُ بالثِّياب، وتتنبَّل بالمراكب، وتتحبَّب بحُسْن اللقاءِ[(٨)]، ليس عندك إلَّا ذاك. فلِمَ تُزاحِمُ البحرَ بالجداول[(٩)]، والأَجسامَ بالأَعراض، وما لا يتناهى بالجزء الذى لا يتجزَّأ.

فأَمّا البادُّ والقامة[(١٠)]، فمن يَعدِلُ بين القَناةِ والكُرَة، ومن يميِّل بينَ النخلة والدَّقَل[(١١)]، وبين رَحَى الطحّان وبين سيفٍ يمان. وإنما يكون التَّمييل[(١٢)] بين أَتمّ الخيرين وأنقَصِ الشَّرّين، وبين المتقاربين

---

(١) ب، م: «أى»، صوابه فى سائر النسخ.
(٢) الغث: الردىء من كل شىء. ب: «غشا» ش: «عيبا»، وأثبت ما فى سائر النسخ.
(٣) الناصع: الخالص الواضح. ط فقط: «طرفا».
(٤) الملح، بالكسر: الحسن. يقال ملح يملح ملوحة وملاحة وملحاً، أى حسن.
(٥) الشارة: الحسن والهيئة واللباس. ط، مج، ش: «إشارة».
(٦) النتف: الانتزاع. ويقال رجل نتفة، بضم ففتح، ينتف من العلم شيئاً ولا يستقصيه.
(٧) أصل التمويه الطلاء بالذهب أو بالفضة.
(٨) ما عدا مج، ش: «لحسن اللقا».
(٩) ما عدا مج: «البحر بالجداول». والجدول بفتح الجيم وكسرها: النهر الصغير،
(١٠) الباد: أصل الفخذ. ب، م: «فامك الباد والعامة» ط: «فإنك الباد والعامة» صوابهما فى مج، ش.
(١١) ماعدا ب: «يمثل». والتمثيل بين الشيئين: الموازنة بينهما. وانظر الحيوان ٢: ٩٨، ١٥١ واللسان (ميل ١٦٠). ب، م: «النحلة»، صوابه فى سائر النسخ. والدقل: ضرب ن النخل ردىء التمر. ب، م: «والدكل» ط: «والدكل»، صوابهما فى مج، ش.
(١٢) فى جميع النسخ: «التمثيل»، والوجه ما أثبت.

دونَ المتفاوِتين . فأمّا الخَلُّ والعَسَل ، والحَصاةُ والجَبَل ، والسّمُّ والغِذاءُ ، والفقرُ والغنى [١] ، فهذا مما لا يَخْطأُ فيه الذِّهن [٢] ولا يَكذِب فيه الحِسّ .

والخطأُ ثلاث : خطأُ الحِسّ ، وخطأُ الوَهْم ، وخطأُ الرأى . كل ذلك سبيله التنبيه والتذكير [٣] ، والتقويم والتأنيب [٤] .

والعَمْد نوعٌ واحد ، وسبيلُه القَمْعُ والحَظْر ، والضّرب والقتل . وأوّلُ ذلك أنْ يهجره صاحبُ الحكمة [٥] ، ولا يُطمعه فى وعظٍ ولا مجالسة .

وقد رأيتَ مَن يعاند الحقَّ إذا كانت المعرفة عِياناً . وأنت لا ترضى بجحد العِيان [٦] حتّى تدعوَ إليه ، ولا ترضى بالدُّعاء إليه حتّى تعادىَ فيه ، ولا ترضى بالعداوة حتّى يكون لك فى ذلك الرياسة [٧] ، ولا ترضَى بالرِّياسة دون السّابقة [٨] ، ولا بالطّارف دون التّالد ، ولا بالتّالد دون الأعراقِ التى تسرى ، والمواليد التى تَنْمِى . ولا ترضى بأن يكون أوّلًا حتّى تكون آخِراً [٩] ، ولا بالمداراة دون المباداة [١٠] ،

---

(١) ب فقط : « والغنا » .

(٢) هذا ما فى ب . يقال خطِئ يخطأ خطأ ، من باب فرح . م ، ط : « يخطى » مسهل أخطأ يخطئ . وفى مج ، ش : « يخطئ » .

(٣) م فقط : « التثنية » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « والتأنيث » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٥) ش فقط : « أن يهرجه صاحب الحكة » .

(٦) ما عدا مج ، ش : « بحجة العيان » .

(٧) مج ، ش : « لك فيه الرياسة » ، وأثبت ما فى م ، ب . وفى ط : « لك الرسالة » وهذه محرفة .

(٨) كلمة « دون » ساقطة من ط . والسابقة : السبق والتقدم .

(٩) ب : « ولا يرضى بأن يكون أولا حتى يكون آخراً » . ومثله فى م مع البدء بقوله : « ولا يرضى » . مج ، ش ، ط : « ولا ترضى بأن تكون أولا حتى تكون آخراً » . ولعل الوجه ما أثبت .

(١٠) المباداة : المجاهرة كما سبق فى

ولا بالجِدال دون القتال . وحتَّى ترى أنَّ التقيَّة حرامٌ(١) وأنَّ التقصير كُفْر .

وحتَّى لو كنت إمامَ الرافضة لقُتِلتَ فى طرفةٍ(٢) ولو قُتلتَ فى طرفة(٣) لهلكت الأُمّة ، لأَنَّك رجلٌ لا عَقِبَ لك . والإمامةُ(٤) لا تصلح اليوم(٥) فى الإِخْوة ، ولو صلحت فى الإِخوة(٦) كانت تصلُح فى ابن العمّ ، ثمّ دنت من الأَرحام شيئاً(٧) فصارت لا تصلُح إلَّا فى الولد. وفى هذا القياسِ أنَّها بعد أَعوامٍ لا تَصلحُ(٨) إلَّا ببقاء الإمام نفسه إلى آخر الأَبد . وهذا هو علَّة أَصحاب التناسخ(٩) . وأَنت رافضىٌّ ولم يكن هذا عندك .

فأَهدِ إلىّ الآن من خالص التُّوتيا(١٠) كما أَهديت إليك بابَ التناسُخ .

وأَنت ترى القَتْل فى حقِّ المعاندة شهادةً ، وترى أنَّ مُباينةَ

---

(١) التقية : أن يظهر أمراً وباطنه بخلاف الظاهر ، يفعل ذلك اتقاء .

(٢) ب : « لو قلت فى طرفة » ، م : « لو قلت فى طرفة » ، ط : « وكنت فى طرف » ، والصواب من مج ، ش . والمراد طرفة عين .

(٣) التكلة من مج ، ش .

(٤) ب : « والإماة » م : « والإماءة » ، والصواب فى سائر النسخ .

(٥) التكلة من مج ، ش .

(٦) مج ، ش : « ثم إنها دنت من الأرحام بعد ذلك » .

(٧) ب ، م فقط : « لا يصلح » ، تحريف .

(٨) مج ، ش : « المناسخة » .

(٩) ب ، م : « فاهد الأن الأن من خالبن التوتيا » ط : « فاهد الآن من لبن التوتيا » صوابهما فى مج ، ش . وفى اللسان : « التوتياء معروف حجر يكتحل به » . وهو باللاتينية : (Tutia) وبالإنجليزية : (Tuty) . وقد عرفها الطبيب محمد شرف بأنها أوكسيد الزنك غير النقى » . قال داود : « وأصل التوتيا إما معدنى يوجد فوق الأقليميا ... وإما مصنوع من الأقليميا المسحوقة » .

المنصفين فى تعظيم العُنود سعادة (١) ، وأنَّ الرياسة فى دَفع الحقائق مَرْتبة ، وأنَّ الإقرار بما يظهر لِلعيون ضَعَة (٢) ، وأنَّ الشُّهرة (٣) بالمغالبة رِفعة .

أظهرُ القوم عندك حجَّةً أرفعُهم صوتاً ،[وأخلقُهم (٤)] للتَّوبة أصلبُهم وجهاً ، وأحسنهم تقيَّةً أقلُّهم تحرُّجاً (٥) ، وأحسَنُهم إنصافاً أشدُّهم شَغَباً .

تَعشَق المتهوِّر (٦) ، وتَكْلَفُ بالجَموح ، وتُصافِى الوَقَاح . والأديبُ عندك مَن يعيبُ أحاديثَ الجلساء ، واعتَرَض (٧) على نوادر الإخوان ، وغَمزَ فى قفا النَّديم (٨) ، ونَصَبَ للعالِم ، وأبغَضَ العاقل (٩) ، واستثقل الظَّريف ، وحَسَدَ على كلِّ نعمة ، وأنكَر كلَّ حقيقة .

جُعِلتُ فداك . إنَّما أُخرجُك من شىءٍ إلى شىءٍ (١٠) ، وأُوردُ عليك البابَ بعد الباب ،[لأنَّ (١١)] من شأن النَّاس مَلالةَ الكثير ، واستثقالَ الطَّويل وإنْ كثُرَتْ محاسنُه وجَمَّت فوائده . وإنَّما أردتُ أن يكون استطرافكِ للآتى (١٢) قبلَ أن ينقضِىَ استطرافُكَ للماضى ؛ ولأنَّك متى

---

(١) العنود ، بالضم : الميل والجور عن القصد . ما عدا مج ، ش : « العمود » .
(٢) ماعدا مج ، ش : « بما يظهر العيون » وفى م أيضاً : « صفة » ، تحريف .
(٣) ما عدا مج ، ش : « الشهوة » ، تحريف .
(٤) التكلة من مج ، ش .
(٥) ما عدا مج ، ش : « وأحسنهم بغية أقلهم خرجا » ، تحريف .
(٦) مج : « المتهود » ، تحريف .
(٧) ب ، م : « وأعرض » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٨) كناية عن الغيبة . والغمز : العيب .
(٩) ب ، م : « العاقل » ، صوابه فى سائر النسخ .
(١٠) م ، ط : « من موسى إلى شىء » ، تحريف .
(١١) التكلة من مج ، ش .
(١٢) مج ، ش : « للتالى » .

كنت للشيء متوقِّعاً ، وله منتظراً[(١)] ، كان أحظى[(٢)] لما يَرِدُ عليك ، وأشهى لما يُهدَى إليك . وكلُّ منتظرٍ معظَّم ، وكلُّ مأمولٍ مكرَّم .

كلُّ ذلك[(٣)] رغبةً في الفائدة ، وصَبابةً بالعلم ، وكَلَفاً بالاقتباس ، وشُحًّا على نصيبي منك ، وضَنًّا بما أُؤمِّله عندك ، ومداراةً لطِباعِك ، واستزادةً من نشاطك . ولأنَّك على كلِّ حالٍ بَشَر ، ولأنَّك مُتناهي القوّة مدبّر .

٨ — فصل

والعقلُ — حفظك الله — أطولُ رقدة من العين[(٤)] ، وأحوج إلى الشّحذ من السَّيف[(٥)] ، وأفْقَر إلى التّعاهُد ، وأسرعُ إلى التغيُّر ، وأدواؤهُ أقتَل ، وأطبّاؤه أقلّ . فمن تداركَه قبل التّفاقُم أدرك أكثر حاجتِه ، ومن رامَه بعد التّفاقُم لم يدركْ[(٦)] شيئاً من حاجته .

ومن أكبر أسبابِ العلم كثرةُ الخواطر ، ثُمّ معرفةُ وجوهِ المطالب . [ثمّ[(٧)]] في الخواطر الغثُّ والسَّمين ، والفاسدُ والصَّحيح ، والمسرعُ إليك والبطيءُ عَنك ، والدَّقيق الذى لا يكاد يُفهَم ، والجليل الذى لا يَلْق الفَهم . ثم هى على طبقاتها في التقديم والتأخير ، وعلى منازلها في التّبايُن [والتّمييز[(٨)]] .

---

(١) مج ، ش : « منتظراً وله متوقعاً » .
(٢) م فقط : « أخطأ » ، محرف .
(٣) ط : « وذلك » .
(٤) ب فقط : « رفدة من العين » .
(٥) ما عدا مج ، ش : « من الشيب » ، تحريف .
(٦) ب ، م : « ولم يدرك » . والواو مقحمة .
(٧) التكملة من مج ، ش .
(٨) التكملة من مج ، ش .

وللمَطَالب طُرق ، ولِدَرْك الحقائق أبواب ، فمَنْ أخطأها وانتَظَر[١] كان أسوأ حالًا ممّن لم يخطئها ولم يَنتظِر[٢] . وعلى قَدْر صحّة العقل يصحُّ الخاطر ، وعلى قدر التفرُّغ يكون التنبُّه .

هذا[٣] جِماعُ هذا الكتابِ وجمهرتُه ، وأقسامُه وجملته .

ثُمّ مِن أنفع أسبابه الحِفْظُ لما قد حُصِّل ، والتقييد لما وَرَد ، والانتظار لما لم يرد[٤] ، وأنْ لا تُخْلِيَ نفسَك من الفِكْرَة إلّا بقَدْر جَمَام الطَّبيعة ، وأنْ تعلم أنّ مكان الدَّرس من الحِفْظ كمكان الحِفْظ من العلم ، وأنْ تعرفَ فصْلَ[٥] ما بين طَلبِ العلم للمنافَسَةِ والشُّهرة[٦] ، وبين طلبِه للرَّغبة والرَّهبة ، وتَعلَمَ أنَّ العلم لا يجود بمكنونه ، ولا يسمح بسرِّه ومخزونه ، إلّا لمن رغِبَ فيه لكرم عُنصُرِه ، وفَضَّله لحقيقةِ جوهره ، ورَفَعه عن التكسُّب ، وصانَهُ عن التبذُّل . وأنّه لا يُعطيك خالصَ الحِكمة حتّى تُعطِيَهُ خالص المحبّة . كان يُقال : « مَنْ شابَ شِيبَ له[٧] » .

وخَصْلةٌ ينبغي أن تعرفَها وتقِفَ عندها[٨] ، وهو أن تبدأ من العلم

---

(١) ما عدا مج ، ش : « ونظر » .

(٢) ما عدا مج ، ش : « ولم ينظر » .

(٣) مج ، ش : « هذه » . وجماع كل شيء : مجتمع أصله ، والجامع للأشياء الشامل ما فيها .

(٤) ب : « وانتظار كا لم يرد » ، صوابه في م ، ط . وفي مج ، ش : « والانتظار لما يرد » .

(٥) الفصل : الفرق . ما عدا مج ، ش : « فضل » .

(٦) ما عدا مج ، ش : « للمناسبة والشهوة » . وفي مج ، ش : « المنافسة والشهوة » والوجه ما أثبت .

(٧) الشوب : الخلط .

(٨) م : « وخصلة ينبغي أن يعرفها ويقف عندها وهو أن يبدأ من العلم بالمهم ويختار » .. إلخ ، تحريف . وفي مج ، ش : « وخصلة ينبغي أن تعرفها وتصطنعها وتتذكرها وتقف عندها » .

بالمهمّ، وتختار من صنوفه ما أنت أنشطُ له (١) ، والطَّبيعةُ به أعنَى ؛ فإنَّ القَبولَ (٢) على قَدْر النَّشاط، والبلوغَ فيه على قدر العناية .

ثُمّ من أفضل أسبابه تخليصُ أخلاقه (٣) ، وتمييزُ أجناسه، والمعرفةُ بأقداره، حتَّى تُعطىَ كلَّ معنى حقَّه من التقريب والرِّفعة (٤) ، وقِسطَه من الإبعاد والضَّعَة ، حتَّى لا تتشاغلَ (٥) إلَّا بالسَّمين الثمين ، وبالخطير النَّفيس ، ولا تُلقىَ إلَّا الغثَّ الخسيس ، والحقيرَ السخيف . فإنَّك متى كنتَ كذلك لم تعتبِرْ فَضْل (٦) ما بين النَّظَرين ، ولا صَرْفَ ما بين النعلين (٧)

الكَيْسُ كلُّ الكيس ، والحِذْقُ كلُّ الحذق : أنْ لا تَعْجَلَ ولا تبطئ ، وأنْ تَعلمَ أنَّ السُّرعةَ غير العَجَلة ، وأنَّ الأَنَاةَ خِلافُ الإبطاء . وأنْ تكون على يقينٍ من دَرْك الحقّ إذا وَفَّيته شرطَه (٨) ، وعلى ثقةٍ من ثَوَاب النَّظر إذا أعطيتَه حقَّه .

هذا (٩) جملةُ ما للعُذر فى هذه المسألة، وجملةُ الحُجَّة فيما قدَّمنا من الافتنان والإطالة . فإنْ كُنَّا أصبْنا فالصَّوابَ أردنا ، وإنْ كنَّا أخطأنا فما ذاك عن فسادٍ من الضمير ، ولا قِلَّة احتفالٍ بالتقصير . ولعلّ طبيعةً

(١) ما عدا مج ، ش : « ما أنت أنشط له » .
(٢) ما عدا مج ، ش : « فإن القول » ، تحريف .
(٣) ما عدا مج ، ش : « تلخيص » ، والتلخيص : التبيين والشرح .
(٤) ما عدا مج ، ش : « حتى يعطى كل معنى حقه من التقريب والرفعة » .
(٥) ما عدا مج ، ش : « حتى لا يتشاغل » .
(٦) ش : « لم تميز فصل » ، مج : « لم تميز فضل » .
(٧) ط ، مج ، ش : « ولا فرق ما بين النعلين » . والصرف : الزيادة والفضل .
(٨) ب فقط : « أوفيته » .
(٩) مج ، ش : « هذه » .

خانت ، أَو لعلّ عادةً جذبَتْ[١] ، أَو لعلّ سهواً اعترض ، أَو لعلّ شُغْلاً مَنَع .

خفِّض عليك أَيُّها السامع ، فإِنَّ الخطأَ كثير عامٌّ[٢] ، وغالبٌ مُسْتَوْلٍ ، والصَّوابَ قليلٌ خاصٌّ ، ومقموع مُسْتخفٍ .

فوجِّهِ اللائمةَ إِلى أَهلها ، وأَلْزِمْها مَنْ هو أَحقُّ بها ، فإِنَّهم كثير ومكانهم مشهور[٣] .

اعجبْ من الصَّواب لا تعجَبْ من الخطأ . اعجبْ من أَنَّ العجَبَ قَدْ ذهب . اعجبْ ممن يتعجَّبَ وفيه العَجَب أعجب . وكيف التعجُّبُ والأُمور كلُّها عَجَب[٤] ؟!

كنت[٥] أَتعجَّبُ من كلِّ فعل خرج من العادة ، فلمَّا[٦] خرجت الأَفعالُ بأَسرها من العادة صارت[٧] بأَسرها عجباً ، فبدخولِ كلِّها فى باب العَجَب خرجَتْ بأَجملها من باب العَجَب .

وقد ذكر[٨] الله تعالى ذكرُه التعجُّبَ فى كتابه جلَّ جلاله . وقد تعجَّب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلى آلِه فى زمانِه ، وفى الناس

---

(١) مج ، ش : « أو لعل علة حدثت » .
(٢) ما عدا مج ، ش : « كبير عام » ، تحريف .
(٣) ما عدا مج ، ش : « ومكانك مشهور » .
(٤) هذه الفقرة كلها ليست فى مج ، ش . وهى نص ما فى م ، ط . لكن فى ب : « أعجب الصواب لا تعجب وفيه العجب أعجب . وكيف التعجب والأمور كلها عجب » .
(٥) ما عدا مج ، ش : « كيف » .
(٦) ما عدا مج ، ش : « كما » .
(٧) من العادة ، ساقطة من ط . وفى ب ، م : « سارت » ، وفى ط : « وسارت » ، تحريف .
(٨) ماعدا مج ، ش : « وقد ذكرنا » ، تحريف .

يومئذ النَّاقصُ والوافر ، والمَشُوب والخَالص ، والمستقيم والمعوَجّ . وقال الله تبارك وتعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وإنْ تَعْجَبْ فعَجَبٌ قَوْلُهم [١] ﴾ ، وقال له [٢] : ﴿ بَلْ عجِبْتَ ويَسْخَرُون [٣] ﴾ .

واعلمْ أنَّه لم يبقَ من المتعجِّب الفاتك [٤] إلَّا نصيبُ اللِّسان ، ولا من المستمِع الفاتك [٥] إلَّا حِصَّة السَّمع . فأمَّا القلوب فخاوية قاسية ، وراكدةٌ خامدة ، لا تَسمع داعياً ولا تُجيب سائلًا ، قد أغفلها سوءُ العادة [٦] ، واستولَى عليها سُلطان السَّكرة [٧] .

فدعْ عنكَ ما لست مِثلَه [٨] ، فإنَّ فيما أُورده عليك شغلًا شاغلًا [٩] ، وهمًّا داخلًا .

اعلمْ أنَّ الله تعالى قد مسخَ الدنيا بحذافيرها ، وسَلَخَهَا من جميع معانيها . ولو مَسَخها كما مسخ بعضَ المشركين قِرَدةً ، أو كما مسخ بعض الأُمَم خنازيرَ ، لكان قد بقَّى بعضَ أُمورها ، وحبس عليها بعضَ أعراضها ، كبقيَّة ما مع القرد فى ظاهِره [١٠] من شَبَه الآدمىّ ، وبقيَّةِ ما مع الخنزير

---

(١) الآية ٥ من سورة الرعد .

(٢) له ، ساقطة من مج ، ش ، ط .

(٣) الآية ١٢ من سورة الصافات .

(٤) الفاتك : كل من يهجم على الأمور العظام غير مبال بما يفعل ، وأصل الفتك القتل مجاهرة . ما عدا مج ، ش : « القائل » .

(٥) ما عدا مج ، ش : « القائل » .

(٦) أغفلها : جعلها غافلة .

(٧) السكرة : حالة بين العقل وعدمه ، وغلبة اللذة على الشباب . ما عدا مج ، ش « السكر » .

(٨) مج ، ش : « ما لست منه » .

(٩) ما عدا مج ، ، ش : « وعليك شغلا شاغلا » ، تحريف .

(١٠) ب ، م : « فى ظاهرة » ، تحريف .

فى باطنِه من شبه البشرىّ[١] . لكنَّه جل ذكره مسخَ الدُّنيا مسخاً متتبِّعاً ، ومُستقصًى مستفرَغاً ، فَبَيْنَ حَالَيْها[٢] جميعُ التضادّ ، وبين مَعنَيَيْها[٣] غايةُ الخلاف .

فالصوابُ اليومَ غريب ، وصاحبُه مجهول . والعجب ممن[٤] يصيب وهو مغمور ، ويقول وهو ممنوع ، فإنْ صرتَ عليه عوناً مع الزَّمان قتلتَه ، وإن أمسكت عنه فقد وفَّرته[٥] .

ولسنا نُريد منك النُّصرة ولا المعونة ، ولا التـأْنيسَ ولا التعزية[٦] . وكيف أطلب منك ما قد انقطع سببُه ، واجتُثَّ أصلُه . وقد كان يقال : « مَنْ طلب عيباً وجدَه » .

هذا فى الدهر الصَّالح دون الفاسد . فإنْ أنصفْتَ فقد أغْرَبت ، وإنْ جُرتَ فلم تَعْدُ ما عليه الزَّمان .

وهَبَ الله لنا ولك الإنصاف ، وأعاذنا وإيَّاك من الظُّلم . والحمد لله كما هو أهلُه ، ولا حولَ ولا قوة إلَّا بالله العلى العظيم[٧] .

وصلى الله على سيدنا محمد خاصة ، وعلى أنبيائه عامة ، وسَلَّمَ .

---

(١) م ، ط : « البشر » .
(٢) ما عدا مج ، ش : « حالهما » .
(٣) ما عدا مج ، ش : « معنيهما » .
(٤) ما عدا مج ، ش : « من » .
(٥) مج ، ش : « رفدته » .
(٦) م : « ولا التأنيث ولا التغرية » ، تحريف .
(٧) العلى العظيم ، من ب فقط . وبدل هذا فى كل من مج ، ش : « وهو حسبنا ونعم الوكيل والمعين » ، كما أن عبارة الصلاة والتسليم التالية ليست فيهما .

٤

من رسالة في

مَدح النَّبيذ وصِفة أصحابه

إلى الحسن بن وهب

فصـــل

من صدر رسالته إلى الحسن بن وهب[١]

فى مـدح النبيذ وصفة أصحـابه

أَنا – أَبقاك الله – الطالبُ المشغول ، والقائل المعذور ، فإِنْ رأَيتَ خطأً فلا تنكر فإِنِّى بصَددِه وبعَرَضٍ منه ، بل فى الحال التى تُوجبه[٢] ، والسَّببِ الذى يؤدِّى إليه . وإِنْ سمعتَ تسديداً فهو الغريب الذى لا نجده[٣] . اللهم إِلَّا أَن يكون من بركة مكاتبتك ، ويُمن مطالبتك . ولأَنَّ ذكرك يَشْحَذ الذِّهن ، ويصوِّرك فى الوهم ، ويَجلُو العقل ؛ وتأْميلك ينفِى الشُّغل .

ولا يُعجبنى ما رأَيتُ من قلَّة إطنابك[٤] فى هذا النَّبيذ ، وقلَّة تلهِّيك بهذا الشرابِ وأَنت تجد من فَضْل القول وحُسْن الوصف مالا يُصاب عند خطيبٍ ، ولا يُوجَدُ عند بليغ . وأَنت ولو مَشَّيتَ الخُيَلاءَ ، وحَقَّرت العظماءَ ، وأَرغَبْتَ الشعراءَ ، وأَعطيتَ الخطباءَ ، لِيكونَ القولُ منهم موصولًا غير مقطوع ، ومبسوطاً غير مقصور ، لكنتَ بعدُ مقصِّراً فى أَمره ، مفرِّطاً فى واجِب حقِّه . فلا تأْديبَ اللهِ قَبِلتَ ، ولا قولَ الناصح سَمِعت .

---

(١) الحسن بن وهب بن سعيد بن عمرو بن حصين ، كاتب شاعر ، كان معاصراً لأبى تمام والبحترى ،ومحمد بن عبد الملك الزيات . وقد رثاه البحترى بعد وفاته ، فوات الوفيات ١ : ٢٦٧–٢٦٩ . وفى سنة ٢٢٩ يذكر الطبرى أن الخليفة الواثق ألزمه فيمن ألزمهم من الكتاب أن يؤدى أربعة عشر ألف دينار ، كما ألزم أخاه سليمان بن وهب كاتب إيتاخ أن يؤدى أربعمائة ألف دينار .

(٢) ب : « يوجبه » ، صوابه فى م ، ط .

(٣) ط : « لا تجده » بالتاء .

(٤) الإطناب : المبالغة فى المدح أو الذم . والمطنب : المداح لكل أحد . ب : « أظائك » تحريف ، وفيها أيضاً : « ولم يعجبنى » .

قال الله تبارك وتعالى[١] : ﴿وأَمَّا بِنِعْمَةِ ربِّكَ فَحَدِّثْ[٢]﴾. وقال الأَوَّل : « استدِمِ النِّعمة بإِظهارها ، واستَزِدْ الواهبَ بإِدامة شكره[٣] ».

بل كيف أَنِستَ بالجلساءِ[٤] ، وأَرسلتَ إلى الأَطبَّاء ولم يكن فى قربك [منه[٥]] ما يغنيك ،وفى النظر إليه ما يَشفيك ؟ ولِمَ ملكتَ نفسَك دون أَن تَهذِىَ[٦] ، ولم رأَيت الوقارَ مُروءَةً قبل أَن تستخِفّ[٧] ولم كان الهذيانُ هو الهذيان ، والسُّخف هو المروءَة ، والتَّناقض هو الصِّحّة وإِلَّا بأَىِّ شيءٍ خُصصتَ[٨] ، وبأَىِّ معنًى أُتيتَ ، [٩] ولِمَ لمْ تخلع فيه العِذار ، ولم تخرج فيه عَنْ كل مقدار[١٠] .

وأَىُّ شيءٍ أَجْرَبَ جِلدَك وأَماتَ حالك ، وأَضعف مَسرَّتك[١١] ، وأَوحش منك رفيقَك ، إِلَّا العقوبةُ المَحْضة ، وإِلَّا الغضبُ والعقاب ، وحرمك الثَّوابَ إِلَّا التهاونُ فى أَمره ، وقلَّةُ الرِّعاية لحقِّه .

وكيف صارت أَمراضى أَمراضَ الأَغنياءِ وأَمراضُك أَمراضَ الفقراءِ إِلَّا لمعرفتى بفضله ، واستخفافِكَ بقَدْره . أَلا تَرَى أَنِّى مُنقرِسٌ مفلوج ، وأَنت أَجْرَبُ مَبْسور[١٢] .

---

(١) بدله فى ط : « سمعت قول الله تبارك وتعالى » بتكرار «سمعت» .
(٢) الآية ١١ منسورة الضحى.
(٣) ط : «المواهب بإدامة شكرها» .
(٤) ب ، م : «أيست بالجلساء» ، تحريف .
(٥) التكلة من م .
(٦) ب ، م : « أن تهدى » بالدال المهملة .
(٧) ب : « تستخف » .
(٨) ب ، م : « خصصته » .
(٩) ب ، م : « أتيته » .
(١٠) ب ، م : « من كل مقدار » .
(١١) ب ، م : « وضعف مسرتك » .
(١٢) المبسور : من به البواسير . والباسور : علة تحدث فى المقعدة . وفى جميع النسخ : « مستور » ، ولا وجه له .

فإنْ تُبْتَ فما أقرب الفَرَج ، وأسرعَ الإجابة . وسنفرُغ لك إنْ شاءَ الله قريباً ، وتفلح سريعاً .

وإنْ أصررْتَ وتتايعت وتماديت(١) أتاك والله من سَفِلة الأدواء ، وزُوِىَ عنك من عِلْية الأمراض ، ما يضعُك موضعاً لا ارتفاعَ معه ، ويُلزِق بعَقِبك عاراً لا زوالَ له.ثم تُتبِعُ أشياخك السُّبَّة،وتُتبِعُهم المذَمّة .

عَلِمَ اللهُ أنَّه استظْرَفَك واستملحك ، واستَحْسَن قَدَّك ، واسترجح عَقْلَك ، وأحسَنَ بك ظنًّا ، ورآك(٢) لنفسِهِ أَهْلًا ، ولاتِّخاذه موضعاً ، وللأُنس به مكاناً ، وأنت لاهٍ عنه زارٍ عليه ، متهاونٌ به ، قد أقبَلْتَ على ديوانك تُشغَل بملازمته ، وتَدعُ ما يجب عليك من صِفاته ، والدُّعاءِ إلى تعظيمه . بلْ هل كنتَ من شِيعته والذابِّين عن دَوْلته ، والمعروفين بالانقطاع إليه ، والانبتات فى حبله(٣) ، إلَّا أن يكون عندك التقصيرُ لحقِّه ، والتَّهاونُ بـأَمرِهِ اللازِم ، ونَهْيُ الناس عنه .

ولو خرجتَ إلى هذا لخرجتَ من جميع الأخلاق المحمودة ، والأفعال المرضية . وأحسَب أنَّك لا تعظِّمه ولا ترقُّ له . ولو لم تتعصَّب إلَّا لجماله وحسنه ، ولو لم تُحافظ على نقائه وعِتْقه لكان ذلك واجباً ، وأمراً معروفاً . فكيف مع المناسبةِ التى بينكما ، والشَّكلِ الذى يجمعكما . فإنْ كان بعضُك لا يصون بعضاً وأنت لا تعظِّم شقيقاً ، فأنت والله من حِفْظِ العشيرة أَبْعَدُ ، ولمعرفة الصَّديقِ أنكر .

ولقد نعيت إلىّ لُبّك ، وأثكَلْتَنى حِفاظَك(٤) ، وأفسدت عندى كلَّ

---

(١) التتايع : التهافت فى الشر ، والوقوع فيه . ب ، م : « تتابعت » ، صوابه فى ط .

(٢) ب ، م : « وزادك » ، صوابه فى ط .

(٣) الانبتات : الانقطاع . والمراد به الملازمة وتوثق الصلة .

(٤) أثكله الأمر : جعله يفقده ، يقال أثكلها الله ولدها ، وأثكله الله أمه ، إذا أصابهما بفقدهما . ب : « أتكلتنى » صوابه فى ط ، م .

صحيح . وقد كان يقال : « لا يزال النَّاس بخيرٍ ما تعجَّبُوا من العَجَب » .
قال الشاعر[١] :

وهُلك الفتى أنْ لا يَرَاحَ إلى النَّدَى   وأن لا يرى شيئاً عجيباً فيَعْجَبا

قال بكر بن عبد الله المُزَنِىّ[٢] : « كنا نتعجَّب من دهرٍ لا يتعجَّب أهلُه من العجب فقد صرنا فى دهرٍ لا يَستحسِنُ أهله الحَسَن . ومَن لا يستحسِن الحَسَن لم يستقبح القبيح » .

وقال بعضهم : « العَجب تَركُ التعجُّب من العَجَب » .

ولم أَقُلْ ذلك إلَّا لأَن تكون به ضنيناً[٣] ، وبما يجب له عارفاً . ولكنَّك لم توفِّر حقَّه ولم توفِ نصيبه[٤] .

فإن قلت : ومَنْ يقضِى واجبَ حقِّه ، ويَنتهِضُ بجميع شكره ؟ قلنا : فهل أعذَرْتَ فى الاجتهاد حتَّى لا يُذمَّ إلَّا تعجُّبُك ، وهل استغرقْتَ الاعتذارَ حتَّى لا تعابَ إلَّا بما زاد على قوّتك . ولولا أنك عين الجَوَاد[٥] لم نطلبْهُ منك . ولولا ظَنُّك[٦] لم نَحْمَدْك عليه . ولولا معرفتُك

(١) هو حارثة بن بدر الغدانى ، كما فى الحيوان ٣ : ٨٠ والبيان ٣ : ٢١٩ والأغانى ٢١ : ٣١ وأمالى المرتضى ١ : ٣٨٨ ويقال إن حارثة قد تمثل به . ونسب فى معجم البلدان ٢ : ٢٥٤ إلى عمرو بن النعمان البياضى . وانظر أمالى الزجاجى ٣٠ .

(٢) بكر بن عبد الله المزنى : نسبة إلى مزينة ، أبو عبد الله البصرى ، ثقة ثبت . مات سنة ست ومائة . تقريب التهذيب وصفة الصفوة ٣ : ١٧١ . وفى جميع النسخ : « المرى » ، صوابه ما أثبت . وانظر الحيوان ٦ : ٥٠٨ - ٧ : ٢٠٢ ، ٢٥٤ . ولبكر هذا أقوال مأثورة فى مواضع كثيرة من البيان والتبيين . وكان من النساك والزهاد من أهل البيان .

(٣) ب : « ظنينا » ، صوابه فى م ، ط .

(٤) ط : « ولم تعرف نصيبه » .

(٥) عين الجواد ، أى نفسه ، والمراد الجواد الكامل ، الجامع لأسباب السخاء ، وفى الحماسة ١٦٩١ بشرح المرزوقى ، قول عبد العزيز بن زرارة الكلابى :

فإلا أكن عين الجواد فإننى   على الزاد فى الظلماء غير شتيم
وإلا أكن عين الشجاع فإننى   أرد سنان الرمح غير سليم

ب : « عين الجوار » ط : « عين الجود » . والضمير فى « لم نطلبه » عائد إلى النبيذ المفهوم من الكلام .

(٦) م : « ضنك » .

بفَضْله لم نعجب من تقصيرك فى حقِّه ، ولولا أنَّ الخطأ فيك أقبح ، والقبيحَ منك أسمج ، وهو فيك أَبْيَنُ والنَّاسُ به أكلف[١] ، والعيونُ إليه أسرع – لكان كتابُنا كتابَ مُطالبة ، ولم يكن كتاب معاتبة ، ولشَغَلَنا الحِلمُ لك عن الحلم عليك ، والقولُ لك عن القول فيك .

وقد كنتُ أهابك بفضلِ هيبتى لك ، وأجترئُ عليك بفَضْل بَسْطِك لى ، فمنعنى حِرصُ الممنوع ، وخوفُ المشْفق ، وأَمْن الواثق ، وقناعة الراضى .

وبعد فمن طَلب ما لا يُجاد به ، وسَأَل ما لا يُوهَب مثلُه مِمَّن يجود بكلِّ ثمين ، ويَهَبُ كلَّ خطير ، فواجبٌ أن يكون من الردِّ مشفِقاً ، وبالنُّجح مُوقِناً .

وإن كان ، أبقاك الله[٢] ، أهلًا لأن يُمنَع ، وكنتَ حفظك الله أهلًا أن تَبذُل ، وجب أنِ تكون[٣] باذلًا مانعاً ، وساكناً مطمئنًّا ، إلَّا أن يكون الحرب سِلماً سِجالًا ، والحالاتُ دُوَلا .

ولهذه الخصالِ ما وقع الطَّلَب ، وشاع الطمع .

فإنْ منعتَ فعذرك مبسوطٌ عندَ من عرف قدره[٤] ، وإنْ بذَلتَ فلم تَعْدُ الذى أنت أهلُه عند من عرف قَدْرَك ، إلَّا أنَّه لا يجودُ بمثله إلَّا غنىٌّ عند جميع الناس ، أو عاقلٌ فوق جميع الناس .

وكيف لا أَطلُبُ طلبَ الجرىءِ المتهوِّر ، وأُمسك إمساكَ الهائب

---

(١) م ، ط : « فيه أكلف » .
(٢) فى جميع النسخ : « أبقاه الله » ، والوجه ما أثبت .
(٣) ب ، ط : « يكون » .
(٤) ط : « قدرك » . والمراد قدر النبيذ .

الموقَّر. وليس فى الأرض خَلْقٌ يُغْتَفَر [١] فى وصفه المحالُ ولا يُستحسَنُ الهذيانُ سواه ؟ !

على أنَّ مِن الهذيان ما يكون مفهوماً، ومن المحال ما يكون مسموعاً [٢] .

فمن جهِلَ ذلك ولم يعرفْه ، وقصَّر ولم يبلغْه [٣] ، فلْيسمعْ كلامَ اللَّهْفان والثَّكلان ، والغَضْبانِ والغَيْران، ومرقِّصةِ الصِّبيان ، والمُنْعِظِ [٤] إذا دنا منه الحَلَقِى .

حتَّى إذا استوهَبَك لم تهبْ له منه [٥] حتَّى تقفَ وقفة ، وتُطرِقَ ساعة [٦] ، ثم تستحسن وتستشير ، ثم تشفَّعٌ [٧] على مُستوهِبه ، وتُعجِّبَ من شاربِه ، ثم تُطيلَ الكتاب بالامتنان ، وتُسطِّر فيه بتعظيم الإنعام مع ذكر مناقبه ، ونَشْر محاسنه [٨] بقدر الطاقة. وإنْ لم تبلغ الغاية فاعرِفْ وزْنَه ، واشهدْ بطيبه، وأَرِّخْ ساعته [٩] ، واشهَرْ فى النَّاس يومَه [١٠] .

وما ظنُّك بشىءٍ لا تقدر أن تشرد فى ذكره [١١] وتفرِّطَ فى مدحه ،

---

(١) ب ، م : «يفتقر» .
(٢) ما يكون، ساقطة من ب، م .
(٣) ب فقط : «فلم يبلغه» .
(٤) ب : « المنفظ » م : « والمنفط » ط : « والمتعظ » صوابهما ما أثبت . والحلقى : الذى فسد عضوه فانعكس ميل شهوته . وهو من ألفاظ المولدين . وانظر شفاء الغليل ص ٧٠ والحيوان ١ : ٢٢٥ — ٣ : ١٦٦ . وفى جميع النسخ : « والحلقى » ، والواو مقحمة .
(٥) ب ، م : «وحتى واتاك أن يهب لى منه » وليس له وجه . وأثبت ما فى ط .
(٦) ط : «وتطرقه ساعة» .
(٧) فى جميع النسخ : «تشفع» .
(٨) ب ، م : «وبشر محاسنه» .
(٩) فى جميع النسخ : «وأرح» بالحاء المهملة .
(١٠) فى جميع النسخ : « وأشهد » بالدال .
(١١) الشرود : الذهاب والهرب . م ، ط : « تسرد فى ذكره » .

وتقصيرك واضح فى لونه[١]، مكتوب فى طعمه[٢]، موجودٌ فى رائحته[٣]، إذْ كان كلٌّ ممدوح يقصُر عن مدحه وقدره، ويَصغُر فى جنبه .

ولو لم يُستدَلّ على سعادة جَدِّك، وإقبالِ أمرك، وأنّ لك زىَّ صِدْقٍ[٤] فى المعلوم، وحَظًّا[٥] فى الرِّزق المقسوم : وأنّك ممن تبقى نِعمُه، ويدومُ شكره، ويَفهم النِّعمة ويَرُبُّها[٦]، ويدْرأ عنها ويَستديمُها[٧]، إلّا أنّه وقع فى قَسْمك، وكان فى نصيبك ــ لكان ذلك أعظمَ البرهان، وأوضحَ الدلالة .

بل لا نقول : إنّه وقع اتفاقاً وغَرْساً نادراً، حتّى يكون التّوفيق هو الذى قصد به، والصُّنعُ هو الذى دلَّ عليه .

ولو لم تملكْ غيره لكنتَ غنيًّا، ولو ملكت كلَّ شىءٍ سواهُ لكنت فقيراً . وكيف لا يكون كذلك وهو مُستراحُ قلبِكَ، ومَجالُ عَقلك، ومرتَعُ عينك[٨]، وموضعُ أُنسك، ومُستنبَط لذّتك، وينبوعُ سرورك، ومِصباحُك فى الظّلام، وشِعارك من جميع الأقسام .

وكيف وقد جمع أُهبة الجَلال، ورشاقة الخِلال، ووقار البَهاء،

(١) فى الأصول : « فى كونه » .

(٢) ب : « مكثور فى طعمه » م : « مكثوب فى طعمه » ط : « مكتوباً فى طعمه »، ولعل الوجه ما أثبت .

(٣) ط فقط : « موجوداً » بالنصب .

(٤) ب، م : « ذى صدق »، تحريف . والزى : اللباس والهيئة والمنظر، وأصله زوى، تقول منه زييته، والقياس زويته .

(٥) ب : « وخطا » م : « وخطأ »، صوابهما فى ط .

(٦) رب النعمة : حفظها ورعاها . وفى الحديث : « لك نعمة تربها » . ط فقط : « تربيها »

(٧) ب، م : « ويذرعنها »، صوابه فى ط .

(٨) يرتع : يلهو ويلعب وينعم . وفى الأصول : « ومربع عينك »، والوجه ما أثبت . ومنه قول المتنبى :

حشاى على جمر ذكى من الهوى   وعيناى فى روض من الحسن ترتع

وشَرف الخير (١) ، وعزّ المجاهَرَة (٢) ولذّة الاختلاس ، وحلاوةَ الدّبيب (٣) .

وسأَصف لك شَرَفَ (٤) النبيذِ فى نفسه ،وفضيلتَه على غيره ،ثم أَصِفُ فَضْل شرابك على سائر الأَشربة ، كما أَصِفُ فضلَ النّبيذ على سائر الأَنبذة ؛ لأَنَّ النبيذ إذا تمشَّى فى عظامك ، والتبسَ بأَجزائك ، ودبَّ فى جَنَانك ، مَنَحكَ صِدقَ الحسِّ ، وفَراغَ النفس ، وجعلَكَ رخىّ البال ، خلىّ الذَّرع (٥) ، قليل الشّواغل ، قريرَ العين ، واسعَ الصَّدر ، فَسيح الهِم (٦) حسنَ الظنّ . ثم سَدَّ عليك أَبوابَ التُّهم ، وحسَّن دونَك الظَّنّ وَخواطر الفهم (٧) ، وكفاك مَئُونة الحِراسة ، وأَلمَ الشَّفقة ، وخَوف الحَدثَان ، وذُلّ الطمع وكَدَّ الطلب (٨) ، وكلَّ ما اعترضَ على السُّرور وأَفسَدَ اللَّذَّة ، وقاسَمَ الشهوة ، وأَخلَّ بالنعمة (٩) .

وهو الذى يردُّ الشُّيوخ فى طبائع الشُّبّان ، ويَرُدُّ الشُّبّانَ فى نَشاط الصِّبيان ، وليس يخاف شاربُه (١٠) إلَّا مجاوزةَ السُّرور إلى الأَشر ، ومجاوزةَ الأَشَر إلى البطَر .

---

(١) م فقط : « الخيل » ، تحريف .

(٢) ط فقط : « المجاهدة » ، والوجه فى ب ، م .

(٣) أصل الدبيب المشى على هينة ، واستعمل مع الاختلاس فى معانى التوصل إلى المعشوق فى خفية . وفى جميع الأصول : « الزبيب » .

(٤) ب : « شرب » ، تحريف .

(٥) الذرع : الطاقة والوسع . م : « على الذراع » تحريف ، وفى ب : «خالى الذرع» ، وأثبت ما فى ط .

(٦) ب ، م : « الهم » .

(٧) ب ، م : « الظن خواطر الفقه » .

(٨) م : « وكد الطلب » .

(٩) ب ، م : « واختل بالنعمة » .

(١٠) ب : « نجاة شاربه » م : « نجات شاربه » ، صوابهما فى ط .

ولو لم يكن من أياديه ومِنَنِهِ ، ومن جميل آلائه ونِعَمِه[١] ، إلَّا أنَّك ما دُمتَ تمزُجه بُروحك ، وتُزاوِج بينه وبين دَمِكَ فقد أعفاك من الجد ونَصبِه ، وحبَّب إليك المزاحَ والفكاهة ، وبغَّض إليك الاستقصاءَ والمحاولة ، وأزال عنك تعقُّد الحِشْمة وكدَّ المروءة ، وصار يومُه جمالًا لأيَّام الفكرة ، وتسهيلًا لمعاودة الرَّوِيَّة[٢] ، لكان فى ذلك ما يوجب الشُّكر ، ويُطيب الذكر[٣] . مع أنَّ جميع ما وصفناه وأخبرنا به عنه يقوم بأيسر الجرم[٤] ، وأقلِّ الثمن .

ثم يعطيك فى السَّفَر ما يُعطيك فى الحضَر ، وسواءٌ عليك البساتينُ والجِنَان[٥] . ويَصلحُ بالليل كما يصلُح بالنهار ، ويَطيب فى الصَّحو كما يطيب فى الدَّجْن ، وَيَلَذُّ فى الصيف كما يَلَذُّ فى الشتاءِ ، ويجرى مع كلِّ حالٍ . وكلُّ شىءٍ سواهُ فإنَّما يصلُح فى بعض الأَحوال .

ويدفع مَضَرَّة الخُمار ، كما يَجلب منفعةَ السُّرور .

إن كنتَ جذلًا [كان[٦]] بارًّا بك ، وإن كنت ذا همٍّ نفاهُ عنك .

وما الغيثُ فى الحرث بأَنفَعَ منه فى البَدَن ، وما الرِّيش السُّخَام[٧] بأَدفأَ منه للمقرور[٨] .

---

(١) ب ، م : « بلائه ونعمه » .
(٢) الروية : التفكر فى مهل . ب ، م : « الرؤية » .
(٣) م ، ط : « ويطنب الذكر » . والإطناب : الإطالة .
(٤) الجرم ، بالفتح : الكسب .
(٥) البستان : جنينة فيها نخيل متفرقة ، معرب . والجنة : الحديقة ذات النخل والشجر .
(٦) التكملة من ط . والجذل : الفرح .
(٧) السخام ، كغراب : اللين الحسن ، أو ما كان ليناً تحت الريش الأعلى . وفى جميع الأصول : « السجام » ، صوابه ما أثبت .
(٨) المقرور : الذى أصابه البرد . م : « بأذفى منه » تحريف .

ويُستمرأ به الغِذاءُ [١] ويدفع به ثِقَل الماء ، ويُعالَج به الأَدواء ، ويحمرُّ به الوجنتان ، ويُعدَل به قضاءُ الدَّين .

إن انفردتَ به ألهاك ، وإن نادمت به سوّاك .

ثم هو أَصنع للسُّرور من زلزل [٢] ، وأَشدُّ إطراباً من مُخارِق [٣] ، وقدر احتياجهما إليه كقدر استغنائه عنهما ؛ لأَنَّه أَصل اللذات وهى فرعُه ، وأَوّل السرور ونتاجُه .

ولله درُّ أَوّلٍ من عمِله وصنعَه [٤] ، وسَقيًا لمن استنبطه وأَظهره . ماذا دبَّر ؟ وعلى أَىّ شىءٍ دَلّ ؟ وبأَىٍّ معنًى أَنعم ؟ وأَىَّ دفينٍ أَثار ؟ وأَىّ كنزٍ استخرج .

ومِن استغناء النَّبيذ بنفسه ، وقلَّة احتياجه إلى غيره ، أَنَّ جميع ماسواه من الشراب يُصلحه الثَّلج ، ولا يَطيبُ إلَّا به .

وأَوّلُ ما يُثْنَى عليه به ، ويُذكَر منه [٥] ، أَنَّه كريم الجوهر ، شريفُ النَّفس ، رفيع القدر ، بعيد الهَمّ . وكذلك طبيعته المعروفة [٦] وسجيَّته الموصوفة . وأَنَّه [٧] يسرُّ النفوس ويحبِّب إليها الجُود ، ويزيِّنُ لها الإِحسان ، ويرغِّبُها فى التوسُّع ، ويُورِثُها الغِنى ، ويَنفِى عنها الفقر ،

---

(١) م : « ويستمرى » بالتسهيل .

(٢) زلزل ، بفتح الزاءين : مغن ضارب بالعود يضرب به المثل ، وإليه تضاف بركة زلزل ببغداد ، تعلم على إبراهيم الموصلى ، وله أخبار مع هارون الرشيد مذكورة فى الأغانى .

(٣) مخارق : أحد كبار المغنين فى الدولة العباسية ، غنى لهارون والمأمون والأمين والمعتصم والواثق . وأخباره مسهبة فى الأغانى .

(٤) ب : « أول من صنعه » ، فقط .

(٥) م ، ط : « ماثنى عليه به » وفى ط أيضاً : « ونذكر منه » .

(٦) طبيعته ، ساقطة من ب ، م .

(٧) ب ، م : « وأن » .

وعلؤها عزًّا ، ويَعِدُها خيراً ، ويحسِّنُ المسارّة (١) ، ويصيرَ به النَّبتُ خِصْباً والجنابُ مَرِيعاً (٢) ، ومأْهولًا مُعْشِباً .

وليس شيءٌ من المأْكول والمشروب أَجمعَ للظُّرفاء ، ولا أَشدَّ تأَلُّفاً للأُدباءِ، ولا أَجلبَ للمؤْنِسين ، ولا أَدعى إلى خلافِ المُمْتِعِينَ (٣) ، ولا أَجدرَ أَن يُستدامَ به حديثُهم ويُخرجَ مكنونهم ، ويطولَ به مجلسُهم ، مِنْـه .

وإنَّ كلَّ شراب وإن كان حلَا ورَقّ (٤) ، وصفا ودَقّ ، وطابَ وعذُب ، وبرد ونقخ (٥) ، فإنَّ استطابتك لأَوّلِ جُرعةٍ منه أَكثر (٦) ، ويكون من طبائعك أَوقَع . ثم لا يزال فى نقصانٍ إلى أن يعود مكروهاً وبليّة (٧) ، إلا النبيذ ، فإنَّ القدحَ الثانىَ أسهلُ من الأَوّل ، والثالث أَيْسَر (٨) ، والرابع أَلذُّ ، والخامس أسلس ، والسادس أطرب ، إلى أَن يُسْلِمَك (٩) إلى النَّوم الذى هو حياتك ، أَو أَحد أقواتك (١٠) . ولا خير فيه إذا كان إسكاره تغلُّباً ، وأَخْذُه بالرأْس تعسُّفاً ، حتَّى يُميت الحسَّ

---

(١) م فقط : « السارة » .

(٢) المريع : المخصب ، يقال مكان مرع ومريع : خصيب ممرع ناجع . قال الأعشى :

سلس مقلــده أسيــــ ـــل خــده مرع جنـــــابه

ب ، م : « مربعان » ، صوابه فى ط .

(٣) فى الأصول : « الممتنعين » ، ولا وجه له .

(٤) ط ، م : « وإن حلا ورق » .

(٥) النقاخ : الماء العذب البارد الذى ينقخ العطش ، أى يكسره ببرده . وفى جميع الأصول : « ونفح » ، والوجه ما أثبت .

(٦) م : « الأول جرعه منها » . وفى ب ، م . « كثر » ، وفى ط : « لأول جرعة منها كثير » . والوجه ما أثبت .

(٧) ب فقط : « وبرية » ، تحريف .

(٨) ب فقط : « أسر » .

(٩) فى جميع الأصول : « يسلسك » ، ولا وجه له .

(١٠) ب : « وأحد أقواتك » .

بحدَّته ، ويَصْرعَ الشارب بسَوْرته [١] ، ويورث البُهْرَ بكِظَّته ، ولا يَسرِى فى العُروق لغِلَظه [٢] ، ولا يجرى فى البدن لرُكوده ، ولا يدخل فى العُمْق ولا يدخُل الصَّميم .

ولا والله حتَّى يغازل العقلَ ويعارضَه ، ويدغدغه ويُخادعَه [٣] ، فيسرَّه ثمَّ يهزَّه [٤] ، فإذا امتلأَ سروراً وعاد مَلِكاً محبوراً ، خاتله السُّكر وراوَغَه ، وداراه وما كَرَه ، وهازَلَه وغانَجَه . وليس كما يغتصب السَّكَر [٥] ، ويعتسف الداذىّ [٦] ، ويفترس الزَّبيب ؛ ولكن بالتفتير والغَمْز ، والحيلة والخَتْل [٧] ، وتحبيب النوم ، وتزيين الصَّمت .

وهذه صفةُ شرابك إلَّا مالا نُحِيط به [٨] ، ونعوته تتبدَّلُ [٩] إلَّا ما يقبح منها الجهل به .

وخيرُ الأَشربة ما جمع المحمودَ من خصالها وخصالِ غيرها . وشرابك هذا قد أَخذ من الخمر دبيبهَا فى المفاصل [١٠] ، وتمشِّيَها فى العِظام ولونَها الغريب ؛ وأَخذَ بَرْدَ الماءِ ورقَّة الهواءِ ، وحركةَ النار ، وحُمرةَ

---

(١) ب ، م : « ويسرع » بالسين ، تحريف . وسورة الشراب : تناوله للرأس ووثوبه فيه .

(٢) ط : « لغلظته » .

(٣) الدغدغة : حركة فى نحو الإبط أو البطن أو الأخمص يحدث عنه انفعال .

(٤) م : « ويسره ثم يهزه » .

(٥) السكر ، بالتحريك : الخمر نفسها .

(٦) الداذى : شراب يتخذ من نبت له عنقود مستطيل ، وحبه كحب الشعير ، طيب الرائحة جيد الإسكار . قال :

شربنا من الداذى حتى كأننا ملـوك لنـا بر العراقين والبحر

(٧) فى جميع النسخ : «والحيل» ، والوجه ما أثبت .

(٨) ب ، م : « إلا مالا يحيط به » .

(٩) ب ، م : « وبعث بتبدل » ، ط : « ونعوته بتبدل » ، والوجه ما أثبت .

(١٠) م ، ط : « زينتها فى المفاصل » ، صوابه فى ب . وفى ب أيضاً : « فقد أخذ » .

خدِّك إذا خَجِلت ، وصفرةَ لونِك إذا فَزِعْتَ ، وبياض عارضَيْك إذا ضحِكت [١] .

وحسبي بصفاتك عوضاً من كلِّ حَسَن ، وخلفاً من كلِّ صالح . ولا تعجبْ أنْ كانت نهايةَ الهمّة وغايةَ المُنْية ؛ فإنَّ حُسْنَ الوجوهِ إذا وافق حُسْنَ القوام وشدَّةَ العقل ، وجودةَ الرأى ، وكثرة الفَضْل [٢] وسَعَة الخُلُق ، والمغْرِس الطيِّبَ والنصابَ الكريم ، والظَّرف الناصع [٣] ، واللِّسان الفَخْم [٤] والمخرجَ السَّهلَ والحديث المُونِق ، مع الإشارة الحَسَنة والنُّبل فى الجِلْسة ، والحركة الرّشيقة واللَّهجة الفصيحة ، والتمهُّل فى المحَاورَة [٥] والهَزّ عند المناقلة [٦] ، والبَديهِ البديع والفكر الصحيح ، والمعنى الشريف ، واللفظِ المحذوف ، والإيجاز يَوْم الإيجاز والإطناب يَوْم الإطناب [٧] ، يَفُلُّ الحَزّ [٨] ويُصيب المفصِل ، ويبلغ بالعفو ما يقصِّر عَنْهُ الجَهْدُ ، كان أكثَرَ لتضاعف الحُسْن ، وأحقَّ بالكمال . والحمد لله .

وإنَّ التاج بهىٌّ [٩] وهو فى رأسِ الملوك أبهى ، والياقوتَ الكريم حَسَنٌ وهو فى جِيد المرأةِ الحسناء أحسن ، والشِّعْر الفاخر حسَنٌ وهو من فى

---

(١) العارض : جانب الوجه ، وصفحة الخد ؛ وهما عارضان . ط : « وبياض عارضك » بالإفراد .

(٢) فى جميع الأصول : « الفعل » .

(٣) م ، ط : « والطرف الناصع » صوابه فى ب . وانظر ما سبق فى ص ١٠٠ .

(٤) ط فقط : « المعجم » .

(٥) فى جميع النسخ : « المجاوزة » والوجه ما أثبت .

(٦) المناقلة : مراجعة الكلام فى صخب وتنازع . والهذ : سرعة فى الكلام والقراءة . وفى جميع الأصول : « والهز » بالزاى ، تحريف .

(٧) المراد باليوم هنا الوقت . ب : « يؤم » بالهمز فى هذا الموضع وسابقه ، تحريف .

(٨) يفل : يكسر ويضرب . ب ، م : « يقل » بالقاف ، تحريف .

(٩) ب ، م : « التاج بهى » .

الأَعرابىِّ أَحسن . فإِنْ كان من قولِ المنشد وقريضِه ، ومن نَحْتِه وتحبيره ، فقد بلغَ الغاية وأَقام النهاية .

وهذا الشرابُ حسَنٌ وهو عندك أَحسَن ، والهديَّة منه شريفةٌ وهى منكَ أَشرف .

وإن كنتَ قدَّرتَ أَنىِّ إِنَّما طلبته منك لأَشربَه أَو لأَسقيَه ، أَو لأَهبَه ، أَو لأَتحسَّاه فى الخَلا ، أَو أُديرَهُ فى الملا (١) أَو لأُنافس فيه الأَكْفاء ، واجترَّ زيادة الخُلَطاءِ (٢) ، أَو لأَبتذِلَه لعيون النُّدَماءِ ، أَو أَعرِّضه لنوائب الأَصدقاءِ فقد أَسأْت بِى الظنَّ ، وذهبت من الإِساءَة بى فى كلِّ فنّ (٣) ، وقصّرت به فهو أَشدُّ عليك ، ووَضعْتَ منه (٤) فهو أَضرُّ بك .

وإِنْ ظننت أَنّى إِنما أُريده لأُطرف به معشوقةً (٥) ، أَو لأَستميل به هَوَى ملِك ، أَو لأَغسل به أَوضار الأَفئدة (٦) ، أَو أُداوِىَ (٧) به خطايا الأَشربة ، أَو لأَجلوَ به الأَبصار العليلةَ ، وأُصلحَ به الأَبدان الفاسدة ، أَو لأَتطوّع به على شاعر مُفْلق (٨) أَو خطيب مِصْقَع ، أَو أَديب مُدقِع ، ليَفْتِق لهم المعانىَ (٩) ، وليخرج المذاهب ، ولِمَا فى جانبهم من

(١) ب فقط : « أو أدير فى الملا » . والملا : المتسع من الأرض .

(٢) الاجترار : الاجتذاب والاجتلاب . ب ، م : « واختر » ط : « وأختبر » والوجه ما أثبت . وانظر الحيوان ٦ : ١٣ ورسائل الجاحظ ١ : ١٠٢ . والخلطاء : جمع خليط ، وهو الصاحب ، والجار المصافى . ب ، م : « الخطا » ط : « الخطأ » ، والصواب ما أثبت .

(٣) ب ، م : « غن » ، صوابه فى ط .

(٤) ب ، م : « ووصفت منه » .

(٥) الإطراف : الإتحاف ، أطرفه بالشىء : أتحفه به . ب ، م : « لأظرف » صوابه بالطاء المهملة كما فى ط .

(٦) الوضر : الدرن والوسخ ، جمعه أوضار . ط : « وضر الأفئدة » .

(٧) م ، ط : « أو أودى » ، صوابه فى ب .

(٨) المفلق : الذى يأتى بما يعجب من الشعر . م : « مغلق » ، تحريف .

(٩) فى جميع الأصول : « ليفيق » ، والوجه ما أثبت .

الأَجْر ، وفى أعناقهم من الشكر[(١)] ، ولينفُضوا[(٢)] ما قالت الشعراءُ فى الحمد ، وليرتجعوا ما شاع لهم من الذِّكر[(٣)] ؛ فإنِّى أُريد أَنْ أَضعَ من قَدْرها ، وأَن أَكسر من بالها[(٤)] ، فقد تاهت وتِيهَ بها . أَو لأَن أَتفاءَل برؤيته[(٥)] وأَتبرَّك بمكانه ، وآنَسَ بقُربه ، أَو لأَشفى به الظماءَ[(٦)] ، أَو أَجعله إِكسير أَصحابِ الكيمياءِ[(٧)] ، أَو لأَنْ أَذْكُرَك كلَّما رأَيتُه ، وأُداعبك كلَّما قابلته[(٨)] أَو لأَجتلب به اليُسْرَ[(٩)] وأَنفِيَ العسر . ولأَنَّه والفَقْرَ لا يجتمعان فى دار ، ولا يُقيمان فى رَبْع . وَلأَتعرَّف[(١٠)] به حُسْنَ اختيارك ، وأَتذكَّر به جَودة اجتبائك[(١١)] . أَو لأَن أَستدلَّ به على خالص حُبِّك ، وعلى معرفتك بفضلى ، وقيامِك بواجب حقِّى — فقد أَحسنتَ بِيَ الظنّ ، وذكرت من الإِحسان فى كلِّ فن . بل هو الذى أَصونُه صيانةَ الأَعراض ، وأَغار عليه[(١٢)] غَيْرةَ الأَزواج .

---

(١) فى جميع الأصول : « وفى أعنائهم من الشكر » ، والصواب ما أثبت .

(٢) النفض : الاستقصاء . ب : « ولينفضوا » ط : « ولينقضوا » ، صوابهما فى م.

(٣) ط : « وليرتجفوا بما شاع لهم من الذكر » ، تحريف .

(٤) البال : القلب ، والنفس ، والخاطر ، والأمل .

(٥) ب ، م : « إلى رؤيته » .

(٦) الظماء : مصدر ظمىء يظمأ ظمأ وظماء وظماءة . ب : « الظمأ » ط : « الظمآن » .

(٧) الإكسير : مادة مركبة كان القدماء يزعمون أنها تحول المعدن الرخيص إلى ذهب ، وشراب فى زعمهم يطيل الحياة ، معرب . ويسمى أيضاً حجر الفلاسفة . انظر استينجاس ٨٩ .

(٨) ب ، م : « وأعيك كلما قابلته » ، صوابه فى ط .

(٩) ب : « أو لأحتلب » بالحاء المهملة . وفى م : « البشرى » موضع « اليسر » .

(١٠) ب فقط : « أو لأتعرف » .

(١١) الاجتباء ، بالجيم : الاختيار والاصطفاء . وفى الكتاب العزيز : « هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من حرج » ، « شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم » ، « ولكن الله يجتبى من رسله من يشاء » . وفى جميع الأصول : « احتبائك » بالحاء المهملة ، تحريف .

(١٢) غار يغار غيرة : ثارت نفسه لإبدائها زينتها ومحاسنها لغيره ، أو لانصرافها عنه إلى آخر . م فقط : « وأغير » ، تحريف .

واعلمْ أنَّك إن أكثرت لى منه خرجتُ إلى الفساد ، وإن أقللتَ أقسمت على الاقتصاد،

وأنا رجلٌ من بنى كنانة ، وللخلافة قرابة ،ولى فيها شُفعة(١) ، وهم بَعْدُ(٢) جنسٌ وعَصَبة ، فأَقلُّ ما أصنعُ إنْ أكثرتَ لى منه أنأَطلُب المُلْك ، وأقلُّ مايصنعون بى أن أُنْفَى من الأَرض . فإنْ أقللتَ فإنَّك الولدُ الناصح ، وإنْ أكثرتَ فإنَّك الغاشُّ الكاشح . والسلام .

---

(١) ب : « وفيها شفعة » .
(٢) ب : « أبعد » ، تحريف .

٥

من كتابه فى

طبقات المغنّين

فصــــل
من صدر كتابه فى طبقات المغنين

ثمّ إنَّا وجَدْنا الفلاسفةَ المتقدِّمين فى الحكمة ، المحيطين بالأُمور معرفةً ، ذكَروا أنَّ أُصولَ الآدابِ التى منها يتفرَّعُ العلمُ لذَوِى الأَلباب أَربعة :

فمنها النُّجومُ وبروجُها ، وحسابُها الذى يعرف به[١] الأَوقاتُ والأَزمنة ، وعليها مِزاج الطَّبائعِ وأَيّامِ السَّنَة .

ومنها الهندسةُ وما اتَّصل بها من المساحة والوزن والتقدير ، وما أَشبه ذلك .

ومنها الكِيمياءُ والطِّبُّ اللَّذان بهما صلاحُ المعاش وقِوامُ الأَبدان ، وعِلاجُ الأَسقام ، وما يتشعَّب من ذلك .

ومنها اللُّحونُ ومعرفة أَجزائها وقَسْمها،ومَقاطعها ومخارجها ووزنها، حتَّى يستوىَ على الإيقاع ويدخلَ فى الوتَر وغير ذلك ممَّا اقتصرنا من ذكره على أَسمائه وجُمَله ، اجتناباً للتَّطويل ، وتوخِّياً للاختصار . وقَصْدنا للأَمر الذى إليه انتهينا ، وإيَّاه أَردنا . والله الموفق وهو المستعان .

ولم يزَلْ أَهلُ كلِّ علمٍ فيما خلا من الأَزمنة يركبون مِنهاجَه ، ويسلكون طريقَه ، ويَعرِفون غامضَه ، ويسهِّلون سبيلَ المعرفة بدلائله ، خلَا الغِناءَ ، فإنَّهم لم يكونوا عَرَفُوا عِلله وأَسبابَه ووزنَه وتصاريفه ، وكان علمُهم به على الهاجس وعلى ما يسمعون من الفارسيَّة والهندية[٢]

(١) ب ، م : « بها » ، صوابه فى ط .

(٢) ب فقط : « والفهلندية » .

إلى أن نظر الخليل البَصرىُّ فى الشِّعرِ ووزنِه ، ومخارجِ ألفاظه ، وميَّزَ ما قالت العرب منه ، وجمعه وألَّفه ، ووضع فيه الكتابَ الذى سمّاه العَروض ، وذلك أنَّه عرضَ جميعَ ما رُوِى من الشِّعر وما كان به عالماً ، على الأُصول التى رسَمَها ، والعِلَل التى بيَّنها ، فلم يجد أحداً من العرب خرجَ مِنها ، ولا قصَّر دُونَها. فلمَّا أحكمَ وبلغ منه ما بلَغ ، أخذَ فى تفسير النَّغَم واللُّحون ، فاستدرك منه شيئاً ، ورَسَم له رسماً احتذَى عليه مَن خلفه ، واستتمَّه من عُنِىَ به[١] .

وكان إسحاقُ بن إبراهيم الموصلىُّ أوَّلَ مَن حذا حَذْوَه ، وامتثلَ هَدْيه ، واجتمعت له فى ذلك آلاتٌ لم تجتمعْ للخليل بن أحمد قبله[٢] ، منها معرفتُه بالغناء ، وكثرةُ استماعه إيَّاه وعلمُه بحَسَنِه من قبيحه ، وصحيحِه مِن سقيمه .

ومنها حِذقُه بالضَّرب والإيقاع ، وعلمُه بوزنها . وألَّف فى ذلك كُتباً مُعجِبة ، وسهُلَ له فيها ما كان مُستصعِباً على غيره ، فصنع الغناءَ بعِلمٍ فاضل ، وحِذْق راجح ، ووَزْنٍ صحيح ، وعلى أصلٍ مستحكمٍ له دلائلُ صحيحة واضحة ، وشواهدُ عادلة[٣] . ولم نر أحداً وَجَد سبيلًا إلى الطَّعن عليه والعيب له .

وصنع كثيرٌ من أهل زمانه أغانىَّ كثيرة بهاجسِ طبْعِهم[٤] والاتِّباع لمن سَبقَهم ، فبعضٌ أصاب وجْهَ صَوابِه[٥] ، وبعضٌ أخطأ ، وبعضٌ قصَّر فى بعضٍ وأحسَنَ فى بعض .

---

(١) ط : « واستمد من عنى به » .
(٢) ب ، م : « قبلها » صوابه فى ط .
(٣) ب ، م : « وشواهده عادلة » .
(٤) ب فقط : « بها حبس طبعهم » .
(٥) ب ، م : « وجهل صوابه » .

ووجدنا لكلِّ دهرٍ دَولةً للمغنِّين يَحملون الغناءَ عنهم ، ويُطارِحون به فِتيانَ زمانهم ، وجواريَ عصرِهم . وكان يكون فى كلِّ وقتٍ من الأَوقات قومٌ يتنادمون ، ويَستحسنون الغناءَ ، ويميِّزون رديَّه من جيِّده ، وصوابَه من خطائه (١) ، ويجمعون إلى ذلك محاسنَ كثيرةً فى آدابهم وأَخلاقهم ، ورُوَائهم وهيئاتهم (٢) ، فلم نجدْ هذه الطبقةَ ذُكِرُوا . ووَجَدْنا ذكر الغناءِ وأَهلِه باقياً .

وخُصصنا فى أَيَّامنا وزماننا بِفتْيةٍ أَشراف (٣) ، وخُلَّانٍ نِظاف ، انتظم لهم من آلات الفُتوَّة وأسباب المروءَة ما كان محجوباً عن غيرهم ، معدوماً مِن سواهم ، فحملَنى الكَلَفُ والمودّة لهم (٤) والسُّرور بتخليد فخرهم (٥) وتشييدْ ذكرهم والحرصُ على تقويم أَوَدِ ذِى الأَودِ منهم حتَّى يلحق بأَهل الكمال فى صناعته ، والفضلِ فى معرفته ، على تمييز طبقة طبقة منهم ، وتسميةِ أَهل كلِّ طبقةٍ بأَوصافهم ، وآلاتهم وأَدواتهم ،والمذاهب التى نَسبوا إِليها أَنفسَهم ، واحتملَهم إخوانُهم عليها . وخلطنا جدًّا بهَزْل ، ومزجنا تقريعاً بتعريض (٦) ، ولم نُرِدْ بأَحدٍ ممَّن سمَّينا سُوءًا ، ولا تعمَّدنا نقداً (٧) ولا تجاوزنا حَدًّا .

ولو استعملنا غير الصِّدق لفضَّلنا قوماً وحابَيْنا آخَرين . ولم نفعَلْ

---

(١) الخطاء ، كسحاب : الخطأ . ط : « خطئه » . والجاحظ يميل إلى استعمال الممدود .

(٢) م : « ورواتهم » ب : « ومروءاتهم » ، والوجه ما أثبت من ط . والرواء : المنظر ، والمنظر الحسن .

(٣) م : « بقتنة » .

(٤) لهم ، ساقطة من ب .

(٥) م ، ب : « بتجلية فخرهم » .

(٦) التقريع : التأنيب والتعنيف . ب : « تفريعاً » بالفاء ، م ، ط « تعريفاً » ، صوابها ماأثبت . والتعريض : الذم الذى لايصرح به .

(٧) ب ، م : « صحا »

ذلك ؛ تجنُّباً للحيف[١] ، وقصداً للإنصاف[٢] . وقد نعلم أَنَّ كثيراً منهم سيُبالغ فى الذمّ ، ويحتفل فى الشتم[٣] ، ويذهب فى ذلك غير مذهبنا .

وما أَيسرَ ذلك فيما يجبُ من حُقوق الفِتيان وتفكيههم ، والله حسيبُ من ظلم ، عليه نتوكل وبه نستعين ، وهو ربُّ العرش العظيم .

ولم نَقصِدْ فى وصف مَنْ وصفْنا من الطبقات التى صنَّفنا منهم ، إلَّا لمن أَدْركْنا من أَهل زماننا ممَّن حصل بمدينة السلام ، إذْ مَن خرج عنها ونزع إلى الفتوّة بعد التَّوبة ، وإلى أَخلاق الحَدَاثة بعد الْحُنْكة[٤] ، وذلك فى سنة خمس عشرة ومائتين[٥] . فرحم الله امرأً أَحسنَ فى ذلك أَمرنا[٦] ، وحذَا فيه حَذْونا ، ولم يَعجَل إلى ذمِّنا ، ودعَا بالمغفرة والرحمة لنا .

وقد تركْنا فى كلِّ بابٍ من الأَبواب التى صنَّفنا فى كتابنا ، فُرَجاً[٧] لزيادةٍ إن زادت ، ولاحقةٍ إنْ لحقت ، أَوْ نابتةٍ إن نبتتْ . ومَنْ عسَى أَن ينتقل به الحِذْقُ من مرتبته إلى ما هو أَعلى منها ، أَو يعجزُ به القصور عَمَّا هو عليه منها إلى[٨] ما هو دونَها ، إلى مكانه الذى إليه نَقَلَهُ ارتفاعُ درجةٍ أَو انحطاطُها ، ومَنْ لعلَّنا نصير إلى ذكره ممن

---

(١) م ، ط : « تحببا » .
(٢) ط : « بل قصداً للإنصاف » .
(٣) ط : « ويحتمل فى الشتم » .
(٤) الحنكة والحنك ، بضم الحاء فيهما : التجربة والبصر بالأمور .
(٥) هذا تسجيل للسنة التى تم فيها أو بعدها تأليف هذه الرسالة .
(٦) ب : « من أحسن فى ذلك أمرنا » .
(٧) الفرج : جمع فرجة ، والمراد الفراغ الذى يكتب فيه . ب فقط : « فرحاً » بالحاء المهملة ، تحريف .
(٨) إلى ، ساقطة من ب .

عَزَب عنَّا ذِكره ، وأُنسِينا اسمَه ، ولم يُحِطْ علمُنا به ، فنصيِّره فى موضعه ، ونُلحِقُه بأَصحابه .

وليس لأَحدٍ أَن يثبت شيئاً من هذه الأَصناف إلّا بعلمنا[١] ، ولا يستبدَّ بأَمرٍ فيه دوننا . ويُوردُ ذلك علينا فنمتحنُه[٢] ، ونُعرِّفه[٣] بما عنده ، ويصير إلى ترتيبه فى المرتبة التى يستحقُّها ، والطَّبقة التى يحتملها .

فلما استتبَّ لنا الفراغُ مما أَردنا من ذلك خَطَر ببالنا كثرةُ العيّابين من الجُهّال بربِّ العالمين ، فلم نأْمَنْ أَن يُسرعوا[٤] بسَفهِ رأْيهم وخِفَّة أَحلامهم إلى نقْضِ كتابنا وتبديله ، وتحريفه عن مواضعه ، وإزالته عن أَماكنه التى عليها رسَمْنا ، وأَن يقول كلُّ امرئٍ منهم فى ذلك على حاله ، وبِقدر هواه[٥] ورأْيه ، وموافقته ومخالفته ، والميلِ فى ذلك إلى بعض ، والذمِّ لطبقة والحمدِ لأُخرى ، فيهجِّنوا كتابنا ، ويُلحقوا بنا ما ليس من شَأْننا .

وأَحببنا أَن نأْخذَ فى ذلك بالحزم ، وأَن نحتاط فيه لأَنفسنا ومَن ضمّه كتابُنا ، ونُبادر إلى تفريق نسخٍ[٦] منها وتصييرها فى أَيدى الثِّقات والمستبصرين ، الذين[٧] كانوا فى هذا الشأْن ، ثم ختموا ذلك

---

(١) ط : « بعلتّها » ، تحريف .
(٢) فى جميع الأصول : « فيمتحنه » ، والوجه ما أثبت .
(٣) فى جميع الأصول : « ويعرفه » بالياء .
(٤) ب فقط : « فلم نأمن من أن يسرع » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٥) فى جميع النسخ : « ولقدر هواه » .
(٦) فى جميع النسخ : « نسخة » .
(٧) الذين ، ساقطة من ب ، م .

بالعُزْلة والتَّوبة منه ، كصالح بن أَبي صالح ، وكأَحمد بن سلَّام ، وصالح مولى رشيدة[١] .

ففعلنا ذلك وصيّرناه أَمانة فى أَعناقهم ، ونسخةً باقية فى أَيديهم ، ووثِقْنا بهم أُمناءَ ومُستوْدَعين[٢] وحَفَظةً غيرَ مضيِّعين ولا متَّهَمين . وعلمْنا أَنَّهم لا يَدعُون صيانةَ ما استُودِعوا ، وحِفْظَ ما عليه ائتُمِنوا.

فإن شِيبَ[٣] به شوبٌ يُخالفه ، وأُضيف إليه[٤] مالا يلائمه ، رجعنا[٥] إلى النُّسخة المنصوبة ، والأُصول المخلَّدة عند ذوى الأَمانةِ والثِّقة ، واقتصرْنا عليها ، واستعلينا بها على المبطلين[٦] ، ودفعنا بها[٧] إدغالَ المُدْغلين ، وتحريف المحرِّفين ، وتزيُّد المتزيِّدين ، إن شاءَ الله .

ولا قوة إلَّا بالله العلى العظيم .

---

(١) لم أجد ترجمة لأحد هؤلاء الثلاثة ، ولم يرد لهم ذكر فيما سبق من مكتبة الجاحظ .
(٢) ب ، م : « وأمنا ومستودعين » ، صوابه فى ط .
(٣) ط : « إذا شيب » م : « فإن شئت » ، صوابهما فى ب .
(٤) إليه ، ساقطة من ب ، م .
(٥) فى جميع النسخ : « وجعلنا » .
(٦) ب ، م : « به على المبطلين » .
(٧) ب ، م : « به » .

٦

من كتابه في

النساء

١ – فصــــل
من صدر كتابه فى النساء

إنّا لمّا ذكرنا فى كتابنا هذا الحبّ الذى هو أَصلُ الهوى ، والهوى الذى يتفرّع منه العِشق، والعِشْقَ الذى يهيم له الإنسانُ على وجهه أَو يموتُ كمداً على فِراشه . وأَوّل ذلك إدخالُ الضَّيم على مروءته ، واستشعارُ الذِّلّة لمن أَطاف بعشيقته .

ولم نُطنِب مع ذلك فى ذكر ما يتشعّب من أَصل الحبِّ من الرّحمة والرِّقّة ،[وحبِّ الأَموال النَّفيسة والمراتبِ الرفيعة[1]]، وحبِّ الرعيّة للأَئمة ، وحبِّ المُصطَنَع لصاحب الصَّنيعة ، مع اختلاف مواقع ذلك من النفوس ، ومع تفاوُتِ طبقاته فى العواقب ، احتجْنا إلى الاعتذار من ذكر العِشقِ المعروف بالصَّبابة ، والمخالفة على قوّة العزيمة ، لنجْعلَ[2] ذلك القدرَ جُنّةً دون من حاولَ[3] الطَّعن على هذا الكتاب ، وسَخْف الرأى الذى دعا إلى تأْليفه ، والإشادة بذكره[4] . إذا كانت الدُّنيا لا تنفكُّ من حاسدٍ باغٍ ، ومن قائلٍ متكلف ، ومن سامعٍ طاعن ، ومن مُنافسٍ مقصِّر . كما أَنّها لا تنفكُّ من ذى سلامةٍ متسلِّم ، ومن عالم متعلِّم ، ومن عظيم الخَطَر حسن المحضر ، شديدِ المحاماة على حقوق الأُدباء ، قليل التسرُّع إلى أَعراض العلماء .

وإنما العشقُ اسمٌ لِمَا فَضَل عن المقدار الذى اسمُه حبٌّ . وليس

---

(١) التكلة من م ، ط .
(٢) ب ، م : « ليجعل » .
(٣) ب ، م : « ما حاول » .
(٤) ب ، م : « والإشارة بذكره » ، صوابه فى ط .

كلُّ حبٍّ يسمَّى عشقاً ، وإنما العشق اسمٌ للفاضل عن ذلك المقدار ، كما أنَّ السَّرف اسمٌ لما زاد على المقدار الذى يُسمَّى جُوداً ، والبُخلَ اسمٌ لما نقص عن المقدار الذى يسمَّى اقتصاداً ، والجبنَ اسمٌ لما قَصَّر عن المقدار الذى يسمَّى شجاعة .

وهذا القول ظاهرٌ على ألسنة الأُدباء ، مُستعمَلٌ فى بيان الحكماء . وقد قال عُروة بن الزبير :(١) « والله إنى لأَعشَق الشَّرف كما تُعْشق المرأَةُ الحسناءُ » .

وذكر بعضُ الناس رجلًا كان مُدقِعاً محروماً ، ومنحوس الحظِّ ممنوعاً ، فقال : ما رأَيت أَحداً عَشِق الرِّزق عِشْقَه ، ولا أَبغضه الرزقُ بُغضَه !

فذكر الأَوَّلُ عِشقَ الشَّرف ، وليس الشَّرف بامرأَة ، وذكر الآخر عشق الرزق والرزق اسمٌ جامعٌ لجميع الحاجات .

وقد يستعمل الناس الكناية(٢) ، وربَّما وضعوا الكلمة بدل الكلمة ، يريدون أن يَظهرَ المعنى(٣) بأَلين اللفظ ، إما تَنْوِيهاً وإمَّا تفضيلًا(٤) ، كما سمَّوا المعزول عن ولايته مَصروفاً ، والمنهزم عن عدوِّه مُنْحازاً . نَعَمْ ، حتَّى سمَّى بعضُهم البخيل مقتصداً ومصلحاً(٥) ، وسُمِّى عامل الخراج المتعدِّى بحقِّ السلطان مستَقْصياً(٦) .

---

(١) م : « وقال عروة » فقط .
(٢) ط : « الكتابة » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٣) م فقط : « يظهروا المعنى » .
(٤) فى جميع الأصول : « إما تنوها وإما تفصلا » ، والوجه ما أثبت . والتنويه : الإظهار والإشادة والتعريف .
(٥) م : « أو مصلحاً » .
(٦) فى جميع الأصول : « مستعصياً » بالعين ، والوجه ما أثبت . والاستقصاء : بلوغ الغاية القصوى .

ولما رأينا الحُبَّ من أكبر أسباب جِماع الخير ، ورأينا البُغض من أكبر أسباب الشر ، أَحْبَبْنَا[(١)] أن نذكر أبواب السَّبب الجالب [للخير ، ليفرق بينه وبين أبواب السبب الجالب[(٢)]] للشر حتَّى نذكر أُصولهما وعلَلهما الداعيةَ إليهما ، والموجبة لكونهما .

فتأَمَّلْنا شأْن الدنيا فوجدنا أكبر نَعِيمِها وأكملَ لذَّاتها، ظفرَ المحبِّ بحبيبه، والعاشقِ بطِلْبَتِه[(٣)] ، ووجدنا شِقوَة الطالب المُكْدِى وغَمَّه ، فى وزن سعادةِ الطالب المُنْجِحِ وسرورِه ، ووجَدْنا العشق كلَّما كان أَرسخ ، وصاحبُه به أَكلف ، فإنَّ موقع لذَّة الظفر منه أَرسخ ، وسُرورَه بذلك أَبهج.

فإنْ زعم زاعمٌ أَنَّ موقعَ لذَّة الظَّفر بعدوٍّه المُرصِد أَحسنُ من موقع لذَّة الظفر من العاشق الهائم بعشيقته[(٤)] .

قلنا : إنَّا قد رأَينا الكرام والحلماءَ، وأَهل السُّودد والعظماءَ ، ربَّما[(٥)] جادوا بفضلهم من لذَّة شفاءِ الغَيْظ ، ويعدُّون ذلك زيادةً فى نُبْل النفس ، وبُعد الهمّة والْقدْر . ويُجودون بالنَّفيس من الصامت والناطق ، وبالثَّمين من العُروض[(٦)] . وربَّما خرجَ من جميع ماله ، وآثَرَ طِيبَ الذِّكر على الغِنى واليُسْر . ولم نرَ نفْس العاشق تسخُو بمعشوقه ، ويجود بشقيقة نفسه[(٧)] لوالدٍ ولا لولد بارٍّ ، ولا لذى نعمةٍ سابغة[(٨)] يخاف سَلْبَها ، وصَرْف إحسانِه عنه بسببها .

---

(١) ط : « اجتنبنا » ، صوابه فى ب ، م .
(٢) ما بين المعقفين ساقط من ب .
(٣) الطلب والطلبة ، بكسر الطاء فيهما : ما يطلبه العاشق ويهواه ، الأخيرة عن اللحيانى . وفى جميع النسخ : « بطلبيه » .
(٤) ب : « لعشيقته » ، صوابه فى م ، ط .
(٥) ب : « وربما » ، صوابه فى م ، ط .
(٦) العروض : الأمتعة ، سوى الدراهم والدنانير فإنها عين، واحدها عرض ، بالفتح.
(٧) ب : « لشقيقة نفسه » ، تحريف ب : « بعشيقة نفسه » ، وأثبت ما فى ط .
(٨) السابغة : الكاملة الوافية . ب فقط : « السابعة » بالعين المهملة ، تحريف .

ولم نر الرِّجال يَهَبُون للرِّجال إلّا مالا بالَ به[١] ، فى جَنْب ما يهبون للنِّساء . حتَّى كأَنَّ العِطر والصِّبغ[٢] ، والخِضاب والكحل ، والنَّتف والقصّ ، والتحذيف والحلْق ، وتجويدَ الثِّياب وتنظيفها ، والقيامَ عليها وتعهُّدها ، مِمَّا لم[٣] يتكلَّفوه إلَّا لهنّ ، ولم يتقدَّموا فيه إلَّا من أَجلهنّ ، وحتَّى كأَنَّ الحيطانَ الرَّفيعة ، والأَبوابَ الوثيقةَ ، والسُّتور الكثيفة[٤] ، والخِصْيان والظُّؤورة ، والحُشوة والحواضِنَ لم تُتَّخذْ[٥] إلَّا للصَّون لهنّ ، والاحتفاظ بما يجب من حفظ النِّعمة فيهنّ .

٢ — فصـــل منـــه

وبابٌ آخر : وهو أَنَّا لم نجدْ أَحداً مِن الناس[٦] عشِق والدَيهِ ولا وَلَده ، ولا من عَشِق مراكبَه ومنزِله ، كما رأَيناهم يموتون من عِشق النِّساء الحرام. قال الله تعالى : ﴿ زُيِّنَ للنَّاسِ حُبُّ الشَّهَواتِ من النِّساءِ والبَنِينَ والقنَاطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ والفِضَّة والْخَيْلِ المُسَوَّمَةِ والأَنْعَامِ والْحَرْث[٧] ﴾ . فقد ذكر[٨] تبارك وتعالى جملةَ أَصنافِ ما خوَّلهم من كرامته ، ومَنَّ عليهم من نعمته ، ولم نَرَ النَّاسَ[٩] وَجَدُوا بشىءٍ من هذه الأَصناف وَجْدَهم بالنِّساءِ . ولقد قدَّم ذكرهنّ فى هذه الآية على قدر تقدُّمهنّ فى قلوبهم .

(١) ب ، م : « يتّهبون » فى هذا الموضع وتاليه ، صوابه فى ط : والاتّهاب : قبول الهبة ، ولا وجه له هنا . وفى ب ، م أيضاً : « إلا بما لا بال له » ، صوابه فى ط .
(٢) ب : « والصبع » ، صوابه فى م ، ط .
(٣) ب ، م : « ما لم » ، صوابه فى ط .
(٤) الستور : جمع ستر ، بالكسر . ب فقط : « والسطور » ، تحريف .
(٥) ب ، م : « لم يتخذ » ، ط : « لم يتخذن » ، والوجه ما أثبت .
(٦) كلمة « الناس » ساقطة من ب ، م ثابتة فى ط .
(٧) الآية ١٤ من سورة آل عمران .
(٨) ب : « فقد دل » ، صوابه فى م ، ط .
(٩) ب : « ولم ير الناس » ، وأثبت ما فى م ، ط .

فإن قال قائل : فقد نجدُ الرجلَ الحليمَ ، والشَّيخَ الرَّكينَ ، يسمع الصَّوت المُطرِبَ من المغنِّي المصيبِ ، فينقلُه ذلك إلى طَبْع الصِّبيان ، وإلى أفعال المجانينِ ، فيشقُّ جيبَه ، وينقُض حُبْوَتَه ، ويفدِّى غيرَه [١] ، ويَرقُص كما يرقُص الحدَثُ الغرير ، والشابُّ السَّفيه . ولم نجد أحداً فعلَ ذلك عند رؤية معشوقِه .

قلنا : أمَّا واحدةً فإنَّه لم يكن ليدعَ التَّشاغُلَ بشمِّها وبرَشْفِها ، واحتضانِها ، وتقبيلِ قدمَيْها ، والمواضع التى وطِئَتْ عليها [٢] ، ويتشاغلَ بالرَّقص المباين لها ، والصُّراخِ الشاغلِ عنها . فأمَّا حلُّ الحُبْوة ، والشَّدُّ حُضْراً عند رؤية الحبيبة [٣] فإنَّ هذا مما لا يحتاج إلى ذكره [٤] ، لوجودِه وكثرة استعمالهم له ، فكيف وهو إن خَلا بمعشوقه لا يظنّ [٥] أنَّ لذَّة الغِناء تشغله [٦] بمقدار العُشْر من لذته ، بل ربَّما لم يخطر له ذلك الغناءُ على بال .

وعلى أنَّ ذلك الطرب مجتازٌ غير لابث [٧] ، وظاعنٌ غير مقيم ؛ ولذَّة المتعاشقين راكدة أبداً [٨] مقيمة غير ظاعنة .

وعلى أنَّ الغِناءَ الحسَنَ من الوَجْهِ الحسن والبَدَنِ الحسن ، أحسن ،

---

(١) ب : « ويفدى » م : « ويقدى » ، صوابهما فى ط .

(٢) فى جميع النسخ : « عليه » تحريف .

(٣) الحضر ، بالضم : أصله عدو الفرس . ب : « والشد خصراً » م : « والشد خصراً » . وفى ط : « والصراخ عند رؤية الحبيبة » ، صوابه ما أثبت .

(٤) ب ، م : « مالا يحتاج إلى ذكره » .

(٥) ب ، م : « فكيف وإن هو خلا بمعشوقه فظن » ، صوابه فى ط .

(٦) ب : « يشغل » م : « تشغل » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٧) ب : « ثابت » .

(٨) ب ، م : « راكدة لا بد » .

والغناء[١] الشهيّ من الوجه الشّهيّ والبدنِ الشهيّ أشهى . وكذلك الصوت النّاعم الرّخيم من الجارية النّاعمة الرّخيمة .

وكم بين أن يُفَدَّى إذا شاع فيكَ الطّربُ مملوكُك ، وبين أن يفدّى أَمَتُك[٢] ؟

وكم بينَ أن يُسمَعُ الغناءُ من فم تشتهى أن تُقبِّله[٣] ، وبين فم تشتهى أَنْ تصرِفَ وجهَك عنه .

وعلى أنَّ الرجالَ دخلاءُ على النِّساءِ فى الغناءِ ، كما رأينا رجالاً ينوحون ، فصارُوا دخلاءَ على النوائح .

وبعدُ، فأيُّما أحسنُ وأملَحُ[٤] ، وأشهى وأغنج ، أَنْ يغنِّيَك فحلٌ ملتفُّ اللِّحية ، كَثُّ العارضَينِ ، أو شيخٌ منخلع الأسنان ، مغضَّن الوجه ، ثم يغنِّيَك إذا هو تغنَّى بشعرِ ورقاءَ بنِ زُهيرٍ :

رأيتُ زهيراً تحتَ كلكلِ خالدٍ فأقبلتُ أسعَى كالعَجُول أُبادِرُ[٥]

أم تغنِّيك جاريةٌ كأنَّها طاقةُ نَرْجِس ، أو كأنَّها ياسَمينةٌ ، أو كأنَّها خُرِطت من ياقوتةٍ ، أو من فِضّةٍ مجلوّةٍ[٦] ، بشِعرِ عُكّاشة بن مِحْصَن[٧] :

(١) ب : « والغنى » تحريف ما فى م ، ط .

(٢) كذا وردت « يفدى » بالياء فى جميع النسخ ، ولها وجهها .

(٣) ب ، م : « يشتهى أن يقبله » صوابه فى ط .

(٤) ب ، م : « وبعد فإنما » ، صوابه فى ط .

(٥) كنايات الجرجانى ٣٥ . وانظر للشعر ومقتل زهير بن جذيمة العبسى ، الأغانى ١٠ : ١١ — ١٥ .

(٦) انظر نحو هذا الكلام لثمامة بن أشرس مع المأمون فى زهر الآداب ٦٠٩

(٧) كذا . وعكاشة بن محصن صحابى لم يؤثر عنه شعر . انظر الإصابة ٥٦٢٦ . وإنما الشعر لعكاشة بن عبد الصمد العمى البصرى ، وهو شاعر مقل من شعراء الدولة الهاشمية . وأخوه أبو العذافر العمى شاعر أيضاً . وبنو العم : قوم نزلوا ببنى تميم بالبصرة أيام عمر بن الخطاب فأسلموا وغزوا مع المسلمين وحسن بلاؤهم ، فقال لهم الناس : أنتم وإن لم تكونوا من العرب ، إخواننا وبنو العم ، فعرفوا بذلك فصاروا فى جملة العرب .

من كفِّ جاريةٍ كأنَّ بَنانَهـــا مِنْ فضَّة قد طُرِّفَت عُنَّابا[١]
وكأَنَّ يُمناها إذا نطقت بــــه أَلقَتْ على يَدِها الشِّمالِ حسابا[٢]

٣ – فصـــل منــه

فأَمَّا الغِناءُ المُطرب فى الشِّعر الغزِل فإنَّما ذلك من حقوق النِّساءِ . وإنَّما ينبغى أن تغنِّىَ[٣] بأَشعار الغزل والتشبيب[٤] ، والعِشق ، والصَّبابة بالنساءِ اللواتى فيهنَّ نطقَت تلك الأَشعار ، وبهنَّ شبَّب الرِّجال ، ومن أَجلهنَّ تكلَّفوا القول فى النَّسيب[٥] .

وبعدُ ، فكلُّ شىءٍ وطِبْقُه ، وشِكْله ولِفْقُه ، حتَّى تخرج الأُمورُ موزونة معدَّلةً ، ومتساوية مُخْلَصَة[٦] .

= وفى النقائض ٣٦٠ أن بنى العم ، هم مرة بن مالك بن حنظلة . والبيتان بدون نسبة فى الأمالى ١ : ٣٢٠ وحماسة ابن الشجرى ٢٦٠ ونسبا فى الأغانى ٣ : ٧٣ وسمط اللآلىء ٥٢٦، وزهر الآداب ٦٠٩ ونهاية الأرب ٥ : ١١٤ إلى عكاشة العمى . ونسبا فى العقد ٦ : ٧٤ إلى عكاشة بن الحصين خطأ . وقبلهما فى سمط اللآلى :

هبوا فقد عذب النسيم وطابا والدهر يذهب بالنعيم ذهابا
حثوا على حسن الصبوح فقد نضا نور الصباح من الدجى جلبابا

وقبلهما فى الأغانى ثلاثة أبيات هى والبيتان خمسة ، فى صوت من المائة المختارة :

ياليلة جمعت لنا الأحبابا لوشئت دام لنا النعيم وطابا
بتنا نسقاها شمولا قرقفا تدع الصحيح بعقله مرتابا
حمراء مثل دم الغزال وتارة عند المزاج تخالها زريابا

(١) يقال طرفت الجارية بنانها ، إذا خضبت أطراف أصابعها بالحناء . وهذا البيت ساقط من م .

(٢) فى الأمالى وابن الشجرى : « نطقت بها » . وفى نهاية الأرب : : « نطقت به » كما هنا . وفى العقد والزهر : « إذا ضربت بها » . وفى ب ، م : « على يده الشمال » صوابه فى ط وحماسة ابن الشجرى . وفى جميع النسخ : « حبابا » وصوابه فى جميع المراجع . وفى الأمالى والعقد ونهاية الأرب : « تلقّى على يدها الشمال » ،وفى زهر الآداب : « تلقّى على الكف الشمال».

(٣) ب فقط : « نغنى » .

(٤) ب ، م : « والشبيب » ، صوابه فى ط .

(٥) ط : « فى التشبيب » .

(٦) ب : « متساوية مخلصة » .

ولو أنَّ رجلًا من أدمثِ الناس وأشدِّهم تلخيصاً لكلامه ، ومحاسَبَة لنفسه(١) ، ثم جَلس مع امرأةٍ لا تُزَنُّ بمنطق(٢) ، ولا تعرف بحسنِ حديث(٣) ، ثم كان يعشقها ، لتَناتَجَ بينهما من الأحاديث ، ولَتلاقَحَ بينهما(٤) من المعانى والألفاظ ، ما كان لا يجرى بين دَغْفَل ابن حنظلة(٥) ، وبين ابن لسان الحُمَّرة(٦) ، وإنَّما هذا على قدر(٧) تمكُّن الغَزَل فى الرَّجُل .

٤ — فصل منه

والمرأة أيضاً أرفعُ حالًا من الرَّجل فى أُمور . منها : أنَّها التى تُخْطَب وتُراد ، وتُعشق وتُطلب ، وهى التى تُفدَّى وتُحْمَى . قال عَنْبسة بن سعيد(٨) للحجَّاج بن يوسف : أيفدِّى الأَميرُ أهلَه ؟ . . قال : والله إن تعدُّوننى إلَّا شيطاناً ، والله لربَّما رأيتُنى أُقبِّل رِجْلَ إحداهنّ !

---

(١) م : « لكلامه ومحاسنه » فقط . وفى جميع النسخ : « محاسنه » بالنون ، والوجه ما أثبت .

(٢) زنه بالخير أو بالمال ، أو بالعلم زنا ، وأزنه إزنانا : ظنه به . ب ، م : « لا يزن بمنطق » .

(٣) ب ، م : « ولا يعرف بحسن حديث » .

(٤) ب : « والتلاقح بينهما » . والذى فى ط : « ما كان الناتج بينهما من الأحاديث والمتلاقح بينهما من المعانى والألفاظ إلا ما كان يجرى بين دغفل بن حنظلة » .

(٥) ودغفل هذا هو دغفل بن حنظلة بن زيد الشيبانى الذهلى النسابة الخطيب . أدرك الرسول الكريم ولم يسمع منه . غرق فى يوم دولاب فى قتال الخوارج سنة ٧٠ . الإصابة ٢٣٩٥ وابن النديم ١٣١ والمعارف ٢٣٢ والاشتقاق ٢١١ وتاريخ الإسلام للذهبى ٢ : ٢٨٧ . وانظر أخباره وأقواله فى البيان والتبيين .

(٦) فى جميع النسخ : « وبين بشار بن الحمرة » ، والوجه ما أثبت . وابن لسان الحمرة هذا هو عبيد الله بن الحصين ، أو ورقاء بن الأشعر ، كما فى القاموس والمعارف ٢٣٣ . وهو أعرابى من بنى تيم الله بن ثعلبة ، وكان من علماء زمانه ، قال ابن قتيبة : « وكان أنسب العرب وأعظمهم بصراً » . دخل الكوفة وعليها المغيرة بن شعبة ، فسأله المغيرة عن طبائع قبائل من العرب ، وعن خلق النساء ، فأجاب أجوبة ممتعة ، سردها أبو الفرج فى الأغانى ١٤ : ١٣٨ .

(٧) ب : « على قدر » ، صوابه فى م ، ط .

(٨) هو عنبسة بن سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية ، كان من جلساء الحجاج ، كما فى الاشتقاق ٧٩ وجمهرة ابن حزم ٨١

٥ – فصـــل منـــه

وإنَّمَا يملك المولى مِن عبدِه بدنَه ، فأَمَّا قلبُه فليس له عليه سلطان . والسُّلطانُ نفسه وإن ملك رقابَ الأُمّة(١) ، فالناس يختلفون فى جهة الطَّاعة ، فمنهم من يطيع بالرَّغْبة ، ومنهم من يُطيع بالرَّهبة ، ومنهم مَن يطيع بالمحبَّة ، ومنهم من يُطيع بالدِّيانة .

وهذه الأَصناف ، وإن كان أَفضلَها طاعةُ الديانة فإنَّ تلك المحبَّة ما لم يمازجْها هوًى لم تَقْوَ(٢) على صاحبها قوَّة العِشْق . وفى الأَثر المستفيض والمثلِ السائر : « إن الهَوَى يُعمِى ويُصمّ » ؛ فالعِشْق يَقتُل .

٦ – فصـــل منـــه

ومِمَّا يُستدلُّ به على تعظيم شأْن النِّساءِ أَنَّ الرجل يُستحلَفُ بالله الذى لا شىءَ أَعظمُ منه ، وبالمشْيِ إلى بيتِ الله ، وبصَدقةِ ماله ، وعتق رَقيقهِ . فيسهُل ذلك عليه(٣) ، ولا يأْنُفُ منه . فإن استُحْلِفَ بِطلاقِ امرأَته تربَّد وجهُه(٤) ، وطار الغضبُ فى دِماغه ، ويمتنع(٥) وَيَعصى ، ويغضَب ويأْبى ، وإن كان المُحْلِف سلطاناً مَهيباً ، ولو لم يكن يحبُّها(٦) ، ولا يستكثر منها ، وكانت نفسُها قبيحة المنظر ، دقيقةَ الحسب ، خفيفةَ الصَّداق ، قليلة النَّسب .

ليس ذلك إلَّا لما قد عظَّم الله من شأْن الزَّوجات فى صدور الأَزواج(٧) .

---

(١) رقاب ، ساقطة من ب .

(٢) فى جميع الأصول : « لم يقو » ، ومرجع الضمير إلى المحبة .

(٣) م : « فيسهل عليه ذلك » .

(٤) تربد : احمر حمرة فيها سواد عند الغضب . ب : « تزبد » م : « يزيد » ، صوابهما فى ط .

(٥) فى جميع الأصول : « ويمنع » .

(٦) ب : « ولم يكن محبها » .

(٧) ب : « الرجال » .

٧ ــ فصل منه فى ذكر الولد

وبابٌ آخر : وهو أَنَّا لو خَيَّرنا رجلًا بين الفَقْر[١] أَيَّامَ حياتِه ، وبين أَنْ يكون ممتَّعاً بالباهِ أَيَّام حياته ، لاختار الفقرَ الدَّائم مع التمتُّع الدائم .

وليس شيءٌ مِمَّا يُحدث الله لعباده من أَصنافِ نِعمِه وضرُوبِ فوائده ، أَبقَى ذكراً ، ولا أَجلَّ خطراً[٢] من أَن يكون للرجل ابنٌ يكون ولىَّ بناتِه ، وساتِرَ عورةِ حُرَمه ، وقاضىَ دَيْنِه ، ومُحيىَ ذِكرِه ، مخلصاً فى الدُّعاءِ له بعد موته ، وقائماً بعده فى كلِّ ما خلَّفه مقامَ نفسه .

فمنْ أَقلُّ أَسفاً على ما فارق ، مِمَّن خلَّف كافياً مجرَّباً ، وحائطاً من وراء المال مُوفَّراً ، ومن وراءِ الحرم حامياً ، ولسلفِه فى النَّاس مُحَبِّباً . وقال رجلٌ لعبد الملك بن مروان ، وقد ذُكِرَ ولدٌ له[٣] : « أَراك الله فى بنيك ما أَرَى أَباك فيك ، وأَرَى بنيك فيك ما أَراك فى أَبيك ! » .

ونظر شيخٌ وهو عند المهلَّب إلى بنيه قد أَقبلوا فقال : « آنَس الله بكم لاحِقَكم ، فوالله إنْ لم تكونوا أَسباط نُبُوَّة[٤] إنَّكم أَسباط مَلْحمة » .

وليست النِّعْمة فى الولدَ المحيي[٥] ، والخلف الكافى ، بصغيرةٍ .

---

(١) ب : « الفقراء » ، تحريف .

(٢) ط : « ولا أجمل خطراً » .

(٣) ب : « ولسفه ذكر ولد له » بهذا النقص والتحريف . والإكمال والتصحيح من م ، ط ، مع زيادتى لكلمة « وقد » . وفى البيان ٢ : ١٤٥ : « وقال مدينى لعبد الملك بن مروان ودخل عليه بنوه » . على أن الخبر قد روى فى مجالس ثعلب ٢٢٧ فى قصة دخول الوفود إلى الوليد بن يزيد حين بايع لابنيه الحكم وعثمان .

(٤) ب فقط : « بنوة » بتقديم الباء .

(٥) ب ، م : « المحوى » صوابه فى ط . والمراد المحيى لذكر والده .

٨ ــ فصــل منــه

وباب آخر : وهو أنَّ الله تعالى خلق من المرأة ولداً من غير ذكر ، ولم يخلُق من الرّجل ولداً من غير أُنثى . فخصَّ بالآيةِ العجيبة والبرهان المنيرِ المرأة دون الرّجُل ، كما خلق المسيحَ فى بطن مريمَ من غير ذكر .

٩ ــ فصل منه فى ذكر القرابات

وأمَّا أنا فإنِّى أقول : إنَّ تباغض الأقرباء عارضٌ دخيل ، وتحابُّهُم واطدٌ أصيل ، والسَّلامة من ذلك أعمّ ، والتَّناصر أظهر ، والتَّصادق فى المودَّة أكثر . فلذلك القبيلةُ تنزِلُ معاً وترحلُ معاً ، وتُحارب من ناوأها معاً ، إلَّا الشاذَّ النادر ، كخروج غنيٍّ وباهلة من غطفان ، وكنزول عبسٍ فى بنى عامر ، وما أشبه ذلك[1] . وإلَّا فإنَّ القرابة يدٌ واحدة على من ناوأهم[2] ، وسيفٌ واحد على من عاداهم[3] ، وما صلاحُ شأْنِ العشائر إلَّا بتقارب سادَتهم فى القدْر ، وإنْ تفاوتوا[4] فى الرِّياسة والفضل ، كما قال[5] فى الأثَر المستفيض : « لا يزال النَّاسُ بخير ما تفاوتوا ، فإذا تقارَبُوا هلكوا » .

وحالُ العامَّة فى ذلك كحال الخاصَّة .

١٠ ــ فصــل منــه

وقضيَّةٌ واجبة : أنَّ الناس لا يُصلحهم إلَّا رئيسٌ واحد ، يجمع شَمْلَهم ، ويكفيهم ويحميهم مِن عدوِّهم ، ويَمنع قويَّهم من ضعيفهم .

---

(١) ذلك ، من ط فقط .
(٢) م : « ناوى لهم » ، تحريف .
(٣) م : « من عادلم » ، تحريف .
(٤) م ، ب : « وإن يتفاوتوا » .
(٥) كذا . والوجه « قيل » .

وقليلٌ له نظام ، أقوى من كثيرٍ نَشَرٍ[(١)] لا نظام لهم ، ولا رئيسَ عليهم . إذْ قد علم اللهُ[(٢)] أنَّ صلاحَ عامَّة البهائم فى أن يجعل لكلِّ جنسٍ[(٣)] منها فحلًا يُورِدها الماءَ ويُصدِرها ، وتتبعُه إلى الكلأ ، كالعَيْر فى العانة[(٤)] ، والفحل من الإبل فى الهجمة[(٥)] ، وكذلك النَّحلُ العَسَّالة[(٦)] ، والكراكىّ[(٧)] ، وما يحمى الفرسُ الحِصانُ الحُجورَ فى المُروج[(٨)] ، فجعل منها رءُوساً متبوعة ، وأذناباً تابعة .

ولو لم يُقِمِ اللهُ للنَّاسِ الوزَعَة من السُّلطان ، والحُماةَ من المُلوكِ وأهلِ الحِياطة عليهم من الأئمة ـ لعادوا نَشَراً[(٩)] لا نظامَ لهم ، ومُستكلِبينَ لا زاجر لهم ، ولكان مَن عَزَّ بَزّ[(١٠)] ، ومَنْ قدر قهر ، ولمَا زال اليُسر راكداً ، والهَرْج ظاهراً ، حتَّى يكون التغابُنُ والبَوَار[(١١)] ، وحتَّى تنطمسَ

---

(١) النشر ، بالتحريك : القوم المتفرقون لا يجمعهم رئيس . وهذه الكلمة ساقطة من ط .

(٢) ط : « الله سبحانه وتعالى » .

(٣) ب : « فى كل جنس » .

(٤) العانة : القطيع من حمر الوحش . وانظر لعير العانة الحيوان ١ : ١١٠ ، ١٩٥ / ٧ : ١٤١ . وفى جميع النسخ : « الغابة » ، صوابه ما أثبت .

(٥) فى الأصول : « والفحل فى الإبل » . وفى ط أيضاً : « والهجمة » ، والوجه ما أثبت .

(٦) انظر الحيوان ١ : ١٩ / ٣ : ٣٢٩ / ٥ : ٤١٧ .

(٧) الحيوان ٣ : ٣٢٨ ، ٤٠٦ / ٥ : ٤١٩ .

(٨) الحجور : جمع حجر ، بالكسر ، الفرس الأنثى . ويقال فى جمعه أحجار وحجورة أيضاً . وانظر الحيوان ٧ : ١٤١ .

(٩) انظر للنشر ما سبق قريباً فى هذه الصفحة . ب: « نشزا » ط: « نثرا » ، صوابهما فى م .

(١٠) ب : « من عز يزل غيره » ، صوابه فى م ، ط . وانظر جمهرة العسكرى ٢ : ٢٨٨ والفاخر ٨٩ والميدانى ٢ : ٢٣٥ والمستقصى ٢ : ٣٥٧ واللسان (بزز) . ومعناه من غلب سلب . قاله جابر بن رألان السنبسى لما أقرع النعمان يوم بؤسه بينه وبين صاحبيه ، فقرعهما فخلى سبيله .

(١١) التغابن : أن يغبن القوم بعضهم بعضاً . ب : « التغانى » ، صوابه فى م ، ط .

منهم الآثار (١) ؛ ولكانت الأنعام طعاماً للسِّباع ، وكانت عاجزة عن حماية أنفُسها ، جاهلةً بكثير من مصالح شأْنها .

فوصَلَ الله تعالى عجزَها بقوَّةِ مَن أَحوجَه إلى الاستمتاع بها ، ووَصَلَ جهلها بمعرفةِ مَنْ عرف كيف وجهُ الحيلة فى صَوْنها والدِّفاعِ عنها .

وكذلك فرض على الأَئِمّة أَنْ يحوطوا الدَّهْماءَ(٢) بالحِراسةِ لها ، والذِّيادِ عنها(٣) ، وبِرَدِّ قويِّها عن ضعيفِها(٤) ،وجاهِلها عن عالمها ، وظالمِها عن مظلومها ، وسفيهها عن حليمها .

فلولا السَّائس ضاع المَسُوس ، ولولا قُوَّةُ الراعى لهلكت الرَّعيَّة (٥) .

١١ ـ فصل منه

وانفرادُ السيِّد بالسيادة كانفراد الإمام بالإمامة . وبالسَّلامة من تنازع الرؤساء تجتمع الكلمة ، وتكون الأُلفة ، ويصلُحُ شأْنُ الجماعة . وإذا كانت الجماعة انتهت الأَعداء ، وانقطعت الأَهواء (٦) .

١٢ ـ فصل منه

ولسنا نقول ولا يقول أَحدٌ ممن يعقل : إنَّ النِّساءَ فوق الرِّجال ، أَو دونهم بطبقةٍ أَو طبقتين ، أَو بأَكثر (٧) ، ولكنَّا رأَينا ناساً يُزْرُون عليهنَّ أَشدَّ الزِّراية ، ويحتقرونهنَّ أَشدَّ الاحتقار ، ويَبْخسونهنَّ أَكثرَ حقوقهنَّ .

---

(١) ب ، م : « ينطمس » ، وفى ب : « منه الآثار » ، صوابه فى م ، ط .

(٢) ب : « أن يحيط الدهماء » ط : « أن يحوطوها » م : « أن يحوط الدهماء » ، والوجه ما أثبت .

(٣) فى الأصول : « والذيادة عنها » ، صوابه ما أثبت . والذياد والذود : الدفاع .

(٤) ب : « وترد » ، م ، ط : « ويرد » ، والوجه ما أثبت .

(٥) ب : « هلكت الرعية » .

(٦) ب ، م : « وانقطع الأهواء » .

(٧) ب ، م : « إلا بأكثر » ، صوابه فى ط .

وإنَّ من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفيرَ حقوق الآباء والأعمام إلَّا بأن ينكر حقوق الأُمَّهات والأخوال ، فلذلك ذكرنا جملةَ ما للنِّساء من المحاسن .

ولولا أنَّ ناساً يفخرون بالجَلد وقُوَّة المُنَّة ، وانصرافِ النَّفس عن حبِّ النِّساء ، حتَّى جعَلُوا شدَّة حُبِّ الرَّجلِ لأَمَتِه ، وزَوجتِه وولدِه ، دليلًا على الضَّعف ، وباباً من الخوَر ، لما تكلَّفنا كثيراً مما شرطناه فى هذا الكتاب .

١٣ — فصل منه

كما نحبُّ أن يخرجَ هذا الكتابُ تامًّا ، ويكونَ للأشكالِ الدَّاخلةِ فيه جامعاً ، وهو القول فيما للذُّكور والإناث فى عامَّة أصناف الحيوان ، وما أمكن من ذلك ، حتَّى يحصِّل ما لكلِّ جنسٍ منها[١] من الخِصال المحمودة والمذمومة . ثم يُجمعَ بين المحاسن منها والمساوى ، حتَّى يستبينَ لقارئ الكتاب نقصانُ المفضولِ من رجحان الفاضل ، بما جاءَ فى ذلك من الكتابِ النَّاطق ، والخبرِ الصَّادق ، والشَّاهد العَدْل ، والمثل السائر . حتَّى يكون الكتاب عربيًّا أعرابيًّا ، وسُنِّيًّا جماعيًّا ، وحتَّى يُجتَنَبَ[٢] فيه العويصُ والطُّرَق المتوعِّرة ، والألفاظُ المستنكرة ، وتلزيقُ المتكلِّفين[٣] ، وتلفيق أصحاب الأهواء من المتكلمين ، حتَّى نظرنا[٤] لمن لا يعلمُ مقاديرَ ما استخزَنها اللهُ من المنافع ، وغشَّاها من البرهانات[٥] ، وألزمَها من الدَّلالة عليه ، وأنطقها به من الحُجَّة له .

---

(١) منها ، ساقطة من م ، ط .
(٢) ب : « وحتى يحبب » صوابه فى م ، ط .
(٣) فى اللسان : « الملزق — بتشديد الزاى — : الشيء ليس بالمحكم » .
(٤) ب ، م : « نظر » ، ط : « نظراً » ، والوجه ما أثبت .
(٥) ط فقط : « البراهين » .

فمنع من ذلك فرْط الكبْرَة[1] ، وإفراط العِلَّة ، وضعفُ المُنَّة ، وانحلال القوَّة .

فلما[2] وافق هذا الكتابُ منَّا هذه الحال ، وألفى[3] قلوبَنا على هذه الأشغال ، اجتنبْنا أن نقصِد من جميع ذلك إلى فرق ما بين الرجُل والمرأة .

فلمَّا اعتزمنا على ما ابتدأنا به وجدناه قد اشتمل على أبواب يكثرُ عددها ، وتبعُد غايتها ، فرأينا ، والله الموفِّقُ ، أنْ نقتصرَ منه[4] على ما لا يبلغُ بالمستمع إلى السَّآمة ، وبالمألوف إلى مجاوَزَة القدْر .

وليس ينبغى لكتُب الآداب والرِّياضَات أن يحمل أصحابُها على الجدِّ الصِّرف ، وعلى العَقْل المحض ، وعلى الحقِّ المُرّ ، وعلى المعانى الصَّعبة ، التى تَستكِدُّ النُّفوسَ ، وتَستفرِغُ المجهود .

وللصبر غايةٌ ، وللاحتمال نهاية .

ولا بـأْس بـأَن يكون الكتاب موشَّحاً ببعض الهزل . وعلى أنَّ الكتاب إذا كثُر هَزْله سَخُف، كما أنَّه إذا كثر جِدُّه ثَقُل .

ولا بدَّ للكتاب من أن يكون فيه بعضُ ما ينشِّط القارئَ ، ويَنْفِى النُّعاسَ عن المستمِع . فمن وجد فى كتابنا هذا بعض ما ذكرنا ، فلْيَعْلم أنَّ قصدنا فى ذلك إنَّما كان على جهة الاستدعاء لقلبه ، والاستمالةِ لسمعِه وبَصَره . واللهَ تعالى نسأل التوفيق .

---

(١) فى جميع الأصول : « الكبوة » ، وجهه ما أثبت .
(٢) ب ، م : « فا » .
(٣) فى جميع الأصول : « وألق » بالقاف .
(٤) ب : « أن أقتصر منه » .

١٤ — فصل منه فى ذكر العشق

ورجلان من الناس لا يَعْشقانِ عِشْق الأَعراب :

أَحدهما الفقير المُدقِع ، فإِنَّ قلبه يُشْغَلُ عن التوغُّل فيه وبلوغ أَقصاه .

والملكُ الضَّخمُ الشَّأْن ، لأَنَّ فى الرِّياسة الكبرى ، وفى جوازِ الأَمر ونَفاذِ النَّهى ، وفى مِلْك رقابِ الأُمم ، ما يَشغَلُ شَطْرَ قُوى العقل عن التوغُّل فى الحب ، والاحتراقِ فى العشق .

١٥ — فصل منه

كثيراً ما يعترى العُشَّاقَ والمحبِّينَ غير المُحْترِقِين[1] ، كالرّجل تكون له[2] جاريةٌ وقد حَلَّت من قلبه مَحَلاًّ ، وتمكَّنتْ منه تمكُّناً ، ولا يجتثُّ أَصلَ ذلك الحبِّ الغضْبةُ تعرض ، وكثرةُ التأَذِّى بالخلافِ يكون منها ، فيَجدُ[3] الفترة عنها [فى[4]]بعضِ هذه الحالات التى تعرِض ، فيُظنُّ أَنَّه قد سلا ، أَو يُظنُّ أَنَّه فى عَزَائِهِ عنها[5] على فقدها مُحتمِلًا ، فيبيعها[6] إن كانت أَمة ، أَو يطلِّقها[7] إن كانت زوجة ، فلا يَنْشَب ذلك الغضبُ أَنْ يزول ، وذلك الأَذى أَنْ يُنسَى ، فتتَحرَّكُ له الدفائن[8] ، ويُثْمِر ذلك الغرْس ، فيُتبِعُها قلبه ، فإِمَّا أَنْ يسترجعَ

---

(١) ب : « المحترفين » بالفاء .

(٢) ب ، م : « لا يجنب » ، صوابه فى ط .

(٣) ط فقط : « فيوجد » .

(٤) ليست فى الأصول .

(٥) ط : « فتظن » و « أو تظن أنه »، صوابه فى ب ، م . والعزاء : الصبر . ب: « فى غراية عنها » م ، ط : « فى عزاية عنها » ، والوجه ما أثبت .

(٦) م ، ط : « مبيعها » ، صوابه فى ب .

(٧) م ، ط : « أو طلاقها » .

(٨) ب : « فيتحرك له الدفائن » .

الأَمَةَ من مُبتاعها ، بأَضعافِ ثمنها ، أَو يسترجع الزوجة بعد أَن نُكِحَتْ . فإِنْ تصبَّرَ وأَمكنه الصَّبر لم يزَلْ معذَّباً ، وإِنْ أَطاع هواه واحتمل المكروه فهذا هو العَقَابيل والنُّكْس (١) .

فليحذَر الحازمُ الفَتْرَةَ فى حبِّ حبيبه ، والغَضْبة الّتى تُنْسِيه عواقبَ أَمْرِه .

١٦ — فصل منه

قال إِبراهيم بن السِّنْدىّ (٢) : حدَّثنى عبد الملك بن صالح (٣) قال :

بينا عيسى بن موسى (٤) قد خَلَا بنفسه (٥) ، وهو قد كان استكثر من النِّساءِ حتَّى انقطع ، إذ مَرَّت بهِ جاريةٌ (٦) كأَنَّها جانٌّ ، وكأَنَّها جَدْل عِنان (٧) ، وكأَنَّها جُمَّارة ، وكأَنَّها قَضِيبُ فِضَّة ، فتحرَّكَتْ نفسُه ، وخاف أَن تَخذُلَه قُوّته ، ثم طمِع فى القوّة (٨) لطُول التَّرْك ، واجتماعِ الماءِ ، فلمَّا صَرعَها ، وجلس منها ذلك المجلس خطر على باله لو عَجَزَ كَيْف يكون حاله (٩) ؟ فلما فكَّر فَتَر ، فأَقبلَ كالمخاطب لنفسه فقال : إِنَّكِ لتجلسينى هذا المجلسَ ، وتحملينى على هذا المركَب ، ثم

---

(١) العقابيل : بقايا العلة والعشق والمرض ، الواحد عقبول وعقبولة . والنكس ، بالضم : عود المرض بعد النقه . وفى الأصول : « العقاقيل » ولا وجه له .

(٢) إبراهيم بن السندى ، سبقت ترجمته فى ص ٦٠ . ب : « بن السدى » م ، ط : « بن السبيدى » ، صوابهما ما أثبت .

(٣) انظر البيان والتبيين ١ : ٣٣٤ .

(٤) هو عيسى بن موسى بن محمد بن عبد الله بن العباس ، أحد ولاة العباسيين وقوادهم . وأبوه موسى هو أخو السفاح والمنصور . انظر المعارف ١٦٥ .

(٥) ب ، م : « قد خلى بنفسه » تحريف .

(٦) ب : « إذ مرت جارية » .

(٧) أى عنان مجدول . وانظر الحيوان ٦ : ٢٦٢ ورسائل الجاحظ ٢ : ١٢١ .

(٨) ط : « فى لقوة » .

(٩) ب : « عن عجز كيف يكون حاله » ، تحريف .

تَخذُلِينى هذا الخِذلان(١) وتُغَشِّينى مثلَ هذا الذُّلِّ ، ولولا حَيرة الخجَل(٢) لم أَستعمل مالاَ يقتل ! وذلك أَنَّه حين رأَى أَنَّ أَبلغ الحيل فى توهيمها أن العجز لم يكن من قبله أَن يقولَ لها : تَعَرَّضين لى وأَنت تَفِلةٌ ، ثم لا تُرْخِينَ بادَيْك(٣) ، ولا تَستهدِفينَ لسيِّدك ، ولا تُعينين على نَفْسِك ، حتَّى كأَنَّكِ عند عبدٍ يُشْبِهُك ، أَو سُوقةٍ لا يقدر إِلَّا على مِثلك(٤) . أَمَا لو كُنتِ(٥) من بنات ملوك العَجَم لأَلفاكِ سيِّدُكِ على أَجودِ صنعة ، وعلى أَحسَنِ طاعة ، إِذْ كلُّ رجلٍ ينبسِط للتمتُّع مع التَّفَل(٦) .

١٧ — فصل منه

ولم أَسمعْ ولم أَقرأْ فى الأَحاديث المولَّدة ، فى شأْن العُشَّاق ، وما صَنَع العشقُ فى القلوب والأَكبادِ والأَحشاءِ ، والزَّفراتِ والحنين ، وفى التَّدليهِ والتَّوْليهِ(٧) ، مَتى تستعر الدَّمعَة(٨) ، ومتى يُورث العَيْنَ الجُمودُ(٩) .

---

(١) ب ، م : « لتجلسنى » و « وتحملنى » ، و « تخذلنى » ، والصواب فى ط . واجتماع نون الرفع مع نون الوقاية يجوز فيه حذف أحدهما أو إبقاؤهما معاً مع الفك ، ومع الإدغام ، كما فى المغنى ٣٨٠ . قال : « ونحو تأمرونى يجوز فيه الفك ، والإدغام ، والنطق بنون واحدة » .

(٢) ب ، م : « خيرة الخجل » بالخاء المعجمة ، تحريف .

(٣) البادان : باطنا الفخذين ، وما بين الرجلين ، ومنه قول الدهناء بنت مسحل : « إنى لأرخى لك بادىَّ » . اللسان (بدد ٤٦) . ب : « لا ترحين » بالحاء المهملة ، ط ، م : « لا ترجين » ، والصواب ما أثبت . وفى ط أيضاً « بادئك » ، صوابه فى ب ، م .

(٤) ب : « على ملكك » م : « على ملك » ، صوابهما فى ط .

(٥) لو ، ساقطة من ب ، م .

(٦) ب : « يبسط » م : « تنبسط » ، صوابهما فى ط . وفى ب أيضاً : « مع الثقل » . وفى ط : « للمتمتع » ، تحريفان .

(٧) دلهه الحب تدليهاً : حيره وأدهشه ، فهو مدله . وكذا ولهه توليها : حيره وأذهب عقله . وفى م ، ط : « التدلية والتولية » ، صوابهما فى ب .

(٨) فى جميع الأصول : « ومتى » ، والوجه حذف الواو . وفى ب فقط : « الدمع » ، تحريف .

(٩) جمود العين : قلة دمعها . ب ، م : « متى يورب » ، والوجه ما أثبت . وفى ط : « ومتى يعترى » .

١٨ — فصل منه

ونحن وإنْ رأَينا أَنَّ فَضْلَ الرَّجلِ على المرأَة ، فى جملة القول فى الرِّجال والنساءِ ، أَكثرَ وأَظهر ، فليس ينبغى لنا أن نقصِّر فى حقوق المرأَة . وليس ينبغى لمن عظَّم حقوق الآباءِ أَن يصغِّر حقوق الأُمَّهات ، وكذلك الإِخوة والأَخوات ، والبَنُونَ والبنات . وأَنا وإن كنتُ أَرى أَنَّ حقَّ هذا أَعظم فإنَّ هذه أَرحم .

١٩ — فصل من احتجاجه للإماء[١]

قال بعضُ من احتجَّ للعلة التى من أَجلها صار أَكثر الإِماءِ أَحظَى عند الرِّجال من أَكثَرِ المهيرات[٢] : أَنَّ الرجل قبل أن يَملِكَ الأَمَةَ قد تأَمَّلَ كلَّ شيءٍ منها وعَرَفه ، ما خلا حُظْوة الخَلْوة ، فأَقدمَ[٣] على ابتياعها بعد وقُوعها بالموافقة . والحُرَّةُ إنَّما يُستشار فى جَمَالها النِّسَاء ، والنِّساء لا يُبْصِرن من جمالِ النساءِ وحاجاتِ الرِّجال وموافَقَتِهِنَّ قليلًا ولا كثيراً . والرِّجالُ بالنِّساءِ أَبصر . وإنَّما تَعرِف المرأَةُ من المرأَة ظاهرَ الصِّفة ، وأَمَّا[٤] الخصائصُ التى تقع بموافقة الرِّجال فإنَّها لا تعرف ذلك .

وقد تُحْسِن المرأَةُ أَن تقول : كأَنَّ أَنفَها السَّيف ، وكأَنَّ عَينَها عينُ غَزَال ، وكأَنَّ عُنُقَها إبريقُ فضة ، وكأَنَّ ساقَها جُمَّارة[٥] ، وكأَنَّ شَعْرها

---

(١) م فقط : « فى الإماء » .
(٢) المهيرة : التى تعطى المهر من الحرائر .
(٣) ب فقط : « فأقبل » .
(٤) ب : « فأما » .
(٥) ب فقط : « وكأنها » . والجمار : شحم النخل ، تشبه به الساق فى اللين والبياض . وفى الحديث : « كأنى أنظر إلى ساقه فى غرزه كأنها جمارة » .

العناقيد ، وكان أَطرافَها المدارَى[1] ، وما أَشبه ذلك :

وهناك[2] أَسبابٌ أُخَرُ بها يكون الحبُّ والبغض .

٢٠ — فصل منه

وقد علِم الشاعرُ وعَرَف الواصفُ ، أَنَّ الجارية الفائقة الحسنِ أَحسَنُ من الظَّبية ، وأَحسَنُ من البقَرة ، وأَحسَنُ من كلِّ شيءٍ تشبَّه به ، ولكنَّهم إذا أرادوا القولَ شبَّهوها بـأَحسنِ ما يجدونْ .

ويقول بعضُهم : كأَنَّها الشمس ، وكأَنَّها القمر ! والشَّمسُ وإن كانت بهيَّةً فإنَّما هى شىءٌ واحد ، وفى وجه الجاريةِ الحسناءِ وخَلْقها ضروبٌ من الحسن الغريب والتركيب العجيب .

ومَنْ يشكُّ أَنَّ عينَ المرأةِ الحسناءِ أَحسَنُ من عين البقرة ، وأَنَّ جِيدَها أَحسنُ من جِيد الظبية ، والأَمر[3] فيما بينَهما متفاوِت ، ولكنَّهم لو لم يفعلوا هذا وشِبْهَه لم تَظهر بلاغتُهم وفِطْنتُهم .

٢١ — فصل منه

ورأَيتُ أَكثرَ النَّاس من البُصَراء بجواهرِ النساءِ[4] ، الذين هم جَهابذةُ هذا الأَمر ، يقدِّمون المجدُولة[5] ، والمجدُولة من النساءِ تكون فى منزلةٍ بين السَّمينة والممشوقة .

ولا بدَّ من جَودة القَدِّ ، وحُسْن الخَرْط ، واعتدالِ المَنكبين ،

---

(١) أطرافها ، أى أطراف أصابعها . والمدارى بكسر الراء وفتحها : جمع مدرى ومدراة ، وهى شىء يعمل من حديد أو خشب على هيئة سن من أسنان المشط . تشبه به فى الدقة .

(٢) ب : « هناك » بدون واو .

(٣) الواو ساقطة من ب .

(٤) ب : « لجواهر النساء » .

(٥) ب ، م : « المجدولة » . فى هذا الموضع وتاليه ، تصحيف .

واستواءِ الظَّهر ، ولا بدَّ من أن تكون كاسيةَ العِظام ، بين الممتلئة والقَضِيفة .

وإنَّما يريدون بقولهم : مجدُولة[١] ، جودةَ العَصَب ، وقِلَّة الاسترخاءِ ، وأن تكون سليمةً من الزَّوائد والفُضول .

وكذلك قالوا : خُمصانة وسَيْفانة[٢] ، وكأنَّها جانٌّ ، وكأنَّها جَدْل عِنان[٣] ، وكأنَّها قضيبُ خَيزُران .

والتثنِّي في مَشْيها أَحسَنُ ما فيها ، ولا يمكن ذلك الضَّخمةَ والسَّمينةَ ، وذاتَ الفضول والزَّوائد .

على أنَّ النَّحافة في المجدُولة[٤] أَعمّ ، وهي بهذا المعنى أَعرف[٥] ، تُحبَّبُ على السِّمان الضخام[٦] ، وعلى الممشوقات والقِضاف[٧] ، كما يحَبَّب هذه الأَصناف على المجدُولات[٨] .

ووصفوا المجدُولة بالكلام[٩] المنثور فقالوا : « أَعلاها قَضيب ، وأَسْفَلُها كثيب » .

---

(١) ب ، م : « مجذولة » ، تصحيف ما فى ط .

(٢) الخمصانة ، بفتح الخاء وضمها : الضامرة البطن . والسيفانة : الطويلة الممشوقة الضامرة . ب : « خصمانه » ، صوابه فى م ، ط . وفى ط : « سيقانة » ، صوابه بالفاء كما فى ب ، م .

(٣) انظر الحاشية ٧ من ص ١٥٥ .

(٤) ب ، م : « المجذولة » فى هذا الموضع وتاليه ، والصواب فى ط .

(٥) بعدها فى جميع النسخ : « ولم أر المجدولة أعم وهى بهذا المعنى أعرف » ، وهو تكرار لما سبق .

(٦) ب ، م : « تجيب على أصحاب السمان الضخام » ، وأثبت ما فى ط .

(٧) القضيفة : الدقيقة النحيفة لا عن هزال . ب ، م : « أصحاب المشوقات والقضاف » .

(٨) ب : « كما يجيب » ، وأثبت ما فى م ، ط . وفى ب ، م أيضاً : « أصناف المجذولات » ، صوابه فى ط .

(٩) ب : « المجزولة » م : « المجذولة » ، صوابه فى ط .

٧

من رسالة في

مناقب الترك وعامة جند الخلافة

فصل من صدر رسالته إلى الفتح بن خاقان (١) في مناقب التّرك وعامة جند الخلافة (٢)

وفَّقك الله لرُشدك (٣)، وأعان على شكرك (٤)، وأصلحك وأصلح على يديك، وجعلنا وإيَّاك ممن يقول بالحقّ ويعملُ به، ويُؤْثره، ويحتمل ما فيه مما قد يصدُّ عنه (٥)، ولا يكون حظُّه منه (٦) الوصفَ له، والمعرفةَ به، دون الحثّ عليه، والانقطاعِ إليه، وكَشْفِ القناع فيه (٧)، وإيصاله إلى أهله، والصَّبرِ على المحافظةِ في أنْ لا يصلَ إلى غيرهم، والتَّثبُّتِ في تحقيقه لديهم؛ فإنَّ الله تعالى لم يُعلِّم النَّاسَ ليكونوا عالمين دون أن يكونوا عاملين، وإنَّما علَّمهم ليعملوا (٨)، وبَيَّن لهم ليَتَّقوا (٩) التورُّطَ في وسَط الخَوْف، والوقوعَ في المضارّ، والتوسُّط في المهالك. فلذلك طلبَ الناس التبيُّنَ (١٠).

---

(١) الفتح بن خاقان هذا هو وزير المتوكل العباسي. وكان أديباً شاعراً فصيحاً بارع الذكاء. وكانت له خزانة كتب حافلة، وله مؤلفات منها: كتاب اختلاف الملوك، وكتاب الصيد والجارح، وكتاب الروضة والزهر. وقتل مع المتوكل سنة ٢٤٧.

وهو غير الفتح بن محمد عبيد الله بن خاقان، صاحب قلائد العقيان. انظر فهرست ابن النديم ١٦٩ – ١٧٠ وفوات الوفيات ٢ : ١٥٣ – ١٥٤.

(٢) نشرت كاملة في ليدن ١٩٠٣ م بعناية فان فلوتن، كما نشرها الساسي في مجموع رسائله سنة ١٣٢٤ هـ = ١٩٠٧ م كما نشرت في رسائل الجاحظ بتحقيقي سنة ١٣٨٤ هـ = ١٩٦٤ م. وقد رمزت للأولى هنا بالرمز (ن) والثانية بالرمز (مج).

(٣) في جميع الأصول: « وأرشدك »، وأثبت ما في مج والرسائل ١ : ٥ هارون.

(٤) ط، م: « وأعانك على شكره ».

(٥) ب: « يصدر عنه »، وأثبت ما في م، ط. وفي مج والرسائل: « مما قد يصده عنه ».

(٦) منه، ساقطة من الأصول، ثابتة في مج والرسائل.

(٧) مج فقط: « عنه ».

(٨) ب، ط: « ليعلموا »، صوابه في سائر النسخ.

(٩) ب: « ليتقنوا » صوابه في م، ط والرسائل. وبعد هذه الكلمة في مج فقط: « ولخوف الوقوع في المضار، والتورط في المهالك، طلب الناس التبين ».

(١٠) م، ط فقط: « التبين ».

ولحبِّ السَّلامة من الهَلَكة ، والرَّغبة فى المَنفعة احتملوا[١] ثِقَل التعلم ، وتعجَّلوا مكروه ثِقَل المعاناة[٢] .

ولقلَّة العاملين وكثرة الواصِفين قال الأَوّلون : العارفون أكثر من الواصفين ، والواصفون أكثر من العاملين .

وإنَّما كثُرت الصِّفاتُ وقلَّت الموصوفاتُ لأنَّ ثواب العمل مؤجَّل ، واحتمالَ ما فيه معجَّل .

وقد أَعجبنى ما رأيتُ من شغَفِك[٣] بطاعة إمامك ، واحتجاجك لتدبير خليفتك ، وإشفاقِك من كلِّ خَللٍ يدخله وإنْ دقَّ ، ونالَ سُلطانَه[٤] وإنْ صغُر ، ومن كلِّ أَمْرٍ خالَفَ هواه وإنْ خفِىَ مكانه ، وجانَب رضاه وإنْ قلَّ ضرره . ومن تخوُّفك[٥] أَن يجدَ[٦] المتأَوِّل إليه متطرَّقاً ، والعدوُّ عليه متعلَّقاً ؛ فإن السُّلطان لا ينفكُّ من متأَوِّلٍ ناقمٍ ، ومن محكومٍ عليه ساخط ، ومن معزول[٧] عن الحكم زارٍ ، ومن متعطِّل متصفِّح ، ومن مُعجَبٍ برأْيه ، ذى خَطَلٍ فى بيانِه ، مُولعٍ بتهجين الصَّواب ، وبالاعتراض على التَّدبير ، حتَّى كأَنَّه رائدٌ لجميع الأُمة ، ووكيلٌ لسكَّان جميع المملكة ؛ يضَعُ نفسَه فى مواضع الرُّقباء ، وفى مواضع التصفُّح على الخلفاءِ والوُزراءِ . لا يَعْذِرُ وإنْ كانَ مَجازُ العُذْر ظاهراً ، ولا يقف فيا يكون للشَّكِّ محتمِلا ، ولا يصدِّق بأَنَّ الشاهدَ

(١) ب فقط : « احتمل » .
(٢) مج والرسائل : « مكروه المعاناة » .
(٣) ب فقط : « شغلك » .
(٤) ط فقط : « ونول سلطانه » .
(٥) ب ، م : « وإن تخونك » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٦) فى جميع الأصول : « أن تجد » ، صوابه فى مج والرسائل .
(٧) مج والرسائل : « معدول » بالدال ، وله وجهه .

يرى ما لا يرى الغائب ، وأنَّه لا يَعرف مَصادر الرَّأى من لم يَشْهَد مواردَه ، ومُسْتَدْبَرَه من لم يَعرِفْ مُستقبلَه .

ومن محرومٍ قد أَضْعَفه الحِرمانُ ، ومن لئيم قد أَفسَدَهُ الإحسان ، ومن مستبطئٍ قد أَخَذَ أَضعافَ حقِّه ، وهو لجهله بقَدْره ، ولضِيق ذَرْعِه ، وقلَّةِ شُكره ، يظنُّ أَنَّ الذى بَقِىَ له أَكثر ، ولحقِّهِ أَوْجَب .

ومن مستزيدٍ لو ارتجَعَ السُّلطانُ سالفَ أَياديه البيضِ عنده ، ونِعمتَه السَّالفة عليه ، لكان[1] لذلك أَهلًا ، وله مستحقًّا . قد غرَّه الأَمل[2] ، وأَبطَرَه دَوامُ الكِفاية ، وأَفسده طولُ الفراغ .

ومِن صاحبِ فتْنة[3] خاملٍ فى الجماعة ، رئيس فى الفُرقة نَعَّاق فى الهَرْج ، قد أَقصاه عِزُّ السُّلطان[4] ، وأَقام صَغْوَه ثِقافُ الأَدب[5] ، وأَذلَّه الحُكْم بالحقِّ[6] ، فهو مَغِيظٌ لا يجد غير التشنيع[7] ، ولا يتشفَّى بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلَّا إلى الأَمانىِّ[8] ، ولا يأْنس إلَّا بكلِّ مُرجِفٍ كذَّاب ، ومُفتونٍ مُرْتاب ، وخارصٍ لا خير فيه ، وخالفٍ لا غَنَاءَ عنده ، يُريد أَن يسوَّى بالكُفاة ، ويُرفَع فوق الحُماة ، لأَمْرٍ ما سَلَفَ[9] له ، ولإِحسانٍ كانَ من غيره[10] ، وليس ممن يربُّ قديمَ مجد[11] ، ولا يحفل

(١) ب ، م : « ولكان » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٢) ب ، مج ورسائل الجاحظ : « الإملاء » .
(٣) ط : « للفتنة » .
(٤) وكذا فى مج . وفى رسائل الجاحظ : « قد أقصاه السلطان » .
(٥) الصغو ، بالكسر والفتح : الميل . وفى جميع النسخ : « صغره » ، صوابه فى مج .
(٦) ب ، م : « الحلم بالحق » وفى ط « الجهل بالحق » ، صوابهما فى مج ورسائل الجاحظ .
(٧) ب : « التشييع » ، صوابه فى م ، ط ، مج ورسائل الجاحظ .
(٨) ب : « إلا بالأمانى » .
(٩) ب : « لايسلف له » م ، ط : « لا أب سلف له » ، صوابهما فى رسائل الجاحظ . وفى مج : « لأمر سلف له .
(١٠) ط فقط : « وإحسان كان من غيره » .
(١١) ط : « يربه قديم مجد » . مج ورسائل الجاحظ : « يرب قديماً بحديث » .

بُدروس شرف[١] ، ولا يَفْصِل بين ثواب [المحتسبين ، وبين الحفظ لأَبناءِ[٢]] المُحْسنين .

وكيف يعرف فَرقَ ما بين حَقِّ الذِّمام[٣] وثَوابِ الكِفاية مَنْ لا يعرف طبقاتِ الحقِّ فى مراتبه ، ولا يَفْصِلُ بين طبقات الباطل[٤] فى منازله .

ثم اعلم[٥] بعد ذلك أَنَّك بنفسك بدأْتَ فى تعظيم إمامك ، والحفظِ لمناقب أَنْصار خليفتك[٦] ، وإيَّاها حُطْتَ بحياطتك[٧] لأَشياعِه ، واحتجاجك لأَوليائه ، ونعم العون أَنت ، إن شاءَ الله ، على ملازمةِ الطَّاعة ، والمُوازرة على الخير[٨] ، والكفايةِ لأَهل الحقِّ .

وقد استدلَلْتُ بالذى أَرى من شدة عِنايتك[٩] وفَرط اكتراثك ، وتفقُّدِك لأَجناس الأَعداءِ[١٠] ، وبحثك عن مناقب الأَولياءِ – على أَنَّ ما ظَهَر من نُصحِك أَمَمٌ فى جَنْب ما بَطَنَ من إخلاصك[١١] . فأَمتع

---

(١) ط : « ولا يحفل به رءوس شرفا » صوابه فى سائر النسخ .
(٢) التكلة من مج والرسائل .
(٣) الذمام ، بكسر الذال : الحق والحرمة ، وكل حرمة تلزمك إذا ضيعتها المذمة . ب : « فوق ما بين حق الزمام » ، تحريف .
(٤) ب فقط : « المبطل » ، تحريف .
(٥) مج والرسائل : « ثم أعلمنى » .
(٦) ب : « والحفظ بمناقب أبصار لخليفتك » ، صوابه فى سائر النسخ .
(٧) فى الأصول : « لحياطتك » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .
(٨) ب فقط : « والموازنة » ، تحريف .
(٩) من ، ساقطة من ب ، م . وكلمة « شدة » من مج والرسائل .
(١٠) فى الأصول : « ولفقدك » ، صوابه فى مج والرسائل . وفى مج والرسائل : « لأخابير الأعداء » . والأخابير : جمع جمع الخبر ، كما فى اللسان .
(١١) الأمم : اليسير . وأنشد ياقوت فى معجم البلدان :

تسألنى برامتين سلجمـــا يا هنـد لو سألت شيئاً أمما
جاء به الكرى أو تيمما

الله بك خليفتَه ، ومَنَحنا وإيَّاك محبَّتَه ، وأعاذنا وإيَّاك من قَول الزُّور ، والتقرُّب بالباطل ، إنَّه حميدٌ مَجيد ، فعَّالٌ لما يريد .

وذكرتَ أنَّك جالستَ أخلاطاً من جُند الخلافة ، وجماعاتٍ من أَبناءِ الدَّعوة ، وشيوخاً من جِلَّة الشِّيعة(١) ، وكُهولًا من أبناءِ رجال الدولة ، المنسوبين إلى الطاعة والمُناصحة ، ومحبَّة الدَّيْنُونة(٢) دون محبَّة الرَّغبة والرهبة ، وأنَّ رجُلًا من عُرْض تلك الجماعة(٣) ارتجل الكلام ارتجالَ مستبدٍّ ، وتفرَّد به تفرُّدَ مُعجَب ، وأنَّه تعسَّف المعانيَ وتهجَّم على الألفاظ(٤) فزعم أنَّ جند الخلافة اليومَ على خمسة أقسام : خُراسانيٌّ ، وتُركيٌّ ، ومَولًى ، وعربيٌّ ، وبَنَويٌّ(٥) ، وأنَّه أكثَرَ حمدَ الله وشُكره على إحسانه ومِنَّته ، وعلى جميع أياديه ، وسبوغ نِعَمه(٦) ، وعلى شُمول عافيته ، وجزيل مواهبه ، حين ألَّف على الطاعة هذه

---

(١) الجلة : جمع جليل ، وهو ذو الخطر والشأن . وفى الأصول : « من جملة الشيعة » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

(٢) الدينونة : الطاعة ، من الدين بالكسر . وهذا ما فى م . وفى ب : « ومحبة الدنيوية » ، وفى ط والرسائل : « والمحبة الدينية » . وفى مج : « والمناصحة الدينية . والدينونة لم ترد فى المعاجم المتداولة . وفى اللسان (كون) : « قال الفراء : العرب تقول فى ذوات الياء مما يشبه زغت وسرت : طرت طيرورة ، وحدت حيدودة ، فيما لا يحصى من هذا الضرب .

فأما ذوات الواو مثل قلت ورضت فإنهم لا يقولون ذلك . وقد أتى عنهم فى أربعة أحرف ، منها الكينونة من كنت ، والديمومة من دمت ، والهيعوعة من الهواع ، والسيدودة من سدت » .

(٣) ب ، م : « الجملة » ، وأثبت ما فى ط ومج والرسائل . وبعده فيهما : « ومن حاشية تلك الجلة » .

(٤) فى جميع الأصول : « وتهكم » بالكاف ، صوابه فى مج والرسائل .

(٥) البنوى : نسبة إلى واحد الأبناء . ويقال أيضاً « أبناوى » نسبة إلى الجمع ، وهم قوم أرسلهم كسرى مع سيف بن ذى يزن حين جاء يستنجده على الحبشة ، فنصروه وملكوا اليمن وتديروها ، وتزوجوا فى العرب فقيل لأولادهم الأبناء ، وغلب عليهم هذا الاسم ، لأن أمهاتهم من غير جنس آبائهم . اللسان (بنو) والتنبيه والإشراف ٤٢١ . ويبدو أن جميع الذين اجتذبتهم الحروب من الفرس إلى جزيرة العرب كان العرب يسمونهم الأبناء . وفى جميع الأصول : « وبنوى » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٦) مج والرسائل : « وسابغ نعمه » .

القلوبَ المختلفة ، والأَجناسَ المتباينة ، والأَهواءَ المتفرقة ، وأَنَّكاعترضت على هذا المتكلِّم المستبدِّ ، وعلى هذا القائل المتكلِّفِ الذى قسَّم هذه الأَقسام ، وخالَفَ بين هذه الأَركان ، وفصَّل بين أَنسابهم . وأَنَّك أَنكرت ذلك عليه أَشدَّ الإِنكار ، وقذعته أَشدَّ القذْع .

وزعمت أَنَّهم لم يخرجوا من الاتِّفاق ، أَوْ مِن شىءٍ يَقرُب من الاتِّفاق[١] ، وأَنَّك نَفَيْتَ[٢] التباعُدَ فى النَّسَب ، والتَّبايُنَ فى السَّبب .

وقلتَ : بل أَزْعُمُ أَنَّ الخراسانىَّ والتُّركىَّ أَخَوانِ ، وأَن الحيِّز واحد ، وأَنَّ حُكْمَ ذلك الشَّرق[٣] ، والقضيَّة على ذلك الصُّقْع[٤] متَّفِق غير مختلف ، وَمتقاربٌ غيرُ متفاوت ، وأَنَّ الأَعراقَ فى الأَصل إن لا تكن[٥] كانت راسخة ، فقد كانت متشابِهة ، وحُدود البلاد المشتملةِ عليهم إن لا تكن[٦] متساويةً فإِنَّها متناسِبة ، وكلُّهم خُراسانىٌّ فى الجملة ، وإن تميَّزُوا ببعض الخصائص ، وافترقوا ببعضِ الوجُوه .

وزعمتَ أَنَّ اختلاف التركىِّ والخُراسانىِّ ليس كاختلاف ما بين الرُّومىِّ والصَّقْلبىِّ ، والزِّنجى والحبشىِّ ، فضلًا على ما هو[٧] أَبعدُ جوهراً ، وأَشدُّ خلافاً ، بل كاختلاف ما بين المَدَرىِّ والوَبَرىِّ ، والبدَوىِّ والحَضَرىِّ ، والسُّهلىِّ والجَبَلىِّ ، وكاختلاف ما بين مَن نزل البُطونَ وبين

---

(١) أو من شىء يقرب من الاتفاق ، ساقط من م ، ط وإن كان قد ورد بهامش م بخط مخالف .

(٢) مج والرسائل : « وأنك أنكرت » .

(٣) ب فقط : « الشرف » بالفاء ، صوابه فى سائر النسخ .

(٤) ط : « والقضاء » بدل « القضية » . وفى م : « ذلك الصنع » ، تحريف .

(٥) ط : « إذا لم تكن » مج : « إن لم تكن راسخة » .

(٦) مج : « إن لم تكن » .

(٧) مج والرسائل : فضلا عما هو .

من نزل النجود(١) ، وبين من نزل الأَغوار(٢) .

وزعمتَ أَنَّ هؤُلاءِ وإن اختلفوا فى بعض اللُّغة ، وفارقَ بعضُهم بعضاً فى بعض الصُّورة(٣) ، فقد نجد أَنَّ عُلْيا تَميم(٤) ، وسُفلَى قَيْس ، وعَجُز هَوازن(٥) ، وفصحاءِ الحجاز ، خلافُ لغةِ حِمْيَر(٦) وسكَّانِ مَخاليف اليمن ، وكذلك الصُّورة والصُّورة ، والشَّمائل والشَّمائل ، والأَخلاق والأَخلاق . وكلُّهم مع ذلك عربىٌّ خالصٌ غير مَشُوب ، ولا مُعَلْهَج ولا مذرّع(٧) ولا مزلَّج(٨) . ولم يختلفوا كاختلاف ما بين

(١) النجود : جمع نجد ، وهو ما غلظ من الأرض وارتفع واستوى ، والجمع أنجد ، وأنجاد ، ونجاد ، ونجود ، ونجد . ب ، ط : « البحور » تحريف ، صوابه فى م مع أثر تصحيح ، وكذا فى مج والرسائل .

(٢) الأغوار : جمع غور ، وهو ما انخفض من الأرض . ب : « الأهواز » م : « الأغوال » ، صوابهما فى ط ، مج والرسائل .

(٣) ب : « وقارب بعضهم بعضاً وبعض الصورة » ، صوابه فى م ، ط ، مج والرسائل ، لكن فى ط : « وبعض الصورة » تحريف .

(٤) مج والرسائل : « فقد تخالفت عليا تميم » . وعليا تميم ، أو عالية تميم هم بنو عمرو بن تميم ، وهم بنو الهجيم والعنبر ومازن ، كما فى اللسان (علا ٣٢٦) . وفى الصاحبى ٢٨ والمزهر ١ : ٢١١ : « أفصح العرب عليا هوازن وسفلى تميم » . وفى البرهان للزركشى : ٢٨٣ : « وأما سفلى تميم فبنو دارم » . وهم بنو دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة ابن تميم .

(٥) فى الصاحبى ٢٨ والمزهر ١ : ٢١٠ : « العجز من هوازن ، وهم الذين يقال لهم عليا هوازن ، وهم خمس قبائل أو أربع ، منها سعد بن بكر ، وجشم بن بكر ، ونصر بن معاوية ، وثقيف » . وفى اللسان : « عجز هوازن : بنو نصر بن معاوية ، وبنو جشم بن بكر ، كأنه آخرهم » . ويبدو أن الوصف بالعليا والسفلى راجع إلى الموقع الإقليمى . فعليا تميم : من يسكنون العالية ، وهى ما ولى الحجاز وتهامة . وسفلاهم : من يسكنون السافلة ، وهى ما ولى العراق . وتميم كلها مشهود لها بالفصاحة .

(٦) مج والرسائل : « وهى فى أكثرها على خلاف لغة حمير » .

(٧) المعلهج : الهجين ، وهو العربى المولود من أمة . والمذرع : الذى أمه عربية وأبوه عربى . وأنشد :

إذا باهلى عنده حنظلية لها ولد منه فذاك المذرع

وفى جميع النسخ : « ولا مربوع » ، صوابه فى مج والرسائل وهامش م .

(٨) المزلج : الدعى ، والملزق بالقوم وليس منهم ، كأنهم يزلجونه عن أنسابهم لعدم أصالته . ب فقط : « مزنج » ، صوابه فى م ، ط ومج والرسائل .

قَحَطانَ وعَدْنان ، مِنْ قِبَلِ ما طبع اللهُ عليه تلك التُّربةَ من خصائص الغرائز ، وما قَسَم لأَهلِ كلِّ جزيرةٍ من الشَّكل والصُّورة ، ومن الأَخلاق واللغة .

فإنْ قلتَ : وكيف صار أَولادُهما جميعاً عَرَباً ، مع اختلاف الأُبوَّة ؟

قلنا : إنَّ الجزيرة لمَّا كانت واحدةً فاستوَوْا[١] فى التُّربة وفى اللُّغة ، وفى الشَّمائل والهمّة ، وفى الأَنَف والحميَّة ، وفى الأَخلاق [والسجيَّة[٢]] ، فسبكوا سبكاً واحداً ، تشابهت الأَجزاءُ وتناسبت الأَخلاط[٣] ، حتَّى صار ذلك أَشدَّ تشابهاً فى باب الأَعمِّ والأَخصّ ، وفى باب الوفاق والمباينة[٤] من بعضِ الأَرحام ، وجرى عليهم حُكم الاتِّفاق فى الحسَب[٥] ، وصارت هذه الأَسبابُ وِلادةً أُخرى حتَّى تناكَحُوا عليها ، وتصاهَروا من أَجْلها . وامتنعت عَدنانُ قاطبةً من مناكحة بنى إسحاق ، وهو أَخو إسماعيل ، وجادُوا[٦] بذلك فى جميع الدَّهر لبنى قحطان[٧] .

فنى إجماع الفريقين على التَّناكُح والتَّصاهُر ، ومنعِهما ذلك جميعَ الأُمَم ، ككسرى[٨] فمن دونه ، دليل على أَنَّ النَّسبَ[٩] عندهم متَّفق ، وأَنَّ هذه المعانىَ قد قامت عندهم مقامَ الولادةِ والأَرحامِ الماسَّة .

---

(١) ط فقط : « استووا » بدون فاء .

(٢) التكلة من مج والرسائل .

(٣) ب ، م : « وتباينت الأخلاط » ، ط : « وتباينت الأخلاق » ، صوابهما فى مج والرسائل .

(٤) فى الأصول : « وفى باب الوفاق وفى البنية » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٥) فى الأصول : « وفى الحسب » ، والوجه حذف الواو كما فى مج والرسائل .

(٦) جادوا ، أى سمحوا . وفى الأصول : « وجازوا » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٧) فى الأصول : « وكبنى قحطان » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

(٨) ب فقط : « كسرى » .

(٩) ب ، م : « دليل على النسب » ، تحريف .

وزعمت أنَّه أراد الفُرقة والتَّحْزِيب[(١)] ، وأنك أردت الأُلفة والتقريب[(٢)] .

ثم زعمت أيضاً أن البَنَوِىَّ[(٣)] خُراسانىٌّ ، وأنَّ نسب الأبناءِ نسب آبائهم ، وأنَّ حُسْنَ صنيعِ الآباءِ ، وقديمَ فَعالِ الأجداد ، هو حَسَبُ الأبناءِ ، وأنَّ الموالىَ بالعرب أَشْبَهُ ، وإليهمْ أقرب ، وبِهِمْ أَمَسُّ ؛ لأَنَّ السُّنَّةَ[(٤)] قد نقلت الموالىَ إلى العرب فى كثيرٍ من المعانى ، لأنهم عربٌ فى المدَّعَى ، وفى العاقِلة ، وفى الوراثة[(٥)] . وهذا تأْويل قوله[(٦)] : « مَولَى القومِ منهم[(٧)] » . و « الولاءُ لُحمةٌ كلُحْمة النَّسَب[(٨)] » .

ثم زعمتَ أنَّ الأتراك قد شاركوا القومَ فى هذا النَّسب ، وصاروا من العرب بهذا السَّبب ، مع الذى بانُوا به من الخلال ، وحُبُوا به من شرَف الخصال .

على أنَّ ولاءَ الأتراك لِلُبابِ قريش ،ولِمُصَاصِ عبدِ مناف،[وهم[(٩)]] فى سرِّ هاشم ، وهاشمٌ مَوضِعَ العِذار من خَدِّ الفرس ، ومحلَّ العِقْد

---

(١) التحزيب : أن يجعلهم أحزاباً وفرقاً . ب : « والتخريب » م : « والتخويف » ط : « والتحزب » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٢) ط فقط : « والتقرب » .

(٣) فى الأصول : « البنوى » صوابه فى مج والرسائل . وانظر ما سبق فى صفحة ١٦٧ .

(٤) ب ، م : « الشبه » ط : « النسبة » صوابهما مج والرسائل .

(٥) فى الأصول : « الراية » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

(٦) مج : « قوله عليه الصلاة والسلام » .

(٧) ويروى : « من أنفسهم » . الجامع الصغير ٩١٢٤ . وأخرجه البخارى عن أنس .

(٨) أخرجه الطبرانى عن عبد الله بن أبى أوفى ، والحاكم والبيهقى عن ابن عمر . الجامع الصغير ٩٦٨٧ .

(٩) التكلة من رسائل الجاحظ .

من لَبَّة الكَعَاب[١] . وهو[٢] الجوهر المكنونُ ، والذَّهَب المصفَّى ، وموضع المُحَّة من البيضة[٣] ، والعَين فى الرأس[٤] ، والرُّوح من البدن . وهُم الأنْفُ المقدَّم ، والسَّنام الأَكْوَم ، والطِّينة البيضاء ، والدُّرَّة الزهراءُ ، والرَّوضة الخضراء ، والذَّهبُ الأحمر .

فقد شاركوا العرَب فى أنسابهم ، وفَضَلوهم بهذا الفضْل الخاصِّ الذى لا يبلُغه فضْلٌ وإنْ بَرَع ، بل لا يَعْشُره شَرفٌ وإنْ عَظُم ، ولا مجدٌ وإنْ قَدُم .

فزعمتَ أنَّ أنساب الجميع متقاربةٌ غيرُ متباعدة ، وعلى حسَب ذلك التَّقارُبِ تكون الموازرة والمكانَفة[٥] ، والطاعةُ والمُناصَحة ، والمحبَّةُ للخلفاءِ والأئمة .

وذكرتَ أنَّه ذكرَ جُملًا من مفاخر هذه الأجناس ، وجمهرةً من مناقبِ هذه الأصناف ، وأنَّه جمعَ ذلك وفَصَّله ، وأَجمَلَه وفسَّره ، وأنَّه أَلغَى ذِكر الأتراك فلم يعرِضْ لهم[٦] ، وأَضربَ عنهم صفحاً فلم يُخبِرْ عنهم ، كما أَخبَرَ عن[٧] حُجَّة كلِّ جيل ، وعن بُرهانِ كلِّ صنف . فذكَر أنَّ الخراسانىَّ يقول : نحنُ النُّقباءُ ، وأبناءُ النُّقباء ، ونحن النُّجباءُ وأبناءُ النُّجباءِ ، ومِنَّا الدعاة قبل أن تظهر نقابة[٨] ، أو تُعرفَ

---

(١) فى رسائل الجاحظ : « الكاعب » ، وهما سواء . يقال جارية كعاب ومكعب ، وكاعب : نهد ثديها . واللبة بالفتح ، واللبب بالتحريك : موضع القلادة من الصدر .

(٢) وهو ، ليست فى رسائل الجاحظ . كما أن وجهها « وهم » .

(٣) محة البيضة ومحها : ما فى جوفها من صفرة . ب فقط : « المخة » تحريف .

(٤) مج فقط : « من الرأس » .

(٥) المكانفة ، بالنون : المعاونة ، ومثلها المكاتفة ، بالتاء ، كما فى المعجم الوسيط . ب ، م : « والمكايفة » . صوابها فى ط ومج . وفى رسائل الجاحظ : « والمكاتفة » بالتاء .

(٦) ط فقط : « بهم » .

(٧) ط فقط : « خبر » .

(٨) النقيب : العريف على القوم المقدم عليهم ، الذى يتعرف أخبارهم وينقب عن أحوالهم . والنقابة بالفتح المصدر ، وبالكسر الاسم .

نَجابة ، وقبل المغالبة والمباداَة[١] ، وقبل كَشف القِناع وزوال التَّقيَّة .

وبنا زالَ مُلْك أعدائنا عن مُستَقَرِّه ، وثبَت مُلْك أوليائِنا فى نصابه ، وبَيْنَ ذلك ما قُتِلْنا وشُرِّدْنا ، ونُهِكْنا ضَرباً وطَلبا ، وبُضِعْنا بالسُّيوفِ الحداد ، وعُذِّبنا بـألوان العذاب .

وبنا شَفَى الله تعالى الصُّدور ، وأُدرِكَ الثَّأْر ، ومنَّا الاثنَى عَشَر النُّقَباءُ ، والسَّبعون النُّجَباءُ . ونحن الخَنْدقية وأبناءُ الخَنْدقيَّة[٢] ، ونحن الكفِّيّة وأبناءُ الكفِّيَّة[٣] ، ومنَّا المُستجِيبة ، ومن[٤] بهرج النيمية ، ومنا نيم خزان[٥] ، وأصحاب الْجَوْزَبَيْن[٦] ، ومنا الزَّغَنْدِيَّة[٧] ، والآزاذمَرديَّة[٨] .

ونحنُ فتحنا البلادَ ، وقَتَلنا العدوَّ بكلِّ واد ، ونحن أصلُ هذه الدَّولة ، ومَنبِت هذه الشَّجرَة ، وأَصحابُ هذه الدَّعوة ، ومِنْ عِندِنا هبَّت هذه الرِّيح .

والأَنصارُ أَنصارانِ : الأَوس والخزرج ، نصروا النبيَّ صلى الله عليه وسلم فى أَوّلِ الزَّمان ، وأَهل خُراسانَ نصروا ورثَتَه فى آخر الزمان ، غَذَانا بذلك آباؤنا ، وغَزَوْنا به أَبناءَنا ، وصار لنا نسباً لا نُعَرف إلَّا به ، وديناً لا نُوالِى إلَّا عليه .

---

(١) فى الرسائل : « والمباراة » وبالراء .
(٢) الخندقية : أصحاب الخنادق أيام نصر بن سيار ، كما سيأتى فى أول ص١٧٦ .
(٣) ط فقط : « الكتفية وأبناء الكتفية » .
(٤) م ، ط : « ومنا » وفى ط والرسائل بعده : « يهرج التيمية » وفى مج : « بمرج التيمية » .
(٥) ط فقط : « تيم خزان » .
(٦) ب ، م : « الجوزتين » . وفى ط : « الحوزتين » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .
(٧) زغند ، فى الفارسية بمعنى صوت الحيوان الوحشى . وسيأتى فى ص ١٧٩ : « ولنا الأصوات التى تسقط الحبالى » .
(٨) الآزاذ مردية : اسم كان يطلق على طبقة الأشراف من الفرس . انظر مقال الدكتور كراوس فى مجلة الثقافة العدد ٢٢٤ . ب : « والآذاذمردية » م: « والأزادردية » ط : « والأمزامردية » ، صوابه فى مج والرسائل .

ثمّ نحنُ على وتيرةٍ واحدة ، ومنهاجٍ غير مشترك ، نُعرف بالشِّيعة ، ونَدِين بالطَّاعة ، ونُقتَلُ فيها ، ونَموت عليها . سِيمانا موصوفٌ ، ولِباسنا معروف ، ونحن أَصحاب الرَّايات السُّود ، والروايات الصحيحة[1] ، والأَحاديثِ المأْثورة ، والذين يَهدِمون مُدُن الجبابرة ، وينتزعون المُلْك من أَيدِى الظَّلمة . وفينا تقدَّم الخبر ، وصَحَّ الأَثر . وجاء[2] فى الحديث صفةُ الذين يفتحون عَمُّورِيَّة[3] ، ويظهرون عليها[4] ، ويقتلون مقاتليها[5] ، ويَسْبُون ذراريَّها ، حيث قالوا فى نعتهم : «شُعورهم شعورُ النِّسَاء ، وثيابهم ثياب الرُّهبان » . فصدَّق الفعلُ القولَ ، وحقَّق الخَبرَ العِيان .

ونحن الذين ذكرنا ، وذَكر بلاءنا[6] إمامُ الأَئمَّة ، وأَبو الخلائف العشرة[7] محمد بن على ، حين أَراد توجيه الدُّعاة إلى الآفاق ، وتفريقَ شِيعته فى البُلدان :

---

(١) فى الأصول : « فى الروايات الصحيحة » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

(٢) ب ، ط : « جاء » بدون واو .

(٣) عمورية ، بتشديد الميم المضمومة والياء : بلدة فى الروم فتحها المعتصم العباسى سنة ٢٢٣ . ولهذا الفتح قصة عجيبة مذكورة فى كتب التاريخ . وفيه يقول أبو تمام :

يا يوم وقعة عمورية انصرفت   عنك المنى حفلا معسولة الحلب

(٤) عليها ، ساقطة من م .

(٥) كذا فى مج والرسائل وم . وفى ب : « مقاتلها » وفى ط : « مقاتلتها » .

(٦) ب ، م : « بلاد ناء » ، صوابه فى ط .

(٧) يعنى خلفاء العباسيين العشرة الذين أدرك الجاحظ آخرهم ، وهو الخليفة المتوكل . وهم على الولاء : أبو العباس السفاح ، وأبو جعفر المنصور ، ثم المهدى ، والهادى ، والرشيد ، والأمين ، والمأمون ، والمعتصم الذى كان يسمى « الخليفة المثمن » ، لأنه الثامن من خلفاء بنى العباس ، أو لأنه مات عن ثمانية بنين وثمانى بنات ، وخلف فى بيت المال ثمانية آلاف ألف دينار ، وثمانية آلاف ألف درهم ، كما ذكر المسعودى فى التنبيه والإشراف ٣٠٧ . ثم تاسعهم الخليفة الواثق ، والعاشر الخليفة المتوكل المقتول بالجعفرية من سر من رأى سنة ٢٤٧ .

وقد توالى بعد هؤلاء الخلائف العشرة من العباسيين ٢٦ خليفة كان آخرهم المستعصم بالله الذى قتله هولاكو ملك التتر حين استولى على بغداد سنة ٦٥٦ .

«أمّا البصرة وسوادُها فقد غلب عليها عثمان ، وصنائعُ عثمان ، فليس بها من شيعتنا إلّا القليل .

وأمّا الكوفة وسوادُها فقد غَلَب عليها عليٌّ وشيعةُ عليّ ، فليس بها من شيعتنا إلّا القليل .

وأمّا الشام فشيعة بنى مَرْوان ، وآلِ بنى سُفيان .

وأمّا الجزيرة فخارجَةٌ ، وحَرُورية ومارقة .

ولكن عليكم بهذا الشّرق فإنّ هُناك[1] صدوراً سليمة ، وقلوباً باسلة ، لم تُفْسِدْها الأهواء ، ولم تُخامِرْها الأدواء ، ولم تعتَقِبْها البِدَع ، وهم مَغِيظون[2] مَوتُورون . وهناك العَدد والعُدَّة ، والعَتَاد والنَّجدة » .

ثم قال : « وأنا أتفاءلُ إلى حيث ما تَطلع[3] » .

فكنّا خَيْرَ جندٍ لخير إمام ، وصدّقنا ظنَّه ، وثبّتنا رأيه ، وصَوَّبنا فِراسَته .

وقال مرّةً أخرى : «إنّ أمْرَنا هذا شرقيٌّ لا غربيٌّ ، ومُقبِلٌ غيرُ مدبر ، يطلعُ كطلوع الشمس ، ويمتدُّ على الآفاق امتدادَ النّهار ، حتّى يَبلُغ[4] حيث ما تبلغُه الأخفاف[5] ، وتناله الحَوَافِر » .

قالوا : ونحن قتلنا الصَّحْصحيَّة[6] ، والدَّالقيَّة[7] ، والذَّكوانية ،

---

(١) ط فقط : « هنالك » .

(٢) ط فقط : « مغبطون » ، صوابه فى سائر النسخ .

(٣) ب : « ما نطلع » ، تحريف . والمراد : حيثما تطلع الشمس . وفى مج : « حيث يطلع النهار » ، وفى الرسائل : « حيث يطلع منه النهار » .

(٤) فى الأصول : « حتى تبلغ » ، صوابه بالياء كما فى مج والرسائل .

(٥) أى أخفاف الإبل . ب ، م : « الإخفاق » ، صوابه فى ط ، مج والرسائل .

(٦) الصحصحية : نسبة إلى صحصح ، وكان أحد المتكلمين . انظر الحيوان ٣ : ٣٩٥ والبخلاء ٤ والطبرى فى حوادث سنة ١٣٢ . وفى الأصول : « الصحيحة » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٧) م ، ب : « الدالفية » بالفاء . وبدله فى الطبرى : « الدوكانية » .

والرَّاشديَّة . ونحن أَصحابُ[1] الخنادق ، ونُباتة بن حنظلة[2] ، وعامر ابن ضُبارة[3] ، وأَصحابُ ابن هُبيرة . فلنا قديمُ هذا الأَمر وحديثُه ، وأَوّلُه وآخِره[4] .

ومنّا قاتل مَرْوان .

ونحن قومٌ لنا أَجسامٌ وأَجرامٌ ، وشُعور وهام ، ومناكبُ عظام ، وجباهٌ عِراض ، وقَصَرٌ غِلاظ[5] ، وسَواعدُ طِوال .

ونحن أَولَدُ للذُّكورة ، وأَنسَلُ بُعولةً ، وأَقلُّ ضَوًى وضُئولة ، وأَقلُّ إتـآما[6] ، وأَنتَقُ أَرحاماً[7] ، وأَشدُّ عصباً ، وأَتمُّ عظاماً . وأَبدانُنا أَحملُ للسِّلاح ، وتجفافنا أَملأُ للعيون[8] .

---

(١) بعده فى مج والرسائل : « أيام نصر بن سيار ، وابن جديع الكرمانى ، وشيبان بن سلمة الخارجى » . وابن جديع هذا هو على بن جديع الكرمانى ، كما فى حواشى رسائل الجاحظ ١ : ١٧ .

(٢) ب : « وبنانه بن حنظلة » ، م : « وبناته » صوابهما فى ط ، مج والرسائل . وفيهما : « ونحن أصحاب نباتة بن حنظلة » . وكان نباتة هذا والياً على جرجان . وانظر جمهرة ابن حزم ٢٨٢ . وهو نباتة بن حنظلة بن ربيعة بن عبد قيس بن ربيعة بن كعب بن عبد الله بن أبى بكر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . وانظر خبر مقتله فى تاريخ الطبرى سنة ١٣٠ .

(٣) كان عامر بن ضبارة هذا من قواد ابن هبيرة . وانظر الاشتقاق ٢٨٩ ، ٢٩٠ وجمهرة ابن حزم ٢٥٤ . وفى الأصول : « بن ضبابة » صوابه بالراء كما فى مج والرسائل والتنبيه والإشراف ٢٨٣ والطبرى ٧ : ٤٠٥ . قتله قحطبة بن شبيب الطائى بأصبهان فى حروب أبى مسلم الخراسانى سنة ١٣١ .

(٤) فى الطبرى أن قاتل مروان بن محمد ، هو رجل من أهل البصرة يقال له المغود ، طعنه وهو لا يعرفه فصرعه ، فصاح صائح : صرع أمير المؤمنين ! وابتدروه ، فسبق إليه رجل من أهل الكوفة كان يبيع الرمان فاحتز رأسه . انظر حوادث سنة ١٣٢ .

(٥) القصر ، بالتحريك : جمع قصرة ، وهى أصل العنق . وبه فسر ابن عباس قوله تعالى : « إنها ترمى بشرر كالقصر » فى قراءته بفتح الصاد .

(٦) الإتآم : أن تلد المرأة اثنين فى بطن .

(٧) أنتق أرحاماً ، أى أكثر ولادة . والمرأة ناتق ، لأنها ترمى بالأولاد رمياً . والنتق : الرمى والنفض .

(٨) فى الأصول ومج وأصل الرسائل ١ : ١٨ : « وأخفافنا » . والوجه ما أثبت . وانظر حواشى الرسائل . والتجفاف ، بفتح التاء وكسرها : ما جلل به الفرس من سلاح وآلة تقيه الجراح فى الحرب . وانظر ص ١٧٨ .

ونحن أكثر مادّةً ، وأكثر عَدداً وعُدَّة ، ولو أنَّ يأجوج ومأجوج كاثَرُوا[١] مَنْ وراءَ النَّهرِ منّا لَظَهروا عليهم بالعَدَد .

فأمَّا الأَيْدُ وشِدَّةُ الأَسْر فليس لأحدٍ بعد عادٍ وثمودَ والعمالقةِ والكنعانيِّين مثلُ أَيْدِنا وأَسْرِنا .

ولو أنَّ خُيولَ الآفاقِ ، وفُرسانَ جميعِ الأطراف جُمِعُوا فى حَلْبةٍ واحدة لكنّا أكثرَ فى العُيون ، وأهولَ فى الصُّدور .

ومتى رأيتَ مواكبَنا وفُرساننا وبُنودَنا التى لا يحملها[٢] غيرُنا علمت أنّا لم نُخلَقْ إلّا لقلب الدُّوَل ، وطاعةِ الخُلفاء ، وتأييد السُّلطان .

ولو أنَّ أهلَ تُبَّت ، ورجال الزَّابجَ[٣] ، ورجالَ وفُرسان الهند[٤] ، وحَلْبَةَ[٥] الرُّوم ، هَجَم عليهم هاشم بن أشتاخنج[٦] لمَاَ امتنعوا من طَرْحِ السّلاح ، والهرب فى البلاد .

ونحن أصحابُ اللِّحَى ، وأربابُ النُّهَى ، وأهل الحِلْم والحِجَا[٧] ، وأهلُ الثَّخانة فى الرأى[٨] ، والبُعدِ مِن الطَّيش .

---

(١) كاثروهم : باروهم فى الكثرة . م فقط : « كثروا » ، تحريف .

(٢) ب ، م : « يحمله » ، صوابه فى ط ، مج والرسائل .

(٣) الزابج ، بفتح الباء وكسرها : جزيرة فى أقصى بلاد الهند فى حدود الصين . وفى الحيوان ٧ : ٣٣٠ : « ويزعم تجار التبت ممن قد دخل الصين والزابج » . وفى الأصل ، وهو هنا ب فقط : « الزنج » إذ لم ترد « رجال الزابج » فى كل من م ، ط .

(٤) هذا ما فى ط . وفى ب ومج والرسائل : « وفرسان الهند » ، وفى م : « وفرسان ورجال الهند » .

(٥) الحلبة ، بالفتح : جماعة الخيل فى السباق ، والمراد هنا الفرسان .

(٦) كان قد عصى وخالف فى إفريقية ، فقتله أبو جعفر المنصور سنة ١٥٢ كما فى الطبرى .

(٧) كتبت فى م ، ط : « الحجى » بالياء ؛ والكلمة واوية بمعنى العقل والفطنة ، يقال حاجيته فحجوته .

(٨) ثخانة الرأى : قوته وجزالته . ب : « التجانة » م ، ط : « الشجانة » ، صوابهما فى مج والرسائل .

ولسنا كجُنْد الشَّام المتعرِّضين للحُرَم ، والمنتهكين لكلِّ مُحرَّم .

ونحن ناسٌ لنا أَمانة ، وفينا عفَّة . ونحن نجمع بين النَّزاهة والقَناعة ، والصَّبر على الخِدْمة ، وعلى التجمير وبُعْدِ الشُّقة[1] .

ولنا الطبول المَهُولة والبُنود العظام[2] .

ونحن أَصحاب التَّجافيف والأَجراس[3] ، والبازَفكَنْد[4] ، واللُّبود الطِّوال ، والأَغماد المعقَّفة[5] والقلانس الشاشيّة[6] ، والخيول الشِّهْرية[7] ، ولنا الكافِركُوبات[8] ، والطَّبَرْزِينات فى الأَكفّ[9] ، والخناجرُ فى الأَوساط .

---

(١) تجمير الجيش : إبقاؤه فى ثغر العدو ، وأصل معناه التجميع . مج والرسائل : « عند بعد الشقة » .

(٢) وكذا فى مج . لكن فى الرسائل : « ولنا الطبول المهولة العظام والبنود » . والبنود : جمع بند ، وهو العلم الكبير ، فارسى معرب .

(٣) انظر التجافيف ما مضى فى ص ١٧٦ .

(٤) مج والرسائل : « والبازتكند » . وفى البيان ١ : ٩٥ — ٣ : ١١٥ : « بازيكند » أيضاً . وضبطت فى أعلى نسخ البيان بفتح الزاى وضم الياء المثناة وفتح الكاف . وفى هامشها : « بازيكند : نوع من الثياب ، فارسية » . ويبدو أنه كساء يلقى على الكتف . وباز فى الفارسية بمعنى الكتف .

(٥) الأغماد : جمع غمد ، وهو جفن السيف . فى الأصول : « والأعمدة » ، صوابه فى مج والرسائل . والمعقفة : المعوجة ، وذلك لاعوجاج السيوف التى تشتمل عليها . ب : « والمعقفة » والواو مقحمة . وفى ط : « والحقفة » وفى م : « والمقفة » ، صوابها ما أثبت .

(٦) نسبة إلى الشاش ، وهو نسيج رقيق من القطن تضمد به الجروح ، ويستعمل أيضاً لفافة للعامة ، ولفظه مولد . ب ، م : « الشباسية » صوابه فى ط ومج والرسائل .

(٧) الشهرية ، بالكسر كما فى اللسان والقاموس . وذكر ابن منظور أنه ضرب من البراذين . وزاد صاحب اللسان أنه بين البرذون والمقرف من الخيل .

(٨) جمع كافركوب ، وفى هامش ل من نسخ البيان أن كافركوب هى المقرعة .

(٩) الطبرزينات : جمع طبرزين ، وهو فأس تستعمل فى القتال عند الفرس ، مركب من « تبر » بمعنى الفأس . و « زين » بمعنى السرج ، ولعله سمى بذلك لالتزام وضعه بجانب السرج . استينجاس ٢٧٠ والمعرب ١٩٤ والألفاظ الفارسية لأدى شير ١١١ .

ولنا تعليقُ السيوف وحُسْنُ الجِلْسة على ظُهور الخيل ، ولنا الأَصوات التى تُسقِط الحبالَى .

وليس فى الأَرض صناعةٌ غريبةٌ[(١)] ، من أَدبٍ وحكمة وحساب وهَندسة ، وارتفاع بناءٍ وصَنْعة[(٢)] ، وفقهٍ ورواية ، نظرَتْ فيها الخُراسانيَّة إلَّا فرعَتْ فيهَا الرُّؤساءَ[(٣)] ، وبذَّت فيها العُلماءَ[(٤)] .

ولنا صنعةُ السِّلاح ، عُدَّةً للحرب[(٥)] ، وتثقيفاً ودُربة للمجاولة والمُشَاولةَ[(٦)] ، وللكرِّ بعدالفَرّ،مثل الدَّبُّوق[(٧)] ،والنَّزْوِ علىالخيلِصغاراً ، ومثل الطَّبْطابِ والصَّوالجة كِباراً[(٨)] . ثمّ رمى المُجثَّمة[(٩)] والبُرجاس[(١٠)] والطائر الخاطف[(١١)] . فنحن أَحقُّ بالأَثَرة ، وأَولى بشَرَف المنزلة .

قلت : وزعم أَنَّ العربى يقول :إن تكن القُرْبَةُ[(١٢)] تُستحَقُّ بالأَنساب

---

(١) فى الأصول : « عراقية ولا حجازية » وهو تحريف ساق إلى تحريف . والوجه ما أثبت من مج والرسائل .

(٢) مج والرسائل : « وإيقاع وصنعة » .

(٣) فرع فلان فلاناً : علاه وفاقه . فى الأصول : « فرغت منها الرؤساء » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٤) بذهم : غلبهم وسبقهم . فى الأصول : « وبدت » صوابه بالذال المعجمة كما فى مج والرسائل .

(٥) العبارة هنا موجزة إيجازاً شديداً . وانظر الرسائل ١ : ٢٠ .

(٦) المشاولة : أن يتناول بعضهم بعضاً عند القتال بالرماح .

(٧) فى اللسان : «الدبوق لعبة يلعبها الصبيان،معروفة » .وفى القاموس : «لعبة معروفة» .

(٨) الطبطاب ، بالفتح : مضرب الكرة . والصولجان : المحجن ، أى العصا المعوجة الطرف ، ويستعملهاالفرس للعب بالكرة وهم على ظهور الخيل . استينجاس ٧٩٦ واللفظ معرب من الفارسى « شوجان » . والجمع صوالجة . فى مج والرسائل : « والصوالج الكبار » . ويبدوأن ما هنا هو الوجه لأنه مايقابل « صغاراً » السابقة .

(٩) المجثمة : ما نصب من الحيوان للرمى والقتل . ب فقط : ، « المجثة » تحريف .

(١٠) البرجاس ، بضم الباء وفتحها : غرض فى الهواء على رأس رمح أو نحوه . كما فى : الألفاظ الفارسية ١٨ ومعجم استينجاس ١٧٠ . ولفظه فارسى . ب ، م : « والبرحاسب » ط : « والبرحاسبارا » ، تحريف مافى مج والرسائل .

(١١) مج والرسائل : « الخطاف » .

(١٢) ب : « القرية » تحريف » . وفى ط : « القربى» ، وأثبت مافى م ، مج والرسائل .

الثابتة ، والأرحام الشابكة ، وبالقِدْمة[١] ، وبطاعة الآباء والعشيرة ، وبالشُّكر النافع ، والمديح الباقي[٢] ، وبالشعر الموزون الذى يبقى بَقاء الدهر ، ويلوحُ مالاحَ نجم ، ويُنشَد ما أُهِلَّ بالحجّ ، وما هَبَّت الصَّبا ، وما كان للزَّيت عاصر . وبالكلام المنثور ، والقول المأثور ، وبصفة مَخرج الدولة ، والاحتجاج للدَّعوة ، وتقييد المآثر ، إذْ لم يكن ذلك من عادة العجم ، ولا كان يحفظ ذلك معروفاً لسوى العرب ، ونحن نرتبطُها بالشِّعر المقفى ، ونقيِّدها بحفظ الأُمِّيِّينَ[٣] الذين لا يَتَّكلون[٤] على الكتب المدوّنة ، والخطوط المطرّسة[٥] .

ونحن أَصحاب التفاخر والتنافر ، والتَّنازُع فى الشَّرف ، والتحاكم إلى كلِّ حَكَم مُقْنع ، وكاهنٍ سَجَّاع[٦] .

ونحن أَصحاب[٧] التعايرُ بالمثالب ، والتفاخُر بالمناقب .

ونحن أَحفَظُ لأَنسابنا ، وأَرعى لحقوقنا[٨] ، وتقييدِها[٩] أَيضاً بالمنثور المرسَل ، بعد الموزون المعدَّل ، بلسانٍ أَمضَى من السِّنان ، وأَرهَف

---

(١) م : « وبالقدومة » صوابه فى ب ، ط ومج والرسائل .

(٢) فى جميع الأصول : « والمدمج الباقى » ، صوابه فى مج والرسائل . وفيهما : « والمديح الكافى » .

(٣) ب : « الأمتين » ب : « الأمين » مع تشديد الميم ، صوابه فى ط ومج والرسائل .

(٤) ط فقط : « لا يتكلمون » ، تحريف .

(٥) التطريس ، كما فى القاموس : إعادة الكتابة على المكتوب .

(٦) السجاع : الذى يستعمل السجع ، وهو الكلام المقفى ، أو الكلام الذى له فواصل ، وكان ذلك من دأب الكهان ، كما تراه فى سيرة ابن هشام من أقوالهم . وفى جميع الأصول وكذلك مج : « شجاع » بالشين المعجمة ، صوابه فى رسائل الجاحظ ١ : ٢٢ ،

(٧) ب : « ونحن بنا » ، وأثبت ما فى م ، ط . وفى مج والرسائل : « ولنا » .

(٨) ط فقط : « وأدعى لحقوقنا » .

(٩) م فقط : « وتقييد » .

من السَّيف الحسام ، حَتَّى نذكِّرهم ما قد درس رسمُه ، وعفا أَثره . وبين القتال من جهة الرَّغبة والرَّهبة فرق . وليس المعرق فى الحِفاظ كمن هذا فيه حادث[(١)] . وهذا بابٌ يتقدَّم التالدُ القديمُ الطارفَ الحديث[(٢)]

وطُلاَّب الطَّوائل رجلان : سِجستانىٌّ وأعرابىٌّ . وهل أَكثَرُ النُّقباء إلَّا من صميم العرب ، ومن صَليبةِ هذا النَّسَب ، كأَبى عبد الحميدِ قَحطبة بن شبيب الطائىِّ[(٣)] ، وأَبى محمد سُليمان بن كثير الخُزَاعىِّ[(٤)] ، وأَبى نصر مالك بن الهيثم الخزاعىِّ[(٥)] ، وأَبى داود خالد بن إبراهيم الذُّهلىّ ، وكأَبى عمروٍ لاهزِ بن قُرَيظ المَرَئىِّ[(٦)] ، وأَبى عُتَيبة موسى

---

(١) ط فقط : « كمن هذى فيه حادثا » .

(٢) ب فقط : « والطارف الحديث » تحريف .

(٣) قطبة بن شبيب الطائى ، صحب أبا مسلم الخراسانى ، فى اثنى عشر رجلا من النقباء اختارهم له أبو محمد الصادق ، فكان شريكاً لأبى مسلم فى إقامة الدعوة العباسية بخراسان ، وقاد جيوش أبى مسلم فكان مظفراً . ومات غرقاً فى الفرات سنة ١٣٢ حين بدأت الخلافة العباسية . انظر الطبرى فى حوادث سنة ١٠٠ ، وسنة ١٣٢ . ط : « كعبد الحميد بن قحطبة » ، صوابه فى سائر النسخ ومج والرسائل .

(٤) كان سليمان بن كثير الخزاعى أحد النقباء الاثنى عشر من دعاة الدولة العباسية وأنصار أبى مسلم ، ولكن أبا مسلم شك فى أمره وأمر بضرب عنقه فى سنة ١٣٢ . الطبرى ٧ : ٤٥٠ وابن الأثير ٥ : ٤٣٧ .

(٥) أبو نصر هذا : أحد النقباء ، وكان المنصور قد أمر بقتله بعد قتله لأبى مسلم ، ولكنه أظهر من الطاعة والنصح ما غير رأى المنصور فيه ، فمن عليه واستعمله على الموصل . وذلك فى سنة ١٣٧ . الطبرى وابن الأثير .

(٦) لاهز بن قريظ ، بالظاء المعجمة كما فى الطبرى وابن الأثير ورسائل الجاحظ . وفى الأصول : « بن قريط » بالطاء المهملة . وفى مج : « بن طريز » ، صوابهما ما أثبت . ونسبته من الجمهرة ٢١٤ : لاهز بن قريظ بن سرى بن الكاهن بن زيد بن عصية بن امرئ القيس . كان من وجوه أهل دعوة بنى العباس وضرب أبو مسلم عنقه صبراً لأنه قرأ بحضرة نصر بن سيار : « إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين » ، ففهمها نصر وهرب . فنسبته « المرئى » هى إلى امرئ القيس . وفى الأصول ومج : « المزنى » ، تحريف . وما بعده من الكلام إلى : « ومن كان يجرى » ساقط من ط .

ابن كعب المَرَئىّ[(١)] ، وأبى سهل القاسم بن مُجاشع المرَئىّ[(٢)] . ومن كان يجرى مجرى النُّقباء ولم يَدخُل فيهم ، [مثل[(٣)]] مالك بن الطوّاف[(٤)] المرَئىّ[(٥)] .

وبعد ، فمن هذا الذى باشر قَتْل مَرْوانَ[(٦)] ، ومن هَزَم ابنَ هُبيرة ، ومن قَتل ابن ضُبَارة ، ومن قتل نُباتةَ بن حَنظلَة ، إلَّا عربُ الدَّعوة ، والصَّميم من أهل الدولة ؟ ومن فَتح السِّند إلَّا موسى بن كعب ، ومَن فتح إفريقيَّة إلَّا محمَّد بن الأَشعث ؟

وقلت : وقال : ويقُول الموالى[(٧)] لنا النَّصيحة الخالصةُ ، والمحبَّةُ الرَّاسخة . ونحنُ موضع الثِّقة عند الشِّدَّة ،وعلل المَولَى[(٨)] من تحت موجبةٌ لمحبَّة المولى من فَوق ؛ لأَنَّ شَرفَ مولاه راجعٌ إليه ، وكرَمَه زائدٌ فى كرمه ، وخمولَه مُسقِطٌ لقَدْره ، وبوُدّه[(٩)] أَنَّ خصال الكرم كلَّها اجتمعت فيه ، لأَن ذلك كلَّما[(١٠)] كان مولاه أكبر وأَشرفَ وأَظْهر ، كان هو بها أَشرفَ وأَنبل ، ومولاك أَسلم لكِ صدراً ، وأَودُّ ضميراً ، وأَقلُّ حسداً .

---

(١) فى الطبرى ٧ : ٣٨٠ : « ومن تميم :موسى بن كعب أبو عيينة » كما فى مج ، لا أبو عتيبة بالتاء كما هنا وكما فى الرسائل . ولاهز بن قريظ ، والقاسم بن مجاشع ، كلهم من بنى امرئ القيس » ب : « المرانى » م: «المزانى » تحريف والصواب« المرئى » نسبة إلى امرىءالقيس.

(٢) ب : « المزنى » م : « المزانى » ، صوابهما ما أثبت . وانظر الحواشى السابقة .

(٣) التكملة من مج والرسائل .

(٤) م : « الطراف » وفى الطبرى : « بن طريف » وفى ابن الأثير : « بن طرافة » ، وجعلا نسبته « الخراسانى » .

(٥) فى مج : « المزانى » وفى ط والرسائل : « المزنى » .

(٦) انظر ما سبق فى ص ١٧٦ س ٤ :

(٧) ب فقط : « للوالى » ، تحريف .

(٨) ب فقط : « الموتى » ، تحريف .

(٩) ب : « ويوده » م : « ويؤده » ، صوابه فى سائر النسخ .

(١٠) مج والرسائل : « لأنه كلما » .

وبَعْدُ ، فالوَلاءُ لحمةٌ كلحمة النَّسب(١) ، فقد صار لنا النَّسب الذى يصوِّبه العربىُّ(٢) ، ولنا الأَصلُ الذى يفتخر به العجمىّ .

قال : والصَّبر ضروبٌ ، فأَكرمها كلِّها الصَّبرُ على إفشاء السرّ ، وللمولَى فى هذه المكرُمة ما ليس لأَحدٍ ؛ ونحن أَخصُّ مدخلًا ، وأَلطف فى الخِدمة مَسلكاً . ولنا مع الطَّاعة والخِدمة ، والإِخلاصِ وحُسْن النِّيَّة ، خِدمةُ الأَبناءِ للآباء ، والآباءِ للأَجداد(٣) ، وهم بموَالِيهم آنَسُ ، وبناحيتهم أَوثَق ، وبِكفايتهم أَسرّ .

وقد كان المنصور ، ومحمّد بن على ، وعلىُّ بن عبد الله ، يخصُّون مواليَهم بالمواكلة والبَسْط والإِيناس ، لا يُبهرِجونَ الأَسودَ لسواده ، ولا الدَّميمَ لدمامته ، ولا ذا الصِّناعة الدنيئة لدناءتها . ويُوصون بحفظهم أَكابرَ أَولادِهم ؛ ويجعلون لكثيرٍ من موتاهم الصَّلَاةَ على جنائزهم(٤) ، وذلك بحضرةٍ من العمومة ، وبنى الأَعمام والإِخوة .

ويتذاكرون إكرامَ رسول الله صلى الله عليه وسلم لزيد بن حارثة مولاه ، حين عقد له يوم مُؤْتة على جِلَّة بنى هاشم ، وجَعَلَه أَمير كلِّ بلدةٍ(٥) يطؤُها .

ويتذاكرون حُبَّهُ لأُسامة بن زيد ، وهو الحِبُّ ابنُ الحِبّ . وعقدَ له على عُظماءِ المهاجرين وأَكابر الأَنصار .

---

(١) مج : « وبعد فقالوا : لاحمة كلحمة النسب » ، تحريف .
(٢) ب : « تضؤ به العربى » م : « تضوى به العربى » ط : « تقوى به العربى » ، صوابه من مج والرسائل .
(٣) فى جميع النسخ : « والأجداد للأجداد » ، والوجه ما أثبت من مج والرسائل .
(٤) ط فقط : « ويجلون الكثير من موتاهم فى الصلاة على جنائزهم » .
(٥) ب فقط : « بلد » ، تحريف .

ويتذاكرون صنيعه بسائر مواليه كأبي أَنسَة[١] وشُقْران[٢]، وفلان وفلان .

قالوا : ولنا صاحب الدولة : أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم ، وأبو سَلَمة حَفْص بن سليمان . وأبو مسلمٍ مولى الإمام ، وعليهما دارت رحَى الدَّولة ، وتمّ الأَمرُ واتّسق نظام الملك .

قالوا : ولنا من رءُوس[٣] النُّقباء : أبو منصورٍ مولى خُزاعة ، وأبو الحكم عيسى بن أَعْيَن مولى خُزاعة ، وأبو حمزة عَمرو بن أَعْيَن[٤] مولى خزاعة ، وأبو النَّجم عمران بن إسماعيل[٥] مولى آل أبي مُعَيط[٦] .

فلنا مناقب الخُراسانيَّة ، ولنا مناقبُ الموالي في هذه الدَّعوة . ونحن منهم وإليهم ، ومن أنفسهم ، لا يدفع ذلك مسلم . ولا ينكره مؤمن . خدمناهم كباراً ، وحملناهم على عواتقنا صغاراً .

هذا مع حقِّ الرَّضاع والخُؤولة ، والنُّشوء في الكُتَّاب ، والتقلُّب في تلك العِراص التي لم يبلغْها إلَّا كلُّ سعيدِ الجَدِّ ، وجيهٍ في الملوك .

فقد شاركْنا العربيَّ في فخره ، والخراسانيَّ في مجدِه ، والبنويَّ في فضله[٧] ، ثم تفرَّدْنا بما لم يشاركونا فيه ، ولا سابقُونا إليه[٨] .

---

(١) اختلف في اسمه ، فقيل أنسة أيضاً ، كما في الإصابة ٢٨٥ . وكان حبشياً كما في جوامع السيرة لابن حزم ١١٤ . وكان يأذن على النبي صلى الله عليه وسلم . ومات في خلافة أبي بكر .

(٢) شقران ، يقال كان اسمه صالح بن عدي . وكان حبشياً أهداه عبد الرحمن بن عوف إلى رسول الله . الإصابة ٣٩١١ . وهو أحد من دلى رسول الله في قبره . جوامع السيرة ٢٦٥ . وذكر ابن هشام في السيرة ١٠١٨ أنه تولى صب الماء عليه في غسله .

(٣) فقط : « رؤساء » .

(٤) في الأصول : « عمر بن أعين » ، صوابه في مج والرسائل والطبري ٦ : ٥٦٢ .

(٥) في الأصول : « عامر بن اسماعيل » ، صوابه في مج الرسائل والطبري ٦ : ٥٦٢ .

(٦) ط فقط : « مولى أبي معيط » ، صوابه في سائر النسخ .

(٧) البنوى : نسبة إلى الأبناء ، كما سبق في ١٦٧ . ط : « والنبوى » ، صوابه في سائر النسخ .

(٨) مج والرسائل : « ولا سبقونا إليه » ، وهو الوجه .

قالوا : ونحن أَشكلُ بالرعيَّة ، وأَقربُ إلى طباع الدَّهماء ، وهم[١] بنا آنَس ، وإلينا أَسكَن ، وإلى لقائنا أَحَنّ . ونحن بهم أَرحم ، وعليهم أَعطَف ، وبهم أَشبه . فمن أَحقُّ بالأَثَرة ، وأَولى بحُسْن المنزلة ممّن هذه الخصالُ له ، وهذه الخلالُ فيه .

وقلت : وذكرت أَنَّ البنوىّ قال : نحن أَصلُ خراسانى[٢] ، وهو مخرج الدولة ، ومطلع الدَّعوة ، ومنها نَجَم هذا القرنُ ، وصبأَ هذا النَّابُ ، وتفجَّر هذا الينبوع ، واستفاضَ هذا البحر ، حتَّى ضرب الحقُّ بجِرانه[٣] ، وطَبَّق الآفاقَ بضيائه ، فأَبرأَ من السُّقم القديم ، وشفى من الداءِ العُضال ، وأَغنى من العَيْلة ، وبصَّر من العمى .

وهذه بغدادُ وهى مستقَرُّ الخلافة ، والقَرارُ بعد الجَوْلة[٤] ، وفيها بقيّة رجالِ الدَّعوة ، وأَبناءُ أَبناءِ الشِّيعة[٥] ، وهى خُراسان العراق ، وبيتُ الخلافة[٦] وموضعُ المادَّة .

وأَنا أَعرَقُ[٧] فى هذا الأَمر من أَبى ، وأَكثر تردداً فيه من جدِّى ، وأَحقُّ بهذا الفضل من المولى والعربىّ .

ولنا بعدُ فى أَنفسنا مالا يُنكَر من الصَّبر تحت ظلال السُّيوف

---

(١) م فقط : « وهما » .
(٢) ب ، م : « أصلى » ، صوابه فى ط . وفى مج والرسائل : « أنا أصلى خراسان » .
(٣) ضرب بجرانه : استقر وثبت . وأصل الجران باطن عنق البعير . فإذا برك واستقر قيل ألقى جرانه .
(٤) ب ، م ، مج والرسائل : « الحولة » ، وهى بالحاء المهملة المفتوحة : التحول والتنقل » . وما هنا من ط .
(٥) مج والرسائل : « وأبناء الشيعة » .
(٦) بعده فى الأصول : « وفيها بقية رجال الدعوة » ، وهو تكرار لما سبق .
(٧) ب ، ط : « أعرف » ، صوابه فى م ، مج والرسائل .

القصار ، والرِّماح الطوال ، ولنا معانقةُ الأَبطال عند تحطُّم القَنا ، وانقطاع الصفائح[١] ، ولنا المواجأَة بالسَّكاكين ، وتلقِّى الخناجر بالعُيون .

ونحن حماةُ المُستلحَم ، وأَبناءُ المضايق ، ونحن أَهْلُ الثَّبات عند الجَوْلة ، والمعرفة عند الحَيْرة[٢] ، وأَصحاب المشهَّرات[٣] ، وزينةِ العساكر وحُلَى الجيوش[٤] ، ومَن يمشى فى الرُّمح ، ويختال بين الصَّفَّين. ونحن أَصحابُ الفتك والإِقدام .

ولنا بعدُ التَّسلُّقُ ونَقْبُ المدُن ، والتقحُّمُ على ظُباتِ السُّيوف[٥] ، وأَطرافِ الرماح ، ورَضْخُ الجندل ، وهَشْم العُمد ، والصَّبرُ تحت الجراح[٦] ، وعلى جَرِّ السلاح[٧] ، إذا طار قلبُ الأَعرابىِّ ، وساءَ ظنُّ الخُراسانى .

ثم الصَّبرُ تحتَ العُقوبة ، والاحتجاجُ عند المسأَلة ، واجتماع العقل ، وصِحَّة الطَّرْف ، وثباتُ القدمين ، وقلَّة التَّكفِّى بجبل العُقَابَيْن[٨] ،

---

(١) الصفائح : جمع صفيحة ، وهى السيف العريض .

(٢) فى الأصول ، مج : « الخبرة » ، صوابه فى الرسائل .

(٣) المشهرات : الحلل الفاخرة الموسومة بالشهرة لحسنها ، كما فى الفائق للزمخشرى ، عند حديث عمر : « وفد إليه عامله من اليمن وعليه حلة مشهرة » : ط فقط : المشهّرات » .

(٤) الحلى بكسر الحاء وضمها : جمع حلية ، بالكسر ، وهى كل ما حليت به امرأة أوسيفاً ونحوه . ب فقط : « والحلى الجيوش » ، تحريف .

(٥) الظبات : جمع ظبة ، وهى حد السيف والخنجر وما أشبه ذلك. وفى ب فقط : « ظباة » ، وهو خطأ .

(٦) فى الرسائل : « على الجراح » .

(٧) يقال أجره الرمح إجراراً ، إذا طعنه به فمشى وهو يجره .

(٨) التكفى : التميل والتقلب . والعقابان : خشبتان يشبح بينهما الرجل فيجلد . انظر اللسان (عقب) وجنى الجنتين ٨٠ .

والبعد من الإقرار[١] ، وقلّة الخضوع للدّهر ، والخضوع عندَ جَفْوةِ الزُّوّار[٢] ، وجفاءِ الأَقارب والإِخوان. ولنا القتالُ عند أَبواب الخنادق ورءُوس القناطر[٣] .

ونحن الموتُ الأَحمرُ عند أَبواب النُّقَب ، ولنا المواجأة فى الأَزِقّة ، والصَّبرُ على قتال السُّجون . فَسَلْ عن ذلك الخُلَيْدِيّة[٤] والكتفية والبلالية ، والحزبية ، ونحن أَصحاب المكابرات[٥] ،وأَرباب البَيَات[٦] ، وقَتْلِ النَّاس[٧] جهاراً فى الأَسواق والطُّرقات .

ونحن نجمع بين السَّلّة والمُزاحَفة . ونحن[٨] أَصحاب القنا الطِّوالِ ما كُنّا رَجّالةً ،والمطاردِ القِصارِ ما كنّا فرساناً[٩] . فإِنْ صرنا كُمُناً[١٠] فالحتفُ القاضى ، والسُّمُّ الزُّعاف[١١] ، وإِنْ كنّا طلائعَ فكلُّنا يقوم مقامَ أَميرِ الجيش . نُقاتل باللّيل كما نقاتل بالنهار ، ونقاتل فى الماءِ كما نُقاتل على الأَرض[١٢] ، ونقاتل فى القرية كما نُقاتل فى المحلّة .

---

(١) ط : « من الفرار » .

(٢) مج : « حفوة الزوار » بالحاء المهملة .

(٣) ب فقط : « والروس القناطر » ، تحريف .

(٤) طائفة منسوبة إلى خليد . وفى البخلاء ٤١ — ٤٣ : « فسل عن الكتيفية والخليدية والحربية والبلالية » . والظاهر أنهم طوائف من أهل الشغب والفوضى . م ، ط : « الخلدية » فإن صحت كانت بضم الخاء وفتح اللام ، فإن المبرد يجيز الحذف فى فعيل مضموم الفاء باطراد .

(٥) ط فقط : « المكابدات » بالدال .

(٦) وكذا فى مج والرسائل . وفى ط فقط : « البينات » .

(٧) ب فقط : « وفتيل الناس » ، تحريف .

(٨) فى جميع النسخ : « وبين » ، والوجه ما أثبت من مج والرسائل .

(٩) المطارد : جمع مطرد ، بالكسر ، وهو الرمح القصير .

(١٠) جمع كمين ، وهم الذين يكمنون ويختفون فى الحرب ، وفى ط : « كينا » .

(١١) الذعاف : الوحى السريع ، ويقال أيضاً الزعاف بالزاى . وفى ب ومج : «الزعاف» بالزاى .

(١٢) م فقط : كما على الأرض » .

ونحن أفتك وأخشب[١] . ونحن أقطع للطريق ، وأذكَرُ فى الثُّغور[٢] ، مع حسن القُدود ، وجَودة الخَرْط ، ومقادير اللِّحَى ، وحُسْن العِمَّة ، والنفس المُرَّة ، وأصحاب الباطل والفُتوّة[٣] ، ثم الخطِّ والكتابة ، والفِقْه والرِّواية .

ولنا بغدادُ بأَسرِها ، تسكُن ماسَكَنَّا ، وتتحرَّك ما تحرَّكنا . والدُّنيا كلُّها معلَّقة بها ، وصائرةٌ إلى مَغْناها[٤] ، فإذا كان هذا أمرَها وقَدْرها فجميعُ الدُّنيا تبَعٌ لها ، وكذلك أهلُها لأَهلها ، وفتَّاكُها لفُتَّاكها ، وخُلَّاعَها لخُلَّاعِها ، ورؤساؤها لرؤسائها ، وصُلَحاؤها لصُلحائها .

ونحن تَربيةُ الخُلفاء ، وجِيرانُ الوُزراءِ[٥] ، وُلدنا فى أَفْنيةِ مُلوكنا[٦] ، ونحن أجنحةُ خلفائِنا ، فأَخَذْنا بآدابهم ، واحتذَيْنا على مثالهم ، فلسنا نَعرِف سِواهم ، ولا نُتَّهم بغيرهم[٧] ، ولم يطمع فينا أحدٌ قطُّ[٨] مِنْ خُطَّابِ مُلكهم ، وممن يترشَّح للاعتراض عليهم . فمن أحقُّ بالأَثَرة ، وأولى بالقُرْب فى المنزلة ممَّن هذه الخصالُ فيه ، وهذه الخِلال له[٩] .

إنْ ذهبنا ، حَفِظك الله ، بعقِب هذه الاحتجاجات ، وعند مُنقطَع

---

(١) أى أشد غلاظة وخشونة .

(٢) جمع ثغر ، وهو الموضع يخاف هجوم العدو منه . ب فقط : « الصغور » ، تحريف .

(٣) ط فقط : « وأصحاب الفتوة » .

(٤) المغنى : المنزل يقام فيه طويلا . مج والرسائل : « معناها » بالعين المهملة .

(٥) ب : « وجيران والوزراء » ، تحريف .

(٦) الفناء : ساحة الدار ، والجمع أفنية . ب فقط : « أثنية » ، تصحيف .

(٧) مج والرسائل : « ولا نعرف بغيرهم » .

(٨) فى جميع الأصول : « ولم يطمع فينا أحد قط أحداً » صوابه فى مج والرسائل .

(٩) بعده فى مج والرسائل : بسم الله الرحمن الرحيم »

هذه الاستدلالات نَستعمل المفاوضة[١] بمناقب الأتراك ، والمقارنة[٢] بين خصالهم وخصال كلِّ صنف من هذه الأَصناف ، سلكنا فى هذا الكتاب سبيلَ أَصحابِ الخصومات فى كتبهم ، وطريقَ أَصحاب الأَهواءِ فى الاختلاف الذى بينهم .

وكتابنا هذا إنَّما تكلَّفناه لنؤلِّف بين قلوبهم إن كانت مختلفة[٣] ، ولنزيد فى الأُلفة إنْ كانت مؤتلفة ، ولنُخبِرَ عن اتِّفاق أسبابهم ، لتجتمع كلمتهُم ، ولِتسلمَ صُدورُهم ، وليعرف مَنْ كان لا يعرف منهم موضعَ التَّفاوُتِ فى النَّسب كم مقدارُ الخلافِ فى الحَسب ، لئلا يُغيِّر بعضَهم مغيِّر ، ويُفسدهُ[٤] عدوٌّ بأَباطيلَ مموَّهة ، وشُبُهات مزوَّرة ، فإنَّ المنافق العليمَ ، والعدوّ ذا الكيد العظيم قد يصوِّر لمن دونه الباطلَ فى صورة الحقِّ ، ويُلبس الإضاعة ثيابَ الحزم[٥] .

إلَّا أنَّا على حالٍ[٦] ، سنذكر جملًا من أَحاديثَ رويناها ، وأُمورٍ[٧] رأَيناها وشاهدناها ، وقصصاً تلقَّفناها من أَفواه الحكماءِ وسمعناها .

وسنذكر ما حُفظ لجميع الأَصناف من الآلات والأَدوات ، ثم ننظر أَيُّهم لها أَشدُّ استعمالا ، وبها أَشدُّ استقلالا ، ومَنْ أَثقبُ حَسَباً[٨] ،

---

(١) ب : « يستعمل » م ، ط : « تستعمل » ، والوجه ما أثبت من مج والرسائل .

(٢) فى جميع الأصول : « والمقاربة » ، والوجه ما أثبت . وفى مج والرسائل : « والموازنة » .

(٣) فى الرسائل فقط : « التى كانت مختلفة » .

(٤) ب ، م : « ومفسدة » ، صوابه فى ط ، مج والرسائل . وفى الأخيرتين : « فلا يغير بعضهم مغير ، ولا يفسده » .

(٥) ب ، م : « ثبات الحزم » ، صوابه فى ط ، مج والرسائل .

(٦) مج فقط : « على كل حال » .

(٧) م ، ط فقط : « وأموراً » .

(٨) مج والرسائل : « كيسا » . والكيس ، بالفتح : العقل ، وتوقد الذهن .

وأيقظُ عيناً ،وأزكى نَفْساً ، وأشدُّ غَوراً[١] ، وأعمُّ خواطرَ[٢] ، وأكثر نفعاً فى الحروب وضَرًّا ، وأدربُ دُربةً ، وأغمض مكيدةً ، وأشدُّ احتراساً ، وألطفُ احتيالًا ، حتَّى يكون الخيارُ فى يد النَّاظر فى هذا الكتاب ، المتصفِّحِ لمعانيه ، والمقلِّب لوجوهِه ، والمفكِّر فى أبوابه ، والمقابِلِ بين أوَّله وآخِره . ولا نكونُ نحن انتحلنا شيئاً دون شىء ، وتقلَّدنا تفضيل بعضٍ على بعض ، بلْ لعلَّنا أن لا نُخبر عن خاصَّةٍ ما عندنا بحرفٍ واحد .

فإذا دبَّرنا كتابَنا هذا التَّدبير ، وكان موضوعاً على هذه الصِّفة كان أبعدَ له[٣] مِنْ مذاهب الجِدال والمراء ، واستعمال الهوى[٤] .

وقد ظنَّ ناسٌ كثير أنَّ أسماءَ أصنافِ الأَجناد لمَّا اختلف فى الصُّورةِ والخطِّ والهجاء ، أنَّ حقائِقها ومعانيَها على حَسَب ذلك . وليس الأمر على مايَتوهَّمون[٥] .

ألا ترى أنَّ اسم الشَّاكرية[٦] وإن خالفَ فى الصُّورة والخطِّ والهجاءِ اسمَ الجندِّى فإنَّ المعنى فيهمَا ليس ببعيد ، لأنَّهم يرجعون إلى معنًى واحد ، وعلم واحد[٧] . والذى يرجعون إليه طاعةُ الخُلفاءِ وتأييدُ السُّلطان .

وإذا كان[٨] المولَى منقولًا إلى العرب فى أكثر المعانى ، ومجعولًا

---

(١) مج والرسائل : « وأبعد غوراً » .
(٢) ب ، م : « خواطرا » تحريف .
(٣) وكذا فى مج والرسائل . وفى م : « كان العدلة » ، وفى ط : « كان العدل له .
(٤) ب : « الهوا » م ، ط : « الهواء » ، صوابه فى مج والرسائل .
(٥) ب : « تتو همون » .
(٦) الشاكرية : ضرب من الجنود . وفى القاموس : « الشاكرى : الأجير المستخدم ، معرب « جاكر » . وانظر الحيوان ٢ : ١٣٠ .
(٧) مج والرسائل : « وعمل واحد » .
(٨) م : « فإذا » .

منهم فى عامّة الأسباب لم يكن بأعجبَ من جعل الخال والداً[١] ، والحليفِ من الصَّميم ، وابن الأُخت من القوم .

وقد جعل الله ابن الملاعَنةِ المولودَ على فِراش البَعْل منسوباً إلى أُمّه ، وقد جعَل[٢] إسماعيلَ وهو ابن أعجميَّين عربيًّا ، لأنَّ الله تعالى لمَّا فتق لهاتَهُ بالعربيَّة المُبِينة على غير التلقين[٣] والتَّرتيب ، وفَطَره على الفصاحة العجيبة على غير النشوءِ والتمرين ، وسَلخ طِباعه من طبائع العجم ، ونقل إلى بدنه تلك الأَجزاءَ ، وركَّبه اختراعاً على ذلك التركيب ، وسوّاه تلك التسوية ، وصاغَه تلك الصِّيغة ، ثمّ حَماه من طبائِعهم ، ومَنَعَه من أخلاقهم وشمائلهم ، وَطَبعه من كرمهم وأنفَتهم وهِمَمِهم على أكرمها وأسناها ، وأشرفِها وأعلاها ، وجعل ذلك برهاناً على رسالته ، ودليلًا على نبوَّته ، وصار أحقَّ بذلك النسب[٤] ، وأولى بشرف ذلك الحَسَب .

وكما جُعل إبراهيمُ أباً لمن لم يلد[٥] ، فالبنويُّ خُراسانيٌّ من جهة الولادة ، والمولى عربيٌّ من جهة المدَّعَى والعاقلة .

ولو أحاط علمنا بأَنَّ زيداً لم يخلق من نَجْل عَمرٍو إلَّا عهاراً[٦] لنفَيْناه عنه ، وإنْ أَيقنَّا أنَّه لم يُخلَقْ إلَّا من ماءِ صُلبه .

وكما جعل النبيُّ أزواجَه أُمّهاتِ المؤمنين ، وهنّ لم يلِدْنَهم ولا

---

(١) ب : « جعله الخال والداً » .
(٢) فى الرسائل : « وقد جعلوا » .
(٣) م ، ط : « التعين » ، صوابه فى ب . مج والرسائل .
(٤) ب : « بهذا النسب » ، وفى مج والرسائل : « فكان أحق بذلك النسب » .
(٥) فى الرسائل : « لمن لم يلده » .
(٦) ط : « لم يخلق إلا من نجل عمرو » . فقط وهو تحريف . والنجل : النسل والولادة .

أرضَعْنَهم . وفى بعض القراءات :﴿ وأزواجُهُ أُمَّهاتهمْ ، وهو أَبٌ لَهُمْ[(١)] ﴾ على قوله : ﴿ مِلَّةَ أَبيكُمْ إبراهِيمَ[(٢)] ﴾ ، وجَعل المرأةَ من جهة الرَّضاع أُمًّا ، وجعل امرأَةَ البعل أُمَّ ولدِ البعلِ من غيرها ، وجعل الرَّابَّ والداً[(٣)] . وجُعِل العَمّ فى كتاب الله أباً . وهم عبيده[(٤)] لا يتقلَّبُون إلا فيما قلَّبهم فيه .

وله أَن يجعلَ من عباده[(٥)] من شاء عربيًّا ،ومن شاء أعجميًّا ، ومن شاء قرشيًّا ، ومن شاء زنجيًّا . كما أَنَّ له أَن يجعل من شاء ذكراً ومن شاء أُنثى ، ومن شاء خُنْثَى ، ومن شاء أَخرجَه من ذلك[(٦)] فجعله لا ذكراً ولا أُنثى ولا خنثى .

وكذلك خلق الملائكة ، وهم أَكرمُ على الله من جميع الخليقة . ولم يجعلْ لآدم[(٧)] أباً ولا أُمًّا ، وخَلقَه من طينٍ ونَسَبه إليه ، وخلق حَوّاءَ[(٨)] من ضِلَعِ آدم ، وجعلها له زوجاً وَسَكَنا .

وخَلَق عيسى من غير ذكرٍ ، ونسبه إلى أُمِّه التى خَلقَه منها .

وخلق الجانَّ من نار السَّموم ، وآدمَ من طين ، وعيسى من غير

---

(١) هى قراءة أبى وعبد الله بن مسعود فى الآية ٦ من سورة الأحزاب . انظر تفسير أبى حيان ٧ : ٢١٢ .

(٢) الآية ٧٨ من سورة الحج .

(٣) الراب : فاعل من ربه يربه ربا ، بمعنى رباه حتى يفارق الطفولية، كان ابنه أو لم يكن .

(٤) إشارة إلى قوله تعالى فى سورة الأنعام الآية ٧٤ : « وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر » قيل أن آزر عم إبراهيم وليس اسم أبيه . قال أبو حيان فى تفسيره ٤ : ١٦٤ : « وهو قول الشيعة ، يزعمون أن آباء الأنبياء لايكونون كفاراً . وظواهر القرآن ترد عليهم ولا سيما محاورة إبراهيم مع أبيه فى غير ما آية » .

(٥) ب فقط : « وهم عبيد » ، وفى مج : « وهم عباده » ، وأثبت ما فى م ، ط والرسائل .

(٦) مج والرسائل : « أفرده من ذلك » .

(٧) مج فى الأصول : « فلم يجعل لآدم » ، والوجه ما أثبت . والذى فى مج والرسائل : « وخلق آدم فلم يجعل له » .

(٨) ب ، م : « حوى » .

نُطْفة ، وخلق السَّماءَ من دُخانٍ ، والأَرضَ من الماءِ . وخلق إسحاق من عاقرٍ .

وأَنطَقَ عيسى فى المهد ، وأَنطقَ يحيى بالحكمة وهو صبىٌّ ، وعلَّم سُليمانَ مِنطقَ الطَّيرِ ، وكلامَ النَّمْل . وعَلَّم الحَفَظَة من الملائكة جميعَ الأَلسنة حتَّى كتبوا بكلِّ خطٍّ ، ونَطَقوا بكلِّ لسان . وأَنطقَ ذئب أُهبانَ ابن أَوس[1] .

والمؤمنون من جميع الأُمم إذا دخلوا الجنَّةَ ، وكذلك أَطفالُهم والمجانينُ منهم ، يتكلَّمون ساعةَ يدخلون الجَنَّة بكلامِ أَهلِ الجنَّة ، على غير الترتيب والتنزيل ، والتعليمِ على طُول الأَيَّام والتَّلقين. فكيف يتعجَّب الجاهلون من إنطاق إسماعيل بالعربيَّة على غير تعليم الآباء ، وتأْديب الحواضِنِ ؟ !

وهذه المسأَلةُ ربَّما سأَل عنها بعضُ القحطانية ، ممَّن لا علم له ، بعضَ العدنانية[2] ، وهى على حال القحطانيَّة أَشدُّ[3] .

فأَمَّا جواب العدنانىِّ فسَلِسُ النَّظام ، سهلُ المخرج ، قريبُ المعنى ؛ لأَنَّ بنى قحطان لا يدَّعون لقحطان نُبُوَّةً[4] فيعطيَه الله تعالى مثلَ هذه الأُعجوبة .

وما الذى قَسَم اللهُ بينَ النَّاس من ذلك إلَّا كما صنع الله فى طينة

---

(١) أهبان هذا : أحد الصحابة ، ذكروا أن الذئب كلمه ثم بشره بالرسول . انظر تفصيل ذلك فى ثمار القلوب ٣٠٩ . وانظر كذلك الحيوان ١ : ٢٩٨ / ٣ : ٥١٣ / ٤ : ٨٠ / ٧ : ٥٠ ، ٢١٣ ، ٢١٧ والإصابة ٣٠٥ .

(٢) ب ، م : « لبعض العدنانية » ، صوابه فى ط ، مج والرسائل .

(٣) مج : « وهى على القحطانى أشد » .

(٤) ب فقط : « بنوة » بتقديم الباء ، تحريف .

الأَرض[١] ، فجعل بعضَها حجراً ، وبعضَ الحجر ياقوتاً ، وبعضَهُ ذهباً ، وبعضه نُحاساً ، وبعضَه رَصَاصاً ، وبعضه صُفْراً[٢] ، وبعضَه حديداً ، وبعضه تراباً ، وبعضَه فَخَّارا . وكذلك الزَّاج ، والمَغْرَةُ ، والزِّرنيخ ، والمرْتَكُ ، والكِبريت ، والقارُ ، والتُّوتيا ، والنُّوشادر[٣] ، والمرقشيشا[٤] ، والمِغناطيس[٥] .

ومَن يُحصى عَددَ جواهرِ الأَرض وأَصنافَ الفِلِزِّ[٦] ؟ !

وإذا كان الأَمرُ على ما وَصَفْنا فالبَنَوىُّ[٧] خُراسانىٌّ . وإذا كان الخراسانى مولًى والمولى عربىٌّ[٨] ، فقد صار الخراسانى والبَنوىّ والمولى والعربىُّ[٩] شيئاً واحداً . وأَدنى ذلك أَن يكون الذى معهم[١٠] من خصال الوِفاق غامراً لما مَعهم من خصال الخِلاف ، بل هم فى مُعظم الأَمر ، وفى كِبْر الشَّأْن[١١] وعمود النَّسَب متَّفقون . فالأَتراك خراسانية ،

---

(١) م فقط : « إلا كما صنع فى طينة الأرض » .

(٢) الصفر ، بالضم : : النحاس الأصفر .

(٣) انظر حواشى الحيوان ٣ : ٣٧٧ / ٥ : ٣٤٩ .

(٤) المرقشيشا ، هو ما يعرف بحجر الماركزيت ، كما فى معجم استينجاس ١٢١٨ . وقد وردت فى مج والرسائل : « المرقشيثا » بالثاء بدل الشين الثانية . كما وردت بالثاء أيضاً فى تذكرة داود عرضاً فى الكلام على « المغنيسيا » إذ يقول : « حجر كالمرقشيثا » . وعقد له رسماً فى المعتمد لابن رسولا ٣٤٢ بلفظ « مرقشيثا » .

(٥) ذكرداود فى تذكرته أنه يسمى حجر المشود وحجر الحديد . وقال : « وأجوده اللازوردى الرزين الصافى « الجاذب للحديد » . ومثله فى المعتمد لابن رسولا .

(٦) الفلز : جميع جواهر الأرض من الذهب والفضة والنحاس وأشباهها . ب فقط : « الفلل » ، تحريف .

(٧) ط : « فالنبوى » ، تحريف . وانظر ما سبق فى ١٦٧ .

(٨) ط : « عربياً » .

(٩) فى جميع الأصول : « والمولى مولى والعرب » ، صوابه فى مج والرسائل .

(١٠) ب فقط : « معه » .

(١١) الكبر ، بكسر الكاف وضمها : الرفعة فى الشرف .

وموالى الخلفاء قُصْرةً[١] ، فقد صار فضْل التُّركِ إلى الجميع راجعاً ، وصار شرفهم زائداً فى شرفهم .

وإذا عرف سائرُ الأَجنادِ ذلك سامحت النُّفوس ، وذهب التَّعقيد ، ومات الضِّغن ، وانقطع سببُ الاستثقال ، فلم يبقَ إلّا التحاسد والتنافس الذى لا يزال يكون بين المتقاربَينِ فى القرابة ، وفى الصِّناعة ، وفى المُجاورة .

على أنَّ التوازر والتَّسالم فى القرابات وفى بنى الأَعمام والعشائر أَفشى وأَعمُّ من التَّخاذُل والتعادى .

ولحبِّ التناصر والحاجة إلى التعاوُن انضمَّ بعض القبائل فى البوادى إلى بعض ، ينزلون معاً ، ويَظْعَنون معاً . ومن فارق أَصحابه أَقلُّ ، ومن نَصر ابن عمِّه أَكثر ، ومن اغتبط بنعمته وتمنَّى بقاءَها والزيادةَ فيها أَكثر ممن بغاها الغوائِل[٢] وتمنَّى انقطاعَها وزوالها .

ولا بدَّ فى أَضعافِ ذلك من بعض التَّنافس والتَّخاذلُ ، إلَّا أَنَّ ذلك قليلٌ من كثير .

وليس يكون[٣] أَن تصفوَ الدُّنيا ، وتنقَى[٤] من الفَسادِ والمكروه ، حتَّى يموت جميع الخلاف[٥] ، وتستوىَ لأَهلها ، وتتمهّد لسكَّانها[٦] على ما يشتهون ويَهْوَوْن ؛ لأَنَّ ذلك من صفة دار الجزاءِ ، وليس كذلك صفةُ دار العمل .

---

(١) قصرة ، بضم القاف ، أى أدنى إليهم . كما يقال هو ابن عمى قصرة ، أى دانى النسب .

(٢) الغوائل : المهلكات . ويقال بغيتك الشىء : طلبته لك وتمنيته . وفى كتاب الله : « يبغونكم الفتنة » ، أى يبتغونها لكم .

(٣) وكذا فى مج . وفى الرسائل : « وليس يجوز » .

(٤) ب : « أن يصفو الدنيا ويبقى » م ، ط : « أن تصفو الدنيا ويبقى » ، صوابهما فى مج والرسائل . ونقى الشىء ينقى نقاء : صار نقياً خالصاً .

(٥) فى جميع الأصول : « وحتى » ، صوابه فى مج والرسائل . وفى الرسائل أيضاً : « جميع الخلائق » .

(٦) فى جميع الأصول : « ويستوى لأهلها ويتمهد لسكانها » ، صوابه فى مج والرسائل .

بسم الله الرحمن الرحيم

هذا كتابٌ كتبته أيّامَ المعتصِم بالله[١] رضى الله عنه ونَضَّر وجهَه ، فلم يصل إليه لأسباب يطول ذكرها[٢] ، فلذلك لم أعرِضْ للإخبار عنها ، وأحببت أن يكون كتاباً قَصْداً ، ومذهباً عَدْلًا ، ولا يكونَ كتابَ إسرافٍ فى مديح قوم ، وإغراقٍ فى هجاءِ آخَرين ؛ فإنَّ الكتابَ إذا كان كذلك شابَهُ الكذب[٣] وخالطه التزيُّد ، وبُنِى أساسه على التكلُّف[٤] ، وخرج كلامُه مَخرج الاستكراهِ والتَّغْليق[٥] .

وأنفع المدائح للمادح ، وأجداها على الممدوح ، وأبقاها أثراً وأحسنُها ذكراً ، أن يكون المديح صِدقاً ، ولِظاهرِ حالِ الممدوح موافقاً ، وبه لائقاً ، حتَّى لا يكون من المعبِّرِ عنه والواصفِ له إلَّا الإشارةُ إليه ، والتَّنبيهُ عليه .

وأنا أقول : إن كان لا يمكن ذكرُ مناقب الأتراك إلَّا بذكر مثالب سائر الأجناد ، فتَرْكُ ذكرِ الجميع أصوَب ، والإضراب عن هذا الكتاب أحزم .

---

(١) هو محمد بن هارون الرشيد ، بويع بالخلافة بعد وفاة أخيه المأمون سنة ٢١٨ . وتوفى بسر من رأى سنة ٢٢٧ . وولى الخلافة بعده ولده هارون الواثق .

(٢) مج والرسائل : « يطول شرحها » .

(٣) هذا مافى الرسائل . وفى جميع الأصول : « شانه » فقط . وفى مج : « شانه الكذب » .

(٤) فى جميع الأصول : « فىالتكلف » .

(٥) التغليق ، المراد به العسر ، كما يغلق الباب تغليقاً . وفى جميع الأصول وكذا فى مج والرسائل : « التعليق » ، والوجه ما أثبت .

وذكرُ الكثير من هذه الأَصناف بالجميل لا يقوم إلَّا بالقليل من ذكر بعضِهم بالقبيح ، وهو معصية[(١)] وبابٌ من ترك الواجب . وقليلُ الفريضة أَجدَى علينا ، لأَن ذكر الأَكثر بالجميل نافلة ، وبابٌ من التطوُّع ؛ وذكر الأَقلِّ بالقبيح معصية ، وبابٌ من ترك الواجب . وقليل الفريضة أَجدى علينا من كثيرِ التطوُّع .

ولكلٍّ الناس نصيبٌ من النَّقص ، ومقدارٌ من الذُّنوب ، وإنَّما يُتفاضَل بكثرة المحاسِنِ وقلَّة المساوِى . فأَمَّا الاشتمالُ على جميع المحاسن، والسَّلامةُ من جميع المساوى ، دقيقِها وجليلِها ، ظاهِرها وخفيِّها ،فهذا لا يعرف فيهم[(٢)] .

فإذا كان الخلطاءُ من جمهور الناس وأَهلِ المَعَايش[(٣)] من دهماءِ الجماعة[(٤)] يرون ذلك واجباً فى الأَخلاق ، ومصلحةً فى المعاش ، وتدبيراً فى التَّعامُل ، على ما فيهم من مشاركة الخطأ للصَّواب ، وامتزاج الضَّعف بالقوَّة ، فلسنا نشكُّ أَنَّ الإمام الأَكبرَ[(٥)] ، والرئيس الأَعظم مع الأَعراق الكريمة ، والأَخلاق الرفيعة ، والتمام فى الحلم والعلم ، والكمال فى العَزْم والحزم ، مع التمكين والقدرة ، والفضيلة والرِّياسة والسيادة ، والخصائص التى معه من التوفيق والعِصمة ، والتَّأْييد وحُسن المعونَة — لم يكن الله ليجلِّله لِباس الخلافة ، ويحبوَه ببهاءِ الإمامة[(٦)] ، وبأَعظم نعمةٍ

(١) ب : « لم نعصيه » م : « معصية » فقط . وأثبت مافى ط .
(٢) فى جميع الأصول : « فهذا مايعرفونه » ، صوابه فى مج والرسائل مع سقوط كلمة « فيهم » منهما .
(٣) فى جميع الأصول : « وأهل المقايس » . وفى مج : « وأصحاب المقايس » ، وأثبت مافى الرسائل .
(٤) ط فقط : « من زعماء الجماعة » .
(٥) ب فقط : « فى أن الإمام الأكبر » .
(٦) ب : « بهاء الإمامة » ، وفى مج والرسائل : « بتاج الخلافة » .

وأَسبغِها ، وأَفضلِ كرامةٍ وأَسناها ، ثُم وَصَل طاعتَه بطاعته ، ومعصيتَه بمعصيته ، إلَّا ومعه من الحلم فى موضع الحلم ، والعَفْوِ فى موضع العفو ، والتَّغافُلِ فى موضع التَّغافل ، مالا يبلغه فَضْلُ ذى فضل ، ولا حِلمُ ذى حلم .

ونحن قائلون ، ولا حول ولا قوة إلَّا بالله العلى العظيم ، فيما انتهى إلينا من القول فى الأَتراك .

زعم محمَّدُ بن الجَهْم وثُمامة بن الأَشرس[1] والقاسم بن سَيَّار[2] فى جماعةٍ ممن يغشى دارَ الخلافة[3] ، وهى دار العامَّة[4] ، قالوا جميعاً :

بينا حُمَيد بن عبد الحميد جالساً ومعه إخشيد الصُّغدى[5] ، وأَبو شجاع شبيب بن بُخار خُداى[6] البلخى ، ويحيى بن مُعاذ ، ورجالٌ من المعدودين المتقدِّمين فى العلم بالحرب ، من أَصحاب التجارب والمِراس ، وطُول المعالجة والمعاناة بصناعة الحرب ، إذْ خرجَ رسولُ المأْمون فقال لهم : يقول لكم مفترقين ومجتمعين : فليُثبتْ[7] كلٌّ

---

(١) ب : « الأشرث » ، تحريف . وهو ثمامة بن أشرس النميرى مولى بنى نمير . كان زعيم القدرية فى زمان المأمون والمعتصم والواثق . وهو الذى دعا المأمون إلى الاعتزال . انظر الفرق بين الفرق ١٥٧ . وتروى عنه قصص تشير إلى استخفافه بالدين ، من ذلك أنه رأى الناس يوم جمعة يتعادون إلى المسجد الجامع ، لخوفهم من فوت الصلاة ، فقال لرفيق له : انظر إلى هؤلاء الحمير والبقر ! ثم قال : ماصنع ذاك العربى بالناس . تأويل مختلف الحديث ٦٠ . قتل ثمامة فى زمان الواثق الذى تولى الخلافة من ٢٢٧ — ٢٣٢ . وقيل مات سنة ٢١٣ . انظر الفرق ١٥٩ ولسان الميزان ٢ : ٨٤ وتاريخ بغداد ٧ : ١٤٥ — ١٤٨

(٢) ب : « يسار » ، صوابه فى سائر النسخ والحيوان ٤ : ٤٤٢

(٣) ط فقط : « ممن يغشون دار الخلافة » .

(٤) ط فقط : « وهى دار الإمامة » .

(٥) مج : « بخشاد الصغدى » ، وفى الرسائل : « بخشاد الصغدى » .

(٦) ب : « نجار خداى » ، وأثبت مافى م ، ط ، مج. وفى الرسائل ١ : ٤٠ : « بخارا خداى » .

(٧) مج والرسائل : « فليكتب » .

رجلٍ منكم دَعْواه وحُجَّته ، يقول لكم : أَيُّما أَحبُّ إلى كلٍّ قائد منكم، إذا كان فى مائةٍ من نخبته وثقاته[(١)] : أَن يلقى بهم مائةَ تركىٍّ أَو مائة خارجى ؟

فقال القوم جميعاً : [لأَنْ[(٢)]] نلقى مائة تركىٍّ أَحبُّ إلينا من أَن نلقى مائةَ خارجىّ ! وحُميدٌ ساكت ، فلمَّا فرغ القومُ جميعاً من حُجَجهم قال الرسول لحُميد : قد قال القومُ فقُلْ واكتُبْ قولك ، وليكنْ حُجَّةً لك أَو عليك . قال : بل أَلقى مائةَ خارجىٍّ أَحبُّ إلىّ ؛ لأَنِّى وجدتُ الخصالَ التى فَضَل بها التركىُّ جميع المقاتِلة غَيْرَ تامَّةٍ فى الخارجى ، ووجدتُها تامّةً فى التركىّ . ففَضلُ التركىِّ على الخارجىِّ بقدر فَضْل الخارجىِّ على سائر المقاتلة . وذلك بأَنَّ التركىّ بَانَ من الخارجىِّ بأُمورٍ ليس فيها للخارجىِّ دَعْوَى ولا مُتعلَّق . على أَنَّ هذه الأُمورَ التى بان بها التركىُّ من الخارجى أَعظَمُ خطراً وأَقلُّ نَفْعاً ممَّا شاركه الخارجىُّ فى بعضه .

ثم قال حميد : والخصال التى يصول بها الخارجىُّ على سائر الناس : صِدْقُ الشَّدَّة عند أَوّل وهلة ، وهى الدَّفعة التى يبلغون بها ما أَرادوا ، وينالون بها ما أَمَّلوا .

والثانية : الصَّبر على الخَبَبَ[(٣)] ، وعلى طُول السُّرَى حتَّى يُصبِّحوا القوم الذين مَرَقُوا بهم غارِّين[(٤)] ، فيهجمُوا[(٥)] عليهم وهم بَسُوءٌ[(٦)]

(١) ب : « من نخبه » . وفى مج والرسائل : « إذا كان فى عدته من صحبه وثقاته » .
(٢) هذه من ط والرسائل .
(٣) الخبب : ضرب من العدو السريع . ب : « الحنب » تحريف .
(٤) المروق : المرور بسرعة كما يمرق السهم من الرمية . غارون : غافلون . ب : «غازين» .
(٥) ب فقط : « فهجموا » .
(٦) فى الأصول : « بشر » ، ولا وجه له . والوجه ما أثبت من مج والرسائل . وهو من قولهم : ناقة بسوء ، بفتح الباء : لا تمنع الحالب . وهذا مثل للضعف .

ولحم على وَضَم[١] ، فيُعجِّلوا بهم عن الرَّوِيَّة[٢] ؛ وعن ردِّ النَّفْس بعد الجَوْلة[٣] والنَّزْوة ، لا يظنون أنَّ أحداً يقطع فى ذلك المقدارِ من الزَّمان ذلك المقدارَ من البلاد .

والثالثة : أنَّ الخارجيَّ موصوفٌ عند الناس بأنَّه إنْ طَلَبَ أدرَك ، وإن طُلِبَ فات .

والرابعة : خِفَّة الأزواد[٤] ، وقلَّة الأمتعة ، وأنَّها تَجْنُب الخيل[٥] ، وتركَب البِغال ، وإن احتاجت أَمسَتْ بأرضٍ وأَصبحتْ بأُخرى[٦] ، وأنَّهم قومٌ حين خرجوا لم يخلِّفوا الأموالَ الكثيرة ، والجنانَ الملتفَّة ، والدُّور المشيَّدة ، ولا ضِياعاً ولا مُستغَلَّات ، ولا جواريَ مطهَّمات ، وأنَّهم[٧] لا سَلبَ لهم ، ولا مالَ معهم ، فيرغبَ الجندُ فى لِقائهم ، وإنَّما هم كالطَّير لا تدَّخر ، ولا تهتمُّ[٨] لغدٍ ، ولها فى كل أرضٍ من المياه والبُزُور[٩] مَا يَقُوتها . وإن لم تجد ذلك فى بعض البلادِ فأَجنحتُها تقرِّب لها البعيد، وتسهِّل لها الحُزُون . وكذلك الخوارج لا يمتنع عليهم القِرَى والطُّعم[١٠] ،

---

(١) الوضم : جمع وضمة ، وهو كل شىء يوضع عليه اللحم من خشب أو حصير ، يوقى به الأرض . واللحم على الوضم مثل للضعف وعدم الامتناع .

(٢) فى جميع الأصول : « على الرؤية » ، والوجه ما أثبت من مج والرسائل .

(٣) ب ، م : « بعد الحولة » بالحاء المهملة .

(٤) ب فقط : « الأزواج » تحريف . والأزواد : جمع زاد ، وهو الطعام ولاسيما فى والسفر .

(٥) تجنبها : تقودها إلى جنب البغال . والضمير للخوارج .

(٦) ب فقط : « وأضحت بأخرى » .

(٧) ب ، م : « أنهم » بدون واو .

(٨) ب : « ولا تهتم لغد » .

(٩) فى جميع الأصول : « والبرور » ، ولا وجه له . وفى مج والرسائل . : « والأقوات » .

(١٠) مج والرسائل : « والمطعم » . والطعم ، بالضم : الطعام .

فإنْ يمتنعْ[(١)] عليهم فنى بنات أَعْوجَ [(٢)] وبنات شَحّاجٍ[(٣)] ، وخِفَّة الأَثقال ، والقُوّة على طول الخَبَب ما يأْتيها بأَرزاقها ، وأَكثَرَ من أَرزاقها .

والخامسة : أَنَّ الملوك إذا أَرسلوا إليهم أعدادَهم ليكونوا فى خفَّة أَزوادهم وأثقالهم ، وليَقْوَوْا على التنقُّل كقوَّتهم[(٤)] ، لم يَقْوَوْا عليهم ، لأَنَّ مائة[(٥)] من الجند لا يقومون لمائةٍ من الخوارج . وإن كثَّفوا الجيش وضاعفوا العدد[(٦)] ثَقُلُوا عن طلبهم ، وعن الغَوْث إنْ طلبَهُم عدوُّهم . ومتى شاء الخارجىُّ أن يَقْرُب منهم ليتطرَّفَهم[(٧)] ، أَو لِيُصيبَ الغِرَّة[(٨)] أَو ليثبتهم[(٩)] ، فعل ذلك[(١٠)] ، ثقةً بأَنَّه يغنم[(١١)] عند الفرصة ورؤية العَوْرة ، ويمكنه الهربُ عند الخوف ، وإن شاء كَبَسهم[(١٢)] ليقطع نظامهم ، أَو ليقتطع القِطعةَ منهم .

---

(١) فى الأصول : « تمتنع » ، وأثبت ما فى مج . وفى الرسائل : « فإن تمنع » .

(٢) ط : « أعواج » تحريف . وأعوج هذا : فرس كان لكندة ، فأخذته بنو سليم فى بعض أيامهم ، فصار إلى بنى هلال . وليس فى العرب فحل أشهر ولا أكثر نسلا منه .

(٣) بنات شحاج ، هى البغال ، لأنها تشحج بصوتها . وفى مج والرسائل : « وبنات شحاج وبنات صهال » . وبنات صهال يعنى بها الخيل فإن الصهيل لها . وبنات صهال لم ترد فى اللسان ولا القاموس ، ولكن وردت فى المزهر ١ : ٥٢٥ .

(٤) ب : « كقولهم » ، صوابه فى م ، ط ومج والرسائل .

(٥) ب : « لامابة » تحريض .

(٦) مج والرسائل : « وإن كثفوا الجيش بالجيش ، وضاعفوا العدد بالعدد .

(٧) التطرف : الإغارة من حول العسكر . ب : « لينظر فيهم » . م ، ط : « ليتطرقهم » بالقاف ، صوابه فى مج والرسائل .

(٨) الغرة ، بالكسر : الغفلة . ب : « العراة » ، صوابه فى م ، ط ، مج والرسائل .

(٩) أثبته : جرحه جراحة لا يقوم معها . وفى الكتاب العزيز : « وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك » فى الآية ٣٠ من الأنفال . وفى مج والرسائل : « أو ليسلبهم » .

(١٠) ب ، مج : « فعل » بإسقاط « ذلك » .

(١١) فى الأصول : « يقيم » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

(١٢) الكبس : الاقتحام ، كالتكبيس والتكبس . ب : « كيسهم » بالياء المثناة التحتية ، تحريف .

قال حُمَيد : فهذه هي مفاخرُهم وخصالهم ، التي بها كَرِه القُوّادُ لقاءَهم .

قال القاسم بن سيَّار : وخَصلة أُخرى ، وهي التي رَعَبت القلوب[١] وَحَشَتْها[٢] ، ونَقَضَت العزائمَ[٣] وفَسختها ، وهو ما تَسْمَعُ الأَجنادُ ومُقاتلةُ العوامّ مِن ضرب المثل بالخوارج ، كقول الشاعر :

إِذا ما البخيل والمحاذِر للقِرَى
رأى الضَّيفَ مثلَ الأزرقيّ المجفَّفِ[٤]

هذه زيادةُ القاسم بن سَيَّار .

فأمّا حُمَيد[٥] فإنّه قال :

فأمّا الشّدةُ فالتُّركيُّ فيها أَحمدُ أَثرًا ، وأَجمع أَمراً ، وأَحكَم شأْنا ؛ لأَنَّ التركي مِن أَجْلِ أَنْ تَصدُقَ شَدَّتُه ويتمكَّن عزمُه ، ولا يكون مُشتَرَك العزم ، ومُنْقسِمَ الخواطر ، قد عَوّدَ بِرذونَه أَن لا ينثنيَ وإِن ثناه ، أَنْ يملأَ فُروجَه[٦] ، إِلّا أَن يُديره مرّةً أَو مرّتين ، وإِلّا فإِنّه لا يدع سَنَنَه ، ولا يقطع ركْضَه[٧] ، وإِنَّما أَراد التركيُّ أَن يوئِسَ نفسَه من البَدَوات[٨] ،

(١) ط فقط : « أرعبت » . يقال رعب فلاناً رعباً : خوفه وأفزعه ، كما يقال أرعبه إرعاباً .

(٢) أى ملأتها من الرعب . وفى م : « وجشتها » ، وفى مج والرسائل : « وخلعتها » .

(٣) ب : « ونقضتها العزائم » .

(٤) ب : « إذا ما المخيل ، تحريف . وفى ط : « إذا ما رأى الخيل المحاذى للقرى » تحريف أيضاً ، صوابه فى م ، ومج والرسائل . ب ، م : « الصيف » بالصاد المهملة ، تحريف . والمجفف : الذى جفف فرسه بالتجفاف ، وهو ما جلل به من سلاح وآلة تقيه الجراح . وفى ب : « المخفق » وفى م ، ط : « المخفف » صوابهما فى مج والرسائل .

(٥) م ، ط : « وأما حميد » .

(٦) ط فقط : « فلا يملأ فروجه » تحريف . والفروج : مابين قوائم الفرس . وكنى بملئها عن الإسراع وشدة العدو حتى لاتكاد تظهر تلك الفروج للنظر .

(٧) ب فقط : « ركده » تصحيف .

(٨) ب فقط : « يوبس » بالباء ، تحريف . والبدوات : الخطرات والآراء تبدو وتظهر . ط فقط : « البدرات » .

ومن أن يعتريه التَّكذيب[١] بعد الاعتزام ، لهول اللقاء ، وحُبِّ الحياة ، لأنَّه إذا علم أنَّه قد صيَّر بِرذونَه إلى هذه الغاية حتَّى لا ينثنىَ ، ولا يجيبَه إلى التصرُّف معه إلَّا بأَنْ يصنع شيئاً بين الصَّفَّين فيه عَطبُه ، لم يُقْدِم على الشَّدَّة إلَّا بعد إحكام الأَمر ، والبَصَر بالعورة[٢] . وإنَّما يريد أن يشبِّه نفسه بالمُحْرَج[٣] الذى إذا رأى أَشدَّ القتال لم يَدعْ جُهْداً ولم يدَّخر حِيلة ، ولينفِيَ[٤] عن قلبه خواطرَ الفِرار ، ودواعىَ الرُّجوع .

وقال : الخارجىُّ عند الشَّدَّة إنَّما يعتمد على الطِّعان . والأَتراك تطعُن طعنَ الخوارج ، وإن شَدَّ منهم أَلفُ فارسٍ فرموا رِشْقاً واحداً[٥] صرعوا أَلفَ فارس ، فما بَقاءُ[٦] جيشٍ على هذا النَّوع من الشَّدِّ[٧] ؟! والخوارج والأَعراب ، ليست لهم رمايةٌ مذكورةٌ على ظُهور الخيل ، والتُّركىُّ يرمى الوَحْشَ ، والطَّيرَ ، والبُرجاس[٨] ، والنَّاسَ[٩] ، والمجثَّمة[١٠] ، والمُثُلَ الموضوعة ، والطَّير الخاطف[١١] ، ويرمى وقد ملأَ فُروج دابَّته

---

(١) التكذيب : الإحجام ، يقال للرجل إذا حمل ثم ولى ولم يمض : قد كذب عن قرنه تكذيباً .

(٢) العورة : موضع الخلل عند العدو . ويقال بيوت عورة ، أى ممكنة للسراق ، لخلوها وأنها غير حريزة . وفى جميع الأصول : « بالعودة » . وأثبت ما فى مج والرسائل .

(٣) فى جميع الأصول : « بالمخرج » ، صوابه بالحاء المهملة كما فى مج والرسائل .

(٤) ب فقط : « ولينقى » بالقاف ، صوابه فى م ، ط ، مج والرسائل .

(٥) الرشق بالكسر : الاسم من الرشق ، ورشقاً واحداً ، أى وجهاً واحداً بجميع سهامهم .

(٦) فى جميع الأصول ، مج : « بقى » ، صواب رسمه من الرسائل .

(٧) هذا ما فى ب . و فى م ، ط ومج والرسائل : « من الشدة » .

(٨) البرجاس ، بضم الباء ، سبق تفسيره فى ص ١٧٩ .

(٩) انظر ما سيأتى فى ٢٠٦ س ٤ .

(١٠) المجثمة ، سبق تفسيرها فى ص ٣٢ . ب فقط : « المجثة » ، تحريف .

(١١) م ، ط : « والطائر الخاطف » .

مُدْبِراً ومُقْبِلًا[١] ، ويَمْنَةً ويَسْرة ، وصُعُدا وسُفْلا ، ويرمى بعشرة أَسهم[٢] قبل أَن يفوّق الخارجىُّ سهماً واحداً . ويركضُ دابَّتَه منحدِراً من سهل ، أَو متسفِّلا إِلى بطنِ وادٍ بأَكثرَ مِمَّا يمكن الخارجىَّ على بسيط الأَرض .

والتركىُّ له أَربعةُ أَعين[٣] : عينان فى وجهه ، وعينان فى قَفاه .

وللخارجىِّ عيب فى مستدبَر الحرب ، وللخراسانى عيبٌ فى مُستقبَل الحرب .

فعيب الخراسانيَّة أَنَّ لها جولةً عند أَوّل الالتقاءِ[٤] ، فإِنْ ركِبُوا أَكساءَهم[٥] كانت هزيمتهم ، وكثيراً ما يَثُوبون ، وذلك بعد الخِطار بالعَسكر ، وإِطماع العدوِّ فى الشدَّة .

والخوارج إِذا وَلَّوا فقد ولَّوْا ، وليس لهم بعد الفَرِّ كَرٌّ إِلَّا ما لا يُعدّ .

والتركىُّ ليست له جَولةُ الخراسانىّ ، وإِذا أَدبَرَ فهو السمُّ الناقع ، والحَتْف القاضى ، لأَنَّه يُصِيب بسهمِهِ وهو مُدْبر ، كما يُصيب بسهمه وهو مقبلٌ ، ولا يُؤمن وَهَقُه[٦] .

---

(١) انظر ما سبق فى ص ٢٠١ .

(٢) ب : « لعشرة أسهم » محرف ، م : « العشرة أسهم » ؛ وهو خطأ ، وفى ط : « العشرة الأسهم » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

(٣) مج والرسائل : « والتركى أربعة عين » . وقد وردت « أربعة » مؤنثة مع العين المؤنثة ، وهو وجه جائز فى العربية مذكور فى المطولات . وانظر الصبان ٤ : ٦٢ حيث ذكر ابن هشام أن ما كان لفظه مذكراً ومعناه مؤنثاً ، أو بالعكس ، فإنه يجوز فيه وجهان .

(٤) م : « الألقاء » ، صوابه فى ب ، ط .

(٥) الأكساء : جمع كسء ، بالضم ، وهو مؤخر كل شىء . يقال ركب كسأه : وقع على قفاه . والمراد : أدبروا وتأخروا . ب فقط : « كسأهم » ، بالإفراد .

(٦) الوهق ، بالتحريك : حبل شديد الفتل يرمى وفيه أنشوطة ، فتؤخذ فيه الدابة والإنسان . ب فقط : « رهقه » ، تحريف .

قال : وهم علَّموا الفُرسانَ حملَ قَوسين وثلاثِ قِسيٍّ ، ومن الأَوتار على حَسَب ذلك[١] .

والتركيُّ فى حال شَدَّته معه كلُّ شيءٍ يحتاج إليه ، لنفسه ، ولسلاحه ، ولدابَّته ، وأَداةِ دابَّته[٢] . فأَمَّا الصَّبر على الخَبَب[٣] ومواصلة السَّير ، وعلى طُول السُّرى وقَطع البِلاد [فعجيبٌ جدًّا[٤]] .

فواحدةٌ[٥] : أَنَّ فرسَ الخارجِّى لا يصبر صَبْرَ برذَون التركيّ .

والخارجىُّ لا يحسن أَن يعالج فرسَه إلَّا مُعالجةَ الفُرسان لخيولهم ، والتركيُّ أَحذَقُ من البَيطار ، وأَجود تقويماً لبِرْذَوْنهِ على ما يريد من الرَّاضة[٦] ، وهو استَنْتَجَهُ ، وهو ربَّاه فِلْواً ، ويَتْبعُه إنْ سمَّاه[٧] ، وإنْ ركَضَ ركَضَ خَلْفه ، قد عوَّده [ذلك[٨]] حتَّى عرفه ، كما يعرف الفرس : اجدَمْ[٩] ، والناقة : حَلِ[١٠] ، والجمل : جاهِ[١١] ، والبغل : عَدَسْ ، والحمارُ : سأْسأْ ؛ وكما يعرف المجنونُ لقبه ، والصبىُّ اسمَه .

---

(١) م ، ط : « على حساب ذلك » .

(٢) ب فقط : « وأداءة دابته » ، تحريف .

(٣) انظر ما معنى فى ص ٨٩ . وفى ب : « الجنب » ، تحريف

(٤) التكلة من مج والرسائل .

(٥) ط فقط : « فظاهر » .

(٦) الراضة : جمع رائض ، وهو من يروض الدابة ويسوسها ويذللها .

(٧) ب ، م والرسائل : « وتتبعه إن سماه » ، وأثبت ما فى ط .

(٨) التكلة من مج والرسائل .

(٩) أجدم ، بوصل الهمزة بعدها جيم ودال مهملة ، وهو زجر للفرس ، ومثله « هجدم » بالهاء . وفى الأصول : « اجذم » بالذال المعجمة ، صوابه فى مج ومعظم أصول الرسائل . انظر : ١ : ٤٧

(١٠) يقال فى زجر الناقة : حل ، وحلى أيضاً . وأنشدوا لأبى النجم :

* وقد حدوناها بحوب وحلى *

(١١) جاه ، بكسر الهاء : زجر للإبل . وربما قيل جاه بالتنوين ، وكذلك جوه جوه بسكون الهاء . ومثله جأ ، وشأ ، كما يقال جيء جيء : أمر لها بورود الماء وهى على الحوض . وجؤجؤ : أمر لها بورود بالماء وهى بعيدة منه ، أوهو زجرلها لا أمر بورود الماء . وفى م ، ط : « جأ » . وأثبت ما فى ب ، مج والرسائل .

ولو حصَّلت مُدَّةَ عُمرِ التُّركيِّ وحَسَبت أَيَّامَه لوجدتَ جُلوسَه على ظهر الأَرض نادراً[١] . والتركيُّ يركب فَحلًا أو رَمَكَةً[٢] ، ويخرج غازياً أَو مسافراً ، أَو متباعداً فى طلب صيد ، أَو سببٍ من الأَسباب ، فتتبعُه الرَّمَكةُ وأَفلاؤُها ؛ إنْ أَعياه اصطيادُ النَّاسِ اصطادَ الوحش ، وإنْ أَخفقَ منها واحتاجَ إلى طعامٍ فصَدَ دابَّةً من دوابِّه ، وإنْ عَطِشَ حَلَب رَمَكة من رِماكه ، وإن أَراحَ واحدةً ركبَ أُخرى ، من غير أن ينزلَ إلى الأَرض .

وليس فى الأَرض أَحدٌ إلَّا وبدنُه ينتقض[٣] عن اقتيات اللَّحمِ وحدَه ــ غَيْره ، وكذلك دابّته تكتفى بالعُنقُر[٤] والعُشب والشَّجر ، لا يُظِلُّها من شمسٍ ، ولا يُكنُّها من برد .

قال : وأَمَّا الصبر على الخبَب[٥] فإنَّ الثَّغريِّين[٦] ، والفُرانقيِّين[٧] ، والخِصيان ، والخوارج ، لو اجتمعتْ قُواهم فى شخصٍ واحد لما وَفَوْا بتركيٍّ واحد . والتركيُّ لا يبقَى معه مع طولِ الغاية إلَّا الصَّميمُ من دوابِّه ، والذى يقتله التركيُّ بإتعابه له . وينْفِيهِ[٨] عند غَزَاته هو الذى لا يصبر

(١) نادراً ، ساقطة من ب . وفى م : « نادر » محرف . وفى مج والرسائل : « لوجدت جلوسه على ظهر دابته أكثر من جلوسه على ظهر الأرض » .

(٢) الرمكة ، بالتحريك : الأنثى من البراذين . وفى جميع الأصول : « فحل أرماكه » ، وأثبت مافى مج والرسائل .

(٣) ينتقض : يفسد ويهزل . وفى جميع الأصول : « ينتفض » بالفاء ، ولا وجه له .

(٤) العنقر ، كعصفر : أصل القصب والبردى والبقل مادام أبيض مجتمعاً .

(٥) ب : « الجنب » ، تحريف . وانظر ١٩٩ .

(٦) الثغريون : نسبة إلى الثغر ، وهو واحد ثغور الشام . ومن أشهرها : أنطاكية ، وبغراس ، والمصيصة . وأصل أهلها من الروم .

(٧) نسبة إلى الفرانق بالضم ، يعنى بهم عمال البريد ، ويبدو أنهم كانو من غير العرب . والفرانق : الذى يدل صاحب البريد على الطريق ، معرب « بروانك » . ب ، م : « والغزانقين» ط : « والفزانقين » ، صوابهما ما أثبت .

(٨) فى جميع الأصول : « ويبقيه » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

معه فرسُ الخارجي ، ولا يبقَى معه كلُّ بِرذونٍ بخاريّ(١) ، ولو ساير خارجيًّا لاستفرغ جُهدَه(٢) قبل أن يبلغ الخارجيُّ عفوه .

والتركيُّ هو الراعي ، وهو السَّائس ، وهو الرائِض ، وهو النخَّاس(٣) ، وهو البَيْطار ، وهو الفارسُ . فالتركيُّ الواحدُ أُمّةٌ على حدة .

قال : وإذا سار التركيُّ في غير عساكر الترك فسار القومُ عشرةَ أميال سار التركيُّ عشرين مِيلًا ، لأنَّه ينقطع عن العسكر يمنة ويسرة ، ويَصعَدُ في ذُرَى الجبال ، ويَستبطِنُ قعورَ الأَودية ، في طلب الصيد ، وهو في ذلك يرمي كلَّ ما دبَّ ودرج ، وطارَ ووقع .

قال : والتركيُّ لم يَسِر في العسكر سَيْرَ النَّاسِ قطُّ ، ولا سارَ مستقيماً قط(٤) .

قال : وإذا طالت الدُّلجة ، واشتدَّ السَّير ، وبَعُدَ المنزلُ ، وانتصفَ النَّهار ، واشتدَّ التعب ، وشَغَل الناسَ الكلالُ(٥) ، وصمت المتسايرون فلم يَنطِقوا ، وقَطعَهم ما همْ فيه عن التَّشاغل بالحديث ، وتفسَّخَ(٦) كلُّ شيءٍ من شدَّة [الحرّ ، وجَمَد كل شيءٍ من شدَّة(٧)] البَرْد ، وتمنى كلُّ جليدِ القُوى على طُول السُّرى أَنْ تُطوى له الأَرض ، وكلَّما رأَى خيالًا(٨)

(١) ط فقط : « بخارى » ، تحريف .

(٢) هذا الصواب من م ، مج . وفي الرسائل : « لاستفرغ وسعه » . وفي ب : « لا استفرغ جهده » . وفي ط « لايستفرغ جهده » ، محرفتان .

(٣) ب ، م : « النحاس » ، تحريف . والنخاس ، بالخاء المعجمة : بائع الدواب ، سمى بذلك لنخسه إياها حتّى تنشط .

(٤) ب : « ولا مدار » ، صوابه في م ، ط .

(٥) في جميع الأصول : « الكلام » ، ولا يستقيم مع مابعده . والصواب من مج والرسائل . والكلال : التعب والإعياء .

(٦) التفسخ : عدم الطاقة وقلة الاحتمال . م فقط : « وتفسح » ، تحريف .

(٧) التكملة من مج والرسائل ، لكن في الرسائل : « وخمد » بالخاء .

(٨) الخيال : مانصب في الأرض ليعلم أنها حمى فلا تقرب . والخيال والخيالة أيضاً : ماتشبه لك في اليقظة أو الحلم من صورة

أو عَلماً استبشَرَ به ، وظن أنّه قد بلغ المنزل ، وإذا بلغه الفارس نزلَ وهو متفحّجٌ (١) ، كأنّه صبيٌّ محقونٌ (٢) ، يئنُّ أنينَ المريض ، ويستريح إلى التثاؤب (٣) ، ويتداوَى مما به بالتمطّى والتضجُّع . وترى التركيَّ فى تلك الحال ، وقد سار ضِعفَ ما ساروا ، وقد أتعبَ مَنكِبَيه كثرةُ النَّزْع (٤) ، يرى بقرب (٥) المنزلِ عَيْراً أو ظَبْياً ، أو عرَضَ له ثعلبٌ أو أرنب ، كيف يركضُ ركضَ مبتدئٍ مستأْنِف ، حتّى كأنَّ الذى سار ذلك السَّير ، وتَعِب ذلك التَّعبَ غيرُه .

وإنْ بلغ النَّاسُ وادياً فازدحموا على مَسلكه أو على قنطرته ، بَطَنَ (٦) بِرذونَه فأَقْحمَه ثم طلع من الجانب الآخَر كأنّه كوكبٌ . وإن انتهَوْا إلى عَقَبةٍ صَعْبة ترك السَّنَن (٧) ، وذهبَ فى الجَبَل صُعُدا ، ثم تدلَّى من موضعٍ يَعجِز عنه الوَعِل ، وأنت تحسَبه مخاطراً بنفْسه ، لِلّذى ترى من مُطَّلعه . ولو كان فى كل ذلك مخاطراً لما دامت له السَّلامةُ ، مع تتابع ذلك منه .

---

(١) متفحج : قد فتح ما بين رجليه ، وذلك من تأثير طول الركوب . ب : « متفحح » م ، ط : « متفجح » بتقديم الجيم على الحاء ، ولا مادة لهذه فى العربية ، وصوابها ماأثبت من مج والرسائل .

(٢) محقون : قد أعطى الدواء بالحقنة . وفى جميع الأصول : « مجنون » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٣) ب : « التناوب » ، م ، ط « التثواب » ، والصواب ما أثبت من مج والرسائل .

(٤) النزع فى القوس : مد وترها ليرمى بسهامها .

(٥) فى جميع الأصول : « لقرب » باللام ، والوجه ما أثبت . وفى مج والرسائل : « قرب المنزل » .

(٦) بطنه بطناً : ضرب بطنه . ب : « فطن » ، بالفاء ، صوابه فى م ، ط ، مج والرسائل .

(٧) السنن ، بالتحريك : نهج الطريق ومحجته . م ، ط : « السير » تحريف .

قال : ويَفخَرُ[١] الخارجىُّ بأنَّه إذا طَلَب أَدركَ ، وإذا طُلِب فات[٢] .

والتركىُّ ليس يُحْوَج إلى أَن يَفُوت ، لأنَّه لا يُطلَب ولا يُرام . ومَن يرومُ مالا يُطمع فيه ؟ !

فهذا دليلٌ على أَنَّا قد علمنا أَنَّ العلَّة التى عمَّت الخوارج بالنَّجدة استواءُ حالاتهم فى أَشدِّ الديانة[٣] ، واعتقادُهم بأَنَّ القتالَ دِين ؛ لأَنَّنا حين وجدْنا السِّجستانىَّ ، والجزَرى[٤] ، واليمانىَّ ، والمغربى ، والعُمانىَّ ، والأَزرَقىَّ منهم والنَّجْدىّ[٥] ، والإِباضىَّ ، والصُّفْرى[٦] ، والمولى والعربىّ ، والعجمىّ والأَعرابىّ ، والعبيدَ والنِّساء ، والحائك والفلَّاح ، كلُّهم يُقاتِل مع اختلافِ الأَنساب ، وتَبايُن البُلدان – علمْنا أَنَّ الدِّيانة هى التى سوَّت بينهم فى ذلك ، كما أَنَّ كلَّ حجَّامٍ فى الأَرض من أَىِّ جنسٍ كان ، ومن أَهلِ أَىِّ بلد كان ، فهو يحبُّ النبيذ . وكما أَنَّ

---

(١) فى جميع الأصول : « ويعجز » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٢) مج والرسائل : « لم يدرك » .

(٣) مج والرسائل : « فى الديانة » .

(٤) ب : « والحزرى » ط : « والخزرى » ، وأثبت ما فى م ومج والرسائل .

(٥) نسبة إلى نجدة بن عامر ، أو ابن عاصم ، الحنفى . ويقال لهم « النجدات » أيضاً . وكان نجدة ممن خرج مع ابن الزبير ثم فارقه هو ونافع الأزرق من الخوارج ، فصار نافع إلى البصرة ونجدة إلى اليمامة ، وذلك فى سنة ٦٤ . الملل والنحل ١ : ١٦٥ والطبرى فى حوادث ٦٤ . ثم صار إلى الطائف ثم إلى البحرين ، ووجه إليه مصعب بن الزبير بخيل بعد خيل فهزمهم ، وظل خمس سنوات هو وعماله بالبحرين واليمامة وعمان وهجر والعرض ، ثم نقم عليه الخوارج فخلعوه بعد أن كان يسمى أمير المؤمنين ، وأقاموا أبا فديك مكانه سنة ٧٣ وقتل نجدة فى تلك السنة . الطبرى والفرق بين الفرق ٦٧ والمواقف ٦٢٩ .

(٦) الصفرية ، بضم الصاد : طائفة من الخوارج ، وهم أصحاب زياد بن الأصفر ، ويقال لهم الزيادية أيضاً . وقولهم كقول الأزارقة فى أن أصحاب الذنوب مشركون ، غير أن الصفرية لا يرون قتل أطفال مخالفيهم ونسائهم ، وهم يرون ذلك . انظر آراءهم فى الملل ١ : ١٨٣ والفرق ٧٠ والسمعانى ٣٥٤ والمواقف ٦٤٠ ومفاتيح العلوم ١٦ والكامل ٦٠٤ . ط : « والصفوى » تحريف .

أَصحاب الخُلقانِ(١) ، والسَّمَّاكين ، والنَّخَّاسين والحاكَةَ ، فى كلِّ بلدٍ ومن كلِّ جنس ، شِرار خلْق الله فى المبايَعَة والمعاملة . فعلْمنا بذلك أَنَّ ذلك خلقةٌ فى هذه الصِّناعات ، وبِنيةٌ فى هذه التِّجارات ، حتَّى صاروا من بين جميع الناس كذلك .

قال : ورأَيناهُ فى بلادِهِ ليس يُقاتل على دين ، ولا على تأْويل ، ولا على مُلْك ولا على خَرَاج ، ولا على عَصبية ، ولا على غَيرةٍ دونَ الحُرْمة ، ولا على حميَّة ولا على عداوة ، ولا على وطنٍ ولا على مَنْع دارٍ(٢) ولا مال ، وإنَّما يقاتل على السَّلْب والخيارُ فى يده . وليس يخاف الوعيدَ إن هرب ، ولا يرجو الوَعْدَ إنْ أَبلى عذراً . وكذلك هم فى بلادهم وغَاراتهم(٣) وحروبهم .

وهو الطالب غير المطلوب ، ومن كان كذلك فإنَّما يأْخذ العفو من قوَّته ، ولا يحتاج إلى مجهوده ، ثم مع ذلك لا يقوم له شىءٌ ، ولا يطمع فيه أَحد ، فما ظنُّك بمن هذه صِفَتُه ، أَنْ لو(٤) اضطرَّه إحراجٌ أَو غَيْرةٌ(٥) ، أَو غضبٌ أَو تديُّن ، أَو عَرَضَ له بعضُ ما يصحب المقاتلَ المحامىَ من العلل والأَسباب .

قال : وقناةُ الخارجىِّ طويلةٌ صمَّاءُ ، وقَناة التركىِّ مِطردٌ أَجوَفُ(٦) . والقَنَا الجُوف القصارُ أَشدُّ طعنةً ، وأَخفُّ مَحمِلا . والعجم تجعل القَنا الطِّوالَ للرَّجَّالة ، وهى قَنا الأَبناءِ(٧) على أَبوابِ الخنادق والمضايق .

(١) يراد بهم من يبيعون الخلقان من الثياب ، جمع خلق ، بالتحريك ، وهو البالى . وانظر الحيوان ٢ : ١٠٥ .

(٢) ب فقط : « ومنع دار » .

(٣) فى الأصول : « وعاداتهم » ، وأثبت ما فى مج والرسائل .

(٤) ب ، م : « أولو » ط : « ولو » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٥) ب ، م : « إخراج أو غيره » ط : « إحراج أو غيره » ، صوابه من مج والرسائل .

(٦) المطرد ، بكسر الميم : رمح قصير .

(٧) ب : « قناء » ، وإنما تجمع القناة على قنوات وقنا وقنى ، الأخيرة على وزن فعول . وفى مج والرسائل : « قنى الأبناء » . والأبناء سبق القول عليهم فى ص ١٦٧ .

والأَبناءِ فى هذا الباب لا يَجرون مع الأَتراك والخراسانية ، لأَنَّ الغالب على الأَبناءِ المطاعنةُ على أَبواب الخنادق ، وفى المضايق ، وهؤلاءِ أَصحاب الخيل والفُرسان ، وعلى أَصحاب الخيل والفرسان يدور أَمر الفروسيَّة(١) . لهم الفَرُّ والكَرّ . والفارس هو الذى يطوى الجيش طىَّ السِّجِلِّ(٢) ، ويفرِقُهم فَرْق الشَّعر(٣) . وليس يكون الكَمين ولا الطَّليعة ولا السَّاقَة إِلَّا الكبارَ منهم(٤) . وهم أَصحاب الأَيَّام المذكورة ، والحروبِ الكِبار ، والفتوح العظام .

٢٤ — فصل منها

والشحُّ على الوطن ، والحنين إليه ، والصَّبابةُ به ، مذكورٌ فى القرآن(٥) ، مخطوط فى الصُّحف بين جميع الناس ، غير أَنَّ التركىَّ للعللِ التى ذكرناها أَشدُّ حنيناً ، وأَكثر نُزُوعاً(٦) .

وباب آخر مما كان يدعوهم إلى الرُّجوع قبل ثَنْى العَزْم(٧) والعادةِ المنقوضة : وذلك أَنَّ التُّركَ قومٌ يشتدُّ عليهم الحَصْر(٨) والجُثوم(٩) ،

(١) ب ، م : « الفروس » ، صوابه فى ط . و فى مج والرسائل : « تدور الجيوش »

(٢) السجل : الصحيفة ، والكتاب الكبير ، والسجل : الكاتب أيضاً أو ملك يطوى كتب بنى آدم إذا رفعت إليه ، وبهما فسرت الآية الكريمة : « يوم نطوى السماء كطى السجل الكتب » فى الآية ١٠٤ من الأنبياء . ب : « على السجل » ، صوابه فى م ، ط ومج والرسائل .

(٣) مج والرسائل : « ويفرقهم تفريق الشعر » .

(٤) فى الرسائل فقط : « وليس يكون الكمين إلا منهم ولا الطليعة ولا الساقة » .

(٥) فى آيات كثيرة فيها ذكر « الديار » . ينظر لها المعجم المفهرس .

(٦) النزوع والنزاع أيضاً : الحنين والاشتياق إلى الأهل والوطن . ب : « نزعا » تحريف . وفى مج : « نزاعا » . وأصل النزاع المغالبة ، يقولون : نازعتنى نفسى إلى هواها أى غالبتنى . كما يقولون نزع إلى أهله ووطنه نزوعاً .

(٧) ب ، م : « عزم الثانى » ، وأثبت مافى ط . وفى مج والرسائل : « قبل العزم الثابت » .

(٨) فى جميع الأصول وكذا فى مج : « الحضر » ، وأثبت مافى الرسائل .

(٩) جثم جثوماً : لزم مكانه فلم يبرحه . وهذه الكلمة ساقطة من ط . وفى ب : « الختوم » وفى م : « الحتوم » ، صوابها من مج والرسائل .

وطُول اللُّبث والمُكث ، وقلَّة التصرُّف والتحرُّك[1] . وأَصلُ بِنيتهم إِنَّما وضع على الحركة ، وليس للسُّكون فيهم نصيب ، وفى قُوى أَرواحهم فضْلٌ على قُوى أَبدانهم ، لأَنهم أَصحابُ توقُّدٍ وحرارة ، واشتعَال وفطنة[2] ، كثيرةٌ خواطرهم ، سريعٌ لحظُهم . وكانوا يرون الكِفاية مَعْجَزةً ، وطُولَ المُقام بُلْدة[3] ، والرَّاحةَ عُقلة[4] والقناعةَ من قِصر الهمّة ، وأَنَّ تَركَ الغزوِ يورث الذِّلَّة .

وقد قالت العرب فى مثلِ ذلك : قال عبد الله بن وهبٍ الرَّاسبىّ[5] : « حبُّ الهُوَينَى يُكسب النَّصَب » .

والعرب تقول : « من غلا دماغُه فى الصَّيف غلَتْ قِدرُه فى الشِّتاءِ » .

وقال أَكثم بن صَيفىّ : « ما أَحبُّ أَنِّى مكفىٌّ كلَّ أَمرِ الدُّنيا » ، قيل : ولم ؟ قال : « أَخاف عادة العَجْز[6] » .

فهذه كانت عِللَ التُّرك فى حبِّ الرُّجوع ، والحنينِ إِلى الوطن .

ومِن أَعظم ما كان يدعوهم إِلى الشُّرود ، ويبعثهم على الرجوع ، ويُكرِّه عندهم المُقام ، ما كانوا فيه من جهلِ قُوّادهم بأَقدارهم ، وقلَّة معرفتهم بأَخطارهم ، وإِغفالِهم موضعَ الردِّ عليهم[7] ، والانتفاعِ

(١) ب ، م : « والتحرق » ط : « والتحرف » ، صوابهما فى مج والرسائل .

(٢) هذا ما فى ط . وفى ب ، م ومج والرسائل : « واشتغال » بالغين المعجمة .

(٣) البلدة بضم الباء وفتحها : ضد الذكاء والنفاذ والمضاء فى الأمور ، ومثلهما البلادة . ط ، ومج والرسائل : « بلادة » .

(٤) عقلة ، بضم العين المهملة : أى تعقل صاحبها وتحبسه عن الانطلاق . ط فقط : «غفلة ».

(٥) الراسى : نسبة إلى راسب بن ميدعان بن مالك بن نصر بن الأزد. وكان عبد الله هذا قد خرج على على فى أربعة آلاف ، وبايعه الخوارج لعشر خلون من شوال سنة ٣٧ وقتل يوم النهروان سنة ٣٨ كما فى الطبرى . وانظر التنبيه والإشراف ٢٥٦ وجمهرة ابن حزم ٣٨٦ .

(٦) م : « عارة العجز » . تحريف . وفى الرسائل : « أخاف العجز » .

(٧) الرد : النفع ، من قولهم : هذا أرد من ذاك ، أى أنفع .

بهم ، ولأنهم حين جعلوهم أُسوَة أجنادهم(١) لم يقنعوا أن يكونوا فى الخاشية والحُشْوة ، وفى غِمارِ العامَّة(٢) ، ومن عُرْض العساكر ، وأنِفوا [من ذلك(٣)] لأنفسهم ، وذكروا ما يجبُ لهم ، ورأوْا أنَّ الضَّيم لا يليق بهم ، وأنَّ الخمولَ لا يجوز عليهم ، وأنَّهم فى المُقام على مَن لم يعرف حقَّهم ألْوَمُ ممَّن مَنَعهم حقَّهم . فلما صادفوا مَلِكاً حكيماً ، وبأقدار النَّاس عليماً ،لا يميل إلى سوءِ عادة ،ولا يَجنَحُ إلى هوًى ، ولا يتعصَّب لبلدٍ على بلد ، يدور مع التَّدبير حَيثُما دار(٤) ، ويقيم مع الحَزْم حيثما أقام — أقاموا إقامة من مُنح الحظَّ(٥) ، ودان بالحقِّ(٦) ، ونَبذ العادة ، وآثر الحقيقة ، ورَحَلَ نفسه لِقَطيعة وطنه(٧) ، وآثر الإمامة على مُلك الجَبَريَّة ، واختار الصَّواب على الإلْف .

ثم اعلمْ بعد ذلك كلِّه أنَّ كلَّ أُمَّة وقرنٍ وجيل وبنى أبٍ وجَدْتَهم قد برَعوا فى الصناعات ، وفَضَلوا النَاسَ فى البيان ، أوْ فاقوهم فى الآداب(٨) أو فى تأْسيس الملك ، أو فى البَصر بالحرب(٩) . فإنَّك لا تجدهم فى الغاية وفى أقصى النهاية ، إلَّا أنْ يكون الله تعالى قد سخَّرهم لذلك المعنى بالأَسباب ، وقَصرهم عليه بالعلل التى تُقابِل تلك

---

(١) وكذا فى مج . وفى الرسائل : « حتى جعلوهم » ، بإسقاط « ولأنهم » .

(٢) الغمار : جمع غمرة ، بالفتح ، وهى الزحمة من الناس والماء ، وفى حديث أويس : « أكون فى غمار الناس » ، أى جمعهم المتكاثف . وفى الأصول : « غمارة العامة » صوابه فى مج والرسائل .

(٣) التكلة من مج والرسائل .

(٤) ط : « مع التدبير مادار » .

(٥) هذا مافى ط . وفى م : « فهم الحظ » ، وفى ب : « فهم الخط » .

(٦) فى جميع الأصول : « ودار بالحق » ، وأثبت مافى مج والرسائل .

(٧) رحل نفسه لكذا ، إذا صبر على أذاه . وفى جميع الأصول : « ووصل نفسه بقطيعة وطنه » ، وأثبت مافى مج والرسائل .

(٨) ب ، م : « وأفاقوهم فى الآداب » ، وفى ط : « وفاقوهم » .وأثبت مافى مج والرسائل .

(٩) فى جميع النسخ : « أو فى النصر بالحرب » ، صوابه فى ج والرسائل .

الأُمور ، وتَصْلُح لتلك المعانى ، لأَنَّ من كان متقسِّم الهوى ، مُشتَرَك الرَّأْى ، متشعِّبَ النَّفْس[١] ، غير موفَّر على ذلك الشىء ، ولا مهيَّأً له ، لم يَحذِق من تلك الأَشياءِ شيئاً بأَسْره ، ولم يبلغ فيه غايته ، كأَهل الصِّينِ فى الصِّناعات ، واليونانيِّين فى الحِكَم والآداب ، والعربِ فيما نحن ذاكروه فى موضعه ، والسَّاسانِ[٢] فى الملك ، والأَتراك فى الحروب .

ألا ترى أنَّ اليونانيِّين الذين نظروا فى العِلَل لم يكونوا تُجَّاراً ولا صُنَّاعاً بأَكفِّهم ، ولا أَصحابَ زرعٍ وفِلاحة ، وبناءٍ وغَرْس ، ولا أَصحاب جمعٍ ومَنْع وكدٍّ[٣] . وكانت الملوك تفرِّغُهم[٤] ، وتُجرِى عليهم كفايتَهم ، فنظَروا حين نَظَروا بأَنفسٍ مجتمعة ، وقوّةٍ وافرة ، وأَذهانٍ فارغة ، حتَّى استخرجوا الآلاتِ والأَدوات ، والملاهىَ التى تكون جَمَاماً للنفس ، وراحةً بعد الكَدِّ ، وسُروراً يداوى قرْحَ المهموم[٥] ، فصنعوا من المرافق ، وصاغُوا من المنافع ، كالقَرِسطُونات[٦] ، والقَبّانات ،

---

(١) الرسائل فقط : « ومتشعب النفس » .

(٢) مج والرسائل : « وآل ساسان » .

(٣) فى مج والرسائل : « ومنع ، وحرص وكد » .

(٤) ب ، ط : « تفزعهم » ، صوابه فى م والرسائل .

(٥) القرح ، بالفتح والضم : الجرح . ب : « فرج المهموم » م : « فرح المهموم ، ط : « فرح الهموم » ، وأثبت ما فى مج . وفى الرسائل : « قرح الهموم » .

(٦) فى النزهة المبهجة لداود الأنطاكى بهامش تذكرة داود ١ : ١٥ : « علم مركز الأثقال مثل القرصطيون ، يعنى القبان » . كما جاء فى كتاب التربيع والتدوير ص ١٣٨ ساسى : « وخبرنى عن القرسطون كيف أخرج أحد رأسيه ثلاثمائة رطل زاد ذلك أم نقص ، ووزن جميعه ثلاثون رطلا زاد ذلك أو نقص » . وانظر الحيوان ١ : ٨١ . ويبدو أنه ضرب من الميزان القبان .

والأَسْطُرلابات[١] ، وآلة الساعات ، وكالكونيا[٢] ، والكسيران[٣] والبِرْكار[٤] ، وكأَصناف المزامير والمعازِف ، والطبِّ[٥] والحساب ، والهندسةِ ، واللحون ، وآلات الحرب ، وكالمجانيق ، والعَرّادات[٦] ، والرّتيلات[٧] ،والدَّبّابات ، وآلة النَّفّاطين ، وغير ذلك مما يطول ذِكره[٨] .

وكانوا أَصحابَ حِكمة ، ولم يكونوا فَعَلةً . يصوِّرون الآلة ، ويَخرِطون الأَداةَ[٩] ، ويَصُوغون المُثُل ولا يحسنون العمل بها[١٠] ، ويشيرون إليها ولا يمسُّونها ، يُرَغِّبون فى التعليم[١١] ، ويَرغَبون عن العمل .

فأَمّا سكّان الصِّين فإنَّهم أَصحاب السَّبْكِ والصِّياغة ، والإِفراغ والإِذابة ، والأَصباغِ العجيبة ، وأَصحابُ الخَرْط والنَّجْر[١٢] والتَّصاوير ،

---

(١) الأسطرلاب أو الأصطرلاب : مقياس النجوم ، هو باليونانية : أصطرلابون . وأصطر هو النجم ، ولابون هو المرآة . وقد يهذى بعض المولعين بالاشتقاقات فى هذا المعنى بمالامعنى له ، وهو أنهم يزعمون أن لاب اسم رجل وأسطر جمع سطر . وهذا اسم يونانى ، اشتقاقه من لسان العرب جهل وسخف . انظر مفاتيح العلوم للخوارزمى ص ١٣٤ والحيوان ١ : ٨١/٢ : ٢٤٢ . وقد وقع صاحب القاموس فى هذا الوهم الذى نبه عليه الخوارزمى فى مادة (لوب) .

(٢) ب ، ط: « وكالكرنيا » وفى م: « والكرنبا » ، وأثبت مافى مج والرسائل .وجاء فى مفاتيح العلوم: « الكونيا » بالواوكما أثبت وقال : « للنجارين يقدرون بها الزاويةالقائمة » .

(٣) كذا فى جميع الأصول . وفى مج : « والكشتوان » ، وفى الرسائل : « وكالشيزان » .

(٤) فى جميع النسخ « والبوكار » ، صوابه فى مج والرسائل . والبركار : آلة هندسية مركبة من ساقين متصلتين ، تثبت إحداهما وتدور حولها الأخرى، ترسم بها الدوائر والأقواس ، وهى فى العامية المصرية « البرجل » ، وفى الفارسية : « بركار » .

(٥) مج والرسائل : « وكالطب » .

(٦) العرادة : منجنيق صغير . والمنجنيق : آلة ترمى بها الحجارة ونحوها فى القتال . وانظر حواشى البيان ٣ : ١٧ . ط : « والقرادات » ،تحريف .

(٧) انظر ما سبق فى حواشى ١ : ٦٩

(٨) ب فقط : « يطيل ذكره » ، تحريف .

(٩) م فقط : « الادات » ، تحريف .

(١٠) فى جميع الأصول : « به » ، صوابه فى الرسائل . وفى مج : « ويصوغون المثال ولا يحسنون العمل به » .

(١١) مج والرسائل : « فى العلم » .

(١٢) مج والرسائل : « والنحت » .

والنَّسج والخَطّ[١] ، ورِفْق الكَفّ فى كلّ شىء يتولَّوْنه ويُعانُونه ، وإن اختلفَ جوهرُه ، وتباينت صنعته ، وتفاوت ثمنه[٢] .

فاليونانيُّون يعرفون العِلل ولا يباشرون العَمَل ، وسُكَّان الصِّين يباشرون العمل ولا يعرفون العِلل ؛ لأنَّ أُولئك حكماءُ ، وهؤلاءِ فَعَلة .

وكذلك العرب لم يكونوا تجّاراً ولا صُنَّاعاً ، ولا أَطبَّاء ولا حُسَّاباً ولا أَصحابَ فلاحة ، فيكونُوا مَهَنة[٣] ، ولا أَصحابَ زرعٍ ، لخوفهم صَغَارَ الجِزْية[٤] . ولم يكونوا أَصحاب جمعٍ وكَسْب ، ولا أَصحابَ احتكارٍ لما فى أَيديهم ، وطلبٍ لما عند غيرهم ، ولا طَلبوا[٥] المعاشَ من أَلسنةِ الموازين ورءُوس المكاييل ، ولا عَرَفوا الدَّوانيق والقراريط ، ولم يفتقروا الفقرَ المُدْقع الذى يَشغَل عن المعرفة ، ولم يستغنوا الغَنَاءَ الذى يورثُ البُلْدة[٦] ، والثَّروة التى تُحدث الغِرَّة[٧] ، ولم يحتملوا ذلاًّ قطُّ فيميت قلوبهم ، ويصغِّر[٨] عندهم أَنفسَهم . وكانوا سُكَّانَ فيافٍ ، وتربية العَرَاءِ ، لايعرفون الغَمَقَ ولا اللَّثَق[٩] ، ولا البُخَار ولا الغِلَظ[١٠] ،

(١) فى الرسائل : « والنسخ والخط » .

(٢) ثمنه ، ساقطة من م .

(٣) فى حديث عائشة : «كان الناس مهنة أنفسهم » ، جمع ماهن ، ككاتب وكتبة ، ويقال مهان أيضاً ككاتب وكتاب .

(٤) الصغار ، بالفتح : الذل والضيم .

(٥) ب : « ولا طلب » .

(٦) الغناء ، بالفتح : ضد الفقر ، وهو الغنى بالكسر والقصر . ب : « الغناء » م : « القناء » ، وجههما ما أثبت من مج . وفى ط ، والرسائل : « الغنى » . والبلدة ، : بضم الباء وفتحها : ضد النفاذ والذكاء والمضاء فى الأمور . وفى ط : « البلادة » وفى مج : « التبليد » .

(٧) ب ، م : « العزة » صوابه فى ط ومج والرسائل . والغرة : الغفلة .

(٨) ب : « أو تصغير » صوابه فى م ، ط . وفى مج : « أو يصغر » ، وفى الرسائل : « ويصغر » .

(٩) الغمق ، بالتحريك : الندى والرطوبة والوخامة . واللثق : الندى مع سكون الريح .

(١٠) فى جميع النسخ : « الغلط » بالطاء المهملة ، صوابه بالظاء المعجمة ، وهو ضد الرقة فى الخلق والطبع والعيش ، والمراد غلظ الهواء .

ولا العَفَن ، ولا التَّخَم[١] . أذهانٌ حديدة[٢] ، ونفوسٌ منكرة . فحين حملوا حدَّهم[٣] ، ووجَّهوا قواهم إلى قول الشعر ، وبلاغة المنطق ، وتشقيق اللغة[٤] ، وتصاريف الكلام ، وقيافَة البَشَر بعد قيافة الأَثَر ، وحفظ النَّسَب ، والاهتداءِ بالنجوم ، والاستدلالِ بالآثار ، وتعرُّفِ الأَنواء[٥] ، والبصَر بالخَيْل والسِّلاح وآلة الحرب ، والحفظِ لكلِّ مسموع ، والاعتبارِ بكلِّ محسوس ، وإحكام شأْن المناقب والمثالب ، بلغوا فى ذلك الغاية ، وحازوا كلَّ أُمنيَّة . وببعض هذه العلل صارت نفوسُهم أَكبر ، وهِممُهم أَرفع ، وهم من جميع الأُمم أَفخر[٦] ، ولأَيَّامهم أَذكَر .

وكذلك الترك ، أَصحاب عَمَدٍ ، وسُكَّان فيافٍ ، وأَرباب مَواشٍ . وهم[٧] أَعرابُ العَجَم ، كما أَنَّ هُذيلًا أَكرادُ العرب ، لم تشغلهم الصِّناعاتُ ولا التجارات ، ولا الطبُّ والفلاحة والهندسة ، ولا غِراسٌ ولا بُنْيانٌ ، ولا شَقُّ أَنهار ، ولا جِبايةُ غَلَّات ، ولم يكن [هَمُّهم غيرَ الغارة والغزْوِ والصَّيد ، وركوب الخيْل ، ومقارعةِ الأَبطال ، وطلبَ الغنائم ، وتدويخ البلاد . وكانت[٨]] هِممُهم إلى ذلك مصروفة ، وكانت لهذه المعانى والأَسبابِ مُسَخَّرةً ، ومقصورةً عليها وموصولةً بها ، أَحكموا ذلك الأَمر بأَسْرِه ، وأَتَوْا على آخره ، وصار ذلك هو صناعتَهم وتجارتَهم ، ولذَّتَهم فى الحربِ وفخرَهم ، وحديثَهم وسَمَرَهم .

فلما كانوا كذلك صارُوا فى الحرب كاليونانيِّين فى الحكمة ،

(١) التخم : الوخم ، وهو الوباء .
(٢) مج والرسائل : « حداد » .
(٣) ب فقط : « أحدهم » ، تحريف .
(٤) ط فقط : « وتثقيف اللغة » ، تحريف .
(٥) ط : « الأنوار » ، تحريف .
(٦) وكذا فى مج ، لكن فى الرسائل : « وهمهم أرفع من جميع الأمم وأفخر » .
(٧) ب : « والترك » . (٨) التكملة من م ، ط ، مج والرسائل .

وأهل[١] الصِّينِ فى الصناعات ، والأَعرابِ فيما عددنا ونزَّلنا[٢] ، وكالسَّاسان[٣] فى الملك والسياسة .

ومِمَّا يُستدَلُّ به على أَنَّهم قد استقصَوْا هذا البابَ واستفرغوه ، وبلغوا أَقصى غايته وتعرَّفوه ، أَنَّ السَّيف إلى أَن يتقلَّده متقلِّد ، أَو يضرب به ضارب[٤] ، قد مرَّ على أَيدٍ كثيرة ، وعلى طبقاتٍ من الصُّنَّاعِ ، كلٌّ واحدٍ منهم لا يعمل عملَ صاحبِه ولا يُحسنه ، ولا يدَّعيه ولا يتكلَّفه ؛ لأَنَّ الذى يُذيب حديد السَّيف ويُمِيعه ويصفِّيه ويُهذِّبه ، غيرُ الذى يمدُّه ويَمْطُله[٥] ، والذى يمدُّه ويمطله[٦] غير الذى يَطبعه ويسوِّى متنَه ، ويقيم خَشِيبته[٧] ، والذى يَطْبعه ويسوِّى متنَه غير[٨] الذى يَسقيه ويُرهِفه ، والذى يسقيه ويُرهفه ، غير الذى يركِّب قبيعتَه ، ويَستوثِقُ من سِيلانه[٩] ، والذى يَعمل مسامير السِّيلانِ ، وشاربَىِ القبيعة[١٠] ونَعْلَ السَّيف[١١] غير الذى ينحت خشب غِمْده . والذى ينحت خَشب غِمده غيرُ الذى يدبغُ جِلده ، والذى يدبغ جلدَه غير الذى يحلِّيه ، والذى يحلِّيه ويركِّب نصله غير الذى يَخْرِز حمائله .

---

(١) ب فقط : « وأصل » ، تحريف .

(٢) ب ، م : « ونولنا » ط : « ونوعنا » ، صوابهما فى مج والرسائل .

(٣) مج والرسائل : « وكآل ساسان » .

(٤) فى جميع النسخ : « ويضرب به ضارب » ، صوابه فى مج والرسائل .

(٥) المطل : المد والبسط . ط : « ويعطه ؟» .

(٦) ط : « ويعطه » .

(٧) يقال سيف مشقوق الخشيبة : عرض حين طبع . ب فقط : « خشابته » .

(٨) ب ، م : « سوى » .

(٩) السيلان ، بالكسر : سنخ قائم السيف ، أى أصل مقبضه .

(١٠) القبيعة : ما على مقبض السيف من فضة أو حديد . والشاربان : أنفان طويلان فى أصل مقبض السيف . وفى ب : « وشادى القبيعة » وفى م ، ط : « وشاذى القبيعة » .

(١١) نعل السيف : الحديدة التى تكون فى أسفل جفنه من حديدة أو فضة ، وفى الحديث : « كان نعل سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم من فضة » . مج والرسائل : « ونصل السيف » .

وكذلك السَّرجُ ، وحالات السَّهم والجَعْبة والرُّمح ، وجميع السلاح مما هو جارحٌ[(١)] أو جُنَّة .

والتُّركيُّ يعمل هذا كلَّه بنفسه ، من ابتدائه إلى غايته ، ولا يستعينُ برفيقٍ ، ولا يَفزَع إلى رأى صديق ، ولا يختلف إلى صائغ ، ولا يَشْغَل قلبه بمِطاله وتسويفه[(٢)] ، وأكاذيبِ مواعيده ،وبغُرْم كِرائِه[(٣)] .

وليس فى الأَرض كلُّ تركيّ كما وصَفْنا ، كما أنَّه ليس كلُّ يونانيٌّ حكيماً ، ولا كلُّ صينيٌّ حاذقاً ، ولا كلُّ أعرابيٌّ شاعراً فائقاً[(٤)] ، ولكنَّ هذه الأُمورَ فى هؤلاءِ أعمُّ وأَتمُّ ، وفيهم أظهر وأكثر .

قد قلنا فى السَّبب الذى تكاملَتْ به النَّجدةُ والفروسيَّةُ فى التُّركِ دونَ جميع الأُمم ، وفى العلل[(٥)] التى من أَجلها نظموا جميعَ معانى الحرب ، وهى معانٍ تشتمل على مذاهبَ غريبةٍ ، وخصالٍ عجيبة ،فمنها مَا يُقْضَى[(٦)] لأَهله بالكرم ، وببُعد الهمّةِ ، وطلب الغاية . ومنها ما يدلُّ على الأَدب السَّديد[(٧)] ، والرّأى الأَصيل ، والفِطنة الثَّاقبة ، والبصيرة النافذة .

أَلَا ترى أنَّه ليس بدٌّ لصاحب الحرب من الحلم والعلم ، والحَزْم والعزم ، والصَّبر والكِتمان ، ومن الثَّقافة وقِلَّة الغَفْلة ، وكثرة التَّجرِبة ؟ ولا بدَّ من البصَر بالخيلِ والسِّلاح[(٨)] ، والخبرةِ بالرِّجال والبلاد ،

---

(١) م ، ط : « خارج » ، صوابه فى ب ، ومج والرسائل .

(٢) م ، ط : «بمطله وتسويفه» . والمطل والمطال : التسويف وتأجيل موعد الوفاء بالشىء .

(٣) هذا الصواب من مج والرسائل . وفى ب : « وبعزم كرائه » ، وفى م : « وبغزم كرائه » وفى ط : « ويغرم كراءه » .

(٤) مج والرسائل : « قائفاً » . القائف : الذى يتتبع الآثار ويعرفها ، ويعرف شبه الرجل بأخيه وأبيه . وأثبت مافى سائر النسخ

(٥) كذا فى مج والرسائل . وفى جميع النسخ : « فى العلل » بسقوط الواو .

(٦) فى الأصول : « يفضى » بالفاء ، وأثبت مافى مج والرسائل .

(٧) كذا فى مج والرسائل . وفى ب: « الأرب الشديد » ، وفى م ، ط : « الأدب الشديد » .

(٨) ب : « فى الخيل والسلاح » ، وفى مج : « من البصر فى الخيول والسلاح » .

والعلم بالمكان والزّمان والمكايد ، وبما فيه صلاحُ الأُمورِ كلِّها[(١)] .

والمُلْك يَحتاج إلى أواخٍ شِداد ، وأَسبابٍ مِتان ، ومن أَمتنها سبباً ، وأَعمِّها نفعاً ، ما ثبَّته فى نصابه[(٢)] ، وسَكَّنه فى قراره ، وزاده فى تمكينه وبهائه ، وقطعَ أَسبابَ المطمعة فيه ، ومنع أَيدىَ البُغاة من الإشارة إليه ، فضلًا عن البسط عليه .

قد قلنا فى مناقب جميع الأَصنافِ بجُمَلٍ ما انتهى إلينا ، وبَلغَه علمُنا ، فإنْ وقَع بالموافقة فبتوفيقٍ من الله تعالى وصُنْعِهِ ، عزَّ ذكره . وإنْ قصَّر دون ذلك فالذى قصَّر بنا[(٣)] نُقصانُ علمنا ، وقلَّةُ حفظنا ، وأَسماعنا[(٤)] . فأَمّا حُسْن [النيَّة[(٥)]] ، والذى[(٦)] نضمر من المحبَّة والاجتهادِ فى القُربة ، فإنَّا لا نرجع فى ذلك إلى أَنفسنا بلائمةٍ . وبين التقصير من جِهَة العجز وضَعْف القوّة[(٧)] فرق .

ولو كان هذا الكتاب من كُتب المناقضات ، وكُتب المسائل والجوابات ، وكان كلٌّ صنف من هذه الأَصناف يريد الاستقصاءَ على صاحبه ، ويكون غايتُه إظهارَ نفسه وإن لم يصل إلى ذلك إلَّا بإظهار نَقْص أَخيه ووليِّه ، لكان كتابُنا كبيراً ، كثير الورق عظيماً . ولكنَّ القليل الذى يَجْمع ، خيرٌ من الكثير الذى يفرِّق.

ونحن نعوذ بالله من هذا المذهب ، ونسأَله العون والتسديد ، إنَّه سميعٌ قريب ، فعَّالٌ لما يريد .

(١) فى الرسائل : « صلاح هذه الأمور كلها » .
(٢) ب : « مابثته فى نصابه » م : « ماتثبته » فقط ، صوابهما فى ط ، مج والرسائل .
(٣) ب ، م : « فما الذى قصر بنا » ، صوابه فى ط ومج والرسائل .
(٤) مج والرسائل : « وسمعنا » .
(٥) التكملة من مج والرسائل . وفى م : « وأما حسن » فقط . وفى ط : « وربماحسنه » .
(٦) ط : « الذى » بطرح الواو .
(٧) مج والرسائل : « وضعف العزم » .

٨

من كتابه في

حُجَج النُّبُوَّة

٢٥ ـ فصل(١) من صدر كتابه

فى حجج النبوة

الحمد لله الذى عرَّفنا نفسَه ، وعلَّمنا دينَه ، وجَعَلنا من الدُّعاةِ إليه ، والمحتجِّين له . فنحن نسأله تمامَ النِّعمة ، والعونَ على أداءِ شُكره ، وأنْ يوفِّقنا للحقِّ برحمته ، إنَّه ولىُّ ذلك ، والقادرُ عليه ، والمرغوب إليه فيه ، وصلى الله على محمد وآله وسلم .

ثم إنَّا قائلون فى الأَخبار ، ومخبرون عنِ الآثار ، ومفرِّقون بين أَسباب الشُّبهة ، وأَسباب الحُجَّة ، ثمَّ مفرِّقون بين الحجَّة التى تَلزم الخاصَّةَ دون العامَّة ، ومُخبرون عن الضَّرب الذى يكونُ الخاصَّةُ فيه حجَّةً على العامَّة ، وعن الموضع الذى يكون القليلُ فيه أَحقَّ بالحجة من الكثير ، ولِمَ شاعَ الخبرُ وأَصلُه ضعيف ؟ ولِمَ خَفِىَ وأَصلُه قوىّ ؟ وما الذى يُؤمَن من فساده وتبديله مع تقادُم عصره ، وكثْرة الطاعنين فيه(٢) ، وعن الحاجة إلى رواية الآثار ، وإلى سماع الأَخبار ، وعن أَخلاقِ النَّاس وآبائهم ، ومذاهب أَسلافهم ، وعن سِيَرَ الملوك قبلهم(٣) ، وما صنعت الأَيَّامُ بهم ، وعن شرائع أَنبيائهم ، وأَعلام رسلهم ، وعن أَدب حكمائهم ، وأَقاويل أَئمَّتهم وفُقَهائهم ، وعن حالاتِ من غاب عن أَبصارهم فى دهرهم ، ولِمَ كان الإِخبار على النَّاس(٤) أَخفَّ من الكتمان ؟ ولِمَ

---

(١) ب فقط : « فصل منها » .
(٢) كلمة « فيه » من ط فقط .
(٣) ب : « وعن سر الملوك قبلهم » ، تحريف .
(٤) ب ، م : « عن الناس » .

كان الصَّمتُ أَثقلَ عليهم من الكلام ؟ وما الضَّربُ الذى يَقدِرون على كتمانه وطيِّه ، والضَّربُ الذى لا يقدرون إلَّا على إذاعته ونَشْره ؟ ولِم اجتمعت الأُمم على الصِّدق فى أُمور ، واختلفت فى غيرها ؟ ولم حَفِظَتْ أُموراً ونسيتْ سواها ؟ ولم كان الصِّدق أَكثر من الكذب ؟ ولم كان الصَّمتُ أَثقل والقول أَفضل ؟

والعجب مِن تركِ الفُقهاءِ تمييزَ الآثار ، وتَرْكِ المتكلِّمين القولَ فى تصحيح الأَخبار ، وبالأَخبار يعرِفُ النَّاسُ النبيَّ من المتنبِّى[١] ، والصَّادقَ من الكاذب ، وبها يعرفون الشَّريعة من السُّنَّة ، والفريضَة من النافلة ، والحَظْر من الإِباحة ، والاجتماع من الفُرقة ، والشُّذوذ من الاستفاضة[٢] ، والرَّدَّ من المعارضة ، والنَّارَ من الجنَّة ، وعامَّةَ المفسَدةِ من المصْلحة[٣] .

فإذا نزَّلْتُ الأَخبارَ منازلَها وقسَّمتُها ، ذكرتُ حجج الرسول صلى الله عليه وسلم ، ودلائلَه وشرائعَه وسُنَنَه ، ثم جنَّست الآثارَ على أَقدارها ، ورتَّبتُها فى مراتبها ، وقرَّبتُ ذلك واختصرتُه ، وأَوضحتُ عنه وبيَّنتُه ، حتَّى يستوىَ فى معرفتها مَنْ قلَّ سماعُه وساءَ حِفظُه ، ومَن كثُر سماعه وجاد حِفظه ، بالوجوهِ الجليلة ، والأَدلَّة الاضطراريّة .

ولم أُرِدْ فى هذا الكتابِ جمعَ حُجج الرَّسول عليه السلام ، وتَفْصيلَها والقولَ فيها ، لنقضٍ مَسَّها[٤] ، أَو لوَهْن كان فى أَصلها من ناقليها

---

(١) ب : «المتنبئ» بالهمز .
(٢) م فقط : « الإفاضة » .
(٣) م ، ط : « والمصلحة » .
(٤) ب : « لبغض سببها » ط : « لبغض مسها » م : « لبعض مسها » ، والوجه ما أثبت .

والمخبرِينَ عنها ، أو لأَنَّ طعْنَ الملحِدين نَهَكها وفرَّق جَماعتَها ، ونَقَضَ قُواها . ولكنْ لأُمورٍ سأَذكرها وأَحتجّ .

وكيف تقصُر الحُجّة عن بُلوغ الغاية ، وتنقُص عن التمام[1] ، والله تعالى المتوكِّل بها ، ومُسخِّر أَصنافِ البريَّة ومهيِّج النُّفوسِ على إبلاغها[2] ، وقد أَخبر بذلك عن نَفْسه فى محكم كتابه عَزَّ ذكرُه[3] ، حين قال : ﴿ هو الذى أَرسَلَ رَسُولَه بِالهُدَى ودِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَه على الدِّينِ كُلِّه ولو كَرِه المُشْرِكون[4] ﴾ . وأَدنى منازل الإظهار إظهار الحجَّة على من ضارَّه وخالف عليه .

وقال عزّ ذكره : ﴿ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْواهِهِمْ واللهُ مُتِمُّ نُورِهِ ولو كَرِهَ الكافرون[5] ﴾ .

وأَخْبَرَ أَنَّه أَمَرَ الأَحمر والأَسود ، ولم يكُنْ ليأْمر الأَقصى إلَّا كما يأْمر الأَدنَى[6] ويأْمر الغائب على الحاضر[7] ، قال الله تعالى لنبيه عليه السلام : ﴿ وما أَرسَلْناك إلَّا كافَّةً للنَّاسِ بشيراً ونَذِيراً[8] ﴾ .

فأَقول : إنَّ كلَّ مُطيقٍ محجوج[9] ، والحُجَّة حُجَّتان : عِيانٌ ظاهر ،

---

(١) ب : « وينقص عن التمام » ، والوجه ما فى م ، ط .

(٢) ب ، م : « عن إبلاغها » .

(٣) ب : « عن ذكره » ، تحريف .

(٤) الآية : ٣٣ من سورة التوبة . وفى الكتاب العزيز أيضاً : « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً » . الآية ٢٨ من سورة الفتح .

(٥) الآية ٨ من سورة الصف .

(٦) كلمة « إلا » ليست فى جميع النسخ ، كما أن كلمة : « يكن » ساقطة من ب .

(٧) كذا فى الأصول ، والوجه : « إلا كما يأمر الحاضر » .

(٨) الآية ٢٨ من سورة سبأ .

(٩) المطيق : القادر ، والمراد المكلف . وفى ط : « منطيق » . والمنطيق : البليغ ، ولاوجه له هنا .

وخَبَرٌ قاهر. فإذا تكلَّمنا فى العِيان وما يفرَّع منه[١] فلا بدَّ من التعارف فى أَصله وفرعِه منه . ولا بدَّ من التَّصادُق فى أَصله ، والتَّعارُف فى فرعه . فالعقلُ هو المستدِلّ ، والعِيان والخبر هما عِلَّة الاستدلالِ وأَصلُه ، ومُحالٌ كونُ الفرع مع عدمِ الأَصل ، وكونُ الاستدلال[٢] مع عدم الدَّليل . والعَقْل مضمَّن بالدَّليل ، والدَّليل مضمَّن بالعَقْل ، ولا بدَّ لكلٍّ واحدٍ منهما من صاحبه[٣] ، وليس لإِبطال أَحدهما وجهٌ مع إِيجاب الآخر .

والعقل نوعٌ واحد ، والدَّليل نوعان : أَحدهما شاهِدُ عِيانٍ يدلُّ على غائب ، والآخر مجىءُ خبرٍ يدلُّ على صدق .

ثم رجعَ الكلام إلى الإخبار عن دلائل النبى صلى الله عليه وسلم وأَعلامه ، والاحتجاج لشواهده وبُرهانِه ، فأَقول :

إنَّ السلف الذين جمعوا القرآنَ[٤] فى المصاحف بعدَ أَنْ كان متفرقاً فى الصُّدور ، والذين جَمعُوا النَّاسَ على قراءَة زيدٍ ، بعد أَن كان غيرُها[٥] مُطلَقاً غيرَ محظورٍ ، والذين حَصَّنوه ومَنعوه الزِّيادةَ والنقصان لو كانوا جمعوا علاماتِ النبى صلى الله عليه وسلم ، وبُرهانَه ، ودلائلَه وآياتِه وصنُوفَ بدائعه ، وأَنواعَ عجائبِه فى مُقَامِهِ وظعنه[٦] ، وعند دعائه واحتجاجِه فى الجَمْع العظيمِ ، وبحضرة العددِ الكثير الذى

(١) ب : « وما يفرغ » ، تحريف .
(٢) ب ، م : « ويكون » ، صوابه فى ط .
(٣) ط فقط : « من صاحب » .
(٤) ب فقط : « جعلوا القرآن » .
(٥) أى غير قراءة زيد .
(٦) الظعن ، بالفتح والتحريك : السير والارتحال . ب فقط : « وطعنه » بالطاء المهملة ، تحريف .

لا يستطيعُ الشَّكَّ فى خبرِهم إلَّا الغبىُّ الجاهلِ ، والعدوُّ المائِل ، لما استطاعَ اليومَ أَن يدفع كَوْنَها وصحَّةَ مَجيئها[١] ، لا زنديقٌ جاحدٌ ، ولا دُهرىٌّ معانِد ، ولا متطرِّفٌ ماجن ، ولا ضعيفٌ مخدوع ، ولا حَدَثٌ مَغْرور ؛ ولكان مشهوراً فى عوامِّنا كشهرته فى خواصِّنا ، ولكان استبصارُ جميعِ أَعياننا فى حقِّهم كاستبصارهم فى باطلِ نَصاراهم ومَجوسهم ، ولما وجَد الملحِدُ مَوضِعَ طمعٍ فى غنىٍّ يستميله[٢] ، وفى حَدَث يموِّه له[٣] .

ولولا كثرةُ ضُعفائنا مع كثرة الدُّخلاءِ فينا ، الذين نَطَقوا بأَلسنتنا ، واستعانُوا بعقولنا على أَغبيائنا وأَغمارنا ، لما تكلَّفنا كَشْفَ الظَّاهر ، وإظهارَ البارز ، والاحتجاجَ الواضح .

إلَّا أَنَّ الذى دعا سلفَنا إلى ذلك ، الاتِّكالُ على ظهورها واستفاضةِ أَمرها .

وإذ كان[٤] ذلك كذلك فلم يُؤْتَ من أُتِىَ من جُهَّالنا وأَحداثنا ، وسفهائنا وخُلعائنا[٥] إلَّا من قِبَلِ ضعف العِناية ، وقلَّة المبالاة ، ومن قِبَلِ الحداثة والغَرارة ، ومن قبلِ أَنَّهم حملوا على عقولهم من دقيق الكلام قبلَ العلم بجليله ما لم تبلغْه قُواهم ، وتتَّسعْ له صدورهم ، وتحملْه أَقدارُهم ، فذهبوا عن الحقِّ[٦] يميناً وشِمالًا ، لأَنَّ مَن لم يَلزم الجادَّةَ تخبَّطَ ، ومَنْ تناول الفَرعَ قبل إحكام الأَصل سَقَط ، ومن خَرَق بنفسه

---

(١) ب : « وصحة بجيها » ، صوابه فى م ، ط .

(٢) فى جميع الأصول : « يستمليه » . واستملاه الكتاب : سأله أن يمليه عليه . ولا وجه له هنا .

(٣) م ، ط : « يموه له » .

(٤) ب ، م : « وإن كان » ، وأثبت ما فى ط .

(٥) الخليع : المستهتر بالشرب واللهو ، وأصله الشاطر الخبيث الذى خلعته عشيرته وتبرءوا منه . ط : « وخلفائنا » ، تحريف .

(٦) ط فقط : « عن الحمق » ، محرف .

وكلَّفها فوق طاقتها(١) ، ولم ينَلْ مالا يقدر عليه تفلَّتَ منه ما كان يقدر عليه(٢) .

فإذا كانوا كذلك فإنَّما أُتوا من قِبَلِ أنفسهم ، ولم يُؤتَوْا من سَلفهم ، أَو لأَنَّ الله تبارك وتعالى صَرف أَسلافنَا بنسيانٍ أَو غيره ليمتحن بذلك غَيرَهم فى آخر الزَّمان ، وليعرِّضَهُم لطاعته بالذبِّ عن دينه ، والاحتجاج لنبيه صلى الله عليه وسلم ، وليجرىَ هذا الخيْرَ على أَيديهم ، كما أَجرى أَكثَرَ منه على أَيدى أَسلافهم ، لئلَّا يُبخَس أَحدُ خليقته(٣) من العُلماءِ والفقهاءِ ، ولأَن يَجعَلَ فضلَه مقسَّمًا بين جميع الأَولياءِ ، وإن كان الأَوَّل أَحقَّ بالتقديم ، والآخِرُ أَحقَّ بالتأْخير ، لِلذى(٤) قدَّموا من الاحتمال ، وأَعطَوْا من المجهود ، ولأَنَّهم أَصلُ هذا الأَمرِ ونحنُ فرعُه ، والأَصل أَحقُّ بالقوَّة من الفرع . وهم السابقون ونحن التابعون ، وهم الذين وطَّئوا لنا ، وكلَّفونا ما لم نكن لنكلِّفَه أَنفُسَنا ، فتجرَّعوا دُوننا المُرَار(٥) ، ومَنحونا رُوحَ الكفاية . ولأَنَّ الله تعالى اختارهم لصحبة نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، ولأَن القرآنَ نَطَق بفضيلتهم ؛ والله تعالى أَعلَمُ بمن بعدهم ، والذى جَمَعَ أَسلافَنا(٦) الذين جمعوا النَّاسَ على قراءَة زيد ، دون أُبىٍّ بن كعبٍ وعبدِ الله بن مسعود ، والذين رأَوْا من قول عبد الله فى المعوِّذتين(٧) ، وقول أُبىٍّ فى سورتى الحَفْد والخَلْع(٨) .

---

(١) ب ، م : « طاقته » .
(٢) عليه ، ساقطة من ب .
(٣) ب ، م : « لئلايبخس من أحد خليقته » .
(٤) ب ، م : « للذين » ، تحريف .
(٥) المرار ، بالضم : شجر مر .
(٦) أى والله تعالى هو الذى جمع الأسلاف .
(٧) انظر فى ذلك البرهان ١ : ٢٥١ والإتقان ١ : ١٨٤ . وانظر لتعليل عدم كتابته للمعوذتين ولأم الكتاب فى مصحفه ، مقدمه كتاب المبانى نشرة آرثر جفرى ص ، ٩٣ ، ٩٦ — ٩٧.
(٨) هذا التصويب من الإتقان للسيوطى ١ : ١٨٤ . وفى جميع الأصول =

ومِنْ تعلُّق الناسِ بالاختلاف ، فكانوا لا يزالون قد رأَوْا الرّجلَ يروى الحرفَ الشاذَّ ، ويقرأ بالحرف الذى لا يعرفونه ، فرأَوْا أَنَّ تحصينَه لا يتمّ إلَّا بحمل الناس على المقروءِ عندهم[1] ، المشهورِ فيما بينهم ، وأَنَّهم إن لم يشدِّدوا فى ذلك لم ينقطع الطمع ، ولم ينزجر الطير[2] ، لأَنَّ رجلًا من العرب لو قرأَ على رجلٍ من خطبائهم وبُلغائهم سورةً واحدة ، طويلة أَو قصيرة ، لتبيَّن له فى نظامها ومَخرجها ،وفى لفظها وطَبْعها ، أَنَّه عاجزٌ عن مثلها . ولو تحــدَّى بها أَبلغَ العربِ لظهر عجزُه عنها . وليس ذلك[3] فى الحرف والحرفين ، والكلمة والكلمتين .

أَلا ترى أَنَّ الناسَ قد كان يتهيَّأُ فى طبائعهم ، ويَجرِى على أَلسنتهم أَن يقول رجلٌ منهم : الحمد لله ، وإنَّا لله ، وعلى الله توكَّلْنا ، وربُّنَا الله ، وحَسْبُنا اللهُ ونعم الوكيل ، وهذا كلُّه فى القرآن ، غير أَنَّه متفرِّق غير مجتمع ؛ ولو أَراد أَنطَقُ النَّاسِ أَن يؤلِّف من هذا الضَّرب سورةً واحدة ، طويلةً أَو قصيرة ، على نَظْم القرآن وطَبْعه ، وتـأْليفه ومخرجه لما قَدَر عليه ، ولو استعان بجميع قَحْطان ومَعدِّ بنِ عدنان .

ورَأَوا[4] بفهمهم وبتوفيقِ الله تعالى لهم أَن يحصِّنوه ممَّا يشكلُ ، ويمكنُ أَنْ يُفتَعَل مثلُه من الحرف والحرفين ، والكلمة والكلمتين ،

= : « سورتى العرب » ووجهه ما أثبت من الإتقان . وانظر النصوص فيه . وجاء فى كتاب مقدمتان فى علوم القرآن ص ٧٥ : « وأما ما ذكر عن أبى بن كعب أنه عد دعاء القنوت : «اللهم إنا نستعينك» إلى آخره ، سورة من القرآن ، فإنه إن صح ذلك عنه فإنه كتبها فى مصحفه لا على أنها من القرآن ، بل ليحفظها ولا ينساها احتياطاً ، لأنه سمع النبى صلى الله عليه وسلم كان يقنت بها فى صلاة الوتر » .

(١) ب : « المكروه عندهم » م : « المكروه » فقط ، صوابهما فى ط .
(٢) م فقط : « الطين » .
(٣) ذلك ، ساقطة من ب ، م .
(٤) ب فقط : « فرأوا » .

وقد كانوا عرفوا الابتداعَ الكثير(١) على البلغاء والشُّعراء ، وخافوا إنْ هم لم يتقدَّموا فى ذلك أنْ يتطرَّفُوا عليه ، كما تطرّفُوا على الرواية(٢) ، لأنَّهم حين رأَوْا كثرةَ الرِّواية فى غير ذوِى السابقة ، ورأَوا كثرةَ اختلافها ، والغرائبَ التى لا يعرفونها ، لم يكن لهم إلَّا تحصينُ الشىء الذى عليه مدارُ الأَمر ، وإن كانوا يعلمون أَنَّ الله بالغُ أَمرِه .

فعلَى الأَئمَّة أَن تَحُوط هذه الأُمَّة ، كما حاط(٣) السّلفُ أَوّلها ، وأن يعملوا(٤) بظاهر الحيطة ، إذْ كان على الناسِ الاجتهاد(٥) ، وليس عليهم عِلم الغُيوب . وإنَّما ذلك كنحوِ رجُلٍ أَبصر نبيًّا يُحيِى الموتَى فعَرفَ صِدقَه ، فلمَّا انصرفَ سأَله عنه بعضُ من لم يَرَ ذلك ولا صَحَّ عنده ، فعليه أَن لا يكتُمه ، وإن كان يعلم أَنَّ الله تعالى سيُعْلِمه ذلك من قِبَلِ غيره ، وأَنَّه عزّ ذكرهُ سيُسمِعُه صِحَّته على حُبِّه وكرهه .

ورأَوْا أَنَّ قراءةَ زيدٍ أَحقُّ بذلك ، إذْ كانت آخر العَرْض ، ولأَنَّ الْجمْعَ الذين سمِعُوا آخر العرض أَكثَرُ ممَّن سمع أَوّلَه ، فَحملُوا النَّاسَ على قراءة زيد ، دونَ أُبىٍّ وعبدِ الله ، وإنْ كان الكلُّ حَقًّا ، إذ كان رُبَّ حقٍّ فى بعض الزَّمان أَقطعُ للقيل والقال ، وأَجدرُ أَن يُميتَ الخلاف ، ويحسمَ الطمع . فتركوا حقًّا إلى حقٍّ العملُ به أَحَقّ .

ولو أَنَّ فقيهاً رأَى إطباقَ العلماء على صومِ يوم عَرَفة ، واستنكارَهُم الإفطارَ فيه ، فأَفطرَ وأَظهرَ ذلك ليُعلمهم موضعَ الفريضةِ من النافلة ،

---

(١) ب : « امتناع الكثير » ، م : « المبتاع الكثير » وأثبت ما فى ط .

(٢) المتطرف : الذى لا يثبت على أمر . وفى الأصول : « أن يتطرقوا عليه كما تطرقوا على الرواية » ، مع سقوط « على الرواية » من م . والصواب ما أثبت .

(٣) ب ، م : « أحاط » .

(٤) ب ، م : « وأن يعمل » ، صوابه فى ط .

(٥) ب ، م : « إذا كان » . وكلمة « على » ساقطة من ب .

أو خاف أن يَلحق الفرضَ على تطاوُل الأيَّام ما ليس فيه – كان مصيباً ، ولكان قد ترك حقًّا إلى أحقَّ منه .

وللحقِّ درجاتٌ ، وللخلاف درجاتٌ ، وللحرام درجات . ألا ترى أنَّ لوليِّ المقتول أن يَقتُلَ ويصفح ، وأنَّه إنْ قَتلَ قتلَ بحقٍّ ، وإنْ صفَح صفح بحقٍّ ، والصَّفح أفضَلُ من القتل .

ولو أنَّ رجلًا أخرج ساكناً بيتاً له[١] ، أو اقتضى ديناً له ساعة مَحَلِّه[٢] ، أو طلَّق زوجته وما دَخَل بها[٣] – لكان ذلك له ، ولحقٍّ فعل[٤] . وغير ذلك الحقِّ أولى به .

وكيف لا يكون أولى به وهو أحسن ، والثَّواب فيه أعظم ، وإلى سلامة الصُّدور أقرب .

وقد يكون الأمرانِ حسنَينِ ، وأحدُهما أحسن . وقد يكون الأمران قبيحين ، وأحدهما أقبح .

وبعدُ ، فعلى الناس طاعةُ الأئمَّة فى كلِّ ما أَمَرُوا به ، إلَّا فيما تبيَّن أنَّه معصية . فأمَّا غير ذلك فإنَّه واجبٌ مفروض ، ولازم غير مرفوع .

وعَلِمُوا أيضاً أنَّهم لا يبقَوْن إلى آخر الزمان ، وأنَّ مَنْ يجيءُ بعدَهم لا يقوم مَقامهم ، ولا يُفصِّل الأُمور تفصيلهم . ولو عَرَفوا كمعرفتهم وأرادوا ذلك كإرادتهم ، لما أُطيعوا كطاعتهم .

وعلموا أنَّ الأكاذيبَ والبِدعَ ستكثُر ، وأنَّ الفِتَن ستُفْتَح ، وأنَّ

---

(١) بيتا ، ساقطة من ب ، م .
(٢) ب ، م : « واقتضى » . ومحل الدين : وقت حلول أدائه . وفى ط : « عند حلول أجله »
(٣) ب ، م : « ولما دخل بها » ووجه هذه : « ولما يدخل بها » .
(٤) ب ، م : « ولحق فعله »

الفساد سيَفشو ، فكرهوا أَنْ يجعلوا للمتطرِّفين علَّة[١] ، ولأهل الزَّيغ حُجَّة .

بل لا شَكَّ[٢] أَنَّهم لو تركوا الناس عامّةً يقرءُون على حرفِ فلانٍ وكلّ ما أَجاز فيه فلانٌ عن فلان ،لأَلحق قومٌ فى آخر الزَّمان بهم ما ليس منهم ، ولا يَجرى مجراهم ، ولا يَجوز مَجازَهم .

٢٦ — فصل منه فى الاحتجاج للجمع على قراءة زيد

ولو كان زيدٌ من آل أَبى العاص ، أَو من عُرْض بنى أُميّة ، لوجد ابنُ مسعودٍ متعلَّقاً .

ولو كان بدلَ زيدٍ عبدُ الرحمن بن عوف لوَجَد إلى القول سبيلًا .

ولو كان ابن مسعودٍ رجلًا من بنى هاشم لوجدَ للطَّعن موضعاً .

ولو كان عثمان رضى الله تعالى عنه استبدَّ بذلك الرأى على علىٍّ بن أبى طالب كرَّم الله وجهه ، وسعدٍ وطلحةَ والزُّبير رحمهم الله ، وجميعِ المهاجرين والأَنصار ، لوَجَد للتُّهمة مساغاً .

فأَمَّا والأَمرُ كما وصفنا ونَزَّلنا ، فما الطاعن على عثمان إلَّا رجلٌ أَخطأَ خُطَّةَ الحقِّ[٣] ، وعَجِلَ على صاحبه . ولكلٍّ بنى آدمَ من الخطأ نصيب ، والله عز ذكره يغفر له ويرحمه .

---

(١) فى جميع الأصول : « للمتطرقين » . وانظر ماسبق فى حواشى ٢٣٠ .

(٢) ب : « بل شك » ، صوابه فى م ، ط .

(٣) ب ، م : « أخطأ خطه » مع سقوط كلمة « الحق » ، والصواب فى ط .

والذى يخطِّئُ عثمان فى ذلك فقد خطَّأ عليًّا وعبدَ الرحمن وسعداً ، والزُّبيرَ وطَلحة ، وعِلْية الصَّحابة[(١)] .

ولو لم يكن ذلك رأىَ علىٍّ لغَيَّرَه ، ولو لم يمكنْه التغيير لقال فيه ، ولو لم يمكنه فى زمنِ عثمان لأَمكنَه فى زَمن نفسه ، وكان لا أَقلَّ من إظهار الحُجَّة إنْ لم يَملِك تحويلَ الأُمّة ، وكان لا أَقلَّ من التَّجربة إن لم يكن من النُّجح على ثقة ، بل لم يكن لعثمان فى ذلك ما لم يكن لجميع الصَّحابة ، وأَهل القَدَم والقُدْوة . ومع أَنَّ الوجه فيما صنعوا واضح ، بل لا نَجِدُ لمَا صنعوا وجهاً غير الإِصابة والاحتياط ، والإِشفاقِ والنظر للعواقب ، وحَسْمِ طعنِ الطاعن .

ولو لم يكن ما صنعوا لله تعالى فيه رضاً[(٢)] لما اجتمع عليه أَوّلُ هذه أَول الأُمّةِ وآخِرُها . وإِنَّ أَمراً اجتمعتْ عليه المعتزلة والشِّيعة ، والخوارجُ والمُرْجِئة ، لظَاهرُ الصَّوابِ ، واضحُ البرهان ، على اختلاف أَهوائهم ، وبغيتهم لكلٍّ ما ورد عليهم .

فإن قال قائل : هذه الروافضُ بأَسْرها تأْبى ذلك وتنكره ، وتطعن فيه ، وترى تغييره[(٣)] .

قلنا : إنَّ الروافض ليست مِنَّا بسبيل ، لأَنَّ من كان أَذَانُه غيرَ أَذاننا ، وصلاتُه غيرَ صلاتنا ، وطلاقُه غيرَ طلاقنا ، وعتقُه غيرَ عتقنا ، وحجَّتُه غيرَ حجَّتنا ، وفقهاؤه غير فقهائنا[(٤)] وإمامه غير إمامنا ،

---

(١) ط : « وما عليه الصحابة » .
(٢) م فقط : فيما صنعوا » مع سقوط كلمة « فيه » من ب ، م . وأثبت ما فى ط .
(٣) ب ، م : « لغيره » ، والوجه ما أثبت من ط .
(٤) غير فقهائنا ، ساقط من ب ، م .

وقراءته غَيْرَ قراءتنا ، وحلالُه غَيْرَ حلالنا ، وحرامه غيرَ حرامنا ، فلا نحنُ منه ولا هو منّا[(١)] .

ولأىِّ شيءٍ حامَتْ[(٢)] عن قراءة ابنِ مسعود ، فو اللهِ ما كان أحدٌ أفرطَ فى العمريّةِ منه ، ولا أشدَّ على الشّيعة منه ، ولقد بَلَغَ من حبِّه لعمر رضى الله عنه أن قال : لقد خشيت اللهَ تعالى فى حبِّى لعمر . فلِمَ يُحامُون عنه وهو كان شجاهم[(٣)] لو أدركَهم .

٢٧ — فصل منه

فآمن اللهُ رجلًا فارقَهم ولزم الجماعةَ ، فإنَّ فيها الأَنَسَةَ والحُجَّةَ[(٤)] ، وتَرَكَ الفُرقةَ فإنَّ فيها الوَحشةَ والشُّبهة . والحمد لله الذى جَعلَنا لا نفرِّق بين أئمتنا ، كما جعلنا لا نفرِّق بين أنبيائنا .

٢٨ — فصل منه

والذى دعانا إلى تأليف حُججِ الرّسولِ ونَظْمها ، وجَمْعِ وجوهِها وتدوينِها — أنَّها متى كانت مجموعةً منظومة ، نَشِط لحفظها وتفهُّمها مَنْ كان عسى أن لا يَنْشَطَ لجمعها ، ولا يقدرَ على نَظْمها ، وجمعِ متفرِّقها ، وعلى اللَّفظ المُؤْثر عنها[(٥)] ، ومَنْ كان عسى أن لا يعرف وجه مَطلبها ، والوقوعِ عليها .

---

(١) ب ، م : « ولا نحن منه ولا هو منا » ، صوابه فى ط .

(٢) فى جميع الأصول : « جانب » ، والوجه ما أثبت . وانظر ما سيأتى .

(٣) أصل الشجا : ما يعترض فى حلق الإنسان والدابة من عظم أوعود أو غيرهما ، ومنه قول سويد بن أبى كاهل فى المفضليات ١٩٨ :

ويرانى كالشجا فى حلقه عسراً مخرجــه ما ينتزع

وفى م فقط : « سحاهم » تحريف .

(٤) الأنس ، بالضم ، والأنسة ، بالتحريك : الطمأنينة . ط فقط : « الأنس » .

(٥) كذا فى جميع النسخ . وأراها « المأثور عنها » . يقال أثر الحديث أثرا : نقله ورواه عن غيره ، فهو مأثور .

ولعلَّ بعض الناس يعرف بعضَها ويَجهلُ بعضها .

ولعلَّ بعضهم وإن كان قد عَرفَها بحقِّها وصِدْقها فلم يعرفْها من أَسهلِ طُرقها ، وأَقربِ وجوهها .

ولعلَّ بعضهم أَن يكون قد عَرف فنسِيَ ، أَو تهاون بها فعَمِيَ ، بل لا نشكُّ أَنَّها إذا كانت مجموعة محَبَّرة(١) ، مستقصاةً مفصَّلة ، أَنَّها ستزِيد(٢) فى بصيرة العالم ، وتَجْمع الكلَّ لمن كان لا يعرف إلَّا البعض ، وتُذكِّر النَّاسِيَ ، وتكون عُدَّةً على الطاعن(٣) .

ولعلَّ بعضَ من أَلحَدَ فى دينه ، وعَمِيَ عن رُشْدِه ، وأَخطأَ موضعَ حَظِّه(٤) أَن يدعُوَه العُجْبُ بنفسه ، والثِّقةُ بما عنده ، إلى أَن يلتمس قراءتَها ، ليتقدَّم(٥) فى نَقْضها وإفسادها ، فإذا قرأَها فهمها ، وإذا فهمها انتبهَ من رَقْدته(٦) ، وأَفاقَ مِنْ سكرته(٧) ، لعزِّ الحقِّ ، وذُلِّ الباطل ، ولإشراف الحجَّة على الشُّبهة(٨) ، ولأَنَّ من تفرَّد بكتاب فقرأَه ليس كمن نازع صاحبَه وجاثاه(٩) ، لأَنَّ الإنسان لا يُباهِى بنفسه(١٠) ،

(١) من تحبير الخط والشعر ونحوهما ، أى تحسينه ، ب ، م : « مخيرة » صوابه فى ط .

(٢) ب ، م : « سيزيد » ، صوابه فى ط .

(٣) فى جميع الأصول : « ويجمع » و « يذكر » و « يكون » ، صوابها كلها بالتاء كما أثبت .

(٤) ب فقط : « خطه » ، تحريف .

(٥) ب ، م : « ليقدم » ، صوابه فى ط .

(٦) م فقط : « فإذا قرأها وفهمها انتبه من رقدته » .

(٧) ب ، م : « عن سكرته » .

(٨) ب فقط : « ولإشراق » بالقاف .

(٩) المجاثاة : أن يجلس مع خصمه على ركبتيه للخصومة . وفى البيان والتبيين ٣ : ٦ : « وبالأرجاز عند المتح وعند مجاثاة الخصم » . وفى ب ، م : « وحاثاه » ، وفى ط : « وجافاه » صوابهما ما أثبت .

(١٠) ب ، م : « نفسه » ، صوابه فى ط .

والحقُّ بعدُ قاهرٌ له . ومع التَّلاقى يحدُث التَّباهى ، وفى المحافل يقلُّ الخُضوع ، ويشتدُّ النُّزوع .

ثمَّ رجَع الكلامُ إلى حاجة النَّاسِ إلى استماع الأَخبار ، والتفقُّه فى تصحيح الآثار ، فأَقول : إنَّ الناس لو استغنَوْا عن التَّكرير[١] ، وكُفُوا مَئونةَ البحثِ والتنقير[٢] لَقلَّ اعتبارُهم[٣] . ومن قلَّ اعتبارُه قلَّ عِلمُه ، ومَن قلَّ علمه قَلَّ فضلُه ، ومن قَلَّ فضلُه كثُر نقصه ، ومن قلَّ علمه وفَضْلُه وكثُر نقصه لم يُحمَد على خيرٍ أَتاه ، ولم يُذَمّ على شرٍّ جناه ، ولم يَجِدْ طعمَ العِزّ ، ولا سُرور الظَّفَر ، ولا رَوْح الرَّجاء ، ولا بَرْدَ اليقين ، ولا راحة الأَمن .

وكيف يُشكر من لا يقصد ، وكيف يُلام من لا يتعمّد ، وكيف يُقْصَد من لا يعلم . وما عسى أَن يَبلُغَ قدرُ سرورٍ من لا يحسن من السُّرور إلَّا ما سُرَّ به حَواسُّه[٤] ومَسَّه جِلدُه[٥] .

وكيف يأْتى أَربحَ الأَفعال ، وأَبعدَ الشرَّيْن من ركِّب فى شراسة السِّباع[٦] وغَباوة البهائم ، ثم[٧] لم يُعط الآلةَ التى بها يستطيع التفرقة[٨] بين ما عليه وله ، والعِلمَ بمصالحِهِ ومفاسده ، فيقوى بها على عصيان طبائعِه ، ومُخالفةِ شهَواته ، وبها يعرف عواقبَ الأُمور ، وما تَأْتى به

---

(١) فى جميع الأصول : « قد استغنوا عن التكرير » ، والصواب ما أثبت .
(٢) ب فقط : « وكفوا عن مئونة البحث والتنقير » .
(٣) ب ، ط : « لقلة اعتبارهم » ، صوابه فى م .
(٤) ب ، م : « وحواسه » ، والوجه حذف الواو كما فى ط .
(٥) ب فقط : « ومس جلده » .
(٦) ب ، م : « من ركب فى شرارة السباع » ، ط : « من ركب شراسة السباع » صوابهما ما أثبت .
(٧) ثم ، ساقطة من ب .
(٨) ب ، م : « تفرقة » .

الدُّهور(١) ، وفضْلَ(٢) لذَّةِ القلب على لذَّة البدن .

وإنَّ سرور الجـــاهل لا يَحسُن فى جَنْب سرور العالِم ، وإنَّ لذَّةَ البهائم لا تَعشُرُ(٣) لذَّة الحكيم العالِم .

وأىُّ سرور كسرور العزِّ والرِّياسة ، واتِّساعِ المعرفة ، وكثرةِ صواب الرَّأى ، والنُّجح الذى لا سَبَبَ له إلَّا حُسْنُ النَّظر والتقدُّم(٤) فى التدبير ، ثم العلمُ بالله وحده ، وأنَّك بعرض ولايته والجاهِ عنده ، وأنَّه الذى يرعاك ويكفيك ، وأنَّك إذا عملت اليسيرَ(٥) أعطاك الكثير ، ومتى تركت له الفانىَ أعطاك الباقى ، ومتى أدبرتَ عنه دعاك ، ومتى رجعتَ إليه اجتباك ، ويحمدك على حقك ، ويُعطيك على نظرِك لنفسك ولا يُفْنيكَ إلَّا ليُبْقيَك(٦) ، ولا يُميتُك إلَّا ليحييَك ، ولا يمنُعك إلَّا ليعطيك . وأنَّه المبتدئُ بالنعمة قبل السؤال ، والناظر لك فى كلِّ حال .

وهذا كلُّه لا يُنال إلَّا بغريزة العقل . على أنَّ الغريزة لا تنال ذلك بنفسها ، بما باشرَتْه حواسُّها ، دون النَّظر والتفكُّر ، والبحثِ والتصفُّح .

ولن ينظر ناظرٌ ولا يفكر مفكِّرٌ(٧) دون الحاجة التى تبعثُ على

---

(١) ب : « وما يأتى به الدهور » .

(٢) الفضل : الزيادة . وفى ب ، م : « وفضلة » ، وإنما الفضلة والفضالة : البقية من الشىء ، فالوجه ما أثبت من ط .

(٣) تعشرها : تبلغ عشرها . ب ، م : « لا يعشر » ، صوابه ما أثبت . وفى ط : « لاتعادل » .

(٤) فى جميع الأصول : « والتقديم » .

(٥) ب : « علمت اليسير » .

(٦) ب ، ط : « ولا يغنيك » ، وأثبت مافى م . وفى جميع الأصول : « إلا ليقيك » . والمراد بالإبقاء هنا الإبقاء الأبدى فى الآخرة .

(٧) ب : « ولم ينظرنا ولا فكر مفكر » ، صوابه فى م ، ط .

الفكرة[١] ، وعلى طلب الحيلة . ولذلك وضع الله تعالى فى الإنسان طبيعة الغضب ، وطبيعةَ الرضا ، وطبيعة البُخْل والسخاء ، والجزعِ والصَّبر ، والرِّياءِ والإخلاص ، والكِبْر والتَّواضُع ، والسُّخط والقناعة ، فجعلها عروقاً . ولن تفِيَ[٢] قوّة غريزة العقل بجميع[٣] قوى طبائعه وشَهواته ، حتَّى يقيم ما اعوجَّ منها[٤] ، ويسكِّن ما تحرّك ، دون النَّظر الطويل الذى يشدُّها ، والبحث الشديد الذى يشحَذها ، والتجارب التى تُحَنِّكُها[٥] ، والفوائد التى تزيد فيها[٦] . ولن يكثُر النظر حتَّى تكثُر الخواطر[٧] ، ولن تكثر الخواطر حتى تكثُر الحوائج[٨] ، ولن تَبعُد[٩] الرّؤية إلَّا لبعد الغاية وشدَّة الحاجة .

ولو أَنَّ الناس تُرِكوا وقدْرَ قُوَى غرائزِهم[١٠] ، ولم يُهاجُوا بالحاجة على طلب مصلحتهم والتفكُّر فى معاشِهم ، وعواقِب أُمورهم ، وأُلجِئوا إلى قدر خواطرهم التى تولِّدها مباشرةُ حواسِّهم ، دون أن يُسمِعهم الله تعالى خواطرَ الأوَّلين ، وأَدبَ السَّلَف المتقدِّمين ، وكُتُبَ ربِّ العالمين ، لمَا أَدركوا من العلم إلَّا اليسير[١١] ، ولمَا ميَّزوا من الأُمور إلَّا القليل .

---

(١) ب فقط : « على الفكر » .

(٢) ب فقط : « ولم يف » ، تحريف .

(٣) يقال هذا الشىء لا يفى بذلك ، أى يقصر عنه ولا يوازيه . وفى جميع النسخ : « لجميع » ، والصواب ما أثبت .

(٤) ب ، م : « ماعدا منها » ، صوابه فى ط .

(٥) يقال حنكته التجارب : حنكا ، بالفتح ، وحنكاً بالتحريك ، وأحنكته وحنكته تحنيكاً ، واحتنكته : أى هذبته وأحكمته . ب : «الذى يحنكها » م : « التى يحكنها » ، صوابهما فى ط .

(٦) ب ، م: « التى يزيد فيها » ، صوابها فى ط .

(٧) ب ، م : « يكثر الخواطر » ، وأثبت مافى ط .

(٨) ب : « ولم يكثر » صوابه فى م ، ط ، وفى ب ، م : « حتى يكثر الحوائج » ، وأثبت مافى ط .

(٩) ب : « ولن يبعد » صوابه فى م ، ط .

(١٠) م : « تركوا قدر قوى غرائزهم » .

(١١) ب : « الستر » م : « التستر » ، صوابهما ط .

ولولا أنَّ الله تعالى أَراد تشريف العالِم وتربيتَه[١] ، وتسويدَ العاقِل ورفْعَ قدره ، وأَنْ يجعله حكيماً ، وبالعواقب عليماً ، لمَا سخَّر له كلَّ شىءٍ ، ولم يسخِّرْه لشىءٍ ، ولَمَا طبعه الطَّبعَ الذى يجىءُ منه أَريبٌ حكيم ، وعالمٌ حليم .

كما أَنَّه عزّ ذكرُه لو أَراد أَن يكون الطفل عاقلًا ، والمجنون عالماً ، لطبعهم طبعَ العاقل ، ولسوَّاهم تسويةَ العالم ، كما أَراد أَن يكون السَّبُع وثَّاباً ، والحديدُ قاطعاً ، والسمُّ قاتلًا ، والغِذاءُ مقيماً ؛ فكذلك أَراد[٢] أَن يكون المطبوع على المعرفة عالماً ، والمهيَّأُ للحكمة حكيماً ، وذو الدَّليلِ مستدِلاًّ ، وذو النِّعمة مستنفعاً بها[٣] .

فلمَّا علِمَ الله تبارك وتعالى أَنَّ الناس لا يُدركون مصالحهم بأَنفُسهم ، ولا يَشعُرون بعواقب أُمورهم بغرائِزهم ، دون أَن يردَّ عليهم آداب المرسلين ، وكُتب الأَوَّلين ، والأَخبار عن القرون ، والجبابرة الماضين ـ طبَعَ كلَّ قرنٍ من الناس على أَخبار من يَليه ، ووضع القَرن الثانىَ دليلًا يُعلَم به صدقُ خبرِ الأَوّل ؛ لأَنَّ كثرة السَّماع للأَخبار العجيبة ، والمعانى الغريبة ، مَشْحَذَةٌ للأَذهان ، ومادَّةٌ للقلوب ، وسببٌ للتفكير ، وعِلَّةٌ للتَّنقير[٤] عن الأُمور .

وأَكثر النَّاس سماعاً أَكثرهُم خواطرَ ، وأَكثرهم خواطرَ أَكثرهم تفكُّراً ، وأَكثرهم تفكُّراً أَكثرهم علماً ، وأَكثرهم علماً أَرجحهم عملًا . كما أَنَّ أَكثر البصراءِ رؤيةً للأَعاجيب أَكثرهم تجاربَ[٥] ، ولذلك

(١) ب ، م : « وترتيبه » .
(٢) أراد ، من ط فقط .
(٣) ب ، م : « والدليل مستدلا والنعمة مستنفعاً بها » ، صوابه فى ط .
(٤) ب ، م : « التبقير » ، صوابه فى ط .
(٥) فى جميع الأصول : « تجارباً » ، والصواب ما أثبت .

صار البصير أكثر خواطر[١] من الأعمى ، وصار السميع البصير أكثر خواطرَ من البصير .

وعلى قدر شِدَّة الحاجة تكون الحركة ، وعلى قدر ضَعْف الحاجة يكون السُّكون ، كما أنَّ الرَّاجىَ والخائف دائبان ، والآيس والآمِن وادِعان .

وإذا كان[٢] الله تعالى لم يَخلُق عباده فى طبع عيسى بن مريم ، ويحيى بن زكريا ، وآدم أَبى البشر ، صلوات الله عليهم أجمعين ، وخَلَقَهم منقوصين[٣] ، وعن دَرْك مصالحهم عاجزين ، وأراد منهم العبادة ، وكلَّفهم الطَّاقة[٤] ، وتَرَك العِنان[٥] للأَمل البعيد ، وأرسل إليهم رسلَه ، وبعث فيهم أنبياءه ، وقال : ﴿ لِئَلَّا يكونَ للنَّاسِ على الله حُجَّةٌ بعد الرسل[٦] ﴾ ، ولم يُشهِد أكثَرَ عباده حُجَجَ رُسُلِه[٧] عليهم السلام ، ولا أحضَرَهُمْ عجائب أنبيائِه[٨] ، ولا أسمعَهُم احتجاجَهم ، ولا أراهم تدبيرَهم ــ لم يكن بدٌّ من أن يُطْلِع[٩] المُعاينين على أخبار الغائبين ، وأن يسخِّر أَسماعَ[١٠] الغائبين لأَخبار المعاندين ، وأن يخالف بين طبائع

---

(١) ب ، م : « خواطرا » فى هذا الموضع وتاليه ، صوابه فى ط .
(٢) ب : « وإن كان » ، تحريف .
(٣) ط فقط : « ناقصتين » .
(٤) كذا فى جميع النسخ . والمراد : مايطيقون . لا يكلف الله نفسا إلا وسعها .
(٥) العنان : السير أو الحبل الذى تمسك به الدابة . وإطلاق العنان هنا كناية عن اتساع مدى الأمل . وفى جميع الأصول : « العيان » ، والوجه ما أثبت .
(٦) الآية ١٦٥ من سورة النساء .
(٧) ب ، م : « وحجج رسله » ، صوابه فى ط .
(٨) ب : « ولا أخبر » م : « ولا أخضر » ، صوابهما فى ط .
(٩) ب ، م : « يطمع » ، وجهه فى ط .
(١٠) ب ، م : « يسحر » ، صوابه فى ط .

المُخْبرين ، وعِلَلِ الناقلين [١] ، ليدلَّ السامعين ، ومن يجيب من الناس [٢] .

على أنَّ العددَ الكثيرَ المختلفى العلل ، المتضادِّى الأَسبابِ ، المتفاوتى الهِمَم ، لا يتَّفقون على تخرُّص الخبر فى المعنى الواحد [٣] ، وكما لا يتَّفقون على الخبر الواحد على غير التَّلاقى والتراسل إلَّا وهو حقٌّ . فكذلك [٤] لا يمكن مثلَهم فى مثل عللهم التَّلاقى عليه ، والتَّراسلُ فيه .

ولو كان تلاقيهم ممكناً ، وتراسُلُهم جائزاً لظهر ذلك وفشا ، واستفاضَ وبدا .

ولو كان ذلك أيضاً ممكناً ، وكان قولًا متوهَّماً لبطلتِ الحُجَّة ، ولنُقِضَتِ العادة [٥] ، ولفَسَدت العبرة ، ولعادت النَّفسُ بعلَّة الإخبار جاهلة ، ولكان لِلناس [٦] على الله أكبرُ الحجّة . وقد قال الله جل وعز : ﴿ لئلَّا يَكُون للنَّاسِ عَلَى اللهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُل [٧] ﴾ ، إذْ كلَّفهم [٨] طاعةَ رُسلِه ، وتصديقَ أنبيائه ورسله وكتبه [٩] ، والإيمانَ بجنَّته وناره ، ولم يَضَعْ لهم دليلًا على صِدق الأَخبار ، وامتناع الغَلَط فى الآثار ، تعالى الله عن ذلك علوًّا كبيراً .

---

(١) ب الفقط : « وعلى الناقلين » ، تحريف .

(٢) ط فقط : « ومن يجيب » .

(٣) التخرص ، المراد به الحزر والتقدير والفهم . وسيأتى فى ٢٤٨ س ١٢ : « لايتفقون على تخرص الخبر الواحد فى المعنى الواحد فى الزمن الواحد » .

(٤) ب ، م : « فلذلك » ، صوابه فى ط .

(٥) ب ، م : « ولانقضت » ، تحريف .

(٦) ب : « الناس » ، محرفة .

(٧) من الآية ١٦٥ من سورة النساء .

(٨) ط : « إذا كلفهم » .

(٩) ب : « أنبيائه وكتبه » م : « أنبيائه ورسله » ، وأثبت النص كاملا من ط .

واعلمْ أنَّ الله تعالى إنَّما خالف بين طبائع الناس ليوفِّق بينهم ، ولم يحبَّ أن يوفِّق بينهم فيما يخالف مصلحتَهم ؛ لأنَّ الناسَ لو لم يكونوا مسخَّرين بالأسباب المختلفة ، وكانوا مجْبَرين[١] فى الأُمور المتَّفقة والمختلفة ، لجاز أن يختاروا بأجْمعهِم التجارة والصناعة ، ولجاز أن يطلبوا بأجمعهم المُلْكَ والسِّياسة[٢] . وفى هذا ذهابُ العَيش ، وبُطلان المصلحة ، والبَوَار والتَّواءِ[٣] .

ولو لم يكونوا مسخَّرين بالأسباب ، مُرتَهَنين بالعِلَل لرغبوا عن الحِجامة أجمعين ، والبيطرةِ ، والقِصابة ، والدِّباغة . ولكنْ لكلِّ صنفٍ من الناس مُزَيِّنٌ عندهم ما هم فيه ، ومُسهِّلٌ ذلك عليهم . فالحائك إذا رأى تقصيراً من صاحبه أو سوءَ حِذْقٍ أو خرقاً[٤] قال له : يا حجَّام ! والحجَّام إذا رأى تقصيراً من صاحبه قال له : يا حائك ! ولذلك لم يُجْمِعوا على إسلام أبنائهم فى غير الحِياكة والحِجامة ، والبيطرة والقِصابة .

ولولا أنَّ الله تعالى أراد أن يجعل الاختلاف سبباً للاتِّفاق والائتلاف ، لما جعل واحداً قصيراً والآخرَ طويلًا ، وواحداً حسَناً وآخرَ قبيحاً ، وواحداً غنيًّا وآخر فقيرا[٥] ، وواحداً عاقلًا وآخر مجنوناً ، وواحداً ذكيًّا وآخر غبيًّا . ولكنْ خالفَ بينهم ليختبرهم ، وبالاختبار يُطيعون ، وبالطَّاعة يَسعدون . ففرَّق بينهم ليجمعَهم ، وأَحبَّ أن يجمعهم على

---

(١) ب فقط : « مخبرين » تحريف .
(٢) ط : « لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة » بسقوط ماقبل « بأجمعهم » الثانية .
(٣) التوى ، مقصور : الهلاك ، كما فى اللسان والقاموس . وفى ب : « النواء » ، وفى م ، ط : « التواء » ، صوابهما ما أثبت .
(٤) الخرق ، بالضم ، وبالتحريك : ضد الرفق ، وأن لايحسن الرجل العمل .
(٥) ب ، م : « والآخر فقيراً » .

الطّاعة ليجمعهم على المَثُوبة . فسبحانه وتعالى ، ما أَحسنَ ما أَبلى وأَوْلَى ، وأَحكم ما صنع ، وأَتْقَنَ ما دبَّر ! لأَنَّ الناس لو رغبوا كلُّهم عن عار الحياكة [١] لبقِينا عُراةً . ولو رغبوا بأَجمعهِم عن كدِّ البناء لبقينا بالعَرَاءِ . ولو رغبوا عن الفِلاحة لذهبت الأَقوات ، ولَبطلَ أَصلُ المعاش . فسخَّرهم على غير إكراه ، ورغَّبهم من غير دعاء .

ولولا اختلافُ طبائعِ الناس وعِلَلهم لما اختاروا من الأَشياء إلّا أَحسنَها ، ومن البلادِ إلّا أَعْدَلَهَا ، ومن الأَمصار إلّا أَوْسَطها . ولو كانوا كذلك لتناجَزُوا على طلب الأَواسط [٢] ، وتشاجَروا على البلاد العُلْيا ، ولمَا وسِعَهمْ بلدٌ ، ولماتَمَّ بينهم صُلح . فقد صار بهم التَّسخير إلى غاية القناعة .

وكيف لا يكون كذلك وأَنت لو حوّلتَ ساكنِى الآجام إلى الفيافى ، وساكنى السَّهل إلى الجبال ، وساكنى الجبالِ إلى البحار ، وساكنى الوَبَرِ إلى المدَر ، لأَذاب قلوبهم الهمّ ، ولأَتى عليهم فَرطُ النِّزاع .

وقد قيل [٣] : « عَمَّر اللهُ البُلدانَ بحبِّ الأَوطان » .

وقال عبدُ الله بن الزُّبير رحمه الله تعالى : « ليس الناسُ بشىءٍ من أَقسامهم أَقنَعَ منهم بأَوْطانهم » .

وقال معاويةُ فى قومٍ من اليمن رَجَعوا إلى بلادهم بعد أَن أَنزلهم من

---

(١) ب فقط : « لوغربوا » تحريف . وفى ب ، م : « من عار الحياكة » ، صوابه فى ط .

(٢) فى اللسان : « تناجز القوم : تسافكوا دماءهم ، كأنهم أسرعوا فى ذلك » . ب ، ط : « طلب الواسط » ، وأثبت مافى م .

(٣) وكذا فى الحيوان ٣ : ٢٢٧ . ونسب القول إلى عمر رضى الله عنه فى رسالة الحنين إلى الأوطان . انظر رسائل الجاحظ ٢ : ٣٨٩

الشام منزلًا خِصْباً ، وفَرض لهم فى شَرَف العطاء[1] : « يصلون أَوطانَهم بقطيعةِ أَنْفُسهم » .

وقال الله جلَّ وعز : ﴿ ولَوْ أَنَّا كتَبْنا عليْهم أَن اقتلُوا أَنفُسَكم أَو اخْرُجُوا مِنْ دِيارِكُمْ ما فَعَلُوه إِلَّا قليلٌ منهم[2] ﴾ . فقرن الضَّنَّ بالأَوطان إلى الضَّنِّ بمهج النفوس[3] .

وليس على ظهرها إنسانٌ إلَّا وهو مُعْجبٌ بعقْله ، لا يسرُّه أَن له بجميع ما لَهُ ما لِغيره ، ولولا ذلك لماتوا كمداً ، ولذَابوا حَسَدا ، ولكن كلُّ إنسان وإن كان يرى أَنَّه حاسد فى شىءٍ فهو يرى أَنَّه محسود فى شىءٍ .

ولولا اختلافُ الأَسباب لتنازعوا بلدةً واحدةً ، واسمًا واحداً ، وكُنيةً واحدة . فقد صاروا كما ترى مع اختيار الأَشياءِ المختلفة[4] إلى الأَسماء القبيحة ، والأَلقاب السَّمْجة[5] . والأَسماءُ مبذولةٌ ، والصّناعات مُباحة ، والمَتاجر مُطلقة ، ووجوه الطُّرق مُخَلَّاة[6] ، ولكنَّها مُطلَقة فى الظاهر ، مقسَّمة فى الباطن ، وإن كانوا لا يشعرون بالذى دبَّر الحكيم من ذلك ، ولا بالمصلحة فيه .

فسبحانَ من حبَّب إلى واحدٍ أَنْ يسمِّيَ ابنه محمَّداً ، وحبَّب إلى آخر أَنْ يسمِّيه شيطاناً[7] ، وحبَّب إلى آخر أَن يسمِّيَه عبدَ الله ، وحبّب

---

(١) ب ، م : « فى شوف العطاء » ، ط : « فى شون العطاء » . والوجه ما أثبت .
(٢) من الآية ٦٦ من سورة النساء .
(٣) ب ، م : « الظن » فى الموضعين ، صوابه فى ط .
(٤) كلمة « الأشياء » من ط فقط . وفى م : « مع اختبار مختلفة » . وصواب الكلام فى ط .
(٥) السمج ، بالفتح ، وككتف : القبيح . ب فقط : « السمحة » تحريف .
(٦) ب : « مخلاة » ، صوابه فى م ، ط .
(٧) ب ، م : « شيطان » .

إلى آخر أن يسمِّيَه حماراً[١] ، لأنَّ الناس لو لم يُخالَفْ بين عِلَلهم فى اختيار الأَسماءِ والكُنَى، جاز[٢] أن يجتمعوا على شىءٍ واحد ، وكان[٣] فى ذلك بُطلان العَلَامات ، وفسادُ المعاملات .

وأنت إذا رأيتَ أَلوانَهم وشمائلَهم واختلافَ صُوَرِهم ، وسَمِعتَ لُغاتِهِم ونَغَمهم[٤] علمت أنَّ طبائِعهم وعلَلَهم المحجوبةَ الباطنة، على حَسَب أُمورهم الظاهرة .

وبعضُ الناس وإن كان مسخَّراً للحِياكة[٥] فليس بمسخَّر للفِسق والخيانة[٦] ، وللإِحكام[٧] والصِّدق والأَمانة .

وقد يسخِّر اللهُ الملكَ[٨] لقومٍ بأَسبابٍ قديمة وأَسباب حديثة ، فلا يزال ذلك الملكُ مقصوراً عليهم ، ما دامت تلك الأَسبابُ قائمة ، إذا كانوا للمُلْكِ مسخَّرين[٩] ، وكان النَّاس لهم مسخَّرين ، بالجبريَّة[١٠] والنَّخْوة ، والفَظاظةِ والقسوة ، ولطُول الاحتجاب والاستتار ، وسُوءِ اللِّقاءِ والتضييع .

---

(١) ب فقط : « حمار » . وممن سمى به « معقر بن حمار البارق » ، وممن لقب بذلك « مروان الحمار » .

(٢) ط : « وجاز » بزيادة واو .

(٣) ط : « كان » بدون واو .

(٤) م : « ونغماتهم » .

(٥) ب : وإن كانوا مسخراً للحياكة » ط : « وإن كانوا مسخرين للحياكة» . والوجه ما أثبت من م .

(٦) ب : « للتفسيق والخيانة » .

(٧) ب ، ط : « والأحكام » .

(٨) ط : « يسخر الملك » ب ، م : « يسخر الملة الملك » ووجه هذه الأخيرة ما أثبت .

(٩) ب : « فليس إذ كانوا »،م ، ط : « فليس إذا كانوا ». والوجه حذف « فليس ». وفى ب ، م : « المسخرين » .

(١٠) الجبرية : الكبرياء . وانظر لغاتها الثلاث عشرة فى القاموس . وفى ب ، م : « للجبرية » .

وقد يكون الإنسانُ مسخَّراً لأَمرٍ ، ومخيَّراً فى آخر .

ولولا الأَمر والنَّهى لجاز التسخير فى دقيق الأُمور وجليلها ، وخفيِّها وظاهرها ؛ لأَنَّ بنى الإنسان[1] إنما سُخِّروا له إرادة العائدة عليهم[2] ، ولم يسخَّروا للمعصية ، كما لم يسخَّروا للمَفْسَدة .

وقد تستوى الأَسباب فى مواضع ، وتتفاوت فى مواضع[3] . كلُّ ذلك ليجمع الله تعالى لهم مصالح الدُّنيا ، ومراشدَ الدِّين .

أَلَا ترى أَنَّ أُمةً قد اجتمعت على أَنَّ عيسى عليه السلام هو الله ، وأُمَّة قد اجتمعت على أَنَّه ابن الله ، وأُمّةً اجتمعت على أَنَّ الآلهة ثلاثة ، عيسى أَحدها . ومنهم يتبدَّد[4] ، ومنهم من يتدهَّر[5] ، ومنهم من يتحوَّل نِسطوريًّا بعد أَن كان يَعقوبيًّا ، ومنهم من أَسلم بعد أَن كان نَصرانيًّا . ولستَ واجداً[6] هذه الأُمّة مع اختلاف مذاهبها ، وكثرة تنقُّلها ، انتقلت مرّة واختلفت مرّةً ، متعمدة أَو ناسيةً ، فى يومٍ واحد، فجعلته — وهو الجمعة — يومَ السَّبت ، ولم تَخطُب فى يوم جُمُعةٍ بخطبةٍ يوم خميس ، ولا غلِطَتْ فى كانونَ الأَوّلِ فجعلته كانونَ الآخِر ، ولا بين الصَّوم والإفطار ؛ لأَنَّ الباب الأَوّل فى باب الإمكان

(١) ب ، م : « لأن الإنسان » ، تحريف .

(٢) م : « الفائدة عليهم » .

(٣) ب : « وقد يستوى » و « يتفاوت » ، صوابهما فى م ، ط .

(٤) يريد : يعبد البد ، بالضم ، وهو الصنم . ب : « يتدبد » م : « يتدبر » ط : « يتذبذب » . وأرى أن الجاحظ قد اشتق هذا الفعل من «البد » ، كما اشتق الفعل التالى من الدهر ، وكلاهما لم تذكره المعاجم .

(٥) يتدهر ، أراد يدين بمذهب الدهرية ، بضم الدال نسبة غير قياسية إلى الدهر بالفتح . وانظر آراءهم المتفرقة فى الحيوان ١ : ٢/١٧ : ٤/١٣٩ : ٨٥ ، ٥/٤٣٢ : ٤٠ ، ٦/٣٢٧ : ٢٦٩ ، ٢٧٠ بالإضافة إلى مادة (الدهرية) فى دائرة المعارف الإسلامية ٩ : ٣٣٧/ ٣٤٠

(٦) م فقط : « واجدة » تحريف .

وتعديل الأَسباب والامتحان ، والباب الثانىَ داخلٌ فى باب الامتناع وتسخير النفوس وطرحِ الامتحان .

وقد زعم ناسٌ من الجُهَّال ، ونَفرٌ من الشُّكَّاك ، ممن يزعم أَنَّ الشَّكَّ واجب فى كلّ شىءٍ ، إلَّا فى العيان ، أَنَّ أَهل المنصورة[1] وافَوْا مُصلَّاهم يومَ خميسٍ على أَنَّه يومُ الجمعة ، فى زمن منصور بن جُمهور[2] . وأَنَّ أَهلَ البَحْرينِ جَلَسوا عن مصلَّاهم[3] يومَ الجمعة على أَنَّه يومُ خميس ، فى زمن أَبى جعفرٍ ، فبعثَ إِليهم وقوَّمهم .

وهذا لا يجوزُ ولا يمكنُ فى أَهل الأَمصار ، ولا فى العدد الكثير من أَهل القرى ، لأَنَّ الناس مِن بين صانعٍ لا يأْخذ أُجرته ولا راحةَ له دون الجمعة ، وبين تجَّار قد اعتادوا الدَّعَة فى الجُمَع[4] ، والجلوسَ عن الأَسواق . ومن معلِّمِ كتَّاب لا يَصرِف غِلمانَه إلَّا فى الجمع . وبين معنىٍّ بالجُمَع يتلاقى هناك مع المعارف[5] والإِخوان والجلساءِ . وبين مَعْنىٍّ بالجُمَع حرصاً على الصلاة ، ورغبةً فى الثَّواب . ومن رجلٍ عليه موعدٌ ينتظره . ومن صَيْرفىٍّ] يصرف ذلك اليومَ سفاتجَه[6] وكتبَ

---

(١) المنصورة هذه كانت قصبة السند ، واسمها القديم « همناباد » قال المسعودى : سميت : المنصور بمنصور بن جمهور عامل بنى أمية . وقال هشام : بناها فسميت به ، وكان قد خرج مخالفاً لهارون وأقام بالسند . وانظر معجم البلدان .

(٢) ب : « منصورى بن حمهور » ، وفى ط : « منصورى » فقط . ولمنصور هذا أخبار فى تاريخ الطبرى انتهت بهزيمته وموته عطشاً حين وجه إليه أبو العباس السفاح جيشاً إلى الهند بقيادة موسى بن كعب . وذلك فى سنة ١٣٤ . وكان أول ظهور أمره سنة ١٢٥

(٣) أى لم يذهبوا إلى المسجد يوم الجمعة . ب فقط : « على مصلاهم » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « المداعاة فى الجمع » ، صوابه فى ط . وما بعده إلى « الجمع » التالية ساقط من م .

(٥) ب ، م : « تلقى هناك من المعارف » .

(٦) جمع سفتجة ، بضم السين وفتح التاء ، وهى كما فى المصباح : كتاب صاحب المال لوكيله أن يدفع مالا قرضاً لآخر فيأمن بذلك على ماله من خطر الطريق . وفى القاموس : أن يعطى مالا لآخر ، وللآخر مال فى بلد المعطى فيوفيه إياه ثم ، فيستفيد أمن الطريق » . المعطى بضبط =

أَصحابه . ومن جندىٍّ فهو[١]] يعرف بذلك نَوْبَتَه[٢] . وبعضٍ كالسُّؤَّال والمساكين والقُصَّاص ، الذين يمدُّون أَعناقهم للجمعة انتظاراً للصَّدقة والفائدة ، فى أُمور كثيرة ، وأَسباب مشهورة .

ولو جاز ذلك فى أَهل البحرين والمنصورة لجاز ذلك على أَهل البصرة والكوفة ، ولو جاز ذلك فى الأَيام لكان فى الشهور أَجْوَز ، ولو جاز ذلك فى الشُّهور لكان فى السنينَ أَجْوَز . وفى ذلك فسادُ الحجِّ ، والصَّوم ، والصلاة ، والزكاة ، والأَعياد .

ولو كان ذلك جائزاً لجاز أَن يتَّفق الشُّعراءُ على قصيدة واحدة ، والخطباءُ على خُطبةٍ واحدة ، والكُتَّابُ على رسالةٍ واحدة ، بل جميعُ النَّاسِ على لفظةٍ واحدة .

وإِنَّما نزَّلت لك حالات الناس ، وخبَّرتك عن طبائعهم ، وفسَّرت لك عِلَلَهم لتعلمَ أَنَّ العدد الكثير لا يتَّفقون على تخرُّص الخبر الواحد فى المعنى الواحد فى الزمن الواحد[٣] ، على غير التشاعر[٤] ، فيكون باطلًا . وسأُوجِدُك موضع اختلافهم واتِّفاقهم[٥] ، وأَنَّه لم يخالف بينهم فى بعض الوُجوه إِلَّا إِرهاصاً لمصلحتهم[٦] ، ولتصحَّ أَخبارهم .

= اسم الفاعل. وثَم ، أى هناك . واللفظ فارسى معرب ، وقد فسرت حديثاً بأنها حوالة صادرة من دائن يكلف فيها مدينه دفع مبلغ معين فى تاريخ معين لأذن شخص ثالث ، أو لإذن الدائن نفسه ، أو لإذن صاحب الحوالة .

(١) هذه التكملة من م ، ط . لكن فى م : « يعرف » موضع « يصرف » . مع سقوط كلمة « اليوم » وكلمة « أصحابه » .

(٢) ب ، م : « ذلك بنوبته » .

(٣) التخرص ، سبق تفسيره فى ٢٤١ .

(٤) التشاعر : تفاعل من قولهم شعر بكذا : أحس به . وانظر الثمانية ص ٣ .

(٥) يقال أوجده الشىء : جعله يجده ويظفر به ، كما فى اللسان والقاموس . وفى ط : « وسأبين لك » .

(٦) الإرهاص : الإرصاد ، والإثبات ، والتأسيس .

أَلَا ترى أَنَّ أَحداً لم يبعْ قطُّ سِلعةً بدرهمٍ إلَّا وهو يرى أَنَّ ذلك الدِّرهم خيرٌ له من سلعته . ولم يشترِ[١] أَحدٌ قطُّ سلعةً بدرهمٍ إلَّا وهو يرى أَنَّ تلك خيرٌ له من درهمه . ولو كان صاحب السلعة يرى فى سلعته ما يرى فيها صاحبُ الدرهم ، وكان صاحبُ الدرهم يرى فى الدِّرهم ما يرى فيه[٢] صاحبُ السِّلعة ما اتَّفق بينهما شراءٌ أَبداً ، ولا بيعٌ أَبداً . وفى هذا جميع المفْسَدة ، وغايةُ الهلكة .

فسبحان الذى حبَّب إلينا ما فى أَيدى غيرنا ، وحبَّبَ إلى غيرنا ما فى أَيدينا ، ليقع التبَّايعُ . وإذا وقع التَّبايُع وقع التَّرابُح ، وإذا وقع الترابُح وقع التَّعايُش .

ويدلُّك أَيضاً على اختلاف طبائعهم وأَسبابهم : أَنَّك تجد الجماعة وبين أَيديهم الفاكهةُ والرُّطَب ، فلا تجِدُ يدين تلتقيان[٣] على رُطَبةٍ بعينها ، وكلُّ واحد من الجميع يرى ما حَواهُ الطَّبَق ، غير أَنَّ شهوته وقعَتْ على واحدةٍ غيرِ التى آثَرَها صاحبه[٤] . ولربَّما سبَق الرجلُ إلى الواحدة ، وقد كان صاحبُه يريدها فى نفسه ، غير أَنَّ ذلك لا يكون إلَّا فى الفَرْط ، ولو كانت[٥] شهواتهم ودواعيهم تتَّفق على واحدةٍ بعينها لكان فى ذلك التَّمانُع والتجاذب[٦] ، والمبادرةُ وسوءُ المخالطة والمؤاكلة . وكذلك هو فى شهوة النِّساءِ والإماء ، والمراكِب والكُسَى . وهذا كثيرٌ ، والعلم به قليل. وبأَقلَّ ممَّا قلنا[٧] يعرف العاقلُ صوابَ مذهبنا . واللهتعالى نسأَلُالتوفيق .

---

(١) ب : « ولم يشر » ، صوابه فى م ، ط .
(٢) فيه ، ساقطة من ب . وفى م : « فيها » ، تحريف .
(٣) ب فقط : « فلا نجد » بالنون . وفى ب ، م : « يلتقيان » ، واليد أنثى .
(٤) ب ، م : « صاحبها » .
(٥) ب فقط : « كان » .
(٦) م فقط : « التحازب » .
(٧) ب : « وبأقل ماقلنا » .

وهو الذى[1] خالفَ بين طبائعهم وأسبابهم ، حتَّى لا يُتَّفَقَ على تخرُّص خبرٍ واحد[2] ، لأَنَّ فى اتفاق طبائعهم وأسبابهم فى جهة الإخبار فسادَ أُمورهم ، وقلة فوائدهم واعتبارهم ، وفى فساد أخبارهم فسادُ متاجرِهم والعلمِ بما غاب عن أبصارهم ، وبُطلانُ المعرفة بأَنبيائهم ورسلهم عليهم السلام ، ووَعْدِهم ووَعيدهم ، وأَمْرهم ونهيهم وزَجْرهم ، ورغبتهم ، وحُدودهم ، وقصاصهم الذى هو حياتُهم ، والذى يعدِّل طبائعهم ، ويسوِّى أخلاقهم ، ويقوِّى أسبابهم[3] ، والذى به يتمانعون من تواثب السِّباع[4] ، وقلَّة احتراس البهائم ، وإضاعة الأَعمار . وبه تكثُر خواطرهُم وتفكيرهم ، وتحسُن معرفتُهم[5] .

ولم نقلْ إنَّ العددَ الكثير[6] لا يجتمعون علىَ الخبرِ الباطل ، كالتَّكذيب والتَّصديق ، ونحن قد نجد اليهودَ والنَّصارى ، والمجوس والزنادقة ، والدُّهرية وعُبَّاد البِددة[7] يكذِّبون النبى صلى الله عليه وسلم ، وينكرون آياتِه وأعلامَه ، ويقولون : لم يأْت بشىء ، ولا بانَ بشىء . وإنَّما قلنا : إنَّ العدد الكثير[8] لا يتفقون على مثل إخبارهم أَنَّ محمَّد بنَ عبد الله بن عبد المطلب ، التِّهامىَّ الأَبطحىَّ عليه السلام خرج بمكة ، ودعا إلى كذا ، وأَمرَ بكذا ، ونَهى عن كذا ، وأَباح كذا ،

---

(١) ب ، م : « والذى » .
(٢) انظر ما سبق فى ص ٢٤١ ، ٢٤٨
(٣) ب ، م : « ويقوم أسبابهم » .
(٤) ب ، م : « تواثر » ، صوابه فى ط .
(٥) ب ، ط : « ويحسن معرفتهم » .
(٦) ب ، م : « ولم يقل إن العدد كثير » ، تحريف مافى ط .
(٧) البددة : جمع بد ، بالضم ، وهو الصنم ، معرب بت ، ويجمع أيضاً على أبداد . وفى ب ، م : « البدرة » ، وفى ط : « المبدرة » ، صوابهما ما أثبت .
(٨) ب ، م : « كثير » ، صوابه فى ط .

وجاء بهذا الكتاب الذى نقرؤه ، فوجب العملُ بما فيه ، وأنَّه تحدَّى البلغاء(١) والخطباء والشُّعراء، بنظمه وتأْليفه، فى المواضع الكثيرة ، والمحافل العظيمة . فلم يَرُمْ ذلك أَحدٌ ولا تكلَّفه ، ولا أَتى ببعضِه ولا شبيهٍ منه ، ولا ادَّعى أنَّه قد فعل ، فيكون ذلك الخبرُ باطلًا .

وليس قولُ جَمْعهم إنَّه كان كاذباً(٢) معارضةً لهذا الخبر ، إلَّا أن يُسمُّوا الإنكار معارضة . وإنَّما المعارضة مثلُ الموازَنَة والمُكايَلة ، فمتى قابلونا بأَخبارٍ فى وزن أَخبارنا ومَخرجِها ومَجيئها ، فقد عارضونا ووازنونا وقابلونا ، وقد تكافينا(٣) وتدافعنا . فأَمّا الإنكار فليس بحجَّة ، كما أَنَّ الإقرار ليس بحجَّة ، ولا تصديقُنا النبيَّ صلى الله عليه وسلم حُجَّةً على غيرنا ، ولا تكذيبُ غيرنا له حجَّةً علينا ، وإنَّما الحُجَّة فى المجيءِ الذى لا يمكن فى الباطل مثله .

فإنْ قلتَ : وأَىُّ مجيءٍ أَثبَتَ خبر النَّصارى عن عيسى بنِ مريمَ عليه السلام ؟ وذلك أَنَّك لو سأَلتَ النَّصارى مجتمعين ومتفرِّقين لخبَّروك عن أَسلافهم أَنَّ عيسى قد قال : إنِّى إلّه .

قلنا : قد علمنا أَنَّ نصارى عصرِنا لم يكذبوا على القرن الذى كان قَبْلَهم ، والذين كانوا يَلُونهم . ولكنَّ الدليل على أَنَّ أَصلَ خبرِهم ليس كفرعه ، أَنَّ عيسى عليه السلام لو قال : إنِّى إله ــ لما أَعطاه الله تعالى إحياءَ الموتى ، والمشْىَ على الماء . على أَنَّ فى عيسى عليه السلام(٤) دلالةً فى نفسه ، أَنّه ليس بإلّه ، وأَنَّه عبدٌ مدبَّر ، ومقهور ميسَّر ، وليس

(١) ب : « تجد » م : « تحد » صوابهما فى ط .
(٢) ب : « أنه كذا كان كاذباً » م : « أنه كان كاذبة » ، صوابهما فى ط .
(٣) ب : « تكافأنا » بالهمز .
(٤) ب فقط : « على أن عيسى عليه السلام » .

خبرُهم هذا إلّا كإخبار النصارى عن آبائهم والقرنِ الذى يليهم أَنَّ بُولس[(١)] قد كانَ[(٢)] جاء بالآياتِ والعلامات. وكإخبار المَنانيّة[(٣)] عن القرن الذى كان يليهم منه[(٤)] أَنَّ مانِى قد كان جاءهم بالآيات والعلامات . وكإخبار المجوس عن آبائهم الذين كانوا يلونهم أَنَّ زَرادُشت قد جاءهم بالآيات والعلامات. وقد علمنا أَنَّ هؤلاء النَّصارى لم يكذبوا على القَرْن الذى كان يليهم ، ولا الزَّنادقة ولا المجوس . ولكن الدليل على أَنَّ أَصل خبرهم ليس كفرعه[(٥)] أَنَّ[(٦)] الله جلّ وعز لا يُعطى العلاماتِ من لا يَعْرِفُه ، لأَنَّ بولس إنْ كان عنده أَنَّ عيسى عليه السلام إلّه فهو لا يعرف الله تعالى ، بل لا يعرف الرُّبوبيَّة من العبودية ، والبشريَّة من الإلهية .

٢٩ — فصل منــه

وللنصارى خاصّةً رياءٌ عجيب[(٧)] ، وظاهرُ زُهد ، والناس أَبطأُ شىءٍ عن التصفُّح ، وأَسرع شىءٍ إلى تقليد صاحب السِّنِّ والسَّمت ، وظاهر العمل أَدعَى لهم من العِلْم .

---

(١) بولس : أحد الحواريين ، وقد قام نيرون ملك الروم بقتله هو وبطرس بمدينة رومية وصلبهما منكسين ، وذلك بعد وفاة المسيح باثنتين وعشرين سنة ، وذلك بعد ثلاث عشرة سنة من ملكه . ابن الأثير ١ : ٣٢٥ والتنبيه والإشراف ١٠٩ — ١١٠ . و فى م فقط : « يونس » تحريف .

(٢) كان ، ساقطة من ب ، م .

(٣) المنانية ، والمانية : أتباع مانى المتنبئ الذى زعم أنه الفارقليط الذى بشر به عيسى عليه السلام ، واستخرج مذهبه من المجوسية والنصرانية . وانظر ماكتبت من تحقيق فى حواشى الحيوان ٤ : ١ . وفى ط : « المانوية » .

(٤) أى من زمن مانى . وفى ب ، م : « منهم » .

(٥) أن ، ساقطة من ب ، ط .

(٦) ط فقط : « لأن » .

(٧) م : « رئاء » ، وهى لغة قرآنية .

٣٠ — فصل منه على ذكرهم

وكلُّ قومٍ بنَوْا دينَهم على حبِّ الأَشكال (١)، وشبْه الرِّجال (٢)، يَشتدُّ وجدُهم به (٣) وحبُّهم له ، حتَّى ينقلبَ (٤) الحبُّ عِشقاً ، والوجدُ صبابةً ، للمشاكلة التى بين الطبائع ، والمناسبة التى بين النفوس .

وعلى قدر ذلك يكون البُغْض والحقد ، لأنَّ النَّصارى حين جعلوا ربَّهم إنساناً مثلهم بَخَعتْ نفوسُهم بالهَيْبَةِ له (٥) لتوهُّمهم الرُّبوبيَّة ، وأَسمحت بالمودَّة لتوهُّمهم البَشَريَّة ، فلذلك قَدَرُوا من العبادة على ما لم يقدِرْ عليه مَنْ سواهم (٦) . وبمثل هذا السَّبَب صارت المشبِّهة منَّا أَعبَدَ ممَّن ينفى التَّشبيه ، حتَّى ربَّما رأَيتَه يتنفَّس من الشوق إليه ، ويَشْهق (٧) عندَ ذكر الزيارة ، ويبكى عند ذكر الرُّؤية ، ويُغْشَى عليه عند ذكر رَفْع الحُجُب . وما ظنُّك بشوقِ مَنْ طَمِع فى مجالسة ربِّه عزَّ وجلَّ ، ومحادثةِ خالقه عزّ ذكرُه .

ولقد غالت القومَ غُولٌ ، ودعاهم أَمرٌ ، فانظُرْ ما هو ؟ وإنْ (٨) سأَلتَنى عنه خبَّرتك : إنَّما هو نتيجةُ أَحدِ أَمرين : إمَّا تقليدُ الرِّجال ، وإمَّا طلبُ تعظيمهم . ولذلك السَّببِ لم ترض اليهودُ من إنكار حقِّه بتكذيبه ، حتَّى طلبَتْ قتلَه وصَلْبَه ، والمُثْلة به ، ثم لم ترضَ بذلك حتَّى زعمت

---

(١) ط : « بنوا على حب الأشكال » .

(٢) ب ، م : « وشيد الرجال » ط : « وشد الرحال » ، ولعل وجهه ما أثبت .

(٣) ب : « أشد وجدهم به » م : « اشتد وجدهم به » ، وأثبت ما فى ط .

(٤) ب : « تقرب » م : « يقرب » ، صوابهما فى ط .

(٥) بخعت : خضعت وأقرت . وفى ب : « نجعت » ؛ تحريف . م ، ط : « بالهيته له » والإلهية : الربوبية . وأثبت ما فى ب .

(٦) ب ، م : « من العبادة مالم يقدر عليه سواهم » .

(٧) ب ، م : « ويشهد » .

(٨) ب : « وإذا » .

أنَّه لغير رِشْدة ، فلو كانت دون هذه المنزلةِ منزلةٌ لما انتهت اليهودُ دونَ بلوغها ، ولو كانت فوق ما قالت النَّصارى منزلةٌ لما انتهت دونَ غايتها .

وبذلك السَّبب صارت الرافضة أشدَّ صبابةً وتحرُّقاً ، وأفرطَ غضَباً ، وأدوَمَ حِقداً . وأحسَنَ تواصُلًا من غيرهم أيضاً .

وربَّ خبرٍ قد كان فاشياً[١] فدخل عليه من العِلل ما منَعَه من الشُّهرة ، وربَّ خبرٍ ضعيف الأصلِ ، واهنِ المخرج ، قد تهيَّأَ له من الأسباب ما يُوجب الشُّهرة .

٣١ ــ فصل منــه

واعلم أنَّ لأكثر الشِّعر ظَعْناً[٢] وحظوظاً ، كالبيت يحظَى ويسير ، حتَّى يحظى صاحبُه بحظِّه ، وغيرُه من الشِّعر أجوَدُ منه . وكالمثَل يحظَى ويَسير ، وغيرُه من الأمثال أجوَد . وما ضاع من كلام النَّاسِ وضَلَّ أكثرُ ممَّا حُفِظ وحُكى . واعتبر ذلك من نفسِكَ، وصديقِك وجليسك .

وأمر الأسبابِ عجيب . ومن ذلك قَتْلُ علىِّ بن أبى طالب[٣] من السَّادة والقادة والحُماة ، ما عسى لو ذكرتُه لاستكبرتَه واستعظمْتَه ، فأضرَب النَّاسُ عن ذكرهم ، وجَهلت العوامُّ مواضعَهم ، وأخذوا فى ذكر عمرو بن عَبْدوُدّ[٤] فرفَعُوه فوق كلِّ فارس مشهور ، وقائدٍ مذكور .

---

(١) فاشياً : ذائعاً منتشراً . ب ، م : « ناسياً » صوابه فى ط .

(٢) فى الأصول : « طعناً » بالمهملة ، صوابه ما أثبت . والظعن : الارتحال والسير .

(٣) ب ، م : « وليس كل ذلك يعرف قبل على بن أبى طالب » ، تحريف .

(٤) عمرو بن عبد ود : أحد أشراف قريش . وقد ظهر أمره فى غزوة بدر الكبرى قاتل فيها فأثبتته الجراحة ، فلم يشهد يوم أحد ، فلما كان يوم الخندق خرج معلماً ليرى مكانه ، ودعا إلى المبارزة ، فنازله على بن أبى طالب وجاوله حتى قتله . وانظر السيرة ٤٣٦ ، ٦٧٧ ، ٦٩٩ . وفى ب ، م : « وأخذوا فى ذلك » . وود : صنم يقال بفتح الواو وضمها ، وفتحها أكثر فى اللغة وفى القراءات .

وقد قرأتُ على العلماء كِتاب الفجار(١) الأوَّل ، والثانى ، والثالث . وأمر المطيِّبين(٢) والأحلاف(٣) ، ومَقْتَل أبى أُزَيهر(٤) ، ومجىء الفيل ، وكلَّ يوم جَمْعٍ كان لقريش ، فما سمعتُ لعمروٍ هذا فى شىءٍ من ذلك ذكراً.

فإنْ قلت : إنَّ نُبْل القاتل زيادة فى نُبْل المقتول ، فكلٌّ من قتله على ابن أبى طالب رضوان الله عليه أنبلُ منه وأحقُّ بالشهرة ، ولكن أشعار ابنِ دَأْبٍ(٥) ، ومناقلةَ الصِّبيان فى الكُتَّاب هما اللَّتان أوْرثتاه(٦) ما تَرَى وتسمع .

---

(١) أيام الفجار معروفة فى أيام العرب أيام الجاهلية . وسميت فجاراً لأنها كانت فى الأشهر الحرم ، وكانت قبل مبعث النبى ، صلى الله عليه وسلم ، بست وعشرين سنة. وقال النبى صلى الله عليه وسلم : «كنت أنبل على أعمامى يوم الفجار وأنا ابن أربع عشرة سنة »أنبل . : أناولهم النبل،أى السهام . وانظر العقد ٥: ٢٥١ — ٢٥٧ . ب ، م : « الفخار » ، صوابه فى ط .

(٢) المطيبون : هم أسد ، وزهرة ، وتيم، عقدت معهم بنو عبد مناف حلفاً مؤكداً على ألا يتخاذلوا ، وأن يكونوا يداً واحدة على أخذ ما فى يدى عبد الدار من الحجابة والرفادة واللواء والسقاية ، فأخرجت بنو عبد مناف جفنة مملوءة طيباً فوضعوها فى المسجد ، ثم غمس القوم أيديهم فيها جميعاً وتعاقدوا ، ثم مسحوا الكعبة بأيديهم توكيداً ، فسموا المطيبين . وكان أبو بكر من المطيبين .

(٣) الأحلاف،هم خمس قبائل من قريش: عبد الدار ، وجمح، وسهم، ومخزوم ، وعدى ابن كعب . تعاقدت معهم بنو عبد الدار حلفاً مؤكداً ألا يتخاذلوا ،فسموا الأحلاف. وكان عمر ابن الخطاب من الأحلاف . انظر اللسان (حلف)،وكذلك المحبر لابن حبيب ١٦٦ — ١٦٧ .

(٤) فى ب ، ط : « ومقتل أبى أزيهر » وفى م : « ومقبل بن أبى أزيهر » ، صوابهما ما أثبت . وانظر خبر مقبل أبى أزيهر الدوسى فى كتاب أسماء المغتالين من نوادر المخطوطات ٢ : ١٤٩ . والذى قتله هوهشام بن الوليد بن المغيرة .

(٥) اسمه عيسى بن يزيد بن بكر بن دأب ، كان خطيباً شاعراً ناسباً ، وكان يضع الحديث والشعر كأحاديث السمر . وكان يضع الحديث بالمدينة ، وابن شوكر يضع الحديث بالسند ، وفيهما يقول خلف الأحمر :

أحاديث ألفها شوكر وأخرى مؤلفة لابن داب

وكان كثير الأدب ،عذب الألفاظ ، صاحب خطوة عند الهادى . روى عنه شبابة بن سوار ، ومحمد بن سلام الجمحى . تاريخ بغداد ٥٨٤٥ ولسان الميزان ٤ : ٤٠٨ . ط : « ابن ود »، تحريف .

(٦) ب : « ورثتا » م : « أورثتا » ، وأثبت ما فى ط .

٣٢ – فصل منه فى أمر الأخبار

وإنَّما ذكرت هذا لتعلم أَنَّ الخبر قد يكون أَصلُه ضعيفاً ثم يعود قويًّا ، ويكون أَصلُه قويًّا فيعودُ ضعيفاً ، للذى يعتريه من الأَسباب ، ويَحُلُّ به من الأَعراض ، من لدُن مَخرجه وفُصُوله ، إلى أن يبلغ مدَّتَه[١] ، ومنتهى أَجلِه ، وغايةَ التَّدبيرِ فيه ، والمصلحةِ عليه .

فلمَّا كان هذا مخوفاً ، وكان غير مأْمونٍ على المتقادِم منه وضَعَ الله تعالى لنا على رأْس كلِّ فترةٍ علامة ، وعلى غاية كلِّ مدَّةٍ أَمارة ، ليُعيدَ قوَّةَ الخبر ، ويجدِّد ما قد همَّ بالدُّروس، بالأَنبياءِ والمرسلين[٢] عليهم السلام أَجمعين . لأَنَّ نوحاً عليه الســلام هو الذى جدَّد الأَخبار التى كانت فى الدَّهر الذى بينه وبين آدم عليهما السلام ، حتَّى منَعها الخللَ ، وحماها النُّقصانَ بالشواهد الصادقة ، والأَمارات القائمة . وليس أَنَّ أَخبارهم وحججهم قد كانت دَرَست واختلَّت ، بل حين همَّت بذلك[٣] وَكادَت . بعثَهُ الله عزَّ وجل بآياته لئلا تخلوَ الأَرض من حُججِهِ ، ولذلك سمَّوا آخر الدهر الفتْرة . وبين الفَتْرةِ والقِطْعة فرق . فاعرفْ ذلك .

ثم بعث الله جلّ وعزّ إبراهيم عليه السلام على رأْس الفترة الثانية التى كانت بينه وبين دهر نوح ، وإنَّما جعلها[٤] الله تعالى أَطولَ فترةٍ كانت فى الأَرض ، لأَنَّ نوحاً كان لبث فى قومه يحتجُّ ويُخبر ، ويؤكِّد ويبيِّن ، أَلفَ سنةٍ إلَّاخمسين عاماً ، ولأَنَّ آخر آياته كانت أَعظم الآيات ، وهى الطُّوفان ، الذى أَغرقَ الله تعالى به[٥] جميعَ أَهل الأَرض

---

(١) ب : « تبلغ مدته » .
(٢) ط : « من أنباء المرسلين » .
(٣) كلمة « بل » من ط فقط .
(٤) ب ، م : « جعله » ، صوابه فى ط .
(٥) ب ، م : « التى غرق الله تعالى » فقط ، صوابه فى ط .

غيرَه وغير شيعته ، وإنَّما أَفار الماءَ[١] من جوف تَنُّور ، ليكون أَعجب للآية[٢] ، وأَشهر للقِصَّة ، وأَثبتَ للحُجَّة .

ثم ما زالت الأَنبياء صلوات الله عليهم أَجمعين ، بعضُهم على إِثْر بعضٍ فى الدَّهر الذى بين إبراهيم ، وبين عيسى عليهما السلام . فلتَرادف حُجَجهم ، وتظاهُر أَعلامهم ، وكثرةِ أَخبارهم ، واستفاضة أُمورهم ، ولشدَّة ما تـأَكَّد ذلك فى القلوب ، ورسَخَ فى النفوس ، وظَهَر على الأَلسنة ، لم يدخلها الخَطل والنَّقص[٣] والفسادُ ، فى الدَّهر الذى كان بين النبى عليه السلام وبين عيسى عليه السلام .

فحينَ همَّت بالضَّعف ، وكادت تنقص عن التمام[٤] ، وانتهت قُوَّتُها ، بعثَ الله تعالى محمَّداً صلى الله عليه وسلم ، فجدَّد أَقاصيص آدم ونوحٍ ، وموسى وهارون ، وعيسى ويحيى ، عليهم السلام ، وأُموراً بين ذلك ، وهو الصادق ، بالشَّواهد الصادقة ، وأَنَّ السَّاعة آتية[٥] ، وأَنَّه ختم الرُّسل عليهم السَّلامُ به ، فعلمْنا عند ذلك أَنَّ حجَّته ستتمُّ إلى مُدَّتها ، وبلوغِ أَمرِ الله عزّ وجلّ فيها .

٣٣ — فصل

ثم رجع الكلام إلى القول فى الأَخبار ، فأَقول :

إِنَّ الناس مُوكَّلون بحكايةِ كلٍّ عجيب ، وميسَّرون للإِخبار عن

---

(١) يقال فار الشيء : جاش ، وأفرته وفرته أيضاً بالتعدية فيهما . وأنشد ابن الأعرابى :

وكانوا قعوداً حولها يرقبونها   وكانت فتاة الحى ممن يفـيرهـا

ويروى : « يفورها » ويروى : « يغيرها» . ط فقط : « فار الماء » .

(٢) ب : « وليكون » بزيادة واو .

(٣) ب : « لم يدخلها النقص » فقط . م : « لم يدخلها الخلل والنقص » ، وأثبت ما فى ط .

(٤) ب : « وكانت تنقص عن التمام » ، صوابه فى م ، ط .

(٥) ب ، م : « أن الساعة آتية » .

كلِّ عظيم ، وليسوا[١] للحسَن أَحكَى منهم للقبيح ، ولا لما يَنفع أَحكَى منهم لما يضرّ ، وعلى قدر كِبَر الشَّيء تكون حكايتهم له واستماعُهم[٢] .

أَلا ترى أَنَّ رجلًا من الخلفاء لو ضربَ عُنقَ رجلٍ من العظماء لما أَمسَى وفى عسكره وبَلْدته جاهلٌ ولا عالمٌ إلَّا وقد استقرَّ ذلك عنده وثبت فى قلبه[٣] ، لأَنَّ الناس بين حاسدٍ فهو يحكى ذلك الذى دَخَل عليه من الثُّكْل وقلَّة العدد ، وبين واجدٍ[٤] يعجِّب الناس ، وبين واعظٍ مُعتبر ، وبين قومٍ شأْنُهم الأَراجيفُ بالفاسد والصَّالح . ولو كانَ ضربَ عُنقَه فى يومِ عيدٍ ، أَو حَلْبةٍ[٥] ، أَو استمطارٍ ، أَو موسم ، لكان أَشدَّ لاستفاضته ، وأَسرعَ لظُهوره .

ولو جاز أَن يكتم النَّاسُ هذا وشبهه على الإيثار للكتمان ، وعلى جهة النِّسيان ، لكُنَّا لا ندرى : لعلَّه قد كان فى زمنِ صِفِّينَ والجمِل والنَّهروانِ حَربٌ مثلها أَو أَشدُّ منها ، ولكن النَّاسَ آثروا الكتمان ، واتَّفقوا على النسيان .

فإذا كان قتلُ الملكِ الرَّجلَ من العُظماءِ بهذه المنزلة من قلوب الأَعداءِ ، ومن قلوب الحكماءِ والغَوْغاء ، فما ظنُّك بمن لو أَبصروا رجلًا قد أَحياه بعد أَن ضرب عنقَه ، وأَبان رأْسَه من جسده ، أَليس كان يكون تعجبُّهم[٦] من إحيائه أَشدَّ من تعجبُّهم من قتله ، وكان يكون إخبارهم مَن خلَّفوا فى منازلهم ومَنْ وَرَدَ عليهم عن القَتْل ليكون سبباً للإخبار عن الإحياء ، إذْ كان الأَوَّلُ صغيراً فى جَنْب الثَّانى .

---

(١) ب ، م : « وليس هم » .
(٢) ب : « يكون » بالياء . وكلمة « له » من ط فقط .
(٣) ب ، م : « ذلك عنده وقلبيه » تحريف .
(٤) ب ، م : « واحد » ، صوابه فى ط .
(٥) يوم الحلبة : يوم سباق الخيل . ب ، م : « خلية » ، صوابه فى ط .
(٦) ط فقط : « أليس يكون يكون تعجبهم » .

فهذا يدلُّ على أنَّ أعلامَ الرُّسل عليهم السلام وآياتِهم أحقُّ بالظُّهور والشهرة ، والقهرِ للقلوب والأسماع ، من مخارجهم وشرائعهم . بل قد نعلم أنَّ موسى عليه السلام لم يُذكَر ولم يُشْهَر إلَّا لأعاجيبه ولآياته . وكذلك عيسى عليه السلام ، ولولا ذلك لما كانا إلَّا كغيرهما ممن لا يُشْعَر بموته ولا مولده .

وكيف تتقدم المعرفة بهما المعرفة بأعلامهما[1] وأعاجيبهما ، وأنت لم تسمع بذكرهما قطُّ ، دون ما ذكر من أعلامهما .

فإذا كان شأْنُ النَّاسِ الإخبارَ عن كلِّ عجيبٍ ، وحكايةَ كلِّ عظيمٍ ، والإطرافَ بكلِّ طريف ، وإيرادَ كلِّ غريبٍ من أُمور دنياهم ، فما لا يمتنع[2] فى طبائعهم ، ولا يَخرُج من قوى الخليقة فى البطش والحيلة ، أحقُّ بالإخبار والإذاعة ، وبالإظهار والإفاضة ، هذا على أن يُترك الطِّباعُ وما يُولَدُ عليه[3] ، والنُّفوسُ وما تُنتج[4] ، والعِلَلُ وما يسخَّر . فكيف إنْ كان الله عز وجل قد خَصَّ أعلامَ أنبيائه وآياتِ رسله عليهم السلام من تهييج الناس على الإخبار عنها[5] ، ومن تسخير الأسماع لحفظها ، بخاصَّة لم يجعلْها لغيرها[6] .

٣٤ ــ فصل منه

فإن قال قائل : إنَّ الحجَّةَ لا تكون حجَّة حتّى تعجز الخليقة[7] ،

(١) ب ، م : « وكيف يتقدم » وبعدها فى ب فقط : « المعرفة » . وتتمة الكلام من م ، ط .

(٢) ب ، م : « ولاما يمتنع » ، صوابه فى ط .

(٣) الطباع : الطبع ، ويكون أيضاً جمعاً للطبع ، كما قال الأزهرى . وفى ط : « وما تولد عليه » ، فلها وجهها .

(٤) ب ، م : « وما ينتج » .

(٥) ب ، م : « عن الإخبار عنها » ، صوابه فى ط .

(٦) ب ، م : « خاصة لم يجعلها لغيرها » .

(٧) ب ، م : « حتى يعجز الخليقة » .

وتخرج[١] من حدِّ الطاقة ، كإحياء الموتى ، والمشْى على الماء ، وكفَلْق البحر ، وكإطعام الثِّمار فى غير أوان الثمار ، وكإنطاق السِّباع ، وإشباع الكثير من القليل ، وكلِّ ما كان جسمًا مُخترعاً ، وجرماً مُبتدعاً . وكالذى لا يجوز أن يتولَّاه إلَّا الخالق ، ولا يقدر عليه إلَّا الله عزَّ ذكره .

فأمَّا الأخبار التى هى أفعالُ العباد ، وهم تَولَّوها ، وبهم كانت وبقولهم حدثَتْ ، فلا يجوز أن يكون حجّة ، إذْ كان[٢] لا حُجَّةَ إلَّا مالا يقدر عليه الخليقة ، وما لا يُتوهَّم من جميع البريَّة .

قلنا : إنَّا لم نَزْعُم أنَّ الأخبار حُجّةٌ فيحتجُّون علينا بها ، وإنَّما زعمنا أنَّ مجيئها حجّةٌ ، والمجىء ليس هو أمرٌ يتكلَّفه الناس ويختارونه على غيره ، ولو كان كذلك لكانوا متى أرادوه فعلوه وتهيَّئوا له ، ولفعلوه فى الباطل[٣] كما يجىءُ لهم فى الحقِّ . والمجىءُ أيضاً ليس هو فعلًا قائماً فيستطيعوهُ أو يعجزوا عنه[٤] ، وإنَّما هو الإنسان ، يعلم أنَّه إذا لقى البَصْريين فأخبروه أنَّهم قد عاينوا بمكة شيئاً ، ثم لقىَ الكوفيِّين فأخبروه بمثل ذلك ، أنَّهم قد صدَقوا[٥] . إذْ كان[٦] مثلهُم لا يتواطأ[٧] على مثل خبرِهم على جَهْلهم بالغيب ، وعلى اختلاف طبائعهم وهممهم وأسبابهم .

فليس بين هذا وبين إحياء الموتى والمشْى على الماء فرق ، إذْ كان الناس لا يقدرون عليه ، ولا يطمعون فيه ، والمجىء إنَّما هو معنىً

---

(١) ب ، م : « ويخرج » .
(٢) ب فقط : « إذا كان » ، تحريف .
(٣) هذا ما فى ط . وفى م : « وتهيئوا لفعله فى الباطل » ، وفى ب : « وتهيأ ولفعلوه فى الباطل » .
(٤) ب ، م : « فيستطيعونه أو يعجزون له عنه » .
(٥) فى ب : « فأخبروه بمثل ذلك قد صدقوا » . وتتمة الكلام من م ، ط .
(٦) ب فقط : « إذا كان » ، تحريف .
(٧) ب ، م : « يتوطأ » ، تحريف .

معقول ، وشيءٌ موهوم . إذْ كان[١] كيف يكون ومعــلومٌ أنَّ الناس لا يمكنهم أن يقدِروا ، ولا يستطيعون فعلَه . وإنَّما مدارُ أمرِ الحُجَّة على عجز الخليقة . فمتى وجَدْتَ أمراً ووجدت الخليقة عاجزةً عنه[٢] فهى حجة . ثمَّ لا عليك جوهراً كان أو عَرَضاً ، أو موجوداً أو متوهَّماً معقولًا . ألا ترى أنَّ فَلْق البحرِ ليس هو من جنس اختراع الثمار ، لأنَّ الفلق هو انفراج أجزاء ، والثمار أجرامٌ حادثة .

وكذلك لو ادَّعى رجلٌ أنَّ الله عزّ وجلّ أرسله وجعل حجَّتَه علينا[٣] الإخبارَ بما أكلْنا وادّخَرنا وأضْمرنا ، لكان قد احتجَّ علينا .

فإن قلتم[٤] : إنَّ المنجِّمين ربَّما أخبروا بالضمير ، وبالأمر المستور ، وببعضِ ما يكون .

قلنا : أمَّا واحدةً[٥] فإنَّ خطأً المنجِّمين كثير ، وصوابهم قليل ، بل هو أقلُّ من القليل . وأنتم لا تقدرون أن تقفونا[٦] من أخبار المرسلين عليهم السلام فى كثير أخبارهم على خطاءٍ واحد[٧] ، والذى سهَّل قليل المنجِّمين طَرَافةُ ذلك منهم[٨] ، لأنَّهم لو قالوا فأخطئوا أبداً لما كان

---

(١) م ، ط : « إذا كان » .

(٢) ب : « غيره عجزه » م : « غير عاجزة » ، صوابهما فى ط .

(٣) ب : « فجعله حجة علينا » تحريف . وفى ط : « فجعل حجته علينا » ، وأثبت ما فى ب .

(٤) ب : « فلم قلتم » تحريف . ط : « فإن قلت » ، وأثبت ما فى م .

(٥) بدله فى ط : « هناك فرق » .

(٦) ط : « أن تقفون » صوابه فى ب ، م .

(٧) ب : « فى كثرة أخبارهم » . ب ، ط : « على خطأ واحد » . والجاحظ يميل كثيراً إلى استعمال « الخطاء » بمعنى الخطأ ، وهو ماورد هنا فى نسخة م . انظر الحيوان ١ : ٢١٣ / ٣ : ٢٥٨ ، ٥٠٠ والبيان ٤ : ١٦ ، ٦٧ .

(٨) الطرافة من الطريف ، وهو الشىء الغريب المستحدث . وفى جميع النسخ : « ظرافة » بالظاء المعجمة ، والظرافة : الكيس والحذق ، ولاوجه لها هنا .

عَجَبا ، لأنَّه ليس بعَجَبٍ أَن يكون الناس لا يعلمون ما يكون قبل أَن يكون ، ومن أَعجبِ العجب أَنْ يوافق قولُهم بعضَ ما يكون .

وقد نجد المنجِّمين يختلفون فى القضيَّة الواحدة ، ويُخطئون فى أَكثرِها . وقد نجد الرَّسولَ يُخبرهم عمَّا يأْكلون ويَشربون ويدَّخرون ويُضْمرون ، فى الأُمور الكثيرة المعانى ، والمختلفةِ فى الوجوه ، حتَّى لا يخطىءَ فى شىءٍ من ذلك . وليس فى الأَرض منجِّم ذكر شيئاً[١] أَو وافَق ضميراً إلَّا وأَنت واجدٌ بعضَ مَن يزجُر[٢] قد يجىءُ بمثله وأَكثر منـه .

فإن قلت : إنَّ الناس يَكْذِبون فى الإِخبار عن الأَعراب والكُهَّان من كلِّ جيل ؟

قلنا : فهم فى إخبارهم عن المنجِّمين أَكْذَب .

وبعدُ ، فالناس غير مستعظمين لكثرةِ كذِب المنجِّمين وخطاياهم وخُدَعهم ، والناس يستعظمون[٣] اليسيرَ من المرسَلين عليهم السلام . وكلَّما كان الرجلُ فى عينك أَعظَمَ ، وكان عن الكذب أَزجَر ، كان كذبه عندك أَعظَمَ . وإنَّما المنجِّم عند العوامِّ كالطبيب الذى إنَّ قَتَلَ المريضَ علاجُه كان عندهم أَنَّ القضاءَ هو الذى قتله[٤] ، وإنْ برأَ كان هو أَبرأَه. على أَنَّ صوابهم أَكثر ، ودليلَهم أَظهر .

وقد صار النَّاسُ لا يقتصرون للمنجِّمين على قدر ما يسمعونَ منهم ، دون أَنْ يولِّدوا لهم ، ويضعوا الأَعاجيب عَنْ أَلسنتهم .

(١) ب ، م : « قال شيئاً » .
(٢) الزجر : ضرب من الكهانة . وفى جميع النسخ : « مايزجر » . ووجهه ما أثبت .
(٣) فى جميع النسخ : « يستقطعون » ، صوابه ما أثبت .
(٤) ب ، م : « إن قبل المريض » ، و « هو الذى قبله » صوابهما فى ط .

وكلُّ ملحدٍ فى الأَرض للرسول طاعنٍ عليه ، عائبٍ له ، يرى أَن يصدِّق عليه كلَّ كذَّابٍ يريد ذمَّه ، وأَن يكذِّب كلَّ صادقٍ يريد مدحه .

وبعدُ ، فلو كان خبرُ المنجمين(١) فى الصواب كخبر الأَنبياء والمرسلين عليهم السلام ، الذى هو حُجَّةٌ ، لما كان خبرُ المنجِّمين حجّة .

فإن قلت : ولِم ذاك ؟

قلتُ : لأَنَّ من كثُر صوابُه على غير استدلالٍ ومقايَسة ، وعلى(٢) غير حسابٍ وتجربة ، أَو على نظرٍ ومُعايَنة لم يكن الأَمر مِنْ قبل الوحى(٣) ؛ لأَنَّك لو قلت قصيدةً فى نفسك فحدَّثَك بها رجل ، وأَنت تعلم أَنَّه ليس بمنجِّم ، وأَنشَدَكَها كلَّهَا ، لعلمت أَنَّ ذلك لا يكون إلَّا بوحى .

ومِثل ذلك رجلٌ اشتدَّ وَجَعُ عينِه فعالجه طبيبٌ فبرأَ(٤) ، فلو جعل الطَّبيبُ ذلك حُجّةً على نُبُوَّته لوجب علينا تكذيبُه ، ولو قال رجلٌ من غير أَن يمسَّه أَو يدنوَ إليه : اللَّهمَّ إن كنتُ صادقاً عليك فاشفِه السَّاعةَ ، فبرأَ(٥) من ساعتِه لعِلْمنا أَنَّه صادق .

فإن قالوا : وما علَّمنا أَنَّ محمداً عليه السَّلامُ لم يكن منجِّماً ؟

قلنا : إنَّ عِلْمَنا بذلك كعِلمنا بأَنَّ العبَّاسَ وحمزةَ وعليًّا وأَبا بكرٍ وعمر ، رضوانُ الله عليهم أَجمعين ، لم يكونوا منجِّمين ، ولا أَطبَّاءَ متكهِّنين . وكيف يجوز أَن يصير إنسانٌ عالماً بالنُّجوم من غير أَن يختلف

---

(١) ب فقط : « غير المنجمين » ، تحريف .
(٢) ب ، م : « على » بسقوط الواو .
(٣) ب ، م . : « لم يكن الأمر قبل الوحى » ، وإكماله من ط .
(٤) ط : « فبرئ » ، وهما لغتان : برأ يبرأ ويبرؤ ، وبرئ يبرأ ، أى شفى من مرضه .
(٥) م ، ط : « فبرئ » .

إلى المنجِّمين ، أَو يختلفوا إليه ، أَو يكونَ علمُ النُّجوم فاشياً فى أَهل بلاده ، أَو يكونَ فى أَهله واحدٌ معروف به . ولو بلغَ إنسانٌ فى علم النجوم ، وليست معه عِلَّةٌ من هذه العلل ، وكان ذلك يخفى ، لكان ذلك كبعض الآياتِ والعلامات .

ومتى رأَينا حاذقاً بالكلام ، أَو بالطِّبِّ ، أَو بالحساب ، أَو بالغناءِ ، أَو بالنُّجوم ، أَو بالعَرُوض ، خَفِيَ على النَّاس موضعُه وسببُه ؟ !

وجميعُ ما ذكرنا ، فعنايةُ الناس به[١] وعداوتُهم ، وشُهرتُه فى نفسه ، دون محمد صلى الله عليه وسلم .

وهل نصب أَحدٌ قطُّ لأَحدٍ إلَّا بدون ما نصَبَ له رهطُه[٢] ، وأَدانى أَهله[٣] ، ومن معه فى بَيته ورَبْعه .

وما أَعرِف ـ يرحمك الله ـ المعاندَ والمسترشِد والمصدِّق والمكذِّب ، ينكر أَنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم لم يكن منجِّماً ولا طبيباً . وإذا قال الجاهل : إنَّه قد كان يعلم الخطَّ فخفىَ له ذلك ، وتعلَّم الأَسبابَ والقضاءَ فى النجوم فخفىَ له ذلك ، وتعلَّم البيان وقدرَ منه[٤] على ما يعجِز أَمثالُه عنه وخفىَ ذلك ، أَليس مع قوله ما يعلمُ خلافَه ، يعلم أَنَّه قد سلَّم له أُعجوبةً كأُعجوبةِ إبراءِ الأَكمهِ والأَبرص ، والمشيِ على الماءِ ، إذْ كان ذلك لا يجوز ، ولا يمكنُ فى الطبائِع والعقل والتَّجرِبة .

وافهمْ يرحمُك الله ما أَنا واصفُه لك : هل يجد التَّارك لتصديقهِ

(١) ب ، م : « عناية الناس به » .
(٢) نصب له : أظهر له العداء . ط : « وهل نسب أحد قط لأحد إلا دون مانسبه له رهطه » ، تحريف . وبعد كلمة « رهطه » فى كل من ب ، م وردت لفظة « نعمة » مقحمة .
(٣) الأدانى : جمع أدنى ، وهو الأقرب . ب ، م : « وأرانى » ، صوابه فى ط .
(٤) ب ، م : « وتعلم البيان على قدر منه » ، صوابه فى ط .

أنَّه لا يدرى بزعمه ، لعلَّه كان أعلمَ الخلق بالنُّجوم ، ناظراً لنفسه ، غير معاندٍ لحجَّة عقله . وهو لم يجد أحداً قطُّ بَرَع فى صناعةٍ واحدة فخفِىَ على الناس موضعُه بكلِّ ما حكينا وفسَّرنا .

وأنت كيف تعلم أنَّه ليس فى إخوانك مَن ليس بمنجِّم ، وأنَّ فيهم من ليس بطبيب ، إلَّا بمثلِ ما يَعرِفُ به رهطُ النبى صلى الله عليه وآله منه .

وكيف لم يشتهر ذلك ، ولم لم يحتجَّ به عليه ؟ ولقد بلغ من إسرافهم فى شتمه ، وإفراطهم عليه ، أنْ نافقُوا وأحالوا ، لأنَّهم كانوا يقولون له : أنت ساحرٌ ، وأنت مجنون ! وإنَّما يقال للرجل : ساحر ، لخلابته وحسن بيانه ، ولُطف مكايده ، وجودة مداراته وتحبُّبه . ويقال : مجنونٌ ، لضدِّ ذلك كله .

٣٥ — فصل منه

وليس ينتفع الناسُ بالكلام فى الأخبار إلَّا مع التَّصادُق ، ولا تصادقَ إلَّا مع كثرة السماع ، والعلمِ بالأُصول ؛ لأنَّ رجلًا لو نازع فى الأخبار ، وفى الوعد والوعيد ، والخاصّ والعامّ ، والناسخ والمنسوخ ، والفريضة والنَّافلة ، والسُّنَّة والشَّريعة ، والاجتماع والفُرقة ، ثم حَسُنت نيَّتُه ، وناضَحَ عن نفسه[1] ، لما عرف حقائق باطلٍ دون أن يكون قد عرف الوجوه ، وسمع الجُمَل[2] ، وعَرَف الموازنة ، وما كان فى الطبائع ، وما يمتنع فيها . وكيف أيضاً يقول فى التأْويل مَنْ لم يسمع بالتنزيل ؟ وكيف يعرف صِدْقَ الخبرِ من لم يعرف سبب الصدق[3] ؟

---

(١) فى اللسان (نضح) : « ويقال هو يناضح عن قومه وينافح عنهم ، أى يذب عنهم » . وفى جميع النسخ : « وناصح عن نفسه » ، صوابه ما أثبت .

(٢) ب : « وسمل الجمل » ، صوابه فى م ، ط .

(٣) م فقط : « سبب الخبر » .

واعلم أنَّ من عوَّد قلبَه التشكُّكَ(١) اعتراه الضعف ، والنَّفس عَرُوف(٢) ، فما عوَّدتَها من شيءٍ جَرَتْ عليه .

والمتحَيِّرُ(٣) إلى تقوية قلبِه وردِّ قوَّته عليه وإفهامه موضعَ رأيه ، وتوقيفِهِ(٤) على الأَمر الذى أثقلَ صَدره(٥) ، أَحوَجُ منه إلى المنازعة فى فرق ما بين المجىءِ الذى يكذِّب مثلُه ، والمجىء الذى لا يكذِّب مثلُه .

وسنتكلَّف من علاج دائِه ، وترتيب إفهامه إنْ أعانَ على نفسه ، بما لا يُبْقِى سبباً للشك ، ولا عِلَّةً للضَّعف . والله تعالى المعينُ على ذلك ، والمحمود عليه .

٣٦ ــ فصل منـــه

ومتى سمِعنا نَبِيَّ الله عليه السلام اتَّكل على عدالته ، وعلى معرفة قومه بقديم طهارته ، وقلَّةِ كذبه ، دون أن جاءهم بالعلامات والبُرهانات؟

ولعمرى لو لم نجد(٦) الحافظ يَنسى ، والصَّادقَ يَكذِب ، والمؤْمنَ يبدِّل ، لقد كان ما ذهبوا إليه وجهاً .

٣٧ ــ فصل منه فى ذكر دلائل النبى عليه الصلاة والسلام

وبابٌ آخر يُعرف به صدقُه ، وهو إخباره عمَّا يكون ، وإخباره عن

---

(١) ب : «التشكلا» ، صوابه فى م ، ط .
(٢) ب ، ط : «عزوف» ، صوابها فى م .
(٣) فى جميع النسخ : «والمتخير» بالخاء المعجمة ، وإنما يراد هنا المتحير المتشكك ، فالوجه ما أثبت .
(٤) فى جميع النسخ : «وتوفيقه» ، تحريف ما أثبت .
(٥) ب : «انقل صدره» صواب هذه ما أثبت . وفى م ، ط : «أشغل صدره» ، وهى صحيحةأيضاً . لكن فى القاموس : «وأشغله لغة جيدة ، أوقليلة ، أو رديئة» .
(٦) ب ، م : «أن لو نجد» ، صوابه فى ط .

ضمائر الناس[١] ، وما يأكلون وما يدّخرون ، ولدعائه المستجاب الذى لا تأخيرَ فيه ، ولا خُلْف له . وذلك أنَّ النبى صلى الله عليه وسلم حين لقىَ من قريشٍ والعربِ ما لقىَ من شِدَّة أذاهُم له ، وتكذيبِهم إيَّاه ، واستعانتِهم عليه بالأموال والرِّجال ، دعا الله جلَّ وعزَّ أنْ يُجدِبَ بلادهم ، وأن يُدخِلَ الفقر بيوتَهم ، فقال صلَّى الله عليه وآله : « اللهمَّ سِنينَ كَسِنِى يوسف[٢] . اللهم اشدُدْ وَطْأَتَك على مُضَر » .

فأَمسَكَ الله عزَّ وجل عنهم المطَرَ حتَّى ماتَ الشَّجر ، وذَهَب الثَّمر ، وقَلَّت المزارعُ ، وماتت المواشى ، وحتَّى اشتَوَوا القِدَّ والعِلهز[٣] .

فعند ذلك وفَد حاجبُ بن زُرارة على كسرى ، يشكو إليه الجَهْد والأَزْل[٤] . ويستأذنه فى رعى السَّواد[٥] ، وهو حين ضمِنه عن قومِه ، وأَرهنَه قوسه . فلمَّا أَصاب مضَرَ خاصَّةً الجهدُ ، وَنَهكهم الأَزْل ، وبلغت الحُجَّةُ مبلغَها ، وانتهت الموعظةُ منتهاها ، عادَ بفضله صلى الله عليه وسلم ، على الذى بدأَهم به ، فسأَل ربَّه الخِصْبَ وإدرار الغَيْث ، فأَتاهم منه ماهَدَم بُيوتَهم ، وَمنعهم حوائِجَهم ، فكلَّموه فى ذلك فقال : « اللهم حَوالَيْنا ولا عَلَيْنَا » . فأَمطر الله عزَّ وجلَّ ما حولهم ، وأَمْسَكَ عنهم .

وكتب إلى كسرى يَدعُوه إلى نجاته وتخليصِه من كُفره ، فبدأَ باسمِهِ على اسمِه ، فأَنِفَ من ذلك كسرى لشِقْوَته ، وأَمَر بتمزيق الكتاب،

---

(١) ب فقط : « ضمير الناس » .

(٢) ب فقط « كسنين يوسف » ، تحريف . وكانت سنو يوسف سبعاً شداداً ذات قحط وغلاء . والحديث من أفراد البخارى . انظر الحديث ٦١٩ من الألف المختارة .

(٣) القد ، بالكسر : سير يقد من جلد غير مدبوغ . والعلهز ، كزبرج : خليط من الدم وأوبار الإبل ، وقد يخلطون به القردان ، ثم يشوونه بالنار ويأكلونه .

(٤) الأزل ، بالفتح : شدة الزمان ، يقال هم فى أزل من العيش وأزل من السنة .

(٥) السواد : جماعة النخل والشجر ، لخضرته واسوداده . وسواد العراق : ما حوالى مدنه من القرى والرساتيق .

فلمَّا بلغه صلَّى الله عليه وسلم قال : « اللهمَّ مزِّقْ مُلْكَه كُلَّ مُمزَّقٍ » . فمزَّق الله جلَّ وعزَّ ملكه ، وجَدَّ أَصله ، وقطع دابرَه ، لأَنَّ كلَّ ملكٍ فى الأَرض ، وإن كان قد أُخرِجَ من مُعظَم ملكِه ، فهو مقيمٌ على بقيَّةٍ منه ، وذلك أَنَّ الإسلام لم يترُكْ مَلِكاً بحيث تنالُه الحوافر والأَخفاف والأَقدام ، إلَّا أزاله عنه ، وأَخرجه منه إلى عِقابٍ يعتصمُ بها[١] ، ومعاقلَ يأْوِى إليها ، أَو طرَدَه إلى خليجٍ منيع ، لا يقطعُه إلَّا السُّفُن[٢] ، فهم من بين هاربٍ قد دخل فى وِجارٍ ، أَو اختفى[٣] فى غَيْضة ، أَو مقيمٍ على فمِ شِعْبٍ ، ورأْس مَضيق ، قد سَخَتْ نفسُه عن كلِّ سهل ، وأَسلَمَ كلَّ مَرْجٍ أَو مُلكٍ لا قرارَ له ، وليس بذى مَدَر فيُؤتَى ، وإنَّما أَصحابه أَكرادٌ يَطلبون النُّجعة ، أَو كخوارج يَطلُبون الغِرّة[٤] . فأَمَّا أَن يكون مَلِكٌ يُصْحِرُ لهم[٥] ، ويقيم بإزائهم ، ويغاديهم الحرب ويُمسِّيهم ، ويساجلهم الظَّفرَ ويناهضهم ، كما كانت ملوكُ الطَّوائف ، وكالذى كان بين فارسَ والرُّوم – فلا ، وذلك لقوله تعالى : ﴿ هو الذى أَرسَلَ رَسولَهُ بالهُدَى ودِينِ الحقِّ ليُظهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّه[٦] ﴾ إلى قوله عزَّ ذكره : ﴿ المشركون[٧] ﴾ . فلم يرضَ أَن أَظهرَ دينَه حتَّى جعل أَهلَه الغالبين بالقُدْرة ، والظَّاهرين بالمنَعة ، والآخذين الإتاوة .

---

(١) العقاب : جمع عقبة ، وهى طريق فى الجبل وعر .
(٢) ب : « لايمنعه » ، صوابه فى م ، ط .
(٣) فى جميع النسخ : « واختفى » ، والوجه ما أثبت .
(٤) ب فقط : « العزة » .
(٥) أصحر : برز وظهر . ب ، م : « يصخر » ط : « يصهر » ، صوابهما ما أثبت .
(٦) الآية ٣٣ من سورة التوبة و ٢٨ من سورة الفتح و ٩ من سورة الصف . وختام الأولى والأخيرة : « ولوكره المشركون » ، وختام الوسطى : « وكفى بالله شهيدا » .
(٧) ب ، م : « الكافرون » ، تحريف ، صوابه فى ط .

وكتب كِسرى إلى فَيْروزَ الدَّيلميِّ[١] ، وهو من بقية أَصحاب سَيفِ بن ذى يَزَن : أَنِ احمِلْ إلىّ هذا العبدَ الذى بدأَ باسمِه قبل اسمى ، واجترأَ علىّ ، ودعانى إلى غير دينى ! فأَتاه فيروزُ فقال : إنَّ ربى أَمرنى أَن أَحمِلَك إليه . فقال صلى الله عليه وسلم : « إنَّ ربِّى خبَّرنى أَنَّه قد قتَل ربَّك البارحة ، فأَمْسِكْ علىَّ ريثَمَا يـأْتيك الخبر ، فإن تبيَّن لك صدقى ، وإلَّا فـأَنـتَ على أَمرك » . فراع ذلك فَيروزَ وهالَه ، وكره الإِقدامَ عليه ، والاستخفافَ به ، فإذا الخبر قد أَتاه : أَنَّ شيرويه قد وثب عليه فى تلك الليلةِ فقتله . فأَسلم وأَخلص ، ودعَا مَنْ معه من بقيَّة الفُرس إلى الله عزّ ذكره[٢] فأَسلموا .

٣٨ ــ فصل منه[٣] فى ذكر النبى صلى الله عليه وآله

ثم إنَّ الذى تقدَّمه صلَّى الله عليه وآله من البُشارات فى الكتب المتقادِمة ، فى الأَزمان المتباعدة ، والبُلدان الموجودة بكلِّ مكان ، على شدة عداوة أَهلِها ، وتعصُّب حامليها ، ومع قوَّة حسدهم ، وشدَّة بغيهم . وما ذلك ببديعٍ منهم ومن آبائهم ، على أَنَّهم أَشبَهُ بـآبائهم منهم بـأَزمانهم . وكلُّ النَّاسِ أَشبه بـأَزمانهم منهم بـآبائهم . وآباؤهم الذين قتلوا أَنبياءَهم عليهم السلام ، وتعنَّتوا رسلهم صلى الله عليهم ، حتَّى خلَّاهم الله عزّ وجل من يده ، وأَفقدهم عِصمتَه وتوفيقه .

---

(١) فيروز الديلمى ، ويقال « فيروز بن الديلمى » كما فى ب ، وهو صحابى يكنى أبا الضحاك ، وأبا عبد الرحمن . وكان من أبناء الأساورة من فارس ، الذين كان كسرى قد بعثهم إلى قتال الحبشة . ووفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وبعد إسلامه رجع إلى اليمن وأعان على قتل الأسود العنسى الكذاب ، وأتى برأسه إلى النبى صلى الله عليه وسلم . وقد سكن مصر . ومات فى خلافة عثمان ، وقيل فى خلافة معاوية ، باليمن سنة ٥٣ . الإصابة ٧٠٠٤

(٢) م : « عز وجل » .

(٣) منه ، ساقطة من ب .

ولِم استدلَّ على ذكره فى التَّوراة والإِنجيل والزَّبور ، وعلى صِفته والبشارة به فى الكُتب إلَّا لأَنَّك[١] متى وجدتَ النَّصرانىَّ واليَهودىَّ يُسلم بأَرض الشام وجدتَه يَحتلُّ بأُمورٍ ، ويحتجُّ بأَشياءَ مثلِ الأُمور التى يحتجُّ بها من أَسلم بالعراق . وكذلك من أَسلم بالحجاز ، ومن أَسلم من اليمن ، من غير تلاقٍ ولا تعارف ، ولا تَشاعُر[٢] . وكيف يتلاقَوْن ويتراسلون ، وهم غير متعارفين ولا مُتشاعرين؟ ولو كانوا كذلك لظهر ذلك ولم ينكتِم ، كما حكينا قبلَ هذا . ولو قابلتَ بين أَخبارهم واحتجاجِهم مع كثرة الأَلفاظ واختلاف المعانى ، لوجدتّها متساوية .

٣٩ ـ فصل منه

فإن قال قائل : لِمَ كانت أَعلامُ موسى عليه السلام فى كثرتِها[٣] مع غَىٍّ بنى إسرائيل ، ونقصان أَحلام القبط ، فى وزنِ أَعلام محمد صلى الله عليه وسلم وفى قَدْرها ، مع أَحلام قريش ، وعُقول العرب .

ومتى أَحببتَ أَن تعرفَ غَىَّ بنى إسرائيل ونُقصان[٤] أَحلام القِبْط ، ورُجحان عقول العرب[٥] ، وأَحلام كنانة[٦] ، فأْتِ[٧] بَواديَهم ورِباعَهم . وانظر إلى بنِيهم[٨] وبقاياهم ، كما نظرتَ إلى بنى إسرائيل من اليهود[٩] وغىٍّ بنى من مضى من القبط ـ تعتبرْ ذلك وتعرفْ

(١) ب ، م : « بأنك » .
(٢) انظر ما سبق فى ص ٢٥٠
(٣) ب ، م : « وكثرتها » .
(٤) ط : « ونقص » .
(٥) رجحان ، ساقطة من ب ، م .
(٦) ب ، م : « وأحكام كنانة » .
(٧) ط : « فانظر » .
(٨) ب : « بينهم » ، صوابه فى م ، ط .
(٩) ب ، م : « من اليهود عليهم لعنة الله تعالى وعز وبين من مضى من القبط » .

ما أقول . ثم انظرْ فى أشعار العرب الصَّحيحة [١] ، والخُطَب المعروفة ، والأَمثال المضروبة ، والأَلفاظ المشهورة ، والمعانى المذكورة ، ممَّا نقلتْه الجماعاتُ عن الجماعات ، وكلام العربِ ومعانيهم فى الجاهليَّة . ثم تفقَّدْ ، وسَلْ أَهلَ العلم والخِبْرة عن بنى إسرائيل ، فإنْ وجدتَ لهم مثلًا سائراً كما تَسمع لِلقبطِ والفُرس ، فضلًا عن العرب فقد أبطَلْنا فيما قلنا .

وقد كان الرَّجلُ من العرب يقف المواقفَ ، ويسيِّر عدَّة أَمثال [٢] ، كلُّ واحدٍ منها ركنٌ يُبنَى عليه ، وأَصلٌ يتفرَّع منه [٣] .

أَوْ هل تسمع لهم [٤] بكلامٍ شريفٍ ، أَو معنًى يستحسنُه أَهلُ التَّجرِبة ، وأَصحابُ التَّدبير والسياسة ، أَو حُكم [٥] أَو حِكْمة ، أَو حِذقٍ فى صناعة ، مع تَرادُف المُلْك فيهم ، وتَظاهُر الرِّسالة فى رجالهم .

وكيف لا تَقضِى عليهم بالغىِّ والجَهْل ، ولم تسمَعْ لهم بكلمةٍ فاخرةٍ ، أَو معنًى نَبيهٍ [٦] ، لا ممَّن كان فى المَبْدَى ، ولا ممَّن كان فى المحْضَر [٧] ، ولا من قاطنى السَّواد [٨] ، ولا مِن نازلى الشَّام ؟

ثم انظُرْ إلى أَولادهم مع طول لُبثهم فينا ، وكَونِهم معنا ، هل غيَّر

---

(١) هذا ما فى م . وفى ب ، ط : « فى الأشعار الصحيحة » .

(٢) ب ، م : « ويسير عدة أميال » ط : « وينشئ عدة أمثال » ، وأثبت الصواب من بينهما .

(٣) ب ، م : « ركن يبنى وأصل لفرع منه » ، صوابه فى ط .

(٤) ب ، م : « أهم » ، صوابه فى ط .

(٥) ب ، م : « أو حكم » .

(٦) النبيه : الجليل المشهور . ب فقط : « بينة » ، تحريف .

(٧) المبدى : مكان خروجهم فى البادية ، خلاف المحضر فى الحاضرة . ب : « المبداء » م ، ط : « المبدأ » ، صوابهما ما أثبت .

(٨) ب فقط : « قاطن السواد » .

ذلك من أَخلاقهم وشمائِلهم ، وعقولِهم ، وأَحلامهم ، وآدابهم ، وفِطَنهم ؟ فقد صَلَح بنا كثيرٌ من أُمور النَّصارى وغيرِهم .

وليس النَّصارى كاليهود ، لأَنَّ اليهود كلَّهم من بنى إِسرائل إلَّا القليل .

وبعدُ ، فلم يضرِبْ فيهم غيرُهم ، لأَنَّ مناكحهم مقصورةٌ فيهم ، ومحبوسةٌ عليهم ، فصُوَر أَوّلهم مؤدَّاةٌ إلى آخرهم[(١)] ، وعقولُ أَسلافهم مردودةٌ على أَخلافِهم[(٢)] ، ثم اعتبر بقولهم لنبيِّهم عليه السلام : ﴿ اجْعَلْ لنَا إِلَهاً كما لَهُمْ آلِهَةٌ[(٣)] ﴾ حين مرُّوا على قومٍ يَعكُفُون على أَصنامٍ لهم يعبدونها . وكقولهم : ﴿ أَرِنَا اللهَ جَهرةً[(٤)] ﴾ ، وكعكوفهم على عجلٍ صُنِع من حُلِيِّهم ، يعبدونه من دون الله ، بعد أَن أَراهم من الآيات ما أَراهم. وكقولهم : ﴿ اذهَبْ أَنتَ وربُّك فقاتِلَا إنَّا هَا هُنَا قَاعِدُون[(٥)] ﴾ ، فكان الذى جاء به مُوسى عليه السلامُ ، مع نَقْص بنى إسرائيل والقِبط ، مثلَ الذى جاء به محمدٌ صلى الله عليه وسلم ، مع رُجحانِ قريشٍ والعرب .

وكذلك وعدُ محمدٍ عليه السلامُ بنار الأَبدِ ، كوعيد موسى بنى إسرائل بإِلقاءِ الهُلَاس على زروعهم[(٦)] ، والهَمِّ على أَفئدتهم ، وتَسْليط المُوتان على ماشيتهم[(٧)] ، وبإِخراجهم من ديارهم ، وأَنْ يظفر بهم

---

(١) فى جميع النسخ : « قصوراً ولهم موداة إلى آخره » ، وأرى الوجه فيما أثبت .

(٢) الأخلاف : جمع خلف ، بالتحريك ، وهو الولد صالحاً كان أو طالحاً . ب ، م « أخلاقهم » ، صوابه فى ط .

(٣) من الآية ١٣٨ من الأعراف .

(٤) من الآية ١٥٣ من النساء .

(٥) من الآية ٢٤ من المائدة .

(٦) الهلاس ، بالضم : شبه السل من الهزال . وفى سفر اللاويين ٢٦ : ١٦ : « أسلط عليكم رعباً وسلا وحمى تفنى العينين ، وتتلف النفس ، وتزرعون باطلا زرعكم فيأكله أعداؤكم » .

(٧) انظر سفر اللاويين ٢٦ : ٢٢ . والموتان ، بالضم ويفتح : موت يقع فى الماشية .

عدوُّهم . فكان تعجيل العذاب الأَدنى(١) فى استدعائهم واستمالتهم ، ورَدْعهم عمَّا يريد بهم ، وتعديلِ طبائعهم ، كتأْخير العذاب الشديد على غيرهم ، لأَنَّ الشديد(٢) المؤخَّر لا يزجُر إلَّا أَصحابَ النَّظر فى العواقب ، وأَصحابَ العقولِ التى تذهب فى المذاهب(٣) .

فسبحانَ من خالَفَ بين طبائعهم وشرائِعهم ليتَّفقوا على مصالحهم فى دُنْياهم ، ومَرَاشِدهم فى دينهم ، مع أَنَّ محمداً صلَّى الله عليه وسلم مخصوصٌ بعلامة لها فى العقل موقع ، كموقع فَلْقِ البحر من العَيْن ، وذلك قوله لقريشٍ خاصّةً ، وللعرب عامَّة ، مَعَ ما فيهما من الشُّعراء والخُطباء والبلغاءِ ، والدُّهاة والحُلَماء(٤) ، وأَصحابِ الرأْى والمكيدة ، والتَّجارب والنَّظر فى العاقبة : إنْ عارضتمونى بسورةٍ واحدةٍ فقد كذبتُ فى دعوایَ ، وصَدَقتم فى تكذيبى .

ولا يجوز أَن يكون مثلُ العربِ فى كثرة عددهم واختلافِ عللهم ، والكلامُ كلامُهم ، وهو سيِّدُ عملِهم ، فقد فاض بيانهم ، وجاشت به صدورهم ، وغلبتهم قُوَّتُهم عليه عند أَنفسهم ، حتَّى قالوا فى الحيَّات والعقارب ، والذِّباب والكِلاب ، والخَنافس والجِعْلان ، والحميرِ والحَمام ، وكلِّ ما دبَّ ودرَج ، ولاح لعينٍ ، وخطر على قلب . ولهم بعدُ أَصنافُ النَّظمِ ، وضروبُ التأْليف ، كالقصيدِ(٥) ، والرَّجز ، والمزدوج ، والمُجانَس(٦) ، والأَسْجاع(٧) والمنثور .

---

(١) ب ، م : « الدون » .
(٢) ب فقط : « لأن العذاب » .
(٣) ب فقط : « بالمذاهب » .
(٤) الحلماء : ذوو الألباب والعقول . م فقط : « والحكماء » .
(٥) ب فقط : « كالقصة » .
(٦) هو ما عرف بعد بالجناس فى اصطلاح البلاغيين .
(٧) ب ، م : « الأشجاع » ، ط : « الأسماع » ، صوابهما ما أثبت .

وبعد ، فقد هَجَوْهُ من كلِّ جانب ، وهاجَى أَصحابُه شعراءَهم[(١)] ، ونازعوا خُطباءَهم ، وحاجُّوه فى المواقف ، وخاصَمُوه فى المواسم ، وبادَوْه العَداوة[(٢)] ، وناصَبُوه الحرب ، فقَتَل منهم ، وقَتَلوا منه ، وهم أَثبتُ النَّاسِ حِقداً ، وأَبعدُهم مطلباً ، وأَذكرهم لخير أَو لشرّ ، وأَنْفاهم له ، وأَهجاهم بالعَجْز ، وأَمدحهم بالقوَّة ، ثمَّ لا يُعارضه معارضٌ ، ولم يتكلَّف ذلك خطيبٌ ولا شاعر .

ومحالٌ فى التعارف ، ومستنكَرٌ فى التصادق ، أَن يكون الكلامُ أَخْصَر عندهم[(٣)] ، وأَيْسَرَ مَئُونةً عليهم ، وهو أَبلغ فى تكذيبهم وأَنقضُ[(٤)] لقوله ، وأَجدر أَن يعرف ذلك أَصحابُه[(٥)] فيجتمعوا على ترك استعماله ، والاستغناء به ، وهم يبذلون مُهَجَهُم[(٦)] وأَموالهم ، ويخرجون من ديارهم فى إِطْفاءِ أَمره ، وفى توهينِ ما جاءَ به ، ولا يقولون ، بل لا يقول واحدٌ من جماعتهم : لِمَ تقتلون أَنفسكم[(٧)] ، وتستهلكون أَموالكم ، وتَخرجون من دِياركم ، والحيلةُ فى أَمره يسيرة ، والمأْخذ فى أَمره قريب ؟ ! ليؤلِّفْ واحدٌ من شعرائكم وخطبائكم كلاماً فى نظم كلامه ، كأَقصر سورة يُخذِّلكم بها ، وكأَصغر آيةٍ دعاكُم إِلى معارضتها . بل لو نَسُوا ، ما تركَهم حتَّى يذكِّرَهم ، ولو تغافلوا ما ترك أَن ينبِّههم ، بل لم يرض بالتَّنبيه دون التوقيف .

(١) ب : « وهجى أصحابه شعراؤهم » .

(٢) يقال باداه بالعداوة : جاهره بها . وبادره إلى الشيء : عاجله وسابقه . ووردت « العداوة » هنا متعدياً إليها الفعل بغير الحرف . وفى ط : « وبادروه العداوة » .

(٣) من الاختصار . وفى اللسان : « الاختصار فى الكلام أن تدع الفضول وتستوجز الذى يأتى على المعنى » .

(٤) ب ، م : « وأنقص » بالصاد المهملة .

(٥) ذلك ، من ط فقط .

(٦) ب ، م : « ويبذلون » ب فقط : « مهجعهم » ، صوابه فى م ، ط .

(٧) ب ، م : « ولم تقتلون أنفسكم » .

فدلَّ ذلك العاقلَ على أَنَّ أَمرهم فى ذلك لا يخلو من أَحد أَمرين :

إِمَّا أَن يكونوا عَرَفوا عجزهم ، وأَنَّ مثلَ ذلك لا يتهيَّأُ لهم ، فرأَوا أَن الإِضرابَ عن ذكره ، والتَّغافلَ عنه فى هذا الباب وإن قَرّعهم به ، أَمثَل لهم فى التدبير ، وأَجْدَر[1] أَن لا يتكشَّفَ أَمرُهم للجاهل والضَّعيف ، وأَجدر أَن يَجدوا إلى الدعوى سبيلًا ، وإلى اختداع الأَنبياءِ سبباً ، فقد ادَّعَوا القُدرة بعد المعرفةِ بعجزِهم عنه ، وهو قوله عزَّ ذكره : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا قالوا قد سَمِعْنا لَوْ نَشَاءُ لقُلْنَا مِثْلَ هذا[2] ﴾ .

وهل يُذعِنُ الأَعرابُ وأَصحابُ الجاهليَّة للتَّقريع بالعجز[3] ، والتَّوقيف على النقص ، ثم لا يبذلونَ مجهودهم ، ولا يخرجون مكنونهم[4] وهم[5] أَشدُّ خلق الله عز وجل أَنَفَةً ، وأَفرطُ حميَّةً ، وأَطلبهُ بطائلة ، وقد سمِعوهُ[6] فى كل مَنهلٍ ومَوقِف . والنَّاس مُوكَّلون بالخَطَابات ، مُولَعون بالبلاغات . فمن كان شاهداً فقد سمعه ، ومن كان غائباً فقد أَتاه به من لم يُزوِّده[7] .

وإمَّا أَن يكونَ غيرُ ذلك .

ولا يجوز أَن يُطْبِقوا[8] على ترك المعارضةِ وهم يقدرون عليها ،

---

(١) ب ، م : « وأحذر » ، تحريف مافى ط .

(٢) الآية ٣١ من سورة الأنفال .

(٣) ب ، م : « والأعراب وأصحاب الجاهلية التفريع بالعجز » . وصواب النص وتمامه فى ط .

(٤) ب ، م : « ثم لا يبذل مجهودها ويخرج مكنونها » ، صوابه فى ط .

(٥) ب ، م : « وهو » .

(٦) ب ، م : « وقد سمعته » .

(٧) نظر إلى قول طرفة فى معلقته :

ستبدى لك الأيام ماكنت جاهلا ويأتيك بالأخبار من لم تزود

ب ، م : « يزوده » ، صوابه فى ط .

(٨) ب ، م : « أن يطيقوا » ، تحريف مافى ط .

لأَنَّه لا يجوز على العدد الكثير من العُقَلاء والدهاة والحُلَماء[١] ، مع اختلاف عِلَلهم ، وبُعْد هِممهم ، وشدَّة عداوتهم الإطباقُ على بذل الكثير ، وصَون اليسير .

وهذا من ظاهر التَّدبير ، ومن جليل الأُمور التى لا تَخفَى على الجُهَّال فكيف على العقلاء ، وأهل المعارف[٢] فكيف على الأَعداء ، لأَنَّ تحبير الكلام أَهْوَنُ من القِتال ، ومن إخراج المال .

ولم يُقَلْ[٣] : إنَّ القوم قد تركوا مساءَلته[٤] فى القرآن والطَّعنَ فيه ، بعد أَن كثُرت خصومتهم فى غيره .

ويدلُّك على ذلك قولهُ عزّ وجلّ[٥] : ﴿ وقال الذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ القُرآنُ جُملةً واحدةً[٦] ﴾ وقوله عز ذكره : ﴿ وإذا تُتْلَى عليهم آياتُنا بيِّناتٍ قال الذين لا يَرْجُونَ لِقاءَنا ائْتِ بقُرآنٍ غَيرِ هذا أَوْ بدلْه[٧] ﴾ ، وقوله تعالى جل ذكره : ﴿ وقال الذِينَ كَفَرُوا إنْ هَذَا إلَّا إفْكٌ افْتَرَاهُ وأَعانَهُ عليه قَومٌ آخرونَ[٨] ﴾ .

ويدلُّك كثرةُ هذه المراجَعَة ، وطولُ هذه المناقلة ، على أَنَّ التقريع[٩] لهم بالعَجْز كان فاشياً ، وأَنَّ عجزَهم كان ظاهراً .

---

(١) ط فقط : « والحكماء » بالكاف . وانظر ما سبق فى ٢٧٥ .
(٢) ب ، م : « وعلى المعارف » ، تحريف مافى ط .
(٣) م ، ب : « ولم تقل » ، وأثبت مافى ط .
(٤) م : « مسايلته » ، وهى لغة جائزة فيها .
(٥) ذلك ، ساقطة من ب . وفى ب ، م : « عز ذكره » .
(٦) الآية ٣٢ من الفرقان . وفى م : « أنزل عليه » تحريف .
(٧) الآية ١٥ من يونس .
(٨) الآية ٤ من الفرقان .
(٩) م ، ط : « التفريع » ، صوابه فى ب .

ولو لم يكن النبيُّ صلى الله عليه وسلم تَحدَّاهم بالنَّظْرَ والتأْليف(١) ، ولم يكن أَيضاً أَزاحَ عِلَّتهم ، حتَّى قال تعالى : ﴿ قلْ فأْتُوا بعَشْرِ سُوَرٍ مثلِهِ مُفْتَرَيات(٢) ﴾ وعارِضُونى بالكذب ، لقد كان فى تفصيله له وتركيبِه ، وتقديمه له واحتجاجه ، ما يدعو إلى معارضته ومغالبته وطلب مَسَاويه .

ولو لم يكن تحدَّاهم من كلٍّ ما قلنا ، وقَرَّعهم بالعَجْز عمَّا وصفنا — وهلْ هذا(٣) إلَّا بمديحه له ، وإكثاره فيه — لكان ذلك سبباً مُوجباً لمعارضَتِه ومُغالبته وطلبِ تكذيبه ، إذْ كان كلامُهم هو سيِّدَ عملهم ، والمئونةُ فيه أَخفُّ عليهم ، وقد بَذَلوا النُّفوسَ والأَموال . وكيف ضاعَ منهم ، وسَقَط على جماعتهم نيِّفاً وعشرين سنة ، مع كَثْرةِ عددهم ، وشِدَّة عُقولهم ، واجتماعِ كلمتهم ؟!

وهذا أَمرٌ جليلُ الرَّأْى ، ظاهرُ التدبير(٤) .

٤٠ — فصل منه فى ذكر امتناعهم من معارضة القرآن لعلمهم بعجزهم عنها(٥)

والذى مَنَعهم من ذلك هو الذى منع ابن أَبى العَوْجاء(٦) ، وإسحاق بن

---

(١) ب ، م : « والتأليف » .

(٢) الآية ١٣ من سورة هود . وبدلها لها فى ب ، م : « فهاتوا مفتريات » ، ويصح هذا الكلام لو لم يكن مسبوقاً بكلمة « تعالى » .

(٣) ب ، م : « قل هذا » .

(٤) بعده فى ب : « لا يحمل من ابتداء القول فيه وساربه » ، وفى م : « لحمل من ابتدأ القول فيه وساربه » ، وهاتان العبارتان لم تردا فى ط .

(٥) ط : « فى كراهة امتناعهم عن معارضة القرآن لعجزهم عنها » ، صوابه فى ب ، م

(٦) هو عبد الكريم بن أبى العوجاء ، من بنى عمرو بن ثعلبة بن عامر بن ذهل بن ثعلبة بن عكابة ، وكان أحد الزنادقة ، صلبه محمد بن سليمان بن على بن عبد الله بن العباس بالبصرة . جمهرة ابن حزم ٣١٦ . وكان خال معن بن زائدة ، وجمع بين أربعة أنواع من الضلالة : كان يرى فى السردين المانوية من الثنوية ، وكان يقول بالتناسخ ، وكان يميل إلى رأى الرافضة فى الإمامة ، والرابع قوله بالقدر فى أبواب التعديل والتجوير . الفرق بين الفرق ٢٥٥ — ٢٥٦ .

طالوت (١) ، والنعمان بن المنذرِ ،وأشباهَهم من الأَرجاس ، الذين استبدلوا بالعزِّ ذُلاًّ ، وبالإيمان كُفْراً ، والسَّعادةِ شِقوةً (٢) ، وبالحجَّة شُبْهةً .

بل لا شُبْهة فى الزَّندقة خاصَّة . فقد كانوا يَصنَعُون الآثار ، ويولِّدون الأَخبار ، ويبثُّونها فى الأَمصار ، ويَطعنون فى القرآن ، ويَسأَلون عن مُتشابهِ ، وعن خاصِّهِ وعامِّه (٣) ، ويضعون الكتبَ على أَهله . وليس شىءٌ مما ذكرنا يستطيع دَفْعَه جاهلٌ غبىٌّ (٤) ، ولا معانِدٌ ذكىٌّ .

٤١ — فصل منه

ولمَّا كان أَعجبُ الأُمورِ عندقومِ فرعونَ السِّحرَ ، ولم يكن أَصحابُه قطُّ فى زمانٍ أَشدَّ استحكاماً فيه منهم فى زمانه ، بعث الله موسى عليه السلام على إبطالِه وتَوهينه ، وكشْفِ ضَعْفه وإظهاره ، ونقض أَصله (٥) لردع الأَغبياءِ من القوم (٦) ، ولمن نشأَ على ذلك من السِّفلة والطَّغام . لأَنَّه لو كان أَتاهم بكلِّ شىءٍ ، ولم يأْتهم بمعارضة السِّحر حتَّى يفصل بين الحجّة والحيلة ، لكانت نفوسُهم إلى ذلك متطلِّعة ، ولَاعتلَّ به أَصحاب الأَشغاب (٧) ، ولشغلوا به بالَ الضَّعيف (٨) ، ولكن الله تعالى جدُّه ، أَراد حَسْم الداءِ ، وقَطْعَ المادة ، وأَن لا يجدَ المُبْطلون متعلَّقا ،

---

(١) يبدو أنه أحد الزنادقة ، ولم أجد له خبراً .

(٢) ب ، هـ : « شقاوة » ، وهما بمعنى ما يقابل السعادة . وفى التنزيل العزيز : « ربنا غلبت علينا شقوتنا » ، وقرأ ابن مسعود : « شقاوتنا » .

(٣) ب : « وعن خاصة وعامة » ، صوابه فى م ، ط .

(٤) ب : « عى » م : « غى » ، صوابهما فى ط .

(٥) ب فقط : « ونقص أصله » ، تحريف .

(٦) بدل هذا كله فى ب : « لأغبيا القوم » وفى م : « الأغنياء القوم »

(٧) الأشغاب : جمع شغب ، بالتحريك ، وهى لغة ضعيفة فى الشغب ، بالفتح ، وهو تهييج الشر . وفى ب : « الأشعاب » وفى ط : « الأشغال » ، وأثبت مافى م .

(٨) ب فقط : « باب الضعيف » .

ولا إلى اختداع الضُّعفاءِ سبيلًا [1] ، مع ما أَعطى الله موسى عليه السَّلام من سائر البرهانات ، وضروب العلامات .

وكذلك زَمنُ عيسى عليه السلام كان الأَغلبُ على أهله ، وعلى خاصّة علمائِه الطِّبَّ ، وكانت عوامُّهم تعظِّم على ذلك خواصَّهم ، فأَرسَله الله عزَّ وجلّ بإحياءِ الموْتَى ؛ إِذْ كانت [2] غايتهم علاجَ المرضى . وأَبرأَ لَهُم الأَكمه [3] إِذْ كانت غايتهم علاجَ الرَّمِد [4] ، مع ما أَعطاه الله عزَّ وجلّ من سائر العلامات ، وضروبِ الآيات ؛ لأَنَّ الخاصَّة إذا بَخَعت بالطَّاعة [5] ، وقهرتها الحجَّة ، وعَرفَتْ موضعَ العجز والقُوَّة ، وفَصْلَ ما بين الآيةِ والحيلة ، كان أَنجعَ للعامَّة ، وأَجدر [6] أَن لا يبقى فى أَنفسهم بقيَّة .

وكذلك دَهْرُ محمّدٍ صلى الله عليه وسلم ، كان أَغلبُ الأُمور عليهم ، وأَحسنُها عندهم ، وأَجلُّها فى صدورهم ، حُسْنَ البيانِ ، ونَظْمَ ضروب الكلام ، مع عِلمهم له ، وانفرادِهم به . فحين استحكمت لفهمهم [7] وشاعت البلاغةُ فيهم ، وكثُر شعراؤُهم ، وفاقَ النَّاسَ خطباؤُهم ، بعثَه الله عزّ وجلّ ، فتحدَّاهم بما كانوا لا يشكُّون أَنَّهم يقدرون على أَكثَرَ منه .

---

(١) ب ، م : « للضعفا سبيلا » .

(٢) ب فقط : « إذا كانت »

(٣) ب : « وإبرائهم الأكمه » تحريف . وفى ط : « وإبراء الأكمه » ، وأثبت مافى م . والأكمه : الذى يولد أعمى .

(٤) الرمد : وجع العين وانتفاخها ، وهو أرمد ورمد ، والأنثى رمداء . ب ، م : « الرمدى » ، صوابه فى ط .

(٥) بخعت : خضعت وأقرت . وفى ط فقط : « نجعت » تحريف وانظر ما مضى فى ص ٢٥٥ .

(٦) ب فقط : « واحدر » ، تحريف .

(٧) لفهمهم ، ساقطة من ب .

فلم يَزلْ يقرِّعهم بعجزِهم ، وينتقِصُهم على نَقْصهم[١] ، حتى تبيَّن ذلك لضعفائهم وعوامِّهم ، كما تبيَّن لأَقويائهم وخَواصِّهم . وكان ذلك من أَعجب ما آتاه اللهُ نبيًّا قطُّ[٢] ، مع سائر ما جاءَ به من الآيات ، ومن ضُروب البُرهانات .

ولكلِّ شيءٍ بابٌ ومَأْتًى ، واختصارٌ وتقريب . فمِن أَحكمِ الحكمة إرسالُ كلِّ نَبيٍّ بما يفحِمُ أَعجَبَ الأُمورِ عندهم[٣] ، ويُبْطِلُ أَقوى الأَشياء فى ظَنِّهم .

٤٢ — فصل فى ذكر أخلاق النبى صلى الله عليه وسلم

وآيةٌ أُخرى لا يَعرِفها إلَّا الخاصَّة ، ومتى ذكرتُ الخاصَّةَ فالعامَّةُ فى ذلك مثلُ الخاصَّة . وهى الأَخلاق والأَفعال التى لم تجتمع لبشرٍ قطُّ قبلَه[٤] ، ولا تجتمع لبشَرٍ بعده .

وذلك أَنَّا لم نرَ ولم نسمعْ لأَحدٍ قطُّ كصَبرِه ، ولا كحلمِه ، ولا كوفائه ، ولا كزُهده ، ولا كجُوده ، ولا كنجدته ، ولا كصدْقِ لهجتِه ، وكرم عِشْرتِه[٥] ، ولا كتواضُعه ، ولا كعِلمه ، ولا كحِفْظه ، ولا كصمتِه إذا صَمَت ، ولا كقوله إذا قال ، ولا كعجيب مَنشئِه[٦] ، ولا كقلَّة

---

(١) انتقصه واستنقصه : نسب إليه النقصان . ب ، م : « ينقفهم » ، ط : « ينقصهم » ، والوجه ما أثبت .

(٢) لفظ الجلالة ثابت فى ط فقط .

(٣) أصل الإفحام الإسكات عن الجواب ، والمراد الفوق والغلبة . ب ، م : « يفهم » صوابه فى ط .

(٤) ب ، م : « لبشرى » فى هذا الموضع وتاليه . وأثبت ما فى ط . والبشر : الإنسان ، يطلق على الواحد والمثنى والجمع والمذكر والمؤنث . وقد يجمع على أبشار ، ويثنى كما فى قوله تعالى : « أنؤمن لبشرين مثلنا » .

(٥) العشرة : المخالطة والمصاحبة . وفى جميع النسخ : « عشيرته » ، صوابه ما أثبت . وأما عشيرة الرجل فهم بنو أبيه الأقربون وقبيلته .

(٦) ب ، م : « منشاه » .

تلوّنه ، ولا كعَفوِهِ ، ولا كدوام طريقته ، وقلّة امتنانه .

ولم نَجِد[١] شجاعاً قطُّ إلّا وقد جال جَولةً ، وفرَّ فرّة ، وانحاز مَرّة ، من مَعدودِى شُجعان الإسلام ، ومشهورِى فُرْسان الجاهليَّة ، كفلان وفلان .

وبَعْدُ ، فقد نَصَرَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهاجَرَ معه قومٌ ، ولم نر كنجدتهم نَجْدَةً ، ولا كصبرهم صبراً . وقد كانت لهم الْجَوْلةُ والفَرَّة[٢] ، كما قد بلغك عن يوم أُحد ، وعن يوم حُنَين ، وغير ذلك من الوقائع والأَيّام .

فلا يستطيع منافقٌ ولا زِنديقٌ ولا دُهرىٌّ ، أَنْ يحدِّث أَنَّ محمداً عليه السلام جال جَولةً قطُّ[٣] ، ولا فَرّ فَرّةً قطُّ ، ولا خَام عن غَزْوة ، ولا هابَ[٤] حَرْبَ من كاثره .

(١) ب ، م : « ولم تجد » بالتاء .
(٢) ب ، م : « والعزة » ، وليست مرادة هنا .
(٣) ب ، م : « فقط » فى هذا الموضع وتاليه ، والصواب فى ط .
(٤) ب ، م : « وهاب » .

٩

من كتابه في

خَلقُ القُرآن

١ — فصل من صدر كتابه فى خلق القرآن(١)

ثبَّتك الله بالحجَّة ، وحصَّنَ دينك من كلِّ شُبهة ، وتَوفَّاك مسلماً ، وجعلك من الشاكرين .

وقد أعجبنى(٢) ، حفِظَك الله ، استهداؤُك العِلمَ وفهمُك له ، وشَغَفُك بالإنصاف وميلُك إليه ، وتعظيمُك الحقَّ ومُوالاتُك فيه ، ورغبتُك عن التَّقليد وزرايتُك عليه(٣) ، ومُواترةُ كُتُبِكَ على بُعْدِ دارِك ، وتقطُّعِ أسبابِك ، وصَبْرُك إلى أوان الإمكان ، واتِّساعُك عند تَضايُقِ العُذْر .

وفهمتُ ، حفظك الله ، كتابَك الأوّل ، وما حثثتَ عليه من تبادُل العِلْم(٤) ، والتَّعاونِ على البحث ، والتَّحابِّ فى الدين ، والنصيحةِ لجميع المسلمين .

وقلتَ : اكتبْ إلىّ كتاباً تَقْصِد فيه إلى حاجات النُّفوس ، وإلى صَلَاح القلوب ، وإلى مُعتَلِجات الشُّكوك ، وخواطر الشُّبهات ، دونَ الذى عليه أكثرُ المتكلِّمين من التَّطويل ، ومن التعمُّقِ والتعقيد ، ومن تكلُّف مالا يجب ، وإضاعةِ ما يجب .

وقلت : كُنْ كالمعلِّم الرَّفيق ، والمعالج الشفيق ، الذى يعرف الداءَ وسببَه ، والدواءَ وموقعَه ، ويَصبِر على طُول العلاج ، ولا يَسْأَم كثرةَ التَّرداد .

---

(١) هذا العنوان ساقط من ط ، والكلام فيها متصل بما سبق . ومثل ذلك فيما نشره السندوبى فى رسائل الجاحظ ١٤٧ وهو مظنة النقل من ط .

(٢) ط : : « قد أعجبنى » بطرح الواو .

(٣) ط فقط : « ودرايتك عليه » .

(٤) ب ، م : « وما حثيت عليه من تباذل العلم » .

وقلت : اجعلْ تجارتك التى إيَّاها تُؤمِّل ، وصناعتَك التى إيَّاها تعتمد — إصلاحَ الفاسدِ ، وردَّ الشَّارد .

وقلت : ولا بدَّ من استجماع الأُصول ، ومن استيفاءِ الفروع ، ومن حَسْمِ كلِّ خاطر ، وقَمْعِ كلِّ ناجم ، وصرفِ كلِّ هاجس ، ودفعِ كلِّ شاغل ، حتى تتمكَّن من الحجَّة[١] ، وتتهنَّأ بالنعمة[٢] ، وتجد رائحةَ الكفاية ، وتَثْلَج ببرد اليقين ، وتُفْضِيَ إلى حقيقة الأَمر . إن كان لا بدَّ من عوارض العجز ، ولواحق التَّقصير ، فالبرُّ لها أَجمل[٣] ، والضرر علينا فى ذلك أَيسر .

وقلت : ابدأْ بالأَقرب فالأَقرب[٤] ، وبكلِّ ما كان آنقَ فى السَّمع ، وأَحلى فى الصَّدر ، وبالباب الذى منه يُؤتى الرَّيِّض المتكلِّف[٥] ، والجَسُورِ المتعجرف ، وبكلِّ ما كان أَكثَرَ علماً ، وأَنفذ كَيْدا .

وسأَلتنى بتقْبيح الاستبْداد[٦] ، والعجلةِ إلى الاعتقاد ، وصِفة الأَناة ومقدارِها ، ومقدِّمات العلوم ومنتهاها . وزعمتَ أَنَّ من اللفظ مالا يُفهَم معناه دون الإِشارة ، ودونَ معرفة السَّبب والهيئة ، ودون إِعادَته وكرِّه[٧] وتحريره واختيارِه[٨] .

---

(١) ب ، م : « حتى يتمكن من الحجة »

(٢) ب : « ويهنأ بالنعمة » ، م : « ويتهنأ بالنعمة » ، صوابهما فى ط .

(٣) ب ، م : « فالفروع لها أجمل » ، صوابه فى ط .

(٤) فى الأصول : « بالأخوف فالأخوف » ، صوابه ما أثبت . وانظر ما سيأتى فى ٢٩٣ س ١٠ .

(٥) أصله من الريض من الدواب ، وهو الذى لم يقبل الرياضة ولم يمهر المشية ولم يذل لراكبه ، فالمراد الذى يعسر التفاهم معه . ب ، ط : « المريض » م : « الربض » بالباء ، صوابهما ما أثبت .

(٦) ب ، م : « بتفتيح الاستنداد » ، ط : « بتفتيح الاستداد » ، والوجه ما أثبت .

(٧) ب ، م : « دون إعارته وكسوه » ط : « دون إعارته وركته » وبسقوط الواو منهما ، صوابهما ما أثبت . والكر : الإعادة ، يقال كر عليه الحديث : أعاده .

(٨) فى جميع النسخ : « وتحديده واحتيازه » ، تحريف ما أثبت .

وقلت : فإنْ أنت لم تصوِّر ذلك كلَّه صورة تُغْنِى عن المشافهة ، وتكتفى بظاهرها عن المراسلة[١] ـ أَحوجْتَنا إلى لقائك ، على بُعْد دارك[٢] ، وكثرةِ أشغالك ، وعلى ما تَخاف من الضَّيعة وفساد المعيشة .

فكتبت لك كتاباً ، أجهدتُ فيه نفسى[٣] ، وبلغت منه أقصى ما يمكن مثلى فى الاحتجاج للقرآن ، والرَّدِّ على كلِّ طعَّان . فلم أَدَعْ فيه مسألةً لرافضىٍّ ، ولا لحديثىٍّ ، ولا لحُشْوىٍّ ، ولا لكافرٍ مُبادٍ ، ولا لمنافقٍ مقموع ، ولا لأصحاب النَّظَّام ، ولمن نَجَمَ بعدَ النَّظَّام ، ممَّن يزعُم أنَّ القرآن خَلْقٌ[٤] ، وليس تأليفُه بحجَّة ، وأنَّه تنزيلٌ وليس ببُرهان ولا دَلالة .

فلمَّا ظننت[٥] أنِّى قد بلغت أقصَى محبَّتك ، وأتيتُ على معنى صفتك ، أتانى كتابُك تذكر أنَّك لم تُرد الاحتجاجَ لنظم القرآن ، وإنَّما أردت الاحتجاجَ لخَلْق القرآن . وكانت مسألتك مبهمةً ، ولم أك أنْ أُحدثَ لك فيها تأليفاً[٦] ، فكتبت لك أشقَّ الكتابين وأثقلهما ، وأغمَضَهُمَا معنىً وأطولَهما .

ولولا ما اعتللتَ به من اعتراض الرَّافضة ، واحتجاج القومِ علينا بمذهب مُعمَّر[٧] ، وأبى كَلَدة[٨] ، وعبد الحميد ، وثُمامة[٩] ، وكلٍّ مَنْ

(١) ط فقط : « المرسلة » .
(٢) م فقط : « بد دارك » ، تحريف .
(٣) ب ، م : « أجبّهد فيه نفسى » ، صوابه فى ط .
(٤) خلق ، أى مخلوق . وفى جميع النسخ : « حق » .
(٥) ب فقط : « فما ظننت » .
(٦) فى جميع النسخ : « تأليفه » ، والوجه ما أثبت .
(٧) معمر بن عباد السلمى ، صاحب فرقة المعمرية من المعتزلة . الملل ١ : ٨٣ / ٢ : ١٦ والمواقف ٦٢٣ والفرق بين الفرق ١٣٦ . وهو بتشديد الميم كما فى لسان الميزان ٦ : ٧١ .
(٨) أبو كلدة : ذكر الجاحظ بعض آرائه فى الحيوان ١ : ٣/٢٢٤ : ٣٩٥ / ٤ : ٣٣٢ .
(٩) ثمامة بن أشرس : أحد المعتزلة البصريين . ورد بغداد واتصل بهارون وغيره من الخلفاء . وله أخبار ونوادر يحكيها عنه أبو عثمان الجاحظ وغير واحد . تاريخ بغداد ٧ : ١٤٥=

زعَم أَنَّ أَفعال الطَّبيعة مخلوقة على المجاز دون الحقيقة ، وأَنَّ متكلِّمى الحَشْوِيَّة[١] والنابتة قد صار لهم بمناظرة أَصحابنا ، وبقراءة كُتبنا بعض الفطنة – لمَا كتبتُ لك ، رغبةً بك عن أَقدارهم ، وضَنًّا[٢] بالحكمة عن إعثارهم[٣] ، وإنَّما يكتب على الخصوم والأَكْفاء[٤] ، وللأَولياء على الأَعداء ، ولمن يرى[٥] للنَّظر حقًّا ، وللعلم قَدْراً ، وله فى الإنصاف مذهبٌ ، وإلى المعرفة سبب .

وزعمتَ أَنَّك لم تر فى كُتُب أَصحابنا إلَّا كتاباً لا تفهمُه ، أَو كتاباً وجدتَ الحجَّة على واضع الكتابِ فيه أَثْبَت .

وقلت : وإيَّاك أَن تتَّكل على مقدارِ ما عِندهم ، دون أَن تعتصر[٦] قُوَى باطلهم ، وتوفِّيَهم جميعَ حقوقهم ، وإذا تقلَّدتَ الإخبار عن خَصْمك فحُطْه كحياطتك لنفسك ، فإنَّ ذلك أَبلغُ فى التَّعليم ، وآيَسُ[٧] للخُصوم .

= وانظر البيان : ١٠٥ وعيون الأخبار ٣ : ٣٧ وتأويل مختلف الحديث ٦٠ والفرق ١٥٩ ولسان الميزان ٢ : ٨٤ .

(١) الحشوية : بفتح الشين وسكونها ، فبالسكون نسبة إلى الحشو ، وبالفتح نسبة إلى الحشا ، لأن الحسن البصرى أمر بردهم إلى حشا الحلقة ، أى جانبها ، وهم طائفة اختلف العلماء فى تعريفها . فابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ يذكر فى تأويل مختلف الحديث ص ٩٦ أنها من الألقاب التى كان أهل الحديث يلقبون بها . قال : « وقد لقبوهم بالحشوية والنابتة والمجبرة » . وقال النوبختى فى كتاب فرق الشيعة ص ٧ : « والبترية أصحاب الحديث منهم سفيان بن سعيد الثورى ، وشريك بن عبد الله ، وابن أبى ليلى ، ومحمد بن إدريس الشافعى ، ومالك بن أنس ، ونظراؤهم من أهل الحشو والجمهور العظيم . وقد سموا الحشوية . ويطلقون هذا اللفظ أيضاً على « المشبهة » الذين يشبهون الله بخلقه وكذا على المجسمة . انظر شفاء الغليل ٧١ . وفى ب ، م : « الحشوة » ، صوابه فى ط .

(٢) ب ، م : « وظنا » ، صوابه فى ط .

(٣) أعثره على الأمر : أطلعه عليه . وفى التنزيل العزيز : « وكذلك أعثرنا عليهم » ، أى أطلعنا .

(٤) ب فقط : « عن الخصوم والأكفاء » .

(٥) ب ، م : « لمن يرى » بسقوط الواو .

(٦) ب ، م : « تقتصر » ، صوابه فى ط .

(٧) ب ، م : « واليس » .

وقلت : وزعموا أنَّه يلزُمك أن تزعم أنَّ القرآن ليس بمخلوقٍ إلَّا على المجاز ، كما ألزم ذلك نَفْسه[١] معمَّر وأبو كَلَدة وعبدُ الحميد وثُمامة ، وكلٌّ مَن ذَهَب مذهبَهم ، وقاس قياسَهم .

فتفهَّمْ ـ فهَّمك الله ـ ما أنا واصفُه لك ، ومُورِدُه عليك[٢] :

اعلم أنَّ القوم يلزمهم ما ألزمُوه أنفسَهم ، وليس ذلك إلَّا لعجزهم عن التخلُّص بحقِّهم ، وإلَّا لذَهابهم عن قواعد قولهم[٣] ، وفرُوع أُصولهم، فليس لك أن تضيف العجز الذى كان منهم إلى أصل مقالتهم ، وتحمل ذلك الخطأ على غيرهم[٤] . فلرُبَّ قولٍ شريفِ الحسب ، جيِّد المُركَّب ، وافرِ العِرض ، برىءٍ من العُيوب، سليمٍ من الأَفْن ، قد ضيَّعه أهلُه ، وهجَّنه المفْتَرون عليه ، فألزموه مالا يلزُمه ، وأضافوا إليه مالا يجوز عليه .

ولو زعم القومُ على أصل مقالتهم أنَّ القرآن هو الجسم دونَ الصَّوت والتقطيع ، والنَّظم والتَّأْليف ، وأنَّه ليس بصوتٍ ولا تقطيع ولا تأْليف ، إذْ كان الصوت عندهم لا يُختَرع كاختراع الأَجسام المصوَّرة[٥] ، ولا يحتمل التَّقطيع كاحتمال الأَجرام المتجسِّدة ، والصَّوتُ عَرَضٌ ، لا يحدث من جوهرٍ إلَّا بدخولِ جوهرٍ آخَرَ عليه ، ومحالٌ أن يَحدُثَ إلَّا وهناك جِسمانِ قد صكَّ أَحدُهما صاحبَه ، ولا بدَّ من مكانين : مكانٍ زال عنه ، ومكانٍ آل إليه . ولا بد من هواءٍ بين المُصْطكَّين . والجسمُ قد يحدُثُ وحدَه ولا شيء غيره ، والصَّوت على خلافِ ذلك .

---

(١) ط فقط : « لنفسه » .
(٢) ط فقط : « ومورد عليك » .
(٣) ب ، م : « عواقب قولهم » .
(٤) ب ، م : « ولحمل » تحريف . وفى م أيضاً : « الحظا » تحريف .
(٥) ب ، م : « المصوبة » ، صوابه فى ط .

والعرض لا يَقُوم بنفْسه ، ولا بدَّ من أَنْ يقومَ بغيره ، والأَعراض من أَعمال الأَجسام ، لا تكون إلَّا منها ، ولا تُوجد إلَّا بها وفيها(١) . والجسم(٢) لا يكون إلَّا من جسم ، ولا يكون إلَّا مِنْ مخترع الأَجسام . وليست لكون الجسمِ من الله عِلَّةٌ توجبه ، ولا يَحدُث إذَا حدثَ إلَّا اختياراً ، وإلَّا ابتداعاً واختراعاً . والصَّوت لا يكون إلَّا عن علَّةٍ موجبة ، ولا يكون إلا تولُّداً ونتيجةً ، ولا يحدُث إلَّا من جِرمَين ، كاصطكاك الحجَرين ، وكقَرْع اللِّسان باطن الأَسنان ، وإلَّا من هواءٍ يَتَضاغط(٣) ، وريح تختنق(٤) ، ونارٍ تلتهب . والرِّيح عندهم هواءٌ تحرَّك ، والنَّار عندهم ريحٌ حارَّة . هكذا الأَمرُ عندهم .

فلو قالُوا : لا يكون الشيءُ مخلوقاً فى الحقيقة ، دون المجازِ وعلى مجازىٍّ اللغة ، إلَّا وقد بانَ الله عز وجلَّ باختراعه ، وتولَّاه بابتداعه ، وكان منه على اختيارٍ ، والابتداعُ(٥) : الذى يمكن تَركُه وإنشاءُ عَقِيبه بدلًا منه ، على ما كان يوكِّده(٦) ، ونتيجتُه من أَجسامٍ يستحيل أَن يُخلَق من أَفعالها ، ويَجلبها الله تعالى منها(٧) .

والقرآن على غيرِ ذلك ، جسمٌ وصوت ، وذو تأْليفٍ وذو نظمٍ ، وتوقيعٍ وتقطيع ، وخلقٌ قائمٌ بنفسه ، مستغنٍ عن غيره ، ومسموع فى الهواءِ(٨) ، ومرئىٌّ فى الوَرَق ، ومفصَّل وموصَّل ، واجتماعٌ وافتراق ،

---

(١) ب ، م : « لايكون » و « ولا يوجد » بالياء فيهما ، والصواب من ط .
(٢) ب فقط : « من الجسم » ولا وجه له .
(٣) ب ، م : « والأمر هواء يتضاغط » ، تحريف .
(٤) ب : « تحيق » ، م « تخنيق » محرف .
(٥) ب : « والابتدا » ، صوابه فى م ، ط .
(٦) ب : « بولده » م : « تولده » ، وأثبت مافى ط .
(٧) م : « ويجعلها » ط : « ويحلها » ، وأثبت مافى ب .
(٨) ب ، ط : « فى الهوى » ، صوابه فى م .

ويحتمل الزِّيادة والنُّقصان ، والفَنَاءَ والبَقَاءَ ، وكلُّ ما احتملتْهُ الأَجسام ، ووُصِفَتْ به الأَجرام . وكلُّ ما كان[١] كذلك فمخلوقٌ فى الحقيقة دون المجاز وتوسُّعِ أَهلِ اللغة .

فلو كانوا قالوا ذلك لكانوا أَصابوا فى القياس ، ووافَقُوا أَهلَ الحقِّ ، وكانوا مع الجماعة ، ولم يُضَاهُوا أَهل الخِلاف والفُرْقة ، ولم يَصِموا أَنفسَهم[٢] بقول المشبِّهة ، إِذْ كان ظاهر قولهم على التَّشبيه أَدلَّ ، وبه أَشبه .

ولا يجوز أَن أَذكر موافقتى لهم ، ومخالفتى عليهم فى صدرِ هذا الكتاب ، لأَنَّ التدبير فى وضع الكتاب ، والسياسةَ فى تعليم الجهّال أَن يُبدَأَ بالأَوضح فالأَوضح ، والأَقرب فالأَقرب ، وبالأُصولِ قبلَ الفروع ، حتَّى يكون آخر الكتاب لآخر القياس .

وآخِر الكلام لا يفهم - أَرشدك الله - ولا يُتوهَّم إِلَّا على ترتيب الأُمور ، وتقديمِ الأُصول . فإِذا رتَّبنا الأُمورَ ، وقدَّمْنا الأُصولَ صارت أَواخرُ المعانى فى الفهم كأَوائلها ، ودقيقُها كجليلها[٣] .

٢ - فصل منه

وقد علمْنا أَنَّ بعض ما فيه الاختلافُ بين من ينتحل الإِسلام أَعظَمُ فِريَةً[٤] ، وأَشدُّ بليَّةً ، وأَشنَعُ كُفراً ، وأَكبرُ إِثماً مِن كثيرٍ ممَّا أَجمعوا على أَنَّه كفر .

---

(١) ب ، م : « وكلما كان » خطأ كتابى . وفى ط : « كل ما » بدون واو .

(٢) فى جميع النسخ : « ولم يفهموا أنفسهم » .

(٣) ط فقط : « ورقيقها كجليلها » ، تحريف .

(٤) الفرية ، بكسر الفاء : الاسم من الافتراء ، وهو الاختلاق والكذب . ب فقط : « قرية » محرف .

وبعدُ ، فنحن لم نكفِّر إلَّا مَن أَوسعناهُ حُجَّة ، ولم نَمْتحِنْ إلَّا أَهل التُّهمَة ، وليس كشف المتَّهم من التَّجسُّس[(١)] ، ولا امتحان الظَّنين مِن هَتْك الأَستار . ولو كان كلُّ كشفٍ هَتْكاً ، وكلُّ امتحان تَجَسُّساً[(٢)] ، لكان القاضي أَهتَكَ النَّاسِ لِسترٍ ، وأَشدَّ الناسِ كشفاً لعورة .

والذين خالفوا في العَرْش إنَّما أَرادوا نَفْيَ التشبيه فَغَلِطوا ، والذين أَنكروا أَمر الميزان[(٣)] إنَّما كرهوا أَنْ تكون الأَعمال أَجساماً وأَجراماً غلاظاً . فإنْ كانوا قد أَصابوا فلا سبيلَ عليهم ، وإن كان قد أَخطئوا فإنَّ خطأَهم لا يتجاوزُ بهم إلى الكفر . وقولُهم وخِلافُهم بَعْدَ ظهورِ الحجَّة تشبيهٌ للخالق بالمخلوق[(٤)] ، فبينَ المذهبينِ أَبْيَنُ الفَرْق[(٥)] .

وقد قال صاحبُكم للخليفة المعتصم ، يومَ جَمَعَ الفقهاءَ والمتكلِّمين والقُضاةَ والمخلصين ، إعذاراً وإنذاراً : امتحنتَني وأَنتَ تعرف ما في المحْنة ، وما فيها من الفتنة ، ثم امتحنتَني من بين جميعِ هذه الأُمَّة ! قال المعتصم : أَخطأْتَ ، بل كذبت ، وجدتُ الخليفةَ قبلى قد حَبَسَك وقيَّدك ، ولو لم يكن حَبَسك على تُهمَة لأَمْضَى الحكم فيك ، ولو لم يَخَفْكَ على الإسلام ما عَرَض لك ، فسؤالى إيَّاكَ عن نَفْسك ليس من المِحْنة ، ولا من طريق الاعتساف[(٦)] ، ولا من طريق كَشْف العورة ، إذْ كانت حالُكَ هذه الحالَ ، وسبيلُكَ هذه السَّبيل .

وقيل للمعتصم في ذلك المجلس : أَلَا تَبعث إلى أَصحابه حتَّى يشهدوا إقراره ، ويُعايِنُوا انقطاعَه ، فينقُضَ ذلك استبصارُهم ، فلا يمكنه

(١) م : « من التحسس » ، وهما بمعنى ، وبه فسر قوله تعالى : « ولا تجسسوا » .
(٢) م : « تحسسا » . وانظر الحاشية السابقة .
(٣) ب ، م : « والذين أنكروا معناكم في الميزان » ، والوجه ما أثبت من ط .
(٤) ب ، م : « لخلق بالمخلوق » ، والصواب من ط .
(٥) ب : « المفرق » ، تحريف ما أثبت من م ، ط .
(٦) ولا من طريق الاعتساف ، ساقط من م .

جَحْدُ ما أَقرَّ به عندهم(١)؟ فأَبَى أَن يقبل ذلك، وأَنكره عليهم، وقال: لا أُريد أَنْ أُوتَى بقوم إن اتَّهمتُهم مُيِّزْتُ فيهم بسيرتى فيهم(٢)، وإنْ بانَ لى أَمرُهم أَنفذْتُ حُكْمَ الله فيهم، وهم ما لم أُوتَ بهم(٣) كسائر الرعيَّة، وكغيرهم من عوام الأُمَّة، وما من شيءٍ(٤) أَحبُّ إلىّ من السَّتر، ولا شيءَ أَولى بى من الأَناة والرِّفق.

وما زال به رفيقاً، وعليه رقيقاً، ويقول: لأَنْ أَستحييَكَ بحقٍّ أَحبُّ إلىَّ من أَن أَقتلك بحقٍّ! حتَّى رآه يُعاند الحجة، ويَكذِب صُراحاً عند الجواب. وكان آخر ما عانَدَ فيه، وأَنكر الحقَّ وهو يراه، أَنَّ أَحمد بنَ أَبى دُوَادٍ(٥) قال له: أَليس لا شيءَ إلَّا قديمٌ أَو حديث؟ قال: نعم. قال: أَوَ ليس القرآنُ شيئاً؟ قال: نعم. قال: أَو ليس لا قديمَ(٦) إلَّا الله؟ قال: نعم. قال: فالقرآنُ إذاً حديث؟ قال: ليس أَنا متكلِّم(٧).

وكذلك كان يَصنَع فى جميع مسائله، حتَّى كان يجيبه فى كلِّ ما سأَل عنه، حتَّى إذا بلغ المُخَنَّق(٨)، والموضِعَ الذى إنْ قال فيه كلمةً واحدة بَرِئَ منه أَصحابه قال: ليس أَنا متكلِّم!

---

(١) ب، م: «جحدها أقر به عندهم»، صوابه فى ط.
(٢) ب، م: «فيه».
(٣) ب، م: «مالم أوتى بهم»، صوابه فى ط.
(٤) م، ط: «وما شيء».
(٥) فى جميع النسخ: «أبى داود»، تحريف.
(٦) ب: «أوليس ألا قديم».
(٧) كذا فى جميع الأصول، فى هذا الموضع وتاليه فى آخر هذه الصفحة.
(٨) فى اللسان: «يقال بلغ منه المخنق، وأخذت بمخنقه، أى موضع الخناق. وأنشد ابن برى لأبى النجم:

* والنفس قد طارت إلى المخنق *».

وفى م، ط: «المختنق»، تحريف.

فلا هو قال فى أوّل الأمر : لا علمَ لى بالكَلَام ، ولا هو حين تكلَّم فبلغ موضعَ ظُهور الحجَّة[١] ، خَضَع للحقّ . فمقتَه الخليفةُ ، وقال عند ذلك : أُفٍّ لهذا الجاهل مَرّة ، والمُعانِد مرَّة .

وأمَّا الموضع الذى واجَهَ فيه الخليفةَ بالكذب ، والجماعةَ بالقِحَة[٢] ، وقلةِ الاكتراث وشدَّة التَّصميم ، فهو حين قال له أحمدُ بنُ أَبى دُوَاد[٣] : تزعم أَنَّ الله ربُّ القرآن ؟ قال : لو سمعتُ أَحداً يقول ذلك لقُلت . قال : أَفَمَا سمعتَ ذلك قطُّ من حالفٍ[٤] ولا سائل ، ولا من قاصٍّ ، ولا فى شعرٍ ، ولا فى حديث ؟ !

قال : فعرف الخليفة كذِبه عند المسأَلة ، كما عرف عُنُوده[٥] عند الحجَّة .

وأَحمد بن أَبى دُواد[٦] ــ حفظَك الله ــ أَعلمُ بهذا الكلام ، وبغيره من أَجْناسِ العلم ، من أَن يجعل هذا الاستفهام مسأَلة ، ويعتمدَ عليها فى مثل تلك الجماعة . ولكنَّه أَراد أَن يكشف لهم جُرْأَته[٧] على الكذب ، كما كشف لهم جرأَته[٨] فى المعاندة . فعند ذلك ضربَه الخليفة .

وأَيَّةُ حجَّةٍ لكم فى امتحاننا إيَّاكم ، وفى إكفارنا لكم .

وزعَم يومئذٍ أَنَّ حكم كلام الله كحكم علمه ، فكما لا يجوز أَن

---

(١) ب ، م : « ظهور الحجة والحجة » .
(٢) القحة : الوقاحة . ب فقط : « بالحلقحة » ، تحريف .
(٣) فى جميع النسخ : « داود » ، تحريف .
(٤) ط ، م : « خالف » بالخاء المعجمة .
(٥) العنود والعناد : الميل عن الحق . ط فقط : « عناده » .
(٦) فى جميع النسخ : « داود » .
(٧) ب : « جراءته » ، وأثبت ما فى م ، ط .
(٨) ب ، م : « جراءته » ، وأثبت ما فى ط .

يكون علمُه مُحدثاً ومخلوقاً ، فكذلك لا يجوز أن يكون كلامه مخلوقاً مُحْدثاً . فقال له : أليس قد كان الله يقدر أن يبدِّل آيةً مكان آية ، وينْسَخَ آيةً بآية ، وأن يَذهَب بهذا القرآن ، ويأْتِىَ بغيره ، وكلٌّ ذلك فى الكتاب مَسطور ؟ قال : نعم . قال : فهل كان يجوز هذا فى العلم ، وهل كان جائزاً أنْ يبدِّل الله علمه ، ويذهب به ، ويأْتى بغيره ؟ قال : ليس [1] .

وقال له : رَوَيْنا فى تثبيت ما نقول [2] الآثارَ ، وتَلَوْنا عليك الآيةَ من الكتاب ، وأريناك الشَّاهدَ من النُّقُول [3] التى بها لزمَ النَّاسَ الفرائضُ ، وبها يَفْصلون بين الحقِّ والباطل ، فعارضْنا أنت الآنَ بواحدةٍ من الثلاث . فلم يكن ذلك عنده ، ولا استخْزَى من الكذب عليه فى غيرِ هذا المجلس [4] ، لأنَّ عدَّةَ مَنْ حضره أكثرُ من أن يُطمع أحداً أنْ يكون الكذبُ يجوز عليه . وقد كان صاحبكم هذا يقول : لا تقيَّةَ إلَّا فى دار الشِّرك . فلو كانَ ما أَقَرَّ به من خَلْق القرآن كان منه على وجه التقيَّةِ فقد أعمل التقيَّة [5] فى دار الإسلام ، وقد أكذب نفسه . وإنْ كان ما أَقرَّ به على الصحَّة والحقيقة فلستم منه ، وليس منكم . على أنَّه لم ير سيفاً مشهوراً ، ولا ضُرِب ضرباً كثيراً ، ولا ضُرِبَ إلَّا ثلاثين سوطاً مقطوعة الثِّمار [6] ، مشعَّثة الأَطراف [7] ، حتَّى أفصح بالإقرار مراراً . ولا كانَ فى مجلسٍ

(١) ط : « قال : لا » .
(٢) ط فقط : « تقول » بالتاء ، محرف .
(٣) فى جميع النسخ : « العقول » .
(٤) ب ، م : « ولا استخرنا الكذب عليه » ، صوابه فى ط . وفى ط : « فى هذا المجلس » ، صوابه فى ب ، م .
(٥) ط فقط : « فقد أعملها » .
(٦) ثمرة السوط : عقدة طرفه . وفى حديث الحد : « فأتى بسوط لم تقطع ثمرته » .
(٧) ط : « مشعبة الأطراف » . وتشعيث الشىء : تفريقه .

ضيِّق ، ولا كانت حالَهُ حالٌ مُؤْيسة ، ولا كان مُثْقلًا بالحديد ، ولا خُلِع قلبُه بشدَّة الوعيد . ولقد كان يُنَازِعُ بـأَلْيَنِ الكلام ، ويُجيب بـأَغلظ الجواب ، ويَرْزُنون ويَخفُّ ، ويَحْلُمون ويطيش (١) .

وعبتم علينا إكفارنا إيَّاكم ، واحتجاجَنا عليكم بالقرآن والحديث ؛ وقلتم : تُكْفِرُوننا على إنكار شيءٍ يحتمله التـأْويل (٢) ، ويثبُت بالأَحاديث ، فقد ينبغي لكم أَن لا تحتجُّوا فى شيءٍ من القَدَر والتَّوحيد بشيءٍ من القرآن ، وأَنْ لا تُكْفِروا أَحداً خالفكم فى شيءٍ وأَنتم أَسرعُ النَّاسِ إلى إكفارنا ، وإِلى (٣) عداوتنا والنَّصْبِ لنا .

٣ — فصل منه

وأَصحابنا — حفِظك الله — إذا قاسوا خَطأَهم ، ومَرُّوا على غَلَطهم فإِنَّما ينقُضون به شَيئاً من العَرَض والجوهر ، وشيئاً من قولهم فى المعلوم والمجهول فقط . وهم قومٌ يكفيهم من التنبيه (٤) أَقلُّه ، ومن القول أَيسرُه . وخطأُ النَّابتة وقولُ الرَّافضة تشبيهٌ مصرحٌ ، وكُفر مُجلِّح (٥) ، فليس هذا الجنسُ من ذلك الجنس . والحمد لله .

وأَمَّا إخبارهم عن عيبنا إيَّاهم حين لم يقولوا : إنَّ الله تعالى ربُّ القرآن ، وفينا من يقول : إنَّ الله تبارك وتعالى ربُّ الكفر والإيمان ،

---

(١) ب فقط : «ويحملون» ، صوابه فى م ، ط .

(٢) ط : «يحتمل التأويل» .

(٣) ب فقط : «أو إلى» .

(٤) فى جميع النسخ : «التنبه» ، والوجه ما أثبت .

(٥) يقال صرح الشيء ، إذا كشف عنه وأظهره ، وصرح هو إذا انكشف ، ومنه قول شهل بن شيبان فى الحماسة ٣٤ :

فلمـــا صرح الشر فـــأمسى وهو عـــريان

والمجلح ، بالبناء للفاعل أيضاً : الجريء ، وهو من التجليح ، وهو الإقدام على الشر وتكشيف العداوة وتصريحها ، كما فى أساس البلاغة .

فإنَّا لم نسألهم (١) عن ذلك من جهة ما يتوهَّمون ، وإنَّما سألناهم عنه بجحدهم ما يَرَوْنَ بأبصارهم ، ويَسمعون بآذانهم ، فى الأشعار المعروفة ، وفى الخطب المشهورة ، وفى الابتهال (٢) عند الدُّعاء ، وعلى ألسنة العوامّ والدَّهماء (٣) ، وعندَ العُهود والأيمان ، وعند تعظيم القرآن ، وبما يسمعون من السُّؤَّال فى الطُّرُقات ، ومن القُصَّاص فى المساجد ، لا يَرَوْن عائباً (٤) ، ولا يسمعون زارياً (٥) . وليس أنَّا جعلنا هذا مسألةً على من أنكر خَلْقَ القرآن ، ولكنَّا أردنا أن نبيِّن للضُّعفاءِ معاندتَهم ، وفِرَارهم من البَهْت ، ومكابرتَهم إذا سمعوا أنَّهم لم يسمعوا النَّاسَ يقولون : وربِّ القرآنِ ، وربِّ ياسين ، وربِّ طه ، وأشباهَ ذلك .

ولعمرى أنْ لو سمعوا النَّاس يقولون عند أيمانهم وابتهالهم إلى ربِّهم ، على غير قصدٍ إلى خلافٍ ولا وِفاق : وربِّ الزِّنى والسَّرَق (٦) ، وربِّ الكفرِ والكذب ، كما سمعوهم يقولون (٧) : وربِّ القرآنِ ، وربِّ يٓس ، وربِّ طٰه ! ثم ألزمناهم خَلْقَ القُرآن بمثل ما لهم علينا فى خَلْق الزِّنى — لقد كان ذلك معارضة صحيحة (٨) ، وموازنة معروفة .

وأمَّا قولهم : إنَّ معنا العامَّةَ ، والعُبَّادَ ، والفقهاءَ ، وأصحابَ الحديث ، وليس معهم إلَّا أصحابُ الأهواء ، ومن يأخذ دينَه من أوّل

---

(١) ب : « نسالم » ، صوابه فى ب ، ط .
(٢) ب ، م : « وفى ابتهال » .
(٣) والدهماء ، ساقطة من ط .
(٤) م ، ط : « غائباً » بالغين المعجمة ، صوابه فى ب .
(٥) زرى عليه وأزرى : عاب . وفى ب : « زاويا » صوابه فى م ، ط .
(٦) السرق ، بالتحريك ، وككتف : السرقة . وفى ط : « والسرقة » وفى ب : « ورب السرقة » .
(٧) ب ، م : « كما سمعوا وهم يقولون » ، وأثبت ما فى ط .
(٨) ب : « معاوضة صحيحة » .

الرِّجال(١) ، فأَىُّ صاحبٍ هو – يرحمك الله – أَبعد من الجماعة من الرَّافضة ، وهم فى هذا المعنى أَشقَّاؤهم(٢) وأَولياؤُهم ، لأَنَّ ما خالفوهم فيه صغيرٌ فى جَنْبِ ما وافقوهم عليه ، والذين سمَّوهم أَصحابَ أَهواءٍ هم المتكلِّمون ، والمصلحون والمستصلحون ، والمميِّزون(٣) . وأَصحاب الحديثِ والعوامُّ هم الذين يقلِّدون ولا يحصِّلون ، ولا يتخيَّرون ، والتقليد مرغوب عنه(٤) فى حجَّة العقل ، منهىٌّ عنه فى القرآن(٥) ، قد عكسوا الأُمور كما ترى ، ونَقَضوا العادات . وذلك أَنَّا لا نشكُّ أَنَّ من نظر وبحث ، وقابل ووازن(٦) ، أَحقُّ بالتبيُّن ، وأَولى بالحجَّة .

وأَمَّا قولهم : منَّا النُّسَّاك والعُبَّاد ، فعُبَّاد الخوارج وحدهم أَكثر عدداً من عبَّادهم ، على قلَّة عدد الخوارج فى جنب عَدَدهم ، على أَنَّهم أَصحاب نِيَّة(٧) ، وأَطيب طعمة(٨) ، وأَبعد من التكسُّب ، وأَصدقُ ورعاً ، وأَقل رياءً(٩) ، وأَدوم طريقةً ، وأَبذل للمُهْجة ، وأَقلُّ جمعاً ومَنْعا ، وأَظهر زُهداً وجَهْداً . ولعلَّ عبادةَ عَمْرِو بن عُبيدٍ تَفِى بعبادة عامَّة عُبَّادِهم .

وأَمَّا قولهم : إنَّ للقرآن قلباً وسَنَاماً ولِساناً وشَفتَين ، وأَنَّه يقدِّس ويَشْفع ويَمْحَل(١٠) ، فإنَّ هذا كلَّه قد يجوز أَن يكون مَثَلا ، ويجوز أَن

---

(١) ب ، م : « من أدل الرجال » .
(٢) فى جميع الأصول : « أشقياؤهم » ، والوجه ما أثبت .
(٣) والمميزون ، ساقط من ط .
(٤) ب ، م : « عليه » ، صوابه فى ط .
(٥) ط فقط : « فى القراب » ، تحريف .
(٦) ط : « ووزن » ، تحريف .
(٧) ب : « بنة » ، تحريف .
(٨) الطعمة ، بالضم : وجه المكتسب . وبالكسر : السيرة فى الأكل .
(٩) هذا ما فى ب . وفى م : « رأيا » ، وفى ط : « زيا » .
(١٠) التقديس : التطهير والتبريك . ومنه الأرض المقدسة . ويمحل ، أى يمحل بصاحبه ، إذا لم يتبع ما فيه وإذا هو ضيعه ، أى يعرضه للهلكة . وفى الحديث عن ابن مسعود : « إن هذا القرآن شافع مشفع ، وماحل مصدق » . وانظر اللسان (محل ١٤١) .

يجعله الله كذلك إذا كان جِسْمًا ، والله على ذلك قادر ، وهو له غير مُعجِز ، ومنه غير مستحيل . وكلُّ فعل لا يكون عبثاً ، ولا ظلماً ولا بخلًا ولا كذباً ، ولا خطاءً[١] فى التَّدبير ، فهو جائز ، والتعجب منه غير جائز .

٤ — فصل منه

وما أكثَرَ من يُجيب فى المسائل ، ويؤلِّف الكتب على قَدْر ما يَسنح له فى وهمه ، وعلى قدر ما يتصوَّر له فى حاله تلك ،لا يعمل على أَصلٍ[٢] ، أَوْ لا يشعُرُ[٣] بالذى انبنَى عليه ذلك الأَصل[٤] ، وإن كان مِمَّن يعمل على أَصل .

وإنَّما صار علماؤنا إلى ما صاروا إليه لأَنَّهم لا يَقفون من القول فى خَلْق القرآن على جوابٍ مهذَّب ، ومذهبٍ مصفًّى ، وعلى قولٍ مفروغ منه ، وعلى جواباتٍ بأَعيانها . فقد ردَّدوا فيها النَّظر ، وامتحنوها بأَغلظ المِحَن ، وقلَّبوها أكثر التقليب[٥] ، وتبطَّنوا معانيَها بأَبلغ التَّفكير ، وتعرفوا كلَّ ما فيها ، واعتصروا جميعَ قُواها ، وسهَّلوا سُبلَها ، وذلَّلوا العبارة عنها[٦] ، احتقاراً منهم لمن خالفهم ، واتِّكالًا على طول السَّلامة منهم ، وثقةً بطولِ الظَّفَر بهم .

ومن تمامِ أَمرِ صاحب الحقِّ أَن لا يتَّكل على عَجْز الخصم ، وأَنْ لا يُعْجَبَ بظهورهِ[٧] على مَنْ لاحظَّ له فى العِلم .

---

(١) الخطاء ، كسحاب : الخطأ . ط فقط : « خطأ » .

(٢) ط : « على أصله » .

(٣) فى الأصول : « ولا يشعر » ، وجهه ما أثبت .

(٤) ب ، م : « فى الذى عليه ذلك الأصل » ، صوابه فى ط .

(٥) ط : « وقلبوها » فقط .

(٦) ط : « وذبوا العناد عنها » ب : « وذالوا العبادة عنها » ، صوابه فى م .

(٧) ظهر عليه : غلبه . ب ، م : « بظهور » ، وأثبت مافى ط .

وعلى العلماءِ أَنْ يخافوا دُوَلَ العِلْمِ(١)، كما يخافُ الملوك دول المُلْك . وقد رأيت البَكْرِيَّة(٢)، والجَيْرِيَّة ، والفَضْلِيَّة(٣)، والشَّمرِيَّة(٤) وإنَّهم لَأَحْقَر عند المعتزلةِ من جُعَل(٥) مما زالوا يستقُون(٦) من علمائهم ، ويستمدُّون من كبرائهم ، ويَدْرُسون كتبهم ، ويأْخذون أَلفاظهم فى جميع أُمورهم ،حتَّى رأَيت شَبِيبَتَهُم ونابتتهم(٧)، يَدَّعون أَنَّهم أَكْفَاءٌ ، ويجمع بينهم فى البَلَاء . والنَّابتة اليوم فى التشبيه(٨) مع الرَّافضة ، وهم دائبُون(٩) فى التأَلُّم من المعتزلة . غدرهم كثير(١٠)، ونَصْبُهم شديد ، والعوامُّ معهم ، والحشو يُطيعهم(١١) .

الآن(١٢) معك أَمرانِ : السُّلطان وميلُهم إليه ، وخَوفُهم منه .

والعاقبة للمتَّقين .

---

(١) الدول : جمع دولة ، وهى الانتقال من حال إلى حال .

(٢) البكرية : أتباع بكر بن أخت عبد الواحد بن زيد . وقد ذكرهم البغدادى فى الفرق فى فصل مع الجهمية والضرارية . الفرق ١٩٩ والفصل ٤ : ١٩١

(٣) الفضلية الذين يعنيهم الجاحظ ، هم أتباع الفضل بن عيسى الرقاشى البصرى. وهم طائفة من المعتزلة . وهناك فضلية الخوارج ، ينتسبون إلى الفضل بن عبد الله . انظر مفاتيح العلوم ١٩ والبيان ١ : ٣٠٦ .

(٤) الشمرية ، بالشين المعجمة المكسورة والميم المشددة المفتوحة ، كما فى السمعانى ٣٣٨ . قال : « والمشهور بهذه النسبة عمرو بن أبى عثمان الشمرى ، رأس المعتزلة » .

(٥) الجعل : دويبة شبيهة بالخنفساء ، يضرب بها المثل فى الحقارة والهوان ، وفى اللصوق بالإنسان يتبعه إلى الغائط ، إذ قالوا : « ألصق من جعل » . حياة الحيوان للدميرى . و« من جعل » من ط فقط .

(٦) ب ، م : « يسبقون » ، صوابه فى ط .

(٧) ب : « شيتهم ونابيتهم » م : « شيتهم ونابيتهم » ط : « شيبهم ونابتيهم » ، والوجه ما أثبت .

(٨) فى جميع النسخ : « فى التشبيه به » ، وكلمة « به » مقحمة .

(٩) ب : « داينون » ، صوابه فى م ، ط .

(١٠) ط : « عددهم كثير » .

(١١) ب ، م : « يطبعهم » .

(١٢) ب ، م « إلا أن » .

١٠

من كتابه في

الرد على النصارى

١ – فصل من صدر كتابه فى الرد على النصارى[١]

الحمد لله الذى مَنَّ علينا بتوحيدِه ، وجعَلَنا ممَّن ينفى شُبهة خَلْقِه[٢] وسياسة عبادِه[٣] ، وجَعَلنا لا نفرِّق بين أَحدٍ من رُسُله ، ولا نَجحـد كتاباً أَوجَبَ علينا الإقرار به ، ولا نُضيف إليه ما ليس منه ، إنَّه حميدٌ مجيدٌ ، فعَّالٌ لما يريد .

أَمَّا بعدُ فقد قرأْتُ كتابكم ، وفهمت ما ذكرتم فيه[٤] من مسائل النَّصارى قِبَلكم ، وما دخَلَ على قلوب أحداثكم وضُعَفائِكم من اللَّبْس ، والذى خِفتموه على جواباتهم من العَجْز ، وما سأَلتم من إقرارهم بالمسائل ، ومن حُسْن معونتهم بالجَوَاب .

وذكرتم أَنَّهم قالوا : إنَّ الدَّليل على أَنَّ كتابَنا باطلٌ ، وأَمرَنا فاسد ، أَنَّنا ندَّعى عليهم مالا يَعرِفونه فيما بينهم ، ولا يَعرفونَه من أَسلافهم ، لأَنَّا نزعُم أَنَّ الله جلَّ وعزَّ قال فى كتابه على لسانِ نبيِّه محمَّدٍ صلى الله عليه وسلم : ﴿ وإذْ قال الله يا عِيسَى بنَ مريم أَأَنتَ قُلْتَ للنَّاسِ اتَّخِذُونى وأُمِّىَ إلَهَيْنِ مِنْ دُونِ الله[٥] ﴾ ، وأَنَّهم زعموا أَنَّهم لم يَدِينوا قطُّ بأَنَّ

(١) نشر هذا الاختيار من قبل ، بعد ظهوره على هامش الكامل ، فى مجموعة يوشع فنكل ، وعنوانها (ثلاث رسائل لأبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ) وطبعت فى المطبعة السلفية سنة ١٣٤٤ . وجعلت هذه المجموعة هدية من مجلة الزهراء التى كان يصدرها الأستاذ محب الدين الخطيب ، إلى قرائها فى السنة الثانية . والرسالة التى تليها هى (ذم أخلاق الكتاب) ، ثم (رسالة القيان) . وقد قمت بنشرهاتين الأخيرتين فى الجزء الثانى من الرسائل فى الصفحات ١٣٩ – ٢٠٩ .

(٢) يعنى كونه مخلوقاً .

(٣) إشارة إلى مايرى المعتزلة من أنه غير خالق لأفعال العباد ، فهم يخلقون أفعالهم ويريدونها ، فيحاسبون على مافعلوا .

(٤) ب : « من ما ذكرتم » .

(٥) الآية ١١٦ من سورة المائدة .

مريم إلَه فى سرِّهم ، ولا ادَّعَوْا ذلك قطُّ فى علانيَتِهِم . وأنَّهم زعموا أنَّا ادَّعينا عليهم ما لا يعرفون ، كما ادَّعينا على اليهود ما لا يعرفون ، حين نَطقَ كتابُنا ، وشهِدَ نبيُّنا : أَنَّ اليهود قالوا : إنَّ عزيراً ابن الله[1] ، وإنَّ يَد الله مغلولة[2] ، وإنَّ الله فقيرٌ وهم أَغنياءُ[3] . وهذا ما لا يتكلَّم به إنسان، ولا يُعَرف فى شىءٍ من الأَديان .

ولو كانوا يقولون فى عُزيرٍ[4] ما تَنحَلْتُمون وادَّعيتموه ، لَما جَحلوه من دينهم ، ولماَ أنكروا أَن يكونَ من قولهم، ولما كانوا بإنكار بُنوَّة عزيرٍ أَحقَّ منَّا بإنكار بنوَّة المسيح ، ولَمَا كان علينا منكم بأْس بعد عَقدِ الذِّمّة ، وأَخْذِ الجزية .

وذكرتم أَنَّهم قالوا : وممَّا يدلُّ على غَلطكم فى الأَخبار ، وأَخذكم العلم عن غير الثقات[5] ، أَنَّ كتابَكم ينطق : أَنَّ فرعون قال لِهامانَ : ﴿ ابنِ لِى صَرْحاً[6] ﴾ . وهامانُ لم يكن إلَّا فى زَمن الفُرْسِ ، وبعد زمنِ فرعونَ بدهرٍ طويل ، وإنَّ ذلك معروفٌ عند أَصحاب الكُتُب ، مشهورٌ عند أَهل العلم . وإنَّما اتَّخذ صرحاً ليكون إذا عَلَاه أَشرَفَ على الله .

وفرعونُ لا يخلو من أَن يكون جاحداً لله تعالى ، أَو مقرًّا به . فإن كان دينُه عند نفسه وأَهلِ مملكته نَفْىَ الله وجَحْدَه ، فما وجهُ اتِّخاذِ الصَّرح وطَلبِ الإشراف، وليس هناك شىء ولا إله ؟

---

(١) ب : « عزير ابن الله » .

(٢) إشارة إلى الآية ٦٤ من المائدة .

(٣) إشارة إلى الآية ١٨١ من آل عمران .

(٤) ب فقط : « يقولون فى شىء فى عزير » .

(٥) فى جميع النسخ : « الثقاة » ، وهو خطأ فادح فى الرسم الذى يوجب رسم تاء جمع المؤنث السالم مبسوطة .

(٦) من الآية ٣٦ فى غافر .

(٧) م فقط : « لم يكن فى زمن الفرس » ، تحريف .

وإن كان مُقِرًّا بالله عارفاً به ، فلا يخلو من أَنْ يكون مشبِّهاً أَو نافياً للتَّشبيه . فإن كان ممن يَنفِي الطُّول والعَرض والعُمْق والحُدود والجهاتِ، فما وَجْهُ طلبه له فى مكانٍ بعينه ، وهو عنده بكلِّ مكان ؟ وإن كان مشبِّهاً فقد عَلِم أَنَّه ليس فى طاقةِ بنى آدم أَن يبنُوا بُنياناً ، أَو يرفعوا صَرحاً يخرِقُ سَبْعَ سمواتٍ بأَعماقهنّ ،والأَجزاءَ التى بينهنّ ،حتّى يحاذىَ[(١)] العرشَ ثم يَعْلُوَه .

وفرعونُ وإن كان كافراً فلم يكن مجنوناً ، ولا كان إلى نَقْصِ العقلِ من بينِ الملوكِ منسوباً . على أَنَّ الحُكم قد يقوم[(٢)] بعُقول الملوكِ بالفضيلة على عُقُول الرعية .

وذكرتم أَنَّهم قالوا : تَزعُمون أَنَّ الله تعالى ذَكَرَ يحيى بنَ زكريَّا يُخبِر أَنَّه ﴿ لم يَجْعَلْ لَهُ مِنْ قَبْلُ سَمِيًّا[(٣)] ﴾، وأَنَّهم يجدون فى كتبهم وفيما لا يختلف فيه خاصَّتهُم وعامَّتهم أَنَّه كان من قبل يحيى بن زكريا غيرُ واحدٍ يقال له يحيى ، منهم : يُوحَنَّا بن فرح[(٤)] .

وزعمتم أَنهم قالوا لكم[(٥)] : إنَّكم ذكرتم أَنَّ الله قال فى كتابه لنبيِّكم : ﴿ وما أَرسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إلَّا رجالًا نُوحى إليهم[(٦)] ، فاسأَلُوا أَهْلَ الذِّكرِ إنْ كُنْتُم لا تَعْلَمُون[(٧)] ﴾ ، وإنَّما عنى بقوله : ﴿ أَهلَ الذِّكر ﴾ :

(١) ب : « يحازى » ، تحريف .

(٢) ب : « قد يقدم » . (٣) من الآية ٧ فى سورة مريم .

(٤) لم أجد له ذكراً فى كتب الجاحظ ، كما لم أجد له خبراً إلا فى سفر إرميا ٤٠ : ٨ و ٤١ : ١١ و ٤٣ : ٦ . واسمه فى هذا السفر : يوحانان بن قاريح .

(٥) ب فقط : « لك » صوابه فى م ، ط .

(٦) كذا القراءة فى الآية ٤٣ من سورة النحل . أما فى الآية ٧ من سورة الأنبياء فقراءة الجمهور فيها : « يوحى إليهم » ، كما ورد فى نسخة ب . وقرأها حفص فقط : « نوحى إليهم » انظر إتحاف فضلاء البشر ٣٠٩ .

(٧) هى الآية ٤٣ من سورة النحل ، ونصها هو نص الآية ٧ من سورة الأنبياء .

أَهلَ التَّوراة ، وأَصحابَ الكتب يقولون : إنَّ اللهَ قد بَعثَ من النِّساءِ نَبِيَّاتٍ ،منهم مريم بنت عمران[١] ، وبعث منهنَّ حَنَّة[٢] ، وسارَى[٣] ، ورِفْقَى[٤] .

وذكرتُم أَنَّهم قالوا : زَعمتُمْ أَنَّ عيسى تكلَّمَ فى المهْد ، ونحن على تقديمِنا له ، وتقريبِنا لأَمرِه ، وإفراطنا بزَعْمكم فيه ، على كثرة عَدَدنا ، وتفاوُتِ بلادنا ، واختلافِنا فيما بيننا ، لا نعرف ذلك ولا ندَّعيه[٥] ، وكيف ندَّعيه ولم نسمَعه عن سلفٍ ، ولا ادَّعاه منَّا مدَّعٍ .

ثم هذه اليهودُ لا تَعرِف ذلك ، وتزعُم أَنَّها لم تسْمع به إلَّا منكم ، ولا تعرفُه المجوسُ ، ولا الصَّابئون ، ولا عُبَّاد البِدَدة[٦] من الهِنْد وغيرهم ،

---

(١) انظر بقية نسبها فى الطبرى ١ : ٥٨٦ .

(٢) هى حنة بنت فنوئيل ، من سبط أشير . إنجيل لوقا ٢ : ٣٦

(٣) سميت فى العهد القديم « ساراى » تكوين ١١ : ٢٩ ، ٣٠ / ١٢ : ٥ ، ١١ ، ١٧/ ١٦ : ١ — ٩ وجاء فى سفر التكوين ١٧ : ٥ فى مخاطبة إبراهيم عليه السلام : « فلا يدعى اسمك بعد إبرام ، بل يكون اسمك إبراهيم » وفى الفقرة الخامسة عشرة منه : « وقال الله لإبراهيم : ساراى امرأتك لاتدعو اسمها ساراى ، بل اسمها سارا » . وفى حواشى سفر التكوين أن « سارة » بمعنى رئيسة . وسارة هذه هى بنت هاران الأكبر عم إبراهيم ، كما فى الطبرى ١ : ٢٤٤ ، وفيها الآية الكريمة : « وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ». وسارة تضبط بتخفيف الراء ،ويخطئ من يشددها ،وإن كانت قد ضبطت بذلك فى اللسان (هجر ١١٨ ورقم ١٨٠) وشرح القسطلانى ٤ : ١٠٢ . ومما يعين ضبطها بتخفيف الراء قول جرير فى ديوانه ٥٤٣ :

فيجمعنا والعز أولاد سارة أب لايبالى بعده من تعذرا

(٤) ورسمت فى الطبرى : « رفقا » ، وهو الوجه ، لأن جميع المنتهى بالألف اللينة من الأسماء الأعجمية حقه أن يكتب بالألف ، ماعدا الأسماء الخمسة : موسى ، عيسى ، كسرى ، بخارى ، متّى . وهى رفقا ابنة بتويل بن ناحور بن تارخ ، وهى امرأة إسحاق ، كما فى الطبرى ١ : ٣١٣ . وتسمى أيضاً « رفقة » فى التكوين ٢٤ : ١٥ ، ٢٩ / ٢٥ : ٢٠

(٥) ب ، م : « لايعرف ذلك ولا يدعيه » ، صوابه فى ط .

(٦) البد ، بالضم : الصنم الذى يعبد ، وهو إعراب بت ، بالفارسية بضم الباء أيضاً . والجمع البددة . ب : « البدرة » ط : « المدرة » ، صوابهما فى م . وانظر ما سبق فى حواشى ٢٥٢.

ولا التُّرك والخزر(١) ، ولا بلغَنا ذلك عن أَحدٍ من الأُمم السالفة ، والقرونِ الماضية ، ولا فى الإِنجيل ، ولا فى ذِكْر صفاتِ المسيح فى الكُتُب والبشاراتِ به على أَلسنة الرُّسُل .

ومِثلُ هذا لا يجوز أَنْ يجهله الولىُّ والعدُوّ ، وغيرُ الولىِّ وغيرُ العدوّ ، ولا يُضربَ به مثل ، ولا يَرُوح به النَّاس ، ثم يُجمع النَّصارى على ردِّه ، مع حُبِّهم لتقوية أَمْرِه . ولم يكونوا ليضادُّوكم(٢) فيما يرجع عليهم نفعه . وكيف لم يكذِّبوكم فى إحيائه الموتى ، ومَشْيِهِ على الماءِ ، وإبراءِ الأَكمه والأَبرص ؟! بل لم يكونوا ليتَّفقوا على إظهار خلاف دينهم ، وإنكار أعظمِ حجَّةٍ كانت لصاحبهم ، ومثل هذا لا ينكتم ولا ينفكُّ ممن يخالف ويَنُم(٣) .

والكلام فى المهد أَعجبُ من كلِّ عجبٍ ، وأَغربُ من كلِّ غريب ، وأَبدعُ من كلِّ بديع ؛ لأَنَّ إحياءَ الموتى والمشْىَ على الماء ، وإقامة المُقْعَد ، وإبراءَ الأَعمى ، وإبراءَ الأَكمهِ(٤) قد أَتت به الأَنبياءُ ، وعَرَفَه الرُّسل ، ودار فى أَسماعهم . ولم يتكلَّمْ صبىٌّ قطُّ ، ولا مولودٌ فى المهد .

وكيف ضاعت هذه الآية ، وسقطت حُجَّة هذه العلامة من بين كلِّ علامة ؟ !

وبعدُ ، فكلُّ أُعجوبةٍ يأْتى بها الرجالُ(٥) ، والمعروفون بالبيان ،

---

(١) م : « والحزر » ، تحريف . والخزر : جيل من الترك كان مقر حكمهم فى سهوب القوقاز الشمالية . وانظر مادتى (بلغار) و (الخزر) فى دائرة المعارف الإسلامية .

(٢) ب ، م : « ولم يكن ليضادوهم » .

(٣) ب فقط : « ويتم » بالتاء .

(٤) الأكمه : الذى يولد أعمى ، ومصدره الكمه ، بالتحريك . وربما جاء الكمه فى الشعر للعمى العارض ، كما جاء فى قول سويد بن أبى كاهل اليشكرى فى المفضليات ٢٠٠ :

كمهت عيناه لما ابيضتا   فهو يلحى نفسه لما نزع

(٥) ب ، م : « الرجل » ، وأثبت ما فى ط .

والمنسوبون إلى صوابِ الرأى ، تكون(١) الحيلة فى الظَّنّ إليها أقرب ، وخوفُ الخُدْعةِ عليها أغلب . والصبيُّ المولودُ عاجزٌ فى الفطرة ، ممتنعٌ من كلِّ حيلة ، لا يُحتاج فيه إلى نظر ، ولا يشَبِّهه من شاهده بدَخَل(٢) .

٢ – فصل منه

وسنقول فى جميع ما ورَدَ علينا من مسائلكم ، وفيما لا يقع إليكم من مسائلهم ، بالشواهد الظاهرة ، والحُجج القويَّة ، والأَدِلَّة الاضطرارية ، ثم نسأَلهم بعد جوابنا إِيَّاهم عن وجوهٍ يعرفون بها انتقاضَ قولهم ، وانتشارَ مذهبهم(٣) ، وتهافُتَ دينهم .

ونحن نعوذ بالله من التكلُّف وانتحالِ مالا نُحسِن ، ونسأَله القَصْدَ فى القول والعمل ، وأَن يكون ذلك لوجهه ، ولنُصرةِ دينه ، إنَّه قريبٌ مجيب .

فأَنا مبتدئٌ فى ذكر الأَسبابِ التى لها(٤) صارت النَّصارى أَحبَّ إلى العوامِّ من المجوس ، وأَسلَمَ صُدوراً عندهم من اليَهودِ ، وأَقربَ مودَّة ، وأَقلَّ غائلة ، وأَصغَر كُفْراً ، وأَهوَنَ عذاباً .

ولذلك أَسبابٌ كثيرة ، ووجوهٌ واضحة ، يعرفها مَن نَظَر ، ويجهلها مَن لم يَنظُر .

---

(١) ب ، م : « فكون » ، صوابه فى ط .

(٢) ط فقط : « ولا ليشبهه » . والدخل ، بالتحريك وبالفتح أيضاً : الريبة والغش . قال الله تعالى : « تتخذون أيمانكم دخلا بينكم » . وفى كلام ابنة الخس :

ترى الفتيان كالنخل وما يدريك ما الدخل

(٣) انتشار مذهبهم : تفرقه وعدم ترابطه . ويقولون : ضم الله نشرك ، بالتحريك ، أى لم شعثك .

(٤) ب : « التى بها » .

أوّلُ ذلك أن اليهود كانوا جيرانَ المسلمين بيثربَ وغيرها ، وعداوةُ الجيرانِ شبيهةٌ بعداوة الأقارب فى شدّة التمكُّن وثبات الحقْد ، وإنّما يُعادِى الإنسان مَن يعرف ، ويميل على من يرى ، ويُناقِض من يُشاكل ، ويبدو له عيوبُ من يُخالِط . وعلى قدر الحبّ والقُرب يكون البُغض والبُعد ، ولذلك كانت حُروب الجيران وبنى الأعمام من سائر النّاس وسائرِ العرب أطولَ ، وعداوتُهم أشدَّ .

فلمّا صار المهاجرون لليهود جيراناً ، وقد كانت الأنصار متقدِّمةَ الجوار ، مشاركةً فى الدار ، حَسدتْهم اليهود على النِّعمةِ[1] فى الدِّين ، والاجتماع بعد الافتراق ، والتّواصُل بعد التقاطع ، وشَبَّهوا على العوَامّ[2] ، واستمالوا الضَّعَفة ، ومالئوا[3] الأعداءَ والحَسَدة ، ثم جاوزوا الطَّعنَ وإدخالَ الشُّبهة ، إلى المناجزة والمُنابذَة بالعَدَاوة ، فَجَمعوا كيدهم ، وبذلوا أنفُسَهم وأموالَهم فى قِتالهم ، وإخراجهم من ديارهم ، وطال ذلك واستفاض فيهم[4] وظهر ، وترَادف لذلك الغَيْظُ ، وتضاعَف البُغْض ، وتمكّن الحقد .

وكانت النصارى لبعد ديارهم[5] ، من مَبعثِ النبىّ صلى الله عليه وسلم ومُهاجَرِهِ ، لا يتكلّفون طعْناً[6] ، ولا يُثيرون كيداً[7] ،

---

(١) ب ، م : « حسدتهم اليهود النعمة » ، وهى صحيحة أيضاً ، يقال حسده على الشىء ، وحسده إياه ، كما فى قول شمر بن الحارث الضبى :

فقلت إلى الطعام فقال منهم ... زعيم نحسـد الإنس الطعامـا

(٢) ط فقط : « القوام » ، تحريف .

(٣) ب ، م : « وملأوا » ، ، صوابه فى ط . والممالأة : المساعدة ، والمشايعة .

(٤) ب ، ، م : « واستقاص فيهم » ، صوابه فى ط .

(٥) ب ، م : « ديارها » .

(٦) ب ، م : « لايتكلف ظعناً » ، صوابه فى ط .

(٧) ب ، م : « ولا يستر كيداً » ، والوجه فى ط .

ولا يجمعون على حرب[١] . فكان هذا أوّلَ أسبابِ ما غلَّظَ القلوب على اليهود ، وليَّنها على النصارى .

ثم كان من أمر المهاجرين إلى الحبشة ، واعتمادهم على تلك الجَنْبة[٢] ما حَبَّبهم[٣] إلى عوامِّ المسلمين . وكلَّما لانت القلوبُ لقومٍ غَلُظت على أعدائهم ، وبقَدْرِ ما نقَصَ من بُغض النصارى زادَ فى بغض اليهود .

ومن شأنِ النَّاس حبٌّ من اصطنعَ إليهم خيراً أَوْ جرى على يديه[٤] ، أَرادَ اللهَ بذلك أو لم يُرِدْه ، وبقَصْدٍ[٥] كان أم باتِّفاق .

وأَمرٌ آخر ، وهو من أَمْتنِ أَسبابهم وأَقوى أُمورهم ، وهو تـأْويلُ آيةٍ غَلِطت فيها العامّة حتَّى نازَعَت الخاصَّة ، وحفظَتْها النَّصارى واحتجَّت ، واستمالت قلوب الرَّعاع والسِّفْلة ، وهو قول الله تعالى : ﴿ لَتجِدنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوةً لِلَّذينَ آمَنُوا اليَهُودَ والذِينَ أَشْرَكُوا ولتجِدَنَّ أَقربَهُمْ مودَّةً للذين آمَنُوا الذين قَالُوا إِنَّا نَصَارَى[٦] ﴾ . إلى قوله : ﴿ وذَلِكَ جَزاءُ المُحْسنين[٧] ﴾. وفى نفس الآيةِ أَعظمُ الدَّليل على أَنَّ الله تعالى لم يَعْنِ هؤلاءِ النَّصارى ولا أَشباهَهم : الملكانية[٨] واليعقوبيَّة[٩] ،وإِنَّما عَنَى

(١) ب ، م : « ولا يجمع على حرب » ، تحريف .
(٢) الجنبة : الجانب . وفى ط فقط : « الجهة » .
(٣) ب فقط : « ماجبهم » ، صوابه فى م ، ط .
(٤) الكلام بعده إلى كلمة « باتفاق » ساقط من ط .
(٥) فى الأصل ، وهو هنا ب ، م : « وبعد » ، والوجه ما أثبت .
(٦) الآية ٨٢ من سورة المائدة .
(٧) يعنى الآيات ٨٢ — ٨٥ من سورة المائدة .
(٨) ب فقط : « المكانية » ، صوابه فى م ، ط . ويقال ملكانية وملكائية أيضاً بالهمز ، كما فى مفاتيح العلوم ٢٣ . ويقال أيضا الملكية ، كما فى التنبيه والإشراف للمسعودى ١٢٣ ، ١٢٤ ، ١٣٠ ، ١٣٢ ، ١٣١ . وجاء فى مفاتيح العلوم ٢٣ : « وهم منسوبون إلى ملكاء ، وهم أقدمهم » ، أى أقدم النصارى . وفى الملل والنحل ٢ : ٦٢ : « الملكانية أصحاب ملكا الذى ظهر بالروم واستولى عليها » . والحق أن الملكانيين منسوبون إلى « ملكا » ومعناه الملك بالسريانية . والمراد بهم أتباع مذهب قياصرة الروم الذى يسمى أيضاً المذهب الخلقيدونى ، الذى أقره المجمع المعقود فى خلقيدونية سنة ٤٥١م . وفى مفاتيح العلوم : « وأهل الروم كلهم ملكائية » . وانظر تاريخ الأمة القبطية (الحلقة الثانية ص ٩١ — ٩٣) .
(٩) اليعقوبية ، أو اليعاقبة : ثالثة فرق قدماء النصارى ، وهم الملكانية، والنسطورية ، =

ضَرْبَ بَحِيرا(١) ، وضَرْبَ الرُّهبان الذين كان يَخْدُمهم سَلْمانُ(٢) .

وبين حَمْلِ قولِه(٣) : ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَى﴾ على الغَلَط منهم في الأَسماء ، وبين أَن نجزم عليهم(٤) لأَنَّهم نَصارى - فرقٌ .

كما ذكر اليهودُ أَنَّه جاءَ الإِسلامُ وملوكُ العربِ رجلان : غسَّانيٌّ ولخْميٌّ ، وهما نَصرانيَّان ، وقد كانت العربُ تَدِين لهما ، وتؤدِّي الإِتاوة إِليهما ، فكان تعظيمِ قلوبهم لهما راجعاً(٥) إِلى تعظيم دينهما . وكانت تِهامة ، وإِن كانت لَقاحاً(٦) لا تدين الدِّين(٧) ، ولا تؤدِّي

= واليعقوبية . وهم ينسبون إلى مار يعقوب . قال الخوارزمي في مفاتيح العلوم : « وهم قليل » . وفي الفصل لابن حزم ١ : ٤٩ : « ينسبون إلى يعقوب البرذعاني ، وكان راهباً بالقسطنطينية » . وانظر الملل والنحل ٢ : ٦٦ .

(١) بحيرا الراهب ، بفتح الباء ، كما في القاموس ، وقد رسم بالياء في آخره في القاموس وشرحه ، والوجه كتابته بالألف كما في الإصابة ٥٩٥ . وهو الذي لقي الرسول صلى الله عليه وسلم قبل البعثة في ركب قريش حين نزلوا بصرى من أرض الشام ، فاستضافهم جميعاً ، وعرف رسول الله بما كان يعرف من صفته من قبل . السيرة ١١٥ — ١١٧ .

(٢) سلمان الفارسي : صحابي جليل ، أصله من رام هرمز ، وقيل من أصبهان ، وكان قد سمع بأن النبي صلى الله عليه وسلم سيبعث ، فخرج في طلب ذلك ، وأسلم ، وشهد بدراً ، وآخى النبي بينه وبين أبي الدرداء . الإصابة ٣٣٥٠ والسيرة ١٣٦، ٣٤٥، ٦٦٣ ، ٦٧٧ . ب : « نجد منهم سلمان » م : « يجذمهم سلمان » وفي ط : « يجذبهم سلمان » ، والصواب ما أثبت . وقد وجدت نصاً صريحاً في سيرة ابن هشام ١٣٨ يقول فيه سلمان لأسقف الكنيسة في الشام قبل إسلامه : « إني قد رغبت في هذا الدين فأحببت أن أكون معك وأخدمك في كنيستك » . ثم تروى السيرة تنقله في كنائس الموصل ، ونصيبين ، ، وعمورية ، ومن عمورية انتقل إلى أرض العرب حتى كان بالمدينة ولقي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فدخل في الإسلام .

(٣) ب ، م : « وبين قوله » بسقوط كلمة « حمل » .

(٤) ب : « نجرم » ط : « نجرى » . وأثبت ما في م .

(٥) ب ، م : « راجعة » ط : « راجع » ، صوابهما ما أثبت .

(٦) يقال حي لقاح ، كسحاب : لم يدينوا للملوك ولم يملكوا ولم يصبهم سباء في الجاهلية . قال ثعلب : مشتق من لقاح الناقة ، لأن الناقة إذا لقحت لم تطاوع الفحل .

(٧) كلمة « الدين » ساقطة من ط . وفي ب ، م : « لايدين » . صوابهما في ط .

الإتاوة ، ولا تَدِين للمُلوك ، فإنَّها[١] كانت لا تمتنعُ من تعظيم ما عظَّم الناس ، وتصغيرِ ما صغَّروا .

ونصرانيَّةُ النُّعمان وملوكِ غَسّانَ مشهورةٌ فى العرب ، معروفةٌ عند أَهل النَّسَب ، ولولا ذلك لدَلَلْتُ عليها[٢] بالأَشعار المعروفة ، والأَخبار الصحيحة .

وقد كانت تتَّجِر إلى الشَّام ، ويَنفُذ[٣] رجالُها إلى مُلوك الرُّوم ، ولها رحلةٌ فى الشِّتاءِ والصَّيف ، فى تجارةٍ مرَّةً إلى الحبشة ، ومرَّةً قِبَلَ الشام ، ومرَّة بيثرب[٤] ، ومصيفُها بالطَّائف ، ومرة منيحين مستأْنفاً بحمده[٥] ، فكانوا أَصحاب نَعْمة ، وذلك مشهورٌ مذكورٌ فى القرآن ، وعند أَهلِ المعرفة .

وقد كانت تهاجر إلى الحبشة[٦] ، وتأْتى بابَ النَّجاشىِّ وافدةً ، فيَحْبُوهم بالجزيل[٧] ، ويَعرِف لهم الأَقدار ، ولم تكن تعرف كسرى[٨] ، ولا تأَنَّس بهم . وقيصرُ والنَّجاشىُّ نَصْرانيَّان ، فكان ذلك أَيضاً للنَّصارى ، دونَ اليهود .

والآخِر من النَّاس تَبَعٌ للأَوّل فى تعظيم من عظَّم ، وتصغير من صغَّر .

---

(١) ب ، م : « وبأنها » ط : « لأنها » ، والوجه ما أثبت

(٢) ب فقط : « عليه » تحريف . (٣) ط فقط : « وتنفذ » .

(٤) ومرة بيثْرب ، ساقطة من ط .

(٥) كذا وردت هذه العبارة فى ب . م مع سقوطها من ط . لكن فى م : « بجهده » . ولعلها « ومرة ميمنين » من أَيمن ويمن تيميناً ، إذا أتى اليمن .

(٦) ب ، م : « تهاجر الحبشة » ، صوابها فى ط .

(٧) يحبوهم ، من الحباء ، وهو العطاء بلا من ولا جزاء . ب ، م : « فيحيوهم » ط : « فيحييهم » ، صوابهما ما أثبت .

(٨) ط : « ولم يكن يعرف ذلك كسرى » .

وأُخرى[١] : أنَّ العرب كانت النصرانيَّةُ فيها فاشية ، وعليها غالبة ، إلَّا مُضَر ؛ فلم تغلب عليها يهوديَّةٌ ولا مجوسيَّة ، ولم تَفْشُ فيها النَّصرانية ، إلَّا ما[٢] كان من قومٍ منهم نزلُوا الحِيرَةَ[٣] يسمَّون : العِباد ، فإنَّهم كانوا نَصَارى ، وهم مَغْمورون مع نَبْذٍ يسيرٍ[٤] فى بعض القبائل . ولم تعرف مُضَر إلَّا دينَ العرب ، ثم الإسلام .

وغَلبت النَّصرانيةُ على مُلوك العرب وقبائلها : على لخمٍ ، وغَسَّان ، والحارث بن كعبٍ بنَجْران ، وقُضاعةَ ، وطيٍّ ، فى قبائل كثيرةٍ ، وأحياءٍ معروفة . ثم ظهرت فى ربيعةَ فغلبت على تغلب وعبدِ القيس وأفناءِ بكر[٥] ، ثم فى آلِ ذى الجَدَّينِ خاصَّة .

وجاء الإسلامُ وليست اليهوديَّةُ[٦] بغالبةٍ على قبيلة ، إلَّا ما كان من ناسٍ من اليمانية ، ونَبْذٍ يسير[٧] من جميع إيادٍ وربيعة . ومعظمُ اليهودية إنَّما كانت بيثربَ وحِميَر وتَيماءَ ووادى القُرى ، فى ولدِ هَارونَ ، دون العرب .

فعطفَ قُلوبَ دَهماءِ العرب على النَّصارى المُلْكُ الذى كان فيهم ، والقرابةُ التى كانت لهم . ثم رأَتْ عوامُّنا أنَّ فيها مُلْكاً قائماً ، وأنَّ فيهم عَرَباً كثيرة[٨] ، وأنَّ بناتِ الرُّوم وَلَدْنَ لملوك الإسلام ، وأنَّ فى

---

(١) ط : « وأخرى ، وهى » .
(٢) فى الأصول : « إلا من كان » ، ووجهه ما أثبت .
(٣) نزلوا الحيرة ، ساقط من ب .
(٤) النبذ ، بالفتح : الشىء القليل . ب فقط : « معمورون مع نبذ يسيرة » ، صوابه فى ط .
(٥) الأفناء : الأخلاط النزاع من هاهنا وهاهنا ، الواحد فنو ، بالكسر .
(٦) ب ، م : « لليهودية » ، صوابه فى ط .
(٧) ب : « ونبذ يسيرة » تحريف . وانظر ما مضى قريباً .
(٨) ب ، م : « غرباً كثيرة » صوابه بالعين المهملة كما فى ط .

النصارى متكلِّمين وأَطبَّاءَ ومنجِّمين ، فصاروا بذلك عندهم عُقلاءَ وفَلاسفةً حكماءَ ، ولم يَرَوْا ذلك فى اليهود .

وإنَّما اختلفت[١] أَحوالُ اليهودِ والنَّصارى فى ذلك لأَنَّ اليهود ترى أَنَّ النظر فى الفَلسَفةِ[٢] كفر ، والكلامَ فى الدِّين بِدعة ، وأَنَّه مَجْلَبَةٌ لكلِّ شُبهة ، وأَنَّه لا علمَ إلَّا ما كان فى التَّوراة وكُتُبِ الأَنبياءِ ، وأَنَّ الإِيمانَ بالطِّبِّ ، وتصديقَ المنجِّمين من أَسباب الزَّندقةِ والخُروجِ إلى الدُّهرية ، والخلافِ على الأَسلافِ وأَهلِ القُدوة ، حتَّى إنَّهم لَيُبهرِجُون المشهورَ بذلك ، ويحرِّمون كلامَ من سَلكَ[٣] سبيلَ أُولئك .

ولو علمتِ العوامُّ أَنَّ النَّصارى والرُّوم ليست لهم حكمةٌ ولا بَيان ، ولا بُعْدُ رويَّة[٤] ، إلَّا حكمة الكفِّ ، من الخَرْط والنَّجْر والتَّصوير ، وحياكة البِزْيون[٥] لأَخرجَتْهم من حُدود الأُدباءِ ، ولَمَحَتْهُمْ من ديوان الفلاسفةِ والحكماءِ ؛ لأَنَّ كتابَ المنطقِ والكَونِ والفساد ، وكتاب العُلْوىّ[٦] ، وغير ذلك ، لأَرسطاطاليس[٧] ، وليس بروميٍّ ولا نصرانىّ .

وكتابَ المِجَسْطِىِّ لبطليموس[٨] ، وليس بروميٍّ ولا نَصرانىّ .

وكتابَ إقليدسَ لإقليدس ، وليس بروميٍّ ولا نصرانى .

---

(١) ب ، م : « اختلف » .

(٢) ب فقط : « فى الفلاسفة » .

(٣) ط : « كلام سالك » .

(٤) ب ، م : « رؤية » .

(٥) البزيون : السندس . قال ابن برى : هو رقيق الديباج . وضبطه صاحب القاموس كجردحل وعصفور ، وصاحب اللسان بالضم فقط . ط : « البريون » تحريف . وانظر اللسان والقاموس (بزن) .

(٦) ذكره فى الحيوان ٦ : ٢٨٠ باسم « الآثار العلوية » . ط فقط : « العدوى » تحريف .

(٧) ب ، م : « لأرسطوطيلس » ، وأثبت ما فى ط والحيوان .

(٨) انظر حواشى الحيوان ١ : ٨٠ .

وكتابَ الطبِّ لجالينوس ، ولم يكن روميًّا ولا نصرانيًّا .

وكذلك كتب دِيمُقْراطَ وبُقْراطَ وأَفلاطون ، وفلانٍ وفلان .

وهؤلاءِ ناسٌ[١] من أُمة قد بادوا وبقيتْ آثارُ عقولهم ، وهم اليونانيُّون ، ودينُهم غير دينِهم ، وأَدبُهم غيرُ أَدبِهم ، أُولئك علماءُ ، وهولاء صُنَّاعٌ أَخذوا كتبهم[٢] لقُرب الجوار ، وتداني الدار ، فمنها ما أَضافوه إِلى أَنفسهم ، ومنها ما حوَّلوه إلى مِلَّتهم . إلَّا ما كان من مشهور كتبهم ، ومَعروف حِكَمهم ، فإِنَّهم حين لم يَقدِروا على تغيير أَسمائها زَعَموا أَنَّ اليونانيين قبيلٌ من قبائل الروم ، ففخَرُوا[٣] بأَديانهم على اليهود ، واستطالُوا بها على العرب ، وبَذِخُوا بها على الهند[٤] ، حتَّى زعموا أَنَّ حكماءَنا أَتْباعُ حكمائهم ، وأَنَّ فلاسفَتَنَا اقتدوْا على مثالهم[٥] ، فهذا هذا .

ودينُهم[٦] يرحمُك الله ــ يُضاهِي الزَّندقة ، ويناسبُ فى بعض وجوهه قولَ الدُّهرية ، وهم من أَسبابِ كلِّ حَيرةٍ وشُبهة .

والدَّليل على ذلك أَنَّا لم نر أَهلَ ملَّةٍ[٧] قطُّ أَكثَر زندقةً من النَّصارى ، ولا أَكثر متحيِّراً أَوْ مترنِّحاً منهم[٨] .

وكذلك شأْنُ كلِّ مَن نظر فى الأُمور الغامضة بالعقول الضعيفة : أَلا تَرَى أَنَّ أَكثَرَ من قُتِل فى الزَّندقة ممن كان ينتحل الإِسلام ويُظهره ،

---

(١) ط فقط : « أناس » .

(٢) ب : « أخذ وكتبهم » ، وهو تحريف كتابى .

(٣) ب ، م : « ففجروا » ، صوابه فى ط .

(٤) البذخ والبذوخ : تطاول الرجل بكلامه وافتخاره ، وفعله كفرح يفرح ، وقعد يقعد .

(٥) ب : « اقتدروا » ، تحريف . ط : « احتذوا » ، وأثبت ما فى م .

(٦) ط : « فهذا هو دينهم » ، وإخاله تصرفاً من الناشر . وما أثبته من ب ، م هو لغة الجاحظ .

(٧) ط : « أهل مكة » ، صوابه فى ب ، م .

(٨) الترنح : التمايل والاضطراب . وفى جميع الأصول : « متحيزاً » بالزاى ، صوابه ما أثبت .

هم[(١)] الذين آباؤهم وأُمَّهاتُهم نصارى .

على أنَّك لو عددتَ اليومَ أهلَ الظِّنَّة ومواضعِ التُّهمة لم تجد أكثَرَهم إلَّا كذلك .

وممَّا عظَّمهم فى قلوب العوامِّ ، وحبَّبهم إلى الطَّغَام ، أنَّ منهم كُتَّابَ السَّلاطين ، وفَرَّاشِى الملوك[(٢)] ، وأطبَّاءَ الأَشرافِ ، والعطَّارينَ والصَّيارفة . ولا تجد اليهوديَّ إلَّا صبَّاغاً ، أو دبَّاغاً ، أو حجَّاماً ، أو قصَّاباً ، أو شَعَّاباً .

فلمَّا رأت العوامُّ اليهودَ والنَّصارى توهَّمتْ أنَّ دينَ اليهود فى الأديان كصناعتهم فى الصِّناعات ، وأنَّ كُفرهم أقذرُ الكُفْر، إذْ كانوا هم أقذَرالأُمَم .

وإنَّما صارت النَّصارى أقلَّ مَسَاخة من اليهود[(٣)] ، على شدَّة مساخة النَّصارى ، لأنَّ الإسرائيليَّ لا يزوِّج إلَّا الإسرائيلى، وكل مناكِحِهم مردودةٌ فيهم[(٤)] ، ومقصورةٌ عليهم ، وكانت الغرائبُ لا تَشُوبهم ، وفحولةُ الأَجناسِ لا تُضرَب ولا تضربِ فيهم ، لم يُنجِبوا فى عَقْل ولا أَسْر ولا مِلْحٍ[(٥)] . وإنَّك لتعرف ذلك فى الخيلِ والإبل ، والحمير والحمام .

ونحن – رحمك الله – لم نُخالف العوامَّ فى كثرة أموال النصارى ، وأنَّ فيهم مُلكاً قائماً ، وأنَّ ثيابهم أنظف[(٦)] ، وأنَّ صناعتَهم أَحسن .

---

(١) ب : « وهم » ، والواو مقحمة .

(٢) يراد بالفراش من يتعهد فراش البيت وأثاثه . وانظر ماكتبت فى ذلك فى (حول ديوان البحترى) ٣٩ – ٤٠ والحيوان ٣ : ٤٣٥ .

(٣) المسيخ من الناس : الذى : الذى لاملاحة له . وقد مسخ مساخة .

(٤) ب : « وكل مناكحتهم مردون فيهم » ط ، م : « وكل منـاحهم مردودة فيهم » ، صوابهما ما أثبت .

(٥) الأسر : شدة الخلق . وفى التنزيل العزيز : « نحن خلقناهم وشددنا أسرهم » . والملح ، بالكسر : الرضاع واللبن .

(٦) ب : « وأن مابهم » م : « مابهم » ط : « ماهم » ، والوجه ما أثبت . وانظر ما سيأتى فى ٣٢٥ من قوله : « والنصرانى وإن كان أنظف ثوباً » .

وإنَّما خالفْنا فى فرق ما بين الكُفرينِ والفِرْقتين ، فى شدَّة المعاندة واللَّجاجة ، والإرصادِ لأَهلِ الإسلام بكلِّ مَكيدة ، مع لُؤْم الأَصول ، وخُبْث الأَعراق .

فأَمَّا المُلك والصِّناعة والهيئةُ ، فقد علمنا أَنَّهم اتَّخذوا البراذين الشِّهرية[1] ، والخيلَ العِتاق ، واتَّخذوا الْجَوْقات[2] ، وضَرَبوا بالصَّوالجة ، وتحذَّفُوا المدِينيَّ[3] ، ولبِسوا المُلْحَم والمطبَّقة[4] ، واتَّخذوا الشاكريَّة[5] ، وتسمَّوْا بالحسن والحُسَين ، والعبَّاس والفضل وعلىٍّ ، واكْتَنَوْا بذلك أَجمع ، ولم يبقَ إلَّا أَنْ يتسمَّوا بمحمَّد ، ويكتَنُوا بأَبى القاسم . فرغب إليهم المسلمون ، وتَرَكَ كثيرٌ منهم عَقْدَ الزَّنانير ، وعَقَدها آخرونَ[6] دون ثِيابهم ، وامتنع كثيرٌ من كُبرائهم من إعطاء الجزية ، وأَنِفوا مع أَقدارهم من دفعها[7] وسَبُّوا مَن سبَّهم ، وضربوا من ضَرَبهم .

---

(١) الشهرية ، سبق تفسيرها فى ١٢٨ . وكلمة « اتخذوا » ساقطة من ب ، م .

(٢) الجوقة : جماعة من الناس ، معربة كما فى شفاء الغليل . والمراد فرق الفروسية ونحوها .

(٣) تحذيف الشعر : تطريره وتسويته . وفى اللسان : « قال النضر : التحذيف فى الطرة أن تجعل سكينية كما تفعل النصارى » . فقد وضع التحذف هنا موضع التحذيف . وفى الأصول هنا : « وتحدقوا » ، ولا وجه له .

(٤) فى اللسان : « الملحم : جنس من الثياب » . وفى القاموس : «وككرم : جنس من الثياب » . وألحم الناسج الثوب . وفى المثل : « ألحم ما أسديت » أى تمم ما ابتدأته من الإحسان . واللحمة ، بالضم : خيوط النسج العرضية يلحم بها السدى ، كما فى المعجم الوسيط . وفيه أيضاً : « الملحم جنس من الثياب يختلف نوع سداه ونوع لحمته ، كالصوف والقطن ، أو الحرير والقطن » ، أى لايكونان من نوع واحد . أما المطبقة ، فهى من قولهم : طابق بين قيصين : لبس أحدهما على الآخر . فالمراد الثياب المزدوجة المتطابقة .

(٥) الشاكرية ، يراد بهم الجند المستأجرون ؛ لأن الشاكرى معناه كما فى القاموس : الأجير المستخدم ، معرب جاكر . وانظر حواشى الحيوان ٢ : ١٣٠ ورسائل الجاحظ ١ : ٣٠

(٦) ب ، م : « وعقدوها آخرون » ، وأثبت ما فى ط .

(٧) ب ، م : « وأنف مع أقدارهم من دفع » ، صوابه فى ط

وما لهم لا يفعلون ذلك وأكثرَ منه : وقُضاتُنا أَوْ عامّتهم[(١)] يرون أنَّ دمَ الجاثَليق[(٢)] والمُطْرانِ والأَسقُفّ وفاءٌ بدم جعفرٍ وعليٍّ والعبّاسِ وحمزة .

ويرون أنَّ النَّصرانى إذا قذفَ أُمَّ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بالغَوايةِ[(٣)] أنَّه ليس عليه إلّا التعْزير والتَّأْديب[(٤)] ، ثم يحتجُّون أنَّهم إنَّما قالوا ذلك لأَنَّ أُمَّ النبى صلى الله عليه وسلم لم تكن مُسلِمة . فسبحانَ الله العظيم ! ما أعجب هذا القولَ[(٥)] وأبْيَنَ انتشاره[(٦)] !

ومن حُكْمِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم : أن لا يساوُونا فى المجلِس ، ومن قوله : « وإنْ سبُّوكم فاضربُوهم ، وإن ضَربوكم فاقتلوهم » .

وهم إذا قذفوا أُمَّ النبى عليه السلام بالفاحشة لم يكن له عند أُمّته إلّا التَّعزير والتَّأْديب . وزَعموا أَنَّ افتراءَهم على النبيِّ ليس بنكْثٍ للعهد ، ولا بنَقْضٍ للعَقْد .

وقد أمر النبى عليه السلام أن يُعطونا الضَّريبة عن يدٍ منَّا عالية[(٧)] فى قبولنا منهم[(٨)] ، وعَقْدِنا لذمّتهم ، دون إراقة دمهم[(٩)] . وقد حكم الله تعالى عليهم[(١٠)] بالذِّلَّة والمسكنة .

---

(١) ط فقط : « وعامّتهم » .

(٢) الجاثليق ، بفتح الثاء : رئيس من رؤساء النصارى ، يكون تحته المطران ، ثم الأسقف ثم القسيس ، ثم الشماس .

(٣) الغواية ، بالفتح : الضلال . ب ، م : « بالغوية » ، صوابه فى ط .

(٤) التعزير : التأديب والعقاب .

(٥) ب ، م : « القوم » ، تحريف مافى ط .

(٦) انتشار الأمر : عدم إحكامه . ط فقط : « انتثاره » .

(٧) ب ، م : « عليه » ، وتصح إذا قرئت « علية » .

(٨) ب ، م : « منه » .

(٩) ب ، م : « وعقدنا له ذمته دون إراقة دمه » .

(١٠) ب ، م : « عليه » .

أَوَ ما ينبغى[1] للجاهل أَنْ يعلم أَنَّ الأَئمة الراشدين ، والسَّلَفَ المتقدِّمين لم يشترطوا عند أَخذِ الجزية ، وعَقْد الذِّمَّة عدمَ الافتراءِ[2] على النبى صلى الله عليه وسلم وأُمّته ، إِلَّا[3] لأَنَّ ذلك عندهم أَعظَمُ فى العيون ، وأَجلُّ فى الصدور من أن يحتاجوا إلى تخليده فى الكُتُب ، وإلى إظهار ذِكره بالشَّرط ، وإلى تثبيته بالبيِّنات[4] ، بل لو فعلوا ذلك لكان فيه الوَهَن عليهم ، والمطمَعةُ فيهم ، ولظنُّوا أَنَّهم فى القَدْر الذى يُحتاج فيه[5] إلى هذا وشِبهِه .

وإنَّما يتَواثَقُ النَّاس فى شروطهم ، ويفسِّرون فى عُهودهم ما يُمكن فيه الشُّبهة ، أَو يقعُ فيه الغَلَط ، أَو يَغْبَى عنه الحاكم[6] ، وينساه الشَّاهد ، ويتعلَّق به الخَصْم ، فأَمَّا الواضح الجلىّ[7] ، والظاهر الذى [لا يُخِيل[8] فما وجه اشتراطه ، والتَّشاغُلِ بذكره .

وأَمَّا ما احتاجوا إلى ذكره فى الشُّروط ، وكان مما يجوز أَنْ يظهر فى العَهْد فقد فعلوه ، وهو كالذِّلَّة والصَّغارة[9] ، وإعطاءِ الجزية ، ومُقاسمة الكنائِس ، وأَن لا يُعِينوا بعضَ المسلمين على بعضٍ ، وأَشباهِ ذلك. فأَمَّا

---

(١) ط فقط : « وما ينبغى » .

(٢) كلمة « عدم » من ط .

(٣) إلا ، ساقطة من ب .

(٤) ط : « وتثبيته بالبينات » .

(٥) ب ، م : « فيهم » .

(٦) غبى عنه غباء وغباوة : لم يفطن له . ب ، م : « ينى » بالنون . ط : « يعيا » ، صوابهما ما أثبت .

(٧) الجلى : الظاهر . ب ، م : « الجليل » .

(٨) لايخيل على أحد : لا يشكل . ط : « لايخيل غيره » ، تحريف .

(٩) الصغارة ، كسحابة : صغر القدر . وفى اللسان : « ابن سيده : الصغر والصغارة : خلاف العظم . وقيل الصغر فى الجرم والصغارة فى القدر » . ب ، م : « والصيرفة » ط : « الصفارة » بالفاء ، ووجهها ما أثبت .

أَن يقولوا لمن هو أَذلُّ من الذَّليل، وأَقلُّ من القليل، وهو الطالبُ الراغبُ فى أَخْذِ فديته، والإِنعامِ عليه بقَبْض جِزيته وحَقْنِ دمِه: نُعاهدك على أَن لا تفترىَ(١) على أُمَّة(٢) رسول ربِّ العالمين، وخاتَم النبيين، وسيِّدِ الأَوَّلين والآخِرين(٣) فهذا ما لا يجوز(٤) فى تدبيرِ أَوساط الناس، فكيف بالجِلَّة والعِلْية، وأَئمَّة الخليقة، ومصابيحِ الدُّجى، ومَنار الهُدَى، مع أَنَفَة العربِ، وَبأْوِ السُّلطان(٥)، وغَلَبة الدولة، وعزِّ الإِسلام، وظهور الحجَّة، والوعدِ بالنُّصرة.

على أَنَّ هذه الأُمة لم تُبتلَ باليهود، ولا المجوسِ، ولا الصابئين كما ابتُلِيتْ بالنصارى(٦). وذلك أَنَّهم يَتْبعون المتناقض من أَحاديثنا، والضعيفَ بالأَسناد من روايتنا، والمتشابهَ من آيِ كتابنا، ثم يَخْلُون بضعفائنا، ويسأَلون عنها عوامَّنا، مع ما قد يعلمون من مسائل المُلحِدين، والزَّنادقة الملاعين، وحتَّى مع ذلك ربَّما تبرَّءوا(٧) إلى علمائنا، وأَهلِ الأَقدارِ مِنَّا، ويَشْغَبون على القوىِّ(٨)، ويُلْبسون على الضَّعيف.

ومن البلاءِ أَنَّ كلَّ إِنسانٍ من المسلمين يرى أَنَّه متكلم، وأَنَّه ليس أَحدٌ أَحقَّ بمحَاجَّة الملحدين من أَحد.

وبعدُ، فلولا متكلِّمو النَّصارى وأَطبَّاؤُهم ومنجِّموهم ما صار إلى

---

(١) ب، م: «يعاهدك أن لايفترى»، ومع سقوط «على»، وصوابه فى ط.
(٢) ب، م: «على أم».
(٣) ب، م: «وخير سيد الأولين والآخرين»، تحريف.
(٤) ب، م: «فهذا ما يجوز»، تحريف.
(٥) البأو: الكبر والفخر والعظمة. ب: «وباوو» ط: «وشأو»، صوابهما فى ب.
(٦) ط: «كما ابتلت بالنصارى»، صوابه فى ب، م.
(٧) ب: «تبروا».
(٨) ب، م: «على القوم»، صوابه فى ط.

أَغبيائنا[١] وظرفائنا ، ومُجَّاننا وأَحْدَاثنا[٢] شىءٌ من كتب المنانيَّة[٣] ، والدَّيصانية[٤] ، والمَرْقُونيَّة[٥] ، والفُلانية[٦] ، ولما عرفوا غير كتابِ الله تعالى ، وسنَّةَ نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، ولكانت تلك الكتب مستورة عند[٧] أهلها ، ومُخَلَّاة[٨] فى أَيدى ورثَتها . فكلُّ سُخْنةِ عينٍ[٩] رأيناها فى أَحداثنا وأَغبيائنا فمِنْ قِبَلهم كان أَوَّلُها .

وأَنت إذا سمعتَ كلامَهم فى العفْو والصَّفح ، وذِكرَهم للسِّياحة ، وزرايتَهم على كلٍّ من أَكل اللُّحمان[١٠] ، ورَغْبَتَهم فى أَكل الحُبوب ، وتَركِ الحيوان ، وتزهيدَهُم فى النِّكاح ، وتَركَهم لطلب الوَلَد ، ومديحَهم للجاثَليق والمُطْران والأُسقفّ والرُّهبان ، بِتَركِ النِّكاح وطلبِ النَّسْل ، وتعظيمَهم الرُّؤساءَ — علمتَ أَنَّ بين دينهم وبين الزَّندقة نسباً ، وأَنَّهم يحنُّون إلى ذلك المذهب .

---

(١) م : « أغنائنا » ب ، ط : « أغنيائنا » ، صوابهما ما أثبت . وانظر ما سيأتى فى فى السطر الخامس .

(٢) المجان : جمع ماجن . ب ، م «وتحابنا » ، صوابه فى ط . والأحداث : جمع حدث . وفى ب ، م : « وأخذاننا » ط : « وأخدائنا » ، صوابهما ما أثبت .

(٣) المنانية : أتباع مانى . وانظر ما سبق فى ٢٥٤ .

(٤) الديصانية : فرقة من المجوس . قال ابن النديم : « إنما سمى صاحبهم بديصان باسم نهر ولد عليه . هو قبل مانى . والمذهبان قريب بعضهما من بعض ، وإنما بينهما خلف فى اختلاط النور بالظلمة » . وانظر الملل ٢ : ٨٨ والفهرست ٤٧٤ والحيوان ٥ : ٤٦ .

(٥) المرقونية : فرقة من المجوس ، أتباع مرقون . أثبت قديمين أصلين متضادين أحدهما النور والآخر الظلمة ، وأثبتوا أصلا ثالثاً هو المعدل الجامع . وفى مفاتيح العلوم ٢٥ : « المرقيونية » . وهى فى جميع الأصول : « المرقوبية »، تحريف . وانظر الملل والنحل ٢ : ٨٩ ومعجم استينجاس . ١٢١٨ .

(٦) لعله كناية عن أى فرقة كانت .

(٧) ب فقط : « مسطورة » .

(٨) مخلاة : متروكة . وفى جميع الأصول : « محلاة » بالحاء المهملة .

(٩) سخنة العين : نقيض قرتها ، وذلك من حرارة الحزن . وفى ب فقط : « سحنة » بالمهملة ، تحريف .

(١٠) الزراية : العيب والإنكار . ب : « وذرياتهم » ، صوابه فى م ، ط

والعجبُ أَنَّ كلَّ جاثَليقٍ لا ينكح ، ولا يَطلُب الولد . وكذلك كلُّ مَطرانٍ (١) ، وكل أُسقفٌ . وكذلك كلُّ أَصحاب الصَّوامع من اليَعقوبية ، والمقيمين فى الدِّيارات (٢) والبيوتِ من النِّسطورية . وكلُّ راهبٍ فى الأَرض وراهبةٍ ، مع كثرة الرُّهبان والرَّواهب ، ومع تشبُّه أَكثر القِسِّيسينَ بهم فى ذلك (٣) ، ومع ما فيهم (٤) من كثرة الغُزاة ، وما يكون فيهم مِمَّا يكون فى الناس ، من المرأَةِ العاقر ، والرَّجُل العقيم .

على أَنَّ من تزوَّج منهم امرأَةً لم يقدِرْ على الاستبدال بها ، ولا على أَنْ يتزوج أُخرى معها (٥) ، ولا على التَّسرِّى عليها . وهم مع هذا قد طبَّقوا الأَرضَ ، ومَلئوا الآفاق ، وغَلبوا الأُممَ بالعدَد ، وبكثْرة الولد . وذلك مِمَّا زاد فى مصائبنا ، وعَظُمت بهِ محنتُنا .

ومِمَّا زاد فيهم ، وأَنمى عددَهم ، أَنَّهم يأْخذون من سائر الأُمم ، ولايُعطونهم ، لأَنَّ كلَّ دينٍ جاءَبعد دين ، أَخَذَ منه الكثير ، وأَعطاهالقليل .

٣ — فصل منه

ومِمَّا يدلُّ على قلَّة رحمتهم ، وفسادِ قلوبهم أَنَّهم أَصحابُ الخِصاء من بين جميع الأُمم ، والخِصَاء أَشدُّ المُثْلة ، وأَعظم ما رُكِب به إنسان (٦) ثمَّ يفعلون ذلك بأَطفالٍ لا ذنْبَ لهم ، ولا دَفْعَ عندهم .

---

(١) المطران ، بفتح الميم وكسرها ، كما فى القاموس .

(٢) ط : « الديورات » تحريف . ويراد بالديارات أديار النصارى . والديارات معروفة فى جموع الدار إذ هو جمع جمع لها ، فهى جمع للديار . وانظر مقدمة كتاب « الديارات » للشابستى . وأما الجمع المعروف للدير ، بالفتح ، فهو الأديار والأديرة .

(٣) ب ، م : « فى زلل » ، صوابه فى ط .

(٤) ب ، م : « وقع مع مافيهم » ، صوابه فى ط .

(٥) على ، ساقطة من ب . وفى ب ، م : « يزوج » .

(٦) ط . فقط : « ركبه إنسان » .

ولا نَعْرِف قوماً يُعرَفون بخصاءِ النَّاس حيث ما كانوا إلَّا ببلاد الرُّوم والحَبَشة ، وهم فى غيرهما قليلٌ ، وأقلُّ قليل[١] .

على أنَّهم لم يتعلَّموا إلَّا منهم ، ولا كان السَّببُ فى ذلك غيرَهم ، ثم خَصَوْا أبناءهم وأسلموهم فى بِيَعهم . وليس الخِصاءُ إلَّا فى دين الصابئين ، فإنَّ العابد ربَّما خَصَى نفسه[٢] ، ولا يستحلُّ خصاءَ ابنه[٣] . فلو تمَّت إرادتُهم فى خِصاءِ أولادهم فى ترك النِّكاح وطلب النَّسْل كما حكيتُ لك قبل هذا — لانقطَع النَّسْلُ ، وذهب الدِّينُ ، وفُنِىَ الخَلْق .

والنصرانىُّ وإن كان أنظَفَ ثوباً ، وأحسنَ صِناعةً ، وأقلَّ مَساخةً[٤] ، فإنَّ باطنَه ألْأَمُ وأقذر وأسمج ، لأنَّه أقلَفُ ، ولا يَغتسِل من الجَنَابة ، ويأكُل لحمَ الخِنزير ، وامرأته جُنُبٌ لا تَطهُر من الحيض ، ولا من النِّفاس ، ويَغْشَاها فى الطَّمْث ، وهى مع ذلك غير مختونة .

وهم مع شَرَارةِ طبائِعهم[٥] ، وغَلَبَة شَهَواتهم ليس فى دينهم مَزاجِرُ كنار الأَبَدِ فى الآخرة ، وكالحُدود والقَوَدِ والقصاصِ فى الدُّنيا ، فكيف يُجانب ما يفسده ، ويُؤْثر ما يصلحه من كانت حاله كذلك . وهل يُصلح الدُّنيا من هو كما قلنا[٧] ؟ وهل يهيِّجُ على الفَسَاد إلَّا مَنْ وصفنا[٨] ؟

---

(١) انظر الحيوان ١ : ١١٩ ، ١٢٤ .

(٢) انظر الحيوان ١ : ١٢٥ .

(٣) ب ، م : « خصاء نفسه » ، صوابه فى ط .

(٤) انظر ما مضى فى ص ٣١٨

(٥) يقال : شر يشر ويشر شراً ، وشرارة ، فهو شرير كأمير ، وشرير كسكيت . وفى جميع الأصول : « شرار » ، والوجه ما أثبت . وانظر الحيوان ٤ : ٦/٢٩٧ : ٤٦٠ . وأما الشرار ، بالكسر وكجبل ، فهو مايتطاير من النار ، واحدتهما بهاء .

(٦) ب ، م : « بجانب ما يفسده » » ، صوابه فى ط .

(٧) ب ، م : « وهل يصلح الدنا كبا قالوا » ، صوابه فى ط .

(٨) ب ، م : « وهل التهييج على الفساد إلا كا وصفوا » ، صوابه فى ط .

ولو جَهَدت بكلِّ جَهدِكَ ، وجمعتَ كلَّ عقلِك أَنْ تفهم قولهم فى المسيح ، لما قدرتَ عليه ، حتَّى تعرف به حدَّ النصرانية ، وخاصَّةً قولَهم فى الإلهيَّة .

وكيف تقدر[(١)] على ذلك وأنت لو خلوتَ ونصرانىٌّ نِسطورىٌّ فسأَلته عن قولهم فى المسيح لقال قولًا ، ثم إنْ خلوتَ بأَخيه لأُمِّه وأَبيه وهو نِسطورىٌّ مثلُه فسأَلتَه عن قولهم فى المسيح لأَتاك بخلاف أَخيه وصِنوِه . وكذلك جميع الملْكانية واليعقوبيَّة[(٢)] . ولذلك صِرْنا لا نعقل حقيقةَ النصرانية ، كما نعرف[(٣)] جميعَ الأَديان .

على أَنَّهم يزعُمون أَنَّ الدين لا يَخرُج فى القياس ، ولا يقوم على المسائل[(٤)] ، ولا يثبت فى الامتحان ، وإنَّما هو بالتَّسليم لما فى الكتب ، والتَّقليد للأَسلاف . ولعمرى ، إنَّ[(٥)] من كان دينُه دينَهم ليَجِبُ عليه أن يعتذر بمثلُ عُذْرهم .

وزعموا أَنَّ كلَّ من اعتقدَ خِلاف النصرانية من المجوسِ والصَّابئين والزَّنادقة فهو معذور ، ما لم يتعمَّد الباطل ، ويُعانِدِ الحقَّ . فإذا صاروا إلى اليهود قَضَوْا عليهم بالمعاندة ، وأَخرجُوهم من طريق الغَلَط والشُّبهة .

٤ — فصل منه

فأَمَّا مسأَلتهم فى كلام عيسَى فى المهد : أَنَّ النصارى مع حبِّهم لتقويةِ أَمرهِ لا يُثْبتونه ، وقولُهم : إنَّا تقوّلناه ورَوَينا عن غير الثِّقات[(٦)] ،

---

(١) ب ، م : « يقدر » .
(٢) انظر مامضى فى ص ٣١٢ .
(٣) م فقط : « يعرف » .
(٤) فى جميع الأصول : « السائل » ، والوجه ما أثبت .
(٥) إن ، ساقطة من ط .
(٦) فى جميع النسخ : « الثقاة » ، وهو خطأ فى الرسم ، لأنه جمع ثقة .

وأنَّ الدليل على أنَّ عيسى لم يتكلَّم فى المهد أنَّ اليهودَ لا يعرفونه ، وكذلك المجوس ، وكذلك الهند والخَزَرُ والدَّيلم . فنقول فى جواب مسألتهم عند إنكارهم كلامَ المسيح فى المهد مولوداً .

يقال لهم : إنَّكم حين سوَّيتم المسألةَ وموَّهتموها ، ونظمتم ألفاظَها ، ظننتم أنَّكم قد أنْجحتم[1] ، وبلغتم غايتكم . ولعمرى لئن حَسُنَ ظاهرُها ، وراعَ الأسماعَ مَخْرجها[2] ، إنَّها لقبيحةُ المفتَّش ، سيِّئةُ المُعرَّى .

ولعمرى أنْ لو كانت اليهود تقرُّ لكم بإحياء الأربعة الذين تَزْعمون[3] ، وإقامةِ المُقعَد الذى تدَّعون ، وإطعامِ الجَمْع الكثير من الأرغفة اليسيرة ، وتصييرِ الماءِ جَمَداً[4] ، والمشىِ على الماء ، ثم أنكرَتِ الكلامَ فى المهد من بين جميع آياته وبَرَاهينه[5] لكان لكم فى ذلك مقال ، وإلى الطَّعن سبيل . فأمَّا وهم يَجحدون ذلِك أجمع ، فمرَّةً يضحكون ، ومرَّةً يغتاظون ويقولون : إنَّه صاحبُ رُقًى ونِيرَجَات[6] ، ومُداوِى

---

(١) أنجح : صار ذا نجح وظفر . ويقال أيضاً نجح ، إذا أصاب طلبته . ط فقط : « نجحتم » وأثبت ما فى ب ، م .

(٢) ب فقط : « لخرجها » ، تحريف .

(٣) ب ، م : « يزعمون » . وهؤلاء الأربعة فيما يذكر المفسرون هم : « عازر » ، وكان صديقاً له ، أحياه بعد ثلاثة أيام فقام من قبره يقطر ودكه وبقى إلى أن ولد له . والثانى : ابن العجوز أحياه وهو على سرير الموت ، فنزل عن أعناق الرجال وحمل سريره ، وبقى إلى أن ولد له . والثالث : بنت العشار ، وقد متعت بولدها بعد ما حييت . والرابع : سام بن نوح عليه السلام . سألوه أن يحييه ليخبرهم عن حال السفينة . فخرج من قبره . هذا ما ذكره أبو حيان فى تفسيره ٢ : ٤٦٧ .

(٤) الجمد ، بالتحريك ، وكذا بالفتح : الماء الجامد . وقيل : هو بالتحريك يكون جمعاً لجامد ، مثل خادم وخدم . ب فقط : « جامداً » .

(٥) ب ، م : « وبرهانه » ، صوابه فى ط .

(٦) كذا فى ب والحيوان ٤ : ٣٧٠ . فى م ، ط : « نيرنجات » ، وهما لغتان فى التعريب قال صاحب القاموس : « والنيرنج ، بالكسر : أخذ كالسحر وليس به . وعقب عليه الزبيدى بقوله : « هكذا فى سائر النسخ . والمنقول عن نص كلام الليث : النيرج ، بإسقاط النون الثانية . وجاء فى كتاب المعارف لابن قتيبة ١٧٨ : « وكان صاحب نيرنجات » . وأقول : هو بالفارسية « نيرنك » .

مجانينَ ، ومتطبِّبٌ ، وصاحب حِيَلٍ وتربُّصٍ خُدَعٍ[١] ، وقراءةِ كتب ، وكان لسناً مسكيناً[٢] ، ومقتولًا مرحوماً ، ولقد كان قبل ذلك صيَّادَ سمكٍ ، وصاحبَ شبك ، وكذلك أصحابه . وأنَّه خرجَ على مواطأةٍ منهم له ، وأنَّه لم يكن لِرِشدة[٣] .

وأَحسنهم قولًا ، وأَلينُهم مذهباً مَن زعم أَنَّه ابنُ يوسفَ النَّجَّار[٤] .

وأنَّه قد كان واطَأَ ذلك المُقعدَ قَبل إقامته بسِنِينَ ، حتَّى إذَا شَهَره بالقِعْدة[٥] ، وعُرِف موضُعه فى الزَّمْنَى ، مرَّ به فى جمعٍ من الناس كأَنَّه لا يريده ، فشكا إليه الزَّمانَةَ وقلَّةَ الحيلة ، وشِدَّة الحاجة ، فقال : ناوِلْنى يدك . فناوله يَده ، فاجتذبَه فأَقامه ، فكان تجمَّعَ[٦] لطول القُعود ، حتَّى استمرَّ بعد ذلك .

وأنَّه لم يُحيِ[٧] ميِّتاً قطُّ ، وإنَّما كان داوَى رجلًا يقال له « لا عازَر[٨] » إذْ[٩] أُغْمِىَ عليه يوماً وليلة ، وكانت أُمُّه[١٠] ضعيفةَ العقل ، قليلَة المعرفة ، فمرّ بها[١١] ، فإذا هى تصرُخ وتبكى ، فدخل إليها

---

(١) التربص : المكث والانتظار . ب ، م : « وترمض » . وفى ط : « وصاحب » وأرى الوجه فيما أثبت .

(٢) ب ، م : « سكينا » ، وأثبت ما فى ط .

(٣) يقال هو لرشدة بالكسر وقد يفتح : نقيض قولهم : لزنية أو لغير رشدة . والرشدة : النكاح الصحيح . ط : « لم يكن له شدة » ، تحريف .

(٤) ط : « وأخسهم قولا والأمهم مذهباً » ، تحريف .

(٥) القعدة ، بالكسر : ضرب من القعود .

(٦) ط فقط : « تجمد » .

(٧) ب ، م : « لم يحيى » ، تحريف .

(٨) فى جميع الأصول : « لاعار » ، وإنما هو « لعازر » المذكور فى إنجيل يوحنا ١١ : ٤٣

(٩) ب فقط : « إذا » .

(١٠) فى إنجيل يوحنا ١١ : ٥ أنها أخته وأسمها « مرثا » . وفيه ايضاً أن يسوع كان يحب مرثا وأختها ولعازر . ويفهم من هذا أيضاً أن له أختين .

(١١) ط فقط : « بهما » .

لِيُسْكِتَها ويُعَزِّيَها ، وجَسَّ عِرقَه فرأى فيه علامةَ الحياة ، فداواه حتّى أَقامَه ، فكانت لِقلَّة معرفتها[1] لا تشكُّ أنَّه قد مات ، ولفرحها بحياته تُثْنِي عليه بذلك ، وتتحدَّث به .

فكيف تستشهدون قوماً هذا قولُهم فى صاحبكم ، حين قالوا : كيف يجوز أَنْ يتكلَّم صبىٌّ فى المهد مولوداً[2] ، فيجهله[3] الأَولياءُ والأَعداءُ .

ولو كانت المجوسُ تقِرُّ لعيسى بعلامةٍ واحدة ، وبأَدنَى أُعجوبةٍ ، لكان لكم أَن تنكِرُوا علينا بهم[4] ، وتستعينوا بإنكارهم . فأَمَّا وحالُ عيسى فى جميع أَمرِهِ عند المجوس كحال زَرَادُشتَ فى جميع أَمرِه عند النصارى فما اعتلالُهم بهم ، وتعلُّقهم فى إنكارهم ؟

وأَمَّا قولكم : وكيف لم تعرف الهندُ والخَزَر والتُّرك ذلك ؟ فمتى أَقرَّت الهند لموسَى بأُعجوبةٍ واحدة ، فَضْلًا عن عيسى ؟ ومتى أَقرَّت لنبىٍّ بآية ، أَو روَتْ له سيرة ، حتّى تستشهدوا[5] الهندَ على كلام عيسى فى المهد ؟

ومتى كانت التُّركُ والدَّيلم والخَزَرُ والبَبْر[6] والطَّيلَسَانُ[7] مذكورةً فى شىءٍ من هذا الجنس ، محتجًّا بها على هذا الضرب ؟

(١) ب ، م : « بقلة معرفتها » .
(٢) ب ، م : « مولود » .
(٣) ب فقط : « فيجعله » .
(٤) ب ، م : « تتكبروا علينا بهم .
(٥) ب ، م « حتّى يستشهدوا » .
(٦) الببر ، بباءين : أمة قديمة يبدو أنها من أمم الترك ، وتقرن بالطيلسان ، كما فى البيان ١ : ١٣٧ . وجاء فى الطبرى ٤ : ٢٤٦ : « فبعث عبد الله بن شبيل بن عوف الأحمسى فى أربعة آلاف . فأغار على أهل موقان والببر والطيلسان » ، ب : « والمرو » م « والسر » ط : « والتتر » ، صوابهما جميعاً ما أثبت . ولم ترد « التتر » فى أثر من آثار الجاحظ ، كما أن معرفة العرب بالتتر جاءت متأخرة ، إذ لم يرد ذكرهم فى الكامل لابن الأثير قبل سنة ٣٤٥ .
(٧) الطيلسان : إقليم واسع كثير البلدان والسكان من نواحى الديلم والخزر ، افتتحه الوليد بن عقبة فى سنة ٣٤ . معجم البلدان . وانظر الحاشية السابقة .

فإن سألونا عن أنفسهم فقالوا : ما لنا لا نعرفُ ذلك ولم يبلُغْنا عن أحدٍ بَتَّة ؟ أجبناهم بعد إسقاط نكيرهم(١) وتشنيعِهم ، وتزويرِ شُهودهم.

وجوابنا(٢) : أنَّهم إنَّما قَبِلُوا دينَهم(٣) عن أَربعة أَنفس : اثنان منهم من الحواريِّين بزعْمهم(٤) : يُوحنَّا ، ومَتَّى. واثنان من المستجيبة(٥) وهما : مارقُسُ ولُوقَسُ(٦) ، وهؤلاءِ الأَربعة لا يُؤمَن عليهم الغلطُ ولا النِّسيان ، ولا تعمُّدُ الكذب ، ولا التواطؤُ(٧) على الأُمور ، والاصطلاحُ على اقتسام الرِّياسة(٨) ، وتسليم كلٍّ واحدٍ منهم لصاحبه حِصَّته التى شرطها له .

فإنْ قالوا : إنَّهم كانوا أَفضَلَ من أَن يتعمَّدوا كذباً ، وأَحفَظُ من أَن ينسَوْا شيئاً ، وأَعلى(٩) من أَن يغلطوا فى دينِ الله تعالى ، أَو يُضِيعوا عَهْدا .

قلنا : إنَّ اختلاف رواياتهم فى الإِنجيل ، وتضادَّها فى كتبهم(١٠) ، واختلافَهم فى نفْس المسيح ، مع اختلاف شرائعهم ، دليلٌ على صحَّة قولنا فيهم(١١) ، وغفلتكم عنهم .

---

(١) فى الأصول : « تكثيرهم » .
(٢) ط فقط : « فجوابنا » .
(٣) قبلوا دينهم : أخذوه وتلقوه ، كما يقبل الرجل الدلو من المستقى والقابلة الولد من الوالدة .
(٤) ب فقط : « يزعمهم » ، تحريف .
(٥) ب فقط : « من المسيحية » ، تحريف .
(٦) هما مرقس ولوقا .
(٧) ب ، م : « ولا التواطى » ، صوابها فى ط .
(٨) ب ، م : « والاصلاح على أقسام الرياسة » ، صوابه فى ط .
(٩) ب ، م : « وأعنى » ، تحريف مافى ط .
(١٠) ب ، م : « وتضاد معانى كتبهم » .
(١١) الكلام بعده إلى نهاية هذه الرسالة بجميع فصولها ، ساقط من ط .

وما يُنكَر من مثل لُوقَش أَنْ يقول باطلًا ، وليس من الحواريِّين ، وقد كان يهوديًّا قبلَ ذلك بأَيّامٍ يسيرة ، ومن هو عندكم من الحواريِّين خيرٌ من لوقش عند المسيح فى ظاهر الحكم بالطَّهارة ، والطباعِ الشَّريفة ، وبراءة السَّاحة .

٥ — فصـــل منه[١]

وسأَلتم عن قولهم : إذا كان تعالى قد اتَّخذ عبداً من عبادِه خليلًا ، فهل يجوز أَن يتَّخذ عبداً من عباده ولداً ، يريد بذلك إظهار رحمته له ، ومحبَّتِه إياه ، وحُسْنَ تربيتِه وتأْديبه له ، ولُطْفِ منزلتِه منه ، كما سمَّى عبداً من عباده خليلًا ، وهو يريد تشريفَه وتعظيمه ، والدَّلالةَ على خاصِّ حالهِ عنده .

وقد رأَيتَ من المتكلِّمين من يُجيز ذلك ولا يُنكره ، إذا كان ذلك على التبنِّى والتَّربية والإبانة له بلُطْف المنزلة ، والاختصاصِ له بالمرْحمة والمحبَّة ، لا على جهة الوِلادة ، واتِّخاذ الصاحبة . ويَقول[٢] : ليس فى القياس فرقٌ بين اتِّخاذ الولد على التبنِّى والتَّربية وبين اتِّخاذ الخليل على الولاية والمحبَّة .

وزَعَم أَنَّ الله تعالى يحكم فى الأَسماء بما أَحَبَّ ، كما أَنَّ له أَن يحكم فى المعانى بما أَحبَّ .

وكان يجوِّزُ دعوى أَهلِ الكتاب على التَّوراة والإنجيل والزَّبور ، وكتبِ الأَنبياءِ صلواتُ الله عليهم فى قولهم : إنَّ الله قال : « إسرائيل

(١) هذا الفصل ومايليه من الفصول إلى نهاية هذه الرسالة ساقط من ط كما سبق التنبيه .
(٢) ب : « ونقول » م : « وتقول » ، صوابهما ما أثبت .

بِكْرى[١] » أى هو أَوّلُ من تَبَنَّيْتُ من خَلْقى . وأنّه قال : « إسرائيل بكرى ، وبنوه أَولادى » . وأنّه قال لداود : « سيُولد لك غلام ، ويُسمَّى لىَ ابناً ، وأُسمَّى له أَبا[٢] » . وأنَّ المسيح قال فى الإنجيل : « أنا أَذهبُ إلى أَبى وأَبيكم ،وإلهى وإلهكم[٣] » ، وأنَّ المسيح أَمر الحواريِّين أنْ يقولوا فى صلواتهم : « يا أَبانا فى السَّماء ، تقدَّس اسمُك[٤] » . فى أُمورٍ عجيبةٍ ، ومذاهبَ شنيعة[٥] ، يدلُّ على سوءِ عبادة اليهود[٦] ، وسوءِ تأْويل أَصحاب الكتب ، وجهلِهم مجازاتِ الكلام ، وتصاريف اللُّغات ، ونَقْلِ لغةٍ إلى لغة ، وما يجوز على الله ، ومالا يجوز . وسببُ هذا التأْويل كلِّه الغَىُّ والتقليد ، واعتقادُ التشبيه .

وكان يقول: إنَّما وُضعَت الأَسماءُ على أَقدار المصلحة ، وعلى قَدْر ما يقابل من طبائع الأُمم . فربَّما كان أَصلحَ الأُمور وأَمتَنَها[٧] أَن يتبنَّاه الله أَو يتَّخذَه خليلًا ، أَو يُخاطبه بلا تَرجُمان ، أَو يَخلُقَه من غير ذَكَر ، أَو يُخرِجَه من بين عاقر وعقيم . وربَّما كانت المصلحةُ غيرَ ذلك

---

(١) فى سفر الخروج ٤ : ٢٢ : « فتقول لفرعون : هكذا يقول الرب ، إسرائيل ابنى البكر » . وفى سفر هوشع ١١ : ١ : « لما كان إسرائيل غلاماً أحببته ومن مصر دعوت ابنى » . وفى رسالة بولس إلى أهل رومية ٩ : ٤ : « الذين هم إسرائيليون ، ولهم التبنى والمجد » .

(٢) فى صموئيل الثانى ٧ : ١٢ — ١٤ : « متى كلت أيامك واضطجعت مع آبائك أقيم بعدك نسلك الذى يخرج من أحشائك وأثبت مملكه . هو يبنى بيتاً لاسمى وأنا أثبت كرسى مملكته إلى الأبد . أنا أكون له أبا وهو يكون لى ابناً » .

(٣) جاء فى إنجيل يوحنا ٢٠ : ١٧ فى مخاطبة عيسى عليه السلام لمريم المجدلية : « قال لها يسوع : لاتلمسينى لأنى لم أصعد بعد إلى أبى . ولكن اذهبى إلى إخوتى وقولى لهم : إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم » .

(٤) فى إنجيل متى ٦ : ٩ : « فصلوا أنتم هكذا : أبانا الذى فى السموات ليتقدس اسمك » . وانظر أيضاً إنجيل لوقا ١١ : ٢

(٥) ب : « شيعة » م : « شنعة » ، والوجه ما أثبت ، وإن كانت « شنعة » صحيحة أيضاً .

(٦) ب : « عبارة » ، وأثبت مافى م .

(٧) ب : « وأمته » م : « وأمنه » ، ولعل وجهه ما أثبت .

كلَّه . وكما تعبَّدنا أَنْ نسمِّيه جَواداً ونَهانا أَن نسمِّيه سَخِيًّا أَو سريًّا[١] وأَمرنا أَن نسمِّيه مؤمناً ونهانا أَن نسمِّيه مسلماً ، وأَمَرنا أَن نسمِّيه رحيماً ونهانا أَن نسمِّيه رفيقاً .

وقياس هذا كلِّه واحد ، وإنَّما يتَّسع ويَسهُل على قدر العادة وكثرتِها. ولعلَّ ذلك كلَّه قد كان شائعاً فى دين هودٍ وصالحٍ وشُعيبٍ وإسماعيلَ ، إذْ كان[٢] شائعاً فى كلام العرب فى إثبات ذلك وإنكاره .

وأَمَّا نحن – رحمك الله – فإنَّا لا نُجيزُ أَن يكون لله ولد ، لا من جهة الوِلادة ، ولا من جهة التَّبَنِّى ، ونرى أَنَّ تجويز ذلك جهلٌ عظيم ، وإثمٌ كبير ؛ لأَنَّه لو جاز أَن يكونَ أَباً ليعقوب لجاز أَن يكون جدًّا ليوسف ، ولو جاز أَن يكون جدًّا وأَباً ، وكان ذلك لا يُوجِب نَسَبا ، ولا يُوهِمُ مُشاكلةً فى بعض الوُجوه ، ولا ينقُص من عِظَم ، ولا يَحُطُّ من بَهَاء ، لجاز أَيضاً أَن يكون عمًّا وخالًا ؛ لأَنَّه إن جاز أَن يسمِّيه[٣] من أَجل المرحَمة والمحبَّةِ والتَّأديب – أَباً ، جاز أَن يسمِّيه آخَر من جهة التَّعظيم والتفضيل والتسويد أَخاً[٤] ، ولجاز أَن يجد له صاحباً وصديقاً ، وهذا ما لا يجوِّزه إلَّا من لا يعرف عظمة الله ، وصِغَر قدْر الإنسان.

وليس بحكيمٍ من ابتذَلَ نفسه فى توقير عبْدِه ، ووضَعَ من قَدْره فى التوفُّرِ على غيره . وليس من الحكمة أَن تُحسِنَ إلى عبدك بأَن تسىء إلى

---

(١) فى النسختين : « سرناه » ، والصواب ماأثبت . والسرى : وصف من سرو كشرف ودعا ورضى ، سراوة وسرواً وسراً وسراء ، وهى المروءة فى شرف .

(٢) م : « إذا كان » .

(٣) الكلام بعده إلى « يسميه » التالية ساقط من م .

(٤) فى النسختين : « والتفضيل أخا والتسويد أخا » ، و« أخا » الأولى مقحمة .

نفسك ، وتأتى من الفضل ما لا يجبُ بتضييع ما يجب . وكثيرُ الحمد لا يقوم بقليل الذّم[١] ، ولم يحمدِ اللهَ ولم يعرف إلهيَّته من جوَّز عليه صفاتِ البشر ، ومُناسبةَ الخَلْق ، ومُقاربةَ العِباد .

وبعدُ ، فلا يخلو المولى فى رفع عبدِه وإكرامه من أحد أمرين :

إمَّا أن يكون لا يقدر على كرامته إلَّا بهوانِ نفسِه ، ويكون على ذلك قادراً ، مع وَفَارةِ العظَمة ، وتمام البهاء .

وإن كان لا يقدر على رفع قَدْرِ غيره إلَّا بأن ينقص[٢] من قدر نفسه فهذا هو العجز ، وضِيق الذَّرع[٣] .

وإن كان على ذلك قادراً فآثر ابتذالَ نَفْسه والحَطَّ من شرفه فهذا هو الجهلُ الذى لا يحتمل[٤] .

والوجهان عن الله جلّ جلالُه منفيَّان .

ووجهٌ آخر يعرفون به صحَّة قولى ، وصوابَ مذهبى ، وذلك أَنَّ الله تبارك وتعالى لو علم أنَّه قد كان فيما أَنزَل من كتبه على بنى إسرائيل : إنَّ أباكم كان بكرى وابنى ، وإنَّكم أَبنَاءُ بِكْرى — لما كان تغضَّب عليهم[٥] إذْ قالوا : نحن أَبناءُ الله ، فكيف لا يكون ابنُ ابنِ الله ابنَه[٦] ،

(١) فى النسختين : « مالا يقول بقليل الذم » ، والصواب حذف « ما » . لا يقوم به : لا يعادله .

(٢) ب : « ينقض » ، صوابه فى م .

(٣) الذرع : الطاقة ، وهو أيضاً : بسط اليد . والمراد ضيق الخلق ، على المثل . م : « الزرع » ، تحريف .

(٤) فى النسختين : « لايحمل » ، والوجه ما أثبت .

(٥) التغضب : الغضب ، واستعار الراعى التغضب لشدة غليان القدر فى قوله :

إذا أحمشوها بالوقود تغضبت على اللحم حتى تترك اللحم باديا

وفى النسختين : «تعصب» بالعين المهملة ، صوابه ما أثبت . وانظر الآية ١٨ من سورة المائدة .

(٦) ب : « لايكون ابن ابنه » م : « لايكون ابن الله ابنه » . والصواب ما أثبت .

وهذا من تمام الإكرام ، وكمال المحبَّة ، ولا سيَّما إن كان قال فى التوراة : بنو إسرائيل أبناء بكرى .

وأنت تعلم أَنَّ العربَ حين زعمت أَنَّ الملائكة بناتُ الله كيف استعظم الله تعالى ذلك وأكبَرَه ، وغَضِب على أَهلِه ، وإنْ كان يعلم أَنَّ العرب لم تجعل الملائكةَ بناتِه على الولادة واتِّخاذ الصاحبة ، فكيف يجوز مع ذلك أَن يكون الله قد كان يُخبِر عبادَه قبل ذلك بأَنَّ يعقوبَ ابنُه ، وأَنَّ سليمانَ ابنُه ، وأَن عُزَيراً ابنُه ، وأَنَّ عيسى ابنُه[1] ؟ .

فالله تعالى أَعظمُ من أَن يكون له أُبوَّةٌ من صفاته ، والإنسان أَحقر من أَن يكون بنوَّةُ الله من أَنسابه .

والقول بأَنَّ الله يكون أَباً وجدًّا[2] وأَخاً وعَمًّا ، للنَّصارى أَلزم ، وإن كان للآخَرِين لازماً ، لأَنَّ النصارى تزعم أَنَّ الله هو المسيحُ بنُ مريم ، وأَنَّ المسيحَ قال للحواريِّين : « إخوتى » . فلو كان للحواريِّين أَولادٌ لجاز أَن يكون الله عمَّهم !

بل قد يزعمون أَنَّ مَرْقُشَ هو ابن شَمْعُون الصَّفَا[3] ، وأَن زوزرى ابنته ، وأَنَّ النَّصارى تُقِرّ أَنَّ فى إنجيل مرقُش[4] : « ما زاذ[5] أُمُّك وإخوتُك على الباب » وتفسيرها : ما زاذ[6] : معلِّم . فهم لا يمتنعون من أَن يكون الله تبارك وتعالى أَباً وجَدًّا وعمًّا .

---

(١) وأن عزيرا ابنه ، ساقط من ب .

(٢) ب : « أباً واحداً » ، صوابه فى م .

(٣) فى الفصل لابن حزم ٢ : ٢ أن مارقش هو تلميذ شمعون الصفا بن توما .

(٤) فى النسختين : « فى الإنجيل مرقش » صوابه ما أثبت . وانظر إنجيل مرقس ٣ : ٣٢ .

(٥) ب : « ماذاذ » بذالين معجمتين . والذى فى الإنجيل : « هو ذا » .

(٦) ب : « ماذاذ » بذالين معجمتين .

ولولا(١) أنَّ الله قد حكى عن اليهود أنَّهم قالوا : إنَّ « عزيراً ابنُ اللهِ(٢) » ، ﴿ ويدُ الله مغلولة(٣) ﴾ ،و﴿ إن الله فَقير ونَحْنُ أَغنياءُ(٤) ﴾ وحكى عن النَّصارى أَنَّهم قالوا : « المسيح ابنُ الله » وقال : ﴿ قالت النَّصارى المسيحُ ابنُ اللهِ(٥) ﴾ . وقال : ﴿ لقد كفَرَ الذين قالوا إنَّ الله ثالث ثلاثةٍ(٦) ﴾ ـ لكنتُ لأَنْ أَخِرَّ من السَّماءِ أَحبُّ إِلىّ من أَن أَلفِظَ بحرفٍ مِمَّا يقولون. ولكنِّى لا أَصِلُ إلى إظهار جميعِ مخازيهم ، وما يُسِرُّون من فضائحهم ، إلَّا بالإخبار عنهم ، والحكاية منهم .

فإنْ قالوا : خبِّرونا عن الله ، وعن التوراة ، أَليست حقًّا(٧) ؟ قلنا : نعم . قالوا : فإنَّ فيها « إسرائيلُ بِكرى(٨) » وجميعُ ما ذكرتم عنا معروفٌ فى الكُتب .

قلنا : إنَّ القومَ إنَّما أُتُوا من قلَّة المعرفة بوجوه الكلام ، ومن سُوءِ التَّرجمة ، مع الحكم بما يَسبِقُ إلى القلوب . ولَعمرى أَنْ لو كانت لهم عقولُ المسلمينَ ومعرفتُهم بما يجوز فى كلام العرب ، وما يجوز على الله ، مع فَصاحتهم بالعِبرانيَّة ، لوجَدوا لذلك الكلامِ تأْويلًا حسناً ، ومَخرجاً سَهْلًا ، ووجهاً قريباً . ولو كانوا أَيضاً لم يُعطِّلوا فى سائرِ ما تَرْجموا لكان لقائلٍ مقالٌ ، ولطاعنٍ مَدخلٌ ، ولكنَّهم يخبرون أَنَّ

---

(١) ب : « ولو » .
(٢) إشارة إلى الآية الكريمة : « وقالت اليهود عزير ابن الله » ، وهى الآية ٣٠ من التوبة .
(٣) الآية ٦٤ من سورة المائدة .
(٤) الآية ١٨١ من سورة آل عمران .
(٥) الآية ٣٠ من سورة التوبة . والاقتباس هنا بطرح الواو ، فإن نص الآية : «وقالت النصارى » . وهو أمر جائز كما أشرت إلى ذلك فى كتابى تحقيق النصوص ص ٥١ .
(٦) الآية ٧٣ من سورة المائدة .
(٧) فى النسختين : « حق » ، صوابه ما أثبت .
(٨) انظر ما مضى فى حواشى ص ٣٣٢ .

الله تبارك وتعالى قال فى العَشْر الآيات[1] التى كتبتها أَصابعُ الله : « إنِّى أَنا اللهُ الشَّديد ، وإنِّى أَنا الله الثَّقْف[2] ؛ وأَنا النار التى تأْكل النيران[3] ، آخذُ الأَبناء بحَوْبِ الآباء ، القرن الأَوّل والثانى والثالث إلى السابع[4] » . وأَنَّ داود قال فى الزبور : « وافتح عينَك يارب » و « قُمْ يارب » ، و « أَصغِ إلىَّ سَمْعَك يارب[5] » . وأَنَّ داود خبّر أَيضاً فى مكانٍ آخر عن الله تعالى : « وانتبَه الله كما يَنْتبِهُ السَّكرانُ الذى قد شَرِبَ الخمر[6] » . وأَنَّ موسى قال فى التوراة : « خلق الله الأَشياءَ بكلمته ، وبِرُوح نَفْسه » . وأَن الله قال فى التوراة لبنى إسرائيل : « بذراعى الشَّديدة أَخرجْتُكُمْ من أَهل مِصْر[7] » . وأَنَّه قال فى كتاب إشَعْياءَ : « احمدِ اللهَ حمداً جديداً ، احمدْهُ فى أَقاصى الأَرض ، بملأ الجزائر وسُكَّانَها ، والبُحورَ والقفار وما فيها ، ويكون بنو قَيْدار فى القُصور ، وسُكَّانُ الجبال[8] – يعنى قيدار بن إسماعيل – ليَصيحوا ويُصيِّروا لله الفخر والكرامة ، ويسبِّحوا بحمد الله فى الجزائر[9] » .

---

(١) فى النسختين : « فى العشر آيات » ، والوجه ما أثبت .

(٢) الثقف : الفطن الذكى .

(٣) فى النسختين : « أكل النيران » .

(٤) فى سفر الخروج ٣٤ : ٧ : « مفتقد إثم الآباء فى الأبناء وفى أبناء الأبناء فى الجيل الثالث والرابع» .

(٥) انظر المزامير ١٧ : ١ و ٢٨ ؛ ٢ و ٦١ : ١

(٦) فى المزامير ٧٨ : ٦٥ : « فاستيقظ الرب كنائم كجبار معيط من الخمر » . عيط الشارب : قال عيط عيط ، بكسر العين ، وقد عيط تعييطا .

(٧) انظر الخروج ١٣ : ٣ والتثنية ٤ : ٣٤ / ٥ : ١٥ والمزامير ١٣٦ : ١١ – ١٢ .

(٨) فى سفر إشعياء ٤٢ : ١٠ ، ١١ : « غنوا للرب أغنية جديدة تسبيحه من أقصى الأرض ، أيها المنحدرون فى البحر وملؤه ، والجزائر وسكانها . لترفع البرية ومدنها صوتها الديار التى سكنها قيدار . لتترنم سكان سالع من رءوس الجبال » .

(٩) فى سفر إشعياء ٤٢ : ١١ – ١٢ : « ليهتفوا . ليعطوا الرب مجداً ويخبروا بتسبيحه فى الجزائر » . وفى الأصل هنا : « يصيحوا ويصيروا لله الفخر والكرامة ، ويلبسون بحمد الله فى الجزائر » . وقد أصلحت العبارة فى ضوء مافى السفر .

وأنَّه قال على إثر ذلك : « ويخرج الربُّ[١] كالجبَّار ، وكالرَّجل الشُّجاع المجرِّب[٢] ، ويَزجُر ويصرخ ، ويهيِّج الحربَ والحميَّة ، ويقتُل أعداءه[٣] ، يُفرح السماءَ والأَرض » .

وأنَّ الله قال أيضاً فى كتاب إشَعياءَ : « سكَتُّ . قال : هو متى أسْكت ، مثل المرأة التى قد أخذها الطَّلْق للولادة أتلهَّف[٤] ، وإن ترانى أُريد أحرث الجِبال والشُّعَب[٥] ، وآخُذ بالعربِ فى طريقٍ لا يعرفونه[٦] » .

وكلُّهم على هذا اللفظ العربىِّ مُجْمِع . ومعنى هذا لا يجوِّزه أَحدٌ من أَهل العلم ، ومثل هذا كثيرٌ تركتُه لمعرفتكم به .

وأنت تعلم أنَّ اليهود لو أَخذوا القرآنَ فترجموه بالعِبْرانيَّة لأَخرجوه من معانيه ، ولحوَّلوه عَن وجوهه ، وما ظنُّك بهم إذا تَرجَموا : ﴿ فَلَمَّا آسَفُونا انتقَمْنا منهم[٧] ﴾ ، و ﴿ لتُصْنعَ على عَيْنِى[٨] ﴾ ، و ﴿ السَّمواتُ مَطْوِيَّاتٌ بيمينه[٩] ﴾ ، و ﴿ على العَرْشِ اسْتَوَى[١٠] ﴾ ، و ﴿ ناضرةٌ . إلى ربِّها ناظرة[١١] ﴾ ، وقوله : ﴿ فلَمَّا تجلَّى ربُّه للجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا[١٢] ﴾ ،

---

(١) فى النسختين : « ويجيء الرب » وفى سفر إشعياء : « الرب كالجبار يخرج » .

(٢) فى سفر إشعياء : « كرجل حروب ينهض غيرته »

(٣) فى سفر إشعياء : « يهتف ويصرخ ويقوى على أعدائه » .

(٤) لاريب أن فى العبارة تحريفاً . والذى فى سفر إشعياء ٤٢ : ١٤ : « قد صمت منذ الدهر ، سكت تجلدت . كالوالدة أصيح أنفخ وأنخر معاً » . سكت وتجلدت بتاء المتكلم فيهما .

(٥) فى سفر إشعياء : « أخرب الجبال والآكام وأجفف كل عشبها وأجعل الأنهار يبساً وأنشف الآجام » .

(٦) كذا . والذى فى السفر : « وأسير العمى فى طريق لم يعرفوها » . أسير من التسيير ، والعمى : جمع أعمى

(٧) الآية ٥٥ من سورة الزخرف . (٨) الآية ٣٩ من سورة طه .

(٩) الآية ٦٧ من سورة الزمر .

(١٠) الآية ٥ من سورة طه .

(١١) الآية ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة .

(١٢) الآية ١٤٣ من سورة الأعراف .

و ﴿ كَلَّمَ اللهُ موسى تكليماً[1] ﴾ ، و ﴿ جَاءَ ربُّكَ والمَلَكُ صَفًّا صَفًّا[2] ﴾ .

وقد يُعلم أنَّ مفسِّرى كتابِنا وأَصحابَ التأْويل مِنَّا أَحسَنُ معرفةً ، وأَعْلَمُ بوجوهِ الكلام من اليهود ، ومتأَوِّلى الكتب ، ونحن قد نجد فى تفسيرهم ما لا يجوز على الله فى صفتِه ، ولا عند المتكلِّمين فى مقاييسهم[3] ، ولا عند النحويين فى عربيَّتهم . فما ظنُّك باليهود مع غَباوتِهم وغَيِّهم ، وقلَّة نظرِهم وتقليدهم ؟

وهذا بابٌ قد غَلِطت فيه العربُ أنفُسها ، وفصحاءُ أَهل اللُّغة إذا غَلِطت قلوبها ، وأَخْطأَتْ عقولها ، فكيف بغيرهم ممَّن لا يعلم كعلمها ؟

سمع بعضُ العرب قولَ جميعِ العرب : « القلوبُ بيد الله » ، وقولهم فى الدُّعاءِ : « نواصِينا بيد الله » وقوله جل ذكره : ﴿بل يَدَاهُ مَبسوطَتانِ[4]﴾ ، وقولهم : « هذا من أَيادى اللهِ ونِعَمِهِ عندنا » وقد كان من لغتهم أَنَّ الكفَّ أَيضاً يدٌ[5] ، كما أَنَّ النِّعمة يد ، والقُدرة يد ، فغلط الشَّاعر[6] فقال :

هَوِّن عليكَ فإنَّ الأُمورَ ... بكفِّ الإِلَه مَقاديرُها[7]

---

(١) الآية ١٦٤ من سورة النساء .

(٢) الآية ٢٢ من سورة الفجر .

(٣) فى النسختين : « مقايسهم » .

(٤) الآية ٦٤ من سورة المائدة .

(٥) فى النسختين : « الكفر أيضاً يد » ، والوجه ما أثبت . وهو تمهيد للاستشهاد بالبيت التالى ، الذى أثبت للإله كفاً ، وذلك من سوء أدب الشاعر ، وإنما يعبر باليد فى ذات الله لمعنى النعمة والقدرة .

(٦) هو محمد بن حازم الباهلى كما فى العقد ٣ : ٢٠٦ . وسماه « ابن أبى حازم » ، تحريف . وهو محمد بن حازم بن عمرو الباهلى . كان من ساكنى بغداد ، ومولده ومنشؤه بالبصرة . وهو من شعراء الدولة العباسية . شاعر مطبوع ، إلا أنه كان كثير الهجاء للناس . ولم يمدح من الخلفاء إلا المأمون . كان يقول المقطعات الصغيرة فيحسن . وهو صاحب البيت المشهور :

يا راقد الليل مسروراً بأوله ... إن الحوادث قد يطرقن أسحارا

وقد عاتبه يحيى بن أكثم على اختصاره للشعر ، فأجابه بأشعار حسان .

انظر الأغانى ١٢ : ١٥١ — ١٦٠ والمرزبانى ٤٢٩ وتاريخ بغداد ٧٨١ .

(٧) فى العقد : * فلا تحرصن فإن الأمور *

وقد كان إبراهيمُ بن سيَّارٍ النَّظامُ يجيب بجوابٍ ، وأنا ذاكِرُه إن شاء الله . وعليه كانت علماءُ المعتزِلة ، ولا أُراه مقنعاً ولا شافياً .

وذلك أنَّه كان يجعل الخليلَ مثل الحبيب، مثل الولىِّ ، وكان يقول : خليلُ الرحمن مثل حبيبه ووليِّه وناصره . وكانت الخُلَّة والوِلاية والمحبَّة سواءً .

قالوا : ولمَّا كانت كلُّها عنده سواءً جاز أن يسمِّىَ عبداً له ولداً ، لمكان التربية التى ليست بحَضَانة ، ولمكان الرَّحمة التى لا تُشتَقُّ من الرحم(١) ، لأنَّ إنساناً لو رحم جَرْوَ كلبٍ فربَّاه لم يَجُزْ أن يسمِّيَه ولداً ويسمِّىَ نفسه أباً . ولو التقط صبيًّا فربَّاه جاز أنْ يسمِّيَه ولداً ويسمِّىَ نفسَه له أباً ، لأنَّه شبيهُ ولدِه ، وقد يُولَد لمثلِه مثلُه . وليس بين الكلاب والبشر أرحام ، فإذا كان شَبَهُ(٢) الإنسان أبعدَ من الله تعالى من شَبه الجِرْو بالإنسان ، كان الله أحقَّ بألاَّ يجعله ولده ، وينسبَه إلى نفسه .

قلنا لإبراهيم النَّظامِ عند جوابِه هذا وقياسِه(٣) الذى قاس عليه ، فى المعارضةِ والموازنةِ بين قياسِنا وقياسه : أرأيت كلباً أَلِفَ كَلَّابه(٤) ، وحامَى وأحمى دُونَه ، هل يجوز أن يتَّخذه بذلك كلِّه خليلًا ، مع بُعد التَّشابُه والتَّناسب ؟

فإذا قال : لا . قلنا : فالعبدُ الصالح أَبعَدُ شبهاً من الله من ذلك الكلْبِ المحسِن إلى كَلَّابه ، فكيف جازَ فى قياسك أن يكون الله خليلَ

---

(١) فى النسختين : « لايشتق » ، تحريف .
(٢) ب : « شبيه » .
(٣) ب : « وإن قياسه » .
(٤) الكلاب : صاحب الكلاب ، كما أن المكلب صاحبها الذى يعلمها أخذ الصيد ويصطاد بها . ب : « أرأيت كلابا » ، صوابه فى م .

من لا يشاكله لمكان إحسانه ، ولا يجوز للكلّاب أنْ يسمّىَ كلبه خليلًا أَو ولداً لمكان حُسْن تربيته له ، وتـأْديبِه إيَّاه ، ولمكان حُسْن الكلبِ وكَسْبِه عليه ، وقيامِه مقام الولدِ الكاسب والأَخِ ، وَالبَارّ .

والعبدُ الصَّالح لا يُشبِه الله فى وجهٍ من الوجوه ، والكلبُ قد يشبه كَلَّابه لوجوهٍ كثيرة ، بل ما أَشْبَهَه به ممَّا خالفه فيه ، وإن كانت العِلّةُ التى منَعَتْ من تسمية الكلب خليلًا وولداً بُعْدَ شبهِه من الإنسان .

فلو قلتم[١] : فما الجواب الذى أَجبتَ فيه ، والوجهُ الذى أَرتضيتَه ؟

قلنا : إنَّ إبراهيم صلواتُ الله عليه ، وإن كان خليلًا ، فلم يكن خليلَه بخُلَّةٍ كانت بينه وبين الله تعالى ، لأَنَّ الخُلَّة والإخاءَ والصَّداقةَ والتَّصافىَ والخُلْطةَ وأَشباهَ ذلك منفيَّةٌ عن الله تعالى عزّ ذكره ، فيما بينه وبين عباده ، على أَنَّ الإخاءَ والصَّداقة داخلتان فى الخُلَّة ، والخُلَّة أَعمُّ الاسمين ، وأَخصُّ الحالَيْن. ويجوز أَنْ يكون إبراهيم خليلًا بالخَلَّة[٢] التى أَدخلها الله على نفسه وماله ، وبين أَن يكون خليلًا [بالخَلَّة وأَن يكون خليلًا[٣]] بخُلَّةٍ بينه وبين ربِّه — فرق ظاهر ، وبونٌ واضح . وذلك أَنَّ إبراهيم عليه السلام اختلّ فى الله تعالى اختلالاً لم يختِلْله أَحدٌ قبله . لقَذْفِهم إيَّاه فى النار ، وذبحِه ابنَه ، وحَمْله على مالِهِ فى الضِّيافة والمواساة والأَثَرة ، وبعداوةِ قومه ، والبراءَة من أَبويه فى حياتهما ، وبعد موتهما ، وتركِ وطنه ، والهجرةِ إلى غير داره ومَسْقطِ رأْسِه . فصار لهذه الشدائد مختلاً فى الله ، وخليلًا فى الله . والخَليل والمختلُّ[٤] سواءٌ فى كلام

(١) فى النسختين : فلم قلتم » ، والوجه ما أثبت .

(٢) الخلة ، بالفتح : الحاجة والفقر .

(٣) تكملة يفتقر إليها الكلام .

(٤) فى النسختين : « مخول » ، تحريف . وفى اللسان : « ورجل مخل ومختل وخليل وأخل : معدم فقير » .

العرب . والدليل على أنْ يكون الخليل من الخَلَّة كما يكون من الخُلَّة قولُ زهيرِ بن أبى سُلْمَى ، وهو يمدح هَرِماً :

وإنْ أتاهُ خليلٌ يومَ مَسْغبــــةٍ يقــول لا عاجــزٌ مالى ولا حَرِمُ[١]

وقال آخر :

وإنِّى إلَى أن تسعــفانى بحاجــةٍ إلى آل ليلَى مرَّةً لخليــلُ

وهو لا يمدحه بأنَّ خليله وصديقَه يكون فقيراً سائلًا ، يأْتى يوم المسألة ويبسط يده للصَّدقة والعطية ، وإنَّما الخليل فى هذا الموضع من الخَلَّة والاختلال ، لا من الخُلة والخِلال .

وكأنَّ إبراهيمَ عليه السلام حين صار فى الله مختلاً أضافه اللهِ إلى نفسه ، وأبانَهُ بذلك عن سائر أوليائه ، فسَّماه خليلَ الله من بين الأنبياء ، كما سمَّى الكعبة : بيتَ الله مِن بين جميع البيوت ، وأهل مكَّة : أهلَ الله من بَينِ جميع البلدان . وسمَّى ناقة صالح عليه السلام : ناقةَ الله من بين جميع النُّوق . وهكذا كلُّ شىءٍ عظَّمه الله تعالى ، من خيرٍ وشر ، وثوابٍ وعقاب . كما قالوا : دَعْه فى لعنة الله ، وفى نار الله وفى حرْقِه . وكما قال للقرآن : كتاب الله ، وللمحرَّم : شهر الله . و [على هذا المثال قيل لحمزة رحمة الله ورضوانه عزَّ ذكره عليه : أسدُ الله ، و[٢]] لخالد رحمةُ الله عليه : سيف الله تعالى .

وفى قياسنا هذا لا يجوز : أنَّ الله خليل إبراهيم ، كما يقال : إن إبراهيم خليل الله .

---

(١) ديوان زهير ١٥٣ والعينى ٤ : ٤٢٩ .

(٢) هذه التكملة من م وإن كانت عبارة الدعاء هذه ليست من أسلوب الجاحظ .

فإن قال قائل : فكيف لم يقدِّموه على جميع الأَنبياء ، إذ كان الله قدَّمه بهذا الاسم الذى ليس لأَحدٍ مثلُه ؟

قلنا : إنَّ هذا الاسم اشتُقَّ له من عمله وحاله وصفته ، وقد قيل لموسى عليه السلام : كليم الله ، وقيل لعيسى : روح الله ، ولم يُقَلْ ذلك لإبراهيم ، ولا لمحمد صلواتِ الله عليهما ، وإنْ كان محمد صلى الله عليه وسلم أَرفعَ درجةً منهم ، لأَنَّ الله تعالى كلَّم الأَنبياءَ عليهم السلام على أَلسنةِ الملائكة ، وكلَّم موسى كما كلَّم الملائكة ، فلهذه العِّلةِ قيل : كليم الله . وخلق فى نُطَف الرجال أَنَّ قذْفَهَا[1] فى أَرحام النساءِ على ما أَجرى عليه تركيب العالم ، وطباعَ الدنيا ، وخَلَق فى رحم مريم رُوحاً وجسداً ، على غير مجرى العادة ، وما عليه المناكحة . فلهذه الخاصَّة قيل له : روح الله .

وقد يجوز أَن يكون فى نبيٍّ من الأَنبياءِ خصلةٌ شريفة ، ولا تكون تلك الخَصْلة بعينها فى نبيٍّ أَرفعَ درجة منه ، ويكون فى ذلك النبى خصالٌ شريفة ليست فى الآخَر . وكذلك جميع الناس ، كالرجل يكون له أَبوانِ، فيُحسن برَّهما وتعاهُدَهما ، والصَّبْرَ عليهما ، وهو أَعرجُ لا يقدر على الجهاد ، وفقيرٌ لا يقدر على الإنفاق . ويكون آخر لا أَبَ له ولا أُمَّ له ، وهو ذو مالٍ كثير ، وخَلْقٍ سويٍّ ، وجَلَد طاهر ، فأَطاع هذا بالجِهاد والإِنفاق ، وأَطاع ذلك ببرِّ والديه والصَّبرِ عليهما .

والكلام إذا حرِّك تشعَّب ، وإذا ثبت أَصلُه كثرت فنُونه ، واتَّسعت طرقه . ولولا ملالة القارىء ، ومداراة المستمع لكان بَسطُ القولِ فى جميع ما يعرض أَتمَّ للدَّليلِ ، وأَجمعَ للكتاب ، ولكنَّا إنَّما ابتدأْنا الكتاب لنقتصر به على كسر النصرانيَّة فقط .

(١) فى النسختين : « إذ قذفها » ، ووجهت العبارة بما ترى .

٦ – فصـــل منه

قلنا فى جواب آخر : إن كان المسيح إنَّما صار ابنَ الله لأَنَّ الله خلقه من غير ذكر ، فآدم وحواءُ[١] إذْ كانا[٢] من غير ذكر وأُنثى أَحقُّ بذلك ، إنْ كانت العلَّة فى اتخاذه ولداً أنَّه خلقه من غير ذكر . وإن كان ذلك لمكان التربية فهل ربَّاه إلَّا كما ربَّى موسى[٣] ، وداود ، وجميع الأَنبياء . وهل تأْويل : « ربَّاه » إلَّا غَذَاه ، ورزقه ، وأطعمه ، وسقاه ، فقد فعل ذلك[٤] بجميع الناس . ولِمَ سمَّيتم سَقْيَه لهمْ وإطعامَه إيَّاهم تربيةً ؟ ولِمَ ربَّاهُ وأنتم لا تريدون إلَّا غَذَاه ورَزَقه ، وهو لمْ يَحْضُنْه ، ولم يباشر تقليبَه ، ولم يتولَّ بنفسه سقْيَهُ وإطعامَه ، فيكونَ ذلك سبباً له دون غيره ، وإنَّما سقاه لبَن أُمِّه فى صِغَره ، وغَذَاه بالحُبوب والماءِ فى كبره .

٧ – فصـــل منه

والأُعجوبة فى آدمَ عليه السَّلام أَبْدعُ ، وتربيتُه أكرم ، ومُنقَلَبه أَعلى وأَشرف ، إذْ كانت السماءُ دارَه ، والجنَّةُ منزلَه ، والملائِكةُ خُدَّامَه . بل هو المقدَّم بالسُّجُود ، والسُّجُود أَشدُّ الخضوع . وإن كان بِحُسْنِ التعليم والتَّثقيف[٥] ؛ فمَن كان الله تعالى يخاطبه ، ويتولى مناجاتَهُ دون أَن يُرْسل إليه ملائِكته ويبعث إليه رسُله ، أَقرَبُ منزلةً ، وأَشرفُ مرتبةً ، وأَحقُّ بشرَف التَّأْديب وفضيلةِ التعلم .

---

(١) رسمت فى النسختين : « حوى » .

(٢) ب : « إذا كان » م : « إذا كان » ، والوجه ما أثبت .

(٣) فى النسختين « إلا حماد بن موسى » ، صوابه ما أثبت ، وهو من دقيق التحريف ، حرفت « كما » إلى « حماد » و « ربى » إلى « د بن » .

(٤) ب : « فهل فعل ذلك » ، صوابه فى م .

(٥) أى « وإن كان تقديمه بحسن التعليم » ، وكلمة « التثقيف » ساقطة من م . وفى النسختين : « وإن كان يحسن التعليم » ، والوجه ما أثبت .

وكان الله تعالى يكلِّم آدمَ كما كان يكلِّم ملائكته ، ثم علَّمه الأَسْماءَ كلَّها ؛ ولم يكن ليعلِّمَه الأَسْماءَ كلَّها إلّا بالمعانى كلِّها ، فإذا [كان[١]] ذلكَ كذلك فقد علَّمه[٢] جميعَ مصالحه ومصالحِ ولده ، وتلك نهاية طباع الآدميِّين ، ومَبْلغ قُوى المخلوقين .

٨ – فصل منه

فأَمّا قولهمْ إنّا نقول على الناس ما لا يعرفونه[٣] ، ولا يجوز أن يدينوا به ، وهو قولنا إنَّ اليَهود قالت : إنَّ الله تعالى فقيرٌ ونحنُ أَغنياءُ . وأَنَّها قالت : إنَّ يد الله مغلولة ، وإنَّها قالت : إنَّ عزيراً ابنُ الله ، وهم مع اختلافهم وكثرة عددهم ، ينكرون ذلك ويأْبَوْنَه أَشدَّ الإِباءَ .

قلنا لهم : إنَّ اليهودَ لعنهم الله تعالى كانت تَطعن على القرآن ، وتَلتمس نَقْضَه ، وتطلُب عَيْبَه ، وتخطِّئ فيه صاحبه ، وتأْتيه من كلِّ وجه ، وتَرصُده بكلِّ حِيلة ، ليلتبسَ على الضُّعفاء ، وتستميل قُلوبَ الأَغبياءِ[٤] .

فلمّا سمعَت قولَ الله تعالى لعباده الذين أَعطاهم ، قَرْضاً ، وسأَلهم قَرْضاً على التضعيف ، فقال عزَّ مِنْ قائل : ﴿ مَنْ ذا الذِى يُقْرِضُ الله قَرْضاً حَسَناً فيُضاعِفَه له[٥] ﴾ . قالت اليهود[٦] على وجْه الطَّعن والعيْب والتَّخطئة والتعنُّت : تَزعُم أَنَّ الله يَستقرِض مِنّا ، ومَا استقرَض منّا

---

(١) تكلة يفتقر إليها الكلام .

(٢) ب : « فهل علمه » ، صوابه فى م .

(٣) سقطت كلمة « لا » من النسختين ، ولا يستقيم الكلام بدونها .

(٤) ب : « الأغنياء » ، صوابه فى م . وفى النسختين : « ويستميل » ، تحريف .

(٥) الآية ٢٤٥ من سورة البقرة . وقراءة نصب «فيضاعف» هى لعاصم وابن عامر ويعقوب. وقراءة الجمهور « فيضاعفه » بالرفع على الاستئناف . إتحاف فضلاء البشر ١٥٩ .

(٦) ب : « قالت » فقط .

إلّا لفقره وغِنانا ! فكفرَتْ بذلك القولِ إذْ كان(١) على وجْه التّكْذيب والتّخطئة ، لا على وجهٍ أنَّ دينها كان فى الأَصل أنَّ الله فقيرٌ ، وأنَّ عباده أغنياء . وكيف يعتقد إنسانٌ أنَّ الله عاجزٌ عما يَقدِر عليه ، مع إقراره(٢) بأنّه الذى خلقَهُ ورزقَه ، وإن شاءَ حرَمَه ، وإن شاءَ عذّبه ، وإن شاءَ عفَا عنه . وقدرتُه على جميعِ ذلك كقدرته على واحد .

ومجاز الآية فى اللُّغة واضح ، وتأْويلُها بيِّن ؟ وذلك أنَّ الرجل منْهم كانَ يُقرض صَاحبَه لإرفاقه(٣) ، ليعود إليه مع أَصْل مالِه اليسيرُ من رِبْحه ، ثم هو مخاطرٌ به إلى أن يعود فى مِلكه . فقال لهم — بحُسْن عادتِه ومِنّته : آسُوا فقراءكم(٤) ، وأعْطُوا فى الحقِّ أقرباءكم ، من المال الذى أعطيتكم ، والنِّعمةِ التى خوَّلتكم ، بأمرى إيَّاكم وضَمانى لكم ، فأعتدّه منكم قرضاً وإنْ كنت أوْلى به منكم ، فأنا مُوفيكم حُقوقكم إلى مالا ترتقى إليه هِمّة ولا تبلُغه أُمنيّة . على أنّكم قد أَمِنتم من الخِطار ، وسلمتم من التّغْرير .

والرَّجُل يقول لعبْدِه(٥) : أَسْلِفْنى دِرهماً ، عند الحاجةِ تَعْرِضُ له(٦) ، وهو يعلم أنَّ عبدَه ومالَهُ له . وإنّما هذا كلامٌ وفَعَالٌ يدلُّ على حُسْن المِلْكة ، والتَفَضُّلِ على العبْد والأَمَة ، وإخبارٌ منه لعبْده أنّه سيُعيد عليهِ ما كانت سخَتْ به نفسه .

---

(١) ب : « إذا كان » ، صوابه فى م .

(٢) فى النسختين : « مع قراره » .

(٣) الإرفاق : النفع . وفى م : « لإرفائه » .

(٤) المؤاساة : مصدر آساه بماله : أناله منه وجعله فيه أسوة ، فهى المشاركة . وفى الحديث « ما أحد عندى أعظم يداً من أبى بكر ، آسانى بنفسه وماله » . وفى ب : « واسوا » على التخفيف ، وإن ذكر صاحب اللسان أنها لغة ضعيفة ، فى حديث الحديبية : « إن المشركين واسونا للصلح » .

(٥) ب : « لعبد » ، صوابه فى م .

(٦) فى النسختين : « تقرض له » ، تحريف ما أثبت .

وهذا ليس بغلطٍ فى الكلام ولا بِضيقٍ فيه(١) ولكن المتعنِّت يتعلَّق بكلِّ سبب ، ويتشبَّث بكلِّ ما وجَد .

وأمَّا إخباره عن اليهود أنَّها قالت : ﴿ يدُ اللهِ مَغْلولةٌ(٢) ﴾ ، فلمْ يذهبْ إلى أنَّ اليهود ترى أنَّ(٣) ساعدَه مشدودةٌ إلى عنقه بغُلّ . وكيف يذهب إلى هذا ذاهبٌ ، ويَدِينُ به دائن ؟ ! لأنه لابدَّ أن يكون يذهب إلى أنَّه غَلَّ نفسه أو غَلَّه غيره . وأيُّهما كان ، فإنَّه منفىٌّ عن وهم كلِّ بالغ يحتمل التكليف ، وعاقلٍ يحتمل التَّثقيف ، ولكنَّ اليهودَ قَومٌ جَبْرية ، والجبريَّة (٤) تُبخِّل الله مرَّةً ، وتظلِّمُه مرة (٥) ، وإن لم تُقرَّ بلسانها ، وتُشهِدْ على إقرارها ، بقولهم : ﴿ يدُ اللهِ مَغْلولة ﴾ يَعنُون بِرَّهُ وإحسَانه(٦) . وقولُهم : مَغْلولةٌ ، لا [يَعْنِي(٧)] أنَّ غَيْره حَبَسه ومَنَعه ، ولكن إذا كان عندهم أنَّه الذى منع أياديَه ، وحَبَس نِعمَه ؛ فهى مَحبوسَةٌ بحبْسه ، وممنوعةٌ بمنعه .

والذى يدلُّ على أنَّهمْ أَرادوا باليَدينِ النِّعمة والإفضال ، دونَ

---

(١) فى الأصلين : « وهذا ليس يغلط فى الكلام ولايضيق فيه » .

(٢) الآية ٦٤ من سورة المائدة . (٣) فى النسختين : « بأن » تحريف .

(٤) فى اللسان : « الجبرية : الذى يقولون : أجبر الله العباد على الذنوب ، أى أكرههم عليه » . والمعروف عند المتكلمين أن الجبر هو نفى الفعل حقيقة عن العبد ، وإضافته إلى الرب تعالى . . والجبرية أصناف . فالجبرية الخالصة هى التى لاتثبت للعبد فعلا ولا قدرة على الفعل أصلا . والجبرية المتوسطة التى تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة . فأما من أثبت للقدرة الحادثة أثراً ما فى الفعل وسمى ذلك كسباً فليس بجبرى . والمعتزلة يسمعون من لم يثبت للقدرة الحادثة فى الإبداع والإحداث استقلالا — جبرياً . الملل والنحل ١ : ١٠٨ .

(٥) فى اللسان (ظلم ٢٦٧) : « وظلمه (بالتشديد) : أنبأه أنه ظالم ، أونسبه إلى الظلم » وأنشد :

أمست تظالمنى ولست بظالم   وتنبهنى نبهاً ولست بنائم

وفى ب : « وتعظمه » ، صوابه ما أثبت من م .

(٦) بره ، ساقطة من ب . وهى فى م : « يده » ، ووجه هذه ما أثبت .

(٧) تكلة يفتقر إلى مثلها الكلام .

السَّاعدِ والذراع ، جَوابُ كلامِهمْ حينَ قال : ﴿ بَلْ يَداهُ مَبْسُوطتان يُنفِقُ كَيْفَ يشاءُ(١) ﴾ . دليلًا على ما قلنَا ، وشاهداً على ما وَصَفْنا .

فإن قالوا : فكيف لم نقل إنَّ اليهود بَخَّلت الله وجَحَدت إحسانه ، دون أن يقال إنَّ يد الله مغلولة ؟

قلنا : إنْ أَراد الله الإخبارَ عن كُفْر قومٍ(٢) وسَخِط عليْهم ، فليْس لهمْ عليه أَنْ يعبِّر عن دينهم وعيوبهم بأَحْسنِ المخارج ، ويجلِّيها(٣) بأَحْسن الألفاظ . وكيف وهو يريد التَّنفير عن قولهم ، وأن يبغِّضَهُمْ إلى مَنْ سمعَ ذلك عنهم .

ولو أَراد الله تعالى تليينَ الأَمر وتصغيرَه وتسهيلَه ، لقال قولًا غيْرَ هذا . وكلٌّ(٤) صدقٌ جائزٌ فى الكلام . فهَذَا مجاز مسْأَلتهم فى اللُّغة ، وهو معروفٌ عند أَهل البيان والفصاحة .

وأَمَّا قولهم : إنَّ اليهود لا تقول إنَّ عزيراً ابنُ الله . فإنَّ اليهود فى ذلك على قولين : أَحدهما خاصٌّ ، والآخر عامٌّ فى جماعتهم .

فأَمَّا الخاصُّ ، فإنَّ ناساً منهم لمَّا رأَوا عُزَيْراً أَعَاد عليْهم التَّوراةَ من تلقاءِ نَفْسِه ، بعد دُرُوسهَا وشَتَاتِ أَمرها غَلَوْا فيه ، وقالوا ذلك ، وهو مشهور(٥) من أَمرهم . وإنَّ فريقاً من بقاياهم لباليمن والشَّامِ وداخلِ بلادِ الرُّوم . وهؤلاءِ بأَعيانهم يقولون : إنَّ إسرائيل اللهِ ابنُه(٦) ، وإذا كان ذلك على خلافِ تناسُب الناس ، وصار(٧) ذلك الاسم لعُزَيرٍ

(١) من الآية ٦٤ فى سورة المائدة .
(٢) ب : « على كفر قوم » ، صوابه فى م .
(٣) م : « ويجلها » .
(٤) فى النسختين : « وحل » ، ووجهه ما أثبت . (٥) ب : « مشهود » .
(٦) انظر ماسبق فى ص ٣٣١ — ٣٣٢ . وهو ترجمة لكلمتى « إسرا » و « إيل » . وفى تفسير أبى حيان ١ : ١٧١ أن « إسرا » بمعنى العبد ، فى العبرانية .
(٧) ب : « وسار » بالسين .

بالطّاعة والعلامة ، والمرتبة لأنَّه[١] من ولد إسرائيل .

والقول الذى هو عامٌّ فيهم ، أن كلَّ يهودىٍّ[٢] ولدَهُ إسرائيل ، فهو ابنُ الله ، إذْ لم يجدوا ابنَ ابنٍ قطُّ إلَّا وهو ابن .

٩ — فصل منه

فإنْ قالوا : ليس المسيحُ روحَ الله وكلمتَه ، كما قال عزّ ذكره : ﴿ وكلمتُه ألقاها إلى مَرْيَمَ ورُوحٌ منه[٣] ﴾ أوَ ليس قد أخبر عن نفسه حين ذكر أُمّه أنَّه نفخ فيها من رُوحه ؟ أوَ ليس مع ذلك قد أخبر عن حصانة فرجها وطهارتها[٤] ؟ أوَ ليْس مع ذلك قد أخبر أنَّه لا أبَ له ، وأنَّه[٥] كان خالقاً ، إذْ كان يَخْلُق من الطِّين كهيئة الطير ، فيكون حيًّا طائِراً ؟ فأىُّ شىءٍ بَقِىَ[٦] من الدَّلالات على مخالفته لمشاكلةِ[٧] جميعِ الخلق ، ومباينةِ جميعِ البَشَر ؟

قلنا لهم : إنَّكم إنَّما سألتمونا عن كتابنا ، وما يجوزُ فى لغتنا وكلامِنا ، ولم تَسْألونا عمَّا يجوز فى لغتكم وكلامكم . ولو أنَّنا جوَّزنا ما فى لغتنا مالا يجوز ، وقلنا على الله تعالى مالا نعرِف ، كنَّا بذلك عند الله والسَّامعينَ فى حدِّ المكاثرين ، وأسوأ حالًا من المنْقطعين ، وكنَّا قد أعطيناكم أكثرَ مما سألتم ، وجُزنا بكم فوق أُمنيَّتكم .

---

(١) ب : « لا لأنه » . و « لا » مقحمة تفسد الكلام .

(٢) فى النسختين : « أن يكون يهودى » .

(٣) الآية ١٧١ من سورة النساء .

(٤) فى الأصل : « أوليس مع ذلك قد أخبر عن حصانة فرجها وطهارتها ، أخبر أنه نفخ فيها من روحه » وفى هذا تكرار لاوجه له .

(٥) ب : « وأن » ، صوابه فى م .

(٦) فى النسختين : « تنى » ، تحريف .

(٧) فى النسختين : « بمشاكلة » . والمقصود نفى المشاكلة .

ولو كنَّا إذا قُلنا : عيسى رُوح الله وكلمتُه ، وجبَ علينا[١] فى لغتنا أن يجعله الله ولداً ، ونَجْعلَه[٢] مع الله تعالى إلهاً ، ونقول[٣] : إنَّ روحاً كانت فى الله فانفصلَتْ منه إلى بدنِ عيسى وبَطْنِ مريم . فكنَّا إذا قلنا : إنَّ الله سمَّى جبريلَ رُوحَ الله ورُوحَ القُدس ، وجب علينا أن نقول فيه ما يقولون فى عيسى . وقد علمتم أنَّ ذلك ليس من ديننا ، ولا يجوز ذلك بوجهٍ من الوجوه عندنا ، فكيف نُظهر للناس قولاً لا نقولُه ، وديناً لا نرتضيه .

ولو كان قوله جلَّ ذكره[٤] : ﴿ فنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنا[٥] ﴾ يُوجبُ نفخاً كنَفْخِ الزِّقِّ ، أو كنفخ الصَّائغ فى المِنفاخ ، وأنَّ بعض الرُّوح التى كانت فيه انفصلت فاصلةً إلى بطنه وبطن أُمِّه[٦] ، لكان قولُه فى آدم يوجب له ذلك ؛ لأنه قال : ﴿ وبَدَأَ خَلْقَ الإنْسانِ من طينٍ . ثم جَعَلَ نَسْله[٧] ﴾ . . إلى قوله : ﴿ ونَفَخ فيه من رُوحِه[٨] ﴾ وكذلك قوله : ﴿ فإذا سَوَّيتَه ونَفَخْتُ فِيهِ مِنْ روحِي فقَعُوا لَهُ ساجِدِين[٩] ﴾ .

والنفخ يكون من وجوه ، والرُّوح يكون من وجوه :

فمنها ما أَضافه إلى نفسه ، ومنها ما لم يُضِفْه إلى نفسه . وإنَّما

(١) ب : « وجبب علينا » ، تحريف ، ما فى م .
(٢) فى النسختين : « ويجعله » ، محرف .
(٣) فى النسختين : « ويقول » .
(٤) فى النسختين : « ولو قال جل ذكره » . فينقطع الكلام عما بعده .
(٥) من الآية ٩١ من الأنبياء و ١٢ من التحريم .
(٦) فى النسختين : « بعض روح » .
(٧) فى النسختين : « بطنها وبطن أمها » .
(٨) الآيتان ٧ ، ٨ من سورة السجدة .
(٩) الآية ٩ من سورة السجدة .
(١٠) الآية ٢٩ من الحجر و ٧٢ من ص .

يكون ذلك على قَدْر ما عَظُم من الأُمور ، فممَّا سمَّى رُوحاً وأَضافَه إلى نفسه ، جِبْريل الرُّوح الأَمين ، وعيسى بنُ مريم . والتوفيق كقول موسى حين قال : إنَّ بنى فلان أَجابوا فلاناً النبيَّ ولم يُجيبوك . فقال له[1] : « إنَّ روح الله مع كلِّ أَحد »[2] .

وأَمَّا القرآنُ فإنَّ الله سمَّاه روحاً ، وجعلَه يُقيم للنَّاس مصالحَهم فى دنياهم وأَبدانِهم ، فلما اشتبها من هذا الوجه أَلزمهما اسْمَهما فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم : ﴿ وكذلِكَ أَوْحَيْنَا إليكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنا[3] ﴾ وقال : ﴿ تَنَزَّلُ الملائكةُ والرُّوحُ[4] ﴾ .

١٠ — فصل منه

قد جعلنا فى جواباتِهم وقدَّمنا مسائلهم[5] ، بما لم يكونوا ليبلغوه لأَنفسهم ، ليكون الدَّليلُ تامًّا ، والجوابُ جامعاً ؛ وليعلمَ من قَرأَ هذا الكتابَ ، وتدبَّر هذا الجوابَ ، أَنَّا لم نَغتنِمْ عَجْزَهم ، ولم ننتهزْ غِرَّتَهم ، وأَنَّ الإدلال بالحجَّة ، والثِّقة بالفَلْج والنُّصرة ، هو الذى دعانا إلى أَن نُخْبِر عنهم بما ليس عندهم ، وأَلَّا نقول فى مسأَلتهم بمعنىً لم ينتبهْ له مُنتبِه ، أَو يُشِرْ إليه مشير[6] ، وأَلَّا يُوردوا فيما يستقبلون ، على

(١) ب : « فقالوا له » ، تحريف .

(٢) إشارة إلى ماجاء فى سفر العدد ١١ : ٢٧ — ٢٩ : « فركض غلام وأخبر موسى وقال : ألداد وميداد يتنبآن فى المحلة . فأجاب يشوع بن نون خادم موسى من حداثته وقال : ياسيدى موسى ، اردعهما . فقال له موسى : هل تغار أنت لى ، ياليت كل شعب الرب كانوا أنبياء إذا جعل الرب روحه عليهم » .

(٣) الآية ٥٢ من الشورى .

(٤) الآية ٤ من المعارج .

(٥) م : « وقومنا مسائلهم » .

(٦) فى النسختين : « أو يشير » ، وإنما هو عطف على : « لم ينتبه » .

ضُعفائِنا ومَن قَصُر نظره مِنَّا ، شيئاً إلَّا والجواب قد سَلَفَ فيه ، وَأَلْسنَتهُمُ قد مَذِلت به [(١)] .

وسنسألهم إن شاء الله ، ونجيب عنهم ، ونستقصى لهم فى جواباتهم ، كما سألنا لهم أنفُسَنا [(٢)] ، واستقصَيْنا لهم فى مسائلهم

فيقال لهم : هل يَخْلو المسيحُ أن يكون إنساناً بلا إلّه ، أو إلّهاً بلا إنسان ؟ أو أن يكون إلّهاً وإنساناً ؟

فإنْ زعموا أنّه كان إلّهاً بلا إنسان ، قلنا لهم : فهو الذى كان صغيراً فشَبَّ والتحَى [(٣)] ، والذى كان يأْكل ويشرب ، ويَنجُو ويبول ، وقُتِل بزَعمكم وصُلِب ، وولدَتْه مريمُ وأرضعته ، أَمْ غَيرُه هو الذى كان يأْكلُ ويشرب على ما وصفنا ؟ فأَىُّ شىءٍ معْنَى الإنسانِ إلّا ما وصَفْنا وعَدَّدنا ؟

وكيف يكون إلّهاً بلا إنسان ، وهو الموصوفُ بجميعِ صفات الإنسان . وليس القولُ فى غيره مِمّن صفتُه كصفته إلّا كالقول فيه كاشتمالها على غيره ؟

وإنْ زعَمُوا أنّه لم ينقلبْ عن الإنسانيّة ولم يتحوّل عن جوهر البَشَريّة ، ولكن لما كان اللّاهوت فيه ، صار خالقاً وسُمِّى إلّهاً . قلنا لهم : خبِّرونا عن اللّاهوت . أكان فيه وفى غيره [(٤)] ، أم كان فيه دونَ غيره ؟

(١) مذلت به : أذاعته وأفشته ، وأصل المذل إشاعة السر . قال قيس بن الخطيم :
فلا تمذل بسرك كل سر   إذا ما جاوز الاثنين فاشى
ب : « قد دلت به » م : « قد زلت به » ، والوجه ما أثبت .

(٢) ب : « كما سألنا هم أنفسنا » ، صوابه فى م .

(٣) التحى : ظهرت لحيته . ب : « والتجى » بالجيم ، تحريف .

(٤) ب : « أكان فيه وفى غيره » فقط ، وبقية العبارة من م مع سقوط كلمة « فيه » الثانية ، وقد أثبتها تكلة للقول .

فإنْ زعموا أنَّه كان فيه وفى غيره ، فليس هو أَولى بأَن يكون خالقاً ويتسمَّى إلَهاً من غيره . وإن كان فيه دون غيره ، فقد صار اللاهوتُ جسماً .

وسنقول فى الكسْر عليهم إذا صِرْنا إلى القَول فى التشبيه ، وهو قولُ مُعْظمهم[1] ، والذى كان عليه جماعتهم ، إلَّا من خالفهم من متكلِّميهم ومتفلسفيهم ، فإنَّهم يقولون بالتَّشبيه[2] والتجسيم ، فِراراً من كثرة الشَّناعة ، وعجزاً عن الجواب . وكفى بالتَّشبيه قُبحاً ، وهو قولٌ يعمُّ اليهودَ وإخوانَهم من الرَّافضة ، وشياطينَهم من المشبِّهة والحَشْويّة[3] والنَّابتة[4] ، وهو بعد متفرِّق فى الناس . والله تعالى المستعان .

---

(١) ب : « قول منع لهم » م : « منعلهم » ، وأثبت مارأيته الصواب .

(٢) فى النسختين : « فى التشبيه » .

(٣) انظر ما سبق من الكلام على الحشوية فى ص ٢٨٨

(٤) فى النسختين : « النابتة » ، وأثبت واواً قبلها لأن هؤلاء غير هؤلاء . وانظر النابتة رسائل الجاحظ ٢ : ٥ ، ١٢ ، ١٤ ، ١٨ ، ٢٠ ، ٢١ .

فهرس الكتب والرسائل

مكتبة الجاحظ

أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ
١٥٠ - ٢٥٥

بتحقيق وشرح
عبد السلام محمد هارون

رسائل الجاحظ

الجزء الرابع

القسم الثاني من

الفصول المختارة من كتب الجاحظ

اختيار الإمام عبيد الله بن حسان

[الطبعة الأولى]
١٣٩٩ هـ = ١٩٧٩ م

الناشر مكتبة الخانجي بالقاهرة

١١

من كتابه في

الرد على المشبهة

١ – فصـــل

من صدر كتابه فى الرد على المشبهة[1]

أمَّا بعد ، فقد اختلف أهلُ الصَّلاة فى معنى التوحيد . وإنْ كانوا قد أجمعوا على انتحالِ اسمِه . فليس يكون كلُّ مَن انتحلَ اسمَ التَّوحيد موحِّداً إذا جعل الواحدَ ذا أجزاءٍ ، وشبَّهه بشىءٍ[2] ذى أجزاءٍ .

ولو أنَّ زاعماً زعم أنَّ أحداً لا يكون مشبِّهاً وإن زعم أنَّ الله يُرَى بالعيونِ ، ويُوجَد ببعض الحواسِّ ، حتَّى يزعُمَ أنه يُرَى كما يرى الإنسان ، ويُدرَك كما تُدرك الألوان[3] كان كمن قال : لا يكون العبدُ لله مكذِّباً ، وإن زعم أنَّه يقول مالا يفعل ، حتَّى يزعُمَ أنه يَكذِب . ولا يكون العبدُ لله مُجَوِّراً[4] ، وإنْ زعم أنَّه يعذِّب مَن لم يعطِهِ[5] السَّببَ الذى به يَنال طاعته ، حتَّى يزعمَ أنَّه يَجُور[6] .

ولو أنَّ رجلاً قال لفلان : عندى جذر مائة[7] ، كان عندنا كقوله :

---

(١) ب : « المشبه به » ، صوابه فى م . وهذا الكتاب مما سقط من نسخة ط المطبوعة على هامش الكامل . وقد سبق للجاحظ رسالة فى هذا المعنى ، هى « نفى التشبيه » ولكنها غير هذا الكتاب ، انظر رسائل الجاحظ ١ : ٢٧٩ – ٢٨٠ . والمقابلة هنا على نسخة التيمورية فقط المرموز لها بالرمز (م) .

(٢) فى النسختين : « لشىء » والوجه ما أثبت .

(٣) ب : « كما يدرك الألوان » .

(٤) المجور : الذى ينسب إلى الله الجور ، أى الظلم . وفى النسختين : « محرراً » بر اءين ، صوابه ما أثبت .

(٥) فى النسختين : « لم يعطيه » ، تحريف .

(٦) فى النسختين : « يجوز » . وانظر ما سبق .

(٧) الجذر ، بفتح الجيم وكسرها ، أو بكسرها فقط : أصل الحساب ، كما فى القاموس . وفى مفاتيح العلوم ١١٥ عند كلامه على الأرثماطيقى : « الجذر كل ما تضرب فى نفسه . . . وهو مثل جذر المائة وهو عشرة ، وجذر تسعة وهو ثلاثة ، وجذر أربعة وهو اثنان » . وهذا ما يسمى بالجذر المطلق . أما الجذر الأصم فهو ما لاسبيل إلى علم حقيقته بالعدد . وقد مثل له الخوارزمى بجذر الاثنين ، وجذر الثلاثة ، وجذر العشرة . وفى ب : « جزر » ، صوابه فى م .

لفلان عشرة . وكذلك إذا قال : فلانٌ قد ناقَضَ فى كلامه ، فهو عندنا كقوله : فلانٌ[1] قد أحالَ فى كلامه .

ولو قال : ناقَضَ ولم يُحِل[2] ، له عندى جذر مائةٍ[3] وليس له عندى عشرة ، كان كالذى يقول : ركبت عَيْرًا ولم أركب حماراً ، وشربت المُدامةَ ولم أشْرَبْ خمراً .

وللمعانى دَلالاتٌ وأسماء ، فمن دلَّ على المعنى بواحدةٍ منها ، وباسمٍ من أسمائها ، لم نسألْه أن يوفِّينا الجميعَ ، وأنْ يأتىَ على الكُلّ ، ولم يُلتَفتْ إلى مَنْع مامَنَع ، إذا كان الذى مَنَع مثلَ الذى أعطَى .

وقد أنبأَ اللهُ عن نَفْسه ، على لسان نبيِّه صلى الله عليه وسلم ، فقال ﴿ لَيْسَ كمِثْلِهِ شَىْءٌ[4] ﴾ فأَقَرَّ القومُ بظاهر هذا الكلامِ ، ثم جَعَلوه فى المعنى يشبه كلَّ شَىْء[5] ، إذْ جعلوه جسماً ، فقد جعلوه مُحْدَثاً ومخلوقاً ؛ لأَنَّ دلالة الحدوث[6] ، والشَّهادةَ على التدبير ، ثابتتان فى الأَجسام ، وإنَّما لزمَها ذلك لأَنَّهمَا أجسامٌ[7] لا لغير ذلك ؛ لأَنَّ الجسم إذا تحرَّك وسكن ، وعَجَزَ وقَوِىَ ، وبقِىَ وفَنِىَ ، وزاد ونَقَص ، ومازجَ الأَجسامَ وتخلَّص لأَنَّه جسم ؛ ولولا أنَّه جسمٌ لاستحالَ ذلك منه ، ولَمَّا جاز عليه

---

(١) ب : « لفلان » ، صوابه فى م .

(٢) لم يحل ، من الإحالة ، وهو الإتيان بالمحال من الكلام ، أى المستحيل . وفى النسختين : « لم يخل » بالخاء المعجمة ، صوابها ما أثبت .

(٣) ب : « جزر مائة » بالزاى ، صوابه فى م . وانظر ما مضى فى الصفحة السابقة .

(٤) الآية ١١ من سورة الشورى .

(٥) م : « لشبه كل شئ » .

(٦) فى النسختين : « الحدث » .

(٧) ب : « لزمهما ذلك لأنهما أجسام » م : « لزمهما ذلك لأنها أجسام » والوجه ما أثبت .

هذه الأمور التى أوجَبَتْها الجسميَّة[١] ، [و[٢]] هى الدَّالَّة على حدوث الأَجسام . فواجبٌ أن يكون كلُّ جسم كذلك . إذا كانت الأَجسام مستوية فى الجسميَّة[١] ، وإذا كان كلُّ جسمٍ منها أَيضاً لزمه ذلك[٣] .

وقد اختلف أَصحابُ التَّشبيه فى مذاهب التشبيه .

فقال بعضهم : نقول[٤] : إنه جسمٌ ، وكلُّ جسمٍ طويلٌ .

وقال آخرون : نَقول[٤] : إنَّه جسم . ولا نقول[٤] إنَّه طويل ، لأَنَّا إنَّما جعلناه جِسماً لنُخرجه من باب العَدَم ؛ إذْ كنَّا متى أَخبَرْنا عن شيءٍ ، فقد جعلناه معقولا متوهَّماً . ولا مَعقولَ ولا متوهَّمَ إلَّا الجسم . وليست بنا حاجةٌ إلى أن نجعلَه طويلاً . وليس فى كونه جسماً إيجابٌ لأَن يكون طويلًا . لأَنَّ الجِسم يكون طويلًا وغير طويل . كالمدوَّر ، والمثلَّث ، والمربَّع ، وغيرِ ذلك ؛ ولا يكون الشيء إلَّا معقولا ، ولا المعقولُ إلَّا جِسْماً . فلذلك جعلناه جِسماً ، ولم نجعلْه طويلا .

فينبغى ــ يرحمُك الله ــ لصاحِب هذه المقالة . إن لم يجعلْه طويلًا أَن يجعله عريضاً ، وإن لم يجعلْه عريضاً أن يجعله مدوَّراً ، وإنْ لم يجعلْه مدوَّراً أَنْ يجعلَه مثلَّثاً ، وإن لم يجعلْه مثلَّثاً أن يجعلَه مربَّعاً . وإنْ أَقرَّ بهيئةٍ من الهيئات فقد دخل فيما كَره .

ولا أَعلمُ المدوَّرَ ، والمثلَّثَ ، والمربَّع ، والمخمَّس ، والمصلَّب ، والمزَوَّى[٥] ، وغير ذلك من الهيئات ، إلَّا أَشنعَ فى اللَّفظ ، وأَحْقَرَ فى الوهم .

(١) ب : « الجسمة » .
(٢) ليست فى النسختين .
(٣) فى النسختين : « لزمه ذلك لأنه فقط » ، تحريف .
(٤) فى النسختين : « يقول » ، والوجه ما أثبت .
(٥) المزوى : ذو الزوايا والأركان . م : « المروى » بالراء المهملة ، تحريف .

٢ – فصل منه

وقال أصحاب الرُّؤية : اعتللتم علينا بقول الله تعالى : ﴿ لاتُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ[١] ﴾ ، وقلتمْ : هذه الآيةُ مبهَمة ، وخرجَتْ مَخرجَ العموم ، والعامُّ غير الخاصّ .

وقد صدقتم ، كذلك العامُّ إلى أن يخصَّه الله بآية أُخرى ؛ وذلك أنَّ الله تعالى لو كان قال : ﴿ لا تُدرِكُه الأَبصارُ وهو يُدْرِكُ الأَبصارَ ﴾ ثم لم يَقُلْ : ﴿ وُجوهٌ يومئذٍ نَاضرةٌ . إلى ربِّها ناظرة[٢] ﴾ لعلِمنا أنَّه قد استثنى أَخَرةً من جميع الأَبصار[٣] .

قالوا : وإنَّما ذلك مثل قوله : ﴿ قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فى السَّمٰواتِ والأَرْضِ الغَيْبَ إِلَّا اللهُ[٤] ﴾ ومثل قوله : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الغَيْبِ[٥] ﴾ وهذه الأَخبار مُبهَمة عامَّة ، فلمَّا قال : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَاكُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا[٦] ﴾ ولمّا قال[٧] ، أيضاً : ﴿ وَلَا يُحِيطُون بِشَىْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ[٨] ﴾ علمنا أنَّ القولَ الثَّانىَ قد خَصَّ القول الأَوَّل . وكذلك أيضاً قوله : ﴿ لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ ﴾ .

---

(١) الآية ١٠٣ من سورة الأنعام .
(٢) الآية ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة .
(٣) يقال لقيته أخرة وبأخرة ، بالتحريك فيهما ، أى أخيراً . ب : « آخر » ، صوابه فى م .
(٤) الآية ٦٥ من سورة النمل .
(٥) الآية ١٧٩ من آل عمران .
(٦) الآية ٤٩ من سورة هود .
(٧) فى النسختين : « ولو قال » ، والوجه ما أثبت .
(٨) الآية ٢٥٥ من سورة البقرة .

قلنا للقوم : إنَّ الله تعالى لمَّا قال : ﴿ تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ(١) ﴾ . بعد أنْ قال : ﴿ وَمَا كَانَ اللهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ(٢) ﴾ . علمنا أنَّ ذلك استثناءٌ لبعضِ ما قال إنِّي لا أُطْلعكم على الغيب . وهذا الاستثناءِ لا اختلافَ في لفظه ولا في معناه ، ولا يحتمل ظاهرُ لفظهِ غير معناه عندنا .

وعندَ خصومِنا فيه أَشدُّ الاختلاف . وظاهر لفظه(٣) يحتمل وجهاً آخَر غير ماذهبوا إليه . والفقهاءُ وأَصحاب التفسير يختلفون فى تـأْويله وهم لا يختلفون فى تـأْويل قوله :﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ(٤) ﴾

قال : ذكر ابن مَهدىٍّ عن سُفيانَ، عن منصورٍ، عن مجاهد، فى قوله : ﴿ وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ(٥) ﴾ أَنَّه قال : تنتظر ثَوابَ ربِّها .

وذكر أَبو معاوية(٦) عن إسماعيل ابن أَبى خالد(٧) عن أَبى صالح(٨)

---

(١) الآية ٤٩ من سورة هود . وفى النسختين : « ذلك من أنباء الغيب » ، تحريف ، فإن تمام هذه : « نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم » . وليست مرادة هنا . وهى الآية ٤٤ من آل عمران .

(٢) الآية ١٧٩ من آل عمران . ولاريب أنها سابقة للآية ٤٩ من هود .

(٣) ب : « وظ لفظه » وهو اختصار كتابى لكلمة « ظاهر » . وفى م : « وظاهر لفظه » كما أثبت .

(٤) الآية ٤٩ من سورة هود .

(٥) الآية ٢٢ ، ٢٣ من سورة القيامة .

(٦) هو محمد بن خازم التيمى السعدى مولاهم ، أبو معاوية الضرير الكوفى . روى عن عاصم الأحول ، والأعمش، وداود بن أبى هند ، وإسماعيل بن أبى خالد وغيرهم . وروى عنه ابن جريج ، ويحيى القطان ، وأحمد بن حنبل ، وغيرهم . توفى سنة ١٩٥ . تهذيب التهذيب .

(٧) إسماعيل بن أبى خالد الأحمسى ، مولاهم . روى عن أبيه وجمع من الصحابة وكبار التابعين . وعنه شعبة ، والسفيانان ، وابن المبارك وغيرهم . توفى سنة ١٤٦ . تهذيب التهذيب .

(٨) هو باذام ، أو باذان ، أبو صالح ، مولى أم هانئ بنت أبى طالب . روى عن على وابن عباس وأبى هريرة . وعنه الأعمش ، وسماك بن حرب ، وسفيان الثورى وغيرهم . تهذيب التهذيب .

مثلَ ذلك . وأبو صالح ومجاهدٌ من كبار أصحاب ابنِ عبَّاس ، ومن العاملية[١] ، ومن المتقدِّمين فى التفسير .

فهذا فرقٌ بيِّن .

وبعد ، ففى حُجج العقول أنَّ الله لا يُشبِه الخلق بوجْهٍ من الوجوه ؛ فإذا كان مرئيًّا فقد أشبهه فى أكثر الوجوه .

وإذا كان قولهم فى النَّظر يحتمل ما قلتم ، وما قال خَصمُكم . مع موافقة أبى صالح ومجاهد فى التأْويل . وكان ذلك أولى بنَفْى التشبيه الذى قد دلَّ عليه العقلُ، ثم القرآنُ : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ[٢] ﴾ — كان التأْويل ما قال خَصْمُكم دونَ ماقلتم .

٣ — فصـــل منـه

ثمَّ رجَعَ الكلامُ إلى أوَّل المسأَلة . حيث جَعلْنا القرآن بيننا قاضياً ، واتَّخذناه حاكما ، فقلنا :

قد رأينا الله استعظَمَ الرُّؤية استعظاماً شديداً ، وغَضِب على مَنْ طلبَ ذلك وأرادَه ، ثُمَّ عذَّب عليه . وعجَّب عبادَه ممَّن سأله ذلك ، وحذَّرهم أن يَسلكوا سبيلَ الماضين ، فقال فى كتابه لنبيِّه صلى الله عليه وسلم : ﴿ يَسْأَلُكَ أَهْلُ الكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَاباً مِنَ السَّمَاءِ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَرَ مِنْ ذَلِكَ فَقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ[٣] ﴾ .

فإن كان الله تعالى — فى الحقيقة — يجوزُ أن يكون مرئيًّا ، وببعضِ الحواسِّ مُدرَكاً ، وكان ذلك عليه جائزاً ، فالقومُ إنَّما سأَلوا أمراً

(١) كذا وردت هذه الكلمة فى النسختين .
(٢) الآية ١١ من سورة الشورى .
(٣) ١٥٣ من النساء .

ممكناً ، وقد طَمِعُوا فى مَطمع ، فلمَ غَضِبَ هذا الغضبَ ، واستعظَمَ سؤالهم هذا الاستعظام ، وضرب به هذا المَثَلَ ، وجعله غايةً فى الجُرأة[١] وفى الاستِخفاف بالرُّبوبية .

فإن قالوا : لأَنَّ ذلك[٢] كان لايجوز فى الدنيا ؛ فقدرة[٣] الله تعالى على ذلك فى الدنيا كقدرته عليه فى الآخرة .

فإن قالوا : ليس لذلك استعظَمَ سُؤالَهم ، ولكن لأَنَّهم تقدَّموا بين يديه .

قلنا : لِمَ صار هذا السؤالُ تقدُّماً عليه واستخفافاً به ، والشيء الذى طلبوه[٤] هو مجوَّزٌ فى عقولهم ، وقد أطمعهم فيه أنْ جوَّزوه عندهم[٥] ، والقومُ لم يَسأَلوا ظُلماً ولا عَبَثاً ولا مُحالا . ومن عادة المسئول[٦] التفضُّلُ ، وأَنَّه فاعلٌ ذلك بهم يوماً .

فإن قالوا : إنَّما صار ذلك الطَّلبُ كُفراً وَذنباً عظيماً[٧] لأَنَّه قد كان قال لهم[٨] : إنِّى لا أَتجلَّى لأَحَدٍ فى الدُّنيا .

قلنا: فإن كان[٩] الأَمرُ على ماقلتم لكان فى تفسيرِ إنكارِه لطلبهم[١٠] دليلٌ على ما يقولون، ولذِكْرِ تقدُّمهم بعد البَيَان ، بل قال: ﴿ فَقَدْ سَأَلُوا

(١) ب : « وجهله غاية فى الجراءة » ، صوابه فى م .
(٢) فى النسختين : « كأن قالوا فإن لأن ذلك » ، صوابه ما أثبت .
(٣) فى النسختين : « وقدرة » ، ووجهه ما أثبت .
(٤) ب : « الذى هو طلبوه » ، و « هو » مقتحمة .
(٥) م : « إذ جوزوه عندهم » .
(٦) فى النسختين : « ومن اداة المسئول » ، تحريف .
(٧) ب : « أو ذنباً عظيماً » .
(٨) فى النسختين : « فقال لهم » .
(٩) ب : « فلو كان » .
(١٠) فى النسختين : « فى تفسيره إنكارهم لطلبهم » .

مُوسَى أَكْبَرَ مِنَ ذلِكَ فقَالُوا أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً[١] ﴾ لا غير ذلك .

فإن قالوا : إنّما غَضِب الله عليهم لأنّه ليس لأحدٍ أنْ يظنَّ أنَّ الله تعالى يُرَى جهرة .

قلنا : وأىُّ شىء تأويلُ قولِ القائِل : رأيتُ الله جَهْرةً إلاّ المعايَنَة ، أو إعلانَ المعاينة[٢] ؛ قال الله عزَّ ذكره : ﴿ لَا يُحِبُّ اللهُ الجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ القَوْلِ[٣] ﴾ . والجهر هو الإعلان والرَّفع والإشاعة ؛ فهل يراه أهلُ الجنة ــ إذا رَفع عنهم الْحُجُبَ ، ودَخَلُوا عليه وجَلَسوا على الكرسىِّ عنده ــ إلّا جهرةً ؟ كما تأوَّلتم الحديث الذى رويتموه[٤] عن النبى صلى الله عليه وسلم : « لا تُضَامون فى رؤيته كما لاتضامون فى القَمر ليلةَ البدر[٥] » ، إلّا أن يزعموا أنّهم يَرَوْنَ ربَّهم سِراً ، لأنّه ليس إلّا السرَّ والجهر ، وليس إلا الإعلان والإخفاء ، وليس إلّا المعاينة .

فإن قالوا : نحن لا نقول بالمعاينة ، ونقول : نراه ، ولا نقول نعاينه .

قلنا : ولِمَ ، وأنتم تَروْنَه بأعينكم ؟ فمن جَعلَ لكم أن تقولوا نَرَاه بالعين ، ومَنَعكم أن تقولوا نُعاينهُ بالعين ؟ وهل اشتُقَّت المعاينةُ إلّا من العين ؟ .

---

(١) الآية ١٥٣ من النساء .
(٢) فى النسختين : « أو بإعلان المعاينة » .
(٣) الآية ١٤٨ من النساء .
(٤) ب : « رأيتموه » ، صوابه فى م .
(٥) أخرجه البخارى فى كتاب مواقيت الصلاة وفى التفسير والتوحيد ، ومسلم فى الصلاة ، وأبو داود وابن ماجه فى السنة ، والترمذى فى صفة الجنة ، من حديث جرير بن عبد الله . وانظر الحديث ٥٨ من الألف المختارة والسان (ضيم) .

فإن قالوا : لا يجوز أن يُلفَظَ بالمعاينة إلَّا فى الشىء الذى تقع[(١)] عينُه علىَّ، وتقع عينى عليه . فأمَّا إذا كان أحدُنا ذا عينٍ، والآخر [ليس[(٢)]] ذا عين، فغير جائزٍ أنْ تُسمَّى[(٣)] الرؤيَة معاينة ، وإنَّما المعاينة مثل المخاصمة ؛ ولا يجوز أن أقول : خاصمت إلَّا وهناك مَنْ يخاصمنى .

قلنا : قد يقول النَّاسُ أسلم فلانٌ حين عايَنَ السَّيف ، وليس للسَّيف عين، وليس هُناك من يقاتله . على أنَّكم قد تزعمون أنَّ لله عيناً لا كالعيون ويداً لا كالأَيدى ، وله عينٌ بلا كَيْفٍ ، وسمعٌ بلا كيف .

٤ - فصــل منه

وقالت - أيضاً - المشبِّهة :

الدَّليل على أنَّه جسمٌ قولُه عزَّ ذكره : ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ والْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا[(٤)]﴾. قالوا: فلا يجىء إلَّا إلى مكانٍ هو فيه[(٥)] ؛ ولو جاز أن يجىء إلى مكانٍ هو فيه جاز أن يخرج منه[(٦)] وهو فيه . فإذا أخبر الله أنَّه فى السموات والأَرض ، وقلتم إنَّ الدُّنيا كلَّها لا تخلو منه، وإنَّه فيها ، فإذا كان الأَمر كذلك ، وكانت الدنيا محدودةً ، كان[(٧)] الذى يكون فى بعضها أو فى كلِّها محدوداً ، إذا كان لم يجاوِزْها . ولو جاوزها لخرج إلى مكانٍ ، ولا يجوز أن يخرج منها إلَّا إلى مكان .

---

(١) م : « يقع » .
(٢) تكلة يفتقر إليها الكلام .
(٣) فى النسختين : « يسمى » .
(٤) الآية ٢٢ من سورة الفجر .
(٥) فى النسختين : «قالوا فلا يجوز إلى مكان هو فيه »،والوجه ما أثبت . وانظر ما سيأتى .
(٦) ب : « جار يخرج منه » م : « جاز يخرج منه » ، صوابه ما أثبت .
(٧) فى النسختين : « وكان » ، والواو مقحمة .

وقالوا : قد أخبر الله أنَّه فى السموات والأَرض ، والله لا يخاطب عبادَه إلاَّ بما يعقلون ، ولو خاطبهم بما لا يعقلون لكان قد كلَّفهم ما لا يطيقون ، ومَنْ خاطب مَن لا يَفِي بالفَهْم عنه فقد وضَع المخاطبةَ فى غير موضعها . فهذا ماقالَ القوم .

ونحن نقول : إنَّ الشيءَ قد يكون فى الشيء على وجوه ، وسنذكر تلك الوجوهَ ، ونُلحق كلَّ واحدٍ منها بشكله[١] وبما يجوز فيه ، إن شاءَ الله تعالى .

قلنا للقوم : أليس قد خاطب اللهُ الصُّمَّ البُكْمَ الذين لا يعقلون ، والذين خبَّر أنَّهم لا يستطيعون سمعاً ؟

فإن قالوا : إنَّ العرب قد تسمِّى المتعامىَ أعمَى ، والمتصامِمَ أصمَّ ، ويقولون لمن عمِلَ عمَلَ من لا يعقل: لا يعقل[٢] ؛ وإنَّما الكلام محمولٌ على كلام . وذلك أنَّ المتعامىَ إذا تعامىَ ، صار فى الجهل كالأَعمى ، فلمَّا أشبَهَهُ من وجهٍ سُمِّى باسمه .

قلنا : قد صدقْتُم؛ ولكن ليس الأَصلَ . والمستعملُ فى تسميتهم بالعمى إنَّما هو الذى لا ناظرَ له . فإذا قالوا ذلك، قلنا : فلم زعَمتم أنَّ له ناظرًا، وأخذتم بالمجاز والتشبيه[٣] ، وتركتم الأَصل الذى هذا الاسمُ محمولٌ عليه ؟

فإن قالوا : إنَّما قلنا من أجل أنَّ الأَول لايجوز على الله تعالى، والثانى جائزٌ عليه ، والله لا يتكلم بكلامٍ إلَّا ولذلك الكلامِ وجهٌ إمَّا[٤]

---

(١) ب : « بكل واحد منها شكله » م : « بكل واحد منها بشكله » ، والوجه ما أثبت .
(٢) ب : « ويقولون لمن عمل عمل من لا يعقل . » ، وتكملته من م .
(٣) ب : « والتشبه » ، صوابه فى م .
(٤) ب : « إلا » ، والوجه فى م .

أن يكون هو الأَصلَ والمحمولَ عليه ؛ وإمَّا أن يكون هو الْفَرْعَ والاشتقاقُ الذى تسمِّيه العربُ مجازاً .

فإذا نَظَرْنا فى كلام الله ــ وهو عندنا عادلٌ غير جائر[(١)] ، وهو جَلَّ جلالُه يقول : ﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ[(٢)] ﴾ علمنا أنَّهم لو كانوا منقوصين غير وافرين ، كانوا قد كُلِّفُوا ما لايُطيقون ، والمكلِّفُ لعبادِه ما لا يُطيقون جائرٌ ظالم . فإذا كان لا يليق ذلك به علمْنا أنَّهم قد كانوا وافرين غَيْرَ عاجزين ولا منقوصين . وإذا كانوا كذلك ، صار الواجبُ أن نَحكم[(٣)] بالفَرْع والمجاز ؛ ونَدَع الأَصل والمحمول عليه[(٤)] وقلنا : هم عُمْىٌ وصُمٌّ ولا يعقلون[(٥)] على أنَّهم تَعامَوْا وتصامُّوا وعملوا عمل من لا يعقل[(٦)] .

فإذا قالوا ذلك قلنا لهم : فإنَّا لم نَعْدُ هذا المذهبَ فى قوله : ﴿ نَاضِرَةٌ ﴾ ، ﴿ وَجَاءَ ربُّكَ والْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا[(٧)] ﴾ وفى قوله : ﴿ وَهُوَ اللهُ فِى السَّمٰوَاتِ وفِى الأَرْضِ[(٨)] ﴾ .

وقد يقولون : جاءنا فلانٌ بنفسه ؛ ويقولون : جاءنا بولده ، وجاءنا بخير كثير . وذلك على مَعانٍ مختلفة .

---

(١) م : « غير جائز » بالزاى ، تحريف .
(٢) الآية ١٧١ من البقرة .
(٣) فى النسختين : « يحكم بالفرع والمجاز ويدع الأصل » .
(٤) ب : « والمحمول على المجاز » ، صوابه فى م .
(٥) فى النسختين : « قلنا هو أعمى وأصم ولا يعقل » مع سقوط كلمة « يعقل » من ب . وأرى الوجه فيما أثبت .
(٦) وعملوا ، ساقطة من ب . (٧) الآية ٢٢ من سورة الفجر .
(٨) الآية ٣ من سورة الأنعام .

ويقولون : جاءتنا السَّماءُ بأَمرعظيم ، والسَّماءُ فى مكانها .

وقد يقولون ــ أيضاً ــ : جاءتنا السَّماءُ ، وهم إنَّما يريدون الغَيْمَ الذى يكون به المطرُ[١] من شِقٍّ السماء وناحيتِها ووَجْهها .

---

(١) به ، ساقطة من ب .

١٢

من كتابه فى

مقالة العثمانية

١ ـ فصل

من صدر كتابه فى مقالة العثمانية(١)

زَعمت العثمانيَّةُ أنَّ أفضلَ هذه الأُمّةِ وأولاها بالإمامة أبو بكر بنُ أبى قُحافة . وكان أوّلَ مادلَّهم عند أنفسهم على فضيلته ، وخاصَّةِ منزلته ، وشدَّةِ استحقاقه ـ إسلامُه على الوجه الذى لم يُسلِمْ عليه أحدٌ من عالَمِهِ وفى عَصرِه . وذلك أنَّ الناس اختلفوا فى أوَّل الناس إسلاماً : فقال قوم : أبو بكر بن أبى قُحافة . وقال آخرون : زيد بن حارثة . وقال نَفرٌ : خَبَّاب بن الأَرَتّ .

على أنَّا إذا تفقَّدنا أخبارَهم ، وأحصينا أحاديثَهم ، وعَدَدنا رجالَهم ، وصحَّةَ أسانيدِهم ، كان الخبر فى تقديم أبى بكرٍ أعمَّ ، ورجالُه أكثر ، وإسنادُه أصحَّ ؛ وهو بذلك أشهَرُ ، واللَّفظُ به أظهر . مع الأشعارِ الصَّحيحة ، والأمثالِ المستفيضة ، فى حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم وبعدَ وفَاتِه . وليس بين الأشعار وبين الأخبار فرقٌ إذَا امتنَعَ فى مجيئها وأصلِ مخرَجِها التَّشاعُر ، والاتِّفاق والتواطؤ(٢) .

ولكنَّا ندَعُ هذا المذهبَ جانباً ، ونَضرِب عنه صَفْحاً ، اقتداراً على الحجَّة ، وثقةً بالفَلْج والقُوَّة(٣) ، ونقتصرُ على أدنَى منازل أبى بكرٍ ،

---

(١) نشر الكتاب كاملا بتحقيقى فى دار الكتاب العربى سنة ١٣٧٤ . ونشر الأستاذ حسن السندوبى فصولا منه مقتبسة من شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ، وهى فصول يشيع فيها الاختصار والاختزال ، بلغ أن أوجزت صفحتان منها فى نحو ثلاثة أسطر . انظر مقدمتى لكتاب العثمانية ولا سيما ص ١٤ .

وقد سقطت هذه الفصول من مطبوعة هامش الكامل ، فاقتصرت المقابلة هنا على نسختى ب ، م ونسختى من العثمانية التى رمزت لها هنا بالرمز (ع) .

(٢) انظر للتشاعر ما مضى فى الرسائل ٣ : ٢٤٨ ، ٢٥١

(٣) الفلج ، بالفتح : الظفر والفوز .

ونَنْزِلُ على حَكم الخَصْم ، مع سَرَفه ومَيْطه ، فنقول[١] :

لَمَّا وجدنا مَن يزعم أنَّ خبَّاباً وزيد أسلما قبلَه ، فأوسطُ الأُمور[٢] وأعدلُها وأقربها من محبَّة الجميع ورضى المخالِف، أن نَجْعَل[٣] إسلامَهم كان معاً، إذ ادَّعَوْا[٤] أنَّ الأخبارَ فى ذلك متكافئة ، والآثار متدافعة ؛ وليس فى الأشعار دَلالةٌ ، ولا فى الأمثال حُجَّة . ولم يجلوا إحدى القضيَّتين أولى فى حُجَّة العَقْل من الأُخرى .

وقالوا : فإن قال لنا قائِلٌ : فما بالُكم لم تذكروا عليًّا فى هذهِ الطَّبقة ، وقد تعلمون كثرةَ مقدِّميه والرِّوايةِ فيه ؟

قلنا : لأنَّا قد علْمنا بالوجه الصحيح ، والشهادة القائِمة أنَّه أسلم وهو حَدَثٌ غرير ، ولم نكذِّبَ النَّاقلين[٥] . ولم نَستطِع أَن نَزْعُم أنَّ إسلامه كان لاحِقاً[٦] بإسلام البالغين؛ لأنَّ المقلِّل زعم أنَّه أسلم وهو ابن خمس سنين ، والمكثِّر زعم أنه أسلم وهو ابنُ تسعِ سنين[٧] ، والقياس يوجب أن يؤخذ بأوسط الرِّوايتين ، وبالأَمْر بينَ الأمرين[٨] . وإنَّما يُعرف حقُّ ذلك مِن باطله بأن تحصىَ سنِيهِ[٩] التى وَلِىَ فيها ، وسِنِى عثمان ، وسِنِى أَبى بكر ، وسِنِى الهجرةِ ومُقامِ النبى صلى الله عليه وسلم بمكَّة ، بعد أن دعا إلى الله وإلى رسالته ، وإلى أن هاجر إلى المدينة ، ثم

---

(١) الميط : الكذب . وفى النسختين : « فيقول » ، صوابه فى ع .
(٢) فى النسختين : « وأوسط الأمور » ، والوجه من ع .
(٣) فى النسختين : « أن تجعل » ، تحريف .
(٤) كلمة « إذ » ساقطة ، وإثباتها من ع .
(٥) فى النسختين : « ولم يكذب الناقلين » صوابه فى ع .
(٦) فى النسختين : « ولم يستطع أن يزعم إن إسلامه كان لاحق » ، تحريف ما أثبت من ع .
(٧) ب : « لأن المقلل زعم أنه أسلم وهو ابن تسع سنين » فقط . وإكماله من م و ع .
(٨) فى النسختين : « من الأمرين » ، صوابه فى ع .
(٩) ب فقط : « سنته » تحريف .

تنظر فى أقاويل النّاس فى عمره ، وفى قول المقلِّل والمكثِّر ، فتأخذ بأوسطها[(١)] ، وهو أعدلُها ، وتطرح قول[(٢)] المقصِّر والغالى ، ثم تطرح ما حصل فى يديك من أوسط[(٣)] مارُوى من عُمره وسِنِيه ، وسِنِى عثمان ، وسِنِى عمر ، وسِنِى أبى بكر ، والهجرةِ ، ومُقامِ النبى صلى الله عليه وسلمَ بمكَّة ، إلى وقت إسلامه . فإذا فعلْتَ وجدتَ الأمرَ على ماقُلْنا ، وكما فسرّنا .

وهذه التأريخات والأعمار معروفةٌ ، لا يستطيع أحدٌ جهلَها ، والخلافَ عليها ؛ لأنَّ الذين نقلوا التاريخَ لم يعتمدوا[(٤)] تفضيل بعضٍ على بعض ، وليس يمكن ذلك ، مع عللهم وأسبابهم[(٥)] . فإذا ثبتَ عندك بالذى أوضحنا وشَرَحْنا ، أنَّه كان ابنَ سبْع سنين ، أقلَّ بسنة وأكثر بسنة[(٦)] علمتَ بذلك أنَّه لو كان ابنَ أكثر من ذلك بسنتين وثلاث وأربع ، لا يكون إسلامه إسلامَ المكلَّف[(٧)] العارف بفضيلة مادَخَل فيه ، ونقصان ماخرج منه .

والتأويلُ المجمَعُ عليه أنَّ عليّا قُتِلَ سنةَ أربعين فى رمضان .

وقالوا : وإن قالوا : فلعلَّه وهو ابنُ سبع سنينَ وثمانٍ ، فقد بلغَ من فِطنته وذكائه ، وصِحَّةِ لُبِّه ، وصِدق حسِّه[(٨)] ، وانكشاف العواقب

(١) ع : « أوسطها » .
(٢) قول ، ساقطة من ب .
(٣) فى النسختين : « ما أوسطها » ، صوابه فى ع .
(٤) م ، ع : « لم يتعمدوا » .
(٥) ب : « وأسنانهم » م: « وأسنانهم » ، صوابه فى ع . وجعلها تيمور فى نسخته : « وأسنادهم » .
(٦) فى النسختين : « وأقل سنيه وأكثر سنيه » ، والوجه ما أثبت من ع .
(٧) م : « ولا يكون » والواو مقحمة ، وكلمة « إسلام » ساقطة من النسختين ، وأثبتها تيمور فى نسخته كما فى ع .
(٨) فى النسختين : « حسنه » ، صوابه فى ع .

له ، وإن لم يكن جرَّب الأُمورَ ، ولا فاتَحَ الرجال ، ولا نازَعَ الخُصومَ ، [أنْ(١)] يعرف جميع(٢) مايُجب على البالغ معرفته والإقرارُ به .

قلنا : إنَّما نتكلَّمُ(٣) على ظاهر الأَحكام ، وما شاهدنا عليه طِباعَ الأَطفال ، فوجدنَا حكم ابنِ سبع سنين وثمانِ سنين ، وتسعِ سنين ، حيث رأيناه وبلغَنا خَبرُه ــ ما لم نعلم مُغيَّبَ أَمْرِه(٤) ، وخاصَّة طباعه ــ حكمَ الأَطفال . وليس لنا أن نزيل ظاهر حكمه ، والذى نعرف من شكله بلعلَّ وعسى ، لأَنَّا كنا لاندرى(٥) ، لعلَّه قد كان ذا فضيلةٍ فى الفطنة ، فلعلَّه قد كان ذا نقصٍ فيها . أجاب منهم بهذا الجواب من يجوِّز أن يكون علىٌّ فى المغيَّب(٦) قد أَسلم إسلام البالغ المختار . غير أنَّ الحكم فيه عنده على مجرى أَمثالِه وأَشكاله ، الذين إذا اسلموا وهم فى مثل سنِّه ، كان إسلامُهم عن تربيةِ الحاضِن ، وتلقين القيِّم ، ورياضة السَّائس .

فأَمَّا علماءُ العثمانيَّة ومتكلِّموهم ، وأَهل القَدَم والرِّياسة فيهم ، فإِنَّهم قالوا : إنَّ علياً لو كان ، وهو ابنُ ستٍّ سنين ، وثمانِ سنين ، وتسعِ سنين ، يعرف فصْل(٧) ما بين الأَنبياءِ والكهنة ، وفَرْقَ مابين الرُّسل والسَّحرَة . وفَرْقَ ما بين المنجِّم والنبىِّ ، وحتَّى يعرف الحُجَّة من الحيلة ، وقَهْرَ الغلبة من قهر المعرفة ، ويعرف كَيْدَ الأَريبِ ، وبُعْدَ غَور المتنبِّى ،

---

(١) تكلة يفتقر إليها الكلام . وبدلها فى ع : « ما يعرف » .

(٢) كلمة « جميع » ساقطة من ب . وفى م بعدها : « ما وجب »

(٣) ب : « إنما يتكلم به » م : « إنما يتكلم » ، وأثبت مافى ع .

(٤) فى النسختين : « ما نعلم مغيب أمره » ، والوجه ما أثبت من ع .

(٥) م فقط : « كنا لا ندرى » .

(٦) ب : « على فعل المغيب » صوابه فى م ، ع .

(٧) فى النسختين : « فضل » بالضاد المعجمة ، والأوفق أن تكون بالمهملة ، كما فى ع .

وكيف يَلْبِسُ على العقلاء[١] ويَستميل عُقول الدَّهماء ، ويعرف الممكن[٢] فى الطباع من الممتنع فيها ، وما قد يحدث[٣] بالاتفاق مما يحدث بالأسباب ، ويعرف أقدارَ القُوى فى مبلغ الحيلة ومُنتَهى البطش وما لا يحتمل إحداثَه إلَّا الخالق، وما يجوز على الله ممَّا لا يجوز فى توحيده وعدله ، وكيف التحفُّظ من الهوى ، وكيف الاحتراسُ من تقدُّم الخادع فى الحيلة — كان كونُه بهذه الحالِ وهذهِ الصفة[٤] ، مع فرط الصِّبا والحَدَاثة ، وقلَّة التَّجارِب والممارسة . خروجاً من نُشوّ العادة[٥] ، والمعروفِ مما عليه تركيبُ الأُمَّة .

ولو كان على هذه الصِّفة ، ومع هذه الخاصَّة ، كان حجَّةً على العامَّة وآيةً تدلُّ على المباينة[٦] . ولم يكن الله تعالى ليخصَّه بمثل هذه الآيةِ ، وبمثل هذه الأُعجوبة إلاَّ وهو يريد أنْ يحتجَّ بها لهُ ، ويخبر بها عنه[٧] ، ويجعلَها[٨] قاطعةً لعذر الشاهد، وحُجَّة الغائب، ولا يُضيعَها هَدَراً ، ولا يكتمها باطلا[٩] .

ولو أراد الاحتجاج له بها[١٠] شهر أمرَها[١١] وكشف قِناعَها، وحَمَل

---

(١) يقال لبست الأمر على القوم ألبسه لبساً، إذا شبهته عليهم وجعلته مشكلا . وفى الكتاب العزيز : « وللبسنا عليهم ما يلبسون » .

(٢) فى النسختين : « المتمكن » ، والوجه ما أثبت من ع .

(٣) كلمة « ما » ساقطة من النسختين ، ثابتة فى ع .

(٤) ب فقط : « المفة » ، تحريف .

(٥) ع : « نشوء العادة » .

(٦) فى النسختين : « وأنه يدل على المباينة » ، صوابه فى ع .

(٧) ب : « أن يحتج لها ويخبر لها عنه » ، صوابه فى م ، ع .

(٨) ب : « ويجعله » ، تحريف .

(٩) ب ، م : « ولا يكتبها باطلا » . وأثبت ما فى ع .

(١٠) ب : « له لها » ، صوابه فى م ، ع .

(١١) فى النسختين : « شهر بأمرها » ، تحريف .

النفوسَ على معرفتها ، وسَخَّر الألسنة لنقلها . والأسماعَ لإدراكها ، لئلاَّ يكون لَغْوًا ساقطاً ، ونِسياً منسيًّا ؛ لأنَّ الله تعالى لا يبتدع أعجوبةً ، ولا يخترع آية ، ولا ينقضُ العادةَ إلَّا للتعريف والإعذار ، والمصلحةِ والاستبصار . ولولا ذلك لم يكن لفعلها معنًى ، ولا لرسالته حجَّة . والله تبارك اسمه ، تعالَى(١) أن يترك الأمورَ سُدًى ، والتَّدبيرَ نَشراً .

وأنتم تزعمون أنَّه لايصل أحدٌ إلى معرفة نبيٍّ ، وكَذِب مُتَنَبِّئٍ ، حتى تجتمع له هذه المعارفُ التى ذكرنا ، والأسبابُ التى فصَّلنا .

ولولا أنَّ الله تعالى أخبرَ عن يحيى بنِ زكريَّا أنَّه آتاه الحُكْمَ صبيًّا ، وأنَّه أنطق عيسى فى المَهْد رضيعاً ، ما كانا فى الحُكم إلَّا كسائر البشر(٢) فإذْ لم ينطق لعليٍّ [بذلك(٣)] ، ولا جاء الخبر به مجىءَ الحُجَّة القاطعة والشَّهادةِ الصَّادقة ، فالمعلوم عندنا فى الحكم والمُغيَّبِ جميعاً أنَّ طباعَه كطباع عَمَّيه العبَّاسِ وحَمزة . وهما أَمَسُّ(٤) بمعدِن جميعِ الخير منه ، وكطباع أخوَيهِ جعفرٍ وعَقيل ، وكطباع أبوَيهِ ورجالِ عَصْره وسادةِ رهطه .

ولو أنَّ إنساناً ادَّعى مثلَ ذلك لأخيه جعفرٍ ، أو لعمِّه حمزةَ أو العبَّاسِ — وهو حليمُ قريش — ماكان عندنا فى أمره إلَّا مثلُ ماعندنا فيه .

ولو لم تعلم(٥) الرَّوافضُ ومنَ يذهب مذهبَها فى هذا ، باطلَ هذه الدَّعوى ، وفسادَ هذا المعنى ، إذا صَدَقَتْ نفسها ، ولم تقلِّدْ رجالَها ،

(١) فى النسختين : « وتعالى » . والوجه حذف الواو كما سيأتى فى ص ٤٢ س ٤ . ع : « والله يتعالى » .

(٢) ع : « ما كانا فى الحكم ولا فى المغيب إلا كسائر الرسل » .

(٣) بذلك ، تكلة من ع .

(٤) فى النسختين : « أمنين » ، صوابه من ع .

(٥) فى النسختين : « تعمل » ، وجهها ما أثبت . وفى ع : « تعرف » .

وتَحفَّظت من الهوى وآثرت التَّقوى، إلَّا بتركِ علىٍّ ــ رضوان الله عليه ــ ذِكْرَ ذلك لنفسه . والاحتجاجَ على خصمه وأهلِ دهره ، مُذْ نازَعَ الرجال[١] ، وخاصَمَ الأَكفاءَ ، وجامَعَ أهلَ الشُّورى ، وَلِىَ وَوُلِىَ عليه ، والنَّاس [بين[٢]] معاند يحتاجُ إلى التَّقريع ، ومرتادٍ يحتاج إلى المادَّة[٣] ، وغُفْلٍ يحتاج[٤] إلى أن يُكثَرَ له من الحجَّة ، ويُتابَعَ له من الأَمارات والدَّلالات ، مع حاجةِ القرن الثانى إلى معرفة الحقِّ[٥] ومعدِنِ الأَمر؛ لأَنَّ الحجَّة إذا لم تصحَّ لعلىٍّ فى نفسِه ، ولم تقم على أهلِ دهره، فهى[٦] عن ولده أعجز ، وعنهم أضعف .

ثم لم ينقلْ ناقلٌ واحدٌ أنَّ عليًّا احْتَجَّ بذلك فى موقف ، ولا ذكره فى مجلس ، ولا قام به خطيباً ، ولا أدلَى به واثقاً ، ولا همس به إلى مُوافِق[٧] ، ولا احْتَجَّ به على مخالِف ، فقد ذكر فضائلَهُ وفَخَر بقَرَابتِهِ وسابقته ، وكاثَرَ بمحاسِنِه[٨] ومواقِفه مُذْ جامَع الشُّورى وناضَلَهم ، إلى أن ابتُلِىَ بمساورة معاوية وطمعِهِ فيه ، وجلوسِ أكثرِ أصحابِ رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وأهلِهِ عن عونه . والشدِّ على عَضُده، كما قال عامرٌ الشَّعبى : لقد وقَعت الفِتنةُ ، وبالمدينة عشرون ألفاً من أصحاب رسولِ الله ، ماخَفَّ فيها منهم عشرون . ومن زَعَم أنَّه شهِدَ الجملَ ممَّن

---

(١) فى النسختين : « بارع » ، صوابه فى ع .

(٢) التكملة من ع .

(٣) ع : « ومراد يحتاج إلى الإرشاد » .

(٤) الغفل ، بالضم : الذى لم يجرب الأمور » . وفى النسختين : « وعقل لا يحتاج » ، صوابه من ع .

(٥) ب : « لمعرفة الحق أو الحق » م : « لمعرفة الحق أو لمعرفة الحق » ، وهو تكرار لا وجه له .

(٦) فى النسختين : « فهو » ، والصواب من ع .

(٧) هذا الصواب فى ع ، وهو الذى يلائم « مخالف » ، وفى النسختين : « مرافق » بالراء .

(٨) فى النسختين : « محاسنه » والوجه فى ع .

شهد بدراً أكثرُ من أربعةٍ فقد كذب ، كان عليٌّ وعمَّارٌ فى شِقّ ، وطلحةُ والزُّبير فى شِقّ .

وكيف يجوز عليه تركُ الاحتجاجِ ، وتشجيعُ الموافق وقد نَصب نفسَه للخاصَّة والعامَّة وللمَولَى والمُعادى[(١)] ومَن لا يحلُّ له فى دينه تركُ[(٢)] الإعذار إليهم، إذْ كان يرى أنَّ قتالَهم كان واجباً ، وقد نصبَه الرَّسُول مَفْزَعا[(٣)] ومَعْلَما ، ونصَّ عليه قائماً ، وجعله للنَّاسِ إماماً ، وأوجبَ طاعته ، وجعله حُجَّةً فى الناس ، يقوم مَقامه .

وأعجبُ من ذلك أنَّه لم يَدَّعِ هذا له أحدٌ فى دهره كما لم يدَّعِهِ لِنفسه[(٤)] ، مع عظيمِ ماقالوا فيه فى عسكره ، وبعد وفاته ، حتَّى يقولَ إنسانٌ واحدٌ : إنَّ الدليل على إقامته[(٥)] أنَّ النبى – صلى الله عليه وسلم – دعاهُ إلى الإسلام ، فكُلِّفَ التَّصْديقَ[(٦)] قبل بلوغه وإدراكه ، ليكون ذلك آيةً له فى عصْره ، وحُجَّةً له ولولده على مَنْ بعده .

وقد كان عليٌّ أعلمَ بالأُمور من أن يدعَ ذكر أكثَرِ حُججه والذى يانَ بهِ من شكله ، ويذكرَ أصغر حُججه ، والذى يشاكله فيه غيره[(٧)] .

وقد كان فى عسكره من لا يألُو[(٨)] فى الإفراط ، زيادةً فى القدر[(٩)] .

---

(١) ع : « والخاذل والمعادى » .

(٢) ب فقط : « وترك » ، والواو مقحمة :

(٣) مفزعاً : يفزع إليه عند الحاجة إذا دهم الأمر . وفى النسختين : « مفرعاً » ، صوابه فى ع .

(٤) هذا مافى ع . وفى النسختين : « بنفسه » .

(٥) أى إقامته إماماً . والذى فى ع : « إمامته » .

(٦) ب فقط : « فكلفه التصديق » .

(٧) ع : « والذى يشاركه فيه غيره » .

(٨) ب : « يلوا » ، صوابه فى م ، ع .

(٩) ع : « من لا يألو فى الإفراط ، ومن يحسب أن الإفراط زيادة فى القدر » .

والعجب له - إن كان الأمر على ماذكرتم - كيف لم يقِفْ يومَ الجمَل . أو يوم صِفِّينَ ، أو يومَ النهر[١] ، فى موقفٍ يكون فيه من عدوِّه بمرأى ومَسمعٍ فيقول : « تبًّا لكم وتعساً ! كيف تقاتلونى[٢] ، وتجحدونَ فضيلتى ، وقد خُصِصْتُ بآيةٍ ، حتَّى كنت كيحيى بن زكريَّا ، وعيسى بن مريم » فلا يمتنع النَّاس من أن يَمُوجوا ، فإذا ماجُوا تكلَّموا على أقدار عللهم[٣] ، وعِلَلُهُم مختلفة ، فلا يثبت أمرهم[٤] أن يعود إلى فُرقة ، فمِنْ ذاكرٍ[٥] قد كان ناسياً ، ومن نازعٍ قد كان مُصِراً[٦] ، ومن مترنِّحٍ قد كان غالطاً ، مــــع ما كانَ يشيع من الحُجَّة فى الآفاق ، ويَستفيض فى الأَطراف ، وتَحمِلُه الرُّكبان ، ويُتَهَادى فى المجالس[٧] . فهذا كان أشدَّ على طلحةَ والزُّبير وعائشة ، ومعاوية ، وعبدِ الله بن وهب ، من مائةِ ألفِ سنانٍ طريرٍ وسيفٍ شهير[٨] .

ومعلومٌ عند ذَوى التَّجربةِ والعارفين بطبائع الأَتباع وعلل الأَجناد[٩] أنَّ العساكر تنتقضُ مرائرها،وينتشر أمرها،وتنقلب على قائدها[١٠] بأَيسَرَ من هذه الحجة وأَخْفَى من هذه الشَّهادة .

---

(١) يوم النهر أو النهروان : وقعة مشهورة لأمير المؤمنين على بن أبى طالب مع الخوارج فى سنة ٣٧ . انظر خبرها فى الطبرى ٥ : ٧٢ - ٩٢ والعقد ٤ : ٣٥١ .

(٢) بحذف إحدى النونين : نون الرفع أو نون الوقاية ، وهو مبحث نحوى .

(٣) ب فقط : « قدر عللهم » .

(٤) ع : « ولا ينشب أمرهم » .

(٥) ب فقط : « فن ذكر » ، تحريف .

(٦) ب فقط : « مضراً » ، تحريف . ونزع عن الأمر : كف ورجع .

(٧) فى النسختين : « وتهادى فى المجالس » ، تحريف .

(٨) ع : « مشهور » . شهر السيف : سله من غمده .

(٩) فى النسختين : « الأحاد » ، صوابه فى ع .

(١٠) فى النسختين : « ويتقلب » ، صوابه فى ع . وفى ب : « على تايدها » ، صوابه فى م . وفى ع : « قادتها » .

وقد علمتم ماصنَعت المصاحفُ فى طبائع أصحاب علىٍّ رضوان الله عليه ، حين رفَعَها عَمرٌو أشدَّ ماكان أصحابُ علىٍّ استبصاراً فى قتالهم ، ثم لم ينتقضْ على علىٍّ من أصحابه إلَّا أهل الجِدِّ والنَّجدة ، وأصحابُ البرانس والبصيرة(١) .

وكما علمتَ(٢) من تحوُّل شَطْرِ عسكرِ عبد الله بن وهبٍ حين اعتزلوا مع فَرْوَةَ بن نَوفل(٣) لكلمةٍ سمعوها من عبد الله بن وهب كانت تدلُّ عِندهم على ضَعف الاستبصار ، والوَهَن فى اليقين .

وهذا البابُ أكثرُ من أن يَحتاج – مع ظهورِه ، ومعرفةِ الناس له – إلى أن نحشُوَ به كتابنا(٤) .

فأمَّا إسلامُه وهو حدَثٌ غَرير ، وصبىٌّ صغير ، فهذا ما ندفعه ؛ غير أنَّه إسلامُ تأديبٍ وتلقين وتربية . وبين إسلام التكليف والامتحان(٥) ، وبين التلقين والتربية ، فرقٌ عظيم ، ومَحجَّةٌ واضحة .

وقالت العثمانية : إنْ قالت الشِّيَعُ : إنَّ الأمر ليس كما حكيتم ولا كما هَيَّأتموه لأنفسكم ، بل نزعُم أنَّه قد كانت هنالك فى أيَّام حداثته وصِباه فضيلةٌ ومزيدُ ذكاءٍ(٦) ، ولم يَبلغْ الأمر(٧) حدَّ الأعجوبة والآية ، قلنا: إنَّ

---

(١) هذا ما فى ع . وفى النسختين : « أصحاب المزاس » . وانظر العقد ٤ : ٣٥١ ففيه : « إن علياً لما اختلف عليه أهل النهروان والقرى وأصحاب البرانس » . الجوهرى : البرنس : قلنسوة طويلة ، وكان النساك يلبسونها فى صدر الإسلام . وانظر لسان العرب (برنس) .

(٢) ع : « وكما علمتم » .

(٣) فروة بن نوفل الأشجعى ، ذكره ابن حبان فى الصحابة ثم توقف فيه . وقال ابن شاهين : لاتصح له صحبه . وقال أبو حاتم : إنما الصحبة لأبيه . قال المرزبانى : كان رئيس الشراة . الإصابة ٧٠٢٣ .

(٤) هذا ما فى ع . وفى النسختين : « نحشو كتابنا » .

(٥) ب فقط : « وبين إسلام التكليف وبين الامتحان » .

(٦) ع : « ومزية ذكاء » .

(٧) فى النسختين : ولم يبلغ إلا من » ، وهو تحريف واضح ، صوابه فى ع .

الذى ذهبتم إليه — أيضاً — لابدَّ فيه من أحد وجهين : إمَّا أن يكون قد كان لا يزال يُوجَد فى الصِّبيانِ مثلُه فى الفطنةِ والذّكاء ، وإن كان ذلك عزيزاً قليلا ، وكان وجودُ ذلك ممتنعاً ، ومن العادة خارجاً . فإذا كان قد يوجَد مثله — على عزَّته وقلَّته — فما كان إلاَّ كبعض مَن نَرى اليومَ ممَّن يُتعجَّب من كَيْسه وفطنته(١) ، وحفظه وحكايته ، وسُرعَةِ قبوله ، على صغَر سنِّه ، وقلَّة تجربته . فإن كانت حاله هذه الحالَ ، وطبقتُه على هذا المثالِ ، فإنَّا لم نجدْ صبيًّا قطُّ وإن أفرط كَيسُه ، وحسنَت فطنته ، وأُعجب به أهله يحتمل ولايةَ الله وعداوتَه ، والتمييزَ بين الأُمور التى ذكرْنا . مع أنَّه ما جاءنا ولا جاءَ عند أحدٍ منَّا بخبرٍ صادقٍ ، ولا كتابٍ ناطق ، أنَّه قد كان لعلىٍّ خاصَّةً ، دون قريشٍ عامَّةً ، فى صباه ، من إتقان الأُمور ، وصحَّة المعارف ، وجَودة المخارج ، مالم يكن لأَحَدٍ من إخوته ، وعُمومته وآبائه .

وإن كان القدرُ الذى كان عليه علىٌّ من المعرفة والذكاءِ القدرَ الذى لا نَجِد له فيه مثلاً(٢) ، ولا رأينا له شِكلاً(٣) ، فهذا هو البديع الذى يحتجُّ به على المنكرين(٤) ، ويُفْلَج على المعارضين(٥) ، ويُبيِّن(٦) للمسترشدين . وهذا بابٌ قد فرغنا منه مرّة .

---

(١) فى النسختين : « من كسبه وفطنته » ، والصواب ما أثبت . وفى ع : « من حسه وفطنته » .

(٢) ب : « والذكاء الذى لا يجد له فيه مثيلا » ، تحريف .

(٣) فى النسختين : « ولان أماله لشكلا » ، صوابه فى ع .

(٤) هذا ما فى ع . وفى النسختين : « المنكر » .

(٥) الفلج : الفوز والظفر . وفى النسختين : « يفلح » بالحاء المهملة ، صوابه فى ع .

(٦) ب : « وتبين » م : « ونبين » ، صوابهما فى ع .

ولو كان الأمر فى علىٍّ كما يقولون لكان ذلك حجّة للرّسول فى رسالته[1] ولعلىٍّ فى إمامته[2].

والآيةُ إذا كانت للرسولِ وخليفةِ الرسول كان أشهرَ لها ؛ لأنَّ وضوح أمرِ الرّسول يزيد[3] على ما للإمام ، ويزيده إشراقاً واستنارةً وبياناً .

ولا يجوز أن يكون الله تعالى قد عرَّف أهلَ عصرهما ذلك، وهم الشّهداءُ على من بعدهم من القرون ، ثم أسقَطَ حجّتَه[4] . فلا تخلو تلك الحجّة ، وتلك الشهادة من ضربين : إما أن تكون[5] ضاعت وضلّتْ ، وإما أن تكون[6] قد قامت وظهرت . فإن كانت قد ضاعت فلعلَّ كثيراً من حُجج الرسول قد ضاع . وما جَعَل الباقيَ أولَى بالتّمام من السّاقطِ ، والسّاقطُ من شكل الثّابت ، لأنّه حُجّةٌ على شيئين ، والثابت حُجّة على شىء . ولا يخلو أمر السّاقط من ضربين : إمّا أن يكون الله ــ تبارك وتعالى ــ لم يُرِدْ تَمامَهُ ، أو يكون[7] قد أراده . وأىَّ هذين كانَ ، ففساده واضح[8] عند قارئ الكتاب ، وإن كانت الآية فيه قد تمّت ؛ إذ كانت الشهادة قد قامت علينا بها ، كما كانت شهادةُ العيان قائمةً عليهم فيها[9] .

فليس فى الأرض عثمانىٌّ إلّا وهو يُكابر عقله ، ويجحد علمه .

---

(١) فى رسالته ، ساقطة من ب .
(٢) هذا ما فى ع . وفى النسختين : « فى إقامته » .
(٣) هذا ما فى ع . وفى النسختين : « يرى » ، تحريف .
(٤) ع : « ثم يسقط حجته » .
(٥) فى النسختين : « يكون » ، صوابه فى ع .
(٦) م فقط : « يكون » .
(٧) فى النسختين : « ويكون » ، صوابه فى ع .
(٨) ب فقط : « فساده واضح » ، تحريف .
(٩) هذا الصواب من م ، ع . وفى ب : « إذا كانت شهادة العيان قائمة عليهم فيها » ، وهو نقص وتحريف .

ولعمرِى ، إنّا لنجد[١] فى الصِّبيان من لَو لقَّنته[٢] ، أَوْ كتبتَ له أَغمض المعانى والَطفها، وأغمضَ الحُجج وأَبعدَها،وأَكثرَها لفظًا وأَطولَها، ثمّ أخذتَه بدَرْسِه وحِفظه لحفظِه حفظاً عجيباً ، ولهذه هذًا ذليقا[٣] .

فأَمّا معرفة صحيحهِ من سقيمه ،وحقِّه من باطله ، وفَصْلُ ما بين المُقَرِّ بهِ والدَّليل ، والاحتراسُ من حَيْثُ يؤتى المخدوعون[٤] ، والتحفُّظ من مكر الخادعين ، وتأَتِّى المجرِّب[٥] ، ورِفق السّاحر[٦] ، وخلابةِ المتنبِّئ[٧] ، وزَجْرِ الكهان ، وأَخبار المنجمين . وفَرْقِ مابين نَظْم القرآن وتأْليفه ، فليس يعرف فروق النَّظم ، واختلاف البحث والنَّثْر[٨] إلّا مَن عرف القصيدَ من الرَّجز، والمخمَّس من الأَسجاع، والمزدَوِج[٩] من المنثور ، والخُطَب من الرَّسائِل ،وحتّى يعرفِ العَجْز العارض الذى يجوز ارتفاعُه ، مِن العجز الذى هو صفة فى الذّات .

فإذا عَرف صُنوفَ التأْليف عَرَفَ مباينةَ نظْمِ القرآنِ لسائرِ الكلام ثم لا يكتفى بذلك حتّى يعرف عجزَه وعجْزَ أَمثالِه عن مثله ، وأَنّ حُكْم البشرِ حكمٌ واحد فى العجز الطبيعىّ ، وإن تفاوَتُوا فى العجز العارض .

---

(١) ب فقط : « لا نجد » ، تحريف .

(٢) ع : « من لو لقنته وسددته » .

(٣) يقال هذ القرآن والحديث هذا : سرده . والذليق : الفصيح . وفى ب : « لهذه هذا ذليقاً » ، صوابه فى م ، ع .

(٤) فى النسخين : « من خبث يؤتى المخلوعين » ، صوابه فى ع .

(٥) الأصمعى : تأتى فلان لحاجته ، إذا ترفق لها وأتاها من وجهها . وفى النسختين : « ويأتى المجرب » . وفى أصل ع : « ومانى المجرب » بإهمال التاء من النقط . صوابه ما أثبت .

(٦) فى النسختين : « وسحر رفق الساحر » ، صوابه فى ع .

(٧) هذا الصواب فى ع . وفى النسختين : « المثى » ، تحريف .

(٨) ع : « فروق النظر واختلاف فى البحث » .

(٩) ب فقط : « بالذات » .

وهذا مالا يُوجَد عند صبيٍّ ابنِ تسع سنين ، أو ثمان سنين ، أوسبع سنينَ أبداً ، عَرَفَ ذلك عارفٌ أو جَهِله جاهل .

ولا يجوز أن يعرف عارفٌ معنى الرسالة إلّا بعد الفراغ من هذه الوجوه ، إلاَّ أن يَجْعَلَ جاعلٌ التقليدَ والنشوَّ(١) والإلفَ لما عليه الآباءُ ، وتعظيمَ الكبراءِ معرفةً ويقيناً .

وليس بيقينٍ ما اضطربَ ، ودَخَله الخلاجُ [عند(٢)] ورودِ معانى لعلَّ وعسى ، ممَّا لا يمكن فى المعقول(٣) إلاَّ بحجَّةٍ تُخْرِج(٤) القلبَ إلى اليقين عن التجويز .

ولقد أعيانا أنْ نجد هذه المعرفَةَ إلاَّ فى الخاصّ من الرّجال وأهل الكمال فى الأدب ؛ فكيف بالطِّفل الصَّغير ، والحدَث الغَرير ! مع أنَّك لو أدَرْتَ(٥) معانِيَ بعضِ ما وُصِف لك(٦) على أذكى صبيٍّ فى الأرض ، وأسرعِهِ قَبولًا وأحسنه حكايةً وبياناً ، وقد سوَّيته له ودَلَّلته(٧) ، وقرَّبته منه ، وكفيتَه مؤونة الرَّويَّة ، ووَحْشة الفِكرة ، لم يعرف قَدْره ، ولا فَصَل(٨) حقَّه من باطِله ، ولا فَرَق بين الدَّلالة وشبيهِ الدَّلالة . فكيف له بـأن يكون(٩) هو المتولِّيَ لتجربته وحلِّ عَقْده وتخليص متشابِهِه(١٠) ، واستثارته من معدِنه ؟

---

(١) النشو ، أى النشوء ، يعنى به أثر المنشأ . وفى النسختين : « البشر » ، صوابه فى ع .
(٢) التكلة من ع .
(٣) ع : « فى العقول » .
(٤) هذا ما فى ع . وفى النسختين : « لحجة تحوج » ، تحريف .
(٥) فى النسختين : « أردت » ، صوابه فى ع .
(٦) ع : « ما وصفت لك » .
(٧) وكذا فى ع . ولعلها : « ذللته » ، أى يسرته له تيسيرا .
(٨) فى النسختين : « فضل » بالضاد المعجمة ، تحريف .
(٩) ب فقط : « أن يكون » .
(١٠) فى النسختين : « وتلخيص مشابهه » ، صوابه فى ع .

وكُلُّ كلامٍ خرج من التّعارُف فهو رجيعٌ بَهرجٌ ، ولغوٌ ساقط .

وقد نجد الصبيَّ الذكيَّ يَعرِف من العَرُوض وجهاً ، ومن النَّحْو صدرًا ، ومن الفرائِض أبواباً ، ومن الغناءِ أصواتاً . فأمَّا العلمُ بأُصول الأَديانِ ، ومَخارج الملل[١] وتأْويلِ الدِّين ، والتحفُّظ من البِدَع ، وقَبْلَ ذلك الكلامُ فى حُجج العقول ، والتعديل والتجوير[٢] ، والعلمُ بالأَخبار وتقدير الأَشكال ، فليس هذا موجودًا إلَّا عند العلماءِ . فأمَّا الحَشْوُ والطَّغامُ[٣] ، فإنَّما هم أَداةُ للقادة ، وجَوارحُ للسَّادة[٤] ؛

وإنَّما يعرف شدَّة الكلام فى أُصول الأَديان مَنْ قد صَلِىَ به، وسال فى مضايِقِه[٥] ، وجاثَى الأَضداد[٦] ونازَع الأَكْفاءَ .

٢ — فصــل منه[٧]

وقد علمتم ماصنع أبو بكر فى مالِه ، وكان المالُ أربعين ألفاً ، فأنفقَه على نوائب الإسلام وحُقوقه ، ولم يكن مالُه ميراثاً لم يكدَّ فيه ، فهو غَزيرٌ[٨] لا يشعر بعُسْر اجتماعه ، وامتناع رُجوعه ، ولا كان هبةَ

---

(١) فى النسختين : « الملك » ، صوابه فى ع .

(٢) فى النسختين : « التجويد » ، صوابه فى ع .

(٣) الحشو من الناس ، بفتح الحاء ، والحشوة بضمها : الرذال منهم ومن لا يعتمد عليه . ومثله الطغام ، بالفتح .

(٤) أى بمنزلة الجوارح من البدن . وجوارح الإنسان : أعضاؤه وعوامل جسده ، كيديه ورجليه ، لأنهن يجرحن الخير والشر ، أى يكسبنه . وفى النسختين : « خوارج » ، صوابه فى ع . وسيأتى فى أوائل الفصل الرابع : « ومقام العامة من الخاصة مقام جوارح الإنسان من الإنسان » .

(٥) ع : « وسلك فى مضايقه » .

(٦) جاثاه : جلس معه على ركبتيه للخصومة . وفى النسختين : « وحاثى » ، صوابها بالجيم كما فى ع .

(٧) انظر العثمانية ٣٥ .

(٨) فى النسختين : « غرير » براءين ، صوابه فى ع .

ملكٍ(١) فيكون أسمح لطبيعته ، وأخرقَ فى إنفاقه (٢) ، بل كان ثمرةَ كدِّه وكَسْبَ جَوَلانه وتعرُّضِه .

ثمّ(٣) لم يكن خفيفَ الظَّهر ، قليلَ النَّسل ، قليلَ العِيال ، فيكونَ قد جمع اليَسارَيْن ؛ لأنَّ المثلَ الصحيح السَّائِرَ المَعْنَى : « قِلَّةُ العيالِ أَحَدُ اليَسارَيْن » ، بل كان ذا بنينَ وبناتٍ وزوجةٍ ، وخَدَم وحَشَم ، يَعُولُ(٤) مع ذلك أبويه وما وَلدَا . ولم يكن فتًى حدثًا فتهزَّه أريحيَّةُ الشباب ، وغَرارةُ الحداثة . ولم يكن بحذاءِ إنفاقِه طمعٌ يَدعُوه ، ولا رغبةٌ تَحْدوه .

ولم يكن للنبيِّ صلى الله عليه وسلم قبل ذلك يدٌ مشهورة فيخافَ العارَ فى ترك مواساته ، وإنفاقِه عليه ، ولا كان من رهطه دُنْيًا(٥) فيسبَّ بترك مكانفته(٦) ومعاونته وإرفاقه . فكان إنفاقُه على الوجه الذى لايجد أبلغ فى غايةِ الفضل منه ، ولا أدلّ على غاية البصيرة منه(٧) .

وقد تعلمون ما كان يلقَى أصحابُ النبى صلى الله عليه وسلم ببطن مكَّة من المشركين ، وقد تعلمون حُسْنَ صنيعِ كثيرٍ منهم ، كصنيع حمزةَ حين ضَرب أبا جهلٍ بقَوسه ، فبلغ فى هامته ، فى نصرة النبيّ صلى الله عليه وسلم ، وأبو جهل يومئذٍ أمنع أهلِ البطحاءِ(٨) ، وهو رأسُ الكفر .

---

(١) فى النسختين : « هيئة ملك » ، وصحته فى ع .

(٢) أخرق ، من الخرق ، بالضم وبالتحريك ، وهو ضد الرفق . والخراق : الكريم السخى ، كالخرق بالكسر . ب : « وأحذق » ، صوابه فى م ، ع .

(٣) فى النسختين : « بمن » ، صوابه فى ع .

(٤) هذا الصواب من ع . وفى النسختين : « يقول » .

(٥) هو من قولهم : هو ابن عمه دنيا ، بكسر الدال مع التنوين وعدمه ، وبضمها مع ترك الصرف ، إذا كان ابن عمه لحا لاصق النسب . وفى النسختين : « دينا » ، صوابه فى ع

(٦) المكانفة : المعاونة . وفى النسختين : « مكاتبته » ، تحريف ما فى ع .

(٧) ب ، م : « ولا أدل عليه » ، صوابه فى ع . وفى ب : « الصبرة منه » ، صوابه فى م ، ع . لكن فى ع : « غاية الصدق والبصيرة منه » .

(٨) ب ، ع : « أمنع البطحاء » ، وأثبت ما فى م . وبطحاء مكة وأبطحها : مسيل واديها . وقريش البطاح : الذين ينزلون البطحاء . وقريش الظواهر : الذين ينزلون ما حول مكة .

ثمَّ صَنيعَ عُمَر حيث يقولُ يوم أسلم : « والله لا نَعبدُ الله سرًّا بعد هذا اليوم » ، حتَّى قال بعد موته عبدُ الله بن مسعود : « وما صلَّينا ظَاهِرِينَ حتَّى أسلم عمر » .

٣ — فصــل منه(١)

ولو كان فى ذلك الزَّمانِ القتالُ ممكناً ، والوُثوبُ مُطمِعاً ، لقاتلَ أبوبكرٍ ونهض كما نهض فى الرِّدَّة(٢) ، وإنَّما قاتل علىٌّ فى الزَّمان الذى قد أقْرَنَ فيه أهل الإسلامِ لأهل الشِّرك(٣) ، وطمعوا أن تكون الحربُ سِجالًا ، وقد أعلمَهم اللهُ أنَّ العاقبةَ للمتَّقين ، وأبو بكر مفتون مفرد(٤) ومطرودٌ مُشرَّدٌ(٥) ومضروب مُعَذَّب(٦) ، فى الزَّمان الذى ليس بالإسلامِ(٧) وأهلِه نهوضٌ ولا حركة ، ولذلك قال أبو بكر رضى الله عنه : « طُوبَى لمن مَاتَ فى نأْنأَة الإسلام » ، يقول : فى أيام ضَعْفه وقِلَّته ، بحيثُ كانت الطَّاعةُ أعظمَ لفرط الامتحان ، والبلاءُ أغلظَ لشدَّة الجهد ، لأنَّ الاحتمال كلَّما كان أشدَّ وأدْوَمَ ، كانت الطَّاعةُ أفضل ، والعَزْم فيه أقوى .

ولا سواءٌ مفتونٌ مشرَّد لا حيلةَ عنده ، ومضروب معذَّب لاانتصار به ، ولا دَفْعَ عنده ، ومُباطِشٌ مُقْرن(٨) يَشفِى غَيْظَه ، ويَروِى غليلَه ، وله مُقْدِم يكنُفه ويشجِّعه .

---

(١) انظر العثمانية ص ٢٩ .

(٢) فى النسختين : « كما نقض فى الردة » ، صوابه فى ع .

(٣) يقال أقرن له ، أى أطاقه وقدر عليه ، كما يقال أقرنت فلاناً : صرت له قرناً » .

(٤) فى النسختين : « مفتون معذب » .

(٥) ب : « مشروب » وفى م : « مشرود » ، صوابهما فى ع .

(٦) فى النسختين : « مغرب » ، صوابه فى ع . وانظر ما سيأتى فى السطر ١٤ .

(٧) م فقط : « فى الإسلام » .

(٨) المباطشة : مفاعلة من البطش ، وهو السطوة والأخذ بالعنف . والمقرن : المطيق القادر . وفى النسختين : « مقرق » ، صوابه فى ع .

ولا سواءٌ مقهورٌ لا يُغاث ، ولم يَنزِل القرآنُ بعد بظَفرِه . وقد هَتَك اليأسُ(١) لما ألقى حجابَ قَلبه(٢) ونَقَضَ(٣) قوى طمعه حتَّى بَقِيَ وليس معه إلَّا احتسابُه ؛ ومقاتلٌ فى عسكره معه عِزُّ الرجال ، وقُوَّة الطَّمع ، وطيب نفسِ الآمل .

٤ – فصـــل منه(٤)

وإنْ سأَل سائل فقال : هل على النَّاس أَن يتَّخذوا إماماً ، وأَن يُقيموا خليفة ؟

قيل لهم : إنَّ قولكم «النَّاس» يحتمل الخاصَّة والعامَّة . فإنْ كنتم قصدتم إليهما ، ولَم تَفْصِلوا بين حالَيهما ، فإنَّا نزعُم أَنَّ العَامَّة لا تعرف معنى الإمامة ، وتأْويلَ الخلافة ، ولا تفصِل بين(٥) فضلِ وجودها ونَقْص عدمها ، ولأَىِّ شيء ارتدَّت(٦) ، ولأَىِّ أَمر أَمْلَت ، وكيف مأْتاها والسبيلُ إليها ، بل هى مع كلِّ ريحٍ تهبُّ ، وناشئة تنجُم . ولعلَّها بالمُبْطلين أَقرُّ عيناً منها بالمحقِّين ، وإنَّما العامَّة أداةٌ للخاصَّة تبتذلها للمِهَن ، وتُزجِّى لها الأُمور(٧) ، وتَصُول بها على العدوّ ، وتسدُّ بها الثغور .

ومَقَام العامَّة من الخاصَّة مَقام جَوارحِ الإنسانِ من الإنسان ، فإنَّ الإنسانَ إذا فكَّر أَبصَرَ ، وإذا أَبصَرَ عزَم ، وإذا عزَم تحرَّك أَو سكن ، وهما بالجوارحِ دونَ القَلْب .

---

(١) فى النسختين : « الناس » ، صوابه فى ع .
(٢) ألقى : وجد . وفى ع : « لطول ما لقى حجاب قلبه » .
(٣) فى النسختين : « وبعض » صوابه فى ع .
(٤) كتاب العثمانية ص ٢٥٠ .
(٥) فى النسختين : « من » ، صوابه فى ع .
(٦) فى النسختين : « أردت » ، صوابه فى ع .
(٧) ع : « بها الأمور » .

وكما أنَّ الجوارحَ لاتعرفَ قَصْدَ النفس ، ولا تروِّى فى الأُمور ، ولم يخرجْها ذلك من الطَّاعة للعزم ، فكذلك العامَّة ، لا تعرف قصد القادة(١) ولا تدبير الخاصَّة ، ولا تَرَوِّىَ معها(٢) ، وليس يخرجها ذلك من عَزْمها ، وما أبرمَت من تدبيرها .

والجوارحُ والعوامُّ ، وإن كانتْ مسخَرَّةً ومدبَّرة ـ فقد تمتنع لعللٍ تَدخُلها ، وأمورٍ تصرفها ، وأسبابٍ تَنْقُضها(٣) ، كاليد يَعرِض لها الفالِجُ واللِّسانِ يعتريه الخَرَس ، فلا تقدر(٤) النفس على تسديدهما وتقويتهما ، ولو اشتدَّ عزمها ، وحَسُنَ تأَتِّيها(٥) ورفقُها . وكذلك العامَّةُ عند نفورها وتَهيُّجها(٦) ، وغلبةِ الهوى والسُّخْف عليها ، وإنْ حَسُنَ تدبير الخاصَّة ، وتعهُّد السَّاسة(٧) . غير أنَّ معصيةَ الجارحة أَيسَرُ ضرراً(٨) ، وأهونُ أمراً ، لأنَّ العامة إذا انتكثت للخاصَّة(٩) ، وتنكَّرت للقَادة ، وتشزَّنَت على الرَّاضة(١٠) ، كان البَوارُ الذى لا حيلةَ له ، والفناءُ الذى لا بَقَاءَ معه.

وصلاحُ الدُّنيا ، وتمام النِّعمة فى تدبير الخاصَّة وطاعةِ العامَّة ، كما أنَّ كمال المنفعة وتمامَ دَرَكِ الحاجة بِصواب قَصدِ النَّفْس(١١) ؛ [لأَنَّ

---

(١) فى النسختين : « ولا تعرف قصد العامة » تحريف ، والواو فيه مقحمة ، والصواب فى ع .

(٢) فى النسختين : « ولا يروى معها » ، ووجهه من ع .

(٣) فى النسختين : « لعلل يدخلها وأمور يصرفها وأسباب ينقصها » ، صوابها فى ع .

(٤) ب فقط : « يقدر » ، تحريف .

(٥) ب فقط : « تأنيها » ، محرف .

(٦) فى النسختين : « عند ثبورها » ، صوابه فى ع . وفى ع : « وتهيجها » .

(٧) فى النسختين : « السياسة » ، والصواب فى ع .

(٨) فى النسختين : « طوراً » صوابه فى ع .

(٩) فى النسختين و ع : « انكفت بالخاصة » ، ولعل وجهه ما أثبت .

(١٠) التشزن : التصعب وعدم الانقياد . والراضة : جمع رائض، وهو السائس . وفى النسختين : « تشربت »

(١١) ب فقط : « تصواب قصد النفس »

النَّفسَ][(١)] لو أدركت كلَّ بُغْية ، وأوفت على كلِّ غاية ، وفتحَتْ كلَّ مُستغلقٍ ، واستثارت كلَّ دفين[(٢)] ، ثمَّ لم يُطِعْها[(٣)] اللسانُ بحسن العبارة واليدُ بحسن الكتابة[(٤)] ، كان [وجودُ[(٥)]] ذلك المستنبطَ – وإنْ جلَّ قدره – وعَدمُه سواءً .

فالخاصَّة تحتاج إلى العامَّة كحاجة العامَّة إلى الخاصَّة ، وكذلك القلب والجارحة ، وإنَّما همُ جندٌ للدَّفع[(٦)] ، وسلاحٌ للقَطْع ، وكالتُّرْس للرامى ، والفأْسِ للنجَّار . وليس مُضِيُّ سيفٍ صارم بكفِّ امرئ صارمٍ ، بأَمضى من شُجاعٍ أَطاع أَميره ، وقلَّد إمامَه .

وما كَلبٌ أَشْلاَهُ ربُّه ، وأَحمشَه كَلَّابه[(٧)] ، بأَفرطَ نَزَقاً ولا أَسرَعَ تقدُّماً ، ولا أَشدَّ تهوُّراً من جنديٍّ أَغراهُ طمعُه ، وصاح به قائده .

وليس فى الأَعمال أَقلُّ من الاختيار ، ولا فى الاختيار أَقلُّ من الصَّواب ، فلُبابُ[(٨)] كلِّ عمل اختياره ، وصَفْوةُ كلِّ اختيارٍ صوابُه . ومع كثرة الاختيار يكثر الصواب ، وأَكثر النَّاسِ اختياراً أَكثرُهم صواباً ، وأَكثرهم أسباباً[(٩)] مُوجِبَه أَقلُّهم اختياراً ، وأَقلُّهم اختياراً أَقلُّهم صواباً .

---

(١) التكلة من ع .
(٢) استثارته : هاجته واستخرجته . وفى النسختين : « واستنارت » ، صوابه فى ع .
(٣) ب فقط : « ثم لم يطقها » ، تحريف .
(٤) ب فقط : « لحسن الكتابة » ، محرف .
(٥) التكلة من ع .
(٦) هم ، ساقطة من م . وفى ع : « وإنما العامة جند للدفع » .
(٧) ع : « أحمشه » بالشين المعجمة ، أى حرضه .
(٨) ب : « فليأب » م : « فليأت » ، صوابهما فى ع .
(٩) ب : « أسابا » ، صوابه فى م ، ع .

فإن قالوا : فقد ينبغى للعوامّ أن لا يكونوا مأمورينَ ولا منهيّين ، ولا عاصين ولا مُطيعين .

قيل لهم : أمّا فيما يعرفون فقد يعصون ويطيعون .

فان قالوا : فما الأمر الذى يعرفون من الأمر الذى يجهلون ؟ .

قيل لهم : أمّا الذى يعرفون ، فالتّنزيلُ[(١)] المجرَّد بغير تأويلهِ ، وجملة الشَّريعة بغيرها[(٢)] ، وما جَلَّ من الخبر واستفاض[(٣)] ، وكثر ترداده على الأسماع ، وكرَّروه على الأفهام .

وأمّا الذى يجهلون فتأويل المُنْزَل وتفسير المجمَل ، وغامض السُّنن التى حَمَلتها الخواصُّ عن الخواصّ ، من حملة الأثر وطُلَّاب الخبَر ممَّا يُتكلَّف معرفتُه ، ويُتْبَعُ[(٤)] فى مواضعه ، ولا يهجُمُ[(٥)] على طالبه ، ولا يَقْهر سمْعَ القاعد عنه .

والخبر خبران : خبرٌ ليس للخاصّة فيه فضلٌ على العامّة ، وهو كما سنَّ الرسولُ صلى الله عليه وسلم فى الحلال والحرام ، وأبوابِ القضاء والطَّلاق ، والمناسك ، والبيوع ، والأشربة ، والكفَّارات ، وأشباهِ ذلك .

وبابٌ آخر يجهله العوامُّ ، ويَخبِطُ فيه الحَشْو ولا تَشْعُر بعجزها[(٦)] ولا موضع دائِها[(٧)] . ومتى جرى سَبَبُه ، أو ظهر شئٌ منه تسنَّمتْ

---

(١) فى النسختين : « كالتنزيل » ، صوابه فى ع .
(٢) ب « تفسيره » ، صوابه فى م ، ع .
(٣) ب فقط : « واستفاد » ، تحريف .
(٤) ع : « ويتتبع » .
(٥) ب فقط : « ولا يعجم » .
(٦) هذا ما فى ع . وفى النسختين : « بسرها » .
(٧) ب فقط : « دأبها » ، تحريف .

أعلاه ، وركبت حَوْمته[١] ، كالكلام[٢] فى الله ، وفى التشبيه ،والوعد والوعيد ؛ لأنَّها قد عجزت[٣] عن دعوى الفتيا ، ولا تتهافت فيها ، ولاَ تتسكَّع[٤] فيما لا يُعَرف منها ، ولا تتوحَّش من الكلام فى التعديل والتجوير[٥] ،ولا تفرغ من الكلام فى الاختيار والطِّباع ، ومجىء الآثار ، وكلٌ ما جرى سببُه من دقيق الكلام وجليله ، فى الله تعالى وفى غيره .

ولو برز عالمٌ[٦] على جادَّةِ منهجٍ وقارعة طريق ، فنازع فى النَّحو واحتجَّ فى العَروض ، وخاض فى الفُتْيا ، وذِكرِ النُّجوم والحساب ، والطبِّ والهندسة ، وأَبواب الصِّناعات ، لم يَعرِضْ له ، ولم يفاتحه[٧] إلَّا أَهلُ هذه الطبقات .

ولو نطق بحرفٍ فى القدر حتَّى يذكر العِلم والمشيئة ، والتكليف والاستطاعة ، وهل خلَق الله تعالى الكُفْرَ وقدَّره أَو لم يخلُقْه ولم يقدِّره ، لم يَبْقَ[٨] حمَّالٌ أغثر[٩] ، ولا بَطَّالٌ غَثٌّ[١٠] ، ولا خَاملٌ غُفْلٌ[١١] ولاغَبىٌّ

---

(١) حومة البحر والرمل والقتال ونحوه : معظمه أو أشد موضع فيه .

(٢) فى النسختين : « فالكلام » ، صوابه فى ع .

(٣) ع : « قد تحجم » .

(٤) التسكع : أن يمضى متعسفاً لغير وجهه . وفى النسختين : « تقسع » ، والوجه ما أثبت من ع .

(٥) فى النسختين : « التعديد والتحرير » ، والوجه ما أثبت .

(٦) فى النسختين : « عالماً » ، صوابه فى ع .

(٧) فى النسختين : « ولم يفتحه » ، صوابه فى ع .

(٨) فى النسختين : « ولم يبق » ، والوجه حذف الواو كما فى ع .

(٩) الأغثر : الأحمق الجاهل . وفى النسختين : « جمال أغبر » .

(١٠) البطال : ذو الباطل . والتبطل : فعل البطالة ، وهو اتباع اللهو والجهالة . وفى النسختين وع : « بطاف » ، ولعل وجهه أثبت .

(١١) فى النسختين : « ولا حامل » بالحاء المهملة ، صوابه فى ع .

كهَام[١] ، ولا جاهلٌ سفيهٌ ، إلّا وقَفَ عليه ولاحاهُ[٢] وصوّبه وخَطَّأه[٣] ثم لا يرضى حتّى يتولّى من أرضاه ، ويكفِّر مَن خالفَ هواه ، فإن جارَاه[٤] محقٌّ ، وأغلظَ له واعظٌ ، واتّفق أن يكون بحضرته أشكاله[٥] استغوى أمثالَه ، فأشعلوها فتنةً وأضرموها ناراً .

فليس لمن كانت هذه حالَه أن يتحيَّز مع الخاصّة ، مع أنّه لو حَسُنت نيّتهُ ، لم تحتمل فِطرتُه معرفةَ الفُصول ، وتمييزَ الأُمور .

فإن قالوا : ولعلّهم لا يعرفون اللهَ ورسولَه ، كما لا يعرفون عَدلَه من جَوره ، وتشبيهه بِخَلقِه[٦] مِنْ نَفْيِ ذلك عنه . وكما لا يعرفون القرآنَ وتفسيرَ جُمَله ، وتأْويل مُنزَّله .

قيل لهم : إنّ قلوب البالغين[٧] مسخَّرة لِمعرفة ربِّ العالمين[٨] ، ومحمولة على تصديق المرسلين ، بالتنبيه على مواضع الأَدلة ، وقَصْر النُّفوسِ على الرُّوِيَّة ، ومَنْعِها عن الجَوَلانِ والتصرُّف ، وكلِّ ماربَثَ عن التفكير[٩] ، وشَغَل عن التحصيل ، من وسوسةٍ أو نِزاعِ شهوة ؛ لأنّ الإنسان مالم يكن معتوهاً أو طفلًا ، فمحجوجٌ على ألسنة المرسلين ، عند

---

(١) الكهام : الثقيل الذى لا غناء عنده . فى النسختين : « و لاغبى » ، والصواب فى ع .

(٢) الملاحاة : المنازعة والمدافعة . فى النسختين : « لاجاه » ، بالجيم تحريف .

(٣) خطاه : سهل خطأه . وفى النسختين : « وخطاؤه » صوابه فى ع .

(٤) فى النسختين : « جازاه » بالزاى ، تحريف .

(٥) ب فقط : « أشكال » .

(٦) فى النسختين : « وتشبيه من يخلقه » ، صوابه فى ع .

(٧) فى النسختين : « التابعين » ، صوابه فى ع .

(٨) يقال سخره للأمر ، أى كلفه به وقهره عليه . وفى الكتاب العزيز : « وسخر لكم الشمس والقمر » ، أى ذللهما ، وكذلك « سخر لكم الفلك » . وفى النسختين : « مسخرة بمعرفة » ، صوابه فى ع .

(٩) ربثه عن الأمر : حبسه وصرفه . وفى النسختين: « وكلما ريب » والصواب فى ع .

جميع المسلمين . ولا يكون محجوجاً حتَّى يكون عالماً بما أُمِرَ به ، عارفاً بما نُهِيَ عنه ؛ لأَنَّ من لم يعلم[١] فى أىِّ الضربين سُخْطُ الله، وفى أىِّ نوعٍ رضاه، ثمَّ ركبَ السُّخطَ أو أتَى الرِّضا[٢] لم يكن ذلك منه إلَّا على اتِّفاق. وإنَّما الاستحقاق مع القصد . والله تبارك يَتعَالَى عن أن يعاقب من لم يُرِدْ خلافه، ولم يَعرِف رضاه . أو يَحمَدَ من لم يعتمد رضاه، ولم يَقصِد إليه.

ولم يكن الله تعالى ليعدِّلَ صنعتَه ويسوِّىَ أَدَاتَهُ[٣] ويفرقَ[٤] بينَه وبين المنقوص فى بنيته وتركيبه[٥] ، إلَّا ليفرق بين حاله وبين الطِّفل والمعتوه . وليس للمعرفة وجهٌ إلَّا لتَبصيره وتخييره[٦] ، ولولا ذلك لم يكن للذى خُصَّ به من الإبانة وتعديل الصَّنعة ، وإحكام البِنْيَة معنًى . والله تعالى[٧] عن فعل ما لا معنى له .

وفى قول الله تعالى : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ والإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ[٨] ﴾ دليلٌ على ماقلنا . وليس لأَحدٍ أن يُخرجَ بعضَ الجنِّ والإنس من أن يكونَ خُلِق للعبادة إلَّا بحجَّةٍ ، ولا حُجَّةَ إلَّا فى عقلٍ ، أو فى كتابٍ ، أو خبر .

فإن قالوا : فإنْ كان الله إنَّما أَبانهم بالتعديل والتسوية للعبادةِ[٩] والاختيار ، فلم قلتم : إنَّهم غير مأْمُورينَ بإقامة الأَئمة والاختيار مع

(١) ب فقط : « لا لمن لم يعلم » ، تحريف .
(٢) فى النسختين : « أو أبى الرضا » ، صوابه فى ع .
(٣) فى النسختين : « آدابه » ، والوجه ما أثبت من ع .
(٤) هذا الصواب من ع . وفى النسختين : « ويسوى » .
(٥) فى النسختين : « فى سنه وتركيبه » ، تحريف .
(٦) فى النسختين : « وتجره » ، صوابه فى ع .
(٧) ع : « يتعالى » .
(٨) الآية ٥٦ من سورة الذاريات .
(٩) فى النسختين : « إنما أثابهم بالتعديل والتسوية للعباد » ، صوابه فى ع .

الأمة . وحكمهم حكمُ المسلمين المتعبِّدين . وإنّما الإمام إمام المسلمين المتعبِّدين ؟

قلنا: إنّما يلزم الناسَ الأمرُ فيما عَرَفُوا سبيله . وليس للعوامّ ــ خاصة ــ معرفةٌ بسبيل إقامة الأئمة(١) فيلزمَها ، أو يجرىَ عليها أمرٌ أو نهى .

والعامّةُ وإن كانت تعرف جُمَل الدين بقدر ما معها من العُقول ، فإنَّه لم يبلغ من قُوَّة عُقولها ، وكثرةِ خَواطرها أن ترتفع إلى معرفة العلماء ولم يَبلُغْ من ضعف عقولها أن تَنحطَّ إلى طبقة المجانينِ والأطفال .

وأقدارُ طبائع العوامِّ والخواصِّ ، ليست مجهولة(٢) فيُحتاجَ(٣) إلى الإخبار عنها بأكثر من التنبيه عليها ؛ لأنّكم تعلمون أنّ طبائِع الرُّسل فوقَ طبائع الخلفاء ، وطبائعَ الخلفاء فوق طبائع الوزراء ، وكذلك النَّاسُ على مَنازلهم من الفَضْل ، وطَبقَاتهم من التركيب ، فى البخل والسَّخاء ، والبلادَة والذكاء ، والغَدْر والوفاء ، والجُبن والنَّجدة ، والصَّبرِ والجزَع ، والطَّيش والحِلم ، والكِبْر والتِّيه ، والحِفْظ والنِّسيان ، والعِيِّ والبيان .

ولو كانت العامّة تعرف من الدِّين والدُّنيا ما تعرف الخاصّة ، كانت العامّة خاصّةً ، وذهب التّفاضُل فى المعرفة ، والتّباين فى البِنْية .

ولو لم يخالف بين طبائِعهم لسقط الامتحان وبطل الاختيار ، ولم يكن فى الأرض اختيار ، وإنّما خولف بينهم فى الغريزة ليَصبِرَ بها صابر(٤) ، ويشكُرُ شاكر ، وليتّفقوا على الطّاعة ، ولذلك كان الاختلاف ، وهو سبب الائتلاف .

(١) ب : « معرفة السبيل إقامة الأئمة » م : « معرفة لسبيل » ، وأثبت ما فى ع .
(٢) فى النسختين : « وليست مجهولة » ، والواو مقحمة .
(٣) ع : « فتحتاج » .
(٤) ع : « ليصبر صابر » .

١٣

من كتابه فى

المسائل والجوابات فى المعرفة

١ — فصل

من صدر كتاب المسائل والجوابات فى المعرفة[١]

بالله نستعين ، وعليه نتوكّل ، وما توفيقنا إلا بالله .

اختلف الناس فى المعرفة اختلافاً شديداً ، وتباينوا فيها تبايناً مُفْرطاً . فزعم قومٌ أنَّ المعارفَ كلَّها فعلُ الفاعلين إلَّا معرفةً [لم[٢]] يتقَدمها سبب منهم[٣] ، ولم يوجبها علَّةٌ[٤] من أفعالهم . ولم يرجعوا إلى معرفة الله ورسوله ، والعلم بشرائعه ، ولا إلى كل مافيه الاختلاف والمنازعة ، وما لا يُعرَف حقائِقهُ إلَّا بالتفكُّر والمناظرة ، دون دَرك الحواسِّ الخمس .

فزعموا أنَّ ذلك أجمَعَ فِعلُهم ، على الأسباب الموجبةِ[٥] ، والعِلَل المتقدِّمة ، وجعلوا مع ذلك سبيلَ المعرفة بصدق الأخبار ، كالعلم بالأمصار القائمة ، والأيَّام الماضية ، كبدرٍ وأُحُد والخندق ، ، وغيرِ ذلك من الوقائع والأيَّام ، وكالعلم بفَرْغَانة[٦] والأندلُس ، والصِّين والحَبَشة ، وغيرِ ذلك من القُرى والأمصار — سبيلَ الاكتساب[٧] والاختيار ؛ إذْ كانوا[٨] هم الذين نَظَروا حتَّى عرفوا فَصْل مابينَ المجىءِ الذى لايكذب مثله ، والمجىءِ الذى يمكن الكِذبُ فى مثله .

---

(١) هذا الكتاب لم ينشر من قبل ، كما سقط من نسخة ط ، فالمقابلة هنا بين نسختى المتحف البريطانى والتيمورية فقط : ب ، م

(٢) تكملة يقتضيها الكلام .

(٣) ب : « سبب منه » .

(٤) ب : « عليه » .

(٥) ب : « المرجية » ، صوابه فى م .

(٦) فرغانة : مدينة وكورة واسعة بما وراء النهر متاخمة لبلاد تركستان ، كما ذكر ياقوت . وهى بفتح الفاء .

(٧) ب ، م : « وسبيل الاكتساب » ، والوجه ما أثبت .

(٨) ب : « إذا كانوا » .

فزعموا أنَّ جميع المعارف سبيلُها سبيلٌ واحد ، ووجوه دلائِلها وعِللها متساوية ، إلَّا ما وَجَدَ الحواسُّ بغتةً ، ووَرَدَ على النُّفوس فى حال عجز أو غَفْلة ، وكان هو القاهر ، للحاسَّة ، والمستولىَ على القُوَّة ، من غير أن يكون من البصر فتحٌ ، ومن السمع إصغاءٌ[١] ومن الأَنف شمٌّ ، ومن الفم ذَوْقٌ ومن البَشَرةِ مسٌّ[٢] ، فإن ذلك الوجود فعلُ الله دونَ الإنسان ، على ما طُبع عليه البشر ، وركِّب عليه الخلق .

قالوا : فإذا كان دَرْك الحواسِّ الخَمْسِ إذا تقدَّمته الأَسبابُ ، وأَوجَبَتْه العلل فِعْلَ المتقدِّم فيه والمُوجِب له ، ودَرْكُ الحواسِّ أَصلَ المعارف ، وهو المستشهَدُ على الغائب[٣] ، والدليلُ على الخَفِىِّ ، وبقدر صحَّته تصحُّ المعارف ، وبقدرِ فسادِهِ تَفْسُد[٤] ــ فالذى تستخرجه الأَذهانُ منه ، وتستشهده عليه ، كعلم التوحيد ، والتعديل والتجوير[٥] ، وغامِضِ التأْويل ، وكلُّ ماأَظهرته العقولُ بالبحث ، وأَدركته النُّفوس بالفِكرِ من كلِّ علم ، وصِناعةِ الحساب والهندسة ، والصِّياغة[٦] والفِلاحة ــ أَجدَرُ أَن يكونَ فِعلَه والمنسوبَ إلى كَسْبه .

قالوا : فالدَّليل على دَرْك الحواسِّ فعلُ الإنسانِ على ما وصفنا واشترطنا[٧] ، من إيجاب الأَسباب ، وتقدُّم العلل : أَنَّ الفاتحَ بَصَره لو لم يَفْتَح لم يُدرِك . فلمَّا كان البصر قد يوجد مع عدم الإدراك ، ولا يُعدَم الإدراك مع

(١) ب : « الصفا » م : « صفاء » ، صوابهما ما أثبت .
(٢) البشرة : ظاهر الجلد ، وجمعه بشر . و فى ب : « ومن البشر » .
(٣) ب : « وهو المتشهد على الغائب » ، صوابه فى ع .
(٤) فى النسختين : « وبعد صحته » وكذلك : « وبعد فساده » ، والوجه ما أثبت مما هو لغة الجاحظ .
(٥) فى النسختين : « والتحوير » ، والوجه أثبت . وانظر ما سبق فى ص ٣٣ ، ٤٠ .
(٦) ب : « والصباغة » بالباء الموحدة .
(٧) ب : « واشترطا » ، صوابه فى م .

وجود الفَتْح ، كان ذلك دليلاً على أنَّ الإدراك إنَّما كان لعلَّة الفتح ، ولم يكن لعلَّة البَصر ؛ لأنَّه لو كان لِعلَّةِ صحَّةِ البصر كانت الصحَّة لا تُوجَد أبداً إلَّا والإدراك موجودٌ[(١)] . فإذا كانت الصِّحَّة قد تُوجد مع عدم الإدراك ، ولا يُعْدَم الإدراك[(٢)] مع وجود الفتح ، كان ذلك شاهدًا على أنَّه إنَّما كان لعلَّة الفتح دونَ صِحَّة البصر .

وقالوا : ولأنَّ طبيعةَ البصر قد كانت غير عاملة حتَّى جعلها الفاتح بالفتح عاملة ، ولأنَّ الفتح علَّةُ الإدراك ومقدِّمة بين يديه ، وتوطِئَةٌ له . وليس الإدراك علَّةً للفتح ولا مقدِّمة بين يديه ، ولا توطئةً له ، فواجبٌ أن يكون فعلَ الفاتح ، لأنَّ السبب إذا كان مُوجِباً فالمسبَّب تبعٌ له .

٢ — فصل منه

ثم قالوا بعدَ الفراغِ من دَرْك الحواس فى معرفة الله ورسولِه وكلٌّ ما فيه الاختلافُ والتنازعُ ، أنَّ ذلك أجمَعَ لا يخلو من أحد أمرين :

إمَّا أن يكونَ يحدُثُ من الإنسان لعلَّةِ النظر المتقدِّم ، أو يكونَ يحدثُ على الابتداءِ ، لا عن علَّةٍ موجبةٍ وسببٍ متقدِّم .

فإن كانوا أحدثوه على الابتداءِ ، فلا فِعَل[(٣)] أولى بالاختيار ، ولا أبعَدَ من الاضطرار منه .

وإن كان إنَّما كان لعلَّة النَّظرِ المتقدِّم ، كما قد دلَّلْنا فى صدر الكلام على أنَّ درك الحواس فعلُ الإنسان إذا تقدَّم فى سببه ، فالعلمُ

(١) فى النسختين : « موجوداً » ، صوابه ما أثبت .
(٢) ب : « ولا يعجم الإدراك » ، صوابه فى م .
(٣) فى النسختين : « ولا فعل » ، وإنما هو جوابه ماتقدم .

بالله وكتبه ورسله أجدرُ أن يكون فعلَهُ . إذ كانَ[١] من أجل نَظَرِهِ علم ، ومِنْ جهةِ بحثه أدرَك .

فهذه جملُ دلائِلِ هؤلاءِ القوم . ورئيسُهم بِشْرُ بن المُعتَمِرِ .

ثم هم بعد ذلك مختلفون فى دَرْكِ الحواس إلَّا ما اعْتَمَدَ إدراكَه بعينه وقَصَد إليه بالفتح والإرادة ؛ لأنَّ الفتحَ نفسَه لو لم يكن معه قصدٌ وإرادةٌ ما كان فعلَ الفاتح . فكيف يجوز أن يكون الإدراكُ فِعلَه من غير قصد .

ولو جاز أن يكون الفتحُ فِعلَ الإنسان من غير أن يكون أرادَهُ وقصَدَ إليه ، ما كان بين فِعلِ الإنسان وبين فعلِ غيره فرق ؛ لأنَّه كان لا يجوز أن يكون ذَهابُ الحجَر إذا لم يدفَعْه ، ولم يقصِدْ إليه ، ولم يَخْطُر له على بالٍ ، فِعلَه . فكذلك الإدراك إذا لم يَخْطُر على باله ، ولم يقصِدْ إليه ، ولم يتعمَّده ، لا يكون فعلَه .

٣ – فصل منه

وليس على المخبر بقصَّةِ خَصْمه[٢] والواصف لمذهب غيره[٣] ، أن يجعل باطلهم حَقًّا ، وفاسدَهم صحيحاً ، ولكن عليه أن يقول بقَدْر ما تحتمله النِّحلة ، وتتَّسع له المقالة ، وعليه أن لا يحكىَ عن خصمه ويُخبرَ عن مخالِفِهِ إلَّا وأدنى مَنازِله أَلَّا يَعجِزَ عمَّا بلغوه ، ولا يَغْبَى[٤] عمَّا أدركوه .

---

(١) فى النسختين : « أو كان » ، والوجه ما أثبت .

(٢) فى النسختين : «والخبر نفسه خصمه» ، تحريف . وسيأتى فى آخر الفصل : « ألا يحكى عن عن خصمه » . فهذا أقرب تصحيح .

(٣) ب : « مذهب غيره » .

(٤) ب : « يعيا » م : « يعيأ » ، والوجه ما أثبت .

٤ — فصل منه

وقد زعَم آخَرون أنَّ المَعَارفَ ثمانية أَجناس : واحدٌ منها اختيارٌ، وسبعةٌ منها اضطرار . فخمسة منها دَرْك الحواسِّ الخمس ، ثم المعرفةُ بصِدق الأَخبار ، كالعلم بالقُرَى والأَمصار ، والسِّيَر والآثار ، ثم معرفةُ الإِنسان إذا خاطبَ صاحبَه أنَّه موجِّهٌ[(١)] بكلامه إليه ، وقاصدٌ به نحوه.

وأمَّا الاختيار فكالعلم باللهورُسلِه، وتأْويلِ كتابه،والمُستنبَطِ من علم الفُتيا وأَحكامِه ، وكلِّ ما كان فيه الاختلاف والمنازعة[(٢)] . وكان سبيلُ علمه النَّظرَ والفِكرة . ورئيس هؤلاءِ أبو إسحاق .

وزعم مُعمَّر[(٣)] أنَّ العلم عشرةُ أَجناس: خمسة منها دَرْك الحواسّ، والعِلم السادس كالسِّير الماضية والبُلدان القائمة ، والسَّابع : علمُك بقصْد المخاطِب إليك وإرادتِه إيَّاك ، عند المحاوَرَة والمُنازعَة . وقبل ذلك : وجُود الإِنسانِ لنفسهِ، وكان يجعلُه أوَّلَ العلوم ، ويقدِّمُه على دَرْك الحواس. وكان يقول : ينبغى أَن يقدَّم وُجُودُ الإِنسانِ لنفسِه على وُجوده لغيره . وكان يجعله علماً خارجاً مِن دَرْك الحواسّ ؛ لأَنَّ الإنسان لو كان أَصمَّ[(٤)] لأَحسَّ نفسَه ولم يحسَّ [صوته ، ولو كان أَخْشَمَ[(٥)] لأَحَسَّ نفسَه ولم يُحسَّ[(٦)]]رائحتَه. وكذلك سبيل المذاقات والمَلَامس . فلما كان المعنى

---

(١) ب : « أن موجبه » ، م : « أنه موجبة » ، صوابهما ما أثبت .
(٢) فى النسختين : « اختلاف والمنازعة » ، والوجه ما أثبت .
(٣) معمر بن عباد السلمى ، بتشديد الميم ، كما سبق فى ترجمته ٣ : ٢٨٧ .
(٤) فى النسختين : « لوكان عمى » ، والوجه ما أثبت .
(٥) الأخشم من الخشم ، بالتحريك ، وهو ألا يجد ريح طيب ولا نتن .
(٦) التكملة من م فقط .

كذلك وجب أن يُفرَد من دَرْك الحواسِّ، ويُجعَلَ عِلماً ثامناً على حِيَالِه[١] وقائماً بنفسه[٢] .

ثم جعل العلم التاسعَ : علمَ الإنسان بأنَّه[٣] لا يخلو من أن يكون قديماً أو جديثاً .

وجعل العلم العاشرَ : علمَه بأنَّه مُحْدَثٌ وليس بقديم .

٥ ـ فصل منه

ولست آلُو جُهدًا فى الكلام والإيجاز[٤] فى الإدخال على بِشر بن المعتمر فى دَرَك الحواسِّ ، ثم على أبى إسحاقَ[٥] فى ذلك ، وفى غيره ممَّا ذكرتُ من مذاهبه ، وتركهِ قياسَ مابَنَى عليه إن شاء الله ، لنصير إلى الكلام فى المعرفة ، فإنِّى إليه أجريتُ ، وإيَّاه اعتقدت ، ولكنِّى أحببت أنْ أُبْدِىَ فسادَ أصولهم[٦] قبل فروعهم ، فإنَّ ذلك أقتلُ للدَّاءِ[٧] وأبلغ فى الشِّفاءِ ، وأحْسَمَ للعِرْق ، وأقطَعَ للمادَّة ، وأخفُّ فى المؤونة على من قرأ الكتاب ، وتدبَّر المسألة والجواب . وبالله ذى المَنِّ والطُّول نستعين .

---

(١) على حياله ، أى وحده . وأصل الحيال خيط يشد من حزام البعير المقدم إلى حزامه المؤخر . وفى النسختين : « خياله » ، تحريف .

(٢) ب : « وقائلا بنفسه » ، صوابه فى م .

(٣) فى النسختين : « فإنه » ، تحريف ما أثبت .

(٤) فى النسختين : « ولست الواجد ذا الكلام والإيجاز » .

(٥) أبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام ، شيخ الجاحظ .

(٦) ب : « أن ابرى إفساد صولهم » م : « أن أبرأ فسادَ أصولهم » ، والوجه ما أثبت .

(٧) فى النسختين : « أقبل للداء » ، تحريف .

٦ - فصـــل

من رده على أبي إسحاق النظام وأصحابه

يقال لهم : حدِّثونا عن العلم بالله ورسولِه وتأويلِ كتبه ، وعن علم القَدَر وعلم المشيئة ، والأسماء والأحكام . أباكتِسَابٍ هو أم باضطرار ؟

فإن زعموا أنَّه باكتسابٍ قيل لهم : فَخبِّرونا عن علمكم بأَنَّ ذلك أجمع اكتساب ، أباكتسابٍ هو أم باضطرار ؟ فإن قالوا : باكتساب . قيل لهم : أو ليس اعتقادُ خلافِ ذلكِ أجمعَ باكتساب ؟

فإن قالوا : نعم . قيل لهم : فإذا كان اعتقادُ الحقِّ واعتقادُ الباطلِ باكتسابٍ أفليس كلُّ واحد من المكتسبين عند نفسه على الصَّواب ؟

فإذا قالوا : نعم . قيل لهم : [أوَ ليسَ كلُّ واحدٍ منهما ساكنَ القلبِ إلى مذهبِهِ وَاختيارِه ؟

فإذا قالوا نعم قيلَ لهم[1]] : فما يؤمن المحقَّ من الخطَإ ؟ وليس سكونُ القلب وثقَتُه علامةً للحقّ ، لأنَّ ذلك لو كان علامةً لكان المبطلُ محقًّا ، إذْ كان[2] قد يجدُ من السُّكون والثِّقة ما لايجدُ المحقّ .

وقلنا[3] : وما معنى خلافِهِ إلَّا أنْ يكون المبطل شاكًّا ، أو يكونَ عارفاً بتقصيره ، أو يكونَ مكترثاً لوهْنٍ يجده . فإذا لم يكنْ كذلك فلا فرق بين المعقودين .

---

(١) التكملة من م .

(٢) ب : « إذا كان فيه » ، تحريف .

(٣) « وقلنا » استمرار الكلام السابق . وفي النسختين « قلنا » بدون واو .

فإن قالوا : إنَّ فرق مابينهما أَنَّ سُكُونَ[١] قلبِ المحقّ حقٌّ فى عينه ، وسكونَ قلب المبطل باطلٌ فى عينه .

قلنا : أَوَ ليس ذلك غيرَ محوِّل لسكون المبطل عن الثِّقة إلى الاضطراب ولا مغيِّرِهِ إلى الاكتراث ؟

فإذا قالوا ذلك ، قيل لهم : فما يُؤمن المحقَّ أن يكون سكونُه أيضاً باطلاً فى عينه إذا كان سكونُه لا ينقص[٢] عَنْ سكون المُبْطِل . ولئن كان [فرق[٣]] السُّكون بينهما ظاهرَ الاجتهاد والعبادَة[٤] ، فمن أَظْهَرُ اجتهاداً من الرُّهبان فى الصَّوامع ، والخوارج فى بَذْل النفوس ؟

فإن قالوا : الفَرق بينهما أَنَّ المحقَّ قد استشهد الضرورات ، والمبطل لم يستشهدها[٥] .

قلنا : فهل يجوز أن يكون عند نفسه قد استشهد الضَّرورات[٦] . حتَّى لو سأله سائلٌ فقال : ما يُؤْمنك من الخطأ ؟ لقال : استشهادى للضَّرورات .

فإن زَعَموا أَنَّ المبطل لا يجوز أن يكون عند نفسه قد استشهَدَ الضروراتِ ، لأَنَّ ذلك هو علامةُ الحقّ ، والفَصْلُ بينه وبين الباطل .

قلنا : وهل رأيتم أحداً اكتسَبَ علماً قطُّ ، أَو نَظَرَ فى شَىْءٍ[٧] إلاَّ وأَوَّلُ نظرِهِ إنَّما هو على أَصل الاضطرار ؛ لأَنَّ المفكِّر لا يبلُغُ من جهله

---

(١) فى النسختين : « أن سيكون » صوابه ما أثبت .
(٢) ب : « لاينفصل عن » ، م : « لاينفصل من » ، والوجه ما أثبت .
(٣) بمثلها يلتئم الكلام .
(٤) فى النسختين : « والعبارة » ، تحريف .
(٥) ب : « لم يستشهدها » تحريف . والكلام بعده إلى : « الضرورات » التالية ساقط من ب .
(٦) بعده فى ب فقط : « أو لم يستشهدها » وهو تكرار لما سبق .
(٧) ب : « ونظر فى بشىء » ، صوابه فى م .

أن يستشهد الخفيَّ ، بل من شأنِ النَّاسِ أن يستدلُّوا بالظَّاهر على الباطن إذا أرادُوا النَّظرَ والقياس ؛ ثم هم بعد ذلك يخطئون أو يصيبون .

وقلنا[(١)] : فينبغى أن يكون كلُّ مبطلٍ فى الأَرض قد علِمَ حين يقال له : ما يُؤمنك أن تكون مبطلا ؟ أنَّه لم يستشهد الضَّرورات . وأنكر أصله الذى قاسَ عليه واستنبط منه ضرورةً ، وأنَّه إنَّما قال بالعسف أو بالتقليد . وإذا كانوا كذلك فهل يخلو أمرهم من أنْ يكونوا قد علموا أنَّهم على خطَاءٍ[(٢)] أو يكونوا شُكَّاكاً ، أو يكونوا عند أنفسهم مستشهدين للضَّرورات ، وإنْ كانوا قد تركوا ذلك عند بعضِ المقدَّمات . فإن كانوا قد علموا أنَّهم لم يَستشهدوا الضَّروريَّات ، وإن كانوا شُكَّاكاً فيها ؛ فليس على ظهر الأَرض مخطئٌ إلاَّ وهو عالمٌ بموضع خَطَائِه ، أو شاكٌّ فيه . أو كانوا عند أنفسهم مستشهدين للضرورات ، فما يؤمنكم أن تكونوا كذلك ؟

فإن قالوا : ليس أحدٌ يعرف أنَّ علامة الحقِّ استشهادُ الضروراتِ غيْرَنا .

قلنا : أَولستم[(٣)] معشرَ أبيإسحاقَ النظام تختلفون[(٤)] فى أمور كثيرة ، وقد كنتم تخالفون صاحبكم خلافاً كثيراً ، وكلُّكم إذا سأَله سائل: ما يُؤْمنك أن تكونَ على باطل[(٥)] ؟ قال : لأَنِّى مستشهِدٌ للضَّرورات . فهل

---

(١) استمرار الكلام السابق . وفى النسختين : « قلنا » بدون واو .
(٢) الخطاء ، كسحاب : الخطأ ، وهى كثيرة فى لغة الجاحظ . ب : « خطأ » .
(٣) فى النسختين : « ولستم » ، وإنما هو استفهام .
(٤) ب : « يختلفون » ، صوابه فى م .
(٥) فى النسختين : « إذا سأله سائل يؤمنك أن يكون على باطل » . والوجه ما أثبت .

يخلو أمرُكم من أحد وجهين : إمَّا أن تكونوا صادقين على أنفسكم ، أو كاذبين عليها ؟

فإن كنتم صادقين فقد صار قلبُ المحقِّ كقلب المُبْطل ؛ إذْ كان كلٌّ واحد عندَ نفسه مستشهدًا للضَّرورات .

وإن كنتم كاذبين فهل منكم محقٌّ إلَّا وهو يَلقَى الخَصمَ بمثل دعواه في استشهاد الضرورات ؟ وهل منكم واحدٌ على حيَالِه[1] محقًّا أو مبطلا إلَّا وجوابُه لنا مثلُ جوابِ صاحبه . فإذا كانت[2] القلوب قد تكون عند أنفسها مستشهدةً للضَّروراتِ ، وهي غيرُ مستشهدة لها ، وكونُ القلب كذلك هو علامة الحقِّ ، فما الفرق بين قلب المحقِّ والمبطل[3] ؟ ومع ذلك إنَّا وجدنا صاحبَكم قبلكم وَوجدناكم بعدَه قد رجعتم عن أقاويلَ كثيرة ، بعد أن كان جوابُكم لمن سألكم مَايُؤْمِنكم أن تكونوا على باطل ، أن تقولوا[4] : استشهادُنا للضرورات[5] . ونحن لو سألناكم عمَّا رجعتم عنه ، فقلنا لكم : لعلَّكم على خطأٍ ، ولعلَّكم مِن هذه الأَقاويلِ على غَرَر ، لم يَعْدُ جوابُكم استشهادَ الضرورات .

---

(١) ب : « حباله » بالموحدة ، صوابه في م . وانظر ماسبق في ٥٢ س ١ .
(٢) ب : « إذا كانت » ، وأثبت ما في م .
(٣) ب : « القلب المحق والمبطل » .
(٤) ب : « أن يقولوا » تحريف .
(٥) ب : « استشهدنا للضرورات » ، صوابه في م .

٧ – فصـــل

من هذا الكتاب فى الجوابات

ثمَّ إنِّى واصلٌ(١) قولِى فى المعرفة ومجيبٌ خَصْمى فى معنى الاستطاعة وفى أىِّ أَوْجُهِها(٢) يَحْسُنُ التكليف وتَثبت الحجّة ؛ ومع أيِّها يسمُج التكليف(٣) وتسقط الحجّة .

فأوّلِ ما أقول فى ذلك : أنَّ الله – جل ذكره – لا يكلِّف أحداً فعلَ شىءٍ ولا تَرْكَه إلَّا وهو مقطوعُ العُذْر ، زائل الحُجّة .

ولن(٤) يكون العبد كذلك إلَّا وهو صحيحُ البِنْية ، معتدلُ المِزاج ، وافِر الأَسباب ، مُخَلَّى السِّرب ، عالمٌ بكيفيَّة الفعل ، حاضرُ النَّوازع ، معدَّل الخواطر ، عارفٌ بما عليه وله .

ولن يكون العبدُ مستطيعاً فى الحقيقة دونَ هذه الخصال المعدودة ، والحالاتِ المعروفة ، التى عليها مجارِى الأَفعال ،ومن أجلها يكون الاختيار ولها يحسُن التَّكليف ، ويجب الفَرض(٥) ، ويجوز العقاب ، ويَحسُنُ الثواب .

ولو كان الإنسان متى كان صحيحاً كان مستطيعاً ، لكان(٦) من لا سُلَّمَ له للصُّعود مستطيعًا .

---

(١) فى النسختين : « واصف » ، والوجه ما أثبت .
(٢) فى النسختين : « وجهها » ، صوابه ما أثبت .
(٣) فى النسختين : « ومع أنها يسمح التكليف » والوجه ما أثبت .
(٤) فى النسختين : « وإن » ، تحريف .
(٥) ب : « ويحب » ، صوابه فى م .
(٦) فى النسختين : « لكن » ، صوابه ما أثبت .

ولن يكون أيضاً مع ذلك كلّه للفعل مختاراً ، وله فى الحقيقة دون المجاز مستطيعاً ، إلّا وجميع أوامرِهِ فى وزن جميع زواجرِه ، حتّى إذا ما قابلت بين مَرجُوِّهما ومَخُوفهما ، وبين تقديم اللّذّة وخوف الآخرة ، وبين تعجيل المكروه وتأميل العاقبة ؛ وجدتهما فى الحذْر[1] والرَّفع ، وفى القَبْض والبسط سواءً .

ولا يكون أيضاً كذلك إلّا وبقاؤُه فى الحال الثانية معلوم ، لأنّ الفعلَ حارسٌ والطِّباع محروسة ، والنَّفْس عليها مُوقَفة . فإن كان الحارس أقوى من طباعها كان ميلُ النفس معه طِباعاً ؛ لأنّ مِن شأْن النَّفس الميلَ إلى أقوى الحارسين ، وأَمْتَنِ السَّببين[2] .

ومتى كانت القُوَّتان متكافئتين كان الفعلُ اختياريًّا ، ومن حَدِّ الغلبة خارجًا[3] ، وإن كانت الغَلَبة تختلف فى اللِّين والشِّدَّة ، وبعضُها أخفى وبعضُها أظهر ، كفِرار الإنسان من وَهج السَّموم إذا لم يَحضُره دَواعِى الصَّبرِ ، وأسبابُ المُكْث . وهو من لَهَب الحريق أشدُّ نُفْرَةً ، وأَبعدُ وثبةً ، وأسرع حركة .

ومتى قويت الطَّبيعةُ على العقل أوهنَتْه وغيَّرتْه ، ومتى تَوهَّنَ وتغيَّر تغيَّرت[4] المعانى فى وهمه[5] ، وتمثَّلتْ له على غير حقيقتها . ومتى كان

---

(١) الحذر : نقيض الرفع . وفى النسختين : « الحذر » ، ووجهه ما أثبت . وفى م قبلها : « وجدتها » ، صوابه فى ب .

(٢) ب : « أقوى الحارس وأمتن التبيين » ، م : « أقوى الحارس وأمتن السببين » ، والوجه ما أثبت .

(٣) ب : « ومن وجد الغلب خارجاً » م : « ومن جد الغلبة خارجاً » و « الغلب » و « الغلبة » بمعنى واحد . وفى الكتاب العزيز : « وهم من بعد غلبهم سيغلبون » .وصواب ما قبلها « ومن حد » بالحاء المهملة كما أثبت .

(٤) فى النسختين : « وتوهنت » ، وإنما هى جواب « متى » .

(٥) الوهم : خطرات القلب والعقل والفكر . ب : « وهنه » صوابه فى م .

كذلك كلّ[١] عن إدراك ما عليه فى العاقبة ، وزَيَّنت له الشَّهواتُ رُكوبَ مافى العاجلة .

ومتى – أيضاً – فَضَلت قُوَى عقلِه على قُوى طبائِعه أوهنت طبائعَه ، ومتَى كانت كذلك آثر الحزْمَ والآجلة[٢] على اللَّذة العاجلة ، طبعاً لايمتنع منه ، وواجباً[٣] لا يستطيع غيره .

وإنَّما تكون النَّفسُ مختارةً فى الحقيقة . ومجانِبةً لفعل الطَّبيعة إذا كانت أخلاطُها معتدلةً ، وأسبابُها متساوية ، وعللُها متكافئةً ، فإذا عدَّل اللهُ تركيبَه وسوَّى أسبابه ، وعرَّفه ما عليه وله ، كان الإنسان للعقل مستطيعاً فى الحقيقة ، وكان التكليفُ لازماً له بالحُجَّة .

ولولا أنَّك تحتاج إلى التَّعريف بأنَّ المأمور المنهىَّ[٤] لابدَّ له من التسوية والتَّعديل لما قال الله تعالى : ﴿ وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا . وَنَفسٍ وَما سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وتَقْوَاهَا[٥] ﴾.

ولو جاز أن يعلم موضعَ غَيِّها ورُشْدها من غير أن يسوِّيَها ويهيِّئها[٦] لكان ذكر التَّسوية فضلًا من القول . والله يتعالى[٧] عن هذا وشبهه علوًّا كبيراً .

---

(١) كل كلالا : ضعف وأعيا . وفى ب : « ومتى كان كذلك كان » وفى م : « ومتى كان كذلك » فقط . ووجههما ما أثبت .

(٢) الآجلة : الآخرة ، والمراد لذائذ الآخرة .

(٣) ب : « وواجب » ، صوابه فى م .

(٤) ب : « المأمور والمنهى » . والمراد أن الإنسان مأمور منهى معاً ، لا واحد منهما .

(٥) الآيات ٦–٨ من سورة الشمس .

(٦) ب : « ويهينها » ، صوابه فى م .

(٧) م : « تعالى » . وانظر ماسبق فى ٢٤ : ٥ و ٤٢ : ٤ .

٨ – فصــــل

فى جواب من يسأل عن المعرفة باضطرار هى أم باكتساب

قلنا : إنَّ الناس لم يعرفوا الله إلَّا مِن قِبَلِ الرُّسُل ، ولم يعرفوه من قِبَل الحركة والسُّكون ، والاجتماع والافتراق ، والزِّيادة والنُّقصان .

على أنَّا لا نشكُّ أنَّ رجالاً من الموحِّدين قد عرفوا وجوهاً من الدَّلالة على الله بعد أن عَرَفوه من قِبَل الرُّسُل ، فتكلَّفوا من ذلك مالا يجبُ عليهم ، وأصابوا من غامضِ العلم مالا يَقدِر عليه عوامُّهم ، من غير أن يكونُوا تكلَّفوا ذلك لشكٍّ وجَدُوه ، أو حَيرةٍ خافوها ؛ لأَنَّ أعلام الرُّسل مُقْنِعة ، ودلائِلهَا واضحة ، وشواهِدَها متجلِّية ، وسلطانَها قاهر ، وبُرهانَها ظاهر .

فإن قال : أباكتسابٍ علموا[1] صِدقَ الرُّسُلِ أم باضطرار ؟

قلنا : باضطرار .

فإن قالوا : فخبِّرونا عن مَن عايَنَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وحُجَّتَهُ ، والمتنبِّيَ وحيلتَه ، كيف يَعلم[2] صِدقَ النبيِّ من كذب المتنبِّي ، وهو لم ينظرْ ولم يفكِّر ؟

فإن قلتم : إنَّه نَظَرَ ، وفكَّر ، فقد رَجعتُم إلى الاكتساب .

وإن قلتم : إنَّه لم ينظُر ولم يفكِّر فلمَ عرَفَ الفَصْل بينهما دون أن يجهلَه ؟ وكيف علم ذلك وهو لا يعرف الحُجَّة من الحِيلة ؟ ومايُؤْمِنه

---

(١) ب : « عملوا » ، صوابه فى م .

(٢) فى النسختين : « نعلم » بالنون .

أن يكون مبطلاً إذا كان لم ينظُرْ فى أُمور الدُّنيا ، ولم يختبر مَعانِيَها حتَّى يعرفَ الممتنعَ من الممكن ، وما لا يزال يكون بالاتِّفاق مما لايمكن ذلك فيه ؟

وكيفَ ولم يعرف العادةَ ومَجرى الطبيعة وإلى أَين تبلغُ الحيلة وأَين تعجِزُ الحيلة(١) ، وعند أَىٍّ ضربٍ يسقطان ، وعلى أَىٍّ ضرب يقومان ؟ ولِمَ عرَفَ صِدقَ النبى صلى الله عليه وسلم حين عاينَ شاهِدَه وأَبصَر أَعاجيبَهُ ، من غير امتحانٍ لها(٢) وتعقُّبٍ لمعانيها ، دُونَ أن يعتقِدَ(٣) صدقَ المتنبىِّ إذَا أُورِدَ عليه أَعاجيبُه وخُدَعه وحِيَله ؟

بل كيف لم يعرف الله حين وقع بصرُه على الدُّنيا من غير فكرة فيها وتقليب لأَمرها .

والدُّنيا بأَسرها دلالةٌ عمَّا عرف صدقَ النبىِّ حين أَبصر دلالتَه من غير تفكير فيها أَو تقليب لأَمرها(٤) .

وقد علمنا أَنَّ الدُّنيا دالَّةٌ على أَنَّ شواهد النبى دالَّة ، ومتى كان ظاهر أَحدِهما يُغنى عن التفكير كان الآخر مثلَه ، إذْ لم يكن فى القياس بينهما فرق ، ولا فى المعقول فضل .

قلنا : إنَّ تجاربَ البالغ قبل أَن يهجُمَ على دلالات الرُّسُل تَأْتى على جميع ذلك(٥) . ولعمرى أَنْ لو كان هجومُه عليها قَبْلَ المعرفةِ بمجارى وتصريف الدُّهور وعلاقاتِ الدنيا ، والتَّجربة لتصريف أُمورها ، لَمَا

(١) ب : « الحيلولة » ، صوابها فى م .

(٢) ب : « من غير أى امتحان لها » . (٣) ب : « يعقد » .

(٤) ب : « وتقلب لأمرها » ، صوابه فى م . والكلام بعده إلى « لأمرها » التالية ساقطة من م .

(٥) فى النسختين : « يأتى على جميع ذلك » ، والوجه ما أثبت .

وصل إلى معرفةِ صدق النبيِّ إلّا بعدَ مقدَّمات كثيرة ، وترتيبات منزَّلة ؛ لأَنَّ مُشاهدَ الشَّواهد إنما تَضطرُّه المشاهدةُ لها إذا كان قد جرَّب الدنيا ، وعَرَف تصرُّفها وعادَتَها قبل ذلك .

ولو لم يكن جَرَّبها قَبْلَ ذلك حين عرف منتهى قُوَّةِ بطشِ الإنسان وحيلتِه ، وعرفَ الممكنَ من الممتنع ، وما يمكن قولُه بالاتِّفاق مما لا يمكن ، لما عَرَفَ ذلك .

فإنْ قالوا : وكيف جَرَّب ذلك وعَقَله ، وأَتقنَهُ وحَفِظه ، وهو طفلٌ غَريرٌ وَحَدَثٌ صغير ؛ لأَنَّ غير البالغ طِفلٌ إلى أَن يبلغ ، وحين يبلغُ فقد هجم على النبيِّ صلى الله عليه وسلم وشواهده ، أَو هجم عليه النبيُّ بشواهده ، إمَّا بخبرٍ مُقْنع أَو بعيانٍ شاف . فى أَيَّة الحالين جَرَّب وعَرَف ، ومَيَّز وحفِظ ، فى حال الطُّفولة والغَرارة ؟ وهذا غير معروف فى التَّجربة والعادة ، والذى عليه رُكِّبت الطَّبيعة .

أَمَّا[1] فى حال البلوغ والتَّمام فحالُ البلوغ[2] هى الحال الّتى أَبلغه الله الرسالة ، وقاده إلى رؤية الحُجّة ، واستماعِ البرهان ومَخْرج الرِّسالة .

فإذَا كان الأَمر ، كما تقولون فقد كان ينبغى أَن لايصلَ إلى العلم بصدق النبيِّ وقد أَراهُ برهانَه ، وأَسمَعَه حُججَه ، حتَّى يمكث بعد ذلك دهراً يمتحن الدُّنيا ويتعقَّب أُمورها ، ويُعمِلَ التَّجربة فيها . فإن كان ذلك كذلك فلم سمَّيتموه بالغاً ، وليس فى طاقته بعدُ العلمُ يفَصْلِ مابين النبيِّ والمتنبِّى ؟

---

(١) فى النسختين : « أم » ، والوجه ما أثبت .

(٢) فى النسختين : « وحال البلوغ » صوابه ما أثبت .

قلنا : إنَّ التَّجربة على ضربين : أحدهما : أنْ يقصد الرجل إلى امتحان شيء ليعرف مَخْبَره عمَّا عَرَف منظره .

والآخَر : أن يهجُمَ على علمِ ذلك من غير قصدٍ .

وقد يسمَّى الإنسان مجرِّبًا، قاصداً أو هاجماً، فيزعم أنَّ البالغ قد سقَطَ من بطن أمِّه إلى أن يبلغ، مُقَلَّبًا فى الأُمور المختلفة[١] ، ومُصرَّفًا فى خلال الحالات، بالمعرفة[٢] التى تُلْقحه الدُّنيا، بما تُوردُ عليه من عجائبها، ويزدادُ فى كلِّ ساعةٍ معرفةً ، وتفيده الأيَّام فى كلِّ يومٍ تجربة ، كما يزداد لسانُه قُوَّةً ، وعَظْمُه صلابة ، ولحمُه شِدَّةً ، مِن أُمٍّ تُناغيه ، وظِئْرٍ تلهِّيه ، وطفل يلاعبُه ، وطبيبٍ يعالجه ، ونَفْسٍ تدعوه ، وطبيعةٍ تُعِينه ، وشَهوةٍ تبعثُه ، ووجعٍ يُقْلِقُه ، كما يزيده الزَّمانُ فى قُوَّته ، ويشدُّ من عظمه ولحمه ، ويزيدُه الغِذاءُ عِظَما ، وكثرةُ الغضب والتقليب جَلَدا . فإذا دَرَجَ وحبا ، وضحك وبكى ، وأمكنه أن يكسِر إناءً أو يُكفِئَهُ ، أو يسوِّدَ ثوبًا ، أو يضرب دابرة الخادم[٣] ، وانتهَرَه القَيِّم[٤] . فلا يزال ذلك دأبَه ودأبَهُم حتَّى يفهمَ الإغراء والزَّجر ، والتَّغذيَة والانتهار ، كما يعرِفُ الكلب اسمَه إذا ألحَّ عليه الكَلَّابُ به. وكما يَعرِف المجنون لقبَه ، وكما يُحضِرُ الفرَسُ من وَقْع السَّوط من كثرة وَقْعه بعد رفْعه عليه[٥] .

---

(١) فى النسختين : « المختلة » ، تحريف ، وفى م : « مقلب » .
(٢) فى النسختين : « المعرفة » .
(٣) كلمة « الخادم » ساقطة من م . وفى النسختين : « دبره » .
(٤) القيم : من يقوم على تربيته . والانتهار : شدة الزجر . وفى م : « وأن تهزه » تحريف .
(٥) انظر الحيوان ٧ : ٨٧ .

٩ ــ فصـــل منه فى هذا المعنى

فإذا استحكمت هذه الأُمورُ فى قلبه ، وثبتت فى خَلَده[١] وصحَّتْ فى معرفته ، فهو حينئذٍ بالغٌ محتمل . وعند ذلك يسخِّر الله سَمْعَه للخبَر المثْلِج ، أو بَصَره لمعاينة الشاهد المُقْنع ، على يدَىِ الرسول الصادق ، ولا يَترُكُه هَمَلا ، ولا يَدعُه غُفْلا[٢] ، وقد عَدَّل طبعَه وأحكم صُنْعَه ، ووفَّر أسبابَه ، فلا يحتاجُ عند معاينته رسولًا يُحيِى الموتى ، ويُبرئُ الأَكمَه والأَبرص ، ويَفْلِقُ البحر ، إلى تفكير ، ولا تمييل[٣] ولا امتحانٍ ولا تجربة ، لأنَّه قد فرغ من ذلك أجمع ، واستحكم عنده العلمُ الذى أُدِّب به ، وهُيِّئ له وأُورِدَ عليه .

فإن كان لم يكن لذلك عامدًا ، ولا إليه قاصداً ولا به مَعْنِيًّا[٤] ، وإنَّما هو عبدٌ عَبَّأَه سيِّده ، ورشَّحه مولاه ، وهيَّأه خالقُه لأَمرٍ لايَشعُر به من مصلحته ، ولا يَخطر على بالِه من الصُّنْع له حين غَذَاه به ، وقاده إليه ، وهَيَّأه له .

فإذا أُورِدَ عليه دعوى رسولٍ[٥] ، وأُمَّتهُ تشهدُ له بإحياء الموتى وفَلْق البحر ، وبكلِّ شىءٍ قد عُرِفَ عَجْزُ البشَر عن فعلِهِ والقُوَّةِ عليه ،علم بتجاربِه المتقدِّمة بِعادة الدنيا ، أنَّ ذلك [ليس[٦]] من صنع البشر ، وأَنَّ مثله

---

(١) الخلد ، بالتحريك : البال ، والقلب ، والنفس ، ب : « وثبت » ، صوابها فى م .
(٢) الغفل ، بالضم : من لا يرجى خيره ولا يخشى شره . وفى النسختين : « مغفلا » ، وما أثبت هو لغة الجاحظ .
(٣) التمييل : أن يتردد بين الأمرين ويوازن بينهما . م : « تمثيل » .
(٤) عنى بالأمر : اهتم به وشغل ، فهو معنى . وفى النسختين : « متيباً » ، صوابه ما أثبت .
(٥) ب : « رسوله » .
(٦) تكلة يفتقر الكلام إليها .

لا يقعُ اتِّفاقًا ، وأنَّ الحِيَلَ لا تَبلُغه ، فلا يمتنع مَعَ رُؤية البُرهان(١) وفَهْمِ الدَّعوى ، أن يعلم أنَّ الرسولَ صادقٌ ، وأنَّ الرادَّ عليه كاذب .

١٠ – فصــــل منه

ولولا أنَّ هذا كلامٌ لم يكن من ذكره بُدٌّ ، لأنَّه تأسيسٌ لما بَعْدَه(٢) ، ومقدِّمةٌ(٣) لما بين يديه ، وتوطِئةٌ له ، لاقتضبت الكلام فى المعرفة اقتضابا ، ولكن يمنعنى عجْزُ أكثرِ النَّاسِ عن فهم غايتى فيه إلا بتنزيلهِ وترتيبه(٤) .

وكلُّ كلامٍ أتيتَ على فَرْعِه ، ولم تُخْبَرْ عن أصله فهو خِداجٌ لاغَنَاء عنده(٥) ، وواهنٌ لا ثباتَ له .

---

(١) فى النسختين : « من روِّية البرهان » . والوجه ما أثبت .

(٢) ب : « بد لأنه لاتأسس لما بعده » م : « بدلالة لا تأسيس لما بعده » والصواب ما استخرجت منهما .

(٣) ب : « ومقدمته » ، صوابه فى م .

(٤) فى النسختين : « إلا تنزيله وترتيبه » ، تحريف .

(٥) الخداج : الناقص . وفى الحديث : « كل صلاة لا يقرأ فيها بفاتحة الكتاب فهى خداج » ، أى ذات خداج ، وهو النقصان . والغناء ، بالفتح : النفع والكفاية . ب : « لاغنى عنده » م : « لاغيا عنده » ، تحريف .

١٤

من رسالة في

المعاد والمعاش

فصـــل

١ – من صدر كتابه فى المعاد والمعاش(١)

أمَّا بعدُ فإنَّ جماعاتٍ أهل الحكمة قالوا :

واجبٌ على كلّ حكيم أن يُحسِنَ الارتيادَ لموضع البُغْية ؛ وأن يتبيَّن أسبابَ الأُمورِ ، ويمهِّدَ لعواقبها .

فإنَّما حُمِدت العلماءُ بحسن التثبُّت فى أوائل الأُمور ، واستشفاقهم(٢) بعقولهم ما تجيء به العواقب(٣) ، فيعلمون عند استقبالها ماتَؤُولُ به الحالاتُ فى استدبارها . وبقدر تفاوتهم فى ذلك تستبين فضائِلهم .

فأمَّا معرفةُ الأُمور عند تكشُّفها ، وما يظهر من خفيَّاتها . فذلك أمرٌ يعتدلُ فيه الفاضل والمفضول ، والعالم والجاهل .

وإنِّى قد عَرَفْتُك – أكرمك الله – فى أيَّام الحَدَاثة ، وحَيْثُ(٤) سلطانُ الهوى المخلِّط للأَعراض أغلبُ على نظرائك ، وسُكرُ الشَّباب

---

(١) هذا الكتاب مما سقط من نسخة ط . وقد سبق نشره كاملا فى الجزء الأول من الرسائل ٨٧ – ١٣٤ . وعنوانه فيما سبق « المعاش والمعاد » . وقد لحظت فى الفصل الثانى من هذه الاختيارات أن الجاحظ قد قدم « المعاد » على « المعاش » كما هنا . والنص فيه : « فرأيت أن أجمع لك كتاباً من الأدب جامعاً لعلم كثير من المعاد والمعاش . وقد وجدت أن أكثر تصويباتى مطابقة لما فى الرسائل .

(٢) ب : « واشتقاقهم » ، صوابه فى م والرسائل .

(٣) فى النسختين : « ماتجيء به العواقب » ، والوجه ما أثبت ، كما فى الرسائل .

(٤) فى النسختين : « وخبث » ؛ صوابه ما أثبت من الرسائل .

والجِدَةَ[١] المتحيِّفَينِ للدِّين والمروءة مستولٍ على لِدَاتك[٢] . ففقتَهم[٣] ببسطةِ المقدرة ، وحُميَّا الحَدَاثة ، وفضلِ الجِدة[٤] ، مع ما[٥] تقدَّمْتَهم به من الوَسامة فى الصورة ، والجمالِ فى الهيئة .

وهذه أسبابٌ تكاد أن توجبَ الانقيادَ للهوى ، وتُلجِّج فى المهالك[٦] ولا يسلم معها إلَّا المنقطع القرينِ فى صحَّة الفِطرة ، وكمال العَقْل . فاستعبدَتْهُم الشَّهواتُ حتَّى أعطَوْها أَزِمَّة أديانهم ، وسلَّطوها على مُروءاتِهم وأَباحُوها أَعراضَهم ، فآلت بأَكثرهم الحالُ إلى ذُلِّ العُدْم ، وفَقْدِ عِزِّ الغنَى فى العاجل ، مع النَّدامة الطويلةِ والحسرةِ فى الآجل .

وخرجتَ نسيجَ وَحْدِك أَوحَدِيًّا[٧] فى نفسك . حكَّمت وَكيلَ اللهِ عندك — وهو عَقْلُك — على هواك ، وأَلقيتَ إليه أَزِمَّة أَمرِك ، فسلَكَ بك طريقَ السلامة ، وأَسلَمَكَ إلى العاقبة المحمودة ، وبلغَ بك من نيل اللَّذَّات أَكثرَ ممَّا بلَغُوا[٨] ، ونالَ بك من الشَّهوات أكثر ممَّا نالوا ، وصَرَّفَك

---

(١) الجدة : الغنى الذى لافقر بعده ، يقال وجد يجد جدة : أيسر واتسعت حاله . يقول أبو العتاهية فى ديوانه ٤٤٨ :

* علمت يامجاشع بن مسعده *
* أن الشباب والفراغ والجده *
* مفسدة للمرء أى مفسده *

وفى النسختين : « الحدة » ، تحريف .

(٢) اللدات : جمع لدة ، وهو الترب المقارب فى العمر والولادة . وفى النسختين : « لذاتك » ، تحريف مافى الرسائل .

(٣) ب « ففقهتهم » ، صوابه فى م .

(٤) فى النسختين : « الحدة » بالمهملة . وانظر ماسبق فى الحواشى .

(٥) ب : « ممن » ، صوابه فى م .

(٦) المعروف لجج تلجيجاً : خاض اللجة . وكذلك لججت السفينة : أى خاضت اللجة . فهو فعل لازم . وقد استعمله الجاحظ هنا متعدياً . وفى الرسائل : « ولجج من المهالك » .

(٧) الأوحدى : نسبة إلى الأوحد ، أى الوحيد . الجوهرى : « يقال لست فى هذا فى هذا الأمر بأوحد ، ولا يقال للأنثى وحداء » . وفى النسختين : « أوحدياً » بالباء الموحدة ، صوابه ما أثبت من الرسائل .

(٨) فى النسختين : « أكثر مايلنوا » ، صوابه فى الرسائل .

من صُنوف النعم فى أكثَرَ ممَّا تصرفوا . وربَط عليكَ من نِعَم الله التى خوَّلك ماأطلقَه من أيديهم إيثارُ اللَّهو[١] . وتسليطُهم الهوَى [على أنفسهم][٢] فخَاضَ بكَ تلك اللُّجَجَ . واستنْقَذَك من تلك المعاطب[٣] ، فأخرجكَ سليمَ الدِّين ، وافر المُروءة ، نقىَّ العِرض ، كثير الثَّراء ، بَيِّنَ الجِدَة[٤] . وذلك سبيلُ مَن كان مَيْلُه إلى الله أكثرَ من مَيْلِهِ إلى هواه .

فلم أزَلْ فى أحوالك كُلِّها تلك بفضيلتك عارفاً ، ولَكَ بنِعَم الله عندك غابطاً ، أرَى ظواهَر أمرِك المحمودَة تدعونى إلى الانقطاع إليك ، وأسأل عن بواطن أحوالك[٥] فيزيدنى رغبة فى الاتِّصال بكَ ، ارتياداً منِّى لموضِع الخِيَرة[٦] فى الأُخُوَّة ، والتماساً لإصَابة الاصطفاء فى المودَّة ، وتخيُّرًا لِمُستودَع الرَّجاء فى النائبة .

فلمَّا مَحَصَتْك الخِبْرة[٧] ، وكشَفَ الابتلاءُ عن المحمدة ، وقضت لك التَّجارب بالتَّقدمة ، وشهدت لك قلوبُ العامَّة بالقَبول والمحبَّة ، وقَطَع اللهُ عُذْرَ من كان يطلب الاتصال بك : طلبتُ الوسيلةَ إليك والاتِّصال بحَبْلك ، ومتَتُّ بحرمة الأدب[٨] وذِمام كرمِك[٩] .

---

(١) فى النسختين : « من إيثار اللهو » ، والوجه ما أثبت من الرسائل .

(٢) التكملة من الرسائل .

(٣) المعاطب : المهالك . م : « المعاطف » ، صوابه من الرسائل .

(٤) ب : « كثير البر من الجدة » م : « كثير أكثر من الجدة » ، صوابهما ما أثبت من الرسائل .

(٥) هذا ما يقابل « ظواهر أمرك » السابقة . وفى النسختين : « تواطىء أحوالك » ، تحريف ما أثبت من الرسائل .

(٦) الخيرة : الاختبار . وفى النسختين : « لموضوع الخيرة » ، وإنما يرتاد الموضع والمكان ، فالصواب ما أثبت من الرسائل .

(٧) محصه محصاً ومحصه تمحيصاً : خلصه مما يشوبه أو يعيبه . ومثله محضه محضاً فهو محوض ومحض . وفى الرسائل : « محضتك الخبرة » .

(٨) المت : التوسل بقرابة أو بحرمة . وفى النسختين : « وهتت » ، صوابه فى الرسائل .

(٩) الذمام : الحق والحرمة . ب فقط : « وزمام كرمك » ، تحريف .

وكان من نِعمة الله عندى أن جعل أبا عبدِ الله(١) ــ حفظه الله ــ وسيلتى إليك ، فوجدتُ المطلَبَ سهلاً ، والمُرَادَ محموداً ، وأفضيتُ إلى ما يَجُوز الأُمنيَّة(٢) ويَفُوت الأمل . فوصَلْتَ إخاءَ بمودَّتك ، وخَلَطْتَنى بنفسِك ، وأسْمَتَنى فى مَراعِى ذوِى الخاصَّة بك(٣) تفضُّلا لامجازاة ، وتطوُّلاً لا مُكافاة ، فأَمِنْتُ الخطوب ، واعتلَيْتُ على الزَّمان ، واتَّخذتُك للأحداث عُدَّةً ، ومن نوائب الدَّهر حِصناً منيعاً .

فلما جَرَت المُؤانَسةُ(٤) ، وتقلَّبْتُ من فضلك فى صنوف النِّعمة ، وزاد تصرُّفى فى مواهبك(٥) فى السُّرور والحَبْرة(٦) ، أَردت خِبْرَة المشاهدة فبلوتُ أخلاقَك ، وامتحنتُ شِيَمك ، وعَجَمتُ مذاهِبَك ، على حينِ غَفَلاتِك ، وفى الأَوقات التى يقلُّ فيها تحفظُّك، أُراعى حركاتِك(٧) ، وأُراقب مخارجَ أمرك ونهيك ، فأَرى [من(٨) [استصغارك لعظيم النعمة التى تنعم بها ، واستكثارك لقليل الشُّكر من شاكريك ، ما أَعرِف به وبما قد بلوت من غيرك(٩) وما قد شهدَتْ لى به عليك التجارب(١٠) ، أَن ذلك منك طبعٌ غير تكلُّف .

هيهاتَ مايكاد ذو التكلُّف أَنْ يَخْفَى على أَهل الغَباوة ، فكيف على مثلى من المتصفِّحين ؟

---

(١) الظاهر أنه أبو عبد الله أحمد بن أبى دواد .
(٢) فى النسختين : «تجوز الأمنية » ، صوابه فى الرسائل .
(٣) فى النسختين : « بل » ، صوابه من الرسائل .
(٤) فى الرسائل : « حزت المؤانسة » .
(٥) فى الرسائل : « وزاد بصرى من مواهبك » .
(٦) الحبرة ، بفتح الحاء ، وبالتحريك : السرور ، كالحبور . وفى النسختين : « الخبرة » ، صوابه فى الرسائل .
(٧) ب : « جرآتك » م : « حراتك » ، صوابهما فى الرسائل .
(٨) التكلة من الرسائل .
(٩) فى النسختين : « أعرف بما قد بلوت من غيرك» ، فقط . وتكملة العبارة من الرسائل .
(١٠) م : « وماقد شهدت لى به التجارب عليك » . و « عليك » ساقطة من الرسائل .

٢ – فصـــل منه

ولم أزَلْ – أبقاك الله – بالموضع الذى عرفْتَ من جَمْع الكُتُب ودراستها والنَّظر فيها . ومعلومٌ أنَّ طُولَ دراستِها إنمَّا هو تصفُّح عقول العالمين ، والعلمُ بأخلاق النبيِّين – صلوات الله تعالى عليهم أجمعين – وذَوِى الحكمة من الماضينَ والباقين من جميع الأُمم ، و كتبِ أهل الملل .

فرأيتُ أن أجمَع لك كتاباً من الأَدب ، جامعاً لعلْمٍ كثيرٍ من أمر المعاد والمعاش ، أَصِفُ لك فيه عِلَل الأَشياءِ ، وأُخبرُك بأَسبابها ، وما اتَّفقت عليه مَحاسِنُ الأُمم . وعلمتُ أنَّ ذلك من أعظمِ ما أَبَرُّكَ به[1] ، وأرجحِ ما أتقرَّبُ به إليك .

وكان الذى حدانى إلى ذلك[2] ما رأيت الله تعالى قَسَمَ لك من العَقْل والفهم ، وركَّب فيك من الطبع الكريم .

وقد اجتمعت الحكماءُ على أنَّ العقل المطبوع والكرم الغريزىَّ ، لايَبلُغان غايةَ الكمال إلَّا بمعاونة العقل المكتسب[3] ، ومثَّلوا ذلك بالنار والحَطَب ، والمِصباح والدُّهن ، وذلك أنَّ العقل الغريزىَّ آلة والمكتَسَب مادَّة ، وإنَّما الأَدب عَقْلُ غيرِك تزيدُه فى عقلك .

ورأيتُ كثيراً من واضعى الأَدب[4] قبلى ،قد عهدوا إلى الغابرين بعدهم فى الآداب عهوداً قاربوا فيها الحقَّ ، وأحسنوا فيها الدَّلالة . إلَّا

---

(١) ب : « ما أترك به » م : « مآثرك به » ، والوجه ما أثبت من الرسائل .

(٢) الرسائل : « على ذلك » .

(٣) فى النسختين : « إلا بمعاينة العقل المكتسب » ، صوابه فى الرسائل .

(٤) فى الرسائل : « الآداب » .

أنّى رأيتُ أكثَر مَا رسموا من ذلك فرُوعاً لم يبيِّنوا عِلَلَها . وصفاتٍ حسنةً لم يَكشِفوا أسبابَها ، وأموراً محمودة لم يدُلُّوا على أصولها .

فإنْ كانَ ما فعلوا من ذلك رواياتٍ روَوْها عن أسلافهم ، ووراثاتٍ وَرِثُوها عن أكابرهم فقد قاموا بأداءِ الأمانة ، ولم يَبلُغوا فَضِيلةَ مَن [طَبَّ لِمَن (١)]استطبَّ ، وإنْ كانوا تركوا الدَّلالةَ على علل الأمور ، التى (٢) بمعرفةعِلَلِها يُوصَل إلى مباشرة اليقين فيها ، ويُنْتَهى إلى غاية الاستبصار مِنْها ،فلم يَعْدُوا فى ذلك مَنزلةَ الظنِّ بها (٣) .

ولم تَجِدْ (٤) وصايا أنبياءِ الله تعالى أبداً إلّا مبيَّنة الأسباب ، مكشوفةَ العلل ، مضروبةً معها الأمثال .

٣ — فصــل منه

ولن أَدَعَ (٥) من تلك المواضع الخفيَّة موضعاً إلاَّ أقمتُ لك بها (٦) بإزاءِ كلِّ شبهة منه دليلاً ، ومع كلِّ خفيٍّ من الحقِّ حجَةً ظاهرة ، تستنبطُ بها (٧) غوامضَ البرهان ، وتستشير بها (٨) دفائنَ الصواب ، وتستشفُ بها سرائر القُلوب (٩) ، فتأْتى بما تأْتى عن بيِّنة ، وتَدَعُ ماتدَع

(١) تكملة ضرورية . طب : وصف الدواء والعلاج . واستطب : طلب ذلك .

(٢) فى النسختين : « والتى » ، والواو مقحمة .

(٣) فى النسختين : « الضن بها » ، صوابها فى الرسائل .

(٤) فى الرسائل : « ولن تجدوا » .

(٥) الرسائل : « فلم أدع » .

(٦) بها ، من م . وليست فى ب ولا الرسائل .

(٧) فى النسختين : « يستنبط به » ، والصواب ما أثبت . وقد استمرت العبارة فى النسختين إلى آخر هذا الفصل بالتعبير بالغيبة ، وإنما هو خطاب كما فى الرسائل .

(٨) ب : « ويستثنى بها » ، م : « ويستثير بها » ، والوجه ما أثبت . وفى الرسائل : « وتستبين بها دقائق الصواب » .

(٩) فى النسختين : « ويستشف بها سوائر القلوب » ، والوجه ما أثبت .

عن خِبْرة . ولا يكون بك وحشةٌ إلى معرفةِ[1] [كثيرٍ ما يغيب عنك إذا عرفتَ العلل والأسباب ، حتَّى كأنَّكَ مشاهدٌ لِضميرِ كلِّ امرئٍ لمعرفتك بَطْبعِه ومارُكِّب عليه .

٤ — فصـــل منه[2]

اعلمْ أنَّك إذا أهملتَ ما وصفتُ لك عرضتَ تدبيرَك إلى الاختلاط ، وإن آثَرتَ الهُوَيْنَى ، واتَّكلت على الكفاية فى الأمر الذى لا يجوز فيه إلاَّ نظرُك ، وزَجَّيتَ[3] أمرك على رأيٍ مدخول ، وأصلٍ غيرِ محكم ، رجَعَ ذلك عليكَ بما لو حُكِّمَ فيه عدوُّك[4] كان ذلك غايةَ أُمنيَّته وشفاءَ غيظه .

واعْلَمْ أنَّ إجراءَكَ الأمورَ مَجارِيَهَا، واستعمالَكَ الأشياءَ على وُجوهها، يجمعُ لك أُلفةَ القُلوب ، فُيعاملُك[5] كل من عاملك بمودَّة ، وأَخذٍ وإعطاءٍ[6] ، وهو على ثقةٍ من بَصَرِكَ[7] بمواضعِ الإنصاف[8] ، وعِلمِك بموارد الأُمور .

---

(١) التكملة من الرسائل .

(٢) انظر الرسائل ١ : ١٠٥

(٣) الترجية : السوق والدفع . فى النسختين : « ورجيت » بالراء المهملة ، صوابه من الرسائل .

(٤) الرسائل : « فيك عدوك » .

(٥) فى النسختين : « ويعاملك » ، والوجه ما فى الرسائل .

(٦) فى الرسائل : « أو أخذ أو إعطاء » .

(٧) فى النسختين : « من نصرك » ، تحريف .

(٨) مابعده إلى نهاية هذا الفصل منطمس فى التيمورية .

٥ ـ فصل منه[١]

فإن ابتُليتَ في بعض الأوقات بمَن يتقرَّب بحرمة[٢]، ويمتُّ بدالَّة، يَطلُب المكافأة[٣] بأكثر مما يستوجب، فدعاكَ الكرمُ والحياءُ إلى تفضيله على[٤] من هو أحقُّ به، إمّا خوفاً من لسانه، أو مداراةً لغيره، فلا تَدَعْ الاعتذارَ إلى مَن هو فوقَه من أهل البلاء والنَّصيحة[٥] وإظهارَ ما أردتَ من ذلك لهم[٦]؛ فإنَّ أهل خاصَّتك والمؤتَمَنِينَ على أسرارك، هم شركاؤُك في العيش، فلا تستهيننَّ[٧] بشيءٍ من أمورهم، فإنَّ الرجل قد يترك الشيءَ من ذلك اتِّكالاً على حُسنِ رأيِ أخيه، فلا يزال ذلك[٨] يجرح في القلب ويَنمو، حتّى يولِّد ضِغناً ويَحُولَ عداوةً.

فتَحفَّظْ من هذا الباب، واحملْ إخوانَك عليه بجهدك.

وستجد من يتَّصل بك ممن يغلبه إفراط الحرص[٩]، وحُمَيَّا الشَّرَه، ولينُ جانبِك له، على أنْ يَنْقِمَ العافيةَ، ويطلبَ اللُّحوق بمنازل من ليس مثلَه[١٠]، ولا له مثلُ دالَّته، فتَلْقاه لما تَصنع به مستقِلاً. ولمعروفك مُستصغِرا.

وصلاحُ مَن كانت هذه حالَه بخلافِ ما فسَدَ عليه أمره.

---

(١) الرسائل ١ : ١٠٨.
(٢) الرسائل : «بمن يضرب بحرمة».
(٣) ب فقط : «المكافآت».
(٤) ب فقط : «إلى»، تحريف.
(٥) م : «البلاد والنصيحة»، تحريف.
(٦) في النسختين : «ممن ذلك لهم»، صوابه في الرسائل.
(٧) في النسختين : «لا تستهينن»، وإثبات الفاء من الرسائل.
(٨) في النسختين : «كذلك».
(٩) في النسختين : «الحزم»، صوابه في الرسائل.
(١٠) في الرسائل : من ليس هو مثله».

فاعرفْ طرائِفِهم وشِيَمَهم ، وداوِ كلَّ مَنْ لا بدَّ لك من معاشرته ، بالدَّواءِ [١] الذى هو أنجَعُ فيه ، إنْ ليناً فليناً ، وإنْ شدَّةً فشِدَّة ، فقد قيل فى مثل :

مَن لايؤدِّبْهُ الجميـــــ ـــــلُ ففى عُقوبَتِهِ صَلاحُه[٢]

٦ – فصـــل منه[٣]

واعلم أنَّ المقادير ربَّما جرَتْ بخلاف ما تُقدِّر الحكماء [٤] ، فينالُ بها الجاهلُ فى نفسِهِ، المختلِطُ فى تدبيره، ما لا ينال الحازم الأَريبُ الحذِر ، فلا يدعونَّك [٥] ما ترى من ذلك إلى التَّضييع والاتِّكال على مثلِ تلك الحال؛ فإنَّ الحكماءَ قد اجتمعت على [أنَّ[٦]] مَن أخَذَ بالحزم وقدَّم الحَذَر ، فجاءت المقاديرُ خِلافَ ما قدَّر [٧] ، كان عندهم أحمَدَ رأيًا ، وأوجبَ عُذْراً ممَّن عَمِل بالتَّفريط ، وإن اتَّفقتْ له الأُمورُ على ما أراد .

ولا تكونَنَّ بشيءٍ ممَّا فى يدك أشدَّ ضِنًّا ، ولا عليهِ أشدَّ حَدَباً منك بالأَخِ الذى قد بلوتَه بالسَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ [٨] فعرفتَ مذاهِبَه ، وخَبَرْتَ شِيَمه ، وَصَحَّ لك غَيْبُه ، وسلمَتْ لك ناحيتُه ، فإنَّه شقيقُ رُوحِكَ ، وبابُ الرَّوْحِ إلى حياتك ، ومُسْتمدُّ رأيك وتَوْأَمُ عَقْلك .

---

(١) فى النسختين : « فالدواء » ، صوابه من الرسائل .

(٢) ورد البيت بهيئة النثر فى النسختين . وقد نسب إلى هارون الرشيد فى العقد ٥ : ٦٠ أو لعله تمثل به . ورواية العقد : « من لم يؤدبه » .

(٣) الرسائل ١ : ١٢١ .

(٤) ب : « ما يقدر الحكماء » .

(٥) فى النسختين : « لا يدعونك » ، وأثبت ما فى الرسائل .

(٦) التكملة من الرسائل .

(٧) فى الرسائل : « بخلاف ما قدر » .

(٨) الرسائل : « فى السراء والضراء » .

ولستَ منتفعاً بعيشٍ مع الوَحْدة ، ولابدَّ من المُؤانسةِ .

وكثرةُ الاستبدالِ يَهجُمُ بصاحبه على المكروه .

فإن صفا لك أخٌ فكن به أشَدَّ ضِنًّا منكَ بنفائِس أموالك ، ثمّ لايُزَهِّدنك فيه أن ترى خُلقاً أو خُلُقين تكرهُهما ، فإنَّ نفسكَ التى هى أخصُّ النفوس بك لاتُعطيك المَقادة فى كلِّ ما تريد[1] ، فكيف[2] بنفسِ غيرك .

وبحسبك أن يكون لك من أخيكَ أكثرُه . وقد قالت الحكماءُ : « من لك بأخيك كلِّه[3] » . و : « أىُّ الرِّجالِ المُهذَّبُ[4] » .

٧ – فصل منه[5]

واعلم أنَّك موسومٌ بسِيمَا من قارَنْتَ ، ومنسوبٌ إليك أفاعيلُ مَن صاحَبْت . فتحرَّزْ من دُخلاء السُّوءِ ، وأظْهِرْ مجانبةَ أهلِ الرِّيَب[6] ، وقد جَرَتْ لك فى ذلك الأمثال ، وسُطِّرت فيه الأقاويل[7] ، فقالوا : « المرءُ حيثُ يَجْعَل نَفْسَه[8] » .

---

(١) فى النسختين : « التى لا تعطيك » وكلمة « التى » مقحمة . وفى ب « القارة فى كلما تريد » م : « القادة فى كل ما تريد » ، صوابهما ما أثبت من الرسائل . والمقادة : الانقياد والمطاوعة .

(٢) فى النسختين : « وكيف » .

(٣) قائله أكثم بن صيفى ، كما فى المعمرين للسجستانى ١٢ . وورد فى جمهرة العسكرى ١ : ٣١٠ / ٢ : ٢٨٣ بدون نسبة . ونظمه أبو تمام فقال :

ما غبن المغبون مثل عقله ... من لك يوماً بأخيك كله

(٤) من قول النابغة الذبيانى فى ديوانه ١٤ :

ولست بمستبق أخاً لاتلمه ... على شعث أى الرجال المهذب

(٥) رسائل الجاحظ ١ : ١٢٦ .

(٦) الرسائل : « ومجالسة أهل الريب » .

(٧) الرسائل : « وسطرت لك فيه الأقاويل » .

(٨) ومنه قول منقر بن فروة فى البيان ٢ : ١٠٣ و ٣ : ٢٢٨ :

وما المرء إلا حيث يجعل نفسه ... فى صالح الأخلاق نفسك فاجعل

وقالوا : « يُظَنُّ بالمرء مايُظَنُّ بقرينه » .

وقالوا : « المرءُ بشكله»، و« المرءُ بأَليفه » .

ولن تقدِرَ أن تتحرَّزَ من الناس[١]، ولكن أَقِلَّ المؤانسةَ إِلَّا بأَهل البراءةِ من كلِّ دَنَس .

واعلَم أنَّ المرء بقَدْرِ مايسبِقُ إليه يُعْرَف . وبالمستفيض من أفعاله يُوصَف . فإنْ كان بين ذلكَ كثيرٌ من أخلاقه[٢] ألغاه النّاس ، وحكموا عليه بالغالبِ من أمره .

فاجْهَد أن يَكونَ[٣] أغلبُ الأَشياءِ على أفعالِك كلَّ ما يَحْمَدُهُ العوامُّ ولا تذُمُّه الجماعات ، فإنَّ ذلك يُعفِّي على [كلِّ[٤]] خللٍ إن كان .

فبادِرْ أَلسنةَ النَّاس واشْغَلْها[٥] بمحاسِنِك ، فإنَّهم إلى كلِّ سيِّئٍ[٦] سِراعٌ ،واستظهِرْ علىمَنْ دونك بالتفضُّل ، وعلى نظرائك بالإنصاف ، وعلى كلِّ مَن فوقك بالإجلال ، تأْخُذْ بوثائِقِ الأُمور وبأَزِمَّةِ التَّدبير .

---

(١) ب : « تحرز من الناس » . الرسائل : « ولن تقدر على التحرز من جماعة الناس » .
(٢) الرسائل : « من أفعاله » .
(٣) فى النسختين : « أن تكون » .
(٤) التكملة من الرسائل .
(٥) الرسائل : « فاشغلها » .
(٦) الرسائل : « إلى كل شىء » ، وصححتها هناك بما أثبت هنا . وفى النسختين : « إلى كل شر » .

١٥

من رسالة في

الجد والهزل

١ ــ فصــل

من صدر رسالته إلى محمد بن عبد الملك

فى الجد والهزل[١]

جُعلت فداك ، ليس من اختيارى[٢] ، النَّخْلَ على الزَّرع[٣] . أقصيتَنى ، ولا على مَيْلى إلى الصَّدَقة دونَ إعطاءِ الخَرَاج عاقبتَنى ، ولا لبُغْضٍ دفْع الإتاوة والرضا بالجِزْية حَرَمتَنى . ولست أدرى لم كرِهتَ قُرْبى ، وهَوِيت بُعْدِى . واستثقلْتَ روحى ونَفْسى . واستطلت عُمرى وأيَّام مُقامِى ؟ ولِمَ سرَّتْكَ سيِّئتى ومصيبتى . وساءتك حَسَنَتى وسلامتى ؟ نعم . حتَّى ساءك عَزائى وتجمُّلى، بقدر ما سَّرك جزعى وتضجُّرى، وحتَّى تمنَّيتَ أَن أُخطِئَ عليك ، فتجعل خطائى[٤] حجَّةً لك فى إبعادى[٥] ، وكرهتَ صوابى فيك خوفاً من أن تَجعله ذريعةً إلى تقريبى[٦] .

فإنْ كان ذلك هو الذى أغضبك . وكان هو السَّببَ لمَوجِدتك ؛ فليس ــ أبقاك الله ــ هذا الحقدُ فى طبقةِ هذا الذَّنْب. ولا هذه المُطالبةُ من شكل هذه الجريمة .

---

(١) هذه الرسالة مما سقط أيضاً من نسخة ط . وسبق نشرها كاملة فى ١ : ٢٢٧ — ٢٧٨ .

(٢) فى الرسائل : « ليس من أجل اختيارى » .

(٣) ألف الجاحظ كتاب (الزرع والنخل) لإبراهيم بن العباس الصولى المتوفى سنة ٢٤٣ فنحه خمسة آلاف دينار ، كما ألف كتاب (الحيوان) لمحمد بن عبد الملك الزيات فنحه مثلها . وكتاب (البيان والتبيين) للقاضى أحمد بن أبى دواد فنحه كذلك . معجم الأدباء ١٦ : ١٠٦ . وجاء فى الحيوان ١ : ٤ نظير هذا النص موجهاً إلى محمد بن عبد الملك الزيات : « وعبتنى بكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب » .

(٤) الخطاء، كسحاب : الخطأ ، ضد الصواب . وانظر الرسائل ١ : ٣٥٣ . كما استعمل الجاحظ الكلمة بهذه الصورة فى الحيوان ١ : ٢١٣ / ٣ : ٢٥٨، ٣٠٠ . وفى النسختين : « فتعجل» صوابه فى الرسائل .

(٥) م فقط : « إيعادى » .

(٦) هذا مافى الرسائل . وفى النسختين : « تقرب » ، تحريف .

٢ — فصـــل منها[١]

فأىَّ شىءٍ أبقَيتَ للعدوِّ المكاشِف . وللموافِق المُلاطِف[٢]، وللمعتمِد المُصِرّ ، وللقادر المُدِلّ ؟

ومن عاقبَ على الصَّغير بعقُوبة الكبير ، وعلى الهَفْوة بعقوبة الإصرار ، وعلى الخطأ بعقوبة العَمْد ، وعلى معصية المتستِّر بعقوبة المُعْلِن . ومَن لم يفرِقْ بين الأَعالى والأَسافل ، وبين الأَقاصى والأَدانى . عاقَبَ على الزِّنى بعقوبة السَّرقة . وعلى القَتْل بعقوبةِ القَذْف . ومن خرجَ إلى ذاك فى باب العِقاب ، خرج إلى مثلهِ فى باب الثَّواب .

ومن خرجَ من جميع الأَوزانِ . وخالَف جميعَ التَّعديل كان بغَايةِ[٣] العِقاب أَحقّ ، وبه أَولى .

والدَّليلُ على شدَّة غَيظِك وغَلَيانِ صَدْرك، قُوَّةُ حركتك ، وإبطاء فترتك ، وبُعْدُ الغاية فى احتيالك .

ومن البُرهان على بيان الغَضَب وعلى عِظَم الذَّنْب ، تمكُّن الحقد ورسوخُ الغَيظ، وبُعْدُ الوَثْبة وشدَّة الصَّولة . وهذا البرهانُ صحيحٌ ما صحَّ النَّظم ، وقام التَّعديل ، واستوت الأَسباب .

ولا أَعلم ناراً أَبلَغَ فى إحْراق أَهلها من نار الغَيْظ ، ولا حركةً أَنقضَ لقُوَى الأَبدانِ من طلب الطوائِل[٤]، مع قلَّة الهدوء . والجهلِ بمنافع الجَمَام[٥] ، وإعطاءِ الحالاتِ أَقسامَها من التَّدبير .

---

(١) ب : « منها » فقط ، بإسقاط كلمة « فصل » .

(٢) فى الرسائل : « والمناطق الملاطف » .

(٣) ب : « فى غاية » .

(٤) الطوائل : جمع طائلة ، وهى الوتر والذحل ، يقال طلب بنى فلان بطائلة ، أى بوتر كان له فيهم . م : « من طلب التعديل » ، صوابه فى ب والرسائل .

(٥) الجمام ، كسحاب : الراحة . وفى النسختين : « الحمام » تصحيف .

ولا أعلم تجارةً أكثر خُسراناً ولا أخفَّ ميزاناً . من عداوةِ العاقِل العالِم . وإطلاق لسان الجليسِ والمُداخِلِ . والشِّعارِ دونَ الدِّثار[١] ، والخاصِّ دونَ العامّ .

والطالبُ – أبقاكَ اللهُ[٢] – بِعَرَضِ ظفرٍ مالم يَخرجِ المطلوبُ ، وإليه الخيار[٣] ما لم تَقَع المُنازَلة .

ومن الحَزْم ألّا تَخرجَ [إلى[٤]] العدوَّ إلّا ومعك من القُوَى مايَغْمُر الفَضْلة التى يُتيحُها له[٥] الإخراج . ولابدَّ – أيضاً – من حزمٍ يحذِّرك مَصارِعَ البَغْى ، ويخوِّفُك ناصرَ المطلوب[٦] .

٣ – فصــل منها

واللهِ لقد كنتُ أكره لك سَرَف الرِّضا ، مخافة جواذبه إلى سَرَف الهوى ، فما ظَنُّك بسرَف الغَضَب . وبِغَلَبة الغَيْظ ، ولا سيِّما ممَّن تعود [إهمالَ[٧]] النَّفسِ ولم يعوِّدُها[٨] الصَّبْرَ . ولم يعرِّفها موضِعَ الحظِّ فى تجرُّع مرارةِ العفو[٩] . وإنَّما المرادُ[١٠] من الأُمور عواقبُها لاعواجلها .

---

(١) ب : « الدسار » ، تحريف . والشعار : ماولى شعر جسد الإنسان ، دون ماسواه من الثياب . والدثار : ماكان من الثياب فوق الشعار . وفى المثل : « هم الشعار دون الدثار » وصف بالمودة والقرب . وفى حديث الأنصار : « أنتم الشعار والناس الدثار » .

(٢) فى الرسائل : « جعلت فداك » .

(٣) فى النسختين : « إليه الخيار » بإسقاط الواو الثابتة فى الرسائل .

(٤) التكملة من الرسائل .

(٥) الرسائل : « يتتجها له » .

(٦) أى من تطلبه من الأعداء .

(٧) التكملة من الرسائل .

(٨) ب : « ولن يعودها » م : « ولا يعودها » ، ووجهه من الرسائل .

(٩) فى النسختين : « مرارته » فقط ، صوابه فى الرسائل .

(١٠) الرسائل : « وأن المراد » .

وقد كنتُ أُشفِقُ عليك من إفراط السرور ، فما ظنُّك بإفراط الغيظ . وقد قال الناس: « لا خَيْرَ فى طول الرَّاحة إذا كان يورث الغَفْلة ، ولا فى طول الكفاية[1] إذا كان يُؤدِّى إلى المَعْجَزة . ولا فى كثرة الغِنَى إذا كان يُخرج إلى البِلْدة[2] .

جُعِلتُ فِداك — إنَّ داءَ الْحُزن، وإن كان قاتلا ، فإنَّه داءٌ مماطل[3] ، وسُقْمُه سقمٌ مُطاوِل ، ومعه من التمهُّل[4] بقدر قِسطِه من أناة المِرَّة السَّوداء . وداءُ الغَيظِ سَفيهٌ طيَّاش ، وعَجُولٌ فحَّاش ، يُعجل عن التَّوبة ، ويقطع دون الوصيَّة .

٤ — فصل منها[5]

ورُبَّتَ[6] كلمة لا توضع إلَّا على معناها الذى جُعِلَتْ حَظَّه وصارت هى حَقَّه ، والدَّالَّةَ عليه دونَ غيره ، كالعزم والعلم، والحلم والرِّفْق[7] ، والأَناة والمداراة ، والقصد والعَدْل ، وكالانتهاز والاهتبال[8] ، وكاليأس والأَمَل[9] ، وكالخُرْق والعَجَلة[10] ، والمُداهنة والتسرُّع ، والغُلُوِّ والتَّقصير.

---

(١) الرسائل : « ولا فى الكفاية » .

(٢) البلدة ، بفتح الباء وضمها : البلادة ، ضد النفاذ والذكاء والمضاء فى الأمور .

(٣) ب : « داء طل » ، تحريف .

(٤) فى النسختين : « التمهيل » ، وإنما المراد التمهل ، أى البطء ، كما فى الرسائل .

(٥) رسائل الجاحظ ١ : ٢٤٣ .

(٦) فى النسختين : « دربت » ، صوابه فى الرسائل .

(٧) ب : « كالعزم والحلم ، والعلم والرفق » ، تحريف ما فى م والرسائل .

(٨) فى النسختين : « والابتهال » صوابه فى الرسائل ، وسقطت كلمة « وكالانتهاز » من الرسائل حين الطبع ، فلتثبت هناك .

(٩) فى النسختين : « والأمن » ، تحريف .

(١٠) الخرق بالضم : ضد الرفق ، وألا يحسن الرجل العمل والتصرف فى الأمور . ب : « وكالحذق » تحريف .

ورُبّ(١) كلمةٍ تدور مع واصلتها(٢) ، وتتقلّب مع جَارتِها، وإزاء صاحبتِها(٣) ، وعلى قَدْر ماتُقابلُ من الحالات وتُلاقى من الأسباب(٤) ، كالحبِّ والبغض ، والغَضَب والرِّضا ، والعَزْم والإرادة ، والإقبال والإدبار، والجِدِّ والفُتور. لأنَّ كلَّ هذا البابِ الأَخيرِ يكون فى الخير والشرّ ، ويكون محمودًا ويكون مذموماً .

وصاحبُ العَجَلة — أبقاك الله(٥) — صاحبٌ لتغريرٍ ومُخاطرة(٦) ، إنْ ظَفِر لم يَحمده عاقل(٧) ، وإن لم يظفر قطَّعَتْهُ المَلَاوم . والرَّيْث أخو المَعْجَزة ، ومقرونٌ بالحسرة ، وعلى مَدرَجة اللائمة .

وصاحبُ الأَناة ، إن ظفر نَفَع(٨) غَيْرَه بالْغُنْم ، ونَفَعَ نفسَه بثمرة العلم، وطاب ذِكرُه ودام شُكره، وحُفِظَ فيه ولدُه. وإنْ حُرِمَ فمبسوطٌ عذره ومصوَّبٌ رأيُه(٩) مع انتفاعه بِعلمِه، وما يَجِدُ من عِزِّ حزمه ، ونُبْل صوابِه(١٠) .

---

(١) الرسائل : « وربت » .

(٢) الرسائل : « مع خلّها » .

(٣) فى النسختين : « وإرادة صاحبها » ، صوابه من الرسائل .

(٤) فى النسختين : « ما يقابل » و « يلاقى » ، والوجه ما أثبت .

(٥) الرسائل : أعزك الله » .

(٦) م : « صاحب التغرير ومخاطرة » ، صوابه فى ب . وفى الرسائل : « تغرير ومخاطرة » .

(٧) الرسائل : « لم يحمده عالم » .

(٨) فى النسختين : « يقع » فى هذا الموضع وتاليه ، صوابهما فى الرسائل .

(٩) فى النسختين : « ومصور رأيه » تحريف ما فى الرسائل .

(١٠) ب : « من عز عزمه ونيل صوابه » ، صوابه فى م والرسائل .

٥ ــ فصــل منها[١]

ومن كانت طبيعته مأمونةً عليه عند نفسه ، وكان هواه رائِدَه الذى لايَكذِبُه ، والمتأمِّرَ عليه دون عقله[٢] . ولم يتوكَّل لما لايهواه على مايهوى ، ولم ينصُرْ[٣] تالد الإخوان على الطَّارف ، ولم يُنصِف المملول المُبْعَد[٤] من المُستطْرف المقرَّب[٥] . ولم يَخَفْ أن تجتذبه العادة[٦] وتتحكَّم عليه الطَّبيعة ــ فليرسم حُجَجَهُما ويصوِّرْ صُوَرَهما فى كتاب مقروءٍ[٧] أو لفظٍ مسموع ، ثمَّ يعرضْهما على جهابذة المَعَانى وأطِبَّاءِ أدواءِ العقول . على أن لا يختار إلَّا من لا يدرِى أَىَّ النَّوعين يتَّقِى ، وأيَّهما يُحامِى ، وأيُّهما داؤه[٨] ، وأيُّهما دواؤه . فإن لم يستعمل ذلك لم يَزَلْ متورِّطاً فى الخَطَاءِ[٩] مُغموراً بالذَّنب .

سمعتك وأنت تُريدنى وكأنَّك تُريد غَيرى ، أو كأنَّك تُشير علىَّ من غير أن تَنُصَّنى ، وتقولُ : إنِّى لأَعْجَبُ ممَّن ترك دفاتر عِلْمِهِ متفرِّقة ، وكراريس دَرْسِهِ غيرَ مجموعةٍ ولا منظومة ، كيف يعرِضُها

---

(١) الرسائل ١ : ٢٤٥ . والكلام مسبوق هناك بقول الجاحظ : « وقال أيضاً » يعنى الدهقان الذى كان يخاطب أسد بن عبد الله القسرى .

(٢) فى النسختين : « حقه » ، صوابه فى الرسائل .

(٣) فى النسختين : « ولم يبصر » ، تحريف .

(٤) فى النسختين : « المملوك » ، صوابه فى الرسائل . وفى ب : « على المبعد » . و « على » مقحمة .

(٥) ب : « من المستظرف » صوابه فى م والرسائل . وفى النسختين : « والمقرب » بزيادة واو .

(٦) ب فقط : « تجذبه العادة » .

(٧) ب : « مقرر » تحريف ، صوابه فى م . وفى الرسائل : « مفرد » .

(٨) فى النسختين : « يداوه » ، صوابه فى الرسائل وإن كان النص فيها : « وأيهما دواؤه وأيهما داؤه » .

(٩) فى النسختين : « الخطا » ، والوجه ما أثبت . وانظر ماسبق فى حواشى ١٣

للتخرُّم[١] ، وكيف لا يَمنعها من التخرُّق[٢] ؟ ! .

وعلى أنَّ الدَّفتر إذا انقطعت حِزَامته[٣] وانحلَّ شَدَّاده[٤] ، وتخرَّمت رُبُطه[٥] ، ولم تكن دُونه وِقاية ، ولا دُونَه جُنَّة ، تفرَّق ورقُه ، واشتدَّ جمعه[٦] ، وعَسُر نَظْمُه ، وامتنع تأْليفه ، وضاع أكثره[٧] .

والدَّفَّتانِ أَجمع ، وضَمُّ الجلود لها أَصْوَنُ والحَزْمُ لها أصلح .

وينبغى للأَشكالِ أَن تُنْظَمَ[٨] ، والأَشباهِ أَنْ تؤلَّف[٩] ؛ فإنَّ التأْليف يزيد الأَجزاءَ الحسنةَ حُسْناً ، والاجتماعَ يحدث للمتساوى[١٠] فى الضَّعف قوَّة .

٦ — فصل منها[١١]

أَنت — أَبقاك الله — شاعرٌ وأَنا راوية ، وأَنت طويلٌ وأَنا قصير ، وأَنت أَصلع وأَنا أَنزَعُ[١٢] ، وأَنت صاحبُ بَرَاذينَ وأَنا صاحبُ حَمِير ،

---

(١) فى الرسائل ١ : ٢٤٦ : « التجرم » ، من قولهم تجرم الليل ، إذا ذهب . وفى ب : « التحزم » ، تحريف .

(٢) فى الرسائل : « من التفرق » .

(٣) الحزامة والحزام : اسم لما شد به . ب : « خرامته » صوابه فى م والرسائل .

(٤) فى النسختين : « سداده » ، صوابه فى الرسائل .

(٥) هذا ما فى الرسائل . وفى النسختين : « وكرمت ربطه » .

(٦) فى الرسائل : « وإذا تفرق ورقه اشتد جمعه » .

(٧) الرسائل : « وربما ضاع أكثره » .

(٨) ب : « وينبغى الأشكال أن ينظم » م : « وينبغى أن ينظم » ، صوابهما فى الرسائل .

(٩) أن ، ساقطة من ب . وفى الرسائل : « وللأشباه » .

(١٠) ب : « لحدث المتساوى » م : « لحديث المتساوى » ، صوابهما من الرسائل .

(١١) الرسائل ١ : ٢٦٥ .

(١٢) النزع ، بالتحريك : انحسار مقدم شعر الرأس عن جانبى الجبهة . والصلع : ذهاب الشعر من مقدم الرأس إلى مؤخره ، وكذلك إن ذهب وسطه . والموضع منهما النزعة والصلعة بالتحريك فيهما ، وبالضم أيضاً فى الصلعه .

وأنت ركينٌ وأنا عَجُول . وأنت تدبِّر نَفْسَك[١] وتقيم أَوَد غيرك ، وتتّسع لجميع الرعيّة ، وتبلُغ بتدبيرك[٢] أقصى الأُمَّة . وأنا أعجز عن تدبيرى[٣] وعن تدبير أَمَتِى وعَبْدى . وأنت منعمٌ وأنا شاكر[٤] ، وأنت مَلِكٌ وأنا سوقة . وأنت مُصطنِعٌ وأنا صنيعَةٌ[٥] ، وأنت تفعلُ وأنا أصِف . وأنت متقدِّمٌ[٦] وأنا تابع ، وأنت إذا نازعتَ الرِّجالَ وناهضْت الأَكْفاءَ لم تقل بعد فراغك وانقطاع كلامك : لو كنتُ قلتُ كذا لكان أجوَد ، ولو تركتُ قولَ كذا كان أحسن . وأمضَيْتَ الأُمورَ على حقائقها ، وسلَّمت إليها أقساطها ، على مقادير حقوقها ، فلم تندَمْ بعدَ قَولٍ ، ولم تأسَفْ بعد سُكوت . وأنا إنْ تكلَّمت ندِمت ، وإن جارَيتُ أبدعْت[٧] .

٧ — فصـــل منها[٨]

وقد منحتُك [جَلَدَ[٩]] شَبابى كَمَلًا ؛ وغَرْبَ نشاطى مُقْتَبَلا ، فكان لك مَهْنَاهُ ، وثمرةُ قُواه ، واحتملتُ دونَك عُرامَهُ وغَرْبَه[١٠] ، فكان لك غُنْمه وعليَّ غُرْمه .

---

(١) فى الرسائل : « انفسك » .
(٢) فى النسختين : « ويبلغ تدبيرك » صوابه فى الرسائل .
(٣) فى الرسائل : « عن نفسى » .
(٤) ب فقط : « شاعر » ، تحريف .
(٥) فى النسختين : « صنيعه » بالهاء ، وأثبت ما فى الرسائل .
(٦) فى الرسائل : « وأنت مقدم » .
(٧) المجاراة : مفاعلة من الجرى فى المشى وغيره . وفى النسختين : « جازيت » صوابه فى الرسائل . وأبدع الرجل ، بالبناء للمجهول والمعلوم أيضاً : كلت راحلته أو عطبت . وفى النسختين : « بدعت » : صوابها فى الرسائل .
(٨) الرسائل ١ : ٢٧٤ .
(٩) التكلة من الرسائل .
(١٠) العرام ، بالضم : الشدة . والغرب : الحدة . فى النسختين : « غرامه » .تحريف مافى الرسائل . وفى ب فقط : « وعزبه » ، تحريف .

وأعطيتُك عند إدبارِ بدنى قُوَّةَ رأْيى، وعند تكامُلِ معرفتى نتيجةَ تجربتى ، واحتملتُ دونك وَهْنَ الكِبَرِ وإسقامَ الهرم .

وخيرُ شركائك مَنْ أعطاك(١) ما صفا وأَخَذَ لنفسه ماكدُرَ . وأفضَلُ خُلطائك من كَفَاك مؤونتَه وأحضَرَك مَعُونته ، وكان كلالُهُ عليه ونشاطُه لك .

وأكرم دُخَلائك وأشكر مواليك(٢) مَنْ لا يظنُّ أنَّك تسمَّى جَزِيلَ ماتحتمل فى بَذْلِك(٣) ومؤانَسَتِكَ مَؤُونة ، ولا تتابُعَ(٤) إحسانك إليه نعمَة . بل يرى أنَّ نعمةَ الشَّاكِر فوقَ نعمة الواهب ، ونعمةَ الوادِّ(٥) المُخْلِص ، فوق [نعمةِ(٦)] الجواد المُغْنِى .

---

(١) ب : « إعطائك » م : « إعطاء » ، صوابهما فى الرسائل .
(٢) فى الرسائل : « مؤمليك » .
(٣) فى النسختين : « مايحتمل » وفى م : « فى ذلك » ، صوابهما من الرسائل .
(٤) فى النسختين : « تبايع » ، تحريف .
(٥) فى النسختين : « الوارد » ، صوابه من الرسائل .
(٦) التكلة من الرسائل .

١٦

من كتابه فى

الوكلاء

١ – فصـــل

من صدر كتابه فى الوكلاء[١]

وفَّقكَ اللهُ للطَّاعةِ ، وعصَمَكَ من الشُّبهة ، وأفلجَكَ بالحُجَّة[٢] ، وختَم لكَ بالسعادة .

غَبَرَتْ[٣] – أصلَحَكَ الله – أزْمانٌ[٤] وأنت عندى ممَّن لا يُمضِى القولَ إلَّا بعد التثبُّت ، ولا يُخرِج الكتابَ إلَّا بعد التصفُّح ، وكنتَ حَرِيًّا بتَهْيئَةِ[٥] الرأْى الفَطير ، جديراً أن تُميِّل بنفسك عاقبةَ التَّفريط[٦]. ولَوْلَا[٧] كثرة مُرورِ أيَّام المُطالَبةِ عليك لما ثَقُلَ عليك التثبُّت ، ولولا[٨] قِصَرُ أيَّام التحصيل لَمَا وَثِقْتَ بأَوَّلِ خاطر ، ولولا سوءُ العادة لَمَا كَذَبَكَ رائدُ النَّظَر واتَّهمت الرأى .

واعْتِرام الغَضْبان[٩] يُهوِّر الأَعمار[١٠] ، فإنَّ الغَضْبانَ[١١] أسوأُ أثراً

---

(١) نشر شيئاً منه ريشر ص ١٩٤ – ١٩٥ وفى مجموعة ساسى ثلاث صفحات منه ١٧٠– ١٧٢ باسم (الوكلاء) تنتهى بنهاية الفصل الثانى من هذا الاختيار . ويبدو أن نسخة الساسى مبتورة . وقد رمزت لها كالمألوف بالرمز (مج) .

(٢) أفلجه : أظفره ، من الفلج بالفتح ، وهو الظفر . م فقط : « أفلحك » ، تحريف .

(٣) غبرت : مضت وانقضت ، وفى النسختين : « عبرت » والوجه من مج .

(٤) فى النسختين : « زمان » ، صوابه فى مج .

(٥) فى النسختين : « نهيئه » ، صوابه فى مج .

(٦) التميل بين الشيئين كالترجيح بينهما ، كأنه ميل بين التفريط والإفراط . فى النسختين : « أن يميل » ، صوابه فى مج .

(٧) فى النسختين : « وليس » ، صوابه فى مج .

(٨) م فقط : « ولو » .

(٩) الاعترام : الشدة والشراسة . وفى حديث على : « على حين فترة من الرسل ، واعترام من الفتن » . وفى النسختين : « اغرام العصيان » وبدون واو . وفى مج : « واعتزام العصيان » . والوجه ما أثبت .

(١٠) يهورها : يذهب بها . فى النسختين : « وتهور الأعمار » مع زيادة الواو ، صوابه فى مج .

(١١) فى جميع النسخ : « العصيان » ، صوابه ما أثبت .

على نفسِهِ من السَّكران ، ولولا أنَّ نار الغَضَب تخبو قبل إفاقة المعتوه ، وضَبابَ السُّكر ينكشف قبل انكشاف غُروب عقل المُدَلَّه ، وأَنَّ حكم الظاعن خلافُ حكمِ المقيم ، وقَضيَّة المجْتازِ [١] خلافُ قضيَّة الماكث ، لكانت حال الغَضْبان [٢] أسوأ مغبّةً ، وجهلهُ أَوْبىَ ، على أَنَّ الحكم له ألزمُ والنَّاسَ له أَلْوَم .

وما أكثر ما يُقْحِم الغضبُ المَقَاحِمَ التى لا يبلغُها جنايةُ الجنون ، وفرطُ جهلِ المصْروع .

٢ — فصـــل منه

وإنَّ الغُمر لا يكون إلّا عديمَ الآلة ، منقطع المادَّة ، يَرى الغَيَّ رُشداً والغلوَّ قصداً . فلو كنتَ إذا جنيت لم تُقِمْ على الجناية ، وإذا عزمت على القول لم تُخلِّدْه فى الكتب ، وإذا خلَّدته لم تُظهر التبجُّح به ، والاستبصار فيه ، كان علاجُ ذلك أيسَرَ ، وكانت أيَّامُ سقمك أقصرَ [٣] .

فأَخزى [٤] اللهُ التصميمَ إلَّا مع الحزم ، والاعتزامَ إلَّا بعد التثبُّت والعلمَ إلَّا مع القريحة المحمودة ، والنَّظرَ إلَّا مع استقصاءِ الرويَّة .

وأَخلِقْ بمن كان فى صفتك ، وأَخْرِ [٥] بمن جَرى على دَرْبك [٦] ، أَلَّا يكونَ سببُ تسرُّعه ، وعلَّةُ تشحُّنه إلَّا من ضيقَ الصَّدر .

وجميعُ الخير راجعٌ إلى سَعَة الصدر . فقد صحَّ الآن أَنَّ سَعَة الصَّدر أَصل ، وما سوى ذلك من أَصناف الخير فرع .

(١) فى جميع النسخ : « المختار » ، والوجه ما أثبت .
(٢) فى جميع النسخ : « العصيان » .   (٣) السقم ، بالضم وبالتحريك : المرض .
(٤) فى النسختين : « فأجرى » ، صوابه فى مج .
(٥) ب : « وأحرى » ، م : « وأجر » ، صوابهما فى مج .
(٦) الدرب : الطريق . وفى جميع النسخ : « عن دربتك » .

وقد رأيتكَ — حفظك الله — خوَّنتَ جميع الوكلاءِ وفَجَّرْتَهم ، وشنَّعت على جميع الورَّاقين وظلَمْتَهم ، وجمعتَ جميعَ المعلِّمين وهجوتَهم ، وحَفِظت مساويَهم ، وتناسيتَ محاسنَهم ، واقتصرت[1] على ذكر مثالب الأعلام[2] والجلَّة ، حتَّى صوَّب نفسَك عند السَّامع[3] لكلامك ، والقارئ كتابَك[4] ، أنَّك ممن يُنكر الحقَّ جهلا[5] ، أو يَتركه معاندةً له[6] . وقد علم النَّاس أنَّ من تركه جهلاً به أصغرُ إثماً[7] ممن تركه عمداً .

ولعمرى إنَّ العلم لَطَوعُ يديك ، والمتصرِّف مع خواطرك ، والمُستملِي من بديهتك ، كما يَستملى من ثمرة فكرك ، والمحصَّل من رويَّتك . ولكنَّ الرأى لك أن لا تثقَ بما يرسُمه العِلْم فى الخَلَا ، وتتوقَّاه فى الملا .

اعلم أنَّك متى تَفَرَّدْتَ[8] بعلمك استرسلتَ إليه . ومتَى ائتمَنْتَ على نفسك نواجمَ خواطرِك ، فقد أمكنتَ العدوَّ من رِبْقةُ عنقك . وبنيةُ الطَّبائِع وتركيبُ النفوس ، والذى جَرَت عليه العادة ، إهمالُ النَّفس فى الخَلا ، واعتقالُها فى المَلَا[9] .

فتوقَّفْ عند العادة ، واتَّهم النَّفْسَ عند الاسترسال والثِّقة . قال ابن هَرْمة :

(١) ب : « واستبصرت » م : « وابتصرت » ، صوابهما فى مج .
(٢) ب فقط : « مسالب » ، تحريف .
(٣) فى النسختين : « المسامع » ، صوابه فى مج .
(٤) م ، مج : « ولقارىء كتابك » صوابه ما أثبت . وفى ب : « وقارىء كتابك » .
(٥) ب : « مما تنكر » م ، مج : « ممن تنكر » ، صوابهما ما أثبت .
(٦) ب ، مج : « أو تتركه » م : « أو يتركه » ، صوابهما ما أثبت .
(٧) ب فقط : « اسماً » .
(٨) فى النسختين : « تقررت » وفى مج : « تغرت » وأرى الصواب فيما أثبت .
(٩) الملا : جماعة الناس . وفى ب : « واغفلالها » ، وفى م ، مج : « وإغفالها » ، والوجه ما أثبت . وانظر ما سبق من قوله : « وتتوقاه فى الملا » ، فالمراد حبسها فى مواجهة الناس .

إنَّ الحديثَ تغرُّ القوم خَلْوتُه حتَّى يكون له عيٌّ وإكثارُ[(١)]

وبئس الشيء العُجْبُ ، وحُسنُ الظَّنِّ بالبديهة !

واعلم أنَّ هذه الحالَ التى ارْتَضَيْتَهَا لشأْنِكَ هى أُمنيَّةُ العدوّ ، وتُهزَةُ الخَصْم ، ومتى أَبرزْتَ كتابك على هذه الصُّورة وأَفرغْته هذا الإفراغَ ، ثم سَبَكْتَهُ هذا السَّبكَ، فليس بعدوِّك حاجةٌ إلى التكذيب عليك، وقَولِ الزُّور فيك ، لأنَّك قد مكَّنته من عِرضِك ، وحكَّمْتَه فى نفسك .

وبعدُ ، فمن يَعجِزُ عن عيب كتابٍ لم يُحرَس بالتثبُّت[(٢)] ، ولم يُحصَّنْ بالتصفُّح ، ولم يُغَبَّ بالمعاوَدَة والنَّظر ، ولم يُقلَّب فيه الطَّرفُ من جهة الإشفاقِ والحذر[(٣)] . فكيف يوفِّق اللهُ الواثقَ بنفسه ، والمستبدَّ برأيِهِ[(٤)] لأَدبِ ربِّه ؛ ولما وَصَّى به نبيُّه صلَّى الله عليه وسلم [حين قال لرجلٍ خاصم عنده رجلا فقال فى بعض كلامه : حسبِيَ الله ! فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم[(٥)]] : « أَبْلِ اللهَ من نفسِكَ عُذْراً[(٦)] ، فإذا غلبَكَ أمرٌ فقل : حسبِيَ الله »

---

(١) فى النسختين : « يعز اليوم » وفى مج : « يعز القوم » ، صوابهما من البيان ١ : ٢٠٣ والحيوان ١ : ٨٨/٤ : ٢٠٧ وأدب الكتاب للصولى ١٥٧ لكن عند الصولى :

إن الحديث يقف القوم خلوته حتّى يعبره بالسبق مضمار

والبيت مفرد فى الديوان ١١٩ . خلوته ، أى حين يختلى بعضهم ببعض لمداورته وتبادله .

(٢) ب : « كتابك لم يحرس » م : « كتاب يحرس » بسقوط « لم » ، صوابهما فى مج .

(٣) ب : « الا شتقاق » صوابه فى م ، مج .

(٤) فى النسختين : « والنازل » ، صوابه ما أثبت من مج .

(٥) التكملة من م ، مج .

(٦) أبليته عذراً : أديته إليه فقبله ، أى بينت له وجه العذر لأزيل عنى اللوم . وفى حديث بر الوالدين أيضاً : « أبل الله عذراً فى برها » ، أى أحسن فيما بينك وبين الله ببرك إياها .

وزعمتَ فى أوَّل تشنيعك عليهم ، فقلت : قال يعقوب بن عبيد لبعضِ ولده حين قال له فى مرضه : أىَّ شىءٍ تشتهى ؟ قال : كَبِدٌ وَكِيل[1] .

وقد كان تَرَكَ التَّجارة من سوءِ مُعاملتهم وفُحْش خبائِثهم .

(١) تمنى أن يلوك كبده . وفى النسختين : « كيد وكيل » ووجهه فى م .

٣ — فصـــل[١]

من جوابه عن الوكلاء

قد فهمنا عُذرَكَ وسمِعْنا قولك ، فاسمع الآنَ ما نقول :

اعلم أنَّ الوكيل ، والأَجيرَ ، والأَمين ، والوصيَّ ، فى جملة الأَمر ، يَجْرون مَجرًى واحداً . فأَيْشٍ لك[٢] أن تَقضِيَ على الجميع بإِساءة البعض . ولو بَهْرَجْنا[٣] جميعَ الوكلاءِ وخَوَّنّا جميعَ الأُمناءِ ، واتّهمنا جميعَ الأَوصياءِ وأَسقَطْناهم، ومنعنا الناسَ الارتفاقَ بهم ، لظَهرتِ الخَلَّة وشاعت المَعجَزَة ، وبطلت العُقَد[٤] وفَسَدت المستغَلّات ، واضطربت التِّجارات ، وعادت النِّعمة بليَّة والمَعُونة حِرماناً ، والأَمر مهملًا ، والعهد مَرِيجاً[٥] .

ولو أنَّ التَّجّار وأَهل الجهاز[٦] صاحَبُوا الجمّالين والمُكارينَ[٧]

(١) هذا الفصل مما انفردت به النسختان إذ لم يرد فى مجموعة الساسى ولا فى نسخة الكامل . وقد تعرض ريشر فى ١٩٤ — ١٩٥ للقول فى الوكلاء .

(٢) أيش ، فى معنى أى شىء ، كما يقال فى ويل لأمه : ويلمه ، على التخفيف . وهو استعمال قديم ، وجدته فى صحيح البخارى : « قيل يارسول الله ، أيش هو ؟ قال : القتل القتل » . انظر فتح البارى ١٣ : ١١ . ومن الخطأ ضبط همزته بالكسر . وانظر ابن يعيش ٤ : ١٠٢ وتاريخ بغداد ٢ : ٨٨ والأغانى ١ : ١٧٤ وشفاء الغليل ١٥ وتحقيقات وتنبيهات فى معجم لسان العرب من تأليفى ٤٩ ، ١٤٥ .

(٣) البهرجة : الإهمال والإهدار .

(٤) العقد : جمع عقدة ، بالضم ، وهو كل ماعقد عليه .

(٥) المريج ، من المرج ، بالتحريك ، وهو الفساد والاختلاط والاضطراب . ومنه فى الكتاب العزيز : « بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم فى أمر مريج » . الآية الخامسة من ق . ب : « مريحا » بالمهملة ، تحريف .

(٦) الجهاز ، بالفتح والكسر ، أو الكسر لغة رديئة : كل ما يهيأ لعروس أو مسافر ، أو مجاهد ، أو ميت .

(٧) جمع مكار ، وهو من يكريك دابته أو نفسه بالأجر . والكراء . ككتاب : أجرة المستأجر . فى النسختين : « والمكاريين » بياءين ، صوابه بياء واحدة .

والملاّحين، حتّى يعاينوا ما نَزَل بأموالهم فى تلك الطُّرق والمياه، والمسالك والخانات ، لكان عسى أن يترك أكثرهم الجَهاز .

٤ ـ فصــل منه

وقد قال الله عز وجل : ﴿ الرِّجالُ قَوَّامون على النِّساءِ بِمَا فَضَّل اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ(١) ﴾، وقال : ﴿ فإنْ آنستُمْ منهم رُشْدًا فادْفَعُوا إلَيْهِمْ أموالَهُم(٢) ﴾ وقال : ﴿ ومن كان غَنِيًّا فليستعْفِفْ ومَنْ كان فقيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالمَعْرُوفِ(٣) ﴾ .

وقال يوسفُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم لِفرعونَ وفرعونُ كافرٌ : ﴿ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الأَرْضِ إنِّى حفيظٌ عَلِيمٌ(٤) ﴾ .

وقالت بنت شُعيب فى موسى بنِ عِمْران : ﴿ ياأَبَتِ استَأْجِرْهُ إنَّ خَيْرَ مَنِ استأْجَرْتَ القوىُّ الأَمينُ(٥) ﴾ : فَجمَعَ جميعَ مايُحتاج إليه فى الكلمتين .

وفى قياسك هذا إسقاطُ جميعِ ماأَدَّبنا الله به ، وجعَلَه رِباطاً لمراشدنا فى ديننا ، ونِظاماً لمصالحنا فى دنيانا .

والذى يلزمُنى لك أن لا أَعُمَّهم بالبراءة ، والذى يلزمك أن لاتعمَّهم بالتُّهمَة ، وأن تعلمَ أنَّ نَفْعَهم عامٌّ ، وخيرَهم خاصٌّ .

وقالوا : مَثَلُ الإمام الجائر مَثَلُ المطَر ، فإنَّه يَهدِم على الضعيف ، ويَمنَع المسافر .

(١) من الآية ٣٤ فى سورة النساء . واقتصر النص فى ب على : « الرجال قوامون على النساء » .

(٢) من الآية ٦ من النساء . وفى ب : « فمن كان غنياً » ، تحريف .

(٣) من الآية ٦ فى سورة النساء .

(٤) من الآية ٥٥ فى سورة يوسف .

(٥) من الآية ٢٦ من سورة القصص .

وقال النبي - صلى الله عليه وسلم - « حوالَيْنا ولا علينا[١] » .

والمطر وإن أفسَدَ بعضَ الثِّمار ، وأضرَّ ببعض الأَكَرة[٢] فإنَّ نفعَه غامرٌ لضررِه[٣] .

وليس شيءٌ[٤] من الدُّنيا يكون نفعُه محضاً ، وشرُّه صِرفا . وكذلك الإمامُ الجائرُ ، وإن استأْثَرَ ببعض الفَيء ، وعطَّل بعض الحُكْم ، فإنَّ مضارَّه مغمورةٌ بمنافعه .

قالوا : وكذلك أمر الوُكلاءِ والأَوصياءِ والأُمناءِ ، لا تعلم قوماً الشرُّ فيهم أَعَمُّ ولا الغِشُّ فيهم أكثر من الأَكرة[٥] . وما يجوز لنا مع هذا أن نعمَّهم بالحُكْم مع أنَّ الحاجة إليهم شديدة ، ونَزْعَ هذه العادةِ [وهذا[٦]] الخُلقِ منهم أَشَدُّ .

٥ — فصل منه

وأنا أظنُّ أنَّ الذنب مقسومٌ بينك وبين وكلائك . فارجعْ إلى نفسِكَ فلعلَّكَ أنْ ترى أنَّك إنَّما أُتِيتَ[٧] من قِبَلِ الفِراسة ، أو من قبل أنَّك لم تقطع لهم الأُجرةَ السنيَّة ، وحملتهم على غاية المشقَّة فى أداءِ الأَمانة وتمامِ النَّصيحة .

(١) أخرجه البخارى فى كتابى الجمعة والاستسقاء ، من حديث مطول لأنس بن مالك . كما أخرجه مسلم فى صلاة الاستسقاء . وفى اللسان (حول) : « يريد : اللهم أنزل الغيث علينا فى مواضع النبات لا فى مواضع الأبنية » .

(٢) الأكرة : جمع للأكار ، بالتشديد ، وهو الحراث والزراع للأرض . قال الجوهرى : « كأنه جمع آكر فى التقدير » . وفى ب : « الأكرا » وفى م : « الأكرار » ، والوجه ما أثبت . وانظر ما سيأتى .

(٣) أى غالب عليه . وفى النسختين : « غامراً لضرره » ، تحريف .

(٤) ب : « لشىء » ، صوابه فى م .

(٥) انظر ماسبق فى الحاشية الثانية .

(٦) التكملة من م .

(٧) ب : « أنك أتيت » وفى م : « إنما أتيت » ، والوجه ما أثبت .

٦ — فصل منه

ولابُدَّ[1] فى باب البصَر بجواهر الرجال من صِدق الحِسِّ ، ومن صِحَّة الفِراسة ، ومن الاستدلال فى البعض على الكُلِّ[2] ، كما استدلَّت بنتُ شعيبٍ — صلوات الله عليه — حين قضَتْ لموسى — عليه السلام بالأَمانة والقوَّة ، وهما الرُّكنان اللذان تُبنى عليهما الوَكالة .

٧ — فصل منه

وقد قالوا : ليس ممَّا يَستعمل الناسُ كلمةٌ أَضرَّ بالعلم والعلماء ، ولا أَضرَّ بالخاصَّة والعامَّة ، من قولهم[3] : « ماترك الأَوَّل للآخِر شيئاً » .

ولو استعمل النَّاسُ معنى هذا الكلامِ فتركوا جميع التكلُّف ، ولم يتعاطَوْا إلَّا مقدارَ ماكان فى أيديهم لفقدوا[4] علماً جمًّا ومرافقَ لاتُحصَى ، ولكن أَبَى اللهُ إلَّا أَنْ يَقْسِمَ نِعَمه بين طبقاتِ جميعِ عبادِهِ قِسمةَ عدل ، يُعطى كلَّ قَرنٍ وكلَّ أُمَّةٍ حِصَّتهَا ونصيبَها ، على تمامِ مَراشد الدِّين ، وكمال مصالح الدنيا .

فهؤلاءِ ملوكُ فارسَ نزلُوا على شاطئ الدِّجلة ، من دون الصَّراة[5]

---

(١) ولا بد ، ساقطة من ب .

(٢) هذا من شواهد الاستعمال القديم لكلمتى « كل » و « بعض » مقرونتين بأل . وانظر الرسائل ١ : ٢٤٨ ، ٢٩٨ ، ٣٥٧ .

(٣) تكررت هذه العبارة من أول الفصل إلى هنا فى النسختين ، والوجه حذفها كما صنعت .

(٤) فى النسختين : « أفقدوا » ، صوابه ما أثبت .

(٥) قال ياقوت : هما نهران ببغداد : الصراة الكبرى والصراة الصغرى ، ولا أعرف أنا إلا واحدا . هو نهر يأخذ من نهر عيسى من عند بلدة يقال لها المحول ، بينها وبين بغداد فرسخ ، ويتفرع منه أنهار إلى أن يصل إلى بغداد .

إلى فوقِ بغداد ؛ فى القصور والبساتين ؛ وكانوا أصحابَ نَظرٍ وفِكر ، واستخراجٍ واستنباط ، من لدُنْ أزْدَشِيرَ بنِ بابَك إلى فَيروزَ بنِ يزدَجِرد.

وقبل ذلك مانزَلها مُلوكُ الأَشكان ، بعد ملوك الأَردَوان(١).

فهل رأيتم أحداً اتَّخذَ حَرَّاقة(٢) ، أو زَلَّالة(٣) ، أو قارِبًا ؟ !

وهل عرفوا الخَيْش(٤) مع حَرِّ البِلاد ووقع السَّموم ؟ !

وهل عرفوا الجمَّازاتِ(٥) لأَسفارهم ومُتنَزَّهاتهم ؟ !

---

(١) الأشكان ، من ملوك الطوائف فى فارس ، حكموا بعد الإسكندر بمائة وستين سنة . ويسميهم المسعودى : «الأشغان» و «الأشغانيين» . التنبيه والإشراف ٨٣، ٩٣ ، وفى معجم استينجاس ٦٦ : «أشكانيان» . ومثلهم «الأردوان» بفتح الدال كما فى معجم استينجاس . وملوك الطوائف هؤلاء : جماعة بين الفرس الأولى والثانية ظهرت بعد قتل الإسكندر الأكبر دارا بن دارا وتغلبه على الفرس ، وقد نصب الإسكندر كل واحد منهم على ناحية من نواحى بلاد الفرس والعراق ، واستبدكل منهم بناحيته ، واستمر ملكهم ١٥٧ سنة إلى أن ظهر عليهم أردشير بن بابك وأسس دولة الفرس الثانية . قال المسعودى فى مروج الذهب ١ : ٢٣٤ : «وهم ملوك الجبال من بلاد الدينور ، ونهاوند ، وهمذان ، وماسبذان ، وأذربيجان . وكان كل ملك منهم يلى هذا الصقع يسمى بالاسم الأعم : أشغان ، فقيل لسائر ملوك الطوائف : «الأشغانيون» . ثم ذكر أيضا أن الأردوان هم ملوك النبيط وكانوا من ملوك الطوائف ، وكانوا بأرض العراق » .

(٢) فى الصحاح والقاموس أن الحراقات سفن بالبصرة ، وفيها مرامى نيران للعدو ، وذكر المعجم الوسيط من معانيها السفينة الخفيفة الممر . وهى المرادة هنا . وكان لطاهر بن الحسين حراقة فى بغداد ، فركبها يوماً ، فقال فى ذلك مقدس بن صيفى الخلوقى الشاعر :

عجبت لحراقة ابن الحسين لا غرقت كيف لا تغرق
وبحران من فوقهـا واحد وآخر من تحتهـا مطبق
وأعجب من ذاك أعوادها وقد مسها كيف لاتورق

وانظر وفيات الأعيان فى ترجمة طاهر بن الحسين وزير المأمون .

(٣) يبدو أنها ضرب من السفن الخفيفة السريعة ، من قولهم زل زليلا وزلولا : مر سريعاً .

(٤) الخيش : ثياب رقاق النسج ، غلاظ الخيوط ، تتخذ من مشاقة الكتان . وانظر ما سبق فى ١ : ٣٩٣ . وفى النسختين : «وهل عرف الحبش» ، صوابه ما أثبت .

(٥) الجمازات : النجائب من الإبل تسرع فى سيرها . وانظر الحيوان ١ : ٨٣ / ٤ : ٤٥٩ / ٧ : ٢٤٢ .

وهل عرف فَلَّاحُوهم الثِّمار المطعَّمة ، وغِراسَ النخل على الكُردات المسطَّرة[١] ؟ .

وأين كانوا عن استخراج فُوهِ العُصفُر[٢] ؟ وأين كانوا عن تغليق[٣] الدُّور والمُدن ، وإقامة مَيل الحيطان والسَّوارِى المائلة الرُّوس ، الرفيعة السُّموك المركَّبة بعضُها على بعض ؟ !

وأين كانوا عن مراكب البحر فى مُمارسةِ العلو الذى فى البحر ، إن طارت البوارج أدركَتْها[٤] ، وإن أكرهتها فاتتها[٥] بعد أن كان القومُ أَسرَى فى بلاد الهِنْد ، يتحكَّمون عليهم ويتلعَّبون بهم ؟

وأين كانوا عن الرَّمى بالنيران ؟ !

نعم ، وكانوا يتَّخذون الأحصار وينفقون عليها الأموال ، رجالُهم دسْم العمائم ، وَسِخَة القلانس ، وكان الرَّجلُ منهم إذا مرَّ بالعطار ، أو جلسَ إليه ، فأراد كرامته دَهَنَ رأسه ولحيته ، لا يحتشم من ذلك الكبير ، وكان أهل البيت إذا طبخوا اللَّحَم غرفوا للجار والجارة غَرفةً غَرفة .

---

(١) الكردات : جمع كردة ، بالضم . وهى القناة بين المزارع . وفى النسختين : « الكردوت » ، ولاوجه لها .

(٢) الفوه بالضم : واحد الأفواه ، وهى التوابل ، وتجمع الأفواه على أفاويه . وفى النسختين : « قوة العصفر » .

(٣) فى النسختين : « تعليق » بالعين المهملة .

(٤) السموك : جمع سمك بالفتح ، وهو السقف ، والعلو والارتفاع . ومنه فى الكتاب العزيز : « رفع سمكها فسواها » .

(٥) البوارج : السفن الكبار ، أو سفن البحر تتخذ للقتال ، واحدتها بارجة . وفى النسختين : « البوارح » بالحاء المهملة ، تحريف .

(٦) أكرهه على أمر : حمله عليه وهو له كاره . وفى النسختين : « كرهتها » تحريف .

١٧

من كتابه في

الأوطان والبلدان

١ – فصل

من صدر كتابه فى الأوطان والبلدان(١)

زيَّنكَ اللهُ بالتَّقْوى ، وكفاكَ المهمَّ من أمر الآخرةِ والأُولى ، وأثلج صَدرَكَ باليقين ، وأعزَّكَ بالقناعة ، وخَتَم لك بالسَّعادَة ، وجَعَلك من الشاكرين .

سألتَ – أبقاكَ الله – أن أكتب لك كتاباً فى تفاضُل البُلدان ، وكيفَ قناعةُ النَّفسِ بالأُوطان ، وما فى لزومها من الفَشَلِ والنَّقص(٢) ، وما فى الطَّلب من علم التَّجارب والعقل .

وذكرتَ أنَّ طُول المُقام من أسباب الفقر ، كما أنَّ الحركة من أسباب اليُسْر ، وذكرتَ قول القائِل : « الناس بأَزمانِهم أشبَهُ منهم بآبائِهم » .

ونسيتَ – أبقاكَ الله – عملَ البُلدان ، وتصرُّف الأَزمان ، وآثارهما فى الصُّوَر والأَخلاق ، وفى الشمائِل والآداب ، وفى اللُّغات والشَّهوات ، وفى الهمم والهَيْئات ، وفى المكاسِبِ والصِّناعات ، على مادَبَّرَ اللهُ تعالى من ذلك بالحكمة اللطيفة ، والتدابير العجيبة .

فسبحانَ من جَعَلَ بعضَ الاختلافِ سبباً للائتِلاف ، وجعل الشكَّ داعيةً إلى اليقين ، وسُبحانَ مَن عرَّفنا ما فى الحَيْرَة من الذِّلَّة ، وما فى

---

(١) لم يرد فى غير هذه المجموعة ، وهو غير كتابه « الحنين إلى الأوطان » الذى تقدم نشره فى الرسائل ٢ : ٣٨٣ – ٣١٢ . وقد تعرض ريشر لبحث كتاب الحنين إلى الأوطان فى ص ٤٨٨ . وقد حمل المسعودى فى مروج الذهب ١ : ٩٩–١٠٠ على هذا الكتاب وسماه « كتاب الأمصار وعجائب البلدان » .

(٢) ب : « والنفس » ، صوابه فى م .

الشَّكِّ من الوَحْشة، وما فى اليقين من العِزِّ، وما فى الإخلاص من الأُنس.

وقلت: ابدأ لى بالشَّام ومصر، وفضْلِ مابينهما، وتحصيلِ جمالهما، وذكرتَ أنَّ ذلك سيجرّ العراق والحجاز، والنجود[١] والأغوار، وذكرَ القُرى والأمصار، والبراريّ والبحار.

واعلمْ — أبقاكَ اللهُ — أنَّا متى قدَّمنا ذكر المؤخَّر وأخَّرنا ذكر المقدَّم، فسَدَ النِّظام وذهبت المراتب. ولستُ أرى أن أُقدِّم شيئاً من ذكر القرى على ذكر أُمِّ جميع القرى. وأَولَى الأُمور بنا ذكرُ خصال مكَّة، ثمَّ خصال المدينة.

ولولا ما يجبُ من تقديم ماقدَّم اللهُ وتأْخيرِ ماأَخَّر لكان، الغالبُ على النفوس ذكرَ الأَوطانِ وموقعِها من قلب الإنسان.

وقد قال الأَوَّل[٢]: «عَمَّر اللهُ البُلدان بحبِّ الأَوطان»، وقال ابن الزُّبير: «ليس الناسُ بشىءٍ من أَقسامهم أَقنَعَ منهم بأَوطانهم[٣]».

[و] لولا مامنَّ اللهُ به على كلِّ جِيلٍ منهم من الترغيب[٤] فى كل ما تحت أَيديهم، وتزيينِ كلِّ ما اشتملت عليه قدرتهم، وكان ذلك مفوَّضاً إلى العُقول، وإلى اختيارات النُّفوس — ماسَكَن أَهل الغِياض والأَدغال فى الغَمَق واللَّثَق[٥]، ولَمَا سكَنُوا مع البَعُوض والهَمَج[٦]، ولما سكَن سُكَّان

---

(١) ب: «والنحجود»، صوابه فى م.

(٢) هو عمر بن الخطاب كما فى رسالة الحنين إلى الأوطان ٣٨٩ ونسب هذا القول فى مناقب الترك ٦٤ إلى «العبدى».

(٣) رسائل الجاحظ ١: ٦٤ والحيوان ٣: ٢٢٧.

(٤) م: «الترتيب»، صوابه فى ب.

(٥) الغمق، بالتحريك: الندى يورث ثقلا ووخامة. وأرض غمقة: فسد ريحها وخم من كثرة الأنداء فصارت موبئة. وفى النسختين: «العمق» صوابه بالغين المعجمة: واللثق: الندى والحر، ويقال للماء والطين لثق أيضاً.

(٦) الهمج: ذباب صغير كالبعوض، يسقط على وجوه الغنم والحمير.

القِلاع[١] فى قلل الجبال، ولما أقامَ أصحاب البَرارِى مع الذِّئاب والأفاعى وحيثُ من عَزَّ بَزَّ، ولا أقام أهلُ الأطراف فى المخاوف والتَّغرير[٢]، ولما رضِىَ أهلُ الغيران وبطونِ الأودية بتلك المساكن، ولالتمسَ[٣] الجميعُ السُّكنى فى الواسطة، وفى بَيْضة العرب[٤]، وفى دار الأَمْن والمَنَعة. وكذلك كانت تكون أحوالهم فى اختيار المكاسب والصناعات وفى اختيار الأسماءِ والشَّهَوات. ولا ختاروا[٥] الخَطير على الحقير، والكبيرَ على الصغير.

ألا تراهم قد اختاروا ماهو أقبحُ على ماهو أحسن من الأسماءِ والصِّناعات، ومن المنازلِ والدِّيارات، من غير أن يكونوا خُدِعوا أو استُكْرِهوا.

ولو اجتمعوا على اختيارِ ماهو أرفع، ورَفْض ماهو أوضَعُ من اسمٍ أو كُنية، وفى تجارة وصناعة، ومن شهوةٍ وهمّة، لذهبت المعا لات، وبَطَل التمييز، ولوقع التجاذُب[٦] والتغالُب[٧]، ثم التَّحارُب، ولصاروا غَرضاً للتَّفانى، وأُكلةً للبَوَار[٨].

فالحمد لله أكثَرَ الحمدِ وأطيَبَه على نعمه، ماظَهَر منها وما بطَنَ، وما جُهِل منها وما عُلِم!

---

(١) ب: «سكاك». صوابه فى م. وفى النسختين بعده: «الفلاح»، صوابه ما أثبت. والقلاع: جمع قلعة، وهى الحصن فى الجبل.

(٢) ب: «والتغزير»، صوابه بالراء المهملة. غرر بنفسه تغريراً: عرضها للهلكة.

(٣) فى النسختين: «ولا التمس»، صواب رسمه ما أثبت، إذهى لام الجواب وليست «لا» النافية.

(٤) بيضة العرب: موضع سلطانهم ومجتمعهم.

(٥) فى النسختين: «ولا اختاروا». وانظر التنبيه السابق.

(٦) فى النسختين: «التجازب» صوابه بالذال. والتجاذب: التنازع، مفاعلة من الجذب.

(٧) ب: «ثم التغالب».

(٨) البوار: الهلاك. والأكلة، بالضم والفتح: المأكول.

ذكر الله تعالى الدِّيار فخبَّر عن موقعها من قلوبِ عباده ، فقال: ﴿ولو أنَّا كتَبْنَا عَلَيْهِمْ أنِ اقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ أو اخْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مافَعَلُوهُ إلَّا قليلٌ منهم[١]﴾. فسوَّى بين موقِع قتل أنفسِهم وبين الخروج من ديارهم . وقال : ﴿وَمَالَنَا ألاَّ نُقاتِلَ فى سَبِيلِ اللهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِنْ دِيَارِنَا وأبنائِنا[٢]﴾ . فسوَّى بين موقع الخروج من ديارهم وبين موقع هَلاك أبنائهم .

٢ — فصــل منه

فقسم الله تعالى المصالحَ بين المُقَام والظَّعْن ، وبين الغُربة وإلفِ الوطَن ، وبين ماهو أَربحُ وأَرفع ، حين جَعَلَ مجارىَ الأَرزاق مع الحركة والطَّلَب . وأكثرُ ذالك[٣] ماكان مَعَ طول الاغتراب ، والبُعْدِ فى المسافة ، لِيُفيدك الأُمور ، فيمكن الاختبار[٤] ويحسن الاختيار .

والعقل المولود متناهى الحدود ، وعَقْل التجارب لايُوقَف منه على حدّ . ألا ترى أنَّ الله لم يجعل إلف الوطن عليهم مفترضاً[٥] ، وقيداً مُصْمَتاً ، ولم يجعل كِفاياتِهم مقصورةً عليهم ، محتسبة لهم فى أوطانهم ؟ ألا تراه يقول: ﴿ فاقرءُوا مَاتَيَسَّرَ من القرآن ، عَلِمَ أن سَيكونُ منكم مرْضَى وآخرُون يَضْرِبُون فى الأَرض يبْتَغُون مِنْ فَضْل الله وَآخرون يُقَاتِلُون فى سَبيلِ الله[٦] ﴾ . فقسَّم الحاجاتِ فجعل أكثرَها فى البُعد . وقال عزَّ ذكره : ﴿ فإذا قُضِيت الصَّلاةَ فانتشِرُوا فى الأَرضِ وابْتَغُوا مِنْ

(١) الآية ٦٦ من النساء .
(٢) الآية ٢٤٦ من البقرة .
(٣) فى النسختين : « وأكثر من ذلك » .
(٤) م : « الاختيار » بالياء المثناة من أسفل .
(٥) م : « مترصاً » . والمترص : المحكم المقوم ، كما يترص العقد والميزان ونحوهما .
(٦) الآية ٢٠ من سورة المزمل .

فَضْل اللهِ[(١)] ﴾ فأَخرج الكلاَم والإطلاق على مُخْرج العموم ، فلم يخصَّ أَرضاً دون أَرض ، ولا قُرباً دون بُعد .

٣ – فصـــل منه

ونحن ، وإنْ أَطنبنا فى ذكر جملة القَولِ فى الوطن ، وما يَعملُ فى الطبائع ، فإنَّا لم نذكر خصالَ بلدةٍ بعينها ، فنكونَ قد خالفنا إلى تقديم المؤخَّر وتأْخير المقدَّم .

قالوا : ولم نجهل ولم ننْكر[(٢)] أنَّ نَفْس الإلف يَكون[(٣)] من صَلَاح الطبيعة ، حتَّى إنَّ أَصحاب الكِلابِ[(٤)] ليجعلون هذا من مفاخرها على جميع مايُعاشِر النَّاسَ فى دُورهم من أَصناف الطير وذوات الأَربع : وذلك أنَّ صاحب المنزل إذا هَجم منزِلَه[(٥)] واختار غيرَه ، لم يتبعْه فرسٌ ولا بغلٌ ولا حِمارٌ ، ولا ديكٌ ولا دَجاجة ، ولا حمامةٌ ولا حمام ، ولا هِرٌّ ولا هرّة ، ولا شاةٌ ، ولا عُصفور ؛ فإنَّ العصافير تأْلفُ دُورَ النَّاس ، ولا تكاد تقيم فيها إذا خَرجُوا منها . والخطاطيف تقطعُ إليهم لُتقيم فيها إلى أَوانِ حاجتِها إلى الرُّجوع إلى أوطانها ، وليس شىءٌ من هذه الأَنواع ممَّا تبوَّأَ فى الدُّور باجتلابهم لها ، ولا ماتبوَّأَ فى دورهم مما ينزِع إليهم أَحنَّ من الكَلْب ، فإنَّه يُؤْثره على وطنه ، ويَحميه ممن يغشاه .

---

(١) الآية ١٠ من سورة الجمعة . وفى النسختين : « فإذا قضيتم الصلاة » تحريف قرآنى .

(٢) فى النسختين : « ولم نذكر » ، والوجه ما أثبت .

(٣) فى النسختين : « تكون » .

(٤) فى النسختين : « الكلا » ، والوجه ما أثبت .

(٥) هجم منزله هجما : هدمه . وهجم البيت ، إذا قوض . ومنه قول علقمة :

صعل كأن جناحيه وجؤجؤه　　بيت أطافت به خرقاء مهجوم

فذكروا الكلبَ بهذا الخُلُق الذى تفرَّد به دونَ جميع الحيوان .

وقالوا فى وجه آخر : أكرم الصَّفايا أشدُّها وَلَهًا إلى أولادها[١] ، وأكرَمُ الإبل أحنُّها إلى أعطانها[٢] ، وأكرم الأفلاء[٣] أشدُّها ملازمةً لأمّهاتها ، وخير النَّاسِ آلَفُهُمْ للّناس .

٤ ــ فصــــل منه

وقلتم : خبِّرونا عن الخصال التى بانت بها قريشٌ عن جميع الناس . وأنا أعلم أنّك لم تُرد هذا ، وإنّما أردتَ الخصالَ التى بانت بها قريشٌ من سائر العرب ، كما ذكرنا فى الكتاب الأوَّل الخصالَ التى بانت بها العرب عن العجم ؛ لأنَّ قريشاً والعربَ قد يَستَوُون فى مناقبَ كثيرة . قد يُلفَى فى العربِ الجوادُ المُبرّ[٤] وكذلك الحليم والشُّجاع ، حتى يأْتىَ على خصالٍ حميدة ؛ ولكنا نريد الخصائصَ التى فى قُريشٍ دون العرب .

فمن ذلك أنّا لم نر قريشيًّا انتسب إلى قبيلة من قبائل العرب ، وقد رأينا فى قبائل العرب[٥] الأشرافِ رجالاً ــ إلى السَّاعة ــ ينتسبون فى قريش ، كنحو الذى وجَدْنا فى بنى مُرّة بنِ عوف ، والذى وجدنا من ذلك فى بنى سُلَيم ، وفى خزاعة ، وفى قبائل شريفة .

---

(١) الصفايا : جمع صفية ، وهى الناقة والشاة الغزيرة اللبن .

(٢) العطن للإبل كالوطن للناس . وقد غلب على مبركها حول الحوض . ب : « أعطانها » ، صوابه فى م .

(٣) الأفلاء : جمع فلو بالكسر ، أو فلو كعدو ، أو فلو بضمتين مع التشديد ، وهو المهر الذى لم يرض ، أو الذى بلغ السنة .

(٤) المبر : الغالب . وفى اللسان (برر ١١٩) : « وسئل رجل من بنى أسد : أتعرف الفرس الكريم؟ قال : أعرف الجواد المبر من البطىء المقرف » . ب : « المبرن » م : « المبرن » والوجه ما أثبت .

(٥) ب : « كبائر العرب » ، صوابه فى م .

وممَّا بانت قريش أنَّها لم تلِدْ في الجاهلية ولدًا قطّ [لغيرها[(١)]] ولقد أخذ ذلك منهم سُكَّانُ الطَّائف ، لقُرب الجِوار وبَعضِ المصاهرة ، ولأنَّهم كانوا حُمْساً ، وقُريش حَمَّستهم .

وممَّا بانت[(٢)] به قريش من سائِر العرب أنَّ الله تعالى جاءَ بالإسلام وليس فى أيدى جميعِ العرب سبيَّةٌ[(٣)] من جميع نساءِ قريش ، ولاوَجَدوا فى جميع أيدِى العرب ولداً من امرأةٍ من قريش .

ومما بانت[(٤)] به قريشٌ من سائر العرب أنَّها لم تكن تزوِّج أحداً من أشراف العرب إلاَّ على أن يتحمَّس . وكانوا يُزَوَّجون من غير أن يُشتَرَطَ عليهم ، وهى عامر بن صعصعة ، وثقيف، وخُزاعة ، والحارث ابن كعب، وكانوا ديانِيِّين[(٥)] ، ولذلك تركوا الغَزْو لما فيه من الغَصْب[(٦)] والغَشم[(٧)] ، واستحلال الأموال والفروج .

ومن العجب أنَّهم مع تركهم الغَزْوَ كانوا أعزَّ وأمثَلَ ، مثل أيَّامِ الفِجَار[(٨)] وذات كَهْفٍ[(٩)] .

---

(١) بها أو بنحوها يصح الكلام . وانظر ما سيأتى فى نهاية الفقرة التالية .

(٢) فى النسختين : « وما بانت » ، والوجه ما أثبت .

(٣) السبية : المسبية التى لحقها السباء، وهو الأسر والنهب . ب : « نسية » م : « سنية » ، صوابهما ما أثبت . (٤) فى النسختين : « وما بانت » ، تحريف .

(٥) نسبة إلى الديانة . وفى النسختين : « ديانين » . والديان : الحاكم والقاضى ، ولاوجه له هنا . وانظر الحيوان ٤ : ١٩٧ .

(٦) فى النسختين : « الغضب » بالضاد المعجمة ، صوابه ما أثبت .

(٧) الغشم : الظلم . ب : « القشم » م : « العشم » صوابهما بالغين المعجمة .

(٨) أيام الفجار ، بكسر الفاء : حروب أربعة كانت أولاها وثالثتها بين كنانة وهوازن وثانيتها بين قريش وهوازن ورابعتها بين قريش وكنانة كلها وبين هوازن . وكانت كلها قبل البعثة بست وعشرين سنة . وانظر العقد ٥ : ٢٥١-٢٥٧ . ب : « مثل أنام الفجار » م : « أنام الفخار » ، وبإسقاط ، « مثل » والوجه ما أثبت .

(٩) ذات كهف : موضع كانت فيه وقعة لهم . وفيه يقول بشر بن أبى خازم الأسدى :

يرومون الصلاح بذات كهف   وما فيها لهم سلع وقار

الصلاح ، بالكسر : الصلح . وانظر المفضليات ٣٤١ .

أَلَا ترى أَنَّهم عند بُنيان الكَعْبَةِ قال رؤساؤهم : لاتُخرِجوا فى نفقاتكم على هذا البيت إِلَّا من صَدُقَات نسائِكم[١] ، ومواريث أَبائِكم ! أَرادوا مالاً لم يكسبوه ولا يشكُّون أَنه لم يدخله من الحرام شيء .

ومن العجب أَنَّ كسبهم لمَّا قَلَّ مِن قِبَلِ تركهم الغَزْو ، ومالُوا إلى الإِيلاف والجِهاد، لم يَعْتَرِهِمْ من بُخل التجَّار قليلٌ ولا كثير ، والبُخلُ خِلقةٌ فى الطِّباع ، فأَعطَوُا الشُّعراءَ كما يُعطِى الملوك ، وقَرَوُا الأَضيافَ ، ووَصَلُوا الأَرحام ، وقاموا بنوائِب زُوَّارِ البيت ، فكان أَحدُهم يَحِيسُ الحَيْسَةَ فى الأَنطاع[٢] فيأْكل منها القائمُ والقاعد، والراجلُ والرَّاكب[٣] وأَطعمُوا بدلَ الحَيْس الفَالوذَج[٤] . أَلا ترى أُميَّةَ بن أَبِى الصلت يقول، ويذكُرُ عبدَ الله بن جُدْعان[٥] :

له داعٍ بمكَّةَ مشمعلٌّ وحفصٌ فوق دارتِه ينادِى[٦]

(١) الصدقات : المهور ، وهى بضم الدال وفتحهامع فتح الصاد، ومثلها الصدقة بضم الصاد وبضمتين ، وكذلك الصداق كسحاب وككتاب . وفى الكتاب العزيز : « وآتوا النساء صدقاتهن نحلة » ، لم تقرأ فى القراءات الأربع عشرة إلا بفتح الصاد وضم الدال . وانظر تفسير أبى حيان ٣ : ١٦٦ والإتحاف ١٨٦ .

(٢) الحيس : طعام يتخذ من التمر والأقط يدقان ثم يعجنان بالسمن عجناً شديداً حتى يندر النوى منه نواة نواة ثم يسوى كالثريد . والنطع بتثليث النون : بساط من الجلد .

(٣) الراجل : من يمشى على رجليه ، مقابل الراكب . وفى النسختين : « الداخل » ، صوابه ما أثبت .

(٤) الفالوذ والفالوذج: طعام يتخذ من الدقيق والماء والعسل ، معرب . وانظر صنعة متقدمة منه فى كتاب الطبيخ للبغدادى ص ٧٦ .

(٥) جدعان بضم الجيم، كما فى القاموس (جدع) . وفى النسختين: «جذعان» تصحيف. وعبد الله هذا جواد معروف مات قبل الإسلام ، واسمه عبد الله بن جدعان بن عمرو بن كعب ابن سعد بن تيم بن مرة . وقال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « شهدت مأدبة فى دار ابن جدعان» . وفى الإصابة ٤٥٧٨ أن النبى صلى الله عليه وسلم قال له: « إذا اشتريت نعلا فاستجدها، وإذا اشتريت دابة فاستفرهها ، وإذا كان عندك كريمة قوم فأكرمها » . وسألت عائشة عنه رسول الله وذكرت له ما كان فيه من الجود فقال : « إنه لم يقل رب اغفر لى خطيئتى يوم الدين » . وانظر الأغانى ٨ : ٢-٥ والعقد ١ : ٥٤/٢ : ٢٣/٤ : ٤٧. والمحبر لابن حبيب ١٣٧ - ١٣٩ .

(٦) الرواية المعروفة : « وآخر فوق دارته» . ديوان أمية ٢٧ والبيان ١ : ١٧ والأغانى ٨ : ٣ .

إلى رُدُحٍ من الشِّيزى مِلاءٍ   لُبابَ البُرِّ يُلبَك بالشِّهادِ[١]

فلُبَاب البُرِّ هو هذا النَّشا ، والشِّهاد يعنى به العسل .

ألا ترى أنَّ عمر بن الخطاب يقول: « أتُرَوْنِى لا أعرِفُ طيِّب الطعام؟ لُباب البُرِّ بصِغارِ المِعْزَى » ، يعنى خُبْزَ الحُوَّارَى بصغار الجداء[٢] .

ولقد مدحَتْهم الشُّعراءُ كما يُمدح الملوك، ومَدحَتهم الفرسانُ والأشراف وأخذوا جوائزهم ؛ منهم : دريد بن الصِّمَّة ، وأُميَّة بن أبى الصَّلت .

ومن خصالهم أنَّهم لم يُشاركوا العربَ والأعرابَ فى شىءٍ من جَفَائهم، وغِلَظ شَهَواتهم ؛ وكانوا لا يأْكلون الضِّباب ، ولا شيئاً من الحشرات ؛ ألا ترى أنَّ النبى — صلى الله عليه وسلم — أَتَوْا خِوانَهُ بضبٍّ فقال : «ليسَ من طَعامِ قَوْمى »، لأنَّهم لم يكونوا يَحرِشُون الضِّباب[٣] ، ويَصيدون اليرابيع، ويملُّون القَنافذ[٤] ؛ أصحابُ الخَمْر والخَمير ، وخُبز التَّنانير .

وقال رسول الله — صلى الله عليه وسلَّم — : « أنا أفصحُ العَرَب بيد أنِّى من قريشٍ ، ونَشأْتُ فى بنى سعد بن بكر » .

وذلك أنَّ جميع قبائِل العرب إنَّما كانت القبيلةُ لاتكاد ترى

(١) ردح ، أى قصاع عظيمة ، الواحدة رداح كسحاب . وفى النسختين : « روح » تحريف . والشيزى : خشب أسود تتخذ منه القصاع . يلبك : يخلط . والشهاد : جمع شهد بالفتح والضم ، وهو العسل مادام لم يعصر من شمعه .

(٢) الحوارى ، بضم الحاء وتشديد الواو ، مقصور : الدقيق الأبيض ، وهو لباب الدقيق وأجوده وأخلصه . والجداء : جمع جدى ، كما يجمع أيضاً على أجد وجديان . وفى النسختين : « الجدى » ، تحريف .

(٣) حرش الضب يحرشه ، بالكسر ، حرشاً : صاده ، كاحترشه . وذلك بأن يحرك يده على باب جحره ليظنه حية ، فيخرج ذنبه ليضربها فيأخذه .

(٤) يملونه : يجعلونه فى الملة ، وهو الرماد الحار والجمر ، يشتوونه ليؤكل .

وتُسمعُ إلّا من قبيلتها ورجالها ، فليس عندهم ، إلّا عند قبيل واحد ، من البيان والأدب والرأى والأخلاق ، والشمائل ، والحلم والنّجدة والمعرفة ، إلّا فى الفَرْط .

وكانت العرب قاطبَة ترد مكّة فى أيّام الموسم ، وترد أسواقَ عكاظٍ وذا المجاز ؛ وتقيم هناك الأيّامَ الطِّوال ، فتَعْرُف قريشٌ[1] ، لاجتماع الأخلاق لهم [و] الشّمائل والألفاظ ، والعُقول والأحلام ، وهى وادعة[2] وذلك قائمٌ لها ، راهنٌ عندها فى كلّ عام ، تَتملّك عليهم[3] فيقتسمونهم ، فتكون غَطَفان للمِيرة[4] ، وبنو عامرٍ لكذا ، وتميم لكذا ، تغلبها المناسك[5] وتقوم بجميع شأنها .

٥ ــ فصــل منه

وفتح مكة يسمّى فتحَ الفتوح ؛ وهو بيتُ الله ، وأهله وحُجّابُه زوّار الله ؛ وهو البيت العتيق والبيتُ الحرام ؛ وفيه الحِجْر ، والحَجر الأسْود .

وله زمزم ، وهى هزمة جبريل[6] ــ صلوات الله عليه ــ ، ومَقَام إبراهيم . وماء زمزم لِمَا شُرِب له ، العاكفُ فيه والبادِى سواءٌ[7] .

(١) عرف يعرف عرافة : صار عريفاً ، أى سيداً .

(٢) ب : « ودادعة » ، صوابه فى ش .

(٣) فى النسختين : « يتملك عليهم » .

(٤) الميرة : الطعام يمتاره المرء ، أى يجلبه . وفى النسختين : « المغيرة » ، تحريف .

(٥) لعلها : « وتغلب المناسك » .

(٦) من أسماء زمزم « هزمة جبريل » لأنه ضرب برجله فانخفض المكان فنبع الماء ، أو أنه هزم الأرض ، أى كسر وجهها عن عينها حتى فاضت بالماء الرواء . وتسمى زمزم أيضاً : « ركضة جبريل » . وفى ب : « وهو زمزمة جبريل » وفى م : « وهو مزم جبريل » ، صوابهما ما أثبت .

(٧) البادى : المقيم بالبادية . ب : « والباء » ، وهى لغة صحيحة جائزة قرأ بها جمهرة القراء فى الوقف والوصل ، وأثبت الياء فى الوصل فقط ورش وأبو عمرو وأبو جعفر . أما يعقوب وابن كثير فقد أثبت الياء فى الحالين جميعاً . إتحاف فضلاء البشر ٣١٤ فى الآية ٢٥ من سورة الحج .

وبسبب كرامته أرسل الله طَيْر الأَبابيل(١) وحجارة السِّجِّيل . وأَهلهُ حُمْس ولَقَاح(٢) لا يؤدُّون إتاوة ؛ ولهم السِّقايةُ ، ودار النَّدوة. والرِّفادةُ، والسِّدانة .

قال : وأقسم الله تعالى بها ، قال : ﴿ لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وأَنْتَ حِلٌّ بِهذا البَلَدِ(٣) ﴾ . وقوله جل ذكره : (لَا أُقْسِمُ) أى : أُقسم ، وإنَّما قوله « لا » فى هذا الموضع صلةٌ ، ليس على معنى « لا » الذى هو خلاف « نعم » .

وقالوا : ولو كان قوله : ﴿ ولْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ العَتِيقِ(٤) ﴾ يراد به تقادُمُ البنيان ، وما تعاوَرَه(٥) من كُرور الزَّمان ، لم يكن فضلُه على سائر البُلدان ، لأَنَّ الدنيا لم تَخْلُ من بيتٍ ودار ، وسُكّان وبُنْيان . وقد مرَّت الأَيَّام على مصر ، وحَرَّان ، والحِيرَةِ ، والسُّوس الأَقصى(٦) ، وأشباهِ ذلك ، فجعل البيت العتيق صفةً له، ولو كان ذهب إلى مايعنون. كان من قَبلِ أنْ يَعْتُقَ وتمرَّ عليه الأَزمنة ليس بعتيق . وهذا الاسم قد أُطلِقَ له إطلاقاً ؛ فاسمه البيت العتيق ، كما أَنَّ اسمَه بيتُ الله .

ومن زعم أَن الله تعالى حَرَّمه يوم خلق السَّمواتِ والأَرض ، فقولنا هذا مِصداقٌ له(٧) .

---

(١) هذا ما فى م . والأبابيل : الجماعات . وفى ب : « طيراً أبابيل » .

(٢) حمس : جمع أحمس ، وهو الشديد الصلب فى الدين والقتال . ويقال قوم لقاح، بفتح اللام، وحى لقاح : لم يدينوا الملوك ولم يملكوا ولم يصبهم فى الجاهلية سباء . وفى النسختين: « لقاح » بالفاء ، صوابه ما أثبت .

(٣) الآية ١ ، ٢ من سورة البلد .

(٤) الآية ٢٩ من سورة الحج .

(٥) تعاوره : تداول عليه وتعاقب . وفى ب : « تعاوده » بالدال ، صوابه فى م .

(٦) السوس الأقصى : كورة بالمغرب ، قصبتها طرقلة . وأما السوس الأدنى فهى بلدة بخوزستان . وبين السوسين مسيرة شهرين ، كما ذكر ياقوت .

(٧) ب : « مصدق » ومع سقوط « له » .

ومن زعم أنَّه إنَّما صار حراماً مذْ حرَّمه إبراهيم، كان قد زعم أنَّه قد كان ولا يقال له عتيقٌ ولا حرام .

قالوا : وممَّا يصدِّق تأْويلَنا أنَّه لم يُعرفْ إلَّا وهو لَقَاح [١] ، ولا أَدَّى أهلُه إتاوةً قطُّ [٢] ، ولا وطِئَتْه الملوكُ بالتَّمليك : أَنَّ سابورذا الأكتافِ ، وبُخْت نَصَّر وأبا يكسوم وغيرَهم، قد أَرادُوه [٣] فحال الله تعالى دونه ، فتلك عادةٌ فيه ، وسُنَّةٌ جارية له .

ولولا أَنَّ تُبَّعَ أَتاه حاجًّا ، على جهة التعظيم والتديُّن بالطَّواف ، فحجَّه وطافَ به ، وكَسَاه الوصائِل [٤] ، لأَخْرَجه الله منه .

وحجَّهُ بعضُ مُلوكِ غَسان ولخمٍ ، وهم نصارى ، تعظيماً له ، ولِما جعلَ اللهُ له فى القلوب .

والعَتيق يكون من رقِّ العبوديَّة ، كالعبد يَعتقه مولاه . ويكون عتيقاً من النار ، كالتائب من الكبائر ، وكالرَّجل يدعو إلى الإيمان فيُستجاب له ، ويتعلَّم [٥] ناسٌ على يده ، فهُمْ أيضاً عُتَقاءُ [٦] .

ويكون الرَّجلُ عتيقاً مِن عِتْق الوجه .

وربَّما كان عتيقاً كما يقال للفرس عتيقٌ وليس بهجين ولا مُقْرِف . وقد سُمِّى أبو بكرِ بن أبى قُحافَةَ — رضوان الله عليه — عتيقاً ، من طريق عِتْق الوجه ، ومن طريق أَنَّهم طلبوا المثالبَ والعيوب التى كانت تكون

---

(١) انظر مامضى فى الحاشية الثانية من ص ١١٩ .
(٢) فى النسختين : « فقط » .
(٣) فى النسختين : « قد أدوه » .
(٤) الوصائل : ثياب يمانية ، وقيل ثياب حمر مخططة يمانية ، واحدتها وصيلة .
(٥) فى النسختين : « وتعليم » .
(٦) ب : « فهو أيضا عتقاوة » م : « فهو أيضا عتقا » ، والوجه ما أثبت .

فى الأُمَّهات والآباءِ فلمْ يَجِدوها ، قالوا[١] : ما هذا إلَّا عتيق .

٦ – فصـــل منه

قد قلنا فى الخصال التى بانت بها قريشٌ دونَ العرب . ونحن ذاكرون – وبالله التوفيقُ – الخِصالَ التى بانت بها بَنُو هاشمٍ دونَ قريش .

فأوَّلُ ذلك النبوَّة ، التى هى جِماعُ خصالِ الخَيْر[٢] ، وأعلاها وأفضلُها ، وأجلُّها وأسناها .

ثمَّ وجَدْنا فيهم ثلاثةَ رجالٍ بَنِى أعمامٍ فى زمانٍ واحد ، كلُّهم يسمَّى عليًّا ، وكلٌّ واحدٍ من الثَّلاثة سيِّدٌ فقيه ، عالمٌ عابد ، يَصلُح للرِّياسة والإمامة ؛ مثلَ علىِّ بن عبد الله بن العبّاس بن عبد المطَّلبِ بن هاشم ، وعلىِّ بن الحُسَين بن علىٍّ بن أبى طالب بن عبد المطَّلب بن هاشم ، وعلىٍّ ابن عبد الله بن جَعفرِ بن أبى طالب بن عبد المطَّلب بن هاشم .

ثُمَّ وجَدْنا ثلاثةَ رجالٍ بنى أعمامٍ ، فى زمانٍ واحدٍ ، كلُّهم يسمَّى محمَّدًا ، وكلُّهم سيِّدٌ وفقيهٌ عابد . يَصلُح للرياسة والإمامة ، مثلَ محمَّد ابن علىِّ بن عبد الله بن العبَّاس بن عبد المطلب بن هاشم ، ومحمَّدِ بن علىٍّ بن الحسين بن علىٍّ بن أبى طالب بن عبد المطَّلب بن هاشم ، ومثلَ محمّد بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بن عبد المطَّلب بن هاشم .

وهذا من أغربِ مايتهيَّأ[٣] فى العالم، ويتَّفق فى الأزمنة، وهذهِ[٤] لا يشركهم فيها أحد . ولا يستطيع أن يدَّعىَ مثلَها أحد .

---

(١) ب : « قال » ، صوابه فى م .

(٢) فى النسختين : « خصال جماع الخير » ، والوجه ما أثبت . وجماع الشىء بالكسر : مجمعه ومظنته . يقال : « الخمر جماع الإثم » . وفى قول الحسين رضى الله عنه : « اتقوا هذه الأهواء التى جماعها الضلالة وميعادها النار » . اللسان (جمع ٤٠٥) .

(٣) فى النسختين : « تهيأ » .

(٤) م : « وهذا » ، صوابه فى ب .

ولبنى هاشمٍ واحدةٌ[١] مبرِّزة ، وثانيةٌ نادرة ، يتقدَّمون بها على جميع الناس . وذلك أنَّا لا نعرف فى جميع مَملكةِ العرب ، وفى جميع مَملكة العجم ، وفى جميع الأقاليم السَّبعَة ، مَلِكاً واحداً مُلكهُ مِن نصاب واحدٍ[٢] ، وفى مغرِسٍ رسالة ، إلَّا من بنى هاشم ، فإنَّ مَلِكهم العبّاسُ ابن عبد المطلب ، عمُّ رسول الله — صلى الله عليه وسلم ، والعمُّ وارثٌ ، والعمُّ أبٌ . ولا نعلم أُمّةً تدَّعى مثلَ هذا لِملكِها .

وهذا شىءٌ سمعتُه من أبى عُبيدة . ومنه استمليت هذا المعنى .

ولبنى هاشم — مُذْ ملَكوا هذه الدُّفعة — دون أيَّام علىّ بن أبى طالب والحسينِ بن علىٍّ إلى يومنا هذا مائةٌ وستَّ عشْرة سنة[٣] . كان أوَّل بركتهم أنَّ الله — تعالى — رفع الطَّواعين والمُوتانَ الجارف ، فإنَّهم كانوا يُحصَدون حصداً بعد حصد .

ثمَّ الذى تهيَّأَ واتَّفق ، وخُصَّ به آل أبى طالب من الغرائب والعجائب والفضائل ، مالم نجده فى أحد سواهم : وذلك أنَّ أوَّلَ هاشمىٍّ هاشِمىِّ الأبوَين كان فى الدُّنيا وُلِدَ لأبى طالب ، لأنَّ أباهم عبد مناف . وهو أبو طالب بن شَيْبة — وهو عبد المطَّلب — بن هاشم — وهو عمرو — وهو أبو شيبة . وشيبة هو عبد المطَّلب . وهو أبو الحارث وسيِّد الوادى غير مدافَع ، بن عمرو ، وهو هاشم بن المغيرة ، وهو عبد مناف .

ثم الذى تهيَّأَ لبنى أبى طالب الأربعة : أنَّ أربعةَ إخوة كان بين كلٍّ واحد منهم وبين أخيه فى الميلاد عَشْرُ سِنينَ سواءً . وهذا عَجَبٌ .

---

(١) أى خصلة ، أو ميزة . ب : « واحد » تحريف ما فى م .

(٢) فى النسختين : « واحدة » تحريف .

(٣) هذا يؤرخ زمن تأليف هذا الكتاب ، وهو سنة ٢٤٨ ، أى قبل وفاة الجاحظ بسبع سنوات .

ومن الغرائِب التى خُصُّوا بها ، أعنى ولدَ أبى طالب ، أنَّا لا نعلم الإذكار فى بلدٍ من البُلدان ، وفى جيلٍ من الأَجيال ، [إلاَّ(١)] أَهلَ خُراسان فمن دونَهم ، فإنَّ الإذكار فيهم فاشٍ ؛ كما أنَّك لاتجد مِن وراءِ بلادِ مصر إلَّا مِئناثاً ، ثم لاترى فيهنَّ مُفِذًّا(٢) بل لا ترى إلَّا التُّؤَامَ ومن البَنات .

فتهيَّأَ فى آل أبى طالب من الإذكار مالم نَعرِفْه(٣) فى قديم الدهر وحديثه ، ولا فيما قَرُب من البُلدانِ ولا فيما بَعُد .

وذلك أنَّ آل أبى طالب أُحْصُوا منذُ أعوامٍ وحُصِّلوا ، فكانوا قريباً من أَلفين وثلثمائة ، ثم لا يزيد عددُ نسائهم على رجالهم إلاَّ دون العُشْر(٤) . وهذا عَجَب .

وإن كنتَ تريد أن تتعرَّف(٥) فضلَ البناتِ على البنين ، وفضلَ إناثِ الحيوانات على ذكورها ، فابدأ فخُذْ أربعين ذراعاً عن يمينك ، وأربعين ذراعاً عن يسارك ، وأربعين خلفك ، وأربعين أمامك ، ثم عُدَّ الرِّجالَ والنِّساءَ حتَّى تعرف ماقُلْنا(٦) ، فتعلمَ أنَّ الله تعالى لم يُحلِّل للرَّجل الواحدِ من النِّساءِ أربعاً ثم أَربعاً ، متى وقع بهن موتٌ أو طلاق ، ثم كذلك للواحد(٧) مابين الواحدةِ من الإماءِ إلى مايشاءُ من العدد ، مجموعاتٍ ومفترقات ، لئلا يَبْقَين إلَّا ذواتِ أزواج(٨) .

---

(١) تكملة يفتقر إليها صحة الكلام .
(٢) أفذت : ولدت ولدا واحداً ، وإن كان من عادتها أن تلد واحداً فهى مفذاذ .
(٣) فى النسختين : « يعرفه » ، والوجه ما أثبت .
(٤) ب : « لادون العشر » ، صوابه فى م .
(٥) م : « أن تعرف » .
(٦) ب : « بما قلنا » .
(٧) فى النسختين : « الواحد » .
(٨) ب : « لاذوات أزواح » م : « لاذات أزواج » ، والوجه ما أثبت .

ثم انظر فى شأْن ذَوَاتِ البَيْض[(١)] وذوات الأَولاد فإنَّك سترى فى دارٍ خمسين دجاجةً وديكاً واحداً ، ومن الإِبل الهَجْمةَ وفحلاً واحداً ، ومن الحمير العانَةَ وعيراً واحداً . فلمَّا حصلوا كل مئناثٍ وكلَّ مذكار ، فوجدو آل أَبى طالبٍ قد بَرَعوا على الناس وفَضَلوهم[(٢)] ، عرف الناس موضعَ الفضيلةِ له والخُصوصيَّة .

وفى ولدِ أَبى طالبٍ – أَيضاً – أُعجوبةٌ أُخرى ؛ وذلك أَنَّه لم يُوجد قَطُّ فى أَطفالِهِم طفلٌ يَحْبُو ، بل يَزحفُ زحفاً لئلاَّ ينكشفَ منه عن شىءٍ يَسوءُه ، ليكونَ أَوفَرَ لبهائه ، وأَدَلَّ على ماخُصُّوا به .

ولهم من الأَعاجيب خَصلةٌ أُخْرى : وذلك أَنَّ عُبيدَ الله بنَ زيادٍ قَتَل الحُسينَ فى يومِ عاشُوراء ، وقَتَله اللهُ يومَ عاشوراءَ فى السَّنَة الأُخرى .

وقالوا : لا نعلم موضع رجلٍ من شُجعانِ أَصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، كان له من عَدَدِ القَتْلى[(٣)] ماكان لعلىٍّ رضوان الله عليه ، ولا كان لأَحدٍ مع ذلك من قَتْل الرُّؤساءِ والسَّادة ، والمتبوعين والقادَة ، ما كان لعلىِّ بن أَبى طالبٍ . وقتلُ رئيسٍ واحد ، وإن كان دون بَعضِ الفُرْسان فى الشِّدَّة ، أَشدُّ ؛ فإِنَّ قتلَ الرئيس أَرَدُّ على المسلمين وأَقوى لهم من قتل الفارسِ الذى هو أَشدُّ من ذلك السيِّد .

وأَيضاً – أَنَّه قد جمع بين قتلِ الرُّؤساءِ وبين قَتْل الشُّجعان .

وله أُعجوبةٌ أُخرى ؛ وذلك أَنَّه مع كثرةِ ماقَتَل وما بارز ، وما مَشَى بالسيف إلى السَّيف ، لم يُجْرَحْ قطُّ[(٤)] ولا جَرحَ إنساناً إلَّا قَتَله ،

(١) فى النسختين : « ولا ذات البيض » ، صوابه ما أثبت .
(٢) م : « وفضلوا » .
(٣) فى النسختين : « من عذر القتلى » ، والصواب ما أثبت . والمراد عدد من قتل من نسله .
(٤) م : « لم يخرج قط » ، صوابه فى ب

ولا نعلم فى الأرض متى ذُكِر السَّبقُ فى الإسلامِ والتَّقدُّمُ فيه، ومتى ذُكِر الفِقهُ فى الدِّين ، ومتى ذُكر الزُّهد فى الأموالِ التى تَشَاجَرَ النَّاسُ عليها ، ومتى ذُكِر الإعطاءُ فى الماعون ، كان مذكوراً فى هذه الحالاتِ كلِّها — إلَّا علىَّ بنَ أبى طالبٍ كرَّم الله وجهه .

قالوا : وكان الحسن يقول : قد يكون الرجل عالماً وليس بعابد ، وعابداً وليسَ بعالمٍ ، وعابدًا وليس بعاقل ، وعاقلاً وليس بعابد . وسُليمان ابن يسار(١) عالمٌ عاقل عابد ، فانظُرْ أين يقع خصال سليمانَ من خصال علىٍّ بن أبى طالب رضى الله عنه .

ولم يكن قصدُنا فى أوَّل هذا الكتاب إلى ذكر هاشم ، وقد كان قصدُنا الإخبارَ عن مكَّةَ بما قد كتبناه فى صدر هذا الكتاب ، ولكنَّ ذكر خصالِ مكَّةَ جرَّ ذكر(٢) خصالَ قريش ، وذكر خصال قريش جرَّ ذكر(٣) خصالِ بنى هاشم .

فإن أحببتَ أن تعرفَ جُملة القولِ فى خصال بنى هاشم فانظر فى كتابى هذا الذى فَرَّقْتُ فيهِ بين خصال بنى عبدِ منافٍ وبين بنى مخزوم ، وفَرَّقت(٤) ما بين عبد شمس ؛ فإنَّه هُنَاكَ أوفَرُ وأجمَعُ ، إنْ شاءَ الله تعالى .

---

(١) هو أبو أيوب ، أو أبو عبد الرحمن ، أو أبو عبد الله ، سليمان بن يسار الهلالى المدنى ، مولى ميمونة ، ويقال كان مكاتباً لأم سلمة . روى عن ميمونة وأم سلمة وعائشة وزيد ابن ثابت وابن عباس وغيرهم . وعنه عمرو وعبد الله ابنا دينار ، وأبو الزناد والزهرى ونافع وغيرهم . وكان ثقة عابداً ، يصوم يوماً ويفطر يوماً . ولد سنة ٢٧ وتوفى سنة ١٠٧ . تهذيب التهذيب وصفة الصفوة ٢ : ٤٥ .

(٢) ب : « جر ذلك » ، صوابه فى م .

(٣) ب : « جر ذلك » ، صوابه فى م .

(٤) م : « وفرق » ، وأثبت ما فى ب .

٧ ــ فصل منه

قالوا : وقد تعجَّبَ الناسُ من ثَباتِ قريش ، وجزالة عَطاياهم ، واحتمالهم المُؤَنَ الغلاظ(١) فى دوام كَسْبِهِم من التِّجارة ، وقد علموا أنَّ البُخْلَ والبَصَر(٢) فى الطَّفيف مقرونٌ فى التجارة ، وذلك خلُقٌ من أخلاقهم . وعلى ذلك شاهِدُ أهلِ الترقيح(٣) والتكسُّب والتَّدنيق(٤) .

فكان فى ثبات جُودهم العالى على جُود الأَجواد ، وهم قومٌ لا كَسْبَ لهم إلَّا من التجارة ، عَجَبٌ من العَجَب .

ثُمَّ جاء ما هو أَعجَبُ من هذا وأَطمُّ(٥) ،وذلك أنَّا قد علمنا أَنَّ الرُّوم قَبْلَ التديُّن بالنَّصرانيَّة ، كانت تنتصفُ من ملوك فارس ، وكانت الحروب بينهم سِجالاً ، فلمَّا صارت لا تَدِينُ بالقَتْل والقتال ، والقَوَد والقِصاص ، اعتراهُم مثلُ مايعترى الجُبَناء حتَّى صاروا يتكلَّفون القتالَ تكلُّفا . ولَمَّا خامرتْ طَبائعَهم تلك الدِّيانة ، وسَرَتْ فى لحومهم ودمائهم فصارت(٦) تلك الدِّيانة تَعترِض عليهم ، خَرَجُوا من حدود الغالبيَّة إلى أنْ صاروا مغلوبين .

وإلى مثل ذلك صارت حَالُ الُتغزْغُز(٧) من التُّرك . بعد أَن كانوا

(١) ب : « المومن الغلاظ » ، صوابه فى م .

(٢) فى النسختين : « والبطر » .

(٣) ترقيح المال : إصلاحه والقيام عليه . م : « الترجيح » ، تحريف .

(٤) فى النسختين : « والمكسب » ، والوجه ما أثبت . والتدنيق : البخل والشح ، مأخوذ من الدانق بكسر النون وفتحها ، وهو سدس الدينار والدرهم .

وفى حديث الحسن : « لعن الله الدانق ومن دنق » . والمراد به هنا الحرص والدقة فى المعاملة .

(٥) أى أكثر وأعظم . ومنه الطامة ، وهى القيامة ، والداهية .

(٦) م : « فسارت » ، صوابه فى ب .

(٧) التغزغز : جيل من الترك كانوا يعيشون فى بقاع موغلة نحو الغرب ، وكانوا جيراناً لخرلخ ، أو القرلق . وقد انحدر من نسلهم أحمد بن طولون . انظر دائرة المعارف الإسلامية فى رسمها . ب : « التغرغر » م : « التفرغز » صوابهما ما أثبت . وانظر حواشى الكامل لابن الأثير ١١ : ١٧٨ بيروت .

أنجادَهم وحُماتَهم ، وكانوا يتقدّمون الخَرْلُخِيَّة(١) ، وان كانوا فى العدَدِ أضعافَهم ، فلما دانُوا بالزَّندقة - ودينُ الزَّندقة فى الكَفِّ والسِّلْمِ أسوأُ من دِين النَّصارى - نَقَصَت تلك الشَّجاعة ، وذهبَتْ تلك الشهامة .

وقريشٌ من بين جميع العرب دانُوا بالتحمُّس ، وتشدَّدوا فى الدين، فتركوا الغَزْو كراهةً للسَّبْى واستحلال الأَموال واستحسان الغَصْب ؛ فلمَّا تركوا الغَزْوَ لم تبقَ مكسبةٌ سوى التِّجارة، فضربوا فى البلادِ إلى قيصَرَ بالرُّوم ، وإلى النجاشىِّ بالحبشة ، وإلى المُقوقِس بمصر ، وصاروا بأَجمعهم تُجَّاراً خُلَطاءَ ، وبانوا بالدِّيانة والتحمُّس ، فحمَّسوا بنى عامر ابن صعصعة ، وحمَّسوا الحارثَ بنَ كعب ، فكانوا - وإن كانوا حُمْساً - لا يتركون الغَزْوَ والسَّبى ووطءَ النِّساء، وأَخْذَ الأَموال ، فكانت نَجْدتهم - وإن كان أنقَصَ - فإنَّها على حالِ النَّجْدة ، ولهم فى ذلك بقيَّةٌ(٢) .

وتركَتْ قريشٌ الغَزْو بَتَّةً ، فكانوا - مع طُولِ تَرْك الغَزْو - إذا غَزَوْا كالأُسود على براثنِها ، مع الرأى الأَصيل ، والبصيرةِ النَّافذة .

أَفليسَ من العَجَب أَنْ تبقَى نَجدتُهم ، وتثبُتَ بسالتُهم ، ثم يَعْلون الأَنجاد والأَجواد، ويَفْرَعُون الشُّجعان(٣) ؟! وهاتان الأُعجوبتان بيِّنتان(٤) .

وقد عُلِمَ أَنَّ سبب استفاضةِ النجدة(٥) فى جميع أَصناف الخوارج

---

(١) فى ب : « الخزلجية » م : « الخزلجية » ، صوابهما ما أثبت . وانظر دائرة المعارف (خرلخ) و (قرلق) .

(٢) البقية : الفضل فيما يمدح به .

(٣) فى النسختين : « ويعرفون الشجعان » ، والوجه ما أثبت . فرع القوم : علاهم وفاقهم .

(٤) فى النسختين : « بليتان » .

(٥) ب : « أن السبب استفاضة النجدة » ، صوابه فى م .

وتقدُّمِهم فى ذلك ، إنّما هو بسبب الدِّيانة ، لأنّا نجد عبيدَهم ومواليَهم ونساءَهم ، يقاتلون مثلَ قتالِهم ، ونجد السِّجستانىَّ وهو عجمىٌّ ، ونجد اليمامىَّ والبَحْرانىَّ والخوزىَّ(١) [وهم غير(٢)] عرب، ونجد إباضيَّة عُمَان وهى بلادُ عربٍ ، وإباضيَّة تاهرت وهى بلاد عجم ، كلُّهم فى القتال والنَّجدة ، وثبات العزيمة ، والشِّدَّة فى البأس سواءٌ . فاستوت حالاتهم فى النَّجدة مع اختلافِ أنسابهم وبُلدانِهم . أفما فى هذا دليلٌ على أنَّ الذى سوَّى بينهمُ التَّديُّنُ بالقتال ، وضروبٌ كثيرة من هذا الفَنِّ ؟!

وذلك كلُّه مُصوَّرٌ فى كتبى ، والحمدُ لله .

وقد تَجِدون عُمومَ السُّخف والجهلِ والكذب فى المواعيدِ ، والغِشِّ فى الصناعة ، فى الحاكةِ(٣) ، فدلَّ استواءُ حالاتهم فى ذلك على استواءِ عِلَلهم . ليست هناك عِلّةٌ إلّا الصِّناعة ؛ لأنَّ الحاكة فى كل بلدٍ شىءٌ واحد . وكذلك النَّخَّاس وصاحب الخُلْقان(٤) ، وبيَّاع السَّمك . وكذلك الملَّاحون وأصحاب السَّماد ، أوَّلُهم كآخرهم ، وكهولُهم كشُبَّانهم ، ولكن قُلْ فى استواءِ الحجَّامين فى حُبِّ النبيذ(٥) !

٨ — فصل منه
فى ذكر المدينة

وأمْر المدينة عَجَبٌ ، وفى تُربِها وتُرابِها(٦) وهوائها ، دليلٌ وشاهدٌ

---

(١) م : « والخوارزنى » . والخوز هم أهل خوزستان .
(٢) تكلة يفتقر الكلام إليها .
(٣) مابعده إلى « الحاكة » التالية ، ساقط من م .
(٤) انظر لأصحاب الخلقان ما مضى فى ١ : ٥٢ والحيوان ٢ : ١٠٥
(٥) أى حدث عنهم ولا حرج .
(٦) التربة : ظاهر الأرض . ومثله فى الحيوان ٣ : ١٤٢ : « وفى ريح ترابها وبنة تربتها » .

وبرهانٌ على قول النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «إنَّها طيِّبة تنْفِي خَبَثَها وتنصع طِيبَها[1]» لأنَّ من دخلها أو أقام فيها. كائناً من كان[2] من النَّاس. فإنَّه يجد من تُربتها وحِيطانها رائِحةً طيبةً. ليس لها اسمٌ فى الأَرابيح[3]، وبذلك السبب طاب طِيبُها والمَعجوناتُ من الطِّيب فيها. وكذلك العُودُ وجَميعُ البَخُور، يَضَّاعَفُ طِيبُها فى تلك البلدة على كلِّ بلدٍ استعمل ذلك الطِّيب بعينه فيها.

وكذلك صَيَّاحها[4] والبَلَحُ[5] والأَتْرُجُّ والسَّفَرْجل، أعنى المجعول منها سُخُباً للصِّبيان والنِّساءِ[6].

فإن ذكروا طِيب سابور[7] فإنَّما طيب سابور بطيب أرياح الرَّياحين، وذلك من ريح رياحينها وبساتينها وأنوارها، ولذلك يَقْوَى فى زمان، ويَضْعُف فى زمان.

ونحن قد ندخل دِجْلة[8] فى نهر الأُبُلَّة بالأسحار، فنجد من تلك

---

(١) فى اللسان (نصع): «وفى الحديث: المدينة كالكير، تنفى خبثها وتنصع طيبها، أى تخلصه». وانظر الألف المختارة الحديث ١٥٩. ففيه رواية أخرى.

(٢) م: «ما كان».

(٣) وكذا فى الحيوان ٧: ٢٣٠: «وجد منها عرفاً طيباً وبنة عجيبة لا تخفى على أحد ولا يستطيع أن يسميها».

(٤) الصياح، بوزن كتان: عطر أو غسل، كما فى القاموس. وفى النسختين: «صباحها»، تحريف. وانظر الحيوان ٣: ١٤٢ — ١٤٣

(٥) فى النسختين: «والثلج»، صوابه من الحيوان ٣: ١٤٤، وفيه: «وإن الجورية السوداء لتجعل فى رأسها شيئاً من بلح وشيئاً من نضوح مما لا قيمة له لهوانه على أهله، فتجد لذلك خمرة طيبة، وطيب رائحة لا يعدلها بيت عروس من ذوى الأقدار».

(٦) السخب، بفتحتين: جمع سخاب ككتاب، وهو خيط ينظم فيه خرز وتلبسه الصبيان والجوارى.

(٧) سابور: كورة بأرض فارس، مدينتها النوبندجان، أو شهرستان. وهى كورة نزهة كما ذكر ياقوت.

(٨) ب: «دخلة»، صوابه فى م.

الحدائق ، ونحن فى وَسَط النهر ، مِثلَ ما يجد أهل سابورَ من تلك الرّائحة .

وطَيْبة[١] التى يسمُّونها المدينة ، هذا الطِّيب خِلقةٌ فيها، وجوهريَّة منها، وموجودٌ فى جميع أحوالها . وإنَّ الطِّيب والمعجونات لَتُحْمَلُ إليها فتزداد فيها طِيباً، وهو ضدُّ[٢] قَصَبة الأهواز وأنطاكيَّة ، فإنَّ الغَوالىَ تستحيل الاستحالة الشّديدة[٣] .

ولسنا نشكُّ أنَّ ناساً ينتابون[٤] المواضعَ التى يباع فيها النَّوَى المُنْقَع ، فيستنشقون تلك الرائحة ، يُعجَبون بها ويلتمسونها ، بقدر فِرارنا نحن من مواقع النَّوى عندنا بالعراق ، ولو كان من النَّوى المَعجوم ومن نَوَى الأفواه[٥] .

ونحن لا نشكُّ أنَّ الرجل الذى يأكل بالعراق أربع جَرادقَ[٦] فى مقعد واحد من المَيْسانىِّ[٧] والمَوصلىِّ ، أنَّه لا يأكل من أقراص المدينة قُرصَين ؛ ولو كان ذلك لغلظٍ فيه أو لفسادٍ كان فى حبِّه وطَحِينه لَظَهر ذلك فى التُّخَم وسوءِ الاستمراء ، ولتولَّد على طول الأيَّام من ذلك أوجاعٌ وفساد كثير .

ولم يكن بها طاعونٌ قطُّ ولا جُذام .

---

(١) طيبة ، بالفتح : اسم للمدينة ، وبالكسر : اسم من أسماء زمزم .
(٢) ب : « عند » ، صوابه فى م .
(٣) الغالية : ضرب من الطيب ، وقد تغلى ، أى تخلق بها .
(٤) ب : « يتناوبون » .
(٥) المعجوم : المدقوق . والأفواه : جمع فوه كسوق ، وهى التوابل ونوافح الطيب . وانظر الحيوان ٣ : ١٤٤
(٦) الجردقة : الرغيف ، فارسى معرب . ويقال جردق أيضاً .
(٧) نسبة إلى ميسان ، بالفتح ، وهى كورة بسواد العراق .

وليس لبلدةٍ من البُلدان من الشُّهرة[(١)] فى الفقه مالَهُم ولرِجالهم ، وذكر عبد الملك بن مروان رَوْح بن زِنباعٍ[(٢)] فمدحه فقال : جمعَ أبو زُرْعة فِقه الحِجاز ، ودَهاءَ العراق ، وطاعة أهلِ الشام[(٣)] » .

٩ – فصــل منــه
فى ذكر مصر

قال أبو الخَطَّاب[(٤)] : لم يذكر الله جلَّ وعزَّ شيئاً من البُلدانِ باسمِهِ فى القُرآن كما ذكر مِصْر ، حيث يقول : ﴿ وقَالَ الذى اشْتَرَاه مِنْ مِصرَ لامرأتِهِ أَكْرِمِى مَثْوَاه[(٥)] ﴾ . وقال : ﴿ فَلَمَّا دَخَلُوا على يُوسَفَ آوَى إليه أَبَوَيْهِ وقَال ادخُلوا مِصْرَ إن شَاءَ الله آمِنين[(٦)] ﴾ وقال : ﴿ وأَوحَيْنَا إلى موسى وأَخِيه أَنْ تَبَوَّءا لِقَوْمِكُمَا بِمصْرَ بُيوتاً واجْعَلُوا بُيوتَكُمْ قِبْلَةً[(٧)] ﴾ وقال تعالى : ﴿ اهبِطُوا مِصْراً فإنَّ لكم ما سألْتُم[(٨)] ﴾ وقال فى آية : ﴿ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وهذِهِ الأَنْهارُ تَجرِى مِنْ تَحْتِى[(٩)] ﴾ .

---

(١) فى النسختين : « الشهوة » ، صوابه ما أثبت .

(٢) هو أبو زرعة روح بن زنباع بن روح بن سلامة الجذامى . قال ابن حجر فى الإصابة : ذكره بعضهم فى الصحابة ولا يصح له صحبة ، بل يجوز أن يكون ولد فى عهد النبى صلى الله عليه وسلم . وكان أحد ولاة فلسطين أيام يزيد بن معاوية . الأغانى ١٧ : ١١١ . وزوجه عبد الملك ابن مروان أم جعفر بنت النعمان بن بشير . الحيوان ١ : ٢٢٦ . وكان سيد جذام . البيان ١ : ٣٤٦

(٣) الخبر فى الإصابة ٢٧٠٧ .

(٤) أبو الخطاب هذا هو قتادة بن دعامة السدوسى البصرى . وهو ممن ولد أعمى ، وكان تابعياً عالماً كبيراً نسابة ، وذا علم فى القرآن والحديث والفقه . أخذ عن الحسن وابن سيرين ، وعنه أيوب السختيانى وهشام الدستوائى وسعيد بن أبى عروبة وغيرهم . وروى له البخارى ومسلم وأبو داود والترمذى والنسائى وابن ماجه . ولد سنة ٦١ وتوفى سنة ١١٧ فى أيام هشام بن الملك . تهذيب التهذيب ، ووفيات الأعيان ، ومعجم الأدباء ، والمعارف ، ونكت الهميان .

(٥) الآية ٢١ من سورة يوسف . (٦) الآية ٩٩ من سورة يوسف .

(٧) الآية ٨٧ من سورة يونس . والكلام بعدها إلى « تجرى من تحتى » ساقط من ب .

(٨) الآية ٦١ من سورة البقرة . وقرأ الحسن والأعمش : « مصر » بلا تنوين . وانظر إتحاف فضلاء البشر ١٣٧ .

(٩) الآية ٥١ من سورة الزخرف .

وذكر مصرَ فى القرآن بالكِناية عن خاصَّة اسمِها ، فمن ذلك : ﴿ وقَالَ نِسوةٌ فى المدينةِ امرَأَةُ العَزِيز تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ[(١)] ﴾ قالوا[(٢)] : هى مدينة مَنْف[(٣)] ، وهو موضعُ منزل فرعون .

وأخبرنى شيخٌ من آل أبى طالبٍ من ولد علىٍّ صحيحُ الخبرِ : مَنْف دارُ فِرعون ، ودُرْتُ فى مجالسِهِ ومثاويه[(٤)] وغُرَفه وصِفافه ، فإذا كلُّه حجرٌ واحدٌ مَنقور ؛ فإن كانوا هَنْدَموه وأحكموا بِناءه حتَّى صار فى الملاسة واحداً ، لايُستَبانُ فيه مَجْمَعُ حَجَرين ، ولا مُلْتَقَى صخرتين فهذا عَجَبٌ . ولئن كان جَبلاً واحدًا ، ودَكًّا واحداً ، فنقَرتْه الرِّجال بالمناقير حتَّى خرقت فيه تلك المخاريق ، إنَّ هذا لأَعْجَب .

وفى القرآن : ﴿ فَلنْ أَبْرَحَ الأَرضَ حتَّى يأْذَنَ لى أَبِى أَوْ يحكُمَ اللهُ لى وهو خَيْرُ الحاكِمين[(٥)] ﴾ .

قال : والأَرضُ ها هنا مِصْر . وفى هذا الموضع كلامٌ حَسنٌ ، ولكنَّا ندَعُهُ مخافة أَن نَخرج إلى غير الباب الذى أَلَّفْنا له هذا الكتاب .

قالوا : وسمَّى الله تعالى مَلِكَ مِصر «العَزيز» ، وهو صاحبُ يوسف، وسمَّى صاحبَ موسى « فِرعون » .

قالوا : وكان أَصلُ عُتوِّ فِرعونَ مُلكَه العظيمَ ، ومملكتَه التى لاتُشبهها مملكة .

---

(١) الآية ٣٠ من سورة يوسف .

(٢) ب : « قال » .

(٣) فى النسختين : « مرو » ، صوابه ما أثبت . وانظر ما سيأتى .

(٤) المثوى : المنزل ، وموضع الإقامة . وفى النسختين : « ومساويه » ، وهو تصحيف ما أثبت .

(٥) الآية ٨٠ من سورة يوسف .

قالوا : ومنهم مؤمنُ آلِ فِرعون . وهى آسِية بنت مُزاحم .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « سيِّدة نساءِ العالَم خديجةُ بنتُ خويلد ، وفاطمة بنتُ محمَّد ، ومريمُ بنتُ عمران ، وآسية بنت مُزَاحم » .

قال[١] : ولمَّا همَّ فِرعونُ بقَتْلِ موسى قالت آسية : لا تَقتُلْه عسى أن ينفَعَنا أو نتَّخذه ولدًا . وقالت : وكيف تَقْتله ، ووالله مايعرف الجمرةَ من التَّمرة .

ومنهم السَّحرة الذين كانوا قد أبرُّوا على أهل الأَرض[٢] ، فلما أبصَرُوا بالأَعلام ، وأيقنوا بالبُرهان ، استبصروا وتابوا توبة ماتابَهَا ماعزُ بنُ مالك[٣] ، ولا أَحدٌ من العالَمين ، حتَّى قالوا لفرعون :﴿ اقض ما أَنتَ قاضٍ ، إنَّما تقضى هذه الحياةَ الدُّنْيَا ، إنَّا آمَنَّا بَربِّنا ليَغْفِرَ لنا خَطَايانا وما أَكْرَهْتَنَا عليه مِنَ السِّحْرِ[٤] ﴾ .

وجاءَ فى الحديث : « من أَخربَ خَزَائنَ اللهِ فَعَلَيْهِ لَعْنةُ الله » . قالوا[٥] :

---

(١) أى شيخ من آل أبي طالب . أو لعلها : « قالوا » .

(٢) أبروا عليهم إبراراً : غلبوهم . ومنه قول طرفة :

يكشفون الضر عن ذى ضرهم ويبرون علـــى الآبى المـــبر

وفى النسختين : « قد أبلوا على أهل الأرض » ، صوابه ما أثبت .

(٣) ماعز بن مالك : أحد الصحابة ، كان قد زنى فأقر على نفسه ، وانطلق إلى رسول الله يطلب منه إقامة الحد عليه ، وألح فى ذلك إلحاحاً . فأمر الرسول برجمه فرجم ، فلما عضه مس الحجارة انطلق يسعى ، فعاجله رجل بلحى جزور فضربه فصرعه . وقال صلى الله عليه وسلم فى شأنه : « لقد تاب توبة لوتابها طائفة من أمتى لأجزأت عنهم » ، كما قال : « والذى نفسى بيده إنه الآن لفى أنهار الجنة يتقمس فيها » . انظر مسند أحمد ٥ : ٢١٧ والسنن الكبرى للبيهقى ٨ : ٢٢٥ — ٢٢٨ ومسلم ٢ : ٣٣ — ٣٥ والإصابة ٧٥٨١ وتأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ٢٢٨ — ٢٤١

(٤) الآية ٧٢ من سورة طه . ونصها : « فاقض ما أنت قاض » ، والاقتباس من القرآن الكريم مع ترك حرف جائز لا بأس به . انظر حواشى الحيوان ٤ : ٥٧ وتحقيق النصوص ٥٤ ،

(٥) ب : « قال » ، وأثبت مافى م .

خزائن الله هى مصر ، أمَا سمِعتم قولَ يوسف : ﴿ اجْعَلنِى عَلَى خَزَائِنِ الأَرْض(١) ﴾ ؟

وقال عبد الله بن عَمرو : « البركة عَشْرُ بركات : تسعٌ بمصر والواحدة فى جميع الأَرض » .

١٠ – فصل منه

وقال أهل العِراق : سأَلْنا بِطْرِيق خَرْشَنة(٢) عن خَرَاج الرُّوم ، فذكر مقداراً(٣) من المال ، وقال . هو كذا وكذا قِنطاراً . فنظر بعضُ الوزراءِ فإذا خراجُ مصر وَحْدَه يُضعِف على خراج بلاد الروم إذا جُمعت أبوابُ المالِ من البلاد جميعا .

وزعم أبو الخطَّاب(٤) أنَّ أرض مصر جُبِيَتْ أربعة آلافِ ألف دينار .

١١ – فصل منه

ولا أعلم الفُرقة فى المغْرب إلا أكثر من الفُرقة فى المشرق ، إلَّا أنَّ أهلَ المغرب إذا خرجوا لم يزيدوا على البِدعة والضَّلالة ، والخارجىُّ فى

---

(١) الآية ٥٥ من سورة يوسف .

(٢) خرشنة : بلد قرب ملطية من بلاد الروم ، كما فى ياقوت . وانظر الحيوان ٣ : ٢١٥ والبيان والتبيين ٢ : ٤٤ ، ٢٦٥ . وفى النسختين : « حرسه » ، صوابه ما أثبت .

(٣) ب : « مقدار » ، صوابه فى م .

(٤) أبو الخطاب قتادة بن دعامة المترجم فى ص ١٣١ .

المشرق لايرضَى بذلك حتَّى يجوزَه إلى الكفر ، مثل المقنَّع[١] وشيبان[٢] والإصبَهبَذ[٣] وبابَكَ[٤] ، وهذا الضَّرب .

١٢ — فصل منه

وقد علمنا أنَّ لِجماعةِ بنى هاشم[٥] طابَعاً[٦] فى وجوههم يستبين به كرمُ العِتق وكَرَمُ النِّجار[٧] ، وليس ذلك لغيرهم .

ولقد كادت الأَهواز تُفسِد هذا المعنى على هاشميَّة الأَهواز ، ولولا

---

(١) هذا هو المقنع الخرسانى ، وكان قد خرج على المهدى بخراسان سنة ١٦١ . وكان أعور قصاراً ، من قرية يقال لها «كازه كيمردان» ، وكان قد عرف شيئاً من الهندسة والحيل والنيرنجات فادعى لنفسه الإلهية عن طريق التناسخ ، واحتجب عن الناس ببرقع من حرير ، ودامت فتنته على المسلمين أربع عشرة سنة ، أباح لهم فيها كثيراً من المحرمات ، فوجه إليه المهدى عدة من قواده ، وجعل المقنع يجمع الطعام عدة لحصار فى قلعته بكش ، وقد تمكن سعيد الحرشى من تشديد الحصار عليه ، فلما أحس بالهلكة شرب سماً وسقاه نساءه وأهله فماتوا جميعاً ، ودخل المسلمون قلعته سنة ١٦٣ واحتزوا رأسه ووجهوا به إلى المهدى . الطبرى فى حوادث ١٦١ — ١٦٣ والفرق بين الفرق ٢٤٣ — ٢٤٥ والآثار الباقية للبيرونى ٢١١ وشروح سقط الزند ١٥٤٥ .

(٢) هو شيبان بن عبد العزيز الحرورى اليشكرى ، الذى خرج فى أيام مروان بن محمد بعد مقتل الضحاك بن قيس الشيبانى رأس الخوارج ، وقد طارده مروان حتّى صار شيبان إلى عمان فقتله بها جلندى بن مسعود سنة ١٢٩ . الطبرى فى حوادث سنة ١٢٩ . وفى النسختين : «سيفاد».

(٣) هو الفرخان ، إصبهبذ خراسان على طبرستان . وقد جرى فتح طبرستان على يد سويد ابن مقرن سنة ٢٢ ، وذلك بعد عهد بالصلح تاريخه سنة ١٨ . انظر الطبرى . والإصبهبذ هو بالفارسية «إسبهبد» بتفخيم الباء الأولى فقط ، ومعناه : القائد العام . استينجاس ٤٨ . وفى ب : «والاصبهيدى» وفى م : «والإصبهيد» ، صوابهما ما أثبت .

(٤) هو بابك الخرمى ، رئيس الخرمية بعد موت زعيمهم جاويدان بن سهل ، واشتدت شوكته فى أيام المعتصم ، وحاربه الأفشين واستولى على معقله مدينة البذ ، ثم وقع فى يد سهل بن سنباط بطريق أرمينية وقبض عليه وهو يصطاد ، وسلمه إلى الأفشين ، وصلبه المعتصم سنة ٢٢٣ . الطبرى ، ودائرة المعارف الإسلامية .

(٥) ب : «أن الجماعة بنى هاشم» ، صوابه فى م .

(٦) ب : «طائعاً» ، صوابه فى م . والطابع ، بالفتح والكسر : الخاتم الذى يختم به ، وكذا الميسم الذى توسم به الدواب ، والمراد هنا العلامة .

(٧) النجار ، بكسر النون : الأصل والحسب . ب : «النجار» ، م : «البخار» صوابهما ما أثبت .

أَنَّ الله غالبٌ على أَمره لقد كادت[(١)] طمست على ذلك العِتْق ومحَتْه[(٢)] . فتربتُها خلافُ تربةِ الرسول صلى الله عليه وسلم : وذلك أَنَّ كلَّ من تخَرَّق طُرق المدينة[(٣)] وجدَ رائحةً طيِّبةً ليستمن الأَرابيح المعروفة الأَسماء.

١٣ — فصل منه

قال زياد : الكوفة جاريةٌ جميلة لا مالَ لها ، فهى تُخطَب لجمالها . والبصرة عَجوزٌ شوهاءُ ذاتُ مال فهى تُخَطب لمالِها .

١٤ — فصل منه

والفراتُ خيرٌ من مَاءِ النِّيل[(٤)] . وإمَّا دِجلة فإنَّ ماءها يقطع شهوةَ الرِّجال . ويَذهَب بصهيل الخيل ، ولا يَذْهَب بصهيلها إلَّا مع ذَهَاب نشاطها ، ونقصان قواها ؛ وإن لم يتنسَّم[(٥)] النازلون عليها أَصابهم قحولٌ فى عظامهم[(٦)] ، ويُبسٌ فى جلودهم .

وجميعُ العَرَب النَّازلين على شـاطئ دِجلة من بغداد إلى بلد[(٧)]

---

(١) فى النسختين : « لولا أن الله غالب على أمره ولقد كادت » ، والوجه إثبات الواو فى أول الكلام وحذفها فى آخره .

(٢) فى النسختين : « ومحبه » ، صوابها ما أثبت .

(٣) تخرق ، أراد يتخلل . ولم أجد نصاً على هذا الفعل إلا ماورد فى اللسان ١١ : ٣٦ : « قال أبو عدنان : المخارق : اللاص يتخرقون الأرض، بينا هم بأرض إذا هم بأخرى » . وكذا ماورد فى الحيوان ٢ : ٣٣١ من قوله : « يتخرق السنانير » .

(٤) يعنى نيل الكوفة ، وهو خليج كبير يتخلج من الفرات ، حفره الحجاج بن يوسف وسماه باسم نيل مصر .

(٥) التنسم : طلب النسيم واستنشاقه . فى النسختين : « يتبسم » ، ولا وجه له .

(٦) القحول : اليبس . م : « الفحول » صوابه فى ب .

(٧) بلد : مدينة قديمة على دجلة فوق الموصل؛ بينهما سبعة فراسخ ، وينسب إليها جماعة كبيرة من العلماء .ويقال لها أيضاً « بلط » بالطاء. قال ياقوت: « وبلد أيضاً: بليدة معروفة من نواحي دجيل قرب الحظيرة وحربى ، من أعمال بغداد ، لا أعرف من ينسب إليها » .

لايرعَوْن الخَيل فى الصَّيف على أَوارِيِّها[١] على شاطئ دِجلة، ولا يَسقُونها من مائها، لما يخاف عليها من الصُّدام[٢]، وغير ذلك من الآفات.

وأصحاب الخيل من العِتاق والبَراذين إنَّما يَسقُونها بُسرًا من رأى[٣]، ممَّا احتفروها من كاربائهم[٤] ولا يسقونها من ماءِ دجلة؛ وذلك أنَّ ماءَ دجلة مختلطٌ، وليس هو ماءً واحدًا، ينصب فيها من الزَّابَينِ[٥] والنَّهروانات[٦] وماءِ الفرات، وغير ذلك من المياه.

واختلافُ الطَّعام إذا دخَلَ جوف الانسان من ألوان الطَّبيخ والإدام غير ضارٍّ[٧]، وإن دخَل جوفَ الإنسانِ من شرابٍ مختلف كنحو الخمر والسَّكَر ونَبيذ التمر والدَّاذىّ كان ضارًّا. وكذلك الماءُ، لأنَّه متى أراد أن يتجرَّع جُرَعاً من الماءِ الحارّ لصَدْرِهِ أو لغير ذلك، فإنْ أعجَلَه أمرٌ فبرَّده بماءٍ باردٍ ثم حَسَاه ضرَّه ذلك، وإنْ تركَه حتَّى يفتُر ببرد الهواء لم يضرَّه. وسبيلُ المشروب غير سبيل المأكول.

فإن كان هذا فضِيلةَ مائِنَا على ماءِ دجلة فما ظنُّك بفضله على ماءِ

(١) الأوارى: جمع آرى، على وزن فاعول. وهو محبس الدابة. ب: «أوراثها» صوابه فى م.

(٢) الصدام، بضم الصاد وكسرها: داء يأخذ فى رءوس الدواب. وقال ابن شميل: داء يأخذ الإبل فتخمص بطونها وتدع الماء وهى عطاش أياماً حتى تبرأ أو تموت.

(٣) م: «بيئر من رأى»، تحريف.

(٤) كذا فى النسختين. ولعلها «كرابهم». والكراب: مجارى الماء فى الوادى.

(٥) الزابين: مثنى الزاب، الزاب الأعلى والزاب الأسفل. فالأعلى بين الموصل وإربل. والأسفل مخرجه من جبال السلق، وبينه وبين الأعلى مسيرة يومين أو ثلاثة. ب: «الزانين» صوابه فى م.

(٦) هى ثلاث نهروانات: الأعلى، والأوسط، والأسفل وهى كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقى.

(٧) ب: «غير ضاره».

البصرة ، وهو ماءُ مختلط من ماءِ البحر ومن الماءِ المستَنْقِعِ فى أصول القصب والبَرْدِىّ؟ قال الله تعالى: ﴿هَذَا عَذْبٌ فراتٌ وهذا مِلحٌ أُجاج[١]﴾.

والفرات أعذبها عُذوبةً ، وإنما اشتُقَّ الفُرات لكلِّ ماءٍ عذب ، من فُرات الكوفة .

١٥ – فصل منه
فى ذكر البصرة

كان يقال : الدُّنيا البصرة[٢] .

وقال الأَحنف لأَهل الكوفة : « نحن أَعْذَى منكم برِّيَّة[٣] ، وأكثر منكم بحريَّة ، وأبعد منكم سَرِيَّة ، وأكثر منكم ذُرِّيَّة[٤] » .

وقال الخليل بن أحمد فى وصف القصر المذكور بالبصرة[٥] :

زُرْ وادىَ القصر نعم القصرُ والوادى
لا بدَّ من زَورةٍ عَنْ غير ميعادِ[٦]
ترقَى بها السُّفنُ والظُّلمان واقفةٌ
والضَّبَّ والنُّونَ والملاَّحَ والحادِى[٧]

---

(١) الآية ٥٣ من سورة الفرقان . (٢) فى النسختين : « الدنيا والبصرة » .

(٣) فى النسختين : « أعلى » ، تحريف . « وأعذى » بالذال من العذاة بفتح العين ، وهى الأرض الخصبة . وانظر البيان ٢ : ٩٣ – ٩٤ . وفى محاضرات الراغب ٢ : ٢٦٤ : « أعذب منكم برية » ، تحريف .

(٤) نظير هذا القول فى معجم البلدان فى رسم الكوفة ، منسوب إلى عبد الملك بن الأهتم السعدى بلفظ : « نحن والله يا أمير المؤمنين أوسع منهم برية ، وأعد فى السرية ، وأكثر منهم ذرية ، وأعظم منهم نفراً . يأتينا ماؤنا عفواً صفواً ، ولا يخرج من عندنا إلا سائق أو قائد ».

(٥) انظر نسبة الشعر فى حواشى الحيوان ٦ : ٩٨ . والقصر الذى يشير إليه هو قصر أوس بن ثعلبة بن زفر بن وديعة ، وكان ولى خراسان فى الدولة الأموية . وبالبصرة أيضاً قصر أنس بن مالك خادم رسول الله صلى الله وسلم . وانظر معجم البلدان .

(٦) ب : « من غير ميعاد » .

(٧) الظلمان ، بالكسر والضم أيضاً : جمع ظليم ، وهو ذكر النعام . ب « والظلمات » ، صوابه فى م وعيون الأخبار ١ : ٢١٧ حيث ورد بهذه الرواية . وفى الحيوان : « ترى به السفن كالظلمان واقفة » . وفى اليتيمة ١ : ٩٦ وثمار القلوب ٤١٨ : « ترقى به السفن والظلمان حاضرة » .

ومن أتى هذا القصرَ وأتى قصر أَنَس[1] رأى أرضاً كالكافور[2] ، وتُربة ثريَّة ، ورأى ضبًّا يُحتَرش ، وغَزَالاً يُقتَنَص ، وسمكاً يُصاد ، ما بين صاحب شِصٍّ وصاحب شَبَكة ، ويَسمع غناء ملاَّحٍ على سُكَّانه ، وحُداء جَمَّالٍ على بَعيره.

قالوا : وفى أعلى جَبَّانَة البصرة موضعٌ يقال له الحَزِيز[3] يذكر الناس أنَّهم لم يرَوْا قطُّ هواءً أعدَلَ ، ولا نسيمًا أرَقَّ ، ولا ماءً أطيبَ منها فى ذلك الموضع .

وقال جعفر بن سليمان[4] : « العراق عَيْن الدُّنيا ، والبَصرة عَيْنُ العراق ، والمِربد عَيْن البَصْرة ، ودَارِى عَيْنُ المِربد » .

وقال أبو الحسن وأبو عبيدة : « بُصِّرت البَصْرة سنة أربعَ عشرة ، وكُوِّفت الكوفة سنة سبعَ عشرة »

١٦ — فصل منه

زعم أهلُ الكوفة أنَّ البصرة أسرعُ الأَرضِ خَراباً ، وأخبثُها تُراباً ، وأبعدُها من السَّماء وأسرعُها غَرَقاً ، ومَفيض مائها البحر ، ثم يخرج ذلك إلى البحر الأعظم .

وكيف تَغْرَق[5] ، وهم لا يستطيعون أن يُوصِلوا ماءَ الفَيض[6] إلى

---

(١) هو قصر أنس بن مالك ، كما سبق فى الحواشى ص ١٣٨ .

(٢) الكافور : ضرب من الطيب . ب : « كالكافورة » ، صوابه فى م .

(٣) الحزيز ، بزايين معجمتين ، كما فى معجم البلدان . وفى م : « الحزير » ، تحريف .

(٤) العقد ٦ : ٢٤٩ .

(٥) ب : « يعرف » ، صوابه فى م .

(٦) ب : « الفيض » بالغين المعجمة .

حِياضهم إلاَّ بعد أن يرتفع ذلك الماءُ فى الهواءِ ثلاثين ذراعاً ، فى كلِّ سقاية بعَيْنها ، لا لِحوضٍ بعينه[١] .

وهذه أرضُ بغداد فى كلِّ زيادةٍ ماءٍ ينبُع الماءُ فى أجواف قصورهم الشَّارعة بعد إحكام المسنَّيات[٢] التى لا يقوى عليها إلاَّ الملوك ، ثم يَهلِعون الدَّارَ التى على دِجلة فيكسُون[٣] بها تلك السِّكك ، ويتوقَّعون الغَرَق فى كلِّ ساعة .

قال : وهم يَعِيبون ماءَ البصرة، وماءُ البصرة رقيقٌ قد ذهب عنه الطِّين والرَّمل المَشُوب بماءِ بغدادَ والكوفة ، لطول مُقامه بالبَطِيحة ، وقد لانَ وصفا ورَقَّ .

وإنْ قلتم : إنَّ الماءَ الجارىَ أمرأُ من الساكن، فكيف يكون ساكناً مع تلك الأَمواج العِظام والرِّياح العواصف ، والماءِ المنقلب من العُلْو[٤] إلى السُّفل ؟ ومع هذا إنَّه إذا سار[٥] من مَخرجه إلى ناحية المَذَار[٦] ونهر أبى الأَسَد[٧] وسائِر الأَنهار ، وإذا بَعُدَ من مدخله إلى البصرة من الشِّقِّ القصير ، جَرَى منقضًّا إلى الصُّخور والحجارةِ ، فراسخَ وفراسخ، حتَّى ينتهىَ إلينا .

---

(١) ب : « لا بحوض » .

(٢) المسنيات : جمع مسناة ، وهو سد يبنى لحجز ماء السيل أو النهر ، به مفاتح للماء تفتح على قدر الحاجة . م : « المبنيات » .

(٣) م : « فيكنسون » ب : « فيكسنون » ، والوجه ما أثبت .

(٤) ب : « من العوالى » .

(٥) فى النسختين : « : « صار » .

(٦) المذار : بلدة فى ميسان بين واسط والبصرة ، فتحها عتبة بن غزوان فى أيام عمر بن الخطاب بعد البصرة . وفى النسختين : « الدار » ، صوابه ما أثبت .

(٧) ذكره ياقوت وقال : « أحد شعوب دجلة بين المذار ومطارة فى طريق البصرة ، يصب هناك فى دجلة العظمى » .

ويدلُّ على صلاح مائهم كثرة دُورهم . وطولُ أعمارهم ، وحُسْنُ عقولهم ، ورِفقُ أكُفِّهم . وحذقُهم لجميع الصناعات ، وتقدُّمُهم فى ذلك لجميع الناس .

ويُستَدلُّ على كرم طِينِهِم ببياض كيزانهم(١) وعذوبةِ الماءِ البائت فى قِلالهم ، وفى لون آجُرِّهم ، كأنَّما سُبِكَ من مُحِّ بيض(٢) . وإذا رأيت بناءَهم وبياضَ الجصِّ الأبيض بين الآجُرِّ الأصفَر لم تجد لذلك شبهاً أقربَ من الفِضَّة بين تضاعيفِ الذهب .

فإذا كان زمانَ غلَبةِ ماءِ البحر فإنَّ مُستَقاهم من العَذْب الزُّلال الصافى ، النَّمير فى الأبدان(٣) ، على أقلَّ من فرسخ ، وربَّما كان أقلَّ من مِيل .

ونهر الكوفة الذى يسمُّونه إنَّما هو شُعبةٌ من أنهار الفرات ، وربَّما جَفَّ حتَّى لا يكون لهم مستقًى إلَّا على رأس فرسخ(٤) ، وأكثَرَ من ذلك ، حتَّى يَحفِروا الآبارَ فى بُطونِ نُهُرهم(٥) ، وحتَّى يضرَّ ذلك بخُضَرِهم وأشجارهم . فلينظُروا أيُّما أضَرُّ وَأيُّما أعْيَب .

وليس نهرٌ من الأنهار التى تَصبُّ(٦) فى دجلة إلَّا هو أعظم وأكبر وأعرض من موضع الجسر(٧) من نهر الكوفة ، وإنَّما جسره سبع سفائن ،

(١) ب : « بياض كيزانهم » ، صوابه فى ش .

(٢) مح البيض : مافى داخله من أصفر وأبيض . والمح أيضاً : صفرة البيض ، وبياضه هو الغرقىء . وفى النسختين : « مخ » بالمعجمة ، صوابه ما أثبت .

(٣) النمير : الزاكى الناجع فى الرى .

(٤) فى النسختين : « فرس » ، والوجه فيه ما أثبت .

(٥) النهر ، بضمتين : جمع نهر . وفى الكتاب العزيز : « إن المتقين فى جنات ونهر » فى قراءة زهير ، والأعمش ، وأبى نهيك ، وأبى مجلز اليمانى ، وهو كرهن ورهن . تفسير أبى حيان ٨ : ١٨٤ . وقراءة الجمهور : « ونهر » بفتحتين . .

(٦) فى النسختين : « يخصب » ، صوابه ما أثبت .

(٧) فى النسختين : « والجسر » باقحام الواو .

لا تمرُّ عليه دابّةٌ لأنّها جُذوعٌ مقيَّدةٌ بِلَا طينٍ، وما يمشى عليه الماشى إلا بالجهد ؛ فما ظنُّك بالحوافر والخِفاف والأَظلاف ؟ !

وعامّةُ الكوفة خَرَابٌ يَباب(١) ، ومن بات فيها علم أنّه فى قريةٍ من القرى ورُستاقٍ من الرَّساتيق ، بما يَسمَعُ من صِياح بناتِ آوَى ، وضُباحِ الثَّعالب ، وأصوات السباع(٢) . وإنَّما الفرات دِما(٣) إلى ما اتَّصل به إلى بلاد الرَّقَّة ، وفوق ذلك .

فإمّا نهرهم فالنِّيل أكبرُ منه ، وأكثر ماءً ، وأدْوَمُ جريَةً(٤) .

وقد تعلمون كثرة عددِ أنهار البصرة ، وغلبةَ الماءِ، وتَطفُّح الأنهار(٥) .

وتبقى النَّخلة عشرين ومائةَ سنة وكأنّها قِدح(٦) . وليس يُرَى من قُرْب القَرية التى يقال لها « النِّيل » إلى أقصى أنهار الكوفة نخلةٌ طالت شيئاً إلا وهى معوجَّة كالمِنجل . ثم لم نر غارسَ نخلٍ قطُّ فى أطراف الأرض يرغب فى فسيل كوفى(٧) ، لعلمه بِخُبْث مَغْرِسه ، وسُوءِ نُشُوِّه ، وفَساد تُربته ، ولُؤم طبعه .

وليس لليَالِى شهرِ رمضان فى مسجدهم غَضَارةٌ ولا بَهَاءٌ ، وليس مَنَار مساجدهم(٨) على صُوَر مَنارِ البَصْرة ، ولكن على صُوَر مَنار الملكَانية واليعقوبيَّة(٩) .

(١) اليباب : إتباع للخراب بمعناه . وفى النسختين : « نباب » ، تحريف .
(٢) ب : « الثعالب » ، وهو تكرار ، والوجه ما أثبت من م .
(٣) كذا فى النسختين .
(٤) فى النسختين : « جرة » ، والوجه ما أثبت .
(٥) التطفح : مطاوع طفحه تطفيحاً : ملأه . ولم تذكر المعاجم هذا المطاوع .
(٦) القدح ، بالكسر : السهم قبل أن يراش وينصل . وانظر محاضرات الراغب ٢ : ٢٦٤ .
(٧) فى النسختين : « لوفى » ، صوابه ما أثبت .
(٨) ب : « مسجدهم » . والمنار : جمع منارة ، وهى المئذنة .
(٩) انظر ما مضى فى ٣ : ٣١٠ .

ورأينا بها مسجدًا خراباً تأْوِيه الكلابُ والسِّباع ، وهو يضاف إلى عليّ بن أبي طالب ، رضوانُ الله عليه .

ولو كان بالبصرة بيتٌ دخَلَه عليٌّ بن أبي طالب مارًّا لتمسَّحوا به وعَمَروه بأنفسهم وأموالهم .

وخبَّرنى من بات أنَّه لم يركواكبها زاهرةً قطٌّ ، وأنَّه لم يَرَها إلَّا ودونها هبْوة[1] ، وكأنَّ فى مائهم مِزاجَ دُهْن . وأسواقُهم تشهد على أهلها بالفَقْر . وهم أشدُّ بغضاً لأهل البصرة من أهل البَصْرة لهم ؛ وأهل البصرة هم أحسن جواراً ، وأقلُّ بذخاً ، وأقلُّ فخراً .

ثم العَجَب من أهل بغدادَ وميلِهم معهم ، وعيبِهم إيَّانا فى استعمال السَّماد فى أرضنا ولنخلنا ، ونحن نراهم يُسمِّدون بُقُولَهم بالعَذِرة[2] اليابسة صِرفاً ، فإذا طلعَ وصار له ورقٌ ذَرُّوْا عليه من تلك العَذِرة اليابسة حتَّى يسكنَ فى خلال ذلك الورق .

ويريد أحدُهم أن يبنيَ داراً فيجيءُ إلى مَزْبلة[3] ، فيضرب منها لَبِناً ، فإن كانت داره مطمئِنَّةً ذاتَ قعرٍ حشا من تلك المَزْبلة التى لو وَجَدَها أصحابُ السَّمادِ عندنا لبَاعُوها بالأموال النفسية .

ثم يَسجُرون تَنانيرهم بالكُسَاحات التى فيها من كلِّ شىء ، وبالأبعار والأخثاء ، وكذلك مواقد الكِيران[4] .

---

(١) الهبوة : الغبرة . وفى النسختين : « هفوة » ، تحريف .

(٢) فى النسختين : « بعذرة » ، تحريف .

(٣) المزبلة ، بفتح الميم والباء ، وبفتحها مع ضم الباء : الموضع الذى يلقى فيه الزبل .

(٤) الكيران : جمع كور ، بالضم ، وهو مجمرة الحداد . م : « الكيزان » ، صوابه فى ب .

وتمتلئ ركايا[١] دُورهم عَذِرةً فلا يصيبون لها مكاناً. فيحفِرون لذلك فى بيوتهم آباراً، حتّى ربما حَفَر أحدُهم فى مجلسه. وفى أنبل موضع من داره . فليس ينبغى لمن كان كذلك أن يعيب البَصريِّين بالتّسميد .

١٧ — فصل منه

وليس فى الأَرض بلدةٌ أَرفقُ بأَهلها من بلدةٍ لا يعزُّ بها النَّقْد ، وكلٌّ مبيع بها يمكن .

فالشّامات وأشباهُها الدِّينار والدِّرهمُ بها عزيزان ، والأَشياءُ بها رخيصة لبعد المَنْقَل ، وقلَّة عددمن يَبْتاع . ففى ما[٢] يخرج من أَرضهم أَبداً فضلٌ عن حاجاتهم[٣] .

والأَهواز ، وبَغداد ، والعسكر ، يكثُرُ فيها الدَّراهم ويعزُّ فيها المبيع لكثرة عددِ الناس وعدد الدراهم .

وبالبصرة الأَثمانُ ممكِنة والمُثمَّنات ممكنة ، وكذلك الصِّناعات ، وأُجورُ أَصحاب الصناعات . وما ظنُّك ببلدةٍ يدخلها فى البادى[٤] من أَيَّام الصِّرام إلى بعد ذلك بأَشهرٍ، مابين أَلفَىْ سفينةِ تمرٍ أَوْ أَكثر فى كلِّ يوم ، لا يبيت فيها سفينةٌ واحدة ، فإِنْ باتت فإِنَّما صاحبُها هو الذى يُبيِّتها، لأَنَّه لو كان حطَّ[٥] فى كلِّ أَلف رطلٍ قيراطاً لانْتُسِفَت انتسافا[٦] .

ولو أَنَّ رجلاً ابتنى داراً يُتمِّمها ويكمِّلها ببغداد ، أَو بالكوفة ،

---

(١) الركايا : جمع ركية ، وهى البئر .

(٢) ب : « فيها » . م : « ففيها » .

(٣) م : « حاجتهم » .

(٤) أى البادئ ، وهو الأول .

(٥) أى وضع من الثمن وأرخصه .

(٦) القيراط بالعراق : نصف عشر الدينار . ب : « لا انتسفت » ، صوابه فى م .

أو بالأهواز . وفى موضعٍ من هذه المواضع . فبلغت نفقتُها مائة ألفِ درهم ، فإنَّ البصرىَّ إذا بَنَى مثلهَا بالبصرة لم يُنفق خمسينَ ألفاً ؛ لأنَّ الدَّارَ إنَّما يتمُّ بناؤها بالطِّين واللَّبِن . وبالآجُرِّ والجصِّ(١) . والأجذاع والسَّاج والخشب . والحديد والصُّنَّاع . وكُلّ هذا يُمكن بالبَصْرة على الشَّطرِ مما يُمكن فى غيرها . وهذا معروف .

ولم نر بلدةً قطُّ تَكون أَسعارها ممكنة(٢) مع كثرة الجَماجِم بها إلَّا البصرة : طعامُهم أَجْوَدُ الطَّعام . وسِعرْهم أَرخص الأَسعار ، وتَمرهم أَكثَرُ التُّمور . ورَيْع دِبْسِهِم أكثر(٣) . وعلى طُول الزَّمان أَصْبَر ، يَبْقَى تمرُهم الشِّهريز(٤) عشرين سنة . ثم بعد ذلك يُخلَط بغيره فيجيء له الدِّبْس الكثير . والعَذْبُ الحلو . والخاثر القوى(٥) .

ومن يطمع من جميع أَهل النَّخل أَن يبيع فسيلةً بسبعين ديناراً . أَو بَحْوَنة(٦) بمائة دينارٍ ، أَوْ جَرِيباً بأَلف دينار(٧) غير أَهل البصرة ؟

١٨ — فصل منه

ولأَهل البصرة المدُّ والجَزْر على حسابِ منازل القمر لا يغادران من ذلك شيئاً . يأْتيهم الماءُ حتَّى يقف على أَبوابهم ؛ فإن شاءُوا أَذِنُوا . وإن شاءُوا حَجَبوه .

---

(١) ب : « والآجر والجص » .

(٢) فى النسختين : «يكون أسعارها ممكن » ، والوجه ما أثبت .

(٣) الريع ، بالفتح : فضل كل شيء ، كريع العجين والدقيق والبزر ونحوها .

(٤) الشهريز بكسر الشين وضمها : ضرب من التمر ، ويقال أيضاً سهريز بالسين المهملة وبكسر السين وضمها . ب : « يبقا » م : « يبقاه » ، ووجهه ما أثبت .

(٥) الخاثر : الغليظ . ب : « والحاثر » تصحيف .

(٦) البحونة بفتح الباء والواو : ضرب من التمر .

(٧) الجريب : مساحة تربو على ثلاثة آلاف وستمائة ذراع ، يختلف ذلك باختلاف البلدان .

ومن العَجَب لقومٍ يعيبون البصرَة لقُرب البحر والبَطِيحة[١] ، ولو اجتهد أعلَمُ النَّاس وأنطَقُ النَّاسِ أن يجمَع فى كتابٍ واحد منافعَ هذه البطيحة ، وهذه الأَجَمة ، لما قَدَر عليها .

قال زياد : قَصبةٌ خير من نَخْلة .

وبحقٍّ أقول : لقد جَهَدت جَهْدى أن أجمَعَ منافعَ القصب ومَرافِقَه وأجناسَه ، وجميعَ تصرُّفِهِ وما يجىء منه . فما قَدَرت عليه حتَّى قطعته وأنا معترفٌ بالعجز ، مستسلمٌ له .

فأمَّا بحرُنا هذا فقد طمَّ على كلِّ بحر وأوفى عليه ؛ لأنَّ كلَّ بحرٍ فى الأرض لم يَجعلِ الله فيه من الخيرات شيئاً ، إلاَّ بحرَنا هذا ، الموصولَ ببنحر الهند إلى مالا تذكر .

وأنت تسمع بملوحة ماءِ البحر ، وتستسقطه وتُزْرِى عليه . والبحر هو الذى يَخلقُ الله تعالى منه الدُّرَّ الذى بيعت الواحدة منه بخمسين ألفَ دينار ؛ ويَخلقُ فى جوفه العَنْبر ، وقد تَعرِفون قَدْرَ العنبر . فشىءٌ يولِّد هذين الجوهرينِ[٢] كيف يُحقَّر ؟

ولو أنَّا أخذْنا خصالَ هذه الأَجَمَةِ وما عظَّمنا من شأْنها ، فقذَفْنا بها فى زاوية من زوايا بحرِنا هذا لضَلَّتْ حتَّى لا نجد لها حِسًّا . وهُمَا لنا خالصانِ دونكم ، وليس يصل إليكم منهما شىءٌ إلَّا بسببِنا[٣] وتعديذا فضل غنا[٤] .

---

(١) البطيحة : أرض واسعة بين واسط البصرة ، جمعها بطائح ، سميت بذلك لأن المياه تبطحت فيها ، أى سالت واتسعت فى الأرض .

(٢) م : « الجوهرية » ، صوابه فى ب .

(٣) ب : « بسبنا » ، صوابه فى م .

(٤) كذا فى النسختين .

وقال بعض خطبائنا[١] : نحن أكرمُ بلاداً ، وأوسَع سواداً[٢] ، وأكثر ساجاً وعاجاً وديباجاً ، وأكثر خَراجاً .

لأنّ خراجَ العراق مائةُ ألفِ ألفٍ واثنا عَشَر ألفَ ألف ، وخراج البصرة من ذلك ستُّون ألفَ ألف ، وخراج الكوفة خمسون ألفَ ألف .

١٩ — فصل منه
فى ذكر الحيرة

ورأيت الحِيرة البيضاء وما جعلها[٣] الله بيضاء ، وما رأيت فيها داراً يُذكَر[٤] إلّا دار عَوْن النّصرانىّ العِبادانىّ[٥] .

ورأيت التُّربة التى بينها وبين قَصَبة الكوفة ، ورأيت لون الأرضِ فإذا هو أكهب[٦] كثير الحَصَى ، خشِنُ المسّ .

والحِيرة أرضٌ باردةٌ فى الشّتاء ، وفى الصّيف يَنزِعون سُتورَ بيوتهم مخافة إحراق السَّمائم لها .

---

(١) هو أبو بكر الهذلى ، كما فى البيان ١ : ٣٥٧ / ٢ : ٩٤ . ونسب بعض هذا القول إلى خالد بن صفوان فى معجم البلدان (رسم البصرة) ومحاضرات الراغب ٢ : ٢٦٤ .

(٢) السواد : القرى والريف . وفى النسختين : « سوداً » .

(٣) فى النسختين : « وما جعله » .

(٤) فى النسختين : « يذكر » ، والدار مؤنثة .

(٥) ذكره الجاحظ فى الحيوان ٤ : ٢٧ قال : « وكان طيمانو رئيس الجاثليق ، قد هم بتحريم كلام عون العبادى عند ما بلغه من اتخاذ السرارى » . والمعروف فى النسبة إلى « العباد » : عبادى .

(٦) الكهبة ، بالضم : غبرة مشربة سواداً .

١٨

من رسالة في

البلاغة والإيجاز

١ ــ فصــــل

من صدر رسالته فى البلاغة والإيجاز(١)

قال عمرو بن بحرٍ الجاحظ : درجَتِ الأَرضُ من العَرَب والعجم على إيثار الإيجاز ، وحَمْدِ الاختصار ، وذمِّ الإكثار والتَّطويل والتكرار ، وكلِّ ما فَضَلَ عن المقدار .

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم طويلَ الصَّمت ، دائم السَّكت(٢) يتكلَّم بجوامع الكلم ، لا فَضْلَ ولا تقصير ، وكان يُبغض الثَّرثارين المتشدِّقين(٣) .

وكان يقال : أفصح الناس أسهلهُم لفظاً ، وأحسنهُم بديهة .

والبلاغةُ إصابة المعنى والقَصْدُ إلى الحجَّة مع الإيجاز(٤) ، ومعرفة الفَصْل من الوصل .

وقيل : العاقلُ من خَزَن لسانَه . ووزَن كلامَه ، وخافَ النَّدامة .

وحُسنُ البيان محمودٌ ، وحسن الصَّمتُ حُكْمٌ(٥) .

---

(١) هى مما سقط من نسخة هامش الكامل . وليس لها موضع غير نسختَى المتحف البريطانى والتيمورية ، فاقتصرت المقابلة عليهما .

(٢) السكت : السكوت . ب : « السمت » ، ولا وجه له هنا .

(٣) المتشدقون : المتوسعون فى الكلام من غير احتياط واحتراز .

(٤) كلمة « الإيجاز » فقط ساقطة من م .

(٥) الحكم ، بالضم : الحكمة . وفى الحكم : « الصمت حكم وقليل فاعله » . الميدانى ١ : ٣٦٧ وجمهرة الأمثال ١ : ٥٩٦ والمستقصى ١ : ٣٢٨ مع نسبته فى الميدانى والمستقصى إلى لقمان الحكيم . وأورده العسكرى حديثاً من حديث ابن عمر ، وأورده كذلك السيوطى فى الجامع الصغير برقم ٥١٥٧ وذكر أنه حديث ضعيف . وأورده فى اللسان (حكم) بهيئة شطر من بيت .

وربَّما كان الإيجاز محموداً . والإكثار مذموماً . وربَّما رأيت الإكثار أحمد من الإيجاز . ولكلٍّ مذهبٌ ووجهٌ عند العاقل . ولكلِّ مكانٍ مقال(١) ، ولكلِّ كلامٍ جواب . مع أنَّ الإيجاز أسهل مَراما(٢) وأيسر مطلباً من الإطناب ، ومَنْ قَدَر على الكثير كان على القليل أقدر .

والتَّقليل للتخفيف ، والتَّطويل للتعريف ، والتَّكرار للتوكيد ، والإكثار للتشديد .

٢ — فصـــل منه

وأمَّا المذموم من المَقَال ، فما دعَا إلى المَلاَل ، وجاوز المقدار ، واشتمل على الإكثار ، وخرج من مَجْرى العادة .

وكلُّ شيءٍ أفرطَ فى طبعه ، وتجاوزَ مقدار وُسْعِه ، عاد إلى ضدِّ طباعه ، فتحوَّل الباردُ حارًّا ، ويصير النافعُ ضاراً ، كالصَّندل البارد إن أفرِطَ فى حَكِّه(٣) عاد حارًّا مؤذِيًا ، [و(٤)] كالثلج يُطفئ قليلُه الحرارةَ ، وكثيرُهُ يحرِّكها .

وكذلك القردُ لمَّا فرط قُبحه ، وتناهَت سماجَته(٥) استُملِحَ واستُظْرِف .

وإلى هذا ذهَبَ مَن عَدَّ الإكثار عِيًّا ، والإيجاز بلاغة .

---

(١) المعروف « لكل مقام مقال » . ومنه قول الحطيئة فيما أنشده ابن برى فى اللسان (حنن) :

تحنَّن عــــلىَّ هــداك المــليك فــإن لــكل مقام مقــالا

وليس فى قصيدته التى على هذا الروى فى ديوانه ٣١ — ٣٤ .

(٢) المرام : المطلب والبغية . ب : « مرمى » ، صوابه فى م .

(٣) ب : « فى حكمه » ، صوابه فى م .

(٤) ليست فى النسختين .

(٥) م : « سماحته » ، صوابه فى ب .

١٩

من كتابه في

تفضيل البطن على الظهر

١ ــ فصـــل

من صدر كتابه فى تفضيل البطن على الظهر(١)

عَصَمنا اللهُ وإيَّاك من الشُّبهة . وأَعاذَنا وإيَّاكَ من زَيْغِ الهوَى ، وفَضَلَّات المُنَى ، ووهبَ لنا ولك تَـأْديباً(٢) مؤدِّياً إلى الزِّيادة فى إحسانه(٣) ، وتوفيقاً مُوجباً لرحمته ورضوانه .

وقد كان كتابُكَ ياابنَ أخى ــ وفَّقك الله ــ وَرَدَ علىَّ ، تَصِفُ فيه فضيلَةَ الظُّهور وصفاً يدلُّ على شَغَفك بها، وحُبِّك إيَّاها ، وحنينِك إليها وإيثارِك لها ، وفهمتُه .

فلَمْ تَمْنَعْ ــ أعاذك الله من عدوِّك(٤) ــ من الإجابة عن كتابك فى وقتِ وُرودِه ، إلَّا عوارضُ أشغالٍ مانعةٍ ، وحوادثُ من التصرُّف والانتقال من مكان إلى مكان عائقة .

ولم آمَنْ أَنْ لو تـأَخَّر الجوابُ عليك أكثَرَ ممَّا تـأَخَّر ، أَن يَسبِق إلى قَلبِكَ أَنِّى راض باختيارك(٥) ، ومُسَلِّم لمذهبك ، ومُوافقٌ لك فيه ، مُساعِدٌ لك عليه ، ومنقادٌ مَعَكَ فيما اعتقدتَ مِنه . ومُجِدٌّ فى طلبه ، ومُحرِّضٌ عليهُ(٦) .

---

(١) هذا الكتاب أيضاً مما سقط من نسخة الكامل . فالمقابلة هنا على النسختين : المتحف ، والتيمورية .

(٢) ب : « بأدبنا » ، صوابه فى م

(٣) فى النسختين : « إلى الزيادة المؤدية فى إحسانه » بإقحام كلمة « المؤدية »

(٤) ب : « أعاذ » تحريف . وفى النسختين . « من عدمك » ، ووجهه ما أثبت .

(٥) ب : « فى أرضى » م : « أنى أرضى » ، والوجه ما أثبت

(٦) فى النسختين : « ومحرص عليه » بالحاء المهملة .

فبادرتُ بكتابى هذا ، منبِّهاً لك من سِنَةِ رَقْدتك[١] ، وداعياً إلى رشدك . فإنَّك تعلم - وإن كنتَ لى فى مذهبى مخالفاً ، وفى اعتقادى مبايناً[٢] - أنَّ اجتماع المتباينين فيما يقعُ بصلاحهما أولى فى حكم العقل ، وطريق المعرفة [منه[٣]] فيما أبادَهما ، وعاد بالضَّرر فى اختيارهما عليهما .

وأنا ، وإن كنتُ كشفتُ لك قِناعَ الخِلاف ، وأبديت[٤] مكنونَ الضَّمير بالمضادَّة[٥] ، وجاهدتَنى بنُصرة الرَّأى والعقيدة[٦] فى حُبِّ الظُّهور ، وتلفيق الفضائِل لها ، غَيْرُ مُستشعِرٍ لليأْس[٧] من رَجْعتك ، ولا شاكٍّ فى لطائف حِكمتك ، وغَوامض فِطنتك .

وقد أعلمُ أنَّ معك - بحمدِ الله - بصيرةَ المعتبِرين ، وتمييز الموفَّقين وأنَّك إذا أنعمت[٨] فكراً وبحثاً ونظراً ، رَجَعْتَ إلى أصلٍ قوىٍّ الانقياد والموافقة[٩] ، ولم تَتورَّط[١٠] فى اللَّجاج فِعْلَ المُعْجَبين ، ولم يتداخلك[١١] غِرَّةُ المنتحِلين ؛ فإنَّا رأينا قوماً انتحلوا الحكمة وليسوا من أهلها ، بل هم أعلامُ الدَّعوى ، وخُلفاءُ الجهالة[١٢] ، وأتْباع الخَطَأِ ، وشِيَع

---

(١) فى النسختين : « عن سنة رقدتك » .
(٢) فى النسختين : « متبايناً » .
(٣) تكلة يفتقر إليها الكلام .
(٤) أبديت : أظهرت . وفى النسختين : « أبدأت » ، تحريف .
(٥) المضادة : المخالفة . وفى النسختين : « بالمضارة » ، تحريف .
(٦) ب : « والعقد » م : « والعقدة » .
(٧) فى النسختين : « الناس » .
(٨) ب : « أمعنت » ، وأثبت ما فى م .
(٩) ب : « والمواثقة » بالثاء ، صوابه فى م
(١٠) فى النسختين : « ولم يتورط » .
(١١) ب : « ولم يتدخلك » .
(١٢) م : : « وخلفاء الجهالة » .

الضَّلالة ، وخَوَل النَّقْص[(١)] ، الذين قامت عليهم الحُجَّة بما نَحَلوه أنفسهم من اسمها . وسُلِبوه من فهمِ عظيمِ قدرها[(٢)] ومعرفة جليلِ خَطَرها ، ولم يَجْلُوا الرَّين عن قلوبهم والصَّدأ عن أسماعهم ، بالتنقير والبحثِ والتكشُّف[(٣)] ، ولم ينصِبوا فى عقولهم لأنفسِهم أصلاً يئلِون فى اعتقادهم عليه[(٤)] ، ويرجعون عند الحَيرة[(٥)] فى اختلاف آرائهم إليه . فَضَلُّوا ، وأصبحَ الجهلُ لهم إماماً ، والسُّفهاءُ لهم قادةً وأعلاما .

ونحن نسأل الله بِحَوْلِهِ وطَوْلِهِ ومَنِّه ، ألاَّ يجعلَكَ من أهل هذه الصِّفَة ، وأن يُريَكَ الحقَّ حقًّا فتَتْبَعَه ، والباطل باطلاً فتجتنبَه ، وأن يَعُمَّنا ببركةِ هذا الدعاءِ ، وجماعةَ المسلمين . وأن يأْخذ [إلى[(٦)]] الخيرِ بنواصينا ، ويجمع على الهُدى قُلوبَنا ، ويُؤلِفَ فيه ذاتَ بَيْنِنا ، فإنَّك ما علمتُ — وأتقلَّدُ فى ذلك أمانةَ القول — ممَّن أُحِبُّ موافقتَه ومُخالطتَه ، وأن يكون فى فَضْلِه مقدَّماً ، وعن كلِّ عَضيهةٍ منزَّها .

وما أعلم حالاً أنا عليها فى الرَّغبة لك فيما أرغب لِنَفْسِى فيه ، والسُّرورِ بتكامل أحوالك ، واستواءِ مذهبك . وما أزابِنُ[(٧)] به من إرشادك ونصيحتك ، وتسديدك وتوفيقك . إلاَّ وصِدقُ الطَّوِيَّة منِّى فيها أبلغُ من إسهامِى فى فَضْل صفتها . والله تعالى المُعينُ والمؤيِّد والموفِّق ، والمبدع ، وَحدَهُ لا شريك له . والحمد لله ، كما هو أهلُه ، وصلى الله على محمد وآله وسلم كثيراً .

---

(١) الخول ، أصله ما أعطى المرء من نعم وعبيد وإماء . والمراد هنا الأتباع .
(٢) ب : « فهم عظيم قدرها » ، صوابه فى م . (٣) م : « والتكشيف » .
(٤) فى النسختين : « يبنون عليه فى اعتقادهم عليه » و« عليه » الأولى مقحمة » .
(٥) فى النسختين : « الخبرة » .
(٦) تكلة يفتقر الكلام إليها .
(٧) زابن : دافع . وفى ب : « أزبن » م : « أزين » .

ياأخى – أرشدكَ الله – إنّك أغرقَت فى مدح الظَّهر من الجهةِ التى كان ينبغى لك أن[تذمّها ، وقدّمتها من الجهة التى ينبغى لك أن(١)] تؤخِّرها . وآثرتها وهى محقوقةٌ بأنْ ترفضها .

وما رأينا هلاكَ الأُمم الخالية ، من قومِ لُوطٍ ، وثمودَ وأشياعِهم وأتباعهم ، وحلولِ الخَسْفِ والرَّجفةِ(٢) والآياتِ المَثُلات(٣) والعذابِ الأليم والرِّيح العقيم(٤) ، والغِيَرِ والنَّكير ووجوبِ نار السَّعير ، إلاَّ بما دَانُوا به من اختيار الظُّهور . قال الله تعالى ، فى قصَّة لوط : ﴿ أَتَأْتُونَ الذُّكْرانَ من العَالَمِينَ . وتَذَرُونَ ماخَلَقَ لكم رَبُّكُمْ مِنْ أزواجِكُمْ بل أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ(٥) ﴾ .

فذمّهم اللهُ – تبارك وتعالى – كما ترى ، وبَلَغ بهم فى ذكر ما استعظم من عُتُوِّهم إلى غايةٍ لا تُدرَك صِفتُها(٦) ، ولا يُوقَف على حدِّها مع آيٍ كثيرة قد أنزلَها فيهم ، وقِصصٍ طويلة قد أنبأ بها عنهم ، وروايات كثيرة أثَرَها(٧) فيمن كان من طبقتهم .

وسنأتى منها بما يقع به الكفاية(٨) دون استفراغ الجميع ، مما حَمَلَتْه(٩) الرُّواة ، ونَقَله الصالحون .

---

(١) التكلة من م .

(٢) م : « الخسفة والرجفة » .

(٣) المثلات : جمع مثلة ، بضم الثاء ، وهى العقوبة والنكال . وفى الكتاب العزيز : « ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات » . الرعد ٦ . وفى النسختين : « المثولات » ، وصوابها ما أثبت .

(٤) الريح العقيم : التى لاتلقح شجراً ولا تنشىء سحاباً ولا تحمل مطراً ، إنما هى ريح إهلاك . وفى الكتاب العزيز : « وفى عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم » . الذاريات ٤١ . وانظر ما سيأتى فى ص ١٨٠ .

(٥) الآيتان ١٦٥ ، ١٦٦ من الشعراء . (٦) م : « صفتهم » ، تحريف .

(٧) أثرها يأثرها : حكاها ورواها . وفى النسختين : « بأثرها » .

(٨) فى النسختين : « ما يقع به الكفاية » . (٩) م : « ماحملته » ، صوابه فى ب .

٢ — فصل منه

والحقُّ بيِّنٌ لمن التمسَه ، والمنهجُ واضحٌ لمن أراد أن يَسلُكَه . وليس فى العُنودِ دَرَكٌ[١] ولا مع الاعترام فَلَج[٢] . والرُّجوعُ إلى الحقِّ خيرٌ من التَّمادى فى الباطل ، وتَركُ الذَّنْب أيْسَرُ من التماس الحُجة . كما كانَ غَضُّ الطَّرْف أهوَنَ من الحنينِ إلى الشَّهوة . وبالله تعالى التوفيق .

٣ — فصل منه

نبدأُ الآنَ بذكر ما خَصَّ الله به البُطون من الفضائِل ، لِيرجع راجعٌ ، ويُنيبَ منيبٌ مفكِّر ، وينتبه راقد[٣] ، ويُبصِر متحيِّر ، ويستغفر مذنب[٤] ، ويستقيل مخطئ[٥] ، ويَنزِع مُصِرٌّ ، ويستقيم عاند[٦] ، ويتأمَّلَ غُمرٌ ، ويَرشُد غَوِىّ ، ويَعلَم جاهلٌ ، ويزداد عالِم .

قال الله عزّ وجل فيما وَصَفَ به النَّحْل : ﴿ يَخْرُجُ مِنْ بُطونِهَا شَرابٌ مُختلِفٌ ألوانُهُ فيهِ شِفاءٌ للنَّاس[٧] ﴾ .

وبُعِث رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فى خير بُطونِ قريش .

ووجدنا الأَغلبَ فى صفةِ الرجل أن يقال إنَّه معروف بكذا مُذْ خرج من بَطْنِ أُمِّه . ولا يقال من ظهر أبيه .

---

(١) العنود: الميل عن الحق . والدرك ، بالتحريك : الإدراك واللحاق .

(٢) الاعترام : من العرام ، وهو الجهل والشدة والشراسة . وفى النسختين : « الإغرام » .

(٣) م : « ويثبته راقد » ، صوابه فى ب .

(٤) ب : « ويشغف مذنب » ، صوابه فى م .

(٥) الاستقالة : طلب الإقالة ، وهى العفو والصفح .

(٦) العاند : المائل عن الحق .

(٧) الآية ٦٩ من سورة النحل .

ويقال فى صفات النِّساء: « قُبُّ البطون نواعم » . ويقال: خُمْصانة البَطْن ، ولا يقال : خُمْصانة الظَّهر .

ويقال : فلانٌ بَطَنَ بالأُمور ، ولا يقال : ظَهَر . ويقال : بِطانة الرَّجْل[1] وطِهارته ، فيُبدأ بالبطانة .

وبطن القِرطاس خيرٌ من ظهره ، وبطن الصَّحيفة موضعُ النَّفْع منها لا ظهرها ، وبِبطنِ القَلَمِ يُكتَب لا بظهره ، وببطن السِّكِّين يُقطع لا بظهرها .

وخلق الله جلَّ وعزَّ آدمَ من طينٍ ، ونَسْله[2] من بَطن حَوَّاءَ .

ورأَينا أَكثر المنافع من الأَغذية فى البُطون لا فى الظُّهور ؛ فبطون البقر[3] أَطيب من ظهورها ، وبطن الشَّاة كذلك .

ومن أَفضل[4] صفات علىٍّ رضى الله عنه أَنْ كان أَخمَصَ بطينا .

وأَسمَعُ من غنائهم :

بطنِى على بطنِكِ ياجاريَه لا نَمَطاً نَبغِى ولا باريَه[5]

ولم يقل « ظهرى على ظهرِك »، فجعل مماسَّة البَطن غانياً عن الوِطاء، كافياً من الغِطاء .

ولو لم يكن فى البطن من الفَضيلة إلَّا أَنَّ الوجهَ الحسنَ ، والمنظر[6]

(١) فى النسختين : « الرجل » بالجيم ، تحريف .
(٢) فى النسختين : « ورسله » ، والصواب ما أثبت .
(٣) فى النسختين : « البقرة » .
(٤) فى النسختين : « فضل » .
(٥) النمط : واحد الأنماط ، وهو ضرب من البسط . والبارية : مخفف البارية بتشديد الياء ، وهى الحصير المنسوج .
(٦) فى النسختين : « والمنطق » ، ووجهه ما أثبت .

الأَنيقَ من حيِّزه ، وفى الظهر من العَيْب ، إلَّا أنَّ الدُّبُر فى جانبه ، لكان فيها أَوضحُ الأَدلة على كرم البَطْن ولُؤْم الظهر .

ولم نرهم وصَفُوا الرجل بالفُحولة والشَّجاعة إلَّا من تلقائِه ، وبالخُبث والأُبْنة إلَّا من ظَهْره .

وإذا وصفوا الشُّجاع قالوا : مَرَّ فلان قُدُماً ، وإذا وصفوا الجَبَانَ قالوا : وَلَّى مُدبِراً .

ولَشَتَّانَ بين الوَصفَين : بَينَ من يلقَى الحربَ بوَجهه وبين من يلقاهُ بقفاه[1] ، وبين الناكح والمنكوح، والراكب والمركوب ، والفاعل والمفعول ، والآتى والمأْتىِّ ، والأَسفلِ والأَعلى ، والزائِر والمَزُور ، والقاهر والمقهور .

ولمَّا رأَينا الكنوز العاديَّة[2] والذَّخائِر النفيسة ، والجواهرَ الثَّمينة مثلَ الدُّرِّ الأَصفرِ ، والياقوتِ الأَحمرِ ، والزُّمرُّد الأَخضر ، والمسكِ والعَنْبر والعِقْيانِ واللُّجينِ ، والزِّرنيخ والزِّئبق ، والحديد والبُورَق[3] ، والنِّفط والقار ، وصُنوفِ الأَحجار ، وجميعَ منافع العالَم وأَدواتِهم وآلاتِهم ، لحربِهم وسَلمهم ، وزَرْعهم وضَرْعهم ، ومنافعهم ومرافِقِهم ومصالحهم ، وسائر ما يأْكلونه ويشربونه ، ويَلبَسونه ويَشمُّونه ، وينتفعون برائِحته وطعْمه ، ودائِعَ فى بطون الأَرض ، وإنَّما يُستَنْبَطُ منها استنباطاً ، ويُستخرَجُ منها استخراجاً، وأَنَّ على ظهرها الهوامَّ القاتلة ، والسِّباعَ العاديَة التى فى أَصغرِها تَلَفُ النفوس ودواعى الفَنَاءِ وعوارضُ البلاءِ ،

---

(١) الحرب مؤنثة ، وقد تذكر كما هنا .

(٢) العادية : القديمة ، منسوبة إلى عاد .

(٣) البورق ، بضم الباء : النطرون . القاموس ، وتذكرة داود ، والمعتمد .

وأنَّه قل ما يمشى على ظهرها من دابّةٍ ، إلّا وهو للمرء عدوٌّ ، وللموتِ رسولٌ ، وعلى الهلكةِ دليل – لم يمتنع [فى] عُقولنا ، وآرائنا ومعرفتنا[١] من الإقرار بتفضيل البَطْن على الظهر فى كلِّ وقت ، وعلى كلِّ حال .

ومن فضيلة البَطن على الظَّهر أنَّ أحداً إن ابتُلِى فيه بداءٍ[٢] كان مستوراً ، وإنشاءَ أن يكتمه كَتَمَهُ عن أهله ، ومن لا ينطوى عنه شىءٌ من أمره ، وغابِرِ دهره .

ومن بليَّة الظَّهر أنَّه إن كان دَاءٌ[٣] ظهَرَ وبان ، مثل الجَرَب والسِّلَع[٤] والخنازير وما أشبهها ، مما سَلِمَتْ منه البطون وجُعِلَ خاصًّا فى الظُّهور .

وفضَّل اللهُ تعالى البطونَ بأَن جعل إتيانَ النساءِ ، وطلبَ الولد ، والتماس الكثرة مباحاً من تِلقائها ، محرَّماً فى المَحَاشِّ[٥] من ورائها ، لأنَّه حرامٌ على الأُمَّة إتيانُ النساء فى أدبارهنَّ ، لما جاء فى الحديث عن الصادق صلى الله عليه وسلم : « لا تـأْتُوا النِّساءَ فى مَحَاشِّهنَّ » .

وقد ترى بِطانةَ الثَّوب تقومُ بنفسها . ولا تَرى الظِّهارة تستغنى .

وجعل الله تعالى البَطنَ وِعاءً لخير خلقه محمدٍ صلى الله عليه وسلم ، ثم جعلَ أوَّلَ دلائلِ نبوّته أن أَهبَطَ إليه مَلكاً حين أَيْفَع ، وهو يَدرُ ج[٦]

---

(١) فى النسختين : « لم يمتنع عقولنا وأرانا معرفتنا » . وقد أكلت النص وصححته بما ترى .
(٢) ب : « بداه إن » م : « بداه ان » ، و « إن » مقحمة ، والصواب ما أثبت .
(٣) فى النسختين : « إن كان ذا » .
(٤) السلع : جمع سلعة ، بالكسر ، وهى زيادة تحدث فى الجسد مثل الغدة . وفى ب : « والسبع » ، صوابه فى م .
(٥) المحاش : جمع محشة ، بفتح الميم وتشديد الشين ، وهى الدبر .
(٦) فى النسختين : « وهو مع تدرج » .

مع غِلمان الحيِّ فى هوازن . وهو مسترضَعٌ[١] فى بنى سعد ، حين شَقَّ عن بطنه ، ثم استخرج قلبه فحُشِىَ نوراً ، ثم خُتِم بخاتَم النبوَّة . ولم يكن ذلك من قِبَل الظَّهر .

٤ — فصــل منه

وممَّا فَضَلت به البطونُ : أنَّ لحم السُّرَّة من الشاة أطيبُ اللحم ، ولحمُ السُّرَّة من السَّمك الموصوفُ ، وسُرَّة حمارِ الوحش شفاءٌ يُتداوَى بها ، ومن سُرَّة الظِّباء يُستخرَج المسك . وهذا كلُّه خاصٌّ للبطون ليس للظُّهور منه شىءٌ .

وبدأ الله عزَّ وجل فى ذكر الفَواحِش بما ظهر منها ، ولم يبدأه بما بَطَن فقال : ﴿ إنَّما حَرَّم رَبِّىَ الفَواحِشَ ماظَهَرَ مِنْها وما بَطَن[٢] ﴾ ، فجعله ابتداءً فى الذم[٣] .

والظَّهر فى أكثر أحواله سَمِجٌ ، والبطن فى أكثر أحواله حَسَن . والظَّهر فى كلِّ الأوقات وَحْشةٌ وَوحْش ، والبَطْن فى كلِّ الأوقات سَكَن وأُنس .

ولم نَرهُم حين بالَغُوا فى صفات النِّساء بدءُوا بذكرها إلَّا من جهة البَطن فقالوا : مُدْمَجة الخَصْر ، لذيذةُ العِناق ، طيِّبة النَّكهة ، حُلوة العينَين ، ساحرةُ الطَّرف ، كأنَّ سُرَّتها مُدهُن[٤] ، وكأنَّ فاها خاتَم ، وكأنَّ ثدييها حُقَّان ، وكأنَّ عنقها إبريقُ فِضَّة . وليس للظهور فى شىء من تلك الصِّفات حَظٌّ[٥] .

---

(١) ب : « مستربع » ، صوابه فى م .
(٢) الآية ٣٣ من الأعراف .
(٣) ب : « ابتداء الذم » .
(٤) المدهن : قارورة الدهن .
(٥) فى النسختين : « من ذلك الدهان » .

وأنَّى نَبلُغ فى صفة البطون ، وإنْ أسهبْنا ، وكم عسى أن نُحصى من معايب الظهور[(١)] وإن اجتهَدْنا وبالَغْنا . ألا ترى أنَّ حدَّ الزَّانى ثمانون جلدةً مالم يكن مُحصَناً ، وحدَّ اللُّوطىِّ أن يُحْرَقَ . وكلاهما فجورٌ ورَجَاسة ، وإثمٌ ونجاسة . إلَّا أنَّ أيْسَر المكروهين أحقُّ بأن يَميل إليه من ابتُلِى ، وخير الشَّرَّين أحسن فى الوصف من شَرِّ الشَّرَّين .

ولو أنَّا رأينا رجلاً فى سوقٍ من أسواق المسلمين يقبِّل امرأةً فسألناه عن ذلك، فقال : امرأتى . وسألوها فقالت: زوجى– لدرَأْنا عنهما الحدَّ، لأنَّ هذا حُكم الإسلام . ولو رأيناهُ يقبِّل غلاماً لأدَّبناه وحبسناه ؛ لأنَّ الحكم فى هذا غير الحكم فى ذاك .

ألا ترى أنَّه ليس يمتنع فى العقول والمعرفة أن يُقْبِلَ الرجلُ فى حُبِّ ما ملكت يمينُه حتَّى يقبِّلها فى المَلاَ كما يقبِّلها فى الخَلَا ، يصدِّق ذلك حديثُ ابنِ عُمر : «وَقَعَتْ فى يدى جاريةٌ يومَ جَلُولاءَ كأنَّ عنقَها إبريقُ فِضَّة فما صَبَرتُ حتَّى قبَّلتها والنَّاسُ ينظرون» .

٥ – فصل منه

وقد رأيتُ منك أيُّها الرَّجلُ إفراطَكَ فى وصفِ فضيلة الظُّهور ، وفى محلِّ الرِّيبة وقَعْت ، لأنَّا روَيْنا عن عمر أنَّه قال : « من أظهر لنا خيراً ظنَنَّا به خيراً ، ومن أظهر لنا شرًّا ظننا به شرًّا » .

وإنَّما يصف فَضْلَ الظَّهر من كان مُغَرماً بحبِّ الظهور ، وإلى ركوبه صبًّا ، وبالنَّوم عليه مُستهتَراً ، وبالوَلوع بطلبه موكَّلا . ومَنْ كان للحلال

---

(١) ب : « أن نخص من معائب الظهور » ، تحريف .

مُبايِناً ، ولسبيله مُفارِقاً ، ولأهله قالياً ، وللحرام معاوِداً ، وبحبله مستمسكاً[(١)] وإلى قربه داعياً ، ولأهله موالياً .

وقد اضطررتنا بتصبيرك[(٢)] المفضولَ فاضلا ، والعامَّ خاصًّا ، والخسيسَ نفيساً ، والمحمودَ مذموماً ، والمعروفَ منكراً ، والمُؤخَّر مقدَّمًا والمقدَّم مؤخَّراً ، والحلالَ حراماً ، والحرامَ حلالا ، والبِدعة سُنَّةً ، والسُّنَّةَ بِدعةً ، والحَظْرَ إطلاقاً ، والإطلاقَ حَظْراً ، والحقيقةَ شُبْهةً والشُّبهةَ حَقيقة ، والشَّينَ زَيْناً والزَّين شَـيناً ، والزَّجر أمراً والأمر زَجْراً ، والوَهْم أصلا والأَصل وهماً ، والعلمَ جهلاً والجهل فضلاً[(٣)] — إلى أَنْ أدخَلْنا عليكَ الظَّنَّ ، وأَلحقناكَ التُّهمة ، ونَسَبْناك إلى غير أَصلك ، ونَحَلْناك غيرَ عقيدتك ، وقَضَينا عليك بغير مذهبك . و« يداك أَوكَتَا ، وفاك نفخ[(٤)] » . فلا يبعد الله غيرك !

أَوجِدْنا أَيُّها الضالُّ المُضِلُّ ، المغلوب على رأيه ، المسلوب فَهمه ، المُوَلِّى على تمييزه ، النَّاكصُ على عقبه فى اختياره[(٥)] ، المفارق لأَصل عَقْده[(٦)] ، المُدْبر بعد الإقبال فى معرفته ، السَّاقط بعد الهَوَى فى وَرْطته ، المتخلِّى من فهمه[(٧)] ، الغَنِىّ عن إفهامه ، المُضيِّع لحكمته ، المنزوع

---

(١) مستمسكاً ، ساقطة من م .

(٢) ب : « بتعبيرك » ، صوابه فى م . وفى م أيضاً : « وقد اضطررنا » .

(٣) ب : « والجهل علماً » ، صوابه فى م .

(٤) م : « وفك نفخ » . والمعروف : « وفوك نفخ » . الفاخر ٤٨ والميدانى ٢ : ٣٢٥ وجمهرة العسكرى ٢ : ٤٣٠ . والوكاء : الخيط الذى يشد به رأس السقاء . وأصله أن رجلا أراد أن يعبر نهراً على سقاء ، فلم ينفخه ولم يوكه على ما ينبغى ، فلما توسط النهر انحل الوكاء فصاح : الغرق الغرق ! فقيل له هذا المثل ، أى إنك من قبل نفسك أتيت .

(٥) فى النسختين : « فى اختيار » ، ووجهه ما أثبت .

(٦) ب « الموافق لأصل عقده » ، صوابه فى م .

(٧) فى النسختين : « المتحلى » بالحاء المهملة ، تحريف .

عَقلُه ، المختَلَس لبُّه ، المستطارُ جَنَانه ، المعدومِ بيانه ، فى الظُّهور بعد الفضائل التى أوجَدْناكَها فى البُطون ، إمّا قياساً ، وإمَّا اختياراً[(١)] ، وإمَّا ضرورة ، وإما اختباراً وإمَّا اكتساباً ، أو فى كتاب منْزَل ، أو سُنَّة مأثورة ، أو عادةٍ محمودة ، أو صِلاحٍ على خير .

أم هل لك فى مقالتك من إمامٍ تأتَمُّ به ، أو أستاذٍ تقتفى أثَرَه ، وتَهتَدِى بِهُداه ، وتسلك سَنَنَه .

٦ — فصــل منه

وقد حَضَّتنى[(٢)] عليك عند انتهائى إلى هذا الموضع رِقَّة ، وتداخلتنى لك رحمة ، ووجدت لك بقيَّةً فى نفسى ؛ لأنَّه إنَّما يُرحَم أهلُ البلاء .

والحمد لله الذى عافانا مما ابتلاكَ به ، وفضَّلنا على كثيرٍ من خلقه تفضِيلا .

فرأيت أن أختم بأبْسَطِ الدُّعاءِ لك كتابى ، وأن أحرِزَ به أجرِى وثَوابى ، ورجوت أن تُنِيبَ[(٣)] وترجع بعد الجِماح واللَّجاج ، فإنَّ للجواد استقلالاً بعد الكَبوة ، وللشُّجاع كَرَّةً بعد الكَشْفة[(٤)] ، وللحليم عطفةً بعد النَّبْوة .

وأنا أقول : جعلَنَا الله وإيَّاك ممن أبصَر رُشدَه ، وعَرفَ حَظَّه ، وآثَرَ الإنصاف واستعمله ، ورفض الهوى واطَّرحَه ؛ فإنَّ الله تعالى لم يَبْتلِ بالهَوَى إلَّا من أضلَّه ، ولم يُبعِد إلَّا من استبعده .

---

(١) فى النسختين : « أخباراً » .
(٢) م : « خصتنى » .
(٣) من الإنابة ، وهى التوبة والرجوع عن المعصية . ب : « تثيب » ، صوابه فى م .
(٤) الكشفة : الهزيمة . كشف القوم ، من باب فرح : انهزموا .

٢٠

من كتابه في

النبل والتنبل وذم الكبر

١ – فصـــل

من صدر كتابه فى النبل والتنبل وذم الكبر(١)

قد قرأتُ كتابَكَ وفهمتُه ، وتتبَّعت كلّ مافيه واستقصيتُه ، فوجدتُ الذى ترجعُ إليه بعد التَّطويل ، وتَقِفُ عنده بعد التَّحصيل ، قد سلَفَ القولُ منّا فى عَيْبِه ، وشاع الخَبرُ عَنّا فى ذَمِّهِ(٢) ، وفى النَّصْب لأَهله ، والمُبايَنةِ لأَصحابه ، وفى التعجُّبِ منهم ، وإظهار النَّفى عنهم .

والجملةُ أنَّ فرط العُجْب إذا قارن كثرةَ الجهل ، والتَّعرُّضَ للعيب إذا وافق قلَّةَ الاكتراث ، بطَلَتِ المزاجر(٣) ، وماتت الخواطر . ومتى تفاقم الداءُ ، وتفاوت العلاج ، صار الوعيد لغواً مطَّرحاً ، والعقابُ حكماً مستعملا .

وقد أصبح شيخُك ، وليس يملك من عقابهم إلاَّ التوقيف ، ولا من تأْديبهم إلَّا التعريف .

ولو مَلَكناهم مُلكَ السُّلطانِ ، وقهرناهم قَهْرَ الوُلاة ، لنهكناهم عقوبةً بالضَّرب(٤) ، ولقَمعناهم بالحصر(٥) .

---

(١) معظم هذا الكتاب ساقط من هامش الكامل ، إذ يبدأ النص فيه من أواخر الفصل الخامس ص١٧٥ ، بعد قوله : « وإنما عاند الله تعالى » . وجاء الكلام بعده متصلا مختلطاً بمنتصف الكتاب العاشر ، وهو « الرد على النصارى » . وانظر ص ٣٢٩ من الجزء الثالث من الرسائل . والتنبل : تكلف النبل وادعاؤه .

(٢) ب : « وشاع الخير » ، صوابه فى م .

(٣) ب : « بطلب المزاجر » ، صوابه فى م .

(٤) نهكه عقوبة : بالغ فيها ، ينهكه نهكاً .

(٥) الحصر : الحبس هنا . والحصير : المحبس . وفى التنزيل العزيز : « وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً » .

والكِبر ـ أعزَّكَ الله تعالى ـ بابٌ لا يُعَدُّ احتمالُه حلماً[١] ، ولا الصَّبرُ على أهله حَزْماً ، ولا تركُ عقابِهم عفواً ، ولا الفضلُ عليهم مَجْداً ، ولا التَّغافُل عنهم كرماً ، ولا الإمساك عن ذمِّهم صَمتاً .

واعلمْ أنَّ حملَ الغنى[٢] أشَدُّ من حمل الفَقْر ، واحتمالَ الفقر أهونُ من احتمال الذُّلّ . على أنَّ الرضا بالفقر قناعةٌ وعزّ ، واحتمالَ الذُّلِّ نَذَالةٌ وسُخْف . ولئن كانوا قد أفرَطُوا فى لَوْم العشيرة ، والتكبُّر على ذوى الحُرْمة ، لقد أفرطتَ فى سوء الاختيار ، وفى طول مُقامِك على العار .

وأنت مع شِدّة عُجْبِك بنفسك ، ورضاك عن عقلك ، خالطْتَ من مَوتُه يُضحِكُ السِّنَّ ، وحياتُه تورث الحزن[٣] ، وتَشاغُلُكَ به من أعظم الغَبْن .

وشكوتَ تنبُّلَهم عليك ، واستصغارَهم لك ، وأنَّك أكثرُ منهم فى المحصول ، وفى حقائق المعقول[٤] . ولو كنتَ كما تقول لما أقَمتَ على الذُّلّ ولَمَا تجرَّعتَ الصَّبرَ وأنتَ بمندوحةٍ منهم ، وبنجوةٍ عنهم . ولعارضتهم من الكبر بما يَهضُّهم[٥] ، ومن الامتعاض بما يَبْهَرهم .

وقلتَ : ولو كانوا من أهل النُّبل عند الموازنة ، أو كان معهم ما يَغْلَط الناسُ فيه عند المقايسة لعذَرتُهم واحتجبتُ عنهم[٦] ، ولستَرتُ عَيْبَهم ، ولرقَعْتُ وَهْيَهم . ولكنَّ أمرهم مكشوفٌ ، وظاهرَهُم معروف .

---

(١) فى النسختين : « إلا حلما » .
(٢) م : « العنا » بالمهملة ، صوابه فى ب .
(٣) ب : « وحيرته يورث الحزن » ، صوابه فى م .
(٤) م : « العقول » .
(٥) الهض : الكسر والدق . وفى النسختين : « ينهضهم » ، وهو عكس ما يراد .
(٦) ب : « واحتجبت » ، والوجه ما أثبت من م .

وإن كان أمرُهم كما قلتَ ، وشأْنُهم كما وصفتَ ، فذاك أَلوَمُ لك ، وأَثبَتُ للحجَّة عليك .

وسأُؤخِّر عَذْلَك إلى الفراغِ منهم ، وتوقيفَك بعد التَّنويه بهم .

أقول : وإن كان النُّبل بالتنبُّل ، واستحقاقُ العِظَمِ [١] بالتَّعظُّم وبقلَّة التَّندم والاعتذارِ ، وبالتَّهاون بالإقرار ، فكلُّ مَن كان أَقلَّ حياءً ، وأَتمَّ قِحَةً ، وأَشدَّ تصلُّفاً ، وأَضعفَ عُدَّةً ، أحقُّ بالنُّبل وأَولى بالعُذْر.

وليس الذى يُوجب لك الرِّفعة أَن تكون عند نفسك ــ دون أن يراكَ الناسُ ــ رفيعاً ، وتَكون فى الحقيقة وضيعاً .

ومتى كنتَ من أَهل النُّبل لم يضرَّك التبذُّل ، ومتى لم تكنْ من أَهلِهِ لم ينفَعْك التنبُّل .

وليس النُّبْل كالرِّزق، يكون مرزوقاً الحِرمانُ [٢] أَليقُ به ، ولا يكون نبيلاً السَّخافةُ أَشبه به [٣] .

وكلُّ شيءٍ من أَمر الدنيا قد يَحظَى به غيرُ أَهلِه ، كما يحظَى به أَهلُه .

وما ظنُّك بشيءٍ المروءةُ خَصْلةٌ من خصاله ، وبُعْدُ الهمَّة خَلَّةٌ من خِلاله ، وبهاءُ المنظر سببٌ من أَسبابه ، وجزالة اللفظ شُعبةٌ من شُعَبه ، والمَقامات الكريمةُ طريقٌ من طُرُقه .

---

(١) فى النسختين : « المعظم » .

(٢) فى النسختين : « مرزوقاً من الحرمان وأليق به » .

(٣) فى النسختين : « نبيلا من السخافة أشبه به » . يريد أن النبل ينبغى أن يكون كاملا ، وليس كالرزق قليله وكثيره سواء .

٢ — فصل منه

واعلم أنّك متى لم تأخذ للنُّبل أُهبَته ، ولم تُقِم له أداتَه ، وتأتِه من وجهه[١] ، وتقُمْ بحقه ، كنتَ مع العَناءِ مُبغَضاً ، ومع التكلُّف مُستصلَفاً . ومَن تَبغَّضَ فقد استهدف للشِّتام[٢] ، وتَصدَّى للملام .

فإن كان لا يَحفِل بالشَّتم ، ولا يجزع من الذَّمّ ، فعُدَّه مَيِّتاً إن كان حيًّا ، وكلباً إن كان إنساناً .

وإن كان ممَّن يكترث ويجزع ، ويُحِسُّ ويتألَّم ، فقد خَسِر الراحة والمحبَّة ، وربح النَّصَبَ والمذَمَّة .

وبعد ، فالنُّبلُ كلِفٌ بالمولِّى عنه ، شَنِفٌ للمُقْبِل عليه ، لازقٌ بمن رَفَضه ، شديدُ النِّفار ممَّن طَلَبه .

٣ — فصل منه

والسَّيِّدُ المطاعُ لم يسهُلْ عليه الكَظْم ، ولم يكن له كنَفُ الحِلم ، إلَّا بعد طُولِ تَجَرُّعٍ للغيظ ، ومُقاساةٍ للصَّبر . وقد كان مُعَنَّى القَلْبِ دَهرَه ، ومكدودَ النَّفسِ عُمْرَه ، والحربُ سجالٌ بينه وبين الحِلْم ، ودُوَلٌ بينه وبين الكَظْم . فلمَّا انقادَتْ له العَشيرةُ ، وسَمَحت له بالطَّاعة ، ووَثِق بظُهور القدرة خِلافَ المَعْجزَة[٣] سَهُل عليه الصَّبر ، وغَمر[٤]

---

(١) ب : « وتاية من وجهه » م : « وتأديته من وجهه » ، والصواب ما أثبت .

(٢) الشتام : مصدر شاتم ، كالمشاتمة . وفى النسختين : « للأشتام » ، تحريف .

(٣) أى بعد العجز . وفى الكتاب العزيز : « وإذن لا يلبثون خلافك إلا قليلا » الآية ٧٦ من سورة الإسراء . وقرأ عطاء بن أبي رباح : « بعدك إلا قليلا » . تفسير أبي حيان ٦ : ٦٦ . وانظر اللسان (خلف) ٤٣٤ .

(٤) فى النسختين : « غمر » بالعين المهملة ، ولا وجه له .

بعلوّه دواعىَ الجزَع ، بطلت المجاذبة[1] ، وذهبت المُسَاجلة .

والذى كان دعاهُ إلى تكلُّف الحلم فى بدءِ أمره وإلى احتمال المكروه فى أوَّل شأنه ، الأَمَلُ فى الرِّياسة ، والطَّمعُ فى السيادة ، ثمَّ لم يتمّ له أمره ، ولم يستحكم له عَقْدُه إلَّا بعد ثلاثة أشياء : الاحتمال ، ثم الاعتياد ، ثم ظهور طاعة الرِّجال .

ولولا خوفُ جميع المظلومين من أن يُظَنَّ بهم العجزُ ، وألَّا يُوجَّه احتمالهم إلى الذُّلِّ[2] لَزاحَمَ السَّادةَ فى الحِلْم رجالٌ ليسوا فى أنفُسِهم بدونِهِم ، ولغَمَرَهم بَعْضُ مَن ليس معه من أسبابهم .

٤ — فصـــل منه

ولا يكون المرءُ نبيلاً حتى يكون نبيلَ الرَّأْى ، نبيلَ اللَّفظ ، نبيلَ العقل ، نبيلَ الخلق ، نبيلَ المنظرِ ، بَعِيد المذهب فى التنزُّه ، طاهرَ الثَّوب من الفُحْش ، إنْ وافَقَ ذلك عِرقاً صالحاً ، ومَجْداً تالداً .

فالخارجىُّ قد يتنبَّل بنفسه ، والنَّابتىُّ قد يَخرُج بطبعه . ولكلِّ عزٍّ أوّلُ ، وأوَّلُ كلِّ قديمٍ حادث .

ومن حُقوق النُّبل أَن تتواضَعَ لمن هو دُونَك ، وتُنصِفَ من هو مثلُك ، وتتنبَّل على من هو فَوقَك .

---

(١) فى النسختين : « وبطلت المجاذبة » والواو مقحمة ، وإنما الكلام جواب «لما» السابقة.

(٢) ب : « الظلم » ، صوابه فى م .

٥ – فصـــل منه

وكان بعضُ الأشراف فى زمان الأحنف ، لا يَحتقر أحدًا[١] ، ولا يتحرَّك لزائر ، وكان يقول :

* نهلان ذو الهَضَبات ما يتحلحلُ[٢] *

فكان الأحنف مايزداد إلّا عُلوًّا ، وكان ذلك الرجل لايزداد إلّا تَسفُّلًا .

وقد ذم الله تعالى المتكبِّرين ، ولعن المتجبِّرين ، وأجمعت الأُمَّةُ على عَيبهِ ، والبراءة منه ، وحتَّى سُمِّى المتكبِّر تائِهاً ، كالذى يَخْتَبِط فى التِّيه بلا أمارةٍ ، ويتعسَّف الأرض بلا علامة .

ولعلَّ قائلاً أن يقول : لو كان اسم المتكبِّر قبيحاً ، ولو كان المتكبِّر مذموماً ، لَمَا وصفَ الله تعالى بهما نَفْسَه ، ولَمَا نوَّهَ بهما فى التنزيل حين قال : ﴿ الجبَّارُ المتكبِّرُ[٣] ﴾ ، ثم قال : ﴿ له الأَسماءُ الحُسنَى[٤] ﴾ .

قلنا لهم : إنَّ الإنسانَ المخلوقَ المسخَّرَ ، والضعيفَ الميَسَّرَ ، لا يليقُ[٥] به إلَّا التذلُّل ، ولا يجوزُ له إلَّا التَّواضع .

وكيف يَلِيق الكِبْرُ بمن إنْ جاعَ صُرِعَ ، وإنْ شبِعَ طغَى ، وما يشبه الكبرُ بمن يأكل ويَشرب ، ويَبول ويَنْجُو . وكيف يستحقُّ الكِبْرَ ويَستوجب العَظمةَ من ينقُصُه النَّصَب ، ويُفْسِده الراحة ؟ .

---

(١) م : « يتحقر » ، صوابه فى ب .

(٢) الفرزدق فى ديوانه ٧١٧ واللسان (حلل ١٨٤) . وصدره :

* فادفــع بكفك إن أردت بنـــاءنا *

(٣) من الآية ٢٣ من الحشر .

(٤) من الآية ٢٤ من سورة الحشر وهى كذلك فى الآية ٨ من سورة طه . وفى النسختين : « وله » والواو مقحمة فى نص الآية . انظر تحقيق النصوص لكاتبه ص ٤٨ .

(٥) فى النسختين : « لا يلحق به » ، صوابه ما أثبت . وانظر ما سيأتى .

فإذا كان الكبر لا يليق بالمخلوق فإنّما يليق بالخالق ؛ وإنّما عاندَ اللهَ تعالى بالكِبرِ[١] لتَعدِّيهِ طوْرَه[٢]، ولِجهله لقَدْره[٣]، وانتحالِه مالايجوز إلّا لربِّه . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « العَظمة رِداءُ الله ، فمَنْ نازَعه رِداءَه قَصَمَه[٤] » .

٦ — فصــل منه

والنبيل لا يتنبَّل ، كما أنَّ الفصيحَ لا يتفصَّح ؛ لأنَّ النَّبيل يكفيه نُبْله عن التنبُّل ، والفصيح تُغنيه فصاحتُه عن التفصُّح . ولم يتزيَّدْ أَحدٌ قطُّ إلَّا لنقصٍ يجده فى نفسه ، ولا تَطاوَلَ متطاولٌ إلَّا لوَهْنٍ قد أَحسَّ به [فى[٥]] قوَّته .

والكِبرُ من جميع النَّاس قبيحٌ ، ومن كلِّ العبادِ مَسخوطٌ[٦] ، إلَّا أنَّه عند الناس من عُظَماءِ الأَعرابِ ، وأشباهِ الأَعراب أَوجَدُ[٧] ، وهو لهم أَسرع ، لجفائهم وبُعْدهم من الجماعةِ ، ولقلَّة مخالطتهم لأَهل العفَّة والرِّعة[٨] ، والأَدبِ والصَّنْعَة[٩] .

---

(١) هنا ينتهى السقط الكبير فى نسخة هامش الكامل (ط) الذى أشرت إليه فى ص ٣٢٩ من ٣٢٩ من الجزء الثالث من الرسائل . وستبدأ المقابلة هنا على النسخ الثلاثة : المتحف البريطانى (ب) والنسخة التيمورية (م) ونسخة الكامل (ط) .

(٢) ب ، م : « ليعديه » ، صوابه فى ط .

(٣) ب ، م : « ويجهله لقدره » ، والصواب من ط .

(٤) ورد فى سنن ابن ماجه برقم ٤١٧٤ ، ٤١٧٥ حديثاً قدسيًّا أوله « يقول الله سبحانه : الكبرياء ردائى ، والعظمة إزارى ، من نازعنى واحداً منهما ألقيته فى جهنم » ، من حديث أبى هريرة . ومن حديث ابن عباس بلفظ : « ألقيته فى النار » .

(٥) كلمة « فى » ساقطة من النسخ الثلاثة . وزدتها تكملة للقول .

(٦) فى ط : « والكبر من جميع الناس قبيح مسخوط » .

(٧) أوجد ، أى أكثر وجوداً . وفى جميع النسخ : « أجود »

(٨) الرعة بالراء المكسورة : الورع . وفى ب ، م . « الدعة » .

(٩) هذا ما فى ط . وفى ب ، م : « الضعة » .

٧ – فصــل منه

ولم نَرَ الكبر يَسُوغ عندهم ويُستحسَنُ إلَّا فى ثلاثة مواضع :

من ذلك أن يكون المتكبِّر صعباً بدويًّا، وَذَا عُرْضيَّة وحشيًّا[١]، ولا يكون حضريًّا ولا مَدَرِيًّا ، فيحمل ذلك منه على جهة الصُّعوبة ومذهب الجاهليَّة ، وعلى العُنْجُهيَّةِ[٢] والأَعرابيَّة .

أو يكونَ ذلك منه على جهة الانتقام والمُعارضَة ، والمكافأَة والمقابلة[٣] .

أو على أن لا يكون تكبُّره إلَّا على الملوك والجبابرة ، والفَراعنةِ وأشباه الفراعنة .

وصاحبُك هذا خارجٌ من هذه الخصال ، مُجانبٌ لهذه الخِلال . إن أصاب صديقاً تَعظَّمَ عليه[٤] ، وإن أتاه ضيفٌ تغافل عنه[٥] ، وإن أتاه ضعيفٌ منَّ عليه ، وإن صادف حليماً اعتمر به[٦] .

وينبغى أن يكون خضوعُه لمن فوقه[٧] على حَسب تكبُّره على مَنْ دونه .

ومن صفة اللَّئيم أن يَظلم الضَّعيفَ ، ويَظلِمَ نفسَه للقوىّ ، ويَقتُل

---

(١) ب : « وإذا » ، صوابه فى م ، ط . والعرضية ، بضم العين : العجرفية والصعوبة ، وأن يركب رأسه من النخوة . اللسان (عرض ٤١) . والكلمة محرفة فى الأصول . فى ب : « عارضته » ، وفى م: « عرضنة » وفى ط : « غطرسة » ، والوجه ما أثبت .

(٢) ب : « ولا العنجهية » ، صوابه فى م . وفى ط : « وعلى الهمجية » .

(٣) ب : « المقالة » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « يعظم عليه » ، صوابه فى ط .

(٥) ب : « ضعيف » ، صوابه فى م ، ط . وفى ب ، م : « يخافض له » ، صوابه فى ط .

(٦) به ، ساقطة من ب . وفى ط : « اعتمل به » .

(٧) هذا ما فى ط . وفى ب ، م : « لمن رفعه » .

الصَّريع . ويُجهِزَ على الجريح . ويَطلُبَ الهاربَ ، ويَهرُب من الطَّالب ، ولا يَطلُبُ من الطَّوائلِ إلّا مالا خِطَارَ فيه[١] ولا يتكبَّر إلّا حيث لايرجع مَضرَّته عليه[٢] ، ولا يَقْفُو التَّقِيَّةَ ولا المروءة[٣] ، ولا يعمل على حقيقته[٤] .

ومن اختار أن يبغيَ تَبَدَّى[٥] ، ومن أراد أن يُسمَعَ قولُه ساءَ خلقه ، إذْ كان لا يحفل ببُغْضِ النَّاسِ له ووَحْشةِ قُلوبِهم منه ، واحتيالِهم فى مُباعَدته ، وقلَّة ملابسته[٦] .

وليس يأْمنُ اللَّئيمَ على إتيان جميعِ ما اشتمل عليه اسمُ اللُّؤم إلّا حاسد .

فإذا[٧] رأَيته يعقُّ أَباه ، ويَحسُد أَخاه ، ويَظلمُ الضَّعيفَ ، ويستخفُّ بالأَديب ، فلا تُبعِدْه من الخيانة ، إذْ كانت[٨] الخيانة لؤماً ؛ ولا من الكذب ، إذْ كان الكذب لؤماً ؛ ولا من النَّميمة ، إذْ كانت النَّميمة لؤماً . ولا تأْمَنْه على الكُفْر فإنَّه أَلأَمُ اللُّؤم ، وأَقبح الغَدْر[٩] .

ومَن رأيته منصرِفاً عن بعض اللُّؤم . وتاركاً لبعض القبيح ، فإيَّاكَ أنْ توجِّهَ ذلك منه على التجنُّبِ له . والرَّغبة عنه ، والإيثارِ لخلافه ،

(١) ط : « ما لا خطر فيه » .

(٢) ط : « معرته عليه » .

(٣) يقفو : يتبع . والتقية : التقوى ، وهى أيضاً المصانعة . ب ، م : « يقف البقية » ، صوابها فى ط .

(٤) ط : « حقيقة » .

(٥) ب : « يبق يبدى » م : « يبق يبدى » ، وأرى الوجه فيما أثبت . تبدى : سكن البادية . على أن هذه العبارة ساقطة من ط .

(٦) الملابسة : المخالطة . م ، ط : « مساعدته » .

(٧) ب : « إذا » بغير فاء .

(٨) ب : « إذا » هنا وفى الموضعين التاليين .

(٩) ب فقط : « العذر » ، تحريف .

ولكن على أنَّه لا يشتهيه أَوْ لا يَقدِرُ عليه[(١)] ، أو يخاف من مرارةِ العاقبة[(٢)] أمراً يعفِّى على حلاوة العاجل ؛ لأَنَّ اللُّؤمَ كلَّه أَصلٌ واحدٌ وإنْ تفرَّقت فروعُه ، وجنسٌ واحدٌ وإن اختلفَتْ صُوَرُه ، والفِعلُ محمولٌ على غلبته[(٣)] ، تابعٌ لسَمْتِه . والشَّكل ذاهبٌ عَلَى شكله ، منقطعٌ إلى أصله ، صائرٌ إليه وإنْ أَبطأَ عنه ، ونازعٌ إليه وإن حِيلَ دونه . وكذلك تَناسُب الكرمِ وحنينُ بعضِه لبعض[(٤)] .

ولم تَر العيونُ ، ولا سَمِعت الآذانُ ، ولا توهَّمتِ العقولُ عملاً اجتباهُ ذو عقلٍ ، أَو اختارَه ذو علمٍ ، بأَوبأَ[(٥)] مَغبَّةً ، ولا أَنكدَ عاقبةً ، ولا أَوخمَ مرعًى ، ولا أَبعَدَ مَهوًى ، ولا أَضرَّ على دينٍ ، ولا أفسَدَ لِعرضٍ ، ولا أَوجَبَ لسُخْط الله ، ولا أَدعى إلى مَقْتِ النَّاس ، ولا أَبعَدَ من الفلَاح ، ولا أَظهرَ نُفُورًا عن التَّوبة ، ولا أَقلَّ دَرَكاً عند الحقيقة ، ولا أَنقضَ للطَّبيعة[(٦)] ، ولا أَمنَعَ من العِلم ، ولا أَشدَّ خلافاً على الحِلم ، من التكبُّر فى غير موضعه ، والتنبُّل فى غير كُنْهِه .

وما ظنُّك بشىءٍ العُجْبُ شَقيقُه ، والبَذَخُ صديقُه ، والنَّفْجُ أَليفُه[(٧)] ، والصَّلَفُ عَقِيدُه[(٨)] .

والبَذَّاخ متزَيِّد[(٩)] ، والنَّفَّاج كذَّابٌ ، والمتكبِّر ظالم ، والمُعجَبُ

---

(١) ب ، م : « أولا أولا يقدر عليه » . (٢) ب : « مراءة العاقبة » ، تحريف .

(٣) ب ، م « غلبة » ، صوابه فى ط .

(٤) م : « ببعض » ، تحريف . وفى ط : « إلى بعض » .

(٥) مابعد هذه الكلمة إلى « على دين » التالية ، ساقطط من ط .

(٦) النقض : الإفساد والقلب ، وأصله ضد الإبرام . وفى جميع النسخ : « أنقص » بالصاد ، تحريف .

(٧) فى اللسان : « رجل نفاج : ذو نفج يقول مالا يفعل ، ويفتخر بما ليس له ولا فيه » .

(٨) العقيد : الصاحب ، كأنك تعاقده وتحالفه . وفى قول أبى خراش :

كم من عقيد وجار حل عندهم ... ومن مجار بعهد الله قــــد قتــــلوا

(٩) ب فقط : « متزايد » ، تحريف .

صغيرُ النَّفْس . وإذا اجتمعت هذه الخصالُ ، وانتَظَمت هذه الخصالُ فى قلبٍ طال خَرابُه ، واستَغْلَق بابُه .

وشرُّ العيوبِ ما كان مضمَّناً بعُيوب ، وشرُّ الذنوب ما كان عِلَّةً لذُنوب[١] .

والكِبْر أوّلُ ذنبٍ كان فى السماوات والأَرض ، وأَعظمُ جُرْمٍ كان من الجنّ والإنس ، وأَشهَرُ تعصُّب كان فى الثَّقَلَيْن ، وعنه لجَّ إبليسُ فى الطُّغيان ، وعَتَا على ربِّ العالمين ، وخَطَّأَ ربَّه فى التَّدبير[٢] ، وتلقَّى قولَه بالرَّد . ومِنْ أَجلِهِ استَوْجَب السَّخْطة ، وأُخرِج من الجنَّة ، وقيل له : ﴿ ما يكونُ لك أَنْ تتكبَّرَ فيها[٣] ﴾ .

ولإفراطه فى التَّعظيم خرج إلى غاية القسوة ، ولشدَّة قَسوته اعتزم على الإصرار ، وتتايَعَ[٤] فى غاية الإفساد ، ودعا إلى كلِّ قبيح ، وزيَّن كل شَرٍّ[٥] ، وعن معصيته أُخرج آدمُ من الجنَّة ، وشُهِر فى كلِّ أُفق وأُمَّة ، ومن أجله نَصَبَ العداوةَ[٦] لذرِّيته ، وتفرَّغ[٧] من كل شىء إلَّا من إهلاك نَسلِه[٨] ، فعادَى من لا يَرجُوه ولا يخافه ، ولا يضاهيه

---

(١) ب : « للذنوب » م : « بذنوب » ط : « الذنوب » ، والوجه ما أثبت .

(٢) ب فقط : « فى التبذير » تحريف . وهو قول إبليس : « أأسجد لمن خلقت طيناً » ، « خلقتنى من نار وخلقته من طين » .

(٣) من الآية ١٣ من الأعراف : « قال فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها » .

(٤) التتايع ، بالياء التحتية المثناة : التساقط والتهافت . وفى الأصول : « تتابع » ، والوجه ما أثبت من لغة الجاحظ .

(٥) ب ، م : « شىء » ، صوابه فى ط .

(٦) فى الأصول : « نصبت العداوة » .

(٧) ب ، م : « وتفرع » ، صوابه فى ط .

(٨) ب ، م : « أهلك نسله » ، صوابه فى ط .

فى نسب[١] ، ولا يُشاكله فى صناعة ، وعن ذلك[٢] قَتلَ النَّاسُ بعضُهم بعضاً ، وظلم القويُّ الضَّعيفَ ، ومن أجله أهلَكَ اللهُ الأُمَمَ بالمَسْخ والرَّجْف ، وبالخَسْف وبالطُّوفان ، والرِّيح العقيم[٣] ، وأدخلهم النَّار ، وأقْنَطَهم من الخروج .

والكِبْرُ هو الذى زَيَّن لإبليسَ ترك السُّجود ، ووَهَّمه شَرَفَ الأَنفة[٤] ، وصوَّر له عِزَّ الانتقاض[٥] ، وحبَّبَ إليه المخالفَة ، وآنَسَه بالوَحْدة والوَحْشة ، وهوَّن عليه سُخْطَ الرَّبِّ ، وسَهَّل عليه عقابَ الأَبَد ، ووَعَدَه الظَّفرَ ، ومَنَّاهُ السَّلامةَ ، ولقَّنه الاحتجاجَ بالباطل ، وزيَّن له قَوْلَ الزُّور ، وزهَّده فى جوار الملائكة[٦] ، وجَمَع له خِلال السَّوء ، ونظَم له خِلال الشَّرّ ؛ لأنَّه حَسَدَ والحسدُ ظلمٌ ، وكذب والكذبُ ذلٌّ ، وخَدَعَ والخديعة لؤم . وحَلَفَ على الزور ، وذلك فجور . وخَطَّأَ ربَّه ، وتخطئةُ الله جهلٌ ؛ وأخطأَ فى جَلِىِّ القياس[٧] وذلك غَىٌّ ، ولَجَّ واللَّجاج ضَعْف . وفرقَ بينَ التكبُّر والتبدِّى[٨] . وجَمَعَ بين الرَّغبة عن صنيع الملائكة[٩] وبينَ الدُّخولِ فى أعمال السِّفْلة .

واحْتَجَّ بأَنَّ النار خَيْرٌ من الطِّين . ومنافع العالَمِ نتائج أربعةٍ

(١) هذا الصواب من ط . وفى ب ، م : « ولا يضاره » . والمضاهاة : المشابهة .

(٢) ط : « ومن ذلك » .

(٣) انظر ما مضى فى ص ١٥٨ .

(٤) ط : « وأوهمه شر الألفة » ب ، م : « ووهمه سرف الألفة » ، والوجه فيهما ما أثبت . أى جعله يتوهم الشرف فى الأنفة والكبر .

(٥) عز ، ساقطة من ط . وهى فى م : « عن » ، تحريف . والانتقاض : المخالفة . وفى جميع الأصول : « الامتعاض » .

(٦) ب فقط : « الملكية » ، تحريف .

(٧) الجلى : الظاهر الواضح . م : « جليل القياس » .

(٨) ب : « والتبذل » م : « والتبد » ، وأثبت مافى ط .

(٩) رسمت فى ب « المليكة » .

أَركان : نارٌ يابسة حارّة ، وماءٌ باردٌ سيَّال ، وأرضٌ باردة يابسة ، وهَواءٌ حارٌّ رطب . ليس منها شيءٌ مع مُزَاوجتِه لخلافهِ إلّا وهو مُحْيٍ مُبْقٍ[1] . على أَنَّ النار نِقمةُ اللهِ من بين جميع الأَصناف ، وهى أَسرعُهنَّ إتلافاً لما صار فيها . وأَمحقهُنّ لما دنا منها .

هذا كلُّه ثمرةُ الكِبر ، ونتاجُ النِّيةِ . والتكبُّرُ شَرٌّ من القَسوة ، كما أَنَّ القسوة شرُّ المعاصى . والتَّواضعُ خيرُ الرحمة[2] ، كما أَنَّ الرَّحمة خيرُ الطَّاعات .

والكبر معنًى ينتظم به جِماعُ الشَّرّ ، والتَّواضع معنًى ينتظم به[3] جِماعُ الخير ، والتَّواضع عَقِيبُ الكِبْرِ ، والرَّحمة عَقيبُ القَسْوةَ . فإذا كان للطَّاعة قدرٌ من الثَّواب فلتركها وعَقيبها ، ولما يُوازِنُها[4] ويكايلُها ، مثلُ ذلك القدر من العِقاب . وموضع الطاعة من طبقات الرِّضا ، كموضع تَركها من طبقاتَ السُّخط[5] إذْ[6] كانت الطَّاعةُ واجبةً ، والتَّرك معصية .

والكِبْر من أَسباب القَسْوة . ولو كان الكبر لا يعترى إلّا الشَّريفَ والجميل ، أَو الجواد ، أَو الوفىَّ أَو الصَّدوق ، كان أَهْوَنَ لأَمره ، وأَقلَّ لشَيْنه . وكان[7] يعرض لأَهل الخير ، وكان لايَغْلَطُ فيه إلاَّ أَهلُ الفضل ،

---

(١) ب فقط : « مجى » تحريف .
(٢) ب ، م : « خير من الرحمة » . والمراد خير أنواع الرحمة ، كما قيل : « خير البر عاجله » .
(٣) به ، ساقطة من م . وبدلها فى ط : « فيه » .
(٤) فى جميع الأصول : « ويوازيها » .
(٥) ب فقط : « وموضع الطاعة من طبقات السخط » . والتكملة من م ، ط .
(٦) ب : « إذا » ، تحريف .
(٧) هذا الصواب من ب . وفى م ، ط : « أو كان » .

ولكنّا نجده فى السِّفلة ، كما نجدُه(١) فى العِلْية ، ونَجِدُه فى القبيح كما نجده فى الحَسن ، وفى الدَّميم(٢) كما نجدُه فى الجميل . وفى الدَّنِىِّ الناقصِ ، كما نجده فى الوفىِّ الكامل ، وفى الجبان كما نجده فى الشُّجاع ، وفى الكَذُوبِ كما نجده فى الصَّدوق ، وفى العبد كما نجده فى الحُرّ ، وفى الذِّمِّىِّ ذى الجِزْيةِ والصَّغَارِ والذِّلَّة ، كما نجدُه فى قابِضِ جزيته والمسلَّطِ على إذلاله .

ولو كان فى الكبر خيرٌ لما كان فى دَهر الجاهليَّة أَظْهَرَ منه فى دَهر الإسلام ، ولما كان فى العَبْد أفشَى منه فى الحُرّ(٣) ، ولما كان فى السِّنْد أَعمَّ منه فى الرُّوم والفُرس .

وليس الذى كان فيه آل ساسان(٤) وأنو شروان وجميعُ ولَدِ أزدشير ابن بابَك كانَ(٥) من الكِبْر فى شىءٍ . تلك سياسةٌ للعوامِّ ، وتفخيمٌ لأَمر السُّلطان ، وتسديدٌ للمُلْك .

ولم يكن(٦) فى الخلفاء أَشدُّ نخوةً من الوليد بن عبد الملك، وكان أَجهلَهُم وأَلحنَهم(٧) . وما كان فى وُلاةِ العِراق أعظمُ كِبْرًا من يُوسفَ ابنِ عمر ، وما كان(٨) أَشجعَهم ولا أَبصَرَهم ، ولا أَتمَّهم قَوَاماً ، ولا أَحسنَهُمْ كلاماً .

---

(١) ب : « كما أن نجده » .

(٢) الدميم ، من الدمامة ، وهى القبح والقصر . وفى جميع الأصول : « الذميم » بالذال المعجمة ، تحريف .

(٣) ب ، م : « المدر » ، صوابه فى ط .

(٤) فى الأصول : « كان فيه عن آل ساسان » . و « عن » مقحمة .

(٥) سقطت « كان » هذه من ط فقط .

(٦) ب ، م : « ولو لم يكن » و « لو » مقحمة ليست فى ط .

(٧) ب فقط : «وكان أجهلهم » ، تحريف .

(٨) ب ، م : « ولا كان » ، والوجه ما أثبت من م .

ولم يَدَّعِ الرُّبوبيَّةَ ملكٌ قَطُّ[1] إلَّا فِرعونُ ، ولم يكُ مقدَّماً فى مُرَكَّبِه[2] ، ولا فى شَرَفِ حسَبِه ، ولا فى نُبْل منظره ، وكَمالِ خَلْقه ، ولا فى سَعَة سُلطانِه وشرف رعيَّته وكرم ناحيته . ولا كان فوقَ المُلوكِ الأَعاظمِ والجِلَّةِ الأَكابرِ ، بل دونَ كثيرٍ منهم فى الحَسَبِ وشَرفِ المُلْك[3] وكرَمِ الرعيَّة ، ومَنَعةِ السُّلطانِ ، والسَّطوةِ على المُلوك .

ولوْ كان الكبرُ فضيلةً وفى التِّيهِ[4] مروءةٌ ، لما رغب عنه بنو هاشمٍ ولكان عبدُ المطَّلبِ أَولىَ النَّاس منه بالغاية ، وأَحقَّهم بأَقصى النهاية .

ولو كان محمودَ العاجلِ وَمرجوَّ الآجِلِ[5] ، وكان من أَسباب السِّيادة أَو من حُقوق الرِّياسة ، لبادَرَ إليه سيِّدُ بنى تميم ، وهو الأَحنف بنُ قيس ؛ ولشحَّ عليه سيِّدُ بكرِ بن وائل[6] وهو ملكٌ ؛ ولاستولى عليه سيِّد الأَزْدِ وهو المهلَّب .

ولقد ذكر أَبو عمرِو بنُ العلاءِ جميعَ عُيوب السَّادة ، وما كان فيهم من الخِلال المذمومة ، حيث قال : « ما رأَينا شيئاً يمنع من السُّوْدُد إلاَّ وقد وجدناه فى سيِّد : وجدنا البخل يمنع[7] من السُّودد . وكان

---

(١) ب ، م : « ولا يدع » ب : « ملكاً » ، والصواب فى الأولى من ط ، وفى الثانية من م ، ط .

(٢) فى اللسان : « والمركب أيضاً : الأصل والمنبت ، تقول فلان كريم المركب ، أى كريم أصل منصبه فى قومه » . ب ، ط : « موكبه » وفى م : « موكبه » بالواو أيضاً مع ضبطه بضم الميم وفتح الواو وتشديد الكاف المفتوحة ، وصوابها بالراء كما أثبت . وانظر ٢٠٣ .

(٣) م : « بل دون كثير منهم وشرف الملك » بهذا النقص الذى أكلته من ب ، ط .

(٤) فى ، ساقطة من ب ، م .

(٥) ب ، م : « أو مرجو الآجل » .

(٦) هو كليب بن ربيعة بن الحارث بن مرة بن ذهل بن شيبان بن ثعلبة بن عكابة ابن صعب ابن على بن بكر بن وائل ، الذى يضرب به المثل فيقال : « أعز من كليب وائل » ، قتله جساس ابن مرة الشيبانى ، فكان ذلك سبب الحرب بين بكر وتغلب أربعين عاماً .

(٧) كلمة « يمنع » ساقطة من ب .

أبو سفيان بن حرب بخيلا . والعِهارُ[(١)] يمنع من السُّودُد . وكان عامرُ بن الطفيل سيِّداً ، وكان عاهرًا . والظُّلمَ يمنع من السُّودُد . وكان حُذيفة ابن بدر ظلوماً ، وكان سيد غطفان . والحُمْقَ يمنع من السُّودُدِ ، وكان عُتيبة بن حِصْن محمَّقاً[(٢)] ، وكان سيِّدا . والإملاقَ يمنع من السُّودُد ، وكان عُتبةُ بن ربيعة[(٣)] مُملِقاً . وقلَّةَ العدد تمنع من السُّودد وكان شِبْل بن معبدٍ سيِّداً ، ولم يكنْ من عشيرته بالبصرة رجلان . والحَدَاثة تمنع من السُّودُد ، وساد أبو جهلٍ وما طرَّ شاربُه[(٤)] ، ودخَلَ دار النَّدوة وما استوَتْ لحيته[(٥)] .

فذكَرَ الظُّلم ، والحُمقَ ، والبُخلَ ، والفَقر ، والعِهارَ ، وذكَر العُيوبَ ولم يذكر الكِبْر ؛ لأنَّ هذه الأَخلاقَ وإن كانت داءً فإنَّ في فضول أحلامهم وفى سائر أمورهم مايُداوَى به ذلك الدَّاءُ ، ويُعالَج به ذلك السَّقَم ؛ وليس الداء المُمْكِن كالدَّاءِ المُعْضِل ، وليس البابُ المُغْلَق كالمُستَبهِم؛ والأَخلاق التى لا يمكن معها السُّودُد[(٦)] ، مثلُ الكِبْر والكَذب والسُّخف ، ومثلُ الجهلِ بالسِّياسة .

---

(١) العهار والمعاهرة : الفجور . وأصل المعاهرة الإتيان ليلا للفجور ، ثم غلب على الزنى مطلقاً .

(٢) عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر الفزارى . وكان اسمه حذيفة فلقب عيينة ، لأنه كان قد أصابته شجة فجحظت عيناه . شهد حنيناً والطائف وعاش إلى خلافة عثمان . الإصابة ٦١٤٦ . ب ، م : « عتيبة بن حصن » ، صوابه فى ط .

(٣) عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف . قتل يوم بدر كافراً ، هو وأخوه شيبة ابن ربيعة ، وهو والد هند بنت عتبة أم معاوية بن أبى سفيان . جمهرة أنساب العرب ٧٦ – ٧٧ والسيرة ٥٠٧ جوتنجن . وفى ب : « عتيبة » ، صوابه فى م ، ط .

(٤) يقال طرشاربه : طلع ونبت . ويقال أيضاً طر ، بالبناء للمجهول ، قال الأزهرى : والأول أفصح . ب : « ساربه » ، صوابه فى م ، ط .

(٥) فى جميع الأصول : « واستوت لحيته » ، والوجه ما أثبت .

(٦) ب : « التى لم يكن معها السودد » ، صوابه فى م ، ط .

وخرجَتْ خارجةٌ بخُراسانَ فقيل لقُتيبة بن مُسلم : لو وجَّهت إليهم وَكيع بنَ أَبي سُودٍ لكفاهم[(١)] فقال : وكيعٌ رجلٌ عظيم الكِبْر ، فى أنفِه خُنزُوانة ، وفى رأسه نُعْرة ، وإنَّما أنفه فى أسلوب[(٢)] ، ومن عَظُم كبرُه اشتدَّ عُجْبه[(٣)] ، ومن أُعجِبَ برأيِهِ لم يشاور كَفِيًّا ، ولم يُؤامر نصيحاً ، ومن تبجَّح[(٤)] بالانفراد وفَخَر بالاستبداد كان من الظَّفر بعيدًا ، ومن الخِذْلان قريباً ، والخطاءُ[(٥)] مع الجماعة خيرٌ من الصواب مع الفِرْقة . وإن كانت الجماعةُ لا تخطئُ والفِرْقة لا تصيب .

ومن تكبَّر على عدوِّه حقَره ، وإذا حَقَره تهاونَ بأمره . ومَن تهاوَنَ بخَصْمِهِ ووَثِق بفَضْل قُوتَّه قلَّ احتراسه ، ومَنْ قلَّ احتراسُه كثُر عِثارُهُ .

وما رأيتُ عظيمَ الكِبْر صاحبَ حربٍ إلاّ كان منكوباً ومهزوماً ومخدوعاً . ولا يشعُر[(٦)] حتَّى يكونَ عدوُّه عندَه . وخَصْمُه فيما يَغلِب عليه أَسمَعُ من فرس ، وأَبصَرُ من عُقَاب ، وأهدى من قطاة ، وأحذَرُ من عَقْعَق[(٧)] ، وأَشدُّ إقداماً من الأَسَد ، وأَوْثَبُ من فَهْد ، وأَحقَدُ من

---

(١) ب ، م : « كفاهم » .

(٢) يقال إن أنفه فى أسلوب ، إذا كان متكبراً . وأصل الأسلوب : الطريق . قال :

أنوفهم بالفخر فى أسلوب وشعر الأستاه بالجبوب

وفى ط : « وإنما أنف فى أسلوب » ، تحريف .

(٣) ب : « شيد عجبه » ، والصواب فى م ، ط .

(٤) ب ، م : « تنجح » ، صوابه فى ط . والتبجح : الفخر .

(٥) الخطاء : الخطأ ، وتكثر فى لغة الجاحظ . م ، ط « والخطأ » .

(٦) يشعر موضعها بياض فى ب ، م . وكلمة « ولا » ساقطة من ب فقط .

(٧) انظر الحيوان ١ : ٢/٢٢٠ : ١٧٤ / ٣ : ١٨ / ٥ : ٥٣٥ . والعقعق بفتح العينين ، وهو طائر ذو لونين أبيض وأسود طويل الذنب ، على قدر الحمامة وشكل الغراب . وانظر معجم المعلوف ١٥٥ ، ١٨٨ .

جَمَل ، وأروغُ من ثعلب ، وأغْدَر من ذئب[(١)] ، وأسخى من لافِظة[(٢)] ، وأشحُّ من صبيّ ، وأجمَع من ذَرَّة ، وأحرصُ من كلب[(٣)] ، وأصبَرُ من ضَبٍّ . فإنَّ النَّفس إنَّما تسمح[(٤)] بالعِناية على قدر الحاجة ،وتتحفَّظُ[(٥)] على قَدْرِ الخَوف ، وتَطلبُ على قَدر الطَّمَع ، وتَطمَع على قدر السَّبَب .

٨ — فصــــل منه

وأقول بعد هذا كلِّه : إنَّ النَّاسَ قد ظلموا أهل الحِلم والعَزْم ، حين زَعمُوا أنَّ الذى يُسهِّل عليهم الاحتمالَ معرفةُ الناس بقُدْرتهم على الانتقام ، فكيفَ والمذكورُ بالحِلم والمَشهورُ بالاحتمال يقيِّض له من السُّفهاء ، ويُؤْتى له من أهل البَذَاءِ مالا يقوم له صبر . ولا يَنهض به عَزْم . بل على قدر حلمه يُتعرَّض له[(٦)] ، وعلى قدر عزمه يُمتَحَن صبرُه[(٧)] ولأنَّ الذى سهَّل عليه الحلم[(٨)] . ومكَّنه من العَزْم ، معرفةُ الناس بقُدرتهِ على الانتقام ، واقتدارُه[(٩)] على شفاء الغيظ ؛ فإنَّ منعَه لنفسه ، ومجاذبته لطبعه مع الغيظ الشَّديد، والقُدرةِ الظاهرة، أشدُّ عليه فى المزاولة

---

(١) ب : « وأعذر » صوابه فى م ، ط .

(٢) اللافظة : الديك ، لأنه يمض على الحبة بطرفى منقاره ثم يحذف بها قدام الدجاجة ، والتاء فيه للمبالغة كراوية . وانظر الحيوان٢ : ١٤٨ حيث أجرى فيه بحثاً . ط : « لاقطة » ؛ بالقاف ، تحريف . وفى م : « الأفظة » ، صوابها فى ب .

(٣) فى جميع الأصول : « أحرس » بالسين ، وإنما هى بالصاد ، كما فى الحيوان ١ : ٢٢٦ — ٢٢٧ . وفيه بحث .

(٤) ب ، م : « تسمع » ، صوابه فى ط .

(٥) ب : « ويتحفظ » تحريف . ورسمت فى م بتاء وياء فى أولها ، لتقرأ بالوجهين ، والصواب فى ط .

(٦) ب ، م : « بل على قدر حلمهم يتعرض لهم » ، صوابه فى ط .

(٧) ب ، م : « وعلى قدر عزمهم يمتحن صبرهم » ، صوابه فى ط .

(٨) ب ، م : « عليهم الحلم » ، صوابه فى ط .

(٩) ب : « واقتداوه » صوابه فى م ، ط .

وأبلَغُ فى المشقَّة والمكابدة[١] ، من صبر الشَّكل على أذى شِكْله ، واحتمال المظلوم عن مِثْله ، وإن خاف الطمس ، وتوقَّع العَيب .

٩ – فصل منه

ومن بعد هذا ، فمن شَأْنِ الأَيَّام أن يُظلم المرءُ أكثَرَ محاسنِه ماكان تابعاً ، فإذا عاد متبوعاً عادت عليه من محاسن غيره بأَضعافِ ما منعَتْه من محاسن نفسه ، حتَّى يضاف إليه مِن شوارِد الأَفعال[٢] ، ومن شواذِّ المكارم إن كان سيِّداً ، ومن غريب الأَمثال إن كان مِنطيقاً[٣] ، ومن خيار القصائد إنْ كان شاعرًا ، مما لا أَماراتِ لها ، ولا سِماتِ عليها .

فكم من يدٍ بيضاء وصنيعةٍ غرَّاء[٤] ، ضلَّت فلم يَقُم بها ناشد، وخَفِيتْ فلم يُظهرها شاكر . والذى ضاع للتَّابع قبل أن يكون متبوعاً[٥] ، أكثر ممَّا حُفظ ، والذى نُسِىَ[٦] أكثر مما ذكر ، وما ظنُّك بشىءٍ بَقِيَّتُهُ[٧] تَهبُ السِّيادة ، ومشكورُهُ يهب الرياسة[٨] ، على قِلَّة الشُّكر ، وكَثْرة الكفر .

وقد يكون الرجل تامَّ النَّفس ناقصَ الأَداة ، فلا يُستَبانُ فضلُه ، ولا يُعظَّم قَدْره ، كالمُفْرَج الذى لا عشيرة له[٩] ، والإتاوىِّ الذى

---

(١) المكابدة : المقاساة والمعاناة . ب ، م : « المكايدة » ، صوابه فى ط .
(٢) ط : « حتّى تضاف » . م ، ط : « ومن شوارد الأفعال » .
(٣) ب : « منطبعاً » م : « منطبقاً » ، صوابه فى ط .
(٤) ب : « وضيعة غراء » ، تحريف .
(٥) ب : « مترعاً » م : « مترعاً » ، صوابهما فى ط .
(٦) ط فقط : « كتم » .
(٧) ب ، م : « يقنيه » ، صوابه ما أثبت . وفى ط : « مذكورة » .
(٨) م : « ومشكورة تهب الرياسة » .
(٩) المفرج : الذى لامال له ولا عشيرة ، فإذا جنى جناية كانت جنايته على بيت المال .

لا قَوْم له[١] . وقد يعظَّمُ المُفْرَجُ الذى لا وَلاء له ولا عقْدُ جِوارٍ ، ولا عَهْدُ حِلف ، إذَا بَرعَ فى الفِقْه وبلغَ فى الزُّهد ، بأكثَرَ من تعظيم السيِّد ، كجهة تعظيم الدَّيَّان . كما أنَّ طاعةَ السُّلطان غيرُ طاعةِ السَّادةِ ، والسُّلطانُ إنَّما يَملك أبدانَ الناس ، ولهم الخيارُ فى عقولهم ، وكذلك الموالى والعَبيد .

وطاعةُ النَّاسِ للسيِّد ، وطاعةُ الديَّانِ طاعةُ محبّة ودينونة ، والقلوبُ أطوع لهما من الأَبدان ، إلَّا أنْ يكون السلطان مَرضيًّا ، فإنْ كان كذلك فهو أعظم خطراً من السيِّد ، وأَوجَهُ عند الله من ذلك الدَّيَّان .

وربَّما ساد الأَتاوِىُّ لأَنَّه عربىٌّ[٢] على حال . والمُفْرَج لا يَسودُ أبداً لأَنَّه عجمىٌّ لا حِلْفَ له ، ولا عَقْدُ جوارٍ ، ولا وَلاءُ معروف ، ولا نسبٌ ثابت . وليس التَّسويد إلَّا فى العرب ، والعجم لا تُطيع إلَّا للملوك .

والذى أحوجَ العربَ فى الجاهليَّة إلى تسويد الرِّجال وطاعة الأَكابر ، بُعْدُ دُورِهم من الملوك والحُكَّام[٣] والقُضاة ، وأَصحاب الأَرباع[٤] ، والمَسالح والعُمَّال . فكان السيِّدُ ، فى منْعِهم من غيرهم ومَنعِ غيرهم منهم ، ووثوبِ بعضِهم على بعض ، فى كثير من معانى السُّلطان .

---

(١) الأَتاوى : الغريب الذى هو فى غير وطنه . وهو بتثليث الهمزة ، كما فى القاموس.

(٢) فى جميع الأصول : « عزى » ، ووجهه ما أثبت .

(٣) ب : « والأحكام » ، صوابه فى م ، ط .

(٤) هم الرؤساء فى الجاهلية ، كانوا إذا غزوا وغنموا أخذ الرئيس ربع الغنيمة ، فيقال عند ذلك : قد ربعهم ، وما يأخذه هو المرباع . قال عبد الله بن عنمة الضبى (الأصمعيات ٣٧) :

لك المرباع منهـــــا والصفايا وحـــكمك والنشيطة والفضـــول

٢١

من رسالة في

المودة والخلطة، إلى أبي الفرج

١ – فصـــل

من رسالته إلى أبى الفرج الكاتب فى المودة والخلطة(١)

أطال الله بقاءك ، وأعزَّكَ وأكرَمَك ، وأتمَّ نعمته عليك .

زعم – أبقاك الله – كثيرٌ ممَّن يَقرض الشِّعر ويَروِى مَعانِيَه ، ويتكلَّف الأدب ويَجْتبيه(٢) ، أنَّه قد يُمدَح المرجُوُّ المأمول ، والمغشىُّ المَزُور(٣) ، بأن يكون مخدوعاً ، وعَمِىَ الطَّرف مُغَفَّلا(٤) ، وسليمَ الصَّدر للراغبين ، وحَسَنَ الظَّنِّ بالطالبين(٥) ، قليلَ الفِطنة لأبواب الاعتذار ، عاجزاً عن التخلُّص إلى معانى الاعتلال(٦) ، قليل الحِذْق بردِّ الشُّفعاء ،

---

(١) هذه الرسالة غير رسالته إليه التى كتب بها إليه يذكر فيها من كانت كنيته « أبا عثمان » مطابقة لكنية الجاحظ . وسبق نشرها فى الجزء الأول من الرسائل ٣٢١ – ٣٣٢ . وأبو الفرج هذا هو محمد بن نجاح بن سلمة ، كما فى جمع الجواهر للحصرى ١٢١ . وأبوه نجاح بن سلمة كان على ديوان التوقيع فى خلافة المتوكل، وقتله سنة ٢٤٥ ووجه إلى ابنيه : أبى الفرج هذا وأبى محمد ، فأخذ أبو الفرج ، وهرب أبو محمد ، كما ذكر الطبرى فى حوادث تلك السنة .

وقد نشرها السندوبى فى رسائل الجاحظ ٣٠٣ – ٣١٠ كما سبق نشرها فى هامش الكامل . والمقابلة هنا على النسخ الثلاثة ب ، م ، ط .

(٢) يجتبيه : يختاره ويصطفيه . ب، م : « ويكلف الأدب » ، صوابه فى ط .

(٣) ط : « المرجو المأمون والمفتى المزور » ، صوابه فى ب ، م .

(٤) العمى ، على وزن حذر وفرح : الأعمى . يقال رجل عم وامرأة عمية . وفى قول زهير :

وأعلم علم اليوم والأمس قبله ... ولكننى عن علم ما فى غـــــد عم

(٥) ب ، م : « بالظالمين » ، صوابه ما أثبت .

(٦) الاعتلال : بيان العلة . وفى الأصول : « الاعتدال » ولا وجه له .

شديدَ الخوف من مَيَاسم الشُّعراءِ[(١)] ، حَصِراً[(٢)] عند الاحتجاج للمنع ، سلسَ القِياد إذا نبَّهته للبَذْل[(٣)] ، واحْتجُّوا بقول الشاعر :

إيتِ الخليفةَ فاخدَعْهُ بمسألةٍ إنَّ الخليفةَ للسُّؤَّال ينخدعُ

فانتحالُ المأمول للغَفْلة التى تَعترِى الكرام ، وانخِداع[(٤)] الجوادِ لخُدَع الطالبين ومَخَاريق المُستمِيحين[(٥)] ، بابٌ من التكرُّم ، ومن استدعاءِ الرَّاغب ، والتعرُّضِ للمجتدِى ، والتلطُّف لاستخراج الأَموال ، والاحتيال لحلِّ عُقَد الأَشحَّاء ، وتَهييج طبائع الكرام .

وأَنا أَزعُمُ – أَبقاكَ اللهُ – أَنَّ إِقرار المسئول بما يَنْحَلُ من ذلك نوك[(٦)] ، وإِضمارَه لُؤم ، حَتَّى تصحَّ القسمةُ[(٧)] ، ويعتدل الوَزْن .

وأَنا أَعوذُ بالله من تذكيرٍ يُناسب[(٨)] الاقتضاءَ ، ومن اقتضاءٍ

---

(١) فى جميع الأصول : « مباسم » ، صوابه ما أثبت . والمياسم : جمع ميسم . وهو المكواة أو الأداة التى توسم بها الدواب ، ويقال فى جمعها أيضاً مواسم . والمراد بالمياسم هنا آثار الهجاء اللاذع . قال المتلمس :

ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى جعلت لهم فوق العرانين ميسما

يقول : أهجوهم هجاء يلزمهم لزوم الميسم فى الأنف .

(٢) الحصر : ضرب من العى فى المنطق . حصر حصراً مثل تعب تعباً . ب : « حضرا » م : « حضوا » ط : « حصور » ، صوابه ما أثبت .

(٣) ب ، ط : « إذا انبهته نبهته للبذل » بالتكرار . صوابه فى م .

(٤) ب ، م : « والخداع » ط : « وخداع » ، صوابهما ما أثبت .

(٥) المراد بالمخاريق هنا الادعاءات الكاذبة . وقال التبريزى فى شرح المعلقات : « قيل المخاريق ما مثل بالشىء وليس به ، نحو ما يلعب به الصبيان » . وانظر حواشى الحيوان ٤ : ٣٧٨ .

(٦) النوك ، بضم النون وفتحها : الحمق . والنحلة ، بالكسر : العطية . ط : « ينجل » ، تحريف .

(٧) ط : « القيمة » .

(٨) ب ، م : « تذكر تناسب » ط : « تذكر يناسب » ، ووجههما ما أثبت .

يُضارعُ الإلحاحَ . ومن حِرْصٍ يعود إلى الحِرْمان ، ومن رسالةٍ ظاهرها زُهد، وباطنُها رغبة . فإنَّ أسقَطَ الكلامِ وأوغَدَه(١) ، وأبعَدَه من السَّعادة وأنكَدَه ، ما أظهرَ النَّزاهةَ وأضمَرَ الحِرص ، وتجلَّى للعُيون بَعينِ القَناعة ؛ واستشعَرَ(٢) ذلَّة الافتقار .

وأشنَعُ من ذلك ، وأقبح منه وأفحش ، أن يظُنَّ صاحبه أنَّ معناه خفيٌّ وهو ظاهر ، وتأْويلَه بعيدُ الغَوْر وهو قريب القعر(٣) .

فنسأَل الله تعالى السَّلامةَ فإنَّها أصلُ النِّعمة عليكم ، ونحمده على اتِّصال نعمتنا بنعمتكم ، وما أَلهَمنا اللهُ من وَصفِ محاسنكم .

والحمدُ لله الذى جعَلَ الحمد مُستفْتَحَ كتابِه ، وآخرَ دعوى أهل جَنَّته .

ولو أنَّ رجلاً اجتهد فى عبادة ربِّه ، واستفرغَ مَجْهودَه فى طاعةِ سيِّده ، ليهَبَ له الإخلاص فى الدُّعاءِ لمن أنعَمَ عليه ؛ وأحسنَ إليه ، لكان حريًّا بذلك أن يُدرِكَ أقصى غايةِ الكَرَمِ فى العاجل ، وأرفَعَ درجاتِ الكرامة فى الآجِل .

وعلى أنِّى لا أعرِف معنًى أجمَعَ لخصال الشُّكر ، ولا أدَلَّ على جِمَاع الفَضْل ، من سَخَاوة النَّفْس بأداءِ الواجب(٤) .

---

(١) أوغده ، من الوغادة ، وهى الذلة والضعف واللؤم . ب ، م : « أوعده » ، صوابه فى ط .

(٢) فى جميع الأصول : « واستبشع » ، والوجه ما أثبت . والشعار : ماولى جسد المرء من الثياب .

(٣) ب ، م : « الفقر » ، صوابه فى ط .

(٤) السخاوة : السخاء ، ومثلهما السخو والسخوة بضمتين فيهما مع تشديد الواو ، وكذلك السخا بالقصر .

ونحن وإن لم نكن أعطينا الإخلاص[١] جميعَ حقِّه . فإنّ المرء مع من أَحَبَّ ، وله ما احتسَبَ .

ولا أعلم شيئاً أَزْيَدَ فى السَّيِّئة من استصغارها ، ولا أَحبَطَ للحسنة من العُجْب بها[٢] .

ومما يستديم الخطأَ لُبْثُ التَّقصير[٣] وإهمالُ النَّفْس ، وتركُ التوقُّف ، وقلَّةُ المحاسَبة ، وبُعْدُ العَهد بالتثبُّت . ومَهْمَا رجعنا إليه من ضَعفٍ فى عَزْم ، وهان علينا ما نَفْقِد من مناقل الحِلْم[٤] . فإنَّا لا نجمع بين التَّقصير والإنكار[٥] .

ونعوذُ بالله أن نقصِّر فى ثناءٍ على مُحسنٍ ، أو دعاءٍ لمُنْعِم . ولئن اعتذَرْنا لأنفسنا بصدق المَودَّة[٦] — وبجميل الذِّكر ، فلَمَا يُعَدُّ لكم[٧] ، مِنْ تحقُّق الآمال ، والنُّهوضِ بالأثقالِ أكثر .

على أنَّكم لم تُحمِّلونا إلاَّ الخِفَّ ، وقد حمَّلناكم الثِّقْل . ولم تسألونا الجزاءَ على إحسانكم ، وقد سألناكم الجزاءَ على ما سألناكم . ولم تكلِّفونا مايَجِبُ لكم ، وكلَّفناكم مالا يجب .

ومن إفراطِ الجَهْل أَن نتذكَّرَ حقَّنا فى حُسْنِ الظَّنِّ ، ولا نتذكَّر

---

(١) فى الأصول : « الخلاص » ، والوجه ما أثبت .
(٢) ب ، م : « لحسنة » وأثبت ما فى ط . وفى ب : « من العجب لها » ، تحريف .
(٣) لبث ، ساقطة من ط . و فى ب : « ومما يستميد » ، صوابه فى م ، ط .
(٤) المناقل : المراحل ، والطرق المختصرة .
(٥) ب فقط : « والاتكال » .
(٦) ب فقط : « لنفسنا » ، وفى ب ، م : « بمودة الصدق » .
(٧) ط : « فما يعد لكم » .

حقَّكم فى تصديق ذلك الظَّن[١] وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ماعَظُمَتْ نعمةُ الله على أَحدٍ إلَّا عظُمَتْ عليه مُؤْنة النَّاس[٢] » .

وأنا أسأل الله الذى ألزمَكم المُؤَن الثِّقال ، ووصل بكم آمالَ الرِّجال ، وامتحنكُمْ بالصَّبر على تجرُّع المُرار ، وكلَّفكم مُفارقةَ المحبوب من الأَموال ، أن يُسَهِّلها عليكم ، ويُحَبِّبها إليكم ، حتَّى يكون شَغفُكم بالإحسان الداعىَ إليه ، وصَبابتكم بالمعروف الحاملَ عليه ، وحتَّى يكون حبُّ التفضُّل ، والمحبَّةُ لاعتقاد المِنَن الغايةَ التى تستدعى المدبِّر ، والنهايَةَ التى تَعذِرُ المقصِّر ، وحتى تُكرِهوا على الخير من أخطأً حظُّه[٣] ، وتفتحوا بابَ الطَّلبِ لمن قصَّر به العَجْز .

ثم اعلمْ — أصلَحكَ الله — أنَّ الذى وُجِدَ فى العبرة ، وجرت عليه التَّجربة ، واتَّسَق به النظم ، وقام عليه وَزْنُ الحكم ، واطَّرد منه النَّسَق ، وأثبته الفَحْص[٤] ، وشَهِدت له العقول . أنَّ من أَوَّلِ أَسباب الخُلطة ، والدَّواعِى إلى المحبَّة ، ما يُوجَدُ[٥] على بَعْضِ النَّاس من القَبُول عند أوَّلِ وَهْلة ، وقِلَّة انقباض النُّفوس مع أَوَّل لَحْظة[٦] ، ثم اتِّفاقَ الأَسبابِ التى تقع بالموافَقَة عند أَوَّل المجالسة ، وتلاقِىَ النُّفوس بالمشاكلة عند أَوَّل الخُلطة .

والأَدب أدبان : أَدبُ خُلُقٍ ، وأَدبُ رِواية ، ولا تكمُل أُمورُ صاحب

---

(١) ط : « أن نتذكر حقنا فى تصديق ذلك الظن » ، وأثبت السقط من ب ، م .

(٢) أخرجه ابن أبى الدنيا فى قضاء الحوائج عن عائشة ، والبيهقى فى شعب الإيمان عن معاذ . الجامع الصغير ٧٩٤٢ . وتمامه : « فمن لم يحتمل تلك المؤنة للناس فقد عرض تلك النعمة للزوال » .

(٣) ب فقط : « خطه » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « وثبته الفحص » .

(٥) ط : « مايوجه » ، صوابه فى ب ، م . وفى م بعده : « على بغض » ، تحريف .

(٦) ط : « الخلطة » .

الأَدبِ إلاَّ بهما ، ولا يجتمع له أَسبابُ التَّمام إلَّا من أَجلِهما ، ولا يُعَدُّ فى الرُّؤساء ، ولا يُثنَى به الخِنْصَر فى الأُدباء ، حتَّى يكون عَقْلُه المتأَمِّرَ عليهما ، والسائسَ لَهُما[١] .

٢ – فصـــل منه

فإن تمَّت بعد ذلك أَسبابُ الملاقاةِ تمت المصافاة ، وحَنَّ الإِلف إلى سَكَنه[٢] . والشَّأْنُ قبل ذلك لِما يَسْبِقُ إلى القلب[٣] ، ويخفُّ على النَّفْس ، ولذلك احترس الحازم المستعْدَى عليه[٤] من السَّابق إلى قلب الحاكم عليه .

وكذلك[٥] التمسُوا الرِّفق والتَّوفيق ، والإِيجازَ وحسن الاختصار ، وانخفاضَ الصَّوت ، وأَن يُخرِج الظَّالمُ كلامَه مُخرَجَ لفظِ المظلوم .

نَعَمْ ، وحَتَّى يترك اللَّحْنَ بحجَّته بَعْدُ[٦] ، ويخلِّفَ الدَّاهيةُ كثيراً من أَدبِه ، ويَغُضَّ من محاسن مَنطقِه التماساً لمواساة خَصْمه فى ضعف الحِيلة ، والتشبُّه به فى قلَّة الفطنة .

نَعَمْ ، وحتَّى يكتبَ كتابَ سِعايةٍ ومَحْلٍ وإغراقٍ وتحدٍّ[٧] ، فيلحن فى إعرابه . ويتسخَّفُ فى ألفاظه[٨] ، ويتجنَّبَ القصد ، ويهربَ من

---

(١) الواو ساقطة من ب . وفى ط : « والسائس له » تحريف .

(٢) ط : « وحسن » تحريف . وفى ب ، م : « وحن الأليف » .

(٣) فى الأصول : « مما يسبق القلب » ، ووجهه ما أثبت .

(٤) ب : « الجازم المستدعى عليه » ، صوابه فى م ، ط .

(٥) ط : « ولذلك » .

(٦) سقطت كلمة « نعم » والواو بعدها من ط .

(٧) الكلمة ساقطة من ط . وهى فى ب : « تجد » وفى م : « تحد » بدون واو قبلها ، ولعل الوجه ما أثبت .

(٨) ب فقط : « ويستخف فى ألفاظه » .

اللفظ المُعْجبِ ليُخفِيَ مكانَ حِذْقه[١] ، ويَسْتُرَ موضعَ رِفْقه ، حتَّى لا يحترسَ منه الخَصْم ، ولا يتحفَّظ منه صاحبُ الحكم ، بعد أن لا يَفْ.رَ بعَين معناه ، ولا يقصِّر فى الإفصاح عن تفسير مغزاه[٢] ، وهذا هو الموضع الذى يكون العَىّ[٣] فيه أبْيَنَ ، وذو الغَبَاوة أفطنَ ، والردِىُّ أجوَد ، والأنْوَكُ أحزَم ، والمضيِّعُ أحكم ؛ إذْ كان غرضهُ الذى إيَّاه يرمى ، وغايتُه التى إليها يُجرِى ، الانتفاعَ بالمعنى المتخَيَّر[٤] دون المباهاةِ باللَّفظ ، وإنَّما كانَ غايتُه إيصالَ المعنى إلى القلب دون نَصيب السَّمع من اللَّفظِ المُونِق ، والمعنى المتخيَّر ؛ بل ربَّما لم يَرْضَ باللَّفظِ السَّليمِ حتَّى يُسْقِمه ليقع العجزُ موقع القُوَّة ، ويُعرَض العِىُّ[٥] فى محلِّ البلاغة . إذا كان حقُّ ذلك المكان اللَّفْظَ الدُّون[٦] ، والمعنى الغُفْل .

هذا إذا كان صاحبُ القِصَّةِ . ومؤلِّفُ لَفْظِ المَحْل والسِّعاية ، ممَّن يتصرَّفُ قلمُه ، ويعلِّل لسانُه ، ويلتزق[٧] فى مذاهبه ، ويكون فى سَعَةٍ وحِلٍّ لأن يَحُطَّ نفسه[٨] إلى طبقَةِ الذُّلِّ وهو عزيز ، ومَحلِّ العِىِّ وهو بليغ ، ويتحوَّلَ فى هيئة المظلومِ وهو ظالم ، ويمكنَه تصويرُ الباطل فى صورة الحَقِّ ، وسَتْرَ العُيوبِ بزُخْرُف القَول ؛ وإذا شاء طفا ، وإذا شاء رسَب ، وإذا شاء أخرجَه غُفْلاً صحيحاً[٩] .

---

(١) ط : « حذته » ، تحريف .

(٢) المغزى : القصد . وفى ب ، م : « مغواه » ، تحريف .

(٣) العى : العيى ، والعى أكثر استعمالا ، وهو العاجز عن البيان . ب ، م : « الغى » صوابه فى ط .

(٤) ب ، م : « المتحير » ، صوابه فى ط .

(٥) ب ، م : « الحى » ، صوابه فى ط .

(٦) ط : « المدون » .

(٧) لعلها « ويتصرف » .

(٨) فى جميع الأصول : « ويكون فى وسعه وصل » ، والوجه ما أثبت ، وفى ب فقط « يحيط نفسه » ، تحريف .

(٩) غفلا ، أى مجرداً من الزخرف . وفى جميع الأصول : « عقلا » ، ولا وجه له .

وما أكثَرَ من لا يُحسِن إلاَّ الجيِّد(١) ، فإنْ طلبَ الرديَّ جاوَزَه(٢) . كما أنَّه ماأكثَرَ من لا يستطيع إلا الرديَّ ، فإن طلب الجيِّدَ قَصَّرَ عَنه.

وليس كلُّ بليغ يكون بذلك الطِّباع(٣) ، ومُيسَّرَ الأَداةِ ، وموسَّعاً عليه فى تَصريف اللِّسان ، وممنوناً عليه(٤) فى تحويل القلم .

وما أكثَرَ من البصراءِ مَنْ يحكى العُمْيان(٥) ، ويُحَوِّل لسانَه إلى صورة لفظِ الفأْفاءِ بما لا يبلغُه الفأْفاءُ ولا يُحْسِنُه التَّمتام . وقد نجد من هو أبسط لساناً وأبلغُ قلماً ، لا يستطيع مجاوزَةَ ما يشركه ، والخروجَ مما قَصَّر عنه .

٣ — فصــل منها

ولولا الحدودُ المحصَّلة والأَقسام المعدَّلة(٦) ، لكانت الأُمور سُدًى ، والتَّدابيرُ مُهمَلة ، ولكانت عَوْرة الحكيم بادية ، ولاختلطت السافلة بالعالية .

٤ — فصــل منها

وأنا أَقول بعد هذا كلِّه : لو لم أُضمرْ لكم محبّةً قديمة ، ولم أَضْرَ بِكم(٧) بشفيعٍ من المشاكلة . ولا سببِ الأَديبِ إلى الأَديب(٨) ، ولم

---

(١) ب فقط : « إلى الجيد » .
(٢) ب ، م : « حاوره » .
(٣) الطباع : الطبع ، كما أنه أيضاً جمع طبع . ط : « بتلك الطباع » .
(٤) أى منعماً عليه . وفى الكتاب العزيز : « ولقد مننا عليك مرة أخرى » . طه ٣٧ .
(٥) ب : « وما أكثر من بصر » م : « من البصر » ، صوابهما فى ط . والبصراء : جمع بصير .
(٦) ط فقط : « المعتدلة » .
(٧) ضرى به ضراً وضراوة : لهج ، واعتاده فلا يكاد يصبر عنه .
(٨) ب : « ولا سبب الأديب » فقط .

يكن على قبول . ولا علىَّ حلاوةٌ عند المحصول . ولم أكنْ إلَّا رجلًا من عُرْضِ المعارف، ومن جُمهور الأتْباع ـ لكانَ فى إحسانكم إلينا ، وإنعامكم علينا ، دليلٌ على أنا قد أخلصْنا المحبَّة . وأصفينا لكم المودَّة .

وإذا عرفتم ـ ذلك بالدليل النَّيِّر الذى أنتم سبَبُه . والبُرهانِ الواضحِ الذى إليكم مرجعُه . لم يكن لنا عند الناس إلَّا توقُّعُ ثمرةِ الحُبّ ، ونتيجةُ جميلِ الرَّأْى ، وانتظارُ ما عليه مُجازاةُ القلوب .

وبقدر الإنعام تَجُود النُّفوسُ بالمودَّة ، وبقدر المودَّة تنطلق الألْسُنُ بالمِدْحة .

وهذهِ الوسيلة أكثرُ الوسائلِ[١] وأقواها فى نفسى : أنِّى لم أصِلْ سببى بمُحَرَّمٍ غُمْرٍ[٢] ولا بمبخَّلٍ[٣] غُفْلٍ[٣] ، ولا بضيِّق العَطَنِ حديثِ الغِنَى ، ولا بزَمِرِ المُرُوَّة مُستنبَط الثَّرى[٤] ؛ بل وصلتُه بحمَّالِ أثقالِ[٥] ومُقارِعِ أبطال، وبِمَنْ وُلِد فى اليُسْرِ ورَبِىَ فيه، وجَرَى[٦] منه على عِرْقٍ ونزَع إليه .

٥ ــ فصـــل منها

ولا خيرَ فى سمينٍ لا يحتمل هُزَالَ أخيه ، وصحيحٍ لا يَجبُر كَسْر صاحِبه .

---

(١) ب ، م : «وسائل» .

(٢) المحرم : البدوى الذى لم يخالط الحضر . وبعير محرم : صعب . ب : «سبى» بمجرم» صوابه فى م ، ط . وفى ط «وغمر» .

(٣) ط : «بمنحل» .

(٤) الثرى : الخير . أى ينال خيره بعد جهد واستخراج .

(٥) م : «لحال أثقال» ط : «وصلته وصلة لحال أثقال» . والوجه ما أثبت من ب .

(٦) ب ، م : «ويجرى منه» وأثبت ما فى ط .

٦ — فصـــل منها

وقد تنقسم المودَّة إلى ثلاثِ[١] منازل :

منها : مايكون على اهتزاز الأَريحيَّة وطبْعِ الحُرِّيَّة .

ومنها : مايكون على قَدر فرط وسائل الفاقة[٢]

ومنها : ما يحسُنُ موقعُه[٣] على قَدْر طباع الحِرص وجَشَع النَّفس.

فأَرفعها منازلَ حبُّ المشغوف شكرَ النِّعمة . وهو الذى يدوم شكره، ويبقى على الأَيامِ وُدُّه. والثانى هو الذى إنَّما اشتدَّ حبُّه على قدرِ مَوضعِ المال من قَلْب الحريص الجِشع ، واللَّئيم الطَّمِع . فهذا الذى لا يشكر، وإنْ شَكَر لم يشكرْ إلَّا ليستزيد، ولم يَمدَحْ إلَّا ليستمدّ . وعلى أنَّه لا يأْتى الحمدَ إلَّا زَحْفًا ، ولا يفعلهُ إلَّا تكلُّفا .

وأنا أَسأَل الله الذى قسم له[٤] أفضلَ الحظوظ فى الإنعام ، أن يَقْسِمَ لنا أَفضلَ الحظُوظِ فى الشُّكر . وما غايةُ قولِنا هذا ومَدارُ أَمرنا إلاَّ على طاعةٍ تُوجِب الدُّعاءَ ، وحُرِّيَّةٍ تُوجِب الثَّناء . شاكرين كُنَّا أَو مُنعِمِين ، وراجين كنَّا أَو مرجُوِّين .

ومَن صرف[٥] الله حاجَته إلى الكرام ، وعَدَلَ به عن اللِّئام فلا يَعُدَّنَّ نفسَه فى الرَّاغبين ولا فى الطَّالبينَ المؤمِّلين ، لأَنَّ من لم يَجْرَع مَرارة المِطال ، ولم يمدَّ للرَّحيل التَّسويف ، ويَقْطَعْ عنقَه بطول الانتظار .

---

(١) ب ، م : « على ثلاثة » .
(٢) ب : « وشل » م : « وسل » ، صوابهما فى ط .
(٣) ب : « يحصل موقعه » .
(٤) له ، ساقطة من ب .
(٥) ب : « تصرف » صوابه فى م ، ط .

ويَحْمِلْ مكروهَ ذُلِّ السؤال . ويُحمَل على طمعٍ يحثُّه يأْس ، كان خارجاً من حدود المؤمِّلين .

ومَن استولى على طمَعه الثِّقةُ بالإنْجاز(١) ، وعلى طَلِبَتِهِ اليقينُ بسُرعة الظَّفَر ، وعلى ظَفره الجزيلُ من الإفضال ، وعلى إفضاله العلمُ بقلَّة التثريب(٢) ، وبالسَّلامة من التَّنْغيص(٣) بالتماس الشكر ، وبالبكور وبالرَّواح(٤) وبالخُضوع إذا دخَلَ ، والاستكانةِ إذا جلس . ثم مع ذلك لم يكن ما أُنعِمَ به عليه ثواباً لسالفِ يدٍ ، ولا تعويضاً من كدٍّ ، كانت النعمةُ(٥) محضةً خالصة ، ومهذَّبَة صافية ، وهى نعمتكم التى ابتدأْتمونا بها .

ولا تكون النِّعمة سابغةً ولا الأَيدى شاملةً(٦) ، ولا السِّتر كثيفاً ذَيَّالًا ، وكثير العَرْض مُطْبِقاً ، ودون الفَقر حاجزاً ، وعلى الغِنى مُلتحِفاً ، حتَّى يخرُجَ من عندِكم ، ثمَّ يُحتَسَبَ(٧) إلى شاكرٍ حُرّ .

٧ — فصـــل منها

وأنتم قومٌ تقدَّمتم بابتناءِ المكارم فى حالِ المُهْلة ، وأخذتم لأنفسكم فيها بالثِّقة على مقاديرِ ما مكَّنتم الأَواخِىَ(٨) . ومددتُم الأَطناب ، وثبَّتُّم القواعد . ولذلك قال الأوَّل(٩) :

(١) فى جميع الأصول : « بالإيجاز » ، صوابه ما أثبت .
(٢) التثريب : اللوم والتعيير بالذنب .
(٣) م ، ط : « التنقيص » صوابه فى ب .
(٤) ط : « وبالغدو والرواح » .
(٥) فى جميع الأصول : « النعمة كانت » . والوجه ما أثبت .
(٦) ب ، م : « ولا أيدى » ، صوابه فى ط .
(٧) ب ، م : « محتسب » .
(٨) الآخية والآخية بتشديد الياء وتخفيفها ، والأخية كفرحة أيضاً : طنب البيت .
(٩) هو أنس بن مدركة الخثعمى ، كما فى الحيوان ١ : ٨١ . وانظر سيبويه ١ : ١١٦ والمقتضب ٤ : ٤٣٥ والخزانة ١ : ٤٧٦ / ٢ : ٥٤٥ والهمع ١ : ١٩٧ .

عزَمْتُ على إقامة ذى صباحٍ لأَمرٍ ما يُسوَّدُ من يَسُودُ

وأبو الفرج – أعزَّه الله – فتَى العَسكَرَين(١) ، وأَديبُ المِصرين(٢) جمعَ أَريحيَّةَ الشَّباب ، ونَجابةَ الكُهول ، ومحبَّة السَّادة ، وبَهاءَ القادة وأخلاقَ الأُدباء ، ورَشَاقة عُقولِ الكُتَّاب . والتَّغلغُلَ إلى دقائقِ الصَّواب ، والحلاوةَ فى الصُّدور ، والمهابةَ فى العُيون ، والتقدُّمَ فى الصِّناعة ، والسَّبْقَ عند المحاورة(٣) ، شقيقُ أَبيه وشِبْه جَدِّهِ ، حَذْوَ النَّعلِ بالنَّعل ، والقُذَّة بالقُذَّة . لم يتأَخَّر عنهما إلّا فيما لا يجوز أن يتقدَّمهما فيه : ولم يقصِّر عن شأْوِهما إلّا بقدرِ ماقصَّرا عن سِنْخِهما(٤) ، وهم وإنْ قصَّروا عن مدَى آبائهم ، وعن غايات أوائِلهم ، فلم يقصِّروا عن جِلَّة الرُّؤساء ، وأهلِ السَّوابقِ من الكُبَراء ، ولستَ ترى تاليَهُم إلّا سابقاً ، ومُصَلِّيَهم إلّا للغاية مُجاوِزًا . ليس فيهم سِكِّيتٌ ولا مبهورٌ ولا منقطِع ، قد نُقِّحتْ أَعراقُهم(٥) من الإقراف والهُجْنة ، ومن الشَّوب ولؤم العُجْمة(٦) .

ومتى عاينتَ أَبا الفرجِ وكمالَه ، ورأَيتَ ديباجتَه وجماله ، علمت أنَّه لم يكن فى ضرائِبهم وقديمِ نَجْلهم(٧) ، خارجيُّ النَّسب ، ولا مجهولُ

---

(١) الذى فى جنى الجنتين ٧٨ أن العسكرين عرفة ومنى . ولكن يبدو أن الجاحظ أراد بهما عسكر أبى جعفر ، وهى مدينته التى بناها ببغداد وهى باب البصرة فى الجانب الغربى . والآخر عسكر ولده المهدى ، وهى المعروفة بالرصافة فى الجانب الشرقى من بغداد .

(٢) المصران : الكوفة والبصرة ، كما فى جنى الجنتين ١٠٦ واللسان (مصر ٢٤) .

(٣) م فقط : « المجاورة » بالجيم .

(٤) السنخ ، بالكسر : الأصل . ط : « من سنحهما » تحريف . وهو يعنى أنهم عريقون فى الكرم وأصالته .

(٥) التنقيح : التهذيب والتخليص . ب فقط : « نفحت » . تحريف .

(٦) فى جميع الأصول : « العجلة » ، والوجه ما أثبت .

(٧) النجل : النسل . م : « بخلهم » ط : « نخلهم » ، صوابها ما أثبت .

المركَّب(١) ، ولا بهيمٌ مُصْمَتٌ(٢) ، ولا كثيرُ الأوضاح مُغْرَبٌ(٣) ، بل لا ترى إلَّا كلَّ أغرَّ محجَّلٍ(٤) ، وكل ضَخْم المحْزِم(٥) هيكل(٦) .

إنِّى لستُ أُخبِر عن الموتَى ولا أستشهد الغيب(٧) ، ولا أستدِلُّ بالمختلَفِ فيه ولا الغامض الذى تعظم(٨) المُؤنةُ فى تعرُّفه ، والشَّاهد لقولى يَلُوح فى وجُوههم ، والبُرهان على دعوايَ ظاهرٌ فى شمائلهم(٩) ؛ والأَخبار مستفيضة ، والشُّهودُ متعاونة .

وأنتَ حين تَرى عِتْقَ تلك الدِّيباجة ، ورَوْنقَ ذلك المنظر ، علمتَ أنَّ التالد هو قِيَادُ(١٠) هذا الطَّارف .

أمَّا أنا فلم أر لأبى الفرج – أدامَ الله كرامَته – ذامًّا ولا شانئاً(١١) ولا عائباً ولا هاجياً ، بل لم أجد مادحاً قطُّ إلَّا ومَن سَمِعَ تسابَقَ(١٢) إلى

---

(١) انظر ما سبق فى ص ١٨٣.

(٢) البهيم المصمت : الخالص السواد الذى لا شية فيه . ب فقط : « مسمط » ، تحريف .

(٣) المغرب ، بفتح الراء ، من الإغراب فى الخيل ؛ وهو اتساع الغرة حتى تجاوز العينين ، مع ابيضاض فى الأشفار .

(٤) الأغر من الخيل : الذى غرته أكبر من الدرهم قد وسطت جبهته ولم تصب واحدة من العينين . والمحجل : الذى يرتفع البياض فى قوائمه فى موضع القيد ويجاوز الأرساغ ولا يجاوز الركبتين . ب : « كل غر » ، صوابه فى م ، ط .

(٥) المحزم : موضع الحزام من الفرس ، ويوصف بالضخامة ، ومنه قول عنترة فى معلقته :

وحشيَّتى سرج علَى عبل الشوى … نهد مراكله نبيل المحزم

وأنشد ثعلب فى صفة رجل :

فقام وثاب نبيل محزمه … لم يلق بوسا لحمه ولادمه

وفى جميع الأصول : « المخرج » ، صوابه ما أثبت .

(٦) الهيكل : الفرس الطويل الضخم .

(٧) تقرأ « الغيب » بفتحتين : اسم جميع الغائب ، وبضم الغين وتشديد الياء المفتوحة جمعاً له أيضاً . ط : « بالغيب » .

(٨) ب ، م : « يعظم » . (٩) ظاهر ، ساقطة من ط .

(١٠) ب : « أفياد » م : « أقياد » ، صوابهما فى ط .

(١١) الشانئ : المبغض . ب : « شاينا » وأثبت ما فى م ، ط .

(١٢) ط فقط : « سابق » .

تلك المعانى ، ولارأيتُ واصفاً له قطٌّ إلّا وكلٌّ من حضر يَهَشُّ له ويرتاحُ لقوله . قال الطِّرمَّاح :

هل المجدُ إلّا السُّودُدُ العَوْدُ والنَّدى
وَرَأبُ الثَّأَى والصَّبْرُ عند المَواطِن[(١)]

ولكنَّ هل المجدُ إلّا كَرَمُ الأَرومةِ والحَسَب[(٢)] ، وبُعْد الهمَّة ، وكثرة الأَدَب ، والثَّباتُ على العهد إذا زلَّت الأَقدام ، وتوكيد العَقْد إذا انحلَّت مَعَاقِدُ الكرام ، وإلاّ التَّواضُع عند حدوث النِّعمة ، واحتمالُ كُلِّ العَثْرة[(٣)] ، والنَّفاذ فى الكتابة ، والإشراف على الصِّناعة .

والكتابُ هو[(٤)] القطب الذى عليه مدارُ علمِ ما فى العالَم وآدابِ الملوك ، وتلخيص الأَلفاظ ، والغَوْصِ على المعانى السِّداد[(٥)] ، والتخلُّصِ إلى إظهار مافى الضَّمائِر بأَسهل القول ، والتمييزِ بين الحجَّة والشُّبهة وبين المُفَرد والمشتَرَك ، وبين المقصور والمبسوط ، وبين ما يحتمل التأْويل ممَّا لا يحتمله ، وبين السَّليم والمعتلّ .

فبارك الله لهم فيما أعطاهم ، ورَزَ قهم الشُّكرَ على ماخَوَّلهم ، وجعل ذلك موصولاً بالسَّلامة ، وبما خَطَّ لهم من السَّعادة ، إنَّه سميعٌ قريب ، فعّالٌ لما يريد .

---

(١) ب ، م : « والصد عند المواطن » تحريف ، كما ورد البيت محرفاً فى ط على هذه الصورة :

هل المجد إلا السودد المعود الندى ورب الجدى والصدر عند الواطن

وصواب عجزه ما أثبت من الديوان ٥١٦ . والرأب : الإصلاح . والثأى : الفسادو الأمر العظيم يقع بين القوم . والمواطن هى مواطن الحرب ومواقفها .

(٢) الأرومة بفتح الهمزة وضمها : الأصل .

(٣) فى جميع الأصول : « وهى » ، والوجه ما أثبت .

(٤) السداد : جمع سديد ، كظريف وظراف وشديد وشداد . ط : « السديدة » .

٢٢

من كتابه في

استحقاق الإمامة

١ – فصـــل

من صدر كتابه فى استحقاق الإمامة(١)

بعون الله تعالى نقول ، وإليه نقصد ، وإيَّاه ندعو ، وعلى الله قَصْدُ السَّبيل .

اعلم أنَّ الشَّيعة رجلان : زيدىٌّ ، ورافضى ، وبقيتهم نَزَرٌ(٢) جاءٍ لازماً لهم . وفى الإخبار عنهما غنًى عمن سواهما .

قالت علماءُ الزَّيدية : وجدنا الفَضْل فى الفِعلِ دونَ غيره ، ووجدنا الفِعل كلَّه على أربعة أقسام :

أوَّلها القِدَم فى الإسلام ، حيثُ لا رغبةَ ولا رهبةَ إلَّا من الله تعالى وإليه .

ثم الزُّهدُ فى الدُّنيا ، فإنَّ أزهدَ الناس فى الدُّنيا أرغبُهم فى الآخرة وآمنُهم على نَفيس المال، وعقائل النِّساء، وإراقة الدِّماء .

ثم الفقهُ الذى به يَعرِف النَّاسُ مصالح دُنْياهم ، ومَراشدَ دينِهم .

ثم المشْىُ بالسَّيف كِفاحاً بالذَّبِّ عن الإسلام . وتأسيس الدين ، وقتلِ عَدُوِّه ، وإحياءِ وليِّه . فليس وراءَ بذْلِ المُهْجة واستفراغ القُوَّة غايةٌ يطلبها طالب ، ويَرتجيها راغب.

---

(١) ريشر ١٦٨ – ١٧٩ والسندوبى ٢٤١ – ٢٦٠ وجاءت فى هامش الكامل ٢ : ٢١٢ – ٢١٨ . وسيأتى له رسالة أخرى فى هذا الموضوع برقم ٢٨ وعنوانها الجوابات فى استحقاق الإمامة .

(٢) النزر : القليل اليسير . ب : « ندركا » م : « نذر كا » .

ولم نجد فعلاً خامساً فنذكرَه . فمتى رأينا هذه الخصالَ مجتمعةً فى رجلٍ دونَ النَّاسِ كلِّهم وجَبَ علينا تفضيلُه عليهم ، وتقديمه دونهم[(١)]

وذلك أنَّا إذا سألنا العلماء والفقهاء ، وأصحابَ الأخبار وحُمَّالَ الآثار ،عن أوّلِ الناسِ إسلامًا ، قالَ[(٢)] فريق منهم : علىّ . وقال فريقٌ منهم : أبو بكر . وقال آخرون : زيد بن حارثة . وقال قوم : خَبَّاب . ولم نجد كلَّ واحدٍ من هذه الفِرَق قاطعاً لعُذْر صاحِبه ، ولا ناقلاً له عن مذهبه ، وإن كانت الرواية فى تقدُّمِ علىٍّ أكثَرَ ، واللَّفظُ به أظهر .

وكذلك إذا سألناهم عن الذابِّينَ عن الإسلام[(٣)] بمُهَجِهم[(٤)] ، والماشِينَ إلى الأقران بسيوفهم[(٥)] ، وجدناهم مختلفين . فمن قائلٍ يقول : علىّ ، ومن قائل يقول : الزُّبير . ومن قائلٍ يقول : ابن عَفْراء[(٦)] ، ومن قائلٍ يقول : أبو دُجانة ، ومن قائل يقول : محمد بن مَسلَمة ، ومن قائل يقول : طلحة ، ومن قائل يقول : البَرَاءُ بنُ مالك .

على أنَّ لعلىٍّ – رضى الله عنه – مِنْ قَتْلِ الأقْرَانِ والفُرسان والأكْفاء ، ما ليس لهم ، فلا أقلَّ من أنْ يكونَ فى طبقتهم .

وإن نحنُ سألناهم عن الفقهاء قالوا:علىٌّ ، وعُمَرُ ، وابنُ مسعود ، وزيدُ ابن ثابت ، وأُبىُّ بن كعب . على أنَّ عليًّا كان أفْقَهَهُم ،لأنَّه كان يُسأَل

---

(١) ب فقط : « دونه » .
(٢) العبارة فى ط : « وذلك أنا سألنا . . . . فقال » ، والوجه ما أثبت من ب ، م .
(٣) ب ، م : « عن أدب الناس عن الإسلام » .
(٤) ب فقط : « بمهجتهم » .
(٥) ب ، م : « لسيوفهم » ، صوابه فى ط .
(٦) انظر لترجمته وتحقيق اسمه ما كتبت فى حواشى كتاب العثمانية ص ٤٥ .

ولا يَسأَل . ويُفتِي ولا يَستَفْتِي . ويُحتاجَ إليه ولا يَحتاجُ إليهم ، ولكن لا أقلَّ من أنْ نجعلَه فى طبقتهم وكأحدهم .

وإن نحن سألناهم عن أهل الزَّهادة[1] وأصحاب التقشُّف ، والمعروفين برَفْضِ الدُّنيا وخَلْعها والزُّهد فيها . قالوا : علىٌّ . وأبو الدرداء ، ومُعاذٌ ، وأبو ذَرٍّ ، وعمَّارٌ ، وبلالٌ ، وعثمانُ بن مظعون . على أنَّ عليًّا أزهدُهُم ؛ لأنَّه شاركهم فى خُشونة الملبَسِ وخشونة المأْكل . والرِّضا باليسير ، والتبلُّغ بالحقير[2] وظَلْفِ النَّفس عن الفُضول[3] ، ومُخالفَةِ الشهوات . وفارَقَهم بأَنْ مَلكَ بُيوتَ الأموال ، ورقابَ العربِ والعجم . فكان يَنضَح بيتَ المال فى كلِّ جمعة ، ويصلِّى فيه ركعتين . ورَقَّع سراويله بأَدَمٍ ، وقَطَع مافَضَل من كُمَّيْهِ عن أطراف أصابعه بالشَّفْرة ، فى أمورٍ كثيرة . مع أنَّ زُهدَه هو أفضلُ من زُهدِهم ؛ لأنَّه أعلمُ منهم . وعبادةُ العالم ليست كعبادة غيره ، كما أنَّ زَلَّته ليست كزَلَّةِ غيرِه ، فلا أقلَّ من أنْ يُعَدَّ فى طبقتهم .

ولم نَجدهم ذكروا لأَبى بكرٍ . وزيدٍ . وخبَّاب ، مثلَ الذى ذكروا له من بَذْلِ النفس والعَناء[4] ، والذَّبِّ عن الإسلام بالسَّيف ، ولا ذَكرُوهُمْ فى طبقة الفقهاءِ وأهلِ القِدَم فى الإسلام . ولم نجدهم ذكروا لابنِ عَفْراء ، والزُّبير ، وأَبى دُجانة ، والبَراءِ بن مالك ؛ مثلَ الذى ذكروا له من التقدُّم فى الإسلام والزُّهدِ والفقه . ولا ذكروا أبا بكرٍ ، وزيداً ،

---

(١) م : « الظهارة » ، تحريف .

(٢) تبلغ بالشىء تبلغاً : اكتفى به . ب فقط : « والتبليغ » ، تحريف .

(٣) ظلف نفسه عن الشىء : منعها عن هواها . م : « وخلف النفس » ط : « وخلاف النفس » ، والصواب فى ب .

(٤) ط : « والغناء » .

وخبّاباً، فى طبقة عمرو بن مسعود ، وأُبىِّ بنِ كعب ، كما ذكروا عليًّا فى طبقتهم. ولا ذكروا أبا بكر ، وزيداً ، وخباباً، فى طبقة مُعاذ . وأبى الدَّرداء ، وأُبَىٍّ ، وعمَّارٍ ، وبلالٍ ، وعثمانَ بنِ مظعون ، كما ذكروا عليًّا فى طبقتهم .

فلمَّا رأيْنا هذه الأُمورَ مجتمعةً فيه ، ومتفرِّقةً فى غيره من أصحابِ هذه المراتبِ ، وأهلِ هذه الطَّبقات ، الذين هم الغاياتُ ، علِمْنا أنَّه أفضل ، وأنَّ كلَّ واحدٍ منهم وإن كان قد أَخَذَ من كلِّ خيرٍ بنصيب ، فإنَّه لن يبلغَ مَبلغَ مَنْ قد اجتمعَ له الخيرُ وصنوفُه .

فهذا دليلُ هذه الطبقةِ من الزَّيدية على تفضيلِ علىٍّ — رضوان الله عليه — وتقديمِهِ على غيره .

وزعموا أنَّ عليًّا كان أولاهم بالخِلافة ، إلَّا أنَّهم كانوا على غيره أقلَّ فساداً واضطراباً ، وأقلَّ طعناً وخلافاً . وذلك أنَّ العرب وقريشاً كانوا فى أمره[1] على طبقات :

فمن رجلٍ[2] قد قتل علىٌّ أباه أو ابنَه[3] ، أو أخاه أو ابنَ عمه ، أو حميمَه أو صفيَّه ، أو سيِّده أو فارسَه ، فهو بين مُضطغِنٍ قد أصرَّ على حقده ، ينتظر الفُرصة ويترقَّب الدَّائرة ، قد كَشَفَ قِناعَه[4] ، وأبدى عداوته .

ومِن رجلٍ قد زَمَّلَ غيظَه وأَكمَنَ ضِغْنَه ، يرى أنَّ سَتْرَهُما فى نفسِه .

---

(١) م : « فى غيره » ، تحريف .
(٢) م ، ط : « من رجل » .
(٣) ط : « قد دام » .
(٤) ب : « وقد كشف قناعه » بالواو .

ومداراةَ عدوِّه ، أبلغ فى التَّدبير ، وأقرب من الظَّفر . فإنَّما يُجْزِيه أدنَى علَّة تحدُث ، وأوَّلُ تأويلٍ يَعرِض ، أو فتنة تَنجُم ؛ فهو يرصُد الفُرصة[١] ويترقَّب الفِتنة ، حتَّى يصولَ صولةَ الأَسَد ، ويَروغَ رَوَغان الثَّعلب ، فيشفِيَ غليلَه ، ويُبْرِدَ ثائرَه[٢] .

وإذا كان العدُوُّ كذلك كان غيرَ مأْمونٍ عليه سَرَفُ الغَضَب ، وأنْ يموِّه له الشَّيطانُ الوثوبَ ، ويزيِّن له الطَّلب ؛ لأنَّه قد عرف مأْتاه . وكيف يَخْتِلُه مِن طريقِ هواه . فإذا كان القلبُ كذلك اشتدَّ تحفُّظه ولم يَقْوَ احتراسه . وكان بعَرَضِ هَلكة وعلى جناحِ تَغْرير[٣] ؛ لأنَّه مُنْقسِم الرَّأْى متفرِّق النفس . قد اعتلَج على قلبِه غَيْظُ الثَّأْر على قُربِ عهده بأَخلاق الجاهليَّة ، وعادةِ العرب من الثَّأْر وتذكُّر الأَحقاد والأَمر القديم ، وشدَّة التصميم .

ومِن رجلٍ غمَّته حداثته[٤] ، وأَنِفَ أن يَلِيَ عليه أصغَرُ منه .

ومن رجلٍ عَرَفَ شِدَّته فى أمرِه ، وقِلَّة اغتفاره فى دينه[٥] ، وخُشونَة مذهبه .

ومِن رجلٍ كره أن يكون المُلْكُ والنُّبوَّةُ يثبتانِ[٦] فى نصابٍ واحد ، ويَنْبُتانِ فى مَغرِسٍ واحد ، لأنَّ ذلك أَقطَعُ لأَطماع قريش أن يَعود المُلكُ

---

(١) م ، ط : « الفرقة » .

(٢) م ، ط : « ناره » .

(٣) ب ، ط : « وكان يعرض هلكة على جناح على تغرير » ، صوابه فى م . والعرض : مايعرض للإنسان من أحداث الدهر .

(٤) فى جميع الأصول : « عمته » . وفى ب فقط : « بحداثته » ، ولعل الوجه ما أثبت .

(٥) ب ، م : « اعتقادد » ، ط : « اعتقاده » ، وإنما هو الاغتفار ، أى التسامح والتساهل . يقال غفر له ذنبه واغتفره أيضاً .

(٦) ب ، م : « يثبان » صوابه فى ط .

دُولةً فى قبائلها ، ومن قريشٍ خاصَّة فى بنى عبد مناف ، الأَقربَ فالأَقرب . والأَدنى فالأَدنى ؛ لأَنَّ الرحم كلما كانت أَمسَّ ، والجوارُ أَقربَ ، والصِّناعةُ أَشكَلَ ، كان الحسدُ أَشدَّ ، والغيظُ أَفرط . فكان أَقربُ الأُمور إلى محبَّتهم إخراجَ الخلافة من ذلك المَعدِنَ ، ترفيهاً عن أنفسهم من أَلم الغيظ ، وكَمَد الحَسَد .

٢ ـ فصــل منها

وضربٌ من الناس همَج هامجٌ ، ورَعَاعٌ مُنتشِر (١) ، لا نِظَامَ لَهُمْ . ولا اختيارَ عندهم ، وأَعرابٌ أَجلافٌ ، وأَشباهُ الأَعراب ، يَفترقون (٢) من حيث يجتمعون ، ويجتمعون من حيث يفترقون ؛ لا تُدفَع صولتهم إذا هاجوا ، ولا يُؤمن تهيُّجهم (٣) إذا سكنوا . إنْ أَخصَبوا طَغَوْا فى البلاد (٤) وإن أَجْدَبوا آثروا العِناد . هم (٥) موكَّلون ببُغضِ القادة ، وأَهلِ الثَّراءِ والنِّعمة ، يتمنَّوْن له النكبة (٦) ، ويَشْمَتون بالعشيرة ، ويسُرُّون بالجَوْلة (٧) ، ويترقَّبون الدائرة .

فلمَّا كان الناس عند عليٍّ وأَبى بكرٍ على الطبقات التى نَزَّلنا (٨) ، والمراتب التى رَتَّبْنَا ، أَشفَقَ عليٌّ أَن يُظهِرَ إرادةَ القيامِ بأَمر النَّاسِ مخافَةَ أَن يتكلَّمَ متكلِّمٌ أَو يَشغَب شاغب (٩) ، فدعَاه النَّظرُ للدِّين إلى الكفِّ عن

(١) ب فقط : « منتثر » .
(٢) مابعده إلى « يفترقون » التالية ساقط من ط .
(٣) م فقط : « تهيجهم » .
(٤) ب : « بلغوا فى البلاد » .
(٥) ط : « وهم » .
(٦) ط : « الغلبة » .
(٧) ب فقط : « ويسيرون بالجولة » .
(٨) ط : « التى ذكرنا » .
(٩) الشغب ، بالفتح ، وبالتحريك أيضاً : تهييج الشر . ب فقط : « يشعب مشاغب » تحريف .

الإظهار(١) ، والتَّجافى عن الأَمر ، فاغتفر المجهولَ ضَنًّا بالدين ، وإيثاراً للآجلة على العاجلة .

فدلَّ ذلك على رجاحةِ حِلمه ، وقلة حِرصِه(٢) ، وسَعَة صدره ، وشدَّة زُهده ، وفَرْطِ سَماحتِه ، وأَصالةِ رأْيه .

وعَلِمَ أَنَّ هلكتهم لا تقوم بإزاءِ صَرْفِ مابين حالِه وحال أَبي بكرٍ فى مصلحتهم . وقد علم بعد ذلك أَنَّ مُسيلمة قد أَطبَقَ عليه أَهلُ اليمامة ومَنْ حولها من أَهل البادية ، وهم القوم الذين لا يُصطلَى بنارهم(٣) ، ولا يُطمَع فى ضَعْفهم وقِلَّة عددهم ، فكان الصواب مارآه علىٌّ من الكَفِّ عن تحريك الهَرْج ، إذْ أَبْصَرَ(٤) أَسبابَ الفتن شارعةً ، وشواكِلَ الفساد بادية(٥) ، ولو هرَجَ القوم هَرْجةً(٦) وحدَثت بينهم فُرقةٌ ، كان حَرْبُ بوَارِهم(٧) أَغلبَ من الطَّمع فى سلامتهم .

وقد كان أَبوبكرٍ ، وعُمر ، وأَبو عبيدة ، وفُضلاءُ أَصحابه ، يعرفون

---

(١) ب فقط : « عن إظهار » .

(٢) وقلة حرصه ، ساقطة من ط .

(٣) يقال : فلان لا يصطلى بناره ، إذا كان شجاعاً لا يطاق . وانظر اللسان (صلا ٢٠١) . وجمهرة العسكرى ٢ : ٣٩٧ . وقد سقطت كلمة « لا » من جميع الأصول ؛ وهو خطأ . وجاء فى مقصورة ابن دريد :

لا يصطلى بناره عنـد الوغى ويصطلى بنـــاره عنــــد الـــقرى

(٤) ب فقط : « إذا أبصر » ، تحريف .

(٥) الشواكل : جمع شاكله ، وهى الخاصرة . كناية عن شدة ظهور الفساد . م : « شكوى كل » ، ب ، م : « بانية » ، صوابهما فى ط .

(٦) ب ، م : « ولو هاج القوم هرجة » . والهرج : الاقتتال والاختلاط .

(٧) م ، ط : « حزب » ، صوابها فى ط . والبوار : الهلاك .

من تلك الآراء(١) شبيهاً بما يعرفه عليٌّ ، فعلِمُوا أنَّ أوَّلَ أحكام الدِّين المبادرةُ إلى إقامة إمامِ المسلمين ، لئلا يكونُوا نَشَرًا(٢) ، ولئلا يجعلوا للمفسدين عِلَّةً وسبباً . فكان أبو بكر أصلَحَ النَّاسِ لها بعد عليٍّ ، فأصابَ فى قيامِه ، والمسلمون فى إقامته ، وعَلِيٌّ فى تسويغه(٣) والرِّضا بولايتِهِ مُنعقدةً منه على الإسلام وأهله . فلمَّا قَمع الله تعالى أهل الرِّدَّة بسيفِ النِّقْمة ، وأبادَ النِّفاقَ ، وقُتِل مسيلمةُ وأُسر طلحة ، ومات أصحاب الأَوتار(٤) ، وفَنِيَتِ الضَّغائِن ، راحَ الحقُّ إلى أهله ، وعاد الأَمرُ إلى صاحبه .

قالوا : وقد يكون الرَّجُل أفضلَ الناس ويلى عليه مَن هُو دُونَه فى الفضل حتَّى يكلِّفه الله طاعتَه وتقديمَه : إمَّا للمصلحةِ والإشفاق من الفِتْنة كما ذكرنا وفسَّرنا . وإمَّا للتَّغليظ فى المحنة وتشديد البلوى(٥) والكُلْفة ، كما قال الله تعالى للملائكة : ﴿ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ(٦) ﴾ . والملائكةُ أفضلُ من آدم ، ولأَنَّ جبريل وميكائيل وإسرافيل عِنْد الله(٧) من المقرَّبين قبل خَلْق آدمَ بدهرٍ طويل ، لما قَدَّمت من العبادة(٨) واحتملَتْ من ثِقَل الطاعة . وكما مَلَّك الله طالوتَ(٩) على

(١) فى جميع الأصول : « من ذلك الآراء » .
(٢) النشر ، بالتحريك : القوم المتفرقون لايجمعهم رئيس . ب فقط : « نشزا » .
(٣) م ، ط : « فى تسويفه » ، صوابهما فى ب .
(٤) الأوتار : جمع وتر ، بالكسر ، وهو الثأر . م ، ط : « الأوتاد » ، صوابه فى ب .
(٥) ب : « فى المحنة » م : « فى المحنة » ، صوابهما فى ط . وفى ب أيضاً : « ولتشديد البلوة » م : « ولتشديد البلوى » ، وأثبت ما فى ط .
(٦) من الآية ٣٤ فى سورة البقرة .
(٧) ب : « عبد الله » ، تحريف . وفى م : « عبيد الله » ، وأثبت ما فى ط .
(٨) ب فقط : « من عبادة » . (٩) ط : « طالوط » : تحريف .

بنى إسرائيل وفيهم يومئذ داوُد نبيُّ الله(١) صلى الله عليه وسلم ، وهو نبيُّهم الذى أخبر الله عنه فى القرآن بقوله تعالى(٢) : ﴿ إنَّ الله قَدْ بَعَثَ لكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوا أَنَّى يَكُونُ لَهُ المُلْكُ عَلَيْنَا(٣) ﴾ إلى آخر الآية .

(١) م : « داود النبي » .
(٢) بقوله تعالى ، ساقطة من ب ، م .
(٣) الآية ٢٤٧ من سورة البقرة .

٢٣

من رسالة في

استنجاز الوعد

١ – فصـــل

من صدر رسالته فى استنجاز الوعد

قد شاع الخبر وسار المثل بقولهم : « اطلبوا الحاجاتِ من حِسانِ الوجوه » .

فإنْ كان الوجهُ إنَّما وقع على الوَجْه الذى فيه النَّاظر والسامع، والشَّامُّ والذَّائق ، إذا كان حسناً جميلا ، وعتيقاً بهيًّا ، فوجهُك الذى لا يُخيِلُ على أحدٍ كمالُه[٢] ، لا يُخطئُ حِوَالُه[٣] .

وإن كان ذكرُ الوجه إنَّما يقع على حسن وَجْه المَطْلب[٤] وجمالِه على جهة الرَّغبة ؛ وإن كان ذلك على طريق المثل ، وعلى سبيل اللفظ المشتقِّ من اللفظ ، والفرع المأْخوذ من الأَصل ، فوجْهُ المطلبِ إليك أَفضَلُ الوجوهِ وأَسناها ، وأَصونُها وأَرضاها . وهو المنهجُ الفسيح والمَتْجَر الرَّبيح ؛ وجمالُه ظاهرٌ ، ونفعُه حاضر ، وخيره غامر ، إلَّا أَنَّ الله تعالى قرنَه مع ذلك باليُمْن ، وسَهَّله باليُسْرِ ، وحبَّبه بالبِشْر الحَسَن ، ودعا إليه بلِينِ الخِطاب[٥] ، وأَظهَر فى أَسمائكم وأَسماءِ آبائكم وفى كناكم وكنى

---

(١) هى فى هامش الكامل ٢ : ٢٢٠ – ٢٢٧ وريشر ١٩٥ – ١٩٦ ومجموعة الساسى ١٧٣ – ١١٧ . فالمقابلة هنا على المخطوطتين ب،م وكذلك على نسخة هامش الكامل ورمزها (ط) ومجموعة الساسى ورمزها (مج) .

(٢) فى اللسان : « وأخال الشىء : اشتبه . يقال هذا الأمر لا يخيل على أحد ، أى لايشكل » وفى جميع الأصول : « يحيل » صوابه بالخاء المعجمة كما أثبت . وفى مج : « لايحيد عن »، وأراه تصرفاً من الناشر .

(٣) الحوال : مصدر حاول الشىء محاولة وحوالا : رامه وطلبه . قال رؤبة :

« حــوال حــد والتجــار المؤتجــر »

وفى مج : « ولا يخفى جماله » .

(٤) مج : « الطلب » فى هذا الموضع وتاليه .

(٥) فى جميع النسخ : « الحجاب » ، صوابه ما أثبت . وانظر ص ٢٢٠ س ٣ .

إخوانكم ، من برهان الفأل الحسن ونفى الطيَرة السيِّئة ما جَمَع لكم به صنوفَ الأَمَل ، وصَرف[1] إليكم وجوه المَطَالب : فاجتمع فيكم تمام القَوَام وبراعةُ الجمال ، والبِشْر[2] عند اللِّقاء ، ولينُ الخطابِ والكنَفِ للخُلطاءِ[3] ، وقلّةُ البَذَخ بالمرتبة الرَّفيعة ، والزِّيادةُ فى الإنصاف عند النعمة الحادثة . فجَعَل[4] النَّاسُ وعدَكم من أكرم الوعد ، وعَقدكم من أوثَق العَقدْ ، وإطماعَكم[5] من أصحِّ الإنجاز . وعَلِموا أنّكم تُؤيسون[6] فى مواضع اليأْس ، وتُطمِعون فى مواضع الضَّمان ، وأنَّ الأُمور عندكم موزونةٌ معدَّلة ، والأَسبابَ مقدَّرةٌ محصَّلة .

هذا مع الصَّولة والتَّصميم فى موضع التَّصميم[7] .

والتقيَّة أَحزم[8] ، والصَّفح إذا كان الصفحُ أكرم ، والرَّحمة لمن استرحم ، والعقاب لمن صمَّم .

ثم المعرفةُ بفَرْقِ[9] مابينَ اعتزام الغُمْر واعتزام المستبصِر ، وفصْل[10] ما بين اعتزام الشجاع والبطل ، وبين إقدام الجاهل المتهوِّر .

وقد علم الناس بما شاهدوه منكم . وعَنَيُوه من تدبير ، وعرفوه من

(١) هذا مافى مج . وفى سائر النسخ : « وضرب » .

(٢) م ، ط : « والبشرة » .

(٣) ب : « واللين والكنف للخلطا » ، م : « والكنف لخلطا » ، وأثبت مافى ط ، مج .

(٤) ب : « يجعل » م : « يجعل » ط : « تجل » ، وأثبت مافى مج .

(٥) ب فقط : « وأطمعكم » ، تحريف .

(٦) ب فقط : « تؤايسون » ، تحريف .

(٧) ب : « والتعميم فى موضع التعميم » ، تحريف .

(٨) ب ، م : « والثقة أحزم » .

(٩) ب ، م ، ط : « تفرق » ، وفى مج : « فرق » ، والوجه ما أثبت .

(١٠) ب ، م ، ط : « وفضل » ، والوجه ما أثبت من مج .

تصرُّف حالاتكم[١] ، أنّى لم أتزيَّد لكم ، ولم أتكلَّفْ فيكم ما ليس عندكم . وخيرُ المديح ما وافَقَ جمالَ الممدوح ، وأصدقُ الصِّفات ماشاكَلَ مذهب الموصوف ، وشَهِد له أهل العِيَانِ الظَّاهِرِ ، والخبر المتظاهر . ومتَى خالفَ هذه القضيَّة وجانبَ الحقيقةَ . ضارَّ المادحَ[٢] ولم ينفع الممدوح .

هذا إلى الثَّبات على العهد ، وإحكامِ العَقْد، مع[٣] الوفاء العجيب، والرَّأى المُصيب. وتمَامِ ذلك وكمالِه ، وسناءِ ذلك وبهائه[٤] ، وكثرةِ[٥] الشُّهود لكم ، وإجماعِ النَّاس على ذلك فيكم .

ومن قَبِل لنفسه مديحاً لا يُعرف [به[٦]] كان كمادح نفسه . ومن أثاب الكذَّابين على كَذِبهم كان شريكَهم فى إثْمهم ، وشقيقهم فى سُخفهم ، بل كان المحتقِبَ لِكبرِه[٧] ، المحتملَ لِوزْره ، إذْ كان المثيبَ عليه[٨] والداعىَ إليه .

معاذَ الله أنْ نقول إلَّا مَعروفاً غير مجهول ، ونَصِفَ إلَّا صحيحاً

---

(١) ط فقط : « حالتكم » .
(٢) م فقط : « النافع » .
(٣) ب فقط : « على » .
(٤) ماعدا مج : « وبهاؤه » .
(٥) ماعدا مج : « كثرة » بدون واو .
(٦) التكلة من مج .
(٧) المحتقب : الحامل . وفى اللسان : « واحتقب فلان الإثم: جمعه واحتقبه من خلفه . قال امرؤ القيس :

فاليـوم أسقَ غير مستحقب إثمـاً من الله ولا واغـل

ب : « المحتقد » م : « المحتقت » ط : « المحتفل » ، والصواب فى مج . و كبر الشىء : معظمه . وفى الكتاب العزيز : « والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » . قال ثعلب : يعنى معظم الإفك . وقرأ حميد الأعرج وحده : « كبره » بضم الكاف .

(٨) م فقط : « الشيب عليه » ، تحريف .

غير مدخول ، أو نكون ممن يتودَّد بالمَلَق ، ويتقحَّم على أهل الأقدارِ شَرَهًا إلى مال ، أو حِرصاً على تقريب . وأبعدَ الله الْحِرصَ وأخزى الشَّرَه والطَّمَع !

فإن شَكَّ شاكٌّ أو توقَّفَ مرتابٌ فليعترض العامَّة ، وليتصفَّح ماعند الخاصَّة حتَّى يتبيَّن الصُّبح .

وقالوا فى تأديب الوُلاةِ وتقديمِ تدبير الكُفاة : « إذا أبردتُم البَريدَ فاجعلُوه حَسَنَ الوجه . حسنَ الاسم » . فكيف إذا قارن حُسنَ الوجهِ وحُسنَ الاسمِ كرمُ الضَّريبة[(١)] ، وشَرَفُ العرق .

وأعيانُ الأعراقِ الكريمةِ ، والأخلاقِ الشريفة[(٢)] ، إذا استجمعت هذا الاستجماع ، واقترنت هذا الاقترانَ : كان أتمَّ للنِّعمة ، وأبْرَعَ للفضيلة[(٣)] وكانت الوسيلةُ إليها أسهلَ ، والمأخذُ نحوها أقرب ، والأسبابُ أمْتَن .

فإذا[(٤)] انتظمَتْ فى هذا السِّلكِ ، وجَمَعَها هذا النَّظمُ : كان الذى يُبْرِد البريدَ أولى بها من البريد ، وكان مقوِّم البلاد أحقَّ بها من حاشيتِهِ الكُفاة[(٥)] ، إذ التأميلُ لا يجمع أوجُهَ الصَّواب[(٦)] ، ولا يُحصِى[(٧)] مخارجَ الأسباب ، ولا يَظهر بُرهانُه ويَقْوَى سُلطانه ، حتَّى يصيبَ المَعدِن.

---

(١) الضريبة : السجية والطبيعة التى ضرب عليها المرء . ب : «وكره» . م ، ط : «وكرم» ، والصواب حذف الواو كما فى مج .

(٢) الشريفة ، ساقطة من مج .

(٣) فى اللسان : « برع فهو بارع : تم فى كل فضيلة وجمال ، وفاق أصحابه ، فى العلم وغيره » . وفى جميع الأصول : « وأبدع للفضيلة » ، والوجه ما أثبت .

(٤) ب فقط : « إذا » .

(٥) ماعدا مج : « من حاشية الكفاة » .

(٦) م : « وجاه الصواب » وفى سائر الأصول : « وجه الصواب » ، والوجه ما أثبت .

(٧) هذا مافى ط . وفى سائر الأصول : « ولا يخص » .

وان يكون موضعُ الرَّغبة مَعدِناً إلَّا بعد اشتماله على ترادُفِ خصالِ الشَّرَف وبعد أن يتوافَى إليه[(١)] معانى الكرمِ بالأَعراق الكريمة ، والعادات الحسنة . على حادثٍ[(٢)] يشهد لمتقادم[(٣)] . وطارف يدلُّ على تالد .

فإذا كان الأمل يخبر بالحَسَب فالحسبُ ثاقب . والمجدُ راسخ . وإن كان الشَّأْن فى صناعة الكلام وفى القَدَم والرِّياسة . وفى خَلَفٍ يأْثِرُه عن سَلَف ، وآخَرَ يلقاه عن أوَّل ، فلكُم[(٤)] مالا يذهب عنه جاحدٌ . ولا يستطيع جحْدَهُ معاند .

٢ — فصل منها

وأسماؤكم وكُنَاكم بين فَرَجٍ ونُجْح . وبين سلامةَ وفَضْل ، ووجوهكم وَفْقُ أسمائِكم ، وأخلاقُكم وَفْقُ أعراقكم . لم[(٥)] يضرب التفاوُتُ فيكم بنصيب .

وبعد هذا فإنِّى أستغفر الله من تفريطى فى حقوقِكم . وأستوهبه[(٦)] طول رَقْدتى عما فرضتُه لكم[(٧)] .

ولا ضَيْرَ إن كان هذا الذى قلنا على إخلاصٍ وصحةِ عهد ، وعلى صدق سيرةٍ وثبَاتِ عَقْد . ينبو السَّيفُ وهو حُسامٌ . ويكبو الطِّرف وهو جَوَاد ، ويَنْسَى الذَّكُورُ ، ويَغفُل الفَطِنُ[(٨)] .

(١) ب ، م : « يتوافى » ، وأثبت ما فى ط ، مج .

(٢) ماعدا مج : « عل حادث » .

(٣) المتقادم : القديم . وفى الأصول : « لقادم » ، ولا وجه له .

(٤) ما عدا مج : « قبلكم » ، والوجه ما أثبت . وفى مج : « كان قبلكم » .

(٥) م : « طم » ، ط : « فلكم » وأثبت مافى ب ، مج .

(٦) ب فقط : « وأستوجبه » ، تحريف .

(٧) ماعدا ط : « ما فرضه لكم » ، يطلب عفو الله عن تقصيره فى إظهار ما أوجب لهم فى نفسه من تمجيد .

(٨) ب ، م : « الفطن » ، صوابه فى ط ، مج .

ونعوذُ بالله تعالى من العَمَى بعد البَصيرة[(١)] ، والحيرةِ بَعْدَ لزومِ الجادَّة .

كان أبو الفَضل – أعزَّه الله – على ما قد بلغَكَ من التبرُّع بالوعد[(٢)] وسُرعة الإنجاز وتَمام الضَّمان . وعلى الله تمامُ النِّعمة والعافية .

وكان – أيدَّهُ اللهُ – فى حاجتى ، كما وصفَ زَيدُ الخَيلِ نَفْسَه حين يقول :

وَمَوعِدِى حقٌّ كأَنْ قد فعلتُها متى ما أعِدْ شيئاً فإنِّى لغارِمِ[(٣)]

وتقول العرب : «مَنْ أشبه أبَاهُ فما ظَلَمَ[(٤)]» ، تقول[(٥)] : لم يضع الشَّبَهَ إلَّا فى موضعه ، لأنَّه لا شاهدَ أصدقُ على غَيْبِ نسبه وخفىٍّ نَجْله من الشَّبَه القائمِ فيه[(٦)] ، الظَّاهر عليه .

وقد تقيَّلتَ – أبقاكَ اللهُ – شيخَكَ[(٧)] : خَلْقَه وخُلُقه ، وفِعلَه وعزْمه ، وعِزَّ الشَّهامة[(٨)] ، والنَّفْسِ التَّامَّة .

---

(١) م فقط : «البصرة» ، تحريف .

(٢) ط فقط : «من الوعد» .

(٣) ماعدا مج : «لعازم» . والغارم : من يلزمه أداء المال . وفى الكتاب العزيز : «والغارمين وفى سبيل الله» ، وهم الذين لزمهم الدين فى الحمالة ونحوها .

(٤) ب ، مج : «رأبه» ، وهى رواية جيدة يولع بها النحويون واللغويون ، لكن فى م ، ط والحيوان ١ : ٣٣٢ ونصوص جميع كتب الأمثال : «أباه» . وانظر الفاخر ١٠٣ والميدانى ٢ : ٢٢٨ والعسكرى ٢ : ٢٤٤ والمستقصى ٢ : ٢٥٣ . ويؤيد رواية «أباه» أيضاً ما أنشدوا فى معظم هذه المراجع من قول كعب بن زهير (ديوانه ٦٥) :

فقلت شبيهات بمـا قال عالم بهن ومن يشبه أباه فما ظـلم

(٥) ب ، م : «نقول» ، صوابه فى ط ، مج .

(٦) فيه ، ساقطة من مج .

(٧) تقيل أباه ، أو شيخه : نزع إليه فى الشبه . والكلمة محرفة فى الأصول ففيها جميعا : «شبحك» ، والوجه ما أثبت .

(٨) ب ، م : «وعن الشهامة» ، ط : «ومن الشهامة» ، صوابه فى مج .

ومرجعُ الأَفعال إلى الطبائع . ومدارُ الطبائع على جودة اليقين وقُوّة المُنَّة ، وبهما تتمُّ العزيمة ، وتنفُذ البصيرة .

هذا مع ما قَسَمَ الله لك من المحبَّة ومَنحك من المِقَة ، وسلَّمك عنه من المذمَّة .

واللهِ لو لم يكن فيكم من خصال الحريّة[١] وخِلال النُّفوس الأَبيَّة إلَّا أنَّكم لا تَدِينون بالنِّفاق . ولا تَعِدُونَ بالكذب[٢] ولا تستعملون المُواربةَ فى موضع الاستقامة[٣] ، وحيثُ تجب الثِّقة[٤] .

ولا يكون حظُّ الأَحرار بالمواعيد صِرْفا . ولا تَتَّكلون[٥] على ملاَءَة الطالب[٦] ، ولا عجْزِ الرَّاغب ، إذا استُنْفِدت أَيَّامُه[٧] ، وعَجَزَت نفقتُه ، وماتت أَسبابُه ، بل تُعجِّلون[٨] لهم الرَّاحة عند تعذُّر الأُمور إليكم بالإِيَاس[٩] . وتحقِّقون[١٢] أطماعهم عند إمكان الأُمور لكم بالإنجاح .

٣ — فصل منها

وإنَّك والله — أَيُّها الكريمُ المأْمولُ . والمستُعطَفُ المسئول — لا تزرعَ

---

(١) مج فقط : « الحرمة » ، تحريف .
(٢) ماعدا ط : « لاتعبدون » ، تحريف . والمراد لاتعدون مواعد كاذبة .
(٣) ب ، م : « الاستنامة » ط : « الاستنابة » ، وأثبت ما فى مج .
(٤) كذا بسقوط جواب : « لو لم يكن » ، أى لكفى ذاك .
(٥) ب : « يتكلمون » م : « يتكلون » وأثبت ما فى ط ، مج .
(٦) فى جميع الأصول : « ملامة الطالب » ، والوجه ما أثبت .
(٧) مج : « استنفذت » ، تحريف .
(٨) ب ، م : « يعجلون » ، صوابه فى ط ، مج
(٩) الإياس : مصدر آيسه . وفى اللسان : « وكان فى الأصل الإيياس بوزن الإيعاس » . مج : « بالإيآس » .
(١٠) ب فقط : . وتحقّقون » . تحريف .

المحبّة إلّا وتحصدُ الشُّكر ، ولا تُكثِر المودَّاتِ إلّا إذا أكثر النَّاسُ الأَموال[١] ، ولا يشيع[٢] لك طِيبُ الأُحدوثة[٣] وجمال الحال في العشيرة ، إلّا لتجرُّع[٤] مُرارِ المكروه . ولن تنهض بأَعباء المكارم التي توجبها النِّعمة وتَفرِضُها المرتبة حتّى تستشعر التفكُّر[٥] في التَّخلُّص إلى إغنائهم[٦] ، والقيام بحسن ظَنِّهم ، وحتّى ترحمَهم من طول الانتظار ، وترقَّ عليهم من مَوت الأَمل وإحياءِ القُنوط ، وحتّى تتغلغل[٧] ذلك بالحِيَل اللَّطيفة ، والعناية الشَّديدة الشريفة ، وحتّى تتوخّى[٨] السَّاعاتِ . وتنتهزَ الفرصَ في الحالات ، وتتخيَّر من الأَلفاظ أرقَّها مَسلكاً ، وأحسنَها قَبولًا ، وأجودَها وُقوعاً .

---

(١) هذا ما في ب . وفي م ، ط : « كثَّر الناس الأموال » وفي مج : « كثرت الناس الأموال » وكلها قراءات صالحة .

(٢) ماعدا ط : « ولا تشيع » .

(٣) ما عدا مج : « طلب الأحدوثة » .

(٤) ب فقط : « لتجرع » .

(٥) ب : « يستشعر تفكر » ، م : « يستشعر التفكر » ، صوابهما في ط ، مج .

(٦) ب فقط : « أغنيائهم » ، تحريف .

(٧) ب ، م : « يتغلغل » ط : « تتغلغل » . وهذه الأخيرة تحريف مطبعي .

(٨) ب ، م : « يتوخى » ، تحريف .

٢٤

من رسالة في

تفضيل النطق على الصمت

١ – فصــــل

من صدر رسالته فى تفضيل النطق على الصمت(١)

أَمتعَ اللهُ بكَ وأبقَى نِعمَه عِندك ، وجعلك ممَّن إذا عَرَف الحقَّ انقادَ له ، وإذا رأى الباطِلَ أنكرَهُ وتَزحزحَ عنه .

قد قرأتُ كتابَك فيما وصَفتَ من فضيلةِ الصَّمت ، وشَرحْتَ من مناقبِ السُّكوت ، ولخَّصت من وضوح أسبابهما(٢) ،وأحمَدْتَ من منفعةِ عاقبتِهما(٣) وجَرَيت فى مجرى فنونِ الأَقاويل فيهما ، وذكرتَ أنَّك وجدتَ الصَّمتَ أفضَلَ من الكلام فى مواطنَ كثيرة وإن كان صوابا(٤) ، وألفيتَ السُّكوتَ أحمدَ من المنطقِ فى مواضعَ جَمَّةٍ ، وإن كان حقًّا .

وزعمت أنَّ اللِّسانَ من مسالك الخَنَا(٥) ، الجالبِ على صاحبه البلَا(٦)

وقلت : إنَّ حفِظ اللسان أَمثَلُ من التورُّط فى الكلام .

وسمَّيْتَ الغبيَّ عاقلاً ، والصَّامِتَ حليماً . والساكت لبيباً . والمُطرِقَ مفكِّراً . وسمَّيت البليغَ مِكثاراً والخطيبَ مهذاراً(٧) والفَصيح مَفْرِطاً ، والمِنْطيقَ مُطنِباً .

---

(١) هامش الكامل ٢ : ٢٢٧ – ٢٣٨ وريشر ١٨٢ – ١٨٦ ومجموعة الساسى ١٤٨–١٥٤ وهى المرموز لهــا بالرمز (مج) .

(٢) ب فقط : « أسبابه » .

(٣) أحمد الأمر : رضيه ووجده مستحقاً للحمد . ب : « وانقدت » تحريف . مج : « وحدت » وأثبت ما فى م ، ط .

(٤) ب فقط : « كانا صواباً » .

(٥) الخنا : الفحش ، يقال خنا فى منطقه يخنو ، مقصور . ط فقط : « الخناء » ، تحريف .

(٦) م فقط : « البلا » .

(٧) هذا الصواب من مج فقط . وفى سائر النسخ : « مهداراً » بالدال المهملة . وهو بالذال المعجمة : الذى يكثر الكلام بالهذر ، وهو الكثير الردىء .

وقلت : إنَّك لم تَندم على الصَّمتِ قطُّ وإن كان منك عِيًّا ، وأنَّك ندِمت على الكلامِ مِراراً وإن كان [منك[١]] صواباً .

واحتجاجُك فى ذلك بقول كِسرى أنو شِرْوان ، واعتصامُك فيها عما سار من أقاويل الشُّعراء والمتَّسِقِ من كلام الأُدباءِ ، وإفراطِهم فى مذَمَّة الكلام ، وإطنابهم فى محمدة السُّكوت .

وأتيتُ – حفظك الله – على جميعِ ماذكرتَ من ذلك ، ووصفْتَ ولخَّصت ، وشَرَحْتَ وأطنبت فيها وفَرَطْتَ بالفَهْم ، وتصفَّحتُها بالعلم ، وبحثتُ بالحزْم ، ووعَيْتُ بالعزْم ، فوجدتُها كلامَ امرئٍ قد أُعجِبَ برأْيه وارتَطَم فى هواه ، وظَنَّ أنَّه قد نسَج[٢] فيها كلاماً ، وألَّف ألفاظاً ونسَقَ[٣] له معانىَ على نحو مأْخذِه .

ومَقْصَدُه أن لا يُلفِى[٤] له ناقضاً[٥] فى دهرِهِ بعد أن أبرَمها، ولا يجدَ فيها مناوياً[٦] فى عصرِه بعد أن أحكَمَها . وأنَّ حُجَّته قد لزمت جميعَ الأَنام ، ودحَضَتْ حُجَّةَ قاطبةِ أَهلِ الأَديان ، لِمَا شرح فيها من البُرهان، وأَوضَحَ بالبيان . وحتَّى كانَ القولُ من القائل نقضاً[٧] ، ورفعُ الوصف من الواصف تغلُّباً[٨] ، وكان فى موضعٍ لا ينازعُه فيه أَحدٌ، وقَلَّما يجد

---

(١) التكملة من مج .
(٢) فى جميع الأصول : « نسخ » ، والوجه ما أثبت .
(٣) مج فقط : « ونسخ » .
(٤) فى جميع الأصول : « يلق » بالقاف ، والوجه ما أثبت من ط .
(٥) م فقط : « ناقصاً » ، تحريف .
(٦) المناوئ : « المناهض والمعادى . ماعدا ط : « منادياً » تحريف .
(٧) ماعدا ط : « نقصاً » .
(٨) كذا . ولعلها : تفلتا » .

من يُخاصمه ، ولا يُلفى[١] أبداً منْ يناضلُه ،وصار فَلْجاً [بحجَّته[٢]] أَوحديًّا فى لهجَته ، إذ كان محلُّه محلَّ الوَحدة ، والأُنس بالخَلْوة ، وكان مثلُه فى ذلك [مَثَلَ[٣]] من تخلَّص إلى الحاكم وَحْده فلجَّ بحجَّته[٤] .

وإنِّى سأوضِّح ذلك ببرهانٍ قاطع ، وبيانٍ ساطع ، وأشرحُ فيه من الحُجج مايظهر ، ومن الحقِّ ما يَقْهَر ، بقدر ما أَتَتْ عليه معرفتى ، وبلغَتْه قُوَّتى،ومَلَكَتْهُ طاقتى ، بما لا يستطيع أحدٌ ردَّه ، ولا يمكنه إنكارُهُ وجحدُه . ولا قوة إلَّا بالله ، وبه أستعين[٥] . وعليه أتوكَّل وإليهِ أُنيب.

إنِّى[٦] وجدتُ فضيلةَ الكلام باهرةً ، ومَنْقَبة المنطِقِ ظاهرةً ، فى خلالٍ كثيرة ، وخصال معروفة .

منها : أنَّك لا تؤدِّى شُكرَ الله ولا تقدر على إظهارِهِ إلَّا بالكلام .

ومنها : أنَّك لا تستطيع العبارة عن حاجاتك[٧] والإبانةَ عن ماربك[٨] إلَّا باللِّسان . وهذان فى العاجل والآجِل مع أشياءَ كثيرة لو يَنْحُوها الإنسانُ لوجَدَها فى المعقول موجودة[٩] ،وفى المحصول معلومة[١٠]

---

(١) ب : « يلغى » ، مج : « يلق » . صوابهما فى م ، ط .

(٢) بحجته ، ساقطة من ب . و الفلج ، بالفتح : الغالب بحجته الظافر على خصمه . وفى اللسان : « ورجل فالج فى حجته وفلج ، كما يقال بالغ وبلغ ، وثابت وثبت » .

(٣) التكلة من ط ، مج .

(٤) م : « فلج » ب ، ط : « فلج » ، صوابهما فى مج .

(٥) ما عدا مج : « نستعين » .

(٦) ماعدا م : « وإنى » .

(٧) م : « حاجتك » .

(٨) ماعدا مج : « مأربك » .

(٩) ب فقط : « موجوداً » .

(١٠) ب فقط : « معلوماً » .

وعند الحقائق مشتهرةً[(١)]، وفى التَّدبير ظاهرة[(٢)].

ولم أَجِدْ للصَّمت فضلاً على الكلام ممَّا يحتمله القياس . لأنَّك تصف الصمت [بالكلام ،ولا تصف الكلام به . ولو كان الصَّمت[(٣)]] أفضلَ والسُّكوت أمثلَ لما عُرِفَ للآدميِّين فضلٌ على غيرهم . ولا فرقَ بينهم وبين شىء من أنواع الحيوان وأخياف الخَلْق[(٤)] فى أصناف جواهرِها واختلافِ طبائِعها ، وافتراق حالاتها وأجناسِ أبدانها فى أعيانها وألوانها. بل لم يمكن أَنْ يميَّز[(٥)] بينهم وبين الأَصنامِ المنصوبة والأَوثانِ المنحوتة ، وكان كلٌّ قائمٍ وقاعد[(٦)] ، ومتحرِّكٍ وساكن ، ومنصوبٍ وثابتٍ ،فى شرعٍ سواءٍ[(٧)] ومنزلةٍ واحدة ، وقِسمةٍ مُشاكلة ؛ إذْ كانوا[(٨)] فى معنى الصَّمت بالجُثَّةِ[(٩)] واحداً، وفى معنى الكلام بالمنطق متبايناً[(١٠)]. ولذلك صارت الأَشياء مختلفةً فى المعانى، مؤتلفة الأَشكال ، إذْ كانت[(١١)] فى أشكالِ خِلقتها متَّفقة بتركيب جواهرها[(١٢)]، وتأْليف أجزائها ، وكمال أبدانها ، وفى معنى الكمال متباينةً عند مفهوم نَغَمَاتها ،ومنظومِ ألفاظها ، وبَيانِ مَعالِمِها وعَدْلِ شواهدها .

(١) ب : « مشَهراً » م : « مُبرة » ، والوجه ما أثبت من ط ، مج .

(٢) ب ، م : « ظاهراً » .

(٣) مابين المعقفين ساقط من ب ، كما سقطت كلمة « به » مما عدا ط .

(٤) الأخياف : الضروب المختلفة فى الأخلاق والأشكال . م : « وأحياف » ، تحريف . وفى ط : « وأصناف » .

(٥) ماعدا ط : « بل لم يكن يميز » .

(٦) فى جميع الأصول : « وكان لكل قائم وقاعد » ، والوجه ما أثبت .

(٧) الشرع ، بالتحريك ، ويقال بالفتح أيضاً : السواء ، يقال هذا شرع سواء . وفى الحديث : « أنتم فيه شرع سواء » ، أى متساوون .

(٨) ب فقط : « إذا كانوا » .

(٩) ب فقط : « بالجثة » ، تحريف .

(١٠) أى شيئاً متبانياً .

(١١) فقط : « إذا كانت » .

(١٢) ماعدا ط : « أجوادها » .

مع أنّى لم أنكر فضيلة الصَّمت . ولم أُهجِّن ذِكرَه إلّا أنَّ فضلَه خاصٌّ دون عامّ ، وفضلَ الكلام خاصٌّ وعامٌ ، وأن الاثنين إذا اشتمل عليهما فَضْلٌ كان حظُّهما أكثر ، ونصيبهُما [أوفر من الواحد . ولعلَّه أن يكون بكلمةٍ واحدةٍ نجاةُ[١]] خلقٍ ، وخلاصُ أُمَّة .

ومن أكثر ما يُذكَرُ للسَّاكت من الفضل ، ويُوصَف له من المَنقَبة أن يقال يسكُت ليتوقَّى به عن الإثم[٢] ، وذلك فضلٌ خاصٌّ دون عامّ .

ومن أقلّ مايُحتكَم عليه أن يقال غبىٌّ أو جاهل[٣] ، فيكون فى ذلك لازمُ ذَنْبٍ على التوهُّم به ، فيجتمع مع وقوع اسم الجاهِل عليه ما ورَّط فيه صاحبَه من الوِزْر .

والذى ذُكِرَ من تفضيل الكلام ما يَنطِقُ به القُرآن ، وجاءت فيه الرِّوايات عن الثِّقات ، فى الأحاديث المنقولات ، والأقاصيص المرويَّات ، والسَّمَر والحِكايات ، وما تكلَّمت به الخطباءُ ونطقَتْ فيه البلغاءُ — أكثرُ من أن يُبلَغ آخرُها ، ويُدركَ أوّلُها[٤] ، ولكنْ قد ذكرتُ من ذلك على قدْرِ الكِفاية ، ومن الله التوفيقُ والهِداية .

ولم نَرَ الصَّمتَ — أسعدك اللهُ — أحمدَ فى موضع إلَّا وكان الكلامُ فيه أحمد . لِتَسارُعِ النَّاسِ[٥] إلى تفضيل الكلام . لظهورِ عِلَّتهِ ، ووضوحِ جليَّته ، ومَغَبَّةِ نفْعِه .

---

(١) مابين المعقفين ساقط من ب .
(٢) يقال ، ساقطة من ط . و فى ب فقط : « عن الاسم » ، تحريف .
(٣) ب ، م : « غنى » ، تحريف .
(٤) م فقط : « ويترك أولها » .
(٥) ب فقط : « لسارع الناس » ، تحريف .

وقد ذكر اللهُ جَلَّ وعزَّ(١) فى قِصَّةِ إبراهيمَ عليه السلامُ حين كَسَّرَ الأصنام وجَعَلَها جُذاذًا ، فقال حكايةً عنهم : ﴿ قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَاإِبْرَاهِيم . قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ(٢) ﴾ . فكان كلامُه سبباً انجاته ، وعِلَّةً لخلاصِه ، وكان كلامُه عند ذلك أَحْمَدَ من صمتِ غيرِه فى مثلِ ذلك الموضع ، لأَنَّه عليه السلام لو سكت عند سؤالهم إِيَّاه لم يكن سكوتُه إِلَّا على بَصَرٍ وعِلم ، وإنَّما تكلَّم لأَنَّه رأى الكلامَ أفضلَ ، وأَنَّ من تكلَّم فأَحسنَ قَدَرَ أن يسكُت فيُحسِن ، وليس من سكت فأَحسَنَ قَدَرَ أن يتكلَّم فيُحسِن .

واعلَمْ ــ حَفِظك الله ــ أَنَّ الكلامَ سببٌ(٣) لإيجاب الفضل ، وهِدايةٌ إلى معرفة أهل الطَّوْل .

ولولا الكلامُ لم يكنْ يُعرَفُ الفاضلُ من المفضول ، فى معانٍ كثيرة ، لقول اللهِ(٤) عَزَّ وجلّ ، فى بيانِ يُوسف عليه السلامُ وكلامِه عند عَزيزِ مصر ، لمَّا كلَّمه(٥) فقال : ﴿ إِنَّكَ الْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ(٦) ﴾ . فلو لم يكن يوسُفُ عليه السلامُ أَظهرَ فضْلَه بالكلامِ ، والإفصاحِ بالبيان ، مع مَحاسِنه المُونِقةِ ، وأخلاقِه الطَّاهرة ، وطبائِعه الشَّريفة ، لَمَا عرَفَ العزيزُ فَضْله ، ولا بلغَ تلك المنزلةَ لديه ، ولا حَلَّ ذلك المحلَّ منه(٧) ، ولا صار

---

(١) مج : « وقد ذكر الا جل وعز » . وانظر ما سيأتى .
(٢) الآيتان ٦٢ ، ٦٣ من سورة الأنبياء .
(٣) ب فقط : « لسبب » ، تحريف .
(٤) مج : « لقول الا » ، ويبدو أن هذا وسابقه محاولة طباعية لاختصار لفظ الجلالة ، وهو أمر بشع .
(٥) ، ب ، مج : « ما كلمه » تحريف ، م : « فلما كلمه قال » ، وأثبت ما فى ط .
(٦) الآية ٥٤ من سورة يوسف .
(٧) ب : « ولا جل » م : « ولأجل » صوابهما فى مج ، ط . وفى ب فقط : « ذلك المحمل » ، تحريف .

عنده بموضع الأَمانة ، ولكانَ فى عِدادِ غيرِهِ(١) ومنزلةِ سِواهُ عند العزيز. ولكنَّ الله جعلَ كلامه سبباً لرفع منزلته ، وعُلوٍّ مرتبته ، وعِلَّةً لمعرفة فضيلته ، ووسيلةً لتفضيل العزيز إيَّاه .

ولم أَر للصَّمت فضيلةً فى معنًى ولا للسُّكوت مَنْقَبةً فى شىءٍ إلاَّ وفضيلةُ الكلامِ فيها أكثَرُ ، ونصيبُ المنطقِ عندها أوفر ، واللَّفظُ بها أشهر . وكفى بالكلام فضلاً ، وبالمنطق مَنقَبة ، أَنْ جعَلَ اللهُ الكلامَ سبيلَ تهليله وتَحميده ، والدَّالَّ على معالم دينهِ وشرائع إيمانه ، والدَّليل إلى رضوانه(٢) . ولم يرضَ من أحدٍ منخلقه إيماناً إلَّا بالإقرار ، وجعل مسلكَه اللِّسان ، ومجراه فيه البيان ، وصيَّره المعبِّر عمّا يُضمره(٣) والمُبين عمّا يُخبِره(٤) ، والمنبئَ عن(٥) مالا يستطيع بيانَهإلَّا به(٦) . وهو تَرجُمانُ القَلبِ . والقلب وعاءٌ واعٍ(٧) .

ولم يُحمد الصَّمت منأحدٍ إلَّا توقِّيًا لعجزه عن إدراك الحقِّ والصَّوابِ فى إصابة المعنى . وإنَّما قاتل النبيُّ صلىالله عليه وسلم المشركين عند جهلهم الله تعالى وإنكارهم إياه ، ليُقرُّوا به ، فإذا فَعَلُوه حُقِنَتْ دماؤهم ، وحُرِّمت أموالُهم ، ورُعِيتْ ذِمَّتُهم . ولو أنَّهم سكتوا ضنًّا بدينهم لم يكن سبيلُهم إلَّا العطَب .

---

(١) مج : « فى عداو غيره » ، تحريف .
(٢) مج : « على رضوانه » ، تحريف .
(٣) ب : « وصيره المصير عنك ماتضمره » م : « وصيره المعبر عنك ما تضمره . صوابهما فى ط ، مج .
(٤) ب ، م ، مج : « والمبين عنك ما يخبره » ، صوابه فى ط .
(٥) ما عدا ط : « عنك » ، تحريف .
(٦) ماعدا مج : « مايستطيع » وفى مج : « مالا تستطيع » والوجه ماأثبت . وقد سقطت « إلا به » من ط .
(٧) مج : « دعاء وراع » .

فاعلم أنَّ الكلام من أسباب الخير لا من [أسباب] الشر[١] .

والكلامُ – أبقاكَ الله – سبيلُ التمييز بين الناس والبهائم ، وسببُ المعرفةِ لفضل الآدميِّين على سائر الحيوان[٢] ، قال[٣] الله عز وجلّ : ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ[٤]﴾ . كرَّمهم[٥] باللسان وجمَّلهم بالتدبُّر[٦] .

ولو لم يكن الكلامُ لما استوجب أحدٌ النِّعمة ، ولا أقام على أداء ما وجبَ عليه[٧] من الشُّكْرِ سبباً للزِّيادة ، وعلَّة لامتحان قلوبِ العباد . والشكرُ بالإظهار في القول ، والإبانةِ باللِّسان . ولا يُعرفُ الشكرُ إلَّا بِهما . والله تعالى يقول : ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ[٨]﴾ ، فجعل الشُّكر علَّةً لوجوب الزِّيادة ، عند إظهاره بالقَوْلِ ، والحمدَ مفتاحاً للنِّعمة .

وقد جاء في بعض الآثار : لو أنَّ رجلاً ذكَر الله تعالى وآخرَ يَسْمَعُ له كان المعدودُ للمستمِعِ من الأَجْر ، والمذكورُ له من الثَّواب واحداً[٩] وللمتكلِّم[١٠] به عشْرةً أو أكثر .

فهل تُرى – أبقاك الله – أنَّه وجَبَ لصاحب العَشْرِ[١١] ذلك وفَضل

(١) ب ، م : « إلا من الشر » ، تحريف .
(٢) ب : « على سائر الحيوان » .
(٣) ب : « فقال » .
(٤) الآية ٧٠ من سورة الإسراء .
(٥) ب فقط : « أكرمهم » .
(٦) في جميع الأصول : « وحملهم بالتدبر » ، والوجه ما أثبت .
(٧) ماعدا ط : « عليهم » .
(٨) الآية ٧ من سورة إبراهيم
(٩) ب ، م : « واحد » .
(١٠) ب فقط : « والمتكلم » .
(١١) مج : « العشرة » ، وكلا هما جائز لأنه صفة لمعدود محذوف

به على صاحبه إلَّا عند استعماله بالنُّطق به لسانَه(١) . ولم يلزم(٢) الصَّمت أحدٌ إلَّا على حسب وقوع الجهلِ عليه . فأمَّا(٣) إذا كان الرَّجُل نبيهاً مميَّزاً ، عالماً مفوَّهاً فالصَّمتُ مُهجِّنٌ لعلمِه وساتِر لفضلِه(٤) . كالقدَّاحةِ لم يستبن نَفْعُها دون تزنيدها(٥) . ولذلك قيل : « من جهل عِلْمًا عاداه » .

٢ — فصل منها

ولم أجدِ الصَّامت مستعاناً به فى شىء من المعانى ، ولا مذكوراً فى المحافل .

ولم يُذكَر الخطباءُ ولا قَدَّمتْهمُ الوفودُ عند الخُلفاءِ إلَّا لِمَا عرفوه من فَضْلِ لسانِهم وفضيلةِ بيانهم . وإنَّ أصحَّ ما يُوجد فى المعقول ، وأوضحَ مايُعَدُّ فى المحصولِ للعربِ من الفَضْل . فصاحتُها وحسنُ منطقِها ، بَعْدَ فضائلها المذكورة ، وأيَّامها المشهورة .

ولفضل الفصاحةِ وحُسْن البيانِ بعَثَ الله تعالى أفضلَ أنبيائِهِ وأكرمَ رُسُلهِ من العرب ، وجَعلَ لسانَه عربيًّا . وأنزَلَ عليه قُرآنه عربيًّا ، كما قال الله تعالى : ﴿ بلسانٍ عربىٍّ مُبين(٦) ﴾ . فلم يُخَصَّ اللسانُ بالبيان، ولم يُحْمد بالبرهان إلاَّ عند وجود الفضل فى الكلام ، وحسن العبارةِ عندَ المنطق ، وحلاوةِ اللَّفظ عند السَّمع .

واعلم أنَّ الله تعالى لم يُرسِل رسولاً ولا بَعثَ نبيًّا إلَّا مَن كان فضلُه

---

(١) مج : « على لسانه » .
(٢) م فقط : « ولا يلزم » .
(٣) ط فقط : « أما » بلا فاء .
(٤) ب ، م : « فضله » .
(٥) المراد بالتزنيد استعمال الزندين ، والكلمة بهذا المعنى لم ترد فى المعاجم المتداولة .
(٦) الآية ١٩٥ من سورة الشعراء .

فى كلامه وبيانِه كفَضْله على المبعوث إليه ، فكان النبىُّ صلى الله عليه وسلم أفصح العربِ لساناً ، وأَحسَنهُم بياناً ، وأَسهلَهم مخارج لِلكلام[١] وأَكثَرَهُم فوائد من المعانى ؛ لأَنه كان من جماهير العَرَب ، مَولده فى بنى هاشم ، وأخوالُه من بنى زُهرة . ورَضاعه فى بنى سعد بن بكر ، ومنشَؤُه فى قريش ، ومتزوَّجُه فى بنى أَسد بن عبد العُزّى ، ومهاجَرُهُ إلى بنى عمرو[٢] ، وهم الأَوسُ والخزرج من الأَنصار . وقد قال النبى صلى الله عليه وسلم : « أَنا أَفصحُ العربِ بَيْدَ أَنِّى من قريش، ونشأْتُ فى بنى سَعدِ بن بكر[٣] » .

ولو لم يكن ممَّا عَدَدْنَا من هؤلاءِ الأَحياءِ إلَّا قريشٌ وحدها لكان فيها مستغنًى عن غيرها ، وكفايةٌ عن من سواها[٤] ، لأَنَّ قريشاً أَفصح العرب لساناً وأَفضَلُها بياناً ، وأَحضرُها جواباً ، وأَحسنها بديهة[٥] ، وأَجمعها عند الكلام قَلْبا .

ثم للعرب أَيضاً خصالٌ كثيرة ، ومشاهدُ كثيرة ، ممَّا يشاكل هذا البابَ ، ويُضارع هذا المِثال ، حذفْتُ ذِكرَها خوف التطويل فيها[٦] .

---

(١) ب ، م : « مخارج الكلام » .

(٢) هكذا وردت « مهاجرته » فى جميع الأصول ، وهى صحيحة ولغة الجاحظ تتطلب « مهاجره » . وعمرو هذا هو مزيقياء بن عامر ماء السماء بن حارثة الغطريف بن امرئ القيس بن ثعلبة بن مازن بن الأزد . والأوس والخزرج أبوهما حارثة بن ثعلبة بن عمرو هذا ، الملقب بمزيقياء . جمهرة ابن حزم ٣٣٢ . ويقول أوس بن الصامت الأنصارى : (العينى ١ : ٣٩١ والخزانة ١ : ٢٢٩) :

أنا ابن مزيقيا عمرو وجدى ... أبوه عامر ماء السماء

(٣) انظر لسان العرب (بيد) .

(٤) فى جميع الأصول : « وكفاية من سواها » .

(٥) م فقط : « بديهية » .

(٦) ما عدا ط : « وذكرت التطويل فيها » ، تحريف .

٣ — فصــل منها

فهذه كلُّها دلائِل[١] على دَحْضِ حُجَّتِك ونقضِ قضيَّتك . وإنَّما أرسلَ الله تعالى رُسلَه مبشِّرينَ ومنذرين الأُممَ ، وأمرَهم بالإبلاغ ليُلزمهم الحجَّةَ بالكلام لا بالصَّمت . إذ لا يكون للرِّسالة بلاغٌ ولا للحجَّة لزُومٌ ولا لِلعلَّةِ ظهورٌ إلَّا بالنُّطق[٢] .

٤ — فصــل منها

في صفة من يقدر على الإبانة

وليس يَقْوَى على ذلك إلَّا امرؤٌ فى طبيعته فضلٌ عن احتمال نحيزته[٣] وفى قريحته زيادةٌ من القوَّة على صناعته ، ويكون حَظُّه من الاقتدار فى المنطق فوقَ قِسطِهِ من التغلُّب فى الكلام . حتَّى لا يضعَ اللفْظَ الحرَّ النبيل إلَّا على مثلِه من المعنى ؛ ولا اللفْظَ الشريفَ الفخمَ[٤] إلَّا على مثله من المعنى . نعم ، وحتَّى يُعطِّىَ اللَّفظَ حقَّه من البيان . ويوفِّر على الحديث قِسطَه من الصَّواب ، ويُجزِلَ[٥] للكلام حظَّه من المعنى ، ويَضَعَ جميعَها مواضِعَها ، ويصفَها بصفتها . ويوفِّر عليها حقوقَها من الإعراب والإفصاح .

---

(١) م : « دليلة » ط : « دليل » ، وأثبت ما فى سائر النسخ .
(٢) بعده فى مج : « والله أعلم » . وبذلك ينتهى النص المذكور فى نسخة مجموعة الساسى .
(٣) نحيزة الرجل : طبيعته ، كالنحيتة أيضاً . ط فقط : « غيرته » .
(٤) ب : « المفخم » .
(٥) م : « ويجزك » ط : « ويحرك » ، صوابهما فى ب .

٥ ـ فصل منها

وبعدُ، فأىُّ شىءٍ أشهر مَنْقَبةً وأرفعُ درجةً وأكمل فضلاً، وأظهر نفعًا ، وأعظم حرمةً من شىءٍ لولا مكانُه لم يثبُتْ للهِ رُبوبيَّةٌ[(١)] ولا لنبىٍّ حجة[(٢)] ، ولم يُفصَل بين حُجَّة وشُبهة ، وبين الدَّليل[(٣)] وما يَتجلَّى[(٤)] فى صورة الدَّليل .

ثم به يُعرَفُ فضلُ الجماعة من الفُرقة ، والشُّبهة من البدعة ، والشُّذوذ من الاستفاضة .

والكلام سببٌ[(٥)] لتعرُّفِ حقائقِ الأَديان ، والقياسِ فى تثبيتِ الرُّبوبيَّة[(٦)] وتصديق الرسالة ، والامتحان للتَّعديل والتجوير[(٧)] والاضطرار والاختيار[(٨)] .

---

(١) ب : « لم يثبت الله يسوتبة » تحريف .
(٢) م : « وللنبى حجة » . ومابعده إلى « حجة » التالية ساقط من م .
(٣) « بين الدليل » ساقط من ب .
(٤) ب : « تتجلى » .
(٥) ب : « والكلام لسبب » .
(٦) م : « والقياس وإثبات الربوبية »
(٧) فى جميع الأصول : « والتحرير » ، والوجه ما أثبت . والتجوير : نسبة الجور ، أى الظلم إلى الله . وانظر ما سبق فى ٣٣ ، ٤٠ .
(٨) ط : « للاضطرار والاختيار » صوابه فى ب ، م .

٢٥

من كتابه في

صناعة الكلام

١ – فصل

من صدر كتابه فى صناعة الكلام[1]

ذكرتَ – حفظك الله تفضيلك[2] صناعةَ الكلام ، والذى خصصتَ به مذهبَ النَّظَّام ، وشغفَك بالمبالغة فى النَّظر ، وصَبابتك[3] بتهذيب النِّحَل ، مع أُنسِكَ بالجماعة ، ووحشتك من الفُرْقة . والذى تَمَّ عليه عزمُك من إدامة البحث والتنقير[4] ومِن حمْل النَّفسِ على مكروهها من التفكير ، ومن الانتساب إليهم والتعرُّفِ بهم . والذى تهيَّأ لك من الاحتساب فى الأَجْر ، والرغبةِ فى صالح الذِّكْر ، والذى رأيتَ من النَّصْب للرَّافضة والمارِقة ، وطُولِ مفارقة المرجئة والنَّابتة ، ولكلٍّ من اعترض عليهم ، وانحرفَ عنهم ، والذى يُخَصُّ به الجَبْرِيَّة ويُعَمُّ به المشبِّهة .

فيأيُّها المتكلِّمُ الجَمَاعىّ ، والمتفقِّهُ السُّنِّىّ ، والنَّظَّار المعتزلى ، الذى سَمت همَّته إلى صناعة الكلام مع إدبار الدنيا عنها ، واحتَمَل ما فى التعرُّض للعوامِّ من الثَّواب عليها ، ولم يُقْنِعه من الأَديانِ إلاَّ الخالص المُمتحَن[5] ولا من النِّحَل إلَّا الإبريزُ المهذَّب ، ولا من التمييز إلَّا المحضُ المصفَّى . والذى رغِبَ بنفسِه عن تقليد الأَغمار والحُشْوة[6] ، كما

---

(١) هامش الكامل ٢ : ٢٣٨ – ٢٤٦ باسم « صناعة الكلام » وكذلك ريشر ١٥٩–١٦٢ . وانفردت نسخة المتحف البريطانى (ب) باسم « فضيلة صناعة الكلام » .

(٢) ب فقط : « تفضيل » .

(٣) فى جميع الأصول : « وصيانتك » ، والوجه ما أثبت .

(٤) ب ، م : « والتنقير » ، صوابه فى ط .

(٥) الممتحن : المصفّى المخلص ، من قولهم : محنت الفضة ، إذا صفيّتها وخلصتها بالنار . ب فقط : « الممتحز » تحريف .

(٦) حشوة الناس ، بالضم : رذالتهم . م فقط : « والحشوية » ، وليست مرادة هنا ، وانظر الحشوية ما مضى فى ٣ : ٢٨٨ .

رغِب عن ادِّعاء الإلهام والضرورة ، ورغِب عن ظُلم القياس بقدر رغبته فى شرفِ اليقين(١) :

إنَّ صناعةَ الكلامِ عِلقٌ نفيس ، وجوهرٌ ثمين ، وهو الكنز الذى لا يَفْنَى ولا يَبْلَى ، والصاحب الذى لا يُمَلُّ ولا يُغِلُّ(٢) ، وهو العِيارُ على كلِّ صناعة ، والزِّمام على كلِّ عبارة ، والقِسطاس الذى به يُستبان نُقصان كلِّ شيء ورُجحانُه ، والرَّاوُوق الذى به يُعرف صفاءُ كلِّ شيء وكدَرُه ، والذى كلُّ أهلِ علمٍ عليه عيالٌ ، وهو لكل تحصيلٍ آلةٌ ومثال .

أَلَا إنَّه ثَغْرٌ(٣) والثَّغر محروس ، وحِمًى والحمى ممنوع . والحَرَم(٤) مصونٌ ، ولن تصونَه(٥) إلَّا بابتذالِ نفسِك دُونَه ، ولن تمنعَه(٦) إلَّا بأن تجود بمهجتِك ومجهودك ، ولن تَحرُسَه إلَّا بالمخاطرة فيه . والثَّوابُ على قدر المشقَّة ، والتوفيقُ على مقدارُ حُسنِ النِّيَّة .

وكيف لا يكونَ حَرَماً وبه عرفنا حُرْمَةَ الشَّهر الحرام والحلال المنزَّل ، والحرام المفصَّل ؟ !

وكيف لا يكون ثغراً وكلُّ الناسِ لأَهلِه عدوٌّ ، وكلُّ الأُممِ له مُطالبٌ .

---

(١) فى جميع الأصول : « شرب اليقين » ، والوجه ما أثبت .
(٢) يغل : يكون فى قلبه الغش والضغن . والإغلال أيضاً : السرقة والخيانة . وفى الأصول : « ولا يقل » ، ولا وجه له .
(٣) فى جميع الأصول : « الآية » ، ولعل وجهه ما أثبت .
(٤) ب ، م : « والحزم » ، صوابه فى ط .
(٥) ب فقط : « ولا تصونه » .
(٦) ولن تمنعه ، ساقط من م .

وأحق الشيء(١) بالتعظيم ، وأولاهُ بأن يُحتَمَل فيه كلُّ عظيمٍ ما كان مُسلِماً إلى معرفة الصَّغير والكبير ، والحقير والخَطير ، وأداةً لإظهار الغامض ، وآلةً لتخليص الغاشية(٢) ، وسبباً للإيجاز يوم الإيجاز والإطناب يومَ الإطناب .

وبه يُستدَلُّ على صرف(٣) ما بين الشَّرَّين من النقصان . وعلى فَضْل(٤) ما بين الخيرين من الرُّجحان . والذى يصنع فى العُقول من العبارة وإعطاء الآلة مِثلَ صنيعِ العقل فِى الرُّوح . ومثَل صنيع الرُّوح فى البدن .

وأىُّ شىءٍ أعظمُ من شىءٍ لولا مكانُه لم يثبت للرَّبِّ رُبوبيَّة ، ولا لنبىٍّ(٥) حجة ، ولم يُفصَل بين حُجَّة وشُبهة ، وبين الدَّليل وما يُتخيَّل فى صورة الدَّليل . وبه يُعرف الجماعةُ من الفُرْقة ، والسُّنَّة من البِدعة ، والشُّذوذ من الاستفاضة .

٢ — فصل منه

واعلم أنَّ لصناعة الكلام آفاتٍ كثيرة ، وضروباً من المكروه عجيبة . منها ماهو ظاهرٌ للعيون والعقول ، ومنها مايُدرَك بالعقول ولا يَظهر للعُيون ، وبعضُها وإنْ لم يظهر للعُيون وكان مما يظهر للعقول فإنَّه لايظهر إلَّا لكلِّ عقلٍ سليم جيِّدِ التركيب . وذهنٍ صحيحٍ خالص الجوهر ، ثُمَّ لا يُدرِكُه أيضاً إلَّا بعد إدمان الفِكر ، وإلَّا بعد دراسة الكُتب ، وإلَّا

(١) ب ، م : « وأحق بالشىء » ، صوابه فى ط .
(٢) الغاشية : ما يغشى . ط فقط : « الفاشية » .
(٣) الصرف : الفضل ؛ يقال : لهذا صرف على هذا ، أى فضل . وفى جميع الأصول : « ضرب » ، صوابه ما أثبت .
(٤) م ، ط : « فصل » بالصاد المهملة ، ولها وجهها .
(٥) ب ، م فقط : « للنبى » . وانظر ما مضى فى ٢٣٨ .

بعد مناظرة الشكل الباهر ، والمعلِّم الصابر . فإن أراد المبالغةَ وبلوغَ أقصى النهاية ، فلا بُدَّ من شهوة قوية . ومن تفضيلهِ [على(١)] كلِّ صناعة ، مع اليقين بأنَّه متى اجتهد أنْجح ، ومتى أدمن قرْعَ(٢) البابِ وَلَجَ .

فإذا أعطى العِلْمَ حقَّه [من الرَّغبة فيه ،أعطاه حقَّه](٣) من الثَّواب عليه .

٣ ـ فصل منه

ومن آفات صناعة الكلام أنْ يَرَى(٤) مَنْ أحسَن بعضَها أنَّه قد أحسَنَها كلَّها ، وكلٌّ من خاصم فيها ظنَّ أنَّه فوقَ من خاصمه حتى يُرَى المبتدئ أنَّه كالمنتهى(٥) ويُخيَّل إلى الغبيِّ أنَّه فوق الذكيّ . وأيضاً أنَّه يُعرِض عن أهله(٦) ويَنْصِب لأصحابه مَنْ لم ينظُرْ فى علمٍ قطُّ ، ولم يخُضْ فى أدبٍ منذ كان ، ولم يدر ما التمثيل ولا التحصيل ، ولا فرقُ ما بين الإهمال والتفكير(٧) .

وهذه الافاتُ لا تعترى الحُسَّاب ولا الكُتَّاب ، ولا أصحابَ النَّحو والعَروض ، ولا أصحاب الخَبَر وحُمَّال السِّيَر ، ولا حُفَّاظَ الآثارِ ولارُواةَ الأشعار ، ولا أصحابَ الفرائِض ، ولا الخُطباء ولا الشُّعراء ، ولا أصحابَ الأحكام ومن يُفْتِى(٨) فى الحلال والحرام ، ولا أصحاب التَّأْويل ،

(١) تكملة يفتقر الكلام إليها .
(٢) ب ، م : « قراع » ، صوابه فى ط .
(٣) م : « فإذا أعطى العلم حقه من الثواب عليه » . فقط بسقوط سائر الكلام .
(٤) ب ، م : « يرى » مع سقوط « أن » قبلها . وإثباتها من ط .
(٥) ب،م: « حتى ترى » إلى آخر الكلام . وفى م : « حتى ترى المنتهى» فقط. وأثبت مافى ط .
(٦) ب ، م : « وأيضاً أنه يعرض على أهله » ، صوابه فى ط .
(٧) ط : « والتفكر » .
(٨) ب ، م : « يعنى » ، صوابه فى ط .

ولا الأطباء ولا المنجِّمين ولا المُهندِسين ، ولا لذى صناعةٍ ولا لذى تجارة ، ولا لذى عَيْلة[١] ولا لذى مسألة .

فهم لهذه البليَّةِ مَخصوصون ، وعليها مقصورون . فللصَّابر منهم من الأجر حَسْبُ ما خُصَّ به من الصَّبر . وهى الصِّناعةُ لا يكاد تظهر قوَّتها[٢] ولا يُبلَغ أقصاها إلَّا مع حضور الخَصْم .

ولا يكاد الخصْم يبْلغ محبَّته منها إلَّا برَفْع الصَّوت وحركة اليَد ، ولا يكاد اجتماعُهما يكون إلَّا فى المَحفِل العظيم والاحتشاد من الخصوم ، ولا تحتفل نفوسهما[٣] ، ولا تجتمع قوَّتُهما[٤] ، ولا تَجُود القوَّة بمكنونها وتُعطِى أقصى ذخيرتها ، التى اسْتَخْزَنَتْ[٥] ليوم فقرِها[٦] وحاجتها ، إلَّا يومَ جمع وساعةَ حَفْل . وهذه الحال داعيةٌ إلى حبِّ الغَلَبة .

وليس شىءٌ أدعَى إلى التغلُّب من حبِّ الغَلَبة . وطولُ رَفْعِ الصَّوت مع التغلُّب ، وإفسادُ التغلُّب[٧] طباعَ المُفْسِد ، يوجبانِ فسادَ النِّيَّة ، ويمنعان من دَرْك الحقيقة . ومتى خَرَجَا من حدِّ الاعتدال أخْطَآ جِهةَ القصد .

وعِلم الكلام بَعْدُ[٨] ملقًّى من الظُّلم ، متاحٌ له الهَضْم . فهو أبدًا محمول

---

(١) العيلة ، بالفتح : الفقر والحاجة . وفى الكتاب العزيز : « وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء » .

(٢) م ، ط : « يظهر قوتها » .

(٣) ب ، م : « ولا يحتفل نفوسهما » ، والوجه ما أثبت . وقد سقطت هذه العبارة من ط .

(٤) ب ، م : « ولا يجتمع » . وفى ط : « قوتها » وهذه محرفة .

(٥) ب : « والذى استجربت » ، م : « والذى استجريت » ، صوابهما ما أثبت . وفى ط . « التى أعدتها » .

(٦) ب فقط : « اليوم فقرها » . تحريف .

(٧) ب ، م : « المتغلب » ، صوابها فى ط .

(٨) ب فقط : « أبعد » ، تحريف .

عليه ومبْخُوسٌ حَظُّه(١) وباب الظلم إليه مفتوح ، لا مانع له دونه .
والعلمُ بما فيه من الضَّرر يخفى على أكثر العُقَلاء ، ويغْمُض على جمهور الأُدباء . وإذا كان ملقًى من أكبر العقلاء ، ومخذولًا عند أكثر الأُدباء ، فما ظنُّك بمن كان عقله ضعيفاً ونظرُه قصيراً ؟ بل ماظنُّك بالظَّلوم الغادر ، والغُمْر الجاسر ؟ فهذا سبيلُ العوامِّ فيه ، وجهلُ عوامِّ الخواصِّ به ، وانحرافُهم عنه ، وميلُ الملوك عليه ، وعداوة بعضٍ لبعض فيه .

وصناعةُ الكلام كثيرةُ الدُّخَلاءِ والأَدعياء ، قليلةُ الخُلَّص والأَصفياء والنَّجابة فيها غريبة ، والشروط التى تَستحكم بها الصِّناعةُ بعيدةٌ سحيقة(٢) ، ولدعيِّ القومِ من العجز ماليس لصحيحِهم ، ولرديِّ الطباع فى صناعة الكلام من ادِّعاءِ المعرفة ماليس للمطبوع عليها منهم ، بل لا تكاد تجده إلَّا مغموراً بالحُشوة(٣) مقصوداً بمخاتل السَّفلة .

ومن مظالمِ صناعة الكلام عند أَصحاب الصِّناعات أَنَّ أَصحاب الحساب والهندسةِ يَزْعُمون أَنَّ سبيلَ الكلام سبيلُ اجتهادِ الرَّأْى ، وسبيلُ صواب الحَدْس ، وفى طريق التقريب والتَّمويه ، وأَنَّه ليس العلمُ إلَّا ما كان طبيعيًّا واضطراريًّا لا تأْويلَ له ، ولا يحتمل معناه الوجوهَ المشتركة ، ولا يتنازعُ أَلفاظَه الحدودُ المتشابهة . ويَزعُمون أَنَّه ليس بين علمهم بالشَّىءِ الواحِد أَنَّه شىءٌ واحد وأَنَّه غير صاحبه فرق فى معنى الإتقان(٤) والاستبانة ، وثَلَج الصُّدور والحكم بغاية الثقة .

---

(١) المبخوس : المنقوص . ب فقط : « ومنجوس » .

(٢) السحيقة : البعيدة . وفى الكتاب : « أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » . وفى اللسان : « وإنه لبعيد سحيق » . وفى جميع الأصول : « سخيفة » ، والصواب ما أثبت .

(٣) ط : « بالحسدة » .

(٤) ط فقط : « الاتفاق » .

٤ — فصل منه(١)

فلو كان هذا المهندسُ الذى أبرم قضيَّته ، وهذا الحاسبُ الذى قد شَهَر حُكومَتَه ، نَظَرَ فى الكلام بعقل صحيح وقريحةٍ جيِّدةٍ ، وطبيعة مناسبة ، وعناية تامَّة ، وأعوانِ صِدق وقِلَّة شواغل ، وشهوةٍ للعلم ، ويقينٍ بالإصابة ، لكان تهيُّبُ الحكمِ أَزْيَنَ به ، والتوقِّى أولى به . فكيف بمن لا يكونُ(٢) عرفَ من صناعة الكلام ما يعرفه المقتصدُ فيه ، والمتوسِّط له .

على أنَّا ما وجدنا مهندساً قط ولا رأَيْنا حاسباً يقول ذلك إلَّا وهو ممن لا يتوقَّى سَرفَ القَوْل ، ولا يُشفِق من لائمة المحصِّلين ، وقضيَّتُه قضيَّةُ من قد عرف الحقائق ، واستبانَ العواقب ، ووزن الأُمورَ كلَّها وعجمَ المعانىَ بأَسرها ، وعلم من أَين وثِق كلُّ واثق ، ومن أَينَ غُرَّ كلُّ مغرور .

وعلى أَنَّهم يُقِرُّون(٣) أنَّ فى الحساب مالا يُعلم ، وأنَّ فى الهندسة مالا يُدرَك ولا يُفْهَم . والمتكلِّمون لا يُقِرُّون بذلك العجز فى صناعتهم ، وبذلك النقص فى غرائزهم .

٥ — فصل منه

وأقول : إنه لو لم يكن(٤) فى المتكلِّمين من الفَضْل إلَّا أنَّهم قد رأَوا إدبارَ الدنيا عن علم الكلام ، وإقبالَها إلى الفُتيا والأَحكام ، وإجماعَ

---

(١) فصل منه ، ساقط من ب ثابت فى م ، ط .
(٢) ب ، م : « فكيف أن لا يكون » .
(٣) ط : « يقرءون » ، تحريف .
(٤) ب ، م : « إنه لم يكن » ، صوابه فى ط .

الرعيَّة والراعى على إغناء المفتى ، وعلم الفتوى فرع ؛ وإطباقَهم(١) على حِرمان المتكلِّم ، وعلم الكلام أصل . فلم يتركوا مع ذلك تكلُّفَهُ ، وشحَّتْ نفوسُهم عَنْ(٢) ذلك الحظِّ . مخافةَ إدخال الضَّيْم على علم الأَصل ، وإشفاقاً من أن لا تَسَعَ طبائِعُهم اجتماعَ الأَصل والفرع(٣) ، فكان الفقر والقِلَّةُ آثَر عندهم مع إحكام الأُصول ، من الغِنى والكَثْرةِ ، مع حفظ الفروع ، فتركوا أن يكونوا قضاةً ، وتركوا(٤) القضاة وتعديلهم(٥) وتركوا أن يكونوا حُكَّاماً وقَنِعُوا بأَن يُحكَم عليهم ، مع معرفتهم بأَنَّ آلتَهم أَتمُّ ، وآدابَهم أكمل ، وأَلسنتَهم أَحدُّ ، ونظرَهم أثقب ، وحِفظهم أَحضرُ ، وموضعَ حفظهم أحصَن .

والمتكلِّم اسمٌ يشتمل على ما بين الأَزرقىّ(٦) والغالى(٧) وعلى مادونهما من الخارجىِّ والرافضىِّ ، بل على جميع الشِّيعة وأَصْنافِ المعتزلة ، بل على جميع المرجئة وأَهل المذاهب الشاذَّة .

---

(١) ب ، م : « وإطباقها » ، صوابه فى ط .

(٢) ط : « على » .

(٣) ب ، م : « لاجتماع الأصل والفرع » .

(٤) ب،م : « وخيروا » .

(٥) « وتعديلهم » ساقط من م .

(٦) الأزرقى : واحد الأزارقة ، وهم أصحاب نافع بن الأزرق بن قيس الحنفى ، وكان من الخوارج ، قتل يوم دولاب سنة ٦٥ . وانظر الجزء الأول من الرسائل ص ٤٣ ، ٥١ . ب ، م : « الأزارقى » ، صوابه فى ط .

(٧) الغالى : واحد الغلاة . وهو يعنى غلاة الشيعة .

٢٦

من رسالة في

مدح التجارة وذم عمل السلطان

١ - فصل

من صدر رسالته فى مدح التجار وذم عمل السلطان[(١)]

أَدامَ اللهُ لكَ السَّلامَةَ ، وأَسْعدَك بالنِّعمة . وختَمَ لك بالسَّعادة ، وجعلكِ من الفائزين .

فَهِمْتُ كتاب صاحِبك ، ووقفتُ منه على تعدٍّ فى القول ، وحَيْفٍ فى الحكم ؛ وسمعتُ قولَه. وهو على كلِّ حال حائرٌ ،[(٢)] وطريقُه طريقُهم ، وكتبُه تُشاكل كُتُبَهم ، وألفاظُه تُطابِقُ ألفاظَهم .

وكذلكَ حالُنا وحالُ صاحِبِ كتابك فيما يَسْخَطه من أمرنا ، أنِّى لا أَعتذِرُ منه ، وأَستنكف من الانتساب إليه[(٣)] ، بل أستحِى من الكتابة ، وأَستنكفُ بأَن أنسُب إليها من البلاغة أنْ أَعْرِفَ بها فى غير موضعها ، ومن السَّجع[(٤)] أن يظهرَ منِّى ، ومن الصَّنعة[(٥)] أن تُعرف فى كتبى ، ومن العُجْبِ بكثيرِ مايكونُ منِّى .

وقديماً كرِهَ ذلك أهلُ المروءة والأَنفة[(٦)] . وأهلُ الاختيارِ للصَّواب والصَّدِّ عن الخَطإِ ؛ حتَّى إنَّ معاويةَ مع تخلُّفه عن مراتب أهل السَّابقة ، أَمْلَى كتاباً إلى رجلٍ فقال فيه : « لهو أَهْوَنُ علىَّ من ذَرَّة ، أَو كَلْبٍ من

---

(١) هامش الكامل ٢ : ٢٤٦ — ٢٥١ وريشر ١٨٦—١٨٨ ومجموعة الساسى ١٥٥—١٦٠ وقد انفردت نسخة الكامل بعنوان « مدح التجارة » . وانظر ما سيأتى فى ٢٥٤ س ٩ .

(٢) ب : « حاجز » م : « حاجر » ، صوابهما فى ط .

(٣) ب : « وأستكف بان من الانتساب إليه » ، تحريف .

(٤) ب ، م : « من السطع » ط : « السطحى » ، والوجه ما أثبت .

(٥) ب ، م : « الضيعة » ط : « الضبعة » ، والوجه ما أثبت .

(٦) ب ، م : « والأنف » .

كِلاب الحَرَّة » ثم قال: « امحُ : من كلاب الحَرَّة ، واكتبْ: من الكلاب». كأنَّه كره اتِّصال الكلام والمزاوَجَة وما أشبه السَّجْع ، وأُرِيَ أنَّه ليس فى موضعه .

٢ — فصـــل منه

وهذا الكلامُ لا يَزال ينجُم من حُشْوةِ[١] أتباع السُّلطان . فأمَّا عِلْيتُهم ومُصاصُهم[٢] ، وذوُو البصائر والتمييز منهم ، ومن فَتَقَتْه الفِطْنة[٣] ، وأرهفه[٤] التأْديب، وأرهقه طول الفكر[٥] وجَرَى فيه الحَيَاءُ[٦] وأحكمتْه التجارب،فَعَرَفَ العواقبَ وأحكم التفصِيل[٧] وتبَطَّنَ[٨] غَوامضَ التحصيل ، فإنهم يعترفون بفضيلةِ التُّجَّار ويتمنَّوْنَ حالَهم ، ويحكُمونَ لهم بالسَّلامة فى الدِّين[٩] ، وطِيب الطُّعمة[١٠] ، ويعلمون أنَّهم أودعُ النَّاس بَدَنًا وأهنؤهم عَيشاً ، وآمَنُهم سِرْباً ، لأنَّهم فى أفنيتهم كالملوك[١١] على أسِرَّتهم ، يرغب إليهم أهلُ الحاجات ، وينزِع إليهم مُلتمسو البياعات ، لا تَلحقُهم الذِّلَّةُ فى مكاسبهم ، ولا يستعبدهم الضَّرَع لمعاملاتهم[١٢] .

---

(١) ط : « حشوية » .

(٢) المصاص ، بالضم : خالص كل شيء . ب : « فأما علتهم » ، تحريف ما فى م ، ط.

(٣) ب ، م : « فيقته الفطنة » ط : « فوقته الفطنة » ، والوجه ما أثبت .

(٤) أرهفه : أرقه إرقاقاً . ب ، م : « أرهقه » ، صوابه فى ط .

(٥) م ، ط : « وأرهفه » بالفاء ، والوجه ما أثبت من ب . وفى م ، ط : «التفكير»

(٦) ب : « الجنا » ، صوابه فى م ، ط .

(٧) ب : « التفضيل » بالضاد المعجمة .

(٨) تبطن الأمر : تعمق فيه . ب، م : « وينطق»، ط : « ونطق » ، والوجه ما أثبت.

(٩) ط : « بسلامة الدين » .

(١٠) الطعمة ، بالضم : وجه المكسب .

(١١) م ، ط : « وكالملوك » ، صوابه فى ب .

(١٢) الضرع ، بالتحريك: الخضوع والذلة والاستكانة . ب ، م : « « ولا تستعبدهم» صوابه فى ط . وفى ب أيضاً : « لمعاملتهم » وأثبت ما فى م ، ط .

وليس هكذا مَنْ لابَسَ السُّلطان بِنَفْسِه ، وقارَبَه بخدمته ؛ فإنَّ أُولئك لِباسُهم الذِّلَّة ، وشِعارُهم المَلَق ، وقلوبُهم ممَّن هم لهم خَوَلٌ مملوءةٌ ، قد لبِسها الرُّعب ، وأَلِفها الذُّلُّ ، وصحِبَها ترقُّبُ الاحتياج ؛ فهُمْ مع هذا فى تكدير وتنغيص ، خوفاً من سَطْوة الرَّئيس وتنكيل الصاحب ، وتَغيير الدُّوَل ، واعتِراض حُلول المِحَن . فإنْ هى حلَّتْ بهم ، وكثيراً ما تَحُلّ ، فناهِيكَ بهم مَرحُومين يرقُّ لهم الأَعداءُ فضلاً عن الأَولياء .

فكيف لا يُميِّز بين مَنْ هذا ثمرةُ اختياره[1] وغايةُ تحصيله ، وبَينَ من قد نال الرَّفاهية والدَّعَة[2] ، وسلِم من البَوائق ، مع كثرة الإثراء وقضاء اللَّذَّات ، من غير مِنَّةٍ لأَحد ، ولا مِنَّة يعتدُّ بها رئيس[3] ومن هو مِنْ نِعَم المُفْضلين خليٌّ ، وبين من قد استرقَّه المعروف ، واستعبدَه الطَّمَع ، ولزِمَه ثِقَل الصَّنيعة ، وطوَّق عُنقَه الامتنان ، واستُرهِنَ بتحمُّل الشُّكر .

٣ — فصـــل منها[4]

وقد علِم المُسلمون أَنَّ خِيرَة الله تعالى من خَلْقه ، وصَفِيَّه من عِباده ، والمُؤتَمن على وَحْيِه ، من أَهلِ بيتِ التِّجارة ، وهى معوَّلُهم وعليها مُعتَمَدهم ، وهى صناعةُ سَلَفهم ، وسِيرةُ خَلَفهم .

ولقد بلغتْك بَسالتُهم ، ووُصِفَتْ لك جَلَادتُهم ، ونُعِتَتْ[5] لك

---

(١) سقطت « من » من ب .

(٢) فى جميع الأصول : « الوفاعه » ، والصواب ما أثبت .

(٣) ب ، م : « يعتديها ليس » ط : « يعتدى بها » فقط . والوجه ما أثبت .

(٤) فصل منها ، ساقط من ب .

(٥) ب : « ونعيت » تحريف . ط : « ونعت » بتاء واحدة ، وأثبت ما فى م .

أحلامُهم ، وتقرَّر[1] لك سخاؤُهم وضِيافتُهم ، وبَذْلُهم ومُواساتُهم . وبالتِّجارة كانوا يُعرَفون . ولذلك قالت كاهنة اليمن[2] « لله درُّ الدِّيار لقريشٍ التُّجَّار » .

وليس قَولهم[3] : قرشيٌّ لقولهم : هاشميّ ، وزُهْرى وتَيْمى ؛ لأنَّه لم يكن لهم أبٌ يسمَّى قُريشًا[4] فينتسبون إليه ، ولكنَّه اسمٌ اشْتُقَّ لهم من التجارة والتَّقريش ، فهو أفخمُ أسمائهم وأشرف أنسابهم ، وهو الاسمُ الذى نَوَّه الله تعالى به فى كتابه ، وخَصَّهم به فى مُحكم وحيه وتنزيله ، فجعله قرآناً عربيًّا يُتلَى فى المساجِد ، ويُكتَب فى المصاحِف[5] ، ويُجهَر به فى الفرائِض ، وحُظْوة[6] على الحبيب والخالص .

ولهم سوقُ عُكاظ ، وفيهم يقول أبو ذؤيب :

إذا ضَربُوا القِبَابَ على عُكاظٍ ... وقامَ البيعُ واجتمعَ الأُلوفُ[7]

وقد غبر[8] النبيُّ صلى الله عليه وسلم بُرهةً من دهره تاجراً ، وشَخَصَ فيه مسافراً ، وباع واشترى حاضراً ، والله أعلمُ حيثُ يجعل رِسالتَه .

ولم يَقْسِم الله مذهباً رضيًّا ، ولا خُلقًا زكيًّا[9] ولا عملاً مَرْضيًّا إلَّا وحظُّه منه أوفَر الحظوظ ، وقَسْمُه فيه أَجزلُ الأَقسام .

---

(١) فى جميع الأصول : « وتقدر » ، والصواب ما أثبت .

(٢) من بنى سعد بن هذيم بن زيد بن ليث ، كما فى السيرة ٩٢ . وليث هذا هو ابن سود بن أسلم بن الحاف بن قضاعة . جمهرة ابن حزم ٤٤٧ .

(٣) فى جميع الأصول : « فوقهم » : ووجهه ما أثبت .

(٤) ب ، م : « قرشياً » ، صوابه فى م .

(٥) إشارة إلى سورة قريش .

(٦) ب ، م : « وحطوه » .

(٧) ديوان الهذليين ١ : ٩٨ برواية : « إذا بنى القباب على عكاظ » .

(٨) غبر : مكث . ب فقط : « عبر » ، تحريف .

(٩) ب فقط : « خلقياً » ، تحريف .

ولشهرة أمرِهِ فى البَيع والشِّراء قال المشركون : ﴿ مَا لِهَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ ويَمْشِي فِى الأَسْوَاقِ[١] ﴾، فأوحى الله إليه : ﴿ ومَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ المُرْسَلِينَ إِلَّا أَنَّهِمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ ويَمْشُونَ فى الأَسواقِ[٢] ﴾ . فأُخبر أنّ الأنبياء قبله كانت لهم صناعاتٌ وتجارات .

٤ — فصـــل منه

وإنَّ الذى دعا صاحبَك إلى ذمِّ التجارة توهمُه بقلَّة تحصيله ، انها تنقُص من العِلم والأدب وتقْتطع دونَهما[٣] وتمنع منهما[٤] . فأَىُّ صِنفٍ من العلم لم يبلغ التُّجَّار فيه غايةً ، أو يأْخذوا منه بنصيب . أو يكونوا رؤساءَ أَهلِهِ وعِليتَهُم ؟ !

هل كان فى التابعين أَعلمُ من سعيد بن المسيَّبِ أَو أَنْبَل ؟ وقد كان تاجراً[٥] يبيع ويشترى ، وهو الذى يقول : ماقَضَى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم وآله[٦] ولا أَبو بكر . ولا عُمرُ ،ولا عُثمانُ ،ولا علىٌّ — رضوان الله عليهم — قضاءً إلَّا وقد علمتُه .

وكان أَعبَرَ النَّاس للرُّؤيا وأَعلمَهُمْ بأَنساب قريش . وهو مَن كان يُفْتى أَصحابَ رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم متوافرون . وله بَعْدُ[٧] علمٌ بأَخبار الجاهليَّة والإسلام ، مع خشوعِهِ وشدَّة اجتهادِهِ وعبادته ،

(١) الآية ٧ من سورة الفرقان .
(٢) الآية ٢٠ من سورة الفرقان .
(٣) ب ، م : « ويقتطع دونهما » ، تحريف .
(٤) ب ، م : « ويمنع منهما » .
(٥) م : « وكان تاجراً » .
(٦) وآله ، ساقطة من ب .
(٧) م : « بعض » ، تحريف .

وأمرِه بالمعروف، وجَلالته فى أعينِ الخُلفاءِ . وتقدُّمه على الجبَّارين .

ومحمَّد بن سيرين فى فقهه وورَعه وطَهارته .

ومُسلم بن يسارٍ [١] فى علمه وعبادته ، واشتغالِهِ بطاعة ربِّه .

وأيُّوبَ السَّختيانىِّ [٢] ، ويونُسَ بنِ عبيد [٣] ، فى فضلهما وورعهما .

---

(١) مسلم بن يسار البصرى الأموى . روى عن أبيه وابن عباس وابن عمر ، وروى عنه ابنه عبد الله ، ومحمد بن سيرين ، وأيوب السختيانى وغيرهم . وكان مفتى أهل البصرة قبل الحسن . وكان إذا كان فى غير صلاة كأنه فى صلاة ، وإذا كان فى صلاة كأنه وتد لا يتحرك شىء منه . توفى فى خلافة عمر بن عبد العزيز سنة مائة ، أو إحدى ومائة . تهذيب التهذيب .

(٢) ب ، م : « السجستانى » . ط : « السخستيانى » ، والصواب ما أثبت . نسبته إلى عمل السختيان وبيعه ، والسختيان : جلود الضأن . انظر تقريب التهذيب ولب اللباب . وفى القاموس : «والسختيان ويفتح : جلد الماعز إذا دبغ . معرب» . وهو أيوب بن أبى تميمة كيسان ، أبو بكر البصرى ، روى عن عطاء وعكرمة وعمرو بن دينار ، وعنه : الأعمش من أقرانه ، وقتادة وهو من شيوخه ، والحمادان والسفيانان وغيرهم . ولد سنة ٦٦ وتوفى سنة ١٢٥ . تهذيب التهذيب . وصفة الصفوة ٣ : ٢١٢ .

(٣) فى الأصول : « يوسف بن عبيد » ، وإنما هو « يونس » كما فى تهذيب التهذيب . وصفة الصفوة ٣ : ٢٢٢ . توفى سنة ١٣٩ . وانظر الحيوان ١ : ١٦٧ ، ٣٤٠ ، والبيان ١ : ٢٢٠ / ٢ : ٢٢٠ / ٣ : ١٢٥ ، ١٣١ ، ١٧١ .

٢٧

من كتابه في

الشارب والمشروب

١ – فصل

من صدر كتابه فى الشارب والمشروب(١)

سأَلتَ – أكرمَ اللهُ وجْهَك ، وأدامَ رُشدك ، ولطاعته توفيقك ، حتّى تبلغ من مصالح دينك ودُنياك منازلَ ذوِى الألباب ، ودرجاتِ أهلِ الثّواب – أن أكتبَ لك صفاتِ الشّارب والمشروب وما فيهما من المَدْح والعيوب ، وأن أُميِّز لك بين الأنبذة والخَمْر ، وأن أَقِفَك على حدِّ السُّكر ، وأن أُعرِّفَك السَّببَ الذى يرغِّب فى شُرب الأنبذة وما فيها من اجتلاب المَنْفعة ، وما يُكرَه من نبيذ الأوعية .

وقلت : وما فرقُ ما بين الجَرِّ(٢) والسِّقاء ، والمزَفَّت والحَنْتَم والدُّبَّاءِ(٣) ، وما القولُ فى المُمْتَلِّ(٤) والمكسوب ، وما فرق ما بين النَّقيع والدَّاذىِّ(٥) ، وما المطبوخُ والباذَق(٦) ، وما الغرْبىُّ والمروَّق(٧) ، وما الذى يَحِلُّ من الطَّبيخ ، وما القول فى شُربِ الفضيخ ، وهل يُكره نبيذُ العَكَر(٨) ،

---

(١) الكامل ٢ : ٣٥١ – ٢٦٩ ، وريشر ١٦٣ – ١٦٨ ، والسندوبى ٢٧٦ – ٢٨٥ .
وهذا السجع الشائع فى صدر هذا الكتاب ، إنما هو حكاية لقول السائل . أما صميم كلام الجاحظ ورده على السائل فهو يبدأ فى ص ٢٧٣ .

(٢) الجر : جمع الجرة من الخزف ، وتجمع أيضاً على « جرار » . وفى ط : « الجرار » .

(٣) الحنتم : جرار خضر . والدباء ، كرمان : القرع .

(٤) الممتل ، أراد به المملول ، وهو المعالج بالملة ، وهى الرماد الحر . ويماثله « المسجور » الذى سيرد فى ٢٦٧ . وفى ط : « المختل » تحريف .

(٥) الداذى : شىء له عنقود مستطيل ، وحبه على شكل حب الشعير ، يوضع منه مقدار رطل فى الفرق فتعبق رائحته ويجود إسكاره .

(٦) الباذق ، بفتح الذال وكسرها : الخمر الأحمر ، هو بالفارسية « باذه » ، وهو اسم الخمر بالفارسية .

(٧) الغربى : الفضيخ من النبيذ ، وهو عصير العنب ، أو شراب يتخذ من البسر المفضوح وحده دون أن تمسه النار ، وهو المشدوخ . والمروق : المصفى بالراووق ، وهو المصفاة .

(٨) العكر : دردى كل شىء ، من ماء أو نبيذ أو نحوها .

وما القول فى عتيق السُّكَر ، وأنبِذة الجِرار[١] ، وما يعمل من السكَّر ، ولم كُرِه النَّقير والمقيَّر[٢] .

وسألتَ عن نبيذ العسل والعرطبات[٣] وعن رزين سُوق الأَهواز[٤] ، وعن نَبيذ أبى يُوسُف وجمهور[٥] ، والمعلَّق والمسْحُوم[٦] . والحلو والتُّرش شِيرين[٧] ونبيذ الكِشمِش[٨] والتِّين ، ولم كُرِهَ الجلوسُ على البواطى والرَّياحين[٩] .

وقلت : وما نصيب الشَّيطان ، وما حاصل الإنسان ؟

وسألتَ عمَّن شرب الأَنبذَةَ أَو كرِهَها من الأَوائل ، وما جرى بينهم فيها من الأَجوبة والمسائل ، وما كانوا عليه فيها من الآراءِ ، وتشبَّثوا فيها من الأَهواءِ[١٠] ، ولأَىِّ سببٍ تضادَّت فيها الآثار ، واختلفت فيها الأَخبار .

---

(١) ب ، م : « الجرر » ، صوابه فى ط .

(٢) النقير : أصل النخلة ينقر وسطه ثم ينبذ فيه التمر ويلقى عليه الماء فيصير نبيذاً مسكراً. والمقير : المطلى بالقار من حب أوزق .

(٣) ط : « القرطبات » .

(٤) سيأتى فى ٢٦٩ س ١٠ : « وماتقول فى رزين الأهواز » .

(٥) ط : « والجمهور » .

(٦) م : « المسخوم » بالخاء المعجمة .

(٧) فسره الجاحظ فى الحيوان ١ : ١٤٣ بأنه الحلو الحامض . وهو مركب من ترش بضم التاء بمعنى حامض . وشيرين بمعنى حلو . وانظر معجم استينجاس ٢٩٤ ، ٧٧٤ .

(٨) الكشمش : ضرب من العنب ، وهو كثير بالسراة ، كما فى اللسان . م : «المشمش» وهو ضرب من الفاكهة، قال ابن دريد : لاأدرى ماصحته . وفى اللسان: « وأهل الكوفة يقولون المشمش — أى بفتح الميمين — وأهل البصرة : المشمش — يعنى بكسر الميمين ، يعنى الزردالو . وسترد فى ٢٧١ برسم واحد هو « الكشمش » .

(٩) البواطى : جمع باطية ، وهى إناء عظيم من الزجاج يملأ من الشراب ويوضع بين الشرب يغرفون منها ويشربون ، إذا وضع فيها القدح سبح به ورقصت من عظمها وكثرة مافيها من الشراب .

(١٠) ط : « وتثبتوا فيها » م : « من الأهواز » ، محرفتان .

وسألتَ أن أقصِدَ فى ذلك إلى الإيجاز والاختصار ، وحذف الإكثار

وقلت : وإذْ جعَلَ الله تعالى للعباد عن الخمر المندوحَةَ بالأشربةِ[(١)] الهنيَّة الممدوحة ، فما تَقول فيما حَسُن من الأنبذة صَفاهُ[(٢)] ، وبَعُد مداهُ ، واشتدَّت قُواه ، وعتق حتّى جاد ، وعاد بعد قِدَم الكون[(٣)] صافِىَ اللَّون ، هل يَحِلُّ إليه الاجتماع ، وفيه الاكتراع ، إذْ كان يهضِمُ الطَّعام ويُوطِّئ المنام . وهو فى لطائف الجسم سارٍ ، وفى خفيَّات العروق جارٍ ، ولا يضرُّ معه[(٤)] برغوثٌ ولا بعوض ولا جرجِسٌ عَضوض[(٥)] .

وقلت : وكيف يَحلُّ لك تَرْكُ شُربه إذا كان لك موافقاً ، ولجسمك ملائِماً[(٦)] . ولِمَ لا قلت إنَّ تارك شُربِه كتاركِ العلاج من أدوإِ الأَدواء[(٧)] وإنَّه كالمُعينِ على نفسه إذا ترك شربه أفحَشَ الدَّاء . وأنت تعلم أنَّك إذا شرِبتَه عَدَّلتَ به طبيعتَك ، وأصلحت به صُفَار جسمك[(٨)] ، وأظهرتَ به حُمرةَ لونك . فاستبدلت به من السَّقَم صِحّة ، ومن حُلول العَجْز قوَّة ، ومن الكَسَل نشاطاً ، وإلى اللَّذّة انبساطاً ، ومن الغَمِّ فَرَجاً ، ومن الجمود تحرُّكاً[(٩)] ، ومن الوَحْشة أُنساً . وهو فى الخَلْوة خيرُ مسامرٍ ، وعند الحاجة خيرُ ناصر . يترك الضَّعيف وهو مثلُ أسَدِ العرين[(١٠)] يُلانُ له ولا يلين .

(١) ب فقط : « بالأنبذة » .
(٢) أى صفاؤه . وفى ط : « وصفا » .
(٣) عبارة عن العتق وتقادم العهد ، وسيأتى مثل هذه العبارة فى ص ٢٦٨ .
(٤) م ، ط : « لايضر » بدون واو .
(٥) الجرجس : بعوض صفار . ط : « جرس » ، تحريف .
(٦) ب ، م : « ملاوماً » ، صوابه فى ط .
(٧) ب ، م : « من الأدواء » وفى ط : « من أدواء الأدواء » ، والوجه ماأثبت . أى من أشد الأمراض .
(٨) الصفار ، بالضم : صفرة تعلو اللون والبشرة . وصاحبه مصفور .
(٩) ب : « من الحمور » بالحاء المعجمة .
(١٠) ط : « مثل الأسد فى العرين » .

وقلت : الجيِّد من الأنبذة يُصفِّي الذِّهن ويقوِّي الرُّكن ، ويشدُّ القلبَ والظَّهر ، ويمنع الضَّيم والقَهر ، ويشحذ المَعِدة ، ويهيِّج للطعام الشَّهوَة، ويقطع عن إكثار الماء، الذى منه جُلُّ الأَدواءِ[١] ، ويَحدِرُ[٢] رُطوبة الرَّأس ، ويهيِّج العُطاس، ويشُدُّ البَضْعة ، ويزيد فى النُّطفة ، ويَنْفِي القرقرة والرِّياح ، ويبعث الْجودَ والسَّماح ، ويمنع الطِّحال من العِظَم ، والمَعِدَةَ من التَّخَم ، ويَحدِر المِرَّة والبلغم ، ويلطِّف دمَ العروق ويُجرِيه ، ويُرقِّقُه[٣] ويصفِّيه، ويَبسط الآمالَ ، ويُنْعِم البال، ويغشِّي[٤] الغِلظَ فى الرِّئة ، ويصفِّى البَشَرة ويترك اللَّون كالعُصفُر ، ويَحْدِر أذَى الرَّأس فى المُنخُر ، ويموِّه الوَجْه[٥] ويسخِّن الكُلية ، ويَلذُّ النَّوم ويُحَلِّل التَّخَم ، ويَذهب بالإعياء ، ويغذو لطيفَ الغذاء ، ويطيِّب الأنفاس ، ويطرُد الوَسواس ، ويُطرِب النَّفس ، ويُؤنِس من الوحْشَةِ ، ويسكِّن الرَّوعة ، ويُذهب الحِشْمة ، ويقذف فُضولَ الصُّلب بالإنشاط للجِماع ، وفُضول المَعِدة بالهُرَاع[٦] ، ويشجِّع المرتاع ويُزْهِى الذَّليل ، ويُكثِّر القليل ، ويزيد فى جَمَال الجميل ، ويسلِّي الحُزْن ويجمع الذِّهن ، وينفى الهمَّ[٧] ، ويَطرُد الغَمّ ، ويكشف عن قناع الحَزْم ، ويولِّد فى الحليم الحلم ، ويكفِى أضغاث الحُلْم[٨] ، ويحثُّ على الصَّبر ، ويصحِّح من الفكر ، ويُرَجِّى القانط[٩] ، ويُرضِي الساخط ، ويُغْنِي عن الجليس ، ويقوم مقام الأَنيس

(١) ط : « الذى جل الأدواء منه » .
(٢) ب : « ويحد » م : « ويحذر » ، صوابهما فى ط . يحدرها : ينزلها ويذهب بها .
(٣) ط : « ويرققه » .
(٤) ب : « ويفشى » .
(٥) قال ابن برى : « يقال وجه مموه ، أى مزين بماء الشباب » .
(٦) أصل الهراع ، بالضم : شدة السوق ، وسرعة العدو . والمراد سرعة الانحدار .
(٧) ط : « ويذهب الهم » .
(٨) يكفيها : يمنعها . والأضغاث : الأخلاط الملتبسة .
(٩) القانط : اليائس . يرجيه ترجية : يبعث إليه الرجاء .

وحتَّى إن عَزَّ لم يقْنَطْ(١) مِنه، وإنْ حَضَر لم يصبِرْ عنه ، يدفع النوازلَ العظيمة ، وينقِّى الصَّدر من الخصومة . ويزيد فى المَسَاغ ، وسُخونة الدماغ ، وينشِّط الباه(٢) حتَّى لا يزيِّف شيئاً يراه ، وتقبله(٣) جميعُ الطَّبائع ،ويمتزج به صُنوفُ البدائع ،من اللَّذَّة والسُّرور ،والنَّضرة والحبُور(٤) . وحتَّى سمِّىَ شُربُه قصفاً(٥)، وسمى فقدُه خَسْفاً . وإنْ شُرِبَ منه الصِّرفُ بغير مزاج ، تحلَّل بغير علاج . ويَكفى الأحزان والهُموم ، ويَدفَع الأهواءَ والسُّموم ، ويفتح الذِّهن ، ويمنع الغبْن(٦) ، ويلقِّن الجواب ، ولا يكيد منه العِتاب(٧) ، به تمام اللذَّات ، وكمالُ المروءات . ليس لِشىءٍ كحلاوته فى النُّفوس ، وكسطوته فى الجِباه والرُّوس ، وكإنشاطه للحديث والجلوس ، يحمِّر الألوان ، ويُرطِّب الأبدان ، ويَخلع عن الطَّرب الأرسان .

وقلتَ : ومع كل ذلك فهو يُلجلجُ اللسان(٨) ، ويُكثر الهذيان ، ويُظهر الفضول والأخْلاط(٩) ، ويُناوِب(١٠) الكَسلَ بعد النَّشاط . فأمَّا إذا تبيَّن فى الرأس المَيَلانُ ، واختلف عند المَشْىِ الرجلان ،وأكثَرَ الإخفاق(١١) ،والتنحُّع

---

(١) عز ، أى قل وندر . ب ، م : « لم يقبض منه » ، صوابه فى ط .

(٢) ب ، م : « الباه » .

(٣) ب ، م : « ويقبله » .

(٤) والحبور ، ساقطة من ب .

(٥) القصف : الإقامة فى الطعام والشراب واللهو . ب ، م « مصفاً » ط : « حصفاً » ، صوابهما ما أثبت .

(٦) ب ، م : « الغين » ، صوابه فى ط .

(٧) لعلها « ولا يكثر منه العتاب » .

(٨) هذا ما فى ط . وفى ب ، م : « وكل ذلك أن يتلجلج اللسان » .

(٩) فى جميع الأصول : « والاختلاط » .

(١٠) ب ، م : « ويتاوب » .

(١١) خفق القلب ، وأخفق ، واختفق ، كله اضطرب .

والبُصَاق، واشتملت عليه الغَفْلة ، وجاءت الزَّلَّة بعد الزَّلَّة[(١)] ولا سواءٌ إنْ دَسَع بطعامه[(٢)] ، أو سال على الصَّدر لُعابه ، وصار فى حدِّ المُخْرَفين[(٣)] ، لا يفهم ولا يُبِين ، فتلك[(٤)] دَلالات النُّكر ، وظهورُ علامات السُّكر . يُنْسِى الذكر ،ويُورث الفكر ،ويهتِك السِّترَ،ويُسقِط من الجدار . ويُهوِّر فى الآبار، ويُغْرِق فى الأنهار ، ويَصرف عن المعروف[(٥)] ، ويعرِّض للحتوف . ويحمل على الهَفْوة ، ويؤكِّد الغفلة ، ويُورث الصِّياح أو الصُّمات[(٦)] ، ويصرع الفهم للسُّبات[(٧)] فلغير معنًى يضحك، ولغيرِ سببٍ يَمْحَك[(٨)] . ويَحيد عن الإنصاف ، وينقلب على الساكت الكافّ[(٩)] . ثم يُظهر السَّرائر ، ويُطلِع على ما فى الضمائر ، من مكنون الأَحقاد ، وخفِىّ الاعتقاد .

وقد يقلّ على السُّكر المتاع ، ويطول منه الأَرق[(١٠)] والصُّداع ، ثم يُورث بالغَدَوات الخُمَار ، ويختل[(١١)] سائر ، النَّهار ويمنع من إقامة الصَّلوات ، وفهم الأَوقات ، ويُعْقِب السّلّ ، ويُعقِب فى القلوب الغِلّ ، ويجفِّف النُّطفة ، ويُورِث الرِّعشة ، ويولِّد الصُّفار[(١٢)] ، وضُروبَ العلل فى الإبصار ، ويُعقِب

---

(١) بعد الزلة ، ساقط من ط .
(٢) دسع بطعامه : قاءه .
(٣) المخرف : الذى أخرفه الهرم . ب فقط : « المحرفين » تحريف .
(٤) م : « قبلك » ط : « قبل » ، صوابهما فى ب .
(٥) ط : « ويعوق عن المعروف » .
(٦) فى جميع الأصول : « والصمات » ، والوجه ما أثبت .
(٧) ب : « ويسرع الفهم للثبات » .
(٨) المحك : المشارة والمنازعة فى الكلام .
(٩) فى جميع الأصول : « الكافى » .
(١٠) ب ، م : « الزق » ، صوابه فى ط .
(١١) ب ، م : « ويحتل » .
(١٢) انظر ما سبق فى ص ٢٦٣ .

الهزَال ، ويُجحف بالمال[١] ويجَفِّف الطبيعة[٢] ويقوِّى الفاسد من المِرَّةِ[٣] ويُذِيل النفس[٤] ، ويُفسِد مِزاج الحِسّ[٥] ، ويُحدِث الفُتورَ فى القلب ، ويُبطئ عند الجِماع الصَّبَّ ، حتَّى يحدثَ من أجله الفَتْق ، الذى ليس له رَتْق ، ويحمل على المظالم ، وركوب المآثم ، وتضييع الحقوق حتَّى يقتل من غير علم ، ويكفر من غير فَهم .

٢ – فصــــل منه

وقلتَ : ومِنَ الحُلْو فى المِعِدِ[٦] التُّخَمِ ، وفى الأَبدان الوَخَم ، وللتُّرش شِيرين رياحٌ[٧] كمثل رياح العَدَس ، وحُموضةٌ تولِّد فى الأَسنان الضَّرَس.

والسَّكَر فحسبك[٨] بفرط مرارته ، وكُسوفِ لونه ، وبشاعة مَذَاقه ، ولِفارِ الطَّبيعة عنه .

وأنواع مايُعالَج من التُّمور والحبوب فشُربُها الدَّاءُ العُضال .

وللمسجور[٩] ، والبتى[١٠] ، وأشباهها كُدورةٌ تَرسُب فى المِعدة ، وتولِّد بين الجِلدتين الحِكَّة . وأشباه هذا كثيرةٌ تركتُ ذِكرها ، لأنِّى لم أَقْصِدْك بالمسأَلة أَبتغى منك تحليل مايَجلِبُ المَضرَّة .

---

(١) ب : « ويخفف بالمال » م : « ويحطف » ، صوابهما فى ط .
(٢) ب : « ويخفف الطبيعة » ، صوابه فى م ، ط .
(٣) فى جميع الأصول : « المروة » ، والوجه ما أثبت .
(٤) ب : « وبذل النفس » ، صوابه فى م ، ط .
(٥) ط : « الحسن » .
(٦) المعد : جمع معدة . ط فقط : « المعدة » ، ووجهه فى ب ، م
(٧) سبق تفسير الترش شيرين فى ٢٦٢ . وفى ط : « ويولد للكرش رياحاً » ، تحريف .
(٨) السكر ، بالتحريك : الخمر نفسها ، أو شراب يتخذ من التمر والكشوث والآس . ط : « حسبك » بدون فاء .
(٩) المسجور : يبدو أنه المعالج بالتنور . وانظر ماسبق من الكلام على « الممتل » فى ٢٦١ .
(١٠) كذا وردت فى جميع النسخ .

ولكن ما تقول فيما يسرُّك ولا يسوءك ، وما إذا شربْتَه تلقَّتْه العروق فاتحةً أفواهَها كأفواه الفِراخ[١] ، محسِّنةً للَّون مَلذَّةً للنَّفس، يجشُم[٢] على المعدة ، ويَرُود[٣] فى العروق ، ويَقصِد إلى القلب فيولِّد فيه اللَّذَّة ، وفى المَعِدة الهَضْم ، وهو غَسُولها ونَضُوحها[٤] ، ويُسرع إلى نَاعة الكبد ، ويَفيض بالعَجَل إلى الطِّحال ، وينتفخ منه العروق[٥] ، وتظهر حُمرتُه بين الجلدتين ، ويَزيد فى اللَّون ، ويولِّد الشَّجاعةَ والسَّخاء ، ويُريح من اكتنان الضِّغن ، ويُعفِّى على تغيُّر النَّكهة ، ويَنفِى الذَّفر[٦] ، ويُسرع إلى الجَبْهة ، ويُغنى عن الصِّلاء ، ويمنع القُرّ ؟!

وما تقول فى نبيذ الزَّبيب الحِمْصىّ[٧] والعَسَل الماذىّ[٨] إذا تورَّد لونُه ، وتقادَمَ كونُه[٩] ، ورأيتَ حُمرتَه فى صفرته تَلوح[١٠] . تَراه فى الكأس لكأنَّه[١١] بالشَّمس ملتحف ، شُعاعُه يَضْحَك فى الأكفّ ؟

وما تقول فى عَصير الكَرْم إذا أَجَدْتَ طبخَه وأنعمتَ إنضاجَه ، وأَحسَنَ الدَّنُّ نِتاجَه ، فإذا فُضَّ فُضَّ عن غَضَارة[١٢] قد صار فى لَون

---

(١) فى جميع الأصول : « الفرخ » ، والوجه ما أثبت .

(٢) يجثم على المعدة : يثقل عليها . ب : « يحم » م : « لجثم » صوابهما فى ط .

(٣) يرود : يذهب ويجىء . ط فقط : « يزود » ، تحريف .

(٤) النضوح من النضح ، وهو الرش بالماء . والنضوح : الوجور ، وهو الدواء يوجر فى أى موضع من الفم كان . ط فقط : « ونضوجها » ، تحريف .

(٥) ط : « وينفخ منه » فقط ، بسقوط كلمة « العروق » .

(٦) الذفر ، بالذال المعجمة : النتن ، وخص به الحيانى نتن الإبطين . ب فقط : « الزفر » ، تحريف .

(٧) نسبة إلى حمص ، إحدى مدن الشام . ط فقط : « الحمص » تحريف .

(٨) الماذى : العسل الأبيض . ط فقط : « المازى » تحريف .

(٩) انظر مثل هذا التعبير فيما سبق ص ٢٦٣ . والمراد به العتق .

(١٠) ب ، م : « يلوح » .

(١١) ط : « كأنه » .

(١٢) الغضارة : النعمة والطيب والخصب . ب : « فإذا أفضى ففى عن عضارة » ، والصواب فى م ، ط .

البِجادى[(١)] فى صفاءِ ياقوتةٍ تلمع فى الأكفّ لمعَ الدّنانير ، ويضىءُ كالشّهاب المتّقد .

وما تقول فى نبيذ عَسَلِ مصر ، فإنّه يؤدّى إلى شاربه الصّحيح من طَعْم الزّعفران ، لا يُلبَس الْخُلْقان[(٢)] ولا يَجودُ إلاَّ فى جُدُد الدّنان ، ولا يَستخدم الأنجاس[(٣)] ولا يَتألف الأرجاس[(٤)] . وكذلك لا يزْكو[(٥)] على علاج الجُنُب والحائض[(٦)] ، ولا ينفُضُ[(٧)] على شىءٍ من الأجسام لونَه حتّى لو غُمِس فيه قطنٌ لخرجَ أبيضَ يَقَقاً[(٨)] . وحسبك به فى رقّة الهواء ، يكدّره صافى الماء ، وهو مع ذلك كالهِزَبْر ذى الأشبال ، المفترس للأقران ، مَنْ عاقره عقَره ، ومن صارعه صَرَعَه ؟!

وما تقول فى رزين الأهواز[(٩)] من زبيب الداقياد[(١٠)] إذ يعود[(١١)] صُلباً من غير أن يُسَلّ سُلافُه[(١٢)] ، أو يُماط عنه ثُفْله[(١٣)] ، حتّى يعود كلون

---

(١) البجادى : حجر يشبه الياقوت بعض الشبه ، وهو أحمر تشوبه صفرة خلوقية . وهو بالفارسية : « بيجاد » . انظر نخب الذخائر لابن الأكفانى ١٧ — ١٩ وأزهار الأفكار للتيفاشى ١٠٠ — ١٠٣ . وفى جميع الأصول : « البحارى » ، تحريف .

(٢) الخلقان ، بالضم : جمع خلق ، بالتحريك ، وهو البالى من الثياب . ط : « مالا يلبس الخلقان » .

(٣) فى جميع الأصول : « الأجناس » ، وأثبت مايلائم « الأرجاس » .

(٤) ب ، م : « ولا تألف » ، صوابه فى ط .

(٥) ب ، م : « لاتزكوا » ، صوابه فى ط .

(٦) أى لايصلح إلا بمعالجة من كان على طهارة .

(٧) ينفض لونه عليه ، أى يعطيه اللون نفسه . وفى جميع الأصول : « ينقص » ، والوجه ما أثبت .

(٨) اليقق : الشديد البياض . وفى ب ، م : « يقفا » ، صوابه فى ط .

(٩) انظر ما سبق فى ص ٢٦٢ .

(١٠) يبدو أنه موضع ، أو ضرب من العنب .

(١١) ب : « يقول » م ، ط : « يقود » ، والوجه ما أثبت .

(١٢) السلاف والسلافة : أفضله وأخلصه . ط : « يسيل سلافة » .

(١٣) الإماطة : الإزالة . والثفل بالفاء : ما رسب من الكدر فى أسفل الشىء ، أو ماعلا منه فوق الصفو . ب ، م : « عن ثقله » ، صوابه فى ط .

العقيق، فى رائحة المِسك العتيق . أصلب الأنبذةِ عريكةً ، وأصلبُها صلابة ، وأشدُّها خشونة . ثمَّ لا يستعين بعَسَلٍ ولا سُكَّر ولا دُوشاب[1] وما ظنُّك[2] به وهو زبيبٌ نقيعٌ ، لا يشتدُّ ولا يَجُودُ إلَّا بالضَّرب الوجيع ؟!

وما تقول فى الدُّوشاب البُستانىِّ ، سُلالةِ الرُّطَبِ الجَنِىِّ[3] بالحُبِّ الرتيلىِّ[4] ، إذا أُوجِعَ ضَرباً ، وأُطيل حَبْسا ، وأعطَى صَفْوَهُ ومَنَح رِفدَهُ[5] ، وبَذَل ماعنده ، فإذا كُشِفَ عنه قِناعُ الطِّين ظهر فى لون الشُّقْر والكُمْت[6] وسَطَع برائحة كالمِسكِ . وإذا هَجَم على المعدة لانت له الطَّبائع ، وسَلِسَت[7] له الأمعاءُ ، وأَيِسَ الحُصْر[8] ، وانقطع طمع القُولَنج[9] ، وانقادت له

---

(١) الدوشاب : نبيذ العنبِ أوِ التمر ، كما فى معجم استينجاس ٥٤٤ . وفى شفاء الغليل ٨٧ أنه نبيذ التمر ، معرب . وأنشد لابن المعتز :

لا تخلط الدوشاب فى قدح بصفاء ماء طيب البرد

ولابن الرومى :

على أحمد من الدوشاب شربة نغصت على شبابى

قال : وفسر فى شرحه بالنبيذ الأسود . وقال السمانى : إنه الدبس بالعربية .

(٢) ب ، م : « ولا ماظنك به » ، تحريف مافى ط .

(٣) الجنى : المجتنى مادام رطباً . وفى الكتاب العزيز : « تساقط عليك رطباً جنياً » . ب ، م : « الحنى » بالحاء المهملة ، تحريف مافى ط .

(٤) هذا مافى م ، ط . وفى ب : « الرتيلى » ، ولعله ضرب من الحباب والجرار التى يختزن فيها الشراب .

(٥) ب ، م : « صفوة » صوابه فى ط . ب فقط : « رفدة » ، صوابه فى م ، ط .

(٦) ب ، م : « من لون » ، صوابه فى ط . وفى ب : « والكميت » صوابه فى م ، ط . وهما جمع أشقر وكيت .

(٧) ب : « سلسلت » ، ط : « سليت » ، صوابهما فى م .

(٨) الحصر ، بالضم وبضمتين : احتباس البطن . كما أن الأسر ، بالضم وبالفتح : احتباس البول .

(٩) القولنج ، بضم القاف وفتح اللام وكسرها ، وقد تفتح القاف : مرض معوى مؤلم يعسر معه خروج الثفل والريح . ذكر فى القاموس ولم يذكر فى اللسان . وفى شفاء الغليل ١٥٤ : « قولنج ونقرس ذكرهما فى فقه اللغة ، وهما مما عربه المولدون » . وفى المعجم الوسيط : « وسببه التهاب القولون » . وذكر أن القولون بضم القاف واللام ، هو المعى الغليظ الضيق الذى يتصل بالمستقيم . وأنه دخيل فى العربية . ب ، م : « القلنج » ، صوابه فى ط .

اليُبوسة ، وأذعنت له بالطَّاعة ، وابتلَّ به الجلْد القَحْل(١) ، وارتحل عنه البَاسور ، وكفَى شاربَه الوخز(٢) . فإذا شُجَّ(٣) بماءٍ تَلَظَّى ورَمَى بَشَرِهِ ، هل يحلُّ أن يُشَعشَع إذا سكَن جأشُه(٤) ، وآبَ إليه حلمه(٥) .

وما تقول فى المعتَّق(٦) من أنبذة التَّمر ، فإنَّك تنظر إليه وكأنَّ النِّيران تلمَعُ من جَوْفه . قد ركدَ ركودَ الزُّلال(٧) حتَّى لكأنَّ شاربه يَكرع فى شهاب ، ولكأنه فِرِندٌ فى وجه سيف(٨) . وله صفيحةُ مرآةٍ مَجْلوَّةٍ(٩) تحكى الوُجودَ فى الزُّجاجة ، حتَّى يَهِمَ فيها الجُلَّاس(١٠) ؟!

وما تقول فى نبيذ الجَزَر ، الذى منه تمتدُّ النُّطفة وتشتدُّ النُّقطة ، يجلب الأَحلام ، ويركُد فى مُخِّ العظام ؟!

وما تقول فى نبيذ الكِشْمِش(١١) الذى لونُه لون زُمرُّدةٍ خضراء ، صافية ، محكَمِ الصَّلابة ، مُفْرِطِ الحرارة ، حديدِ السَّورة(١٢) ، سريع الإفاقة

(١) القحل : اليابس . ب فقط : « المقحل » ، تحريف .

(٢) أى وخز الباسور وألمه . ب ، م : « التوخر » ، صوابه فى ط .

(٣) شج بالماء : خلط . ومنه قول المسيب بن علس (فى المفضليات ٦١) :

ومها يرف كأنه إذ ذقته عانية شجت بماء يراع

وقول كعب بن زهير (فى ديوانه ٧) :

شجت بذى شبم من ماء محنية صاف بأبطح أضحى وهو مشمول

وفى ب : « سنحى » ، وفى م ، ط : « سنح » ، صوابهما ما أثبت .

(٤) والشعشعة كذلك : مزج الشراب بقليل من الماء .

(٥) آب : رجع . ب ، م : « واباليه » تحريف ما أثبت . وفى ط : « وأيل حلمه » ، تحريف كذلك .

(٦) ب ، م : « المفلق » ط : « المغلق » ، صوابهما ما أثبت .

(٧) ط فقط : « الذلال » .

(٨) الفرند : مايرى فى صفحة السيف من أثر تموج الضوء . ب ، م : « ولكأن فرندد فى وجه سيف » ، صوابه فى ط .

(٩) ب : « تجلو » ، صوابه فى م ، ط .

(١٠) يهم ، من الوهم . وفى جميع النسخ : « حتى يفهم فيها » .

(١١) الكشمش ، سبق تفسيره فى ص ٢٦٢ .

(١٢) سورة الشراب : شدته وحدته . ب فقط : « حديدة السورة » ، تحريف .

عظيم المُؤْنة ، قصير العمر[(١)] ، كثير العلل ، جَمٌّ البَدَوات[(٢)] تطمع الآفات فيه ، وتُسرع إليه ؟!

وما تقول فى نبيذ التِّين فإنَّك تعلم أَنَّه مع حَرارته لَيِّن العَريكة ، سَلِسُ الطَّبيعة ، عَذْبُ المذاق ، سريع الإطلاق ، مِرْهَمٌ للعُروق ، نضوحٌ للكبد[(٣)] فتَّاحٌ للسُّدَد ، غسَّالٌ للأمعاء ، هَيَّاجٌ للباه ، أَخَّاذٌ للسِّمَن ، جَلَّاب للمُؤَن ، مع كسوفِ لونٍ وقُبحِ منظر ؟!

وما تقول فى نبيذ السكَّر الذى ليس مقدارُ المنفعة به على قَدر المَؤُونة فيه ، هل يوجد فى المحصول لشربه معنًى معقول ؟!

وما تقول فى المروَّق والغَرْبِىّ[(٤)] والفَضيخ[(٥)] ؟ أَلذُّ مَشْروباتٍ فى أَزمانها وأَنفع مأْخوذاتٍ فى إبَّانها[(٦)] . أَقلُّ شىءٍ مَؤونة ، وأَحسنُه معونة ، وأَكثر شىءٍ قنوعاً ، وأَسرعُه بلوغاً ، ضموزات[(٧)] عَرُوفات[(٨)] للرجل أُلُوفات. ولها أَراييح على الشاهِسْفَرم[(٩)] كأَذكى رائحةٍ تُشَمّ ، أَقلُّ المشروبات صُداعاً ، وأَشدُّهن خِداعا .

(١) ب ، م : « كثير قصير العمر » . وكلمة « كثير » مقحمة .

(٢) أى تغير الحالات ، وأصله الرجل ذى الآراء الكثيرة تعرض له فيختار بعضاً ويسقط بعضاً . ب ، م : « البدات » صوابه ما أثبت . وفى ط ، « الهبات » .

(٣) نضوح من النضح ، وهو الرش بالماء أو الطيب ، وتسكين العطش . م ، ط : « نضوج » تحريف . وانظر ماسبق فى ص ٢٦٨ .

(٤) سبق تفسيره فى ص ٢٦١ .

(٥) الفضيخ سبق القول فيه فى ص ٢٦١ . ب ، م : « والفصيح » صوابه فى ط .

(٦) ط : « ألذ المشروبات فى أزمانها وأنفع المأخوذات فى إبانها » .

(٧) الضموزات ، من الضموز ، وهى الحية المطرقة ، أو الشديدة . والضموز أيضاً : الساكت لايتكلم . وفى الأصول : « ضمورات » ولا وجه له .

(٨) العروف والعروفة : الصابر المحتمل . ب فقط : « عقورات » تحريف . وفى ب ، م : « تجعل » ، وأثبت مافى ط وفيها : « الرجل الوافى » . وفى ب ، م : « الوقات » والوجه ما أثبت .

(٩) الشاهسفرم : ضرب من الرياحين يقال له ريحان الملك . قال أبو حنيفة : هى فارسية دخلت فى كلام العرب . قال الأعشى :

وشاهسفرم والياسمين ونرجس يصبحنا فى كل دجن تغيما

ب : « الشات أسفرم » م ، ط : « الشاة سفرم » ، ووجهه وكتابته كما أثبت .

٣ ــ فصــل منه

وكرهتُ أيضاً تقليدَ المختلف من الآثار فأكونَ كحاطبِ ليل ، دونَ التأمُّلِ والاعتبارِ بأنَّ ظلام الشَّكِّ[(١)] لا يَجلُوه إلَّا مِفتاح اليقين .

٤ ــ فصــل منه

قد فهمتُ ــ أسعدَكَ الله تعالى بطاعته ــ جميعَ ماذكرتَ من أنواع الأنبذة ، وبديع صفاتها ، والفَصْلِ بين جيِّدها ورديِّها ، ونافِعِها وضارِّها ، وما سألتَ من الوقوف على حدودها[(٢)] . ولا زلتَ مِن عدادِ مَن يَسأَل ويَبْحَثُ[(٣)] ، ولا زِلْنا فى عِداد من يَشْرحُ ويُفْصح .

اعلمْ ــ أكرمَكَ الله ــ أنَّك لو بحثتَ عن أحوالِ من يُؤْثِر شُربَ الخمور على الأنبذة ، لم تجدْ إلَّا جاهلاً مخذولا ، أو حَدَثاً مغروراً ، أو خليعاً ماجناً ، أو رَعَاعاً هَمَجاً ؛ ومَنْ إذا غدا بهيمةٌ ، وإذا راحَ نَعامةٌ ؛ ليس عنده من المعرفة أكثرُ[(٤)] من انتحال القَوْل بالجماعة ؛ قد مُزِجَ له الصَّحيحُ بالمحال ، فهو[(٥)] مَدِينٌ بتقليد الرِّجال ، يُشعشِعُ الرَّاحَ[(٦)] ، ويحرِّمُ المباح ، فمتى عذَله عاذلٌ ووَعَظَهُ واعظ قال : الأَشربة كلُّها خمر ، فلا أَشربُ إلَّا أجودَهَا .

---

(١) فى جميع النسخ : « كلام الشك » ، صوابه ما أثبت .
(٢) ب ، م : « ما سألت » . وفى جميع النسخ : « على حُدود » .
(٣) م ، ط : « ولا يبحث » ، تحريف ما فى ب .
(٤) ب ، م : « إذا كثر » ، صوابه فى ط .
(٥) ب فقط : « وهو » .
(٦) م ، ط : « لشعشع الداح » ، صوابه فى ب . والشعشعة : المزج بالماء القليل .

وقد أحببتُ ـ أيّدك الله ـ التَّوثُّقَ من إصغاء فهمك ، وسُؤْت ظَنّاً بالتغرير(١) فقدَّمتُ لك من التَّوطئِة مايسهِّل [لك(٢)] سبيلَ المعرفة . وذلك إلى مثلك من مثلى حزم(٣) سيَّما فيا خَفِيت معالمه ودرسَتْ مناهجه ، وكَثُرت شُبَهه ، واشتدَّ غُموضُه .

ولو لم يكن ذلك وكان قد اعتاصَ(٤) عليَّ البرهان فى إظهاره ، وَاحْتَجتُ(٥) فى الإبانة عنه إلى ذكر ضِدِّه ، ونَظيره وشَكْله ، لم أحتشِمْ من الاستعانة بكلِّ ذلك . فكيف والقدرةُ ـ بحمد الله ـ وافرة ، والحُجَّة واضحة .

قد يكون الشىءُ من جِنْس الحرام(٦) فيُعالَج بضرب من العلاج حتَّى يتغيَّر بلونٍ يحدُث له ، ورائحةٍ وطعم ونحوِ ذلك ، فيتغيَّر لذلك اسمُه ، ويصير حلالاً بعد أن كان حراماً .

٥ ـ فصل منه
فى تحليل النبيذ دون الخمر

فإن قال لنا قائلٌ : ماتدرونَ ، لعلَّ الأَنبذة قد دخلَتْ فى ذكر تحريم الخمر ، ولكن لمَّا كان الابتداء أُجرِىَ فى ذكر تحريم الخمر ، خرج التحريم عليها وحدَها فى ظاهرِ المخاطَبَة ، ودخل سائرُ الأَشربة فى التَّحريم بالقَصْد والإرادة .

قلنا : قد علمنا أنَّ ذلك على خلاف ماذكَر السَّائلُ ، لأَسبابٍ موجودةٍ ، وعِللٍ معروفة .

---

(١) فى جميع النسخ : « بالتقرير » ، والوجه ما أثبت .
(٢) التكملة من ط . (٣) م ، ط : « حرم » ، تحريف .
(٤) اعتاص : التوى فخفى وصعب . ب ، م : « اعتاص » ، صوابه فى ط .
(٥) فى جميع النسخ : « واحتجب » والوجه ما أثبت .
(٦) ب فقط : « من حبس الحرام » ، تحريف .

منها : أنَّ الصَّحابةَ الذين شَهِدُوا نزولَ الفرائِض ، والتابعين مِنْ بعدِهم ، لم يختلفوا فى قاذف المحصَنين أنَّ عليه الحدَّ ، واختلفوا فى الأشربة التى تسكر[(١)] ، ليس لجهلِهِمْ أسماءَ الخُمور ومعانيها ، ولكنْ للأخبار[(٢)] المرويَّة فى تحريم المُسْكر ، والواردةِ فى تحليلها .

ولو كانت الأشربة كلُّها عند أهل اللُّغة فى القديم خَمرًا لَمَا احتاجُوا إلى أهلِ الرِّوايات فى الخمر ، أىُّ الأجناسِ من الأشربة هى ؟ كما لم يَحْتَجُوا إلى طلب معرفة العَبيدِ من الإماءِ .

وهذا بابٌ يَطُول شرحُه إن استقصيتُ جميعَ مافيه من المسألة والجواب .

وما يُنكر مَنْ خالَفَنا[(٣)] فى تحليل الأنبذة مع إقراره أنَّ الأشربةَ المُسْكرة الكثيرةَ لم تزل معروفةً بأسمائها وأعيانها ، وأجناسها وبُلدانها ، وأنَّ الله تعالى قَصَدَ للخمرِ من بين جَميعِها فحرَّمها ، وتَرَكَ سائر الأشربة طِلْقاً مع أجناس سائر المباح .

والدَّليل على تجويز ذلك أنَّ الله تعالى ماحَرَّمَ على الناس شيئاً من الأشياءِ فى القديم والحديث إلَّا أطلق لهم من جنسِه ، وأباحَ من سِنخِهِ[(٤)] ونظيرِه وشِبْهه ، ما يَعْمَلُ مثلَ عملِهِ أو قريباً منه ، ليُغْنيَهم بالحلالِ عن الحرام . أعنى ماحُرِّم بالسَّمع دون المحرَّم بالعقل . قد حَرَّم من الدم المسفوحَ ، وأباحَ غير المسفوحِ ، كجامِدِ دمِ الطِّحال والكبد وما أشبههما[(٥)]

---

(١) ب : « يسكر » ، تحريف .
(٢) فى جميع الأصول : « ولكن الأخبار » .
(٣) ب : « من خالفنا » ، تحريف .
(٤) السنخ ، بالكسر : الأصل . م ، ط : « سنحه » ، صوابه بالخاء المعجمة كما فى ب .
(٥) ب ، م : « وما أشبهها » ، صوابه فى ط .

وحَرَّم المَيْتَةَ وأباح الذَكيَّة . وأباح أيضاً مَيْتة البحر وغيرِ البحر ، كالجرادِ وشبهه ، وحَرَّم الرِّبا وأباح البَيع ، وحَرَّم بيعَ ماليس عندك[١] وأباحَ السَّلَم[٢] ، وحَرَّم الضَّيْمَ وأباح الصُّلح ، وحَرَّم السِّفاحَ وأباح النِّكاح . وحَرَّم الخِنزيرَ وأباحَ الجَدْيَ الرَّضيعَ ، والخَروف والحُوار[٣] .

والحلالُ فى كلِّ ذلك أعظمُ موقعاً من الحَرَام .

٦ — فصل منه

ولعلَّ قائلا يقول : وأهلُ مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم وسُكَّان حَرَمه ودارِ هجرته ، أبصَرُ بالحلال والحرام ، والمُسْكِرِ والخمر ، وما أباحَ الرَّسولُ وما حظره[٤] ، وكيف لا يكون كذلك والدِّينُ ومعالمُه مِن عندِهم خرج إلى النَّاس ؛ والوحىُ عليهم نَزَل ، والنبى صلى الله عليه وسلم فيهم دُفِن . وهم المهاجرون السَّابقون ، والأنصار المُؤْثِرُون على أنفسهم . وكلُّهم مُجمِعٌ على تحريم الأنبذة المُسْكرة ، وأنَّها كالخمر .

وخَلَفُهُم على مِنهاجِ سَلَفهم إلى هذه الغاية ، حتَّى إنَّهم جَلَدوا على الريح الخفىّ[٥] .

وكيف لا يفعلون ذلك ويَدِينون به وقد شَهِدوا منَ شَهِدَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قد حَرَّمها وذَمَّها ، وأمَرَ بجلد شارِبها .

ثمَّ كذلك فعَلَ أئِمَّةُ الهُدى من بعده . فهم إلى يومِ الناسِ[٦] على رأيٍ واحد ، وأمرٍ متَّفق ، ينهَوْن عن شُربِها ، ويَجلِدُون عليها .

(١) مابعده إلى « الضيم » ساقط من ط .

(٢) ب : « وأباح لك السلم » .

(٣) أى لما فيهن من طراوة اللحم عوضاً عن طراوة لحم الخنزير . والحوار بالضم : ولد الناقة من وقت ولادته إلى أن يفطم ويفصل .

(٤) ب ، م : « وحظره » بدون ما .

(٥) أى رائحة الشراب ، حينما يستنكه الشارب . وانظر ما سيأتى فى ٢٧٧ س ١٠ .

(٦) ط : « فهم إلى اليوم » .

وإنَّا نقول فى ذلك : إنَّ عِظَمَ حقِّ البلدة لا يُحِلُّ شيئاً ولا يحرِّمه ، وإنَّما يُعرَف الحلال والحرامُ بالكتاب الناطق[١] ، والسُّنَّة المجمَعِ عليها، والعقولِ الصَّحيحة ، والمقاييسِ المُصِيبة[٢] .

وبعد، فمن هذا المهاجرىُّ أو الأنصارىُّ ، الذى رَوَوْا عنه تحريم الأنبذة ثم لم يَرْوُوا عنه التحليل ؟ بل لو أنصَفَ القائلُ لعلم أنَّ الذين من أهل المدينة حَرَّموا الأنبذة ليسوا[٣] بأفضلَ من الذين أحَلُّوا النِّكاح فى أدبار النِّساءِ ، كما استحلَّ قومٌ من أهل مكَّة عاريَّة الفروج ، وحَرَّم بعضُهم ذبائحَ الزُّنوج ، لأنَّهم فيما زَعموا مُشَوَّهُو الخلق . ثم حكموا بالشَّاهد واليمين خلافاً لظاهر التنزيل[٤] . وأهلُ المدينة وإن كانوا جَلَدُوا على الرِّيح الخفىِّ[٥] فقد جَلَدُوا على حَمْلِ الزِّقِّ الفارغ ؛ لأنَّهم زعموا أنَّه آلةُ الخمر[٦] ،حتَّى قال بعض[٧] مَنْ ينكر عليهم : فهلاَّ جَلدوا أنفُسَهم؟ لأنَّه ليس منهم إلَّا ومعه آلةُ الزِّنَى ! وكان يجب على هذا المثال أن يُحكَم بمثل ذلك على حامل السَّيف والسِّكِّين والسُّمِّ القاتل، فى نظائر ذلك؛ لأنَّ هذه كلَّها آلاتُ القتل .

وبعدُ ، فأهلُ المدينة لمَ يخرُجوا من طبائع الإنس إلى طبع الملائكة . ولو كان كلُّ ما يقولونه حقًّا وصواباً لجَلَدوا من كان فى دار معبد[٨] ،

(١) ب : « وإنما يعرفه الحلال والحرام الكتاب الناطق » .

(٢) ط : « المغبية » ، وأثبت ما فى ب . وقد سقطت هذه الكلمة من م .

(٣) ب : « ليس » صوابه فى م ، ط .

(٤) ب ، م : « على ظاهر التنزيل » ولها وجهها .

(٥) انظر ماسبق فى ص ٢٧٧ س ١٤ . (٦) أنه ، ساقطة من م ، ب .

(٧) ب ، م : « بعضهم » ، تحريف .

(٨) ب ، م : « لقد كان دار معبد » ، ط : « لجلدوا من كان دار فى معبد » ، والوجه ما أثبت . ومعبد هذا هو معبد بن وهب ، من قدماء المغنين ومشهوريهم . غنى فى أول دولة بنى أمية ، وأدرك دولة بنى العباس . وفيه يقول الشاعر :

أجاد طويس والسريجى بعــده وما قصبات السبق إلا لمعبــد

الأغانى ٢ : ١٨ — ٢٨ .

والغَرِيضِ (١) ، وابنِ سُرَيج (٢) ، ودَحْمانَ (٣) وابن مُحرِزٍ (٤) وعَلُّويَه (٥) وابن جامع (٦) ، ومُخارقٍ (٧) ، وشُرَيكٍ (٨) ، ووكيعٍ (٩) ، وحمَّادٍ (١٠) ،

---

(١) اسمه عبد الملك ، وهو من مولدى البربر ، ومن أشهر المغنين وكان يضرب بالعود وينقر بالدف ويوقع بالقضيب ، وكان جميلا وضيئاً يصنع نفسه ويترفها . أخذ عن ابن سريج . وسمى الغريض لأنه كان طرى الوجه نضراً غض الشباب . توفى نحو سنة ٩٥ . الأغانى ٢ : ١٢٤-١٢٩

(٢) هو عبيد الله بن سريج ، وكان من أحسن الناس غناء ، وكان يغنى مرتجلا ويوقع بقضيب ، وغنى فى زمن عثمان ، ومات معمراً فى خلافة هشام بن عبد الملك وله خمس وثمانون سنة . الأغانى ١ : ٩٤ - ١٢٥ . وفى جميع الأصول : « ابن شريح » ، صوابه ، ما أثبت .

(٣) هو عبد الرحمن بن عمرو . ودحمان بالفتح لقب لقب به ، مشتق من الدحم وهو الدفع كما فى اللسان . وكان مع شهرته بالغناء رجلا صالحاً كثير الصلاة معدل الشهادة ملحناً للحج ، وكان يقول : ما رأيت باطلا أشبه بحق من الغناء . وكان من غلمان معبد ، وأعطاه المهدى فى ليلة واحدة خمسين ألف دينار . الأغانى ٥ : ١٣٣ - ١٣٧ .

(٤) هو مسلم بن محرز ، ويكنى أبا الخطاب . وكان أبوه من سدنة الكعبة وأصله من الفرس ، وكان كثير الترحال فى طلب الغناء بين مكة والمدينة وبلاد الفرس والشام حتى ألف ألحانه من مختار أنغام هذه الأمم جميعاً . وكان يقال له « صناج العرب » . الأغانى ١ : ١٤٥-١٤٧ .

(٥) هو على بن عبد الله بن يوسف ، الملقب بعلويه ، كان مغنياً حاذقاً مع خفة روح وطيب مجالسة ، وملاحة نوادر . وكان إبراهيم الموصلى علمه وخرجه وعنى به جداً ، وغنى لمحمد الأمين وعاش إلى أيام المتوكل ، ومات بعد إسحاق الموصلى بمديدة يسيرة . الأغانى ١٠ : ١١٥ - ١١٢٥ .

(٦) هو إسماعيل بن جامع بن إسماعيل ، وكان حسن السمت كثير الصلاة ، قد أخذ السجود جبهته ، يلبس لباس الفقهاء . غنى للرشيد ، ونال منه عشرة آلاف دينار فى بيتين غناهما ، وله وقائع مع أبى يوسف . الأغانى ١٠ : ٦٥ - ٧٨ .

(٧) هو مخارق بن يحيى بن ناوس الجزار ، مولى الرشيد ، وكان وهو صبى ينادى على مايبيعه أبوه من اللحم ، اشتراه إبراهيم الموصلى وأهداه للفضل بن يحيى ، فأخذه الرشيد منه ثم أعتقه. وكان من أحذق الناس بالغناء ، وأدرك الواثق . الأغانى ٢١ : ١٤٣ - ١٥٩ .

(٨) هو شريك بن عبد الله بن أبى شريك النخعى ، أبو عبد الله الكوفى القاضى ، أخذ عن أبى إسحاق السبيعى ، وعبد الملك بن عمير ، وسماك بن حرب ، والأعمش ، وغيرهم . وعنه : ابن مهدى ، ووكيع ، وهشيم ، وغيرهم . ولد سنة ٩٠ وتوفى ١٧٧ . تهذيب التهذيب .

(٩) وكيع بن الجراح بن مليح الرؤاسى ، أبوسفيان الكوفى . روى عن أبيه وإسماعيل ابن أبى خالد ، والأعمش ، وخالد بن دينار وغيرهم . وعنه : سفيان الثورى ، وعبد الرحمن بن مهدى ، ومحمد بن سلام ، وغيرهم . ولد سنة ١٢٨ وتوفى سنة ١٩٦ . تهذيب التهذيب .

(١٠) حماد بن سلمة بن دينار البصرى . روى عن ثابت البنانى ، وقتادة ، وعبد الملك بن عمير وغيرهم . وعنه : ابن جريج ، والثورى ، وشعبة وغيرهم . توفى سنة ١٦٧ .

وإبراهيمَ(١) وجماعةِ التابعين ، والسَّلَف والمتقدِّمين ؛ لأنَّ هؤلاء فيما زعموا كانوا يَشربون الأَنبذةَ التى هى عندهم خمر(٢) ؛ وأُولئك كانوا يعالجون الأَغانىَ التى هى حِلٌّ طِلْقٌ ، على نَقْر العيدان والطَّنابير ، والنَّايات والصَّنْج والزَّنْج(٣) ، والمعازف التى ليست محرَّمةً ولا منهيًّا عن شىء منها .

ولو كان ما خالفونا فيه من تحليل الأَنبذة وتحريمها ، كالاختلاف فى الأَغانى(٤) وصفاتها وأوزانها ، واختلاف مخارجها ، ووجوه مصارفها ومَجاريها ، وما يُدْمج ويوصَل منها ، وما لِلحنجرةِ والحَنَك والنَّفَس واللَّهَوات وتحتَ اللِّسان من نَغمها(٥) . وأىَّ الدَّساتين أطرَب(٦) ، وأىٌّ أصوَب ، وما يُحفَز بالهَمْز(٧) أو يحرَّك بالضَّمِّ ؛ وكالقَول بأنَّ الهَزَج(٨) بالبِنصَر أطيب ، أو بالوسطى(٩) ؟ والسَّريع على الزِّير أَلذّ(١٠) ، أوْ على المَثْنَى(١١) ؟ وَالمُصَعَّد(١٢) فى لينٍ أطرَبُ أم المُحْدَرُ فى الشِّدَّة ؟ لسَهُلَ ذلك ولَسَلَّمنا عِلمَه لمَنْ يَدَّعيه ، ولم نُجاذِب من يدَّعى دوننا معرفته(١٣) .

---

(١) هو إبراهيم بن يزيد بن قيس النخعى ، المترجم فى ٢ : ١٩٣ .

(٢) ب ، م : « التى عندهم خمر » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٣) الزنج من ملاهى أهل خراسان ، كان غناؤهم به ، وعليه سبعة أوتار ، وإيقاعه يشبه إيقاع الصنج . معجم الموسيقى العربية ٣٥ . وانظر معجم استينجاس ٦٢٤ . وفى الأصول : « الزيج » تحريف .

(٤) فى جميع الأصول : « فى الأوانى » ، صوابه ما أثبت .

(٥) ب ، م : « من نعمها » ، صوابه فى ط .

(٦) انظر الدساتين معجم الموسيقى العربية ٣٢ ففيه تفصيل واسع . ويراد به رباطات الأوتار ونحوها .

(٧) الحفز : التحريك . ب : « يحرف » م ، ط : « يحقر » ، صوابهما ما أثبت .

(٨) الهزج : كل صوت فيه ترنم خفيف مطرب . ب ، م : « وكالقول فى المرج » ، صوابه فى ط .

(٩) ط فقط : « وبالوسطى » .

(١٠) الزير : بالكسر : من أوتار العود ، وهو أحد الأوتار الدقيقة .

(١١) المثنى : الوتر الذى يلى الزير . وهو بفتح الميم والنون المخففة مع القصر .

(١٢) ب فقط : « أو المصعد » .

(١٣) ب ، م : « معرفة » ، صوابه فى ط .

٧ – فصــل منه

ولهِج[١] أصحابُ الحديث بحكمٍ[٢] لم أسمعْ بمثله فى تزييف الرِّجال، وتصحيح الأَخبار . وإنما أكثروا فى ذلك ، لتعلمَ حَيْدَهم عن التَّفْتيش ، ومَيْلَهم عن التنقير[٣] ، وانحرافَهُم عن الإنصاف .

٨ – فصــل منه

والذى دعانى إلى وضعِ جميعِ هذه الأَشربةِ والوقوفِ على أجناسها وبُلدانها ، مخافةُ أَنْ يقعَ هذا الكتابُ عند بعضِ مَن عساهُ لا يَعرفُ جَميعَها، ولم يَسمَعْ بذكرها ، فيتوهَّم أنِّى[٤] فى ذكر أجناسها المستشنَعة[٥] وأنواعها المُبتَدَعة ، كالهاذى[٦] برُقْـية العَقْرب ، وإن كان قصدى لذكرِها فى صَدرِ الكِتابِ لأَقفَ على حَلالها وحرامها ، وكيف اختلفت الأُمَّة فيها ، وما سَببُ اعتراضِ الشَّكِّ واستكانِ الشُّبهة ؛ ولأَن أَحْتَجَّ للمباح[٧] وأُعطيَهُ حقَّه ، وأَكشِفَ أَيضاً عن المحظور فأُقسِمَ له قِسطَه ، فأَكونَ قد سلكتُ بالحرام سَبيلَه ، وبالحلال منهجَه ، اقتداءً منى بقول الله عزَّ وجلَّ : ﴿يأَيُّها الذين آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ مَا أَحَلَّ اللهُ لكُمْ وَلاَ تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ المُعْتَدِينَ[٨]﴾ .

وقد كتبتُ لك – أكرمَكَ الله – فى هذا الكتاب مافيه الجزايةُ[٩]

---

(١) م فقط : « ولمج » ، تحريف .

(٢) ب ، م : « حكم » ، صوابه فى ط .

(٣) التنقير : البحث والتفتيش . م فقط : « التنفير » ، تحريف .

(٤) ب فقط : « أن » تحريف .

(٥) ب : « المستشفة » ، صوابها فى م ، ط .

(٦) الهاذى ، من الهذيان . ب ، م : « كالهازى » من الهزؤ ، وهذه محرفة صوابها فى ط .

(٧) ب : « ولا أحتج للمباح » ، تحريف .

(٨) من الآية ٨٧ من المائدة .

(٩) كذا وردت الجزاية هنا ، بمعنى الإجزاء ، ولم أجد لها سنداً . وفى ب : « مافيه الكفاية والجزاية » .

والكِفاية ، ولو بسطتُ القولَ لوجدتَه متَّسعاً ، ولأَتاكَ منه الدَّهْم[(١)] . وربَّما [كان[(٢)]] الإقلال فى إيجازٍ أجدَى من إكثارٍ يُخاف عليه الملل[(٣)] . فخلطت لك جِدًّا بهزل[(٤)] ، وقرنْتُ لك حُجَّةً بمُلْحة ، ليخِفَّ مَؤُونة الكتاب على القارئ ، وليزيد ذلك فى نشاط المستمِع ، فجعلت الهزلَ بَعْدَ الجِدِّ جَمَاماً[(٥)] ، والمُلْحةَ بعد الحُجَّة مُستراحاً .

---

(١) الدهم : الكثير . يقال جيش دهم أى كثير . وجاءهم دهم من الناس ، أى كثير .

(٢) التكلة من ط .

(٣) المألوف : « يخاف منه الملل » . لكن هكذا وردت فى الأصول .

(٢) ب : « جد الهزل » .

(٥) الجمام ، كسحاب : الراحة .

٢٨

من كتابه في

الجوابات واستحقاق الإمامة

١ – فصـــل (١)

من صدر كتابه فى الجوابات فى الإمامة
يحكى فيه قول من يجيز أكثر من إمام واحد

زعم قومٌ أنَّ الإمامة (٢) لا تجب لرجلٍ واحدٍ بعينهِ، من رهطٍ واحدٍ بعينه ، ولا لواحدٍ من عُرْض الناس (٣) ، وإن كان أكثرَهم فضلاً ، وأعظمَهم عن المسلمين غَناءً (٤) ، بعد أن يكون فرداً فى الإمامة لا ثانِيَ له . وأنَّ النَّاسَ إن تركوا أن يُقيموا إماماً واحداً جاز لهم ذلك ، ولم يكونوا بتركه ضالِّينَ ولا عاصِينَ ولا كافرين ؛ فإن أقاموه كان ذلك رأياً رأوْه ، وغير مضيَّق عليهم تركُه .

ولهم أن يقيموا اثنين ، وجائزٌ لهم (٥) أن يقيموا أكثرَ من ذلك ، ولا بأْس أن يكونوا عَجَما (٦) وموالىَ ، ولكن لابدَّ من حاكمٍ ، واحداً (٧) كان أو أكثر على حال . ولا يجوز أن يكون الرجلُ حاكماً على نفسه وقائماً عليها بالحدود .

ولم يقلْ أحدٌ ألبتَّةَ أنَّ مِن الحُكْم والحاكم بدًّا ، ولكنَّهم اختلفوا فى جهاتهم ومعانيهم .

وقالوا : وأىَّ ذلك كان ، إقامةَ الواحد والاثنين أو أكثر من ذلك،

---

(١) الكامل ٢ : ٢٧٩ – ٢٩٠ وهذه الرسالة غير رسالة « استحقاق الإمامة » التى سبقت برقم (٢٢) .

(٢) ب : « الأمة » ، تحريف .

(٣) من عرض الناس ، بالضم ، أى من أوساطهم ومعظمهم .

(٤) ب : « غنى » ، تحريف .

(٥) فى جميع الأصول : « عنهم » .

(٦) ب ، م : « أن يكون أعجما » ، تحريف

(٧) ب : « واحد » .

فعلى النّاس الكفُّ عن محارمهم ، وترك التبَاغى (١) فيما بينهم ، والتّخاذل عند الحادثة تَنُوبهم ، من علوٍّ (٢) يَدهَمُهم من غيرهم ، أو خاربٍ يُخِيف سُبُلهم (٣) من أهل دعوتهم .

وعليهم فيما شَجَر بينهم إعطاءُ النَّصَفة من أنفسهم بالغاً ما بلغ ، فى عُسْرِ الأمر ويُسْرِه . وعلى كلِّ رجل فى داره وبَيتِه وقبيلته ، وناحيته ومِصره ، إذا كان مأموناً ذا صلاح وعلم ، إذا ثَبَتَت عنده على أخيه وصاحبه وجارِه ، وحاشيتِه مِن خَدَمِه ، حَدٌّ أو حكمٌ جناهُ جانٍ عليهم (٤) أو على نفسه (٥) أو ظلمٍ ركبَه من غيره ، إقامةُ ذلك الحكم والحدّ عليه ، إذا أمكنه مستحقُّه ؛ إلَّا أن يكون فوقه كافٍ قد أجزَى عَنْه .

وعلى المجترِح للذّنْب المُوجبِ على نفسه الحدَّ ، والمستحقّ له ، إمضاءُ الحكم فى بَدَنِه وماله ، والإمكانُ من نفسه ، وأن لا يُعَازَّ بقُوَّة (٦) ، ولا يَرُوغَ بحيلة ، ولا يَسخَطَ حكم التنزيل فيما نَزَل به ، وفيما هو بسبيله (٧) من مالٍ (٨) أو غيره . وإنّما يجب ذلك إذا كان على الفريقين من القَيِّم ، والجانى يمكنه ما كلَّفه اللهُ من ذلك . فإنْ أبى القيِّم إقامَةَ الحقِّ والحدِّ على الجانى بعد استيجابه ، والإمكانِ من نفسه لإقامة الحدِّ عليه ، فقد عَصَى

---

(١) التباغى : تفاعل من البغى ، وهو الظلم والعدوان والعدول عن الحق . ب ، م : « وترك التناغى » ط : « وترك الأصل والتناجى » ، صوابهما ما أثبت . وسيأتى فى ص٢٨٨ : «يزدادون فساداً وتباغياً » .

(٢) ب ، م : « من عدم » ، صوابه فى ط .

(٣) الخارب : اللص ، أوسارق الإبل خاصة . ب : « سلبهم » ، صوابه فى م ، ط .

(٤) ب ، م : « جازعليهم » ، صوابه فى ط .

(٥) فى جميع الأصول : « عليهم على نفسه » ، والوجه ما أثبت .

(٦) المعازة : المغالبة والمشادة .

(٧) فى جميع الأصول : « لسبيله » .

(٨) ب ، م : « من ماله » .

الله تعالى ولم يُؤتِ فى ذلك الأمرِ نفسَه ، لأنَّ الله تعالى قد بيَّنه له ، وأوجَبَه عليه ، وقرَّره حين أوضح له الحُجَّة وقرَّب الدلالة ، وطوَّقه المعرفةَ ، ومكَّنه من الفعل .

وقد بَسطْنا العُذرَ لذوى العَجْزِ فى صدر الكلام .

وإنْ أبى الجانى المستحقُّ للحكم والحدِّ ، الإمكانَ من نفسِه ومالِه ، وما هو بِسبيله ، فقد عَصَى الله فى ذلك ، كما عصاه فى رُكوبه ماأوجَبَ عليه الحدَّ، ولم يُؤتَ من ربِّه لما ذكرنا من إيضاح الحجَّة وإثبات القُدْرة .

٢ — فصــل منه

وقد علمنا(١) أنَّ من شأْن النَّاسِ الهربَ إذا خافُــوا نزولَ المكروه ، والامتناعَ من إمضاء الحدود بعدَ وُجوبِها عليهم ، ما وَجَدُوا السَّبيلَ إلى ذلك. وهذا سببُ إسقاط الأحكام والتَّفاسد .

وقد أُمِرْنا أن نتركَ أسبابَ الفساد ما استطعنا ، وبالنَّظَر للرعيَّة ما أمكنَنَا ، فوجب علينا عند الذى قلنا ، أنَّا لو لم نُقِمْ إماماً(٢) واحداً كان الناسُ على ماوصَفْنا من التسرُّع إلى الشىء إذا طَمِعوا ، والهربِ إذا خافوا . وهذا أمرٌ قد جرَتْ به عامَّةُ المعرفة ، وفُتِحت عندنا فيــه التَّجربة .

قلنا عند ذلك إنَّ الإمامة لا تجب على الناس من طريق الظُّنون وإشفاق النفوس(٣) .

---

(١) ب فقط : « وقد علم » .
(٢) ب ، م : « أن نقيم إماماً » ، صوابه فى ط .
(٣) ب ، م : « إشفاق النفوس » بسقوط الواو .

وقد رأينا أعظمَ منها خطراً ، وقدراً ونَفْعاً، فى كلِّ جهةٍ على خلاف ذلك ، وهو رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ، بعثَه الله إلى أُمَّة وقد علم أنَّهم يَزْدادون مع كفرهم المتقدِّم[(١)] مِنْ قِبَل ذلك الرَّسولِ كُفْراً ، بجحدهم له ، وإخراجهم إيَّاه ، وقصدهم قَتْلَه[(٢)] ، ثم لا يكون ذلك مانعاً له من الإرسال إليهم والاحتجاج به عليهم ، لمكان علمِهِ أنَّهم يزدادون فسادًا وتَباغياً[(٣)] ؛ إذْ كان[(٤)] قدَّم لهم ما به ينالون مصالحَ دينهم ودُنياهم. وإنَّما على الحكيم أن يأْتِىَ الأَمر الحكيم ، عرفَ ذلك عارفٌ أم جهِلَهُ جاهل .

وعلى الجوادِ ذى الرَّحمة فى جُوده ورحمته ، أن يفعل ما هو أفضَلُ فى الجود ، وأَبلغُ فى الإحسان ، وألطف فى الإنعام من إيضاح الحُجَّة[(٥)] وتسهيل الطُّرق ، والإبلاغ فى الموعظة ، مع ضمان الوَعْد بالغاية من الثَّواب والدَّوام واللَّذَّة ، والتَّوعُّدِ بغاية العقاب فى الدَّوام والمكروهِ إلى عبادِه الذين كلَّفهم طاعتَه ، وأهل الفاقة إلى عائدته[(٦)] ونَظَرِه وإحسانه .

فإنْ قَبِل ذلك قابلٌ[(٧)] فقد أصاب حظَّه ، وإن أَبَى ذلك فنفسَه ظَلَمَ[(٨)] ، وقد صنع الله به ماهو أَصلح وإن لم يستطع العبد نَفْسُه .

---

(١) ب ، م : « مع كفرهم المتقد » ط : « يزدادون من كفرهم » فقط . والوجه فيهما ما أثبت .
(٢) فى جميع الأصول : « قبله » ، صوابه ما أثبت .
(٣) ط : « وبغياً » ، وانظر ما سبق فى ص ٢٨٦ .
(٤) ب ، م : « إذا كان » ، صوابه فى ط .
(٥) فى جميع الأصول : « ومن إيضاح الحجة » ، والوجه حذف الواو .
(٦) العائدة : المعروف والمنفعة .
(٧) ب : « قيل ذلك قايل » ، صوابه فى م ، ط .
(٨) ب : « وإن أباه ذلك فنفسه ظالم » م : « وإن أبى ذلك فنفسه ظالم » ط : « وإن أبى ذلك فلنفسه ظلم » . والصواب ما أثبت .

قالوا : فإذا كان الله تبارك وتعالى عالماً بأنَّ القومَ يَزْدادونَ فسادًا عند إرسال الرُّسل ، وكان غيرَ صارفٍ لهم عن الإرسال إليهم ، إذْ كان قد عَدَّل خَلْقَهم[١] ، ومكّنهم من مصلحتهم، فما بالُ الظَّنِّ والحِسبان بأَنَّ النَّاس يتفاسَدُونَ ويتنازعون ، إذا لم يُقيموا إماماً واحداً يُوجب فرضاً لم ينطق به كتاب ولم يؤكّده خبر[٢] . وقد رأينا العلم بأَنَّ الناس يتفاسدون بما لا يَرِد به فرض[٣] .

٣ — فصــل منه

وقالوا : قد رأينا أَهلَ الصَّلاح والقَدْر، عند انتشار أَمرِ السُّلطان، وغَلبة السِّفلة والدُّعَّار ، وهَيْج العوامِّ[٤] ، يقوم منهم العَددُ اليسير فى الناحية والقبيلة ، والدَّرب والمَحِلة فيفُلُّ لهم حَدَّ المستطيل[٥] ، ويقمع شُذَّاذَ الدُّعَّار[٦] ، حتَّى يَسْرحَ الضَّعيف ويأْمَنَ الخائف ، وينتشر التاجر، وَيُكْبِرَ جانبَهم الدَّاعر[٧] .

وإنَّما صلاحُ النَّاس بقدر تعاوُنِهم وتَخاذُلِهم . مع أَنَّ الناس لو تركهم المتسلِّطُونَ عليهم[٨] ، وأُلجئوا إلى أنفُسهم حتَّى يتحقَّق عندهم أن لا كافِىَ إلَّا بطْشُهم وحيَلهم ، وحتَّى تكون الحاجة إلى الذَّبِّ[٩]

---

(١) ب : « خلقه » .

(٢) م : « ولا يؤكده خبر » .

(٣) فى جميع الأصول : « يتفاسدون ولا يرد به فرض » .

(٤) ط : « ويصبح العوام » ، تحريف .

(٥) الفل : الكسر والثلم . ب : « فيقل » م : « فيقل » ط : « فيقيم » ، صوابه ما أثبت . وفى ب ، م : « بهم » ، صواب هذه من ط . والاستطالة : الاعتداء .

(٦) ب : « الذعار » تحريف . وفى ط : : « شذوذ الدعار » .

(٧) ب ، م : « ويكرم جانبهم » . وفى ب : « الذاعر » تحريف .

(٨) ب ، م . « المتسلطنون عليهم » .

(٩) ب ، م . « الذابة » ، تحريف .

والحراسة ، والعلم بالمكيدة. هي[١] التي تحملهم على منع أنفسهم ؛ ولذهبت عادةُ الكفاية ، وضعف الاتّكال ، ولتعوّدوا اليقظة ، ولدربوا بالحراسة ، واستثاروا دفينَ الرأْى ؛ لأَنَّ الحاجة تَفتُقُ الحيلة[٢] وتبعث على الرويّة[٣] ، وكان بالحَرَى أن يصلح أمرُ الجميع ؛ لأَنَّ طمع الرَّاعى إذا عاد بأْساً[٤] صرَفَه فى البَغْى[٥] . وكان فى ذلك منبهةٌ للنائم ومشحذةٌ لليقظان ، وضـــراوةٌ للمُواكل[٦] ، ومَزْجرةٌ للبُغاة ، حتَّى يَنْبُتَ عليه الصَّغير[٧] ، ويتفحَّل معه الكبير .

٤ — فصـــل منه

وزعم قومٌ أنَّ الإمامة لا تجب إلَّا بأَحدِ وجوهٍ ثلاثة :

إمَّا عقلٌ يدلُّ على سببها ، أَو خبرٌ لا يكذَّب مثلهُ ، أَو أنَّه لا يَحتمِل شيئاً من التأْويل إلَّا وجهاً واحداً .

قالوا : فوجدنا الأَخبارَ مختلفة ، والمختلِفُ منها متدافع[٨] ، وليس فى المتدافِعِ والمتكافئ بيانٌ ولا فَضْل .

فمن ذلك قولُ الأَنصار ،وهم شَطْرُ النَّاسِ وأَكثرهم ، مع أَمانتهم على دين الله تعالى ، وعِلمِهم بالكتاب والسُّنَّة ، حيثُ قالت[٩] عند وفاة النبى صلى الله عليه وسلم : « منا أَميرٌ ومنكم أَمير » .

---

(١) ب ، م : « وهى » ، والواو مقحمة .
(٢) ب ، م : « تفيق الحيلة » محرف .
(٣) م فقط : « الرؤية » ، تحريف .
(٤) ب : « يائساً » . م : « بأساً » وأثبت ما فى ط .
(٥) ب ، م : « فى سوى البغى » .
(٦) ب ، م : « المواكل » .
(٧) ب : « يتثبت » ، ط : « تثبت عليه الصغيرة » ، والصواب ما أثبت من م .
(٨) ط : « والمختلف متدافع » ب ، م . « والمختلف منه متدافع » ، والوجه ما أثبت .
(٩) ط : « حيث قالوا » .

فلو كان قد سَبَقَ من رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فى ذلك أمرٌ ما كان أَحدٌ أَعلمَ به منهم ، ولا أَخلَقَ للإقرارِ والعملِ بما يلزم . والصَّبرِ عليه(١) منهم . بعد الذى ظَهَر من احتمالهم فى جَنْب الله تعالى ، والجهادِ فى سبيله ، والنُّصرةِ لنبيِّه صلى الله عليه وسلم [مع الإيواءِ والإيثار ، بعد المواساة ، ومحاربة القريب والبعيد . والعرب قاطبة وقريشٍ خاصَّة . ثم الذى نطق القرآنُ به من تزكيتهم وتفضيلهم ، بحبِّ رسول الله صلى الله عليه وسلَّم لهم(٢)] ، وثقته بهم(٣) وثنائه عليهم(٤) ، وهو يقول: « أَمَا والله ما عَلِمتُكم إلَّا لَتَقِلُّون عند الطَّمَعِ وتَكثُرون عند الفَزَع »، فى أمورٍ كثيرة .

ثم لم يكن قولُهم: « منَّا أَميرٌ ومنكم أَمير » مِن سفيهٍ من سفهائهم ضَوَى إليه(٥) أَمثالُه منهم ، فإنَّ لكلِّ قوم حَسَدةً وجُهَّالا ، وأَحداثاً وسَرَعانا(٦) ، مِن حدَث تبعثه الغَرارة والأَشَر(٧) ، ورجلٍ يحبُّ الجاه والفتنة ، أَو مغفَّلٍ مخدوع(٨) ،أوغِرٍ ذى حَمِيَّة(٩) يؤْثِر حَسبَه ونسبَه على دين الله تعالى وطاعةِ نبيهِ صلى الله عليه وسلم .

---

(١) ب فقط : « عليهم » ، تحريف .

(٢) التكملة من م ، ط .

(٣) فى جميع الأصول : « ولقيه بهم » ، والوجه ما أثبت .

(٤) فى جميع الأصول : « وثباته عليهم » ، صوابه ما أثبت .

(٥) ضوى إليه : انضم ولجأ . وفى اللسان : « يقال ضوى الرجل إلينا أشد المضوية ، أى أوى إلينا » . وفى جميع الأصول : « ضرى إليه » . والوجه ما أثبت .

(٦) السرعان : الأوائل الأخفاء يسرعون إلى الأمر .

(٧) الأشر : المرح والنشاط ب ، م : « والأشد » تحريف ما أثبت . وفى ط : « ولا شذ رجل يحب الجاه والفتنة » ، ولا وجه له .

(٨) ط : « مجلوع » م : « مجذوع » ، صوابهما ما أثبت من ب .

(٩) ب : « أو عزى » م : « أو غرى » ، صوابهما فى ط . وفى ط : « ذو حمية » صوابه فى ب ، م .

ولا كان ذلك القولُ ، إنْ كان من عِليتهم ، فى الواحد الشاذِّ القليل، بل كان فى ذَوِى أَحلامهم والقَدَم مِنْهم [(١)] .

ثم كان المرشَّحُ والمأْمولُ عندهم سعدُ بنُ عبادة ، سيِّدًا مُطاعاً ، ذا سابقةٍ وفَضْل ، وحِلم ونَجْدةٍ ، وجاهٍ عند رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستغاثةٍ به [(٢)] فى الحوادث والمهِمِّ من أَمره .

ثم كان فى الدَّهم [(٣)] من الأَنصار ، والوجوهِ والجمهورِ من الأَوس والخزرج . فكيف يكون سبَقَ من النبيِّ صلى الله عليه وسلم فى هذا أَمرٌ يقطع عُذْرًا [(٤)] ويوجب رضاً ، وهؤلاءِ الأُمناءُ على الدِّين ، والقُوَّام عليه ، قد قاموا هذا المقامَ ، وقالوا هذا المقال .

قالوا : فإن قال قائل : فإنَّ القوم كانوا على طبقاتٍ ، من ذاكرٍ متعمِّد ، وناسٍ قد كان سقَطَ عن ذِكرِه وحفظه ، ومن رجلٍ كان غائباً عن ذلك القولِ والتَّأْكيد الذى كان من النبى صلى الله عليه وسلم وآله ، فى إقامة إمامٍ يقدَّم فى أَيَّام وَفاتِهِ وشَكَاتِه [(٥)] ، ومن رجلٍ قَدَمٍ فى الإسلام لم يكن من حُمَّال العلم ، فأَذكَرَهُم أَبو بكرٍ وعُمرُ فذكَروا ، ووعَظَاهم فاتَّعظوا . فقد كان فيهم النَّاشِئُ الفاضلُ الذى يزجُره الذِّكر ، ويَنزِع إذا بُصِّر ؛ والمعتمدُ الذى لم يُبلغْ من لجاجه وتتايُعه [(٦)] ، ورُكوب

(١) ب : « فيهم » .

(٢) ب : « واشتغاثة به » م : « واستغاثته به » ط : «« واستعانته به » ، والوجه ماأثبت .

(٣) أى كان هذا القول فى الدهم . والدهم ، بالفتح · العدد الكثير ، كالدهماء . ب فقط : « فى الوهم » ، تحريف .

(٤) فى جميع النسخ · «عدداً » ، والصواب ما أثبت

(٥) الشكاة ، بفتح الشين : المرض . ب ، م . « وسكانه » ، صوابه ما أثبت . والكلمة ساقطة من ط . وفى ب ، م : « إقامة الإمام »

(٦) التتايع : التهافت فى الشر واللجاج . وفى جميع الأصو‍ « وتتابعه » بالباء الموحدة ، صوابه بالياء التحتية المثناة .

رَدْعه[١] مايُؤْثَر معه التصميم[٢] على حُسْنِ الرُّجوعِ عند الموعظة الحسَنة ، والتخويف بفساد العاجِل[٣] . فى كثيرٍ ممن لم يكن له فى الإسلام القَدْر النَّبيه ، إمَّا للغَفْلة ، وإمَّا للإبطاء عنه ، وإمَّا للخمول فى قومه مع إسلامه وصِحَّة عَقْدِه . فداوَاهُمْ أبو بكرٍ وعُمرُ[٤] يومَ السَّقيفة حين قالا[٥] : « نحن الأئمَّة وأنتم الوزراء » . وحيث رَوَوْا لهم أنَّ النبى صلى الله عليه وسلم قال : « الأئمَّة من قريش » . فلما استُرجِعوا رَجَعُوا .

قلنا : الدَّليل على أنَّ القوم لم يروا فى كلام أبى بكرٍ وعمر حُجَّةً عليهم ، وأنَّ انصرافَهُم عمَّا اجتمعوا له لم يكن لأنَّهم رأَوْا أنَّ ذلك القولَ من أبى بكر وعمر وأبى عُبيدة بنِ الجَرَّاح حُجَّةٌ ، غَضَبُ رئيسِهم وخُرُوجُه من بين أظهرهم مراغَماً ، فى رجالٍ من رَهْطِهِ ، مع تركِهِ بيعةَ أبى بكر رضوان الله عليه ، وتشنِيعهِ[٦] عليهم بالشَّام .

وقد قال قَيسُ بنُ سعدِ بن عُبادة ، وهو يذكر خِذلانَ الأنصارِ لسَعدِ بن عُبادة : واستبدادَ الرَّهط من قريشٍ عليهم ، بالأمر :

وخَبَّرتموناأنَّما الأمـــرُ فيـــكمُ ... خِلافَ رسول الله يوم التَّشاجُرِ[٧]
وأنَّ وَزاراتِ الخـــلافةِ دونـــكم ... كما جاءكم ذو العرش دون العشائرِ
فهـلَّا وزيراً واحـــداً تجتَبُونه ... بغير ودادٍ منكمُ وأواصرِ[٨]

(١) ركب ردعه : لم يردعه شىء فيمنعه عن وجهه .
(٢) ب : « التصمم » ، صوابه فى م ، ط .
(٣) ب : « لفساد العاجل » ، صوابه فى م ، ط .
(٤) ب ، م : « وأبو بكر وعمر » ، والوجه حذف الواو قبل أبى بكر كما فى ط .
(٥) ط : « قالوا » ، وهو أمر جائز فى العربية .
(٦) ب ، م : « وتشييعه » ط : « وتشيعه » ، صوابهما ما أبعث .
(٧) ب : « الرسول الله » ، تحريف .
(٨) اجتباه : اختاره واصطفاه . ب ، م : « تجتنبو به » صوابه فى ط .

سَقَى اللهُ سعدًا يومَ ذاكَ ولاسَقَى   عراجِلةً هابت صُدورَ المنابرِ[١]

وقال رجلٌ من الأنصار ، ود ـاهُ عليٌّ رضوان الله عليه إلى عَونِه ونُصرتِه ، إمَّا يوم الجَمَل ، أو يومَ صِفِّين :

مالى أُقاتل عن قومٍ إذا قَدَرُوا   عُدْنا عدُوًّا وكنَّا قبلُ أنصارا

ريلٌ لها أُمّةٌ لو أنَّ قـائدهـا   يَتلُو الكتاب ويَخْشَى النَّار والعارا

أمَّا قُريشٌ فلم نسمَعْ بمثلِهـمُ   غَدراً وأَعجَبَ فى الإسلام آثارا

إلَّا تـكنْ عصبةٌ خَالُـوا نبيَّهمُ   بالعُرف عُرفاً وبالإنكار إنكارا[٢]

أبا عُمارة والثَّـاوِى ببَسـلقَعةٍ   فى يومِ مُؤْتَةَ لاينفكُّ طَيَّارا[٣]

أبا عُمارة[٤] : حمزة بن عبد المطَّلب رضوان الله عليه ، وقد كان يكنى أَبا يَعْلَى ، والثَّاوى فى يوم مُؤْتة : جعفر بن أبى طالب[٥].

وقال رجلٌ من الأَنصار من ولد أَبى زيدٍ القارئ[٦] ، وذكر أَمرَ الأَنصار وأَمرَ قريش :

---

(١) العراجلة : جمع عرجلة ، وهم جماعة الرجالة يمشون على أقدامهم . وأنشد أبو عبيدة :

راحوا يماشون القلوص عشية   عراجلة من بين حاف وناعل

وفى جميع النسخ : « عواجله » بالواو ، صوابه ما أثبت . والمنابر . جمع منبر ، على أنهم ليسوا بخطباء . م : « الثوابر » ط : « النوابر » ، صوابهما فى ب .

(٢) خالوا ، من الخول بالتحريك ، وهم حشم الرجل وأتباعه . والخائل : الذى يخول على أهله وعياله ، أى يرعى عليهم . وفى ب : « حالوا وبينهم » م ، ط : « حالوا بينهم » ، والوجه ما أثبت .

(٣) جاء فى الحيوان ٣ : ٢٣٣ : « ونحن نؤمن بأن جعفراً الطيار ، ابن أبى طالب ، له جناحان يطير بهما فى الجنان ، جعلا له عوضاً من يديه اللتين قطعتا على لواء المسلمين فى يوم مؤتة »

(٤) ب فقط : « أبو عمارة » .

(٥) كان يوم مؤتة فى الثامنة من الهجرة بين المسلمين والروم . وكان قد حمل لواء المسلمين فيه زيد بن حارثة فقتل ، فحمله جعفر بيمينه فقطعت ، ثم بشماله فقطعت ، فاحتضنه بعضديه فقتل وخر شهيداً ، فحمل اللواء بعده عبد الله بن رواحة فقتل أيضاً . وانظر الإصابة ١١٦٢ وجمهرة أنساب العرب لابن حزم ٦٨ - ٦٩ وكتب السيرة

(٦) أى من إخوته وابناء أبيه ثابت بن الضحاك ، وزيد هذ هو زيد بن ثابت بن الضحاك ،

دعاها إلى استبدادها وحُقودهـا ... تذكُّرُ قتلى فى القَليبِ تكبكبُوا

هُنالك قتْلى لا تُودَّى دِياتُهـم ... وليس لباكيها سِوى الصَّبرِ مَذهبُ

فإن تَغضبِ الأَبناءُ من قبْلِ منْ مَضى

فو الله ماجئنا قبيحاً فَتعتبوا [1]

٥ ــ فصــل منه

قد حكينا قولَ من خالَفَنَا فى وجوب الإمامة وتعظيم الخلافة ، وفسَّرنا وجوهَ اختلافهم، واستَقصَينا جميعَ حُججهم ، إذْ كان على عذرٍ لمَّا غاب عنه خَصْمُهُ [2] ، وقد تكفَّل بالإخبار عنه فى ترك الحِيطة له ، والقيامِ بحجته . كما أنَّه لا عُذر له فى التَّقصير عن إفنادِ [3] من يخالفه [4] ، وَكشْفِ خَطاءِ من يضادُّه [4] عند ما قرأ كتابَه [5] ، وتَفهُّمَ حجته . لأنَّ أقلَّ ما يُزيل عُذرَه ، ويُزيح عِلَّته ، أنْ يكون قولُ خَصمِهِ قد استهدف لعَقْله ، وأَصْحَرَ للسانه [6] ، وقد مكَّنه من نفسه ، وسلَّطه

=الأنصارى، كاتب النبى صلى الله عليه وسلم وأمينه على الوحى، وأحد الذين جمعوا القرآن على عهده ، وهو الذى كتب المصحف لأبى بكر ، ثم لعثمان حين جهز المصاحف إلى الأمصار . توفى سنة ٤٥ . وفيه يقول حسان بن ثابت :

فمن للقوافى بعد حسان وابنه ... ومن للمعانى بعد زيد بن ثابت

طبقات القراء ١ : ٢٩٦ والإصابة ٢٨٧٤ . وفى الحيوان ١ : ٣٣٦ : « كانوا يكرهون أن يقال قراءة عبد الله ، وقراءة سالم ، وقراءة أبى ، وقراءة زيد » .

(١) ب فقط : « قتل من مضى » .

(٢) م : « إذا كان » . وفى جميع الأصول : « لمن غاب عنه خصمه » .

(٣) الإفناد : تخطئة الرأى ، ومثله التفنيد . وفى الأصول : « إفساد ما يخالفه » .

(٤) ط : « وكشف خطأ » . والخطاء : الخطأ . وفى ب ، م : « من يضاره » ، صوابه فى ط .

(٥) فى الأصول : « عند من قرأ كتابه » .

(٦) أصحر به : انكشف وظهر ، من قولهم : أصحر ، إذا خرج إلى الصحراء . وفى الأصول : « وأضجر للسانه » ، لكن فى ط : « وأضجر لسانه » .

على إظهار عَورته . فإذا استراحَ شغب المنازع [(١)] ، ومداراة المستمع لم يبق إلّا أن يَقْوَى على خلافِه أو يَعجِز عنه .

ومن شكر المعرفة بمغاوى الناس [(٢)] ومَراشدهم ، ومضارّهم ومنافعهم : أن يحتمل ثِقَل مؤُنتهم وتعريفهم ، وأن يتوخّى إرشادهم . وإنْ جَهلوا فَضْلَ مَن يُسدِى إليهِمْ .

ولن يُصانَ العِلمُ بمثل بَذْله ، ولن تُستَبْقَى النّعمةُ فيه بمثل نَشْرِه .

وأعلم أنَّ قراءةَ الكتب أَبلغُ فى إرشادهم من تَلَاقيهم ، إذْ كان [(٣)] مع التّلاقى يقوى التصنّع ، ويكثر التّظالم ، وتُفرط النُّصرة [(٤)] ، وتنبعث الحميّة . وعند المزاحَمةَ تشتدُّ الغَلَبةُ — وشهوةُ المباهاة ، والاستحياءُ من الرُجوع ، والأَنَفة [(٥)] من الخضوع . وعن جميع ذلك تحدُثُ الضّغائنُ [(٦)] ، ويظهر التّباين ، وإذا كانت القلوبُ على هذه الصِّفةِ ، وبهذه الحالة ، امتنعَتْ من المعرفة وعَمِيتْ عن الدّلالة .

وليست فى الكتب عِلّةٌ تمنع مِن درْك البُغية ، وإصابةالحجّة ؛ لأنَّ المتوحّد بقراءتها ، والمتفرِّدَ بفهم مَعانيها، لايُباهِى نفسَه ولا يُغالِب عَقْله ولا يُعازُّ خَصمه [(٧)] .

والكتاب قد يَفضُل ويرجُح على واضِعه بـأُمور :

---

(١) ب فقط : « من شغف المنازع » تحريف .

(٢) ب : « بمعائب الناس » م ، ط : « بمعاريب الناس » .والوجه ما أثبت من الحيوان ١ : ٨٤ . والمراشد تقابلها « المغاوى » . وانظر الكلام على « معائب » ماورد فى تفسير أبى حيان ٤ : ٢٧١ عند الكلام على « معائش » .

(٣) فى الأصول : « إذا كان »

(٤) ب ، م : « ويفرط النصرة » .

(٥) ب ، م : « والألفة » ، صوابه فى ط والحيوان ١ : ٨٤ .

(٦) ب : « يحدث الضغائن » .

(٧) المعازة : المغالبة . وفى الحيوان ١ : ٨٥ : « ولا يغالب عقله » .

منها : أنَّ الكتاب يُقرأ بكلِّ مكانٍ وفى كلِّ زمان ، على تَفاوُتِ الأعصار ، وبُعْدِ ما بين الأمصار . وذلك أمرٌ يستحيل فى الواضع[١] ولا يُطمَع فيه من المُنازِع[٢] . وقد يذهب العالِمُ وتبقى كتبُه[٣] ، ويفنى ويبقى أثرُه[٤] .

ولولا ما رسمَتْ لنا الأوائلُ فى كتبها ، وخلَّفت من عجيب حِكَمها ودوَّنت من أنواع سِيَرها[٥] حتَّى شاهدنا بها ماغاب عنَّا ، وفتحنا بها المُستغلِقَ علينا[٦] ، فجمعنا إلى قليلنا كثيرَهم[٧] ، وأدركنا ما لم نكن نُدركُه إلَّا بهم، لقد خَسَّ حَظُّنَا فى الحكمة، وانقطع سبيلُنا إلى المعرفة .

ولو أُلجِئْنا إلى قدر قُوَّتنا ومبلغ خواطرِنا ، ومنتهى تجاربنا ، بما أدركَتْهُ حواسُّنا ، وشاهدَتْهُ نفوسُنا ، لقد قلَّتِ المعرفةُ وقَصُرت الهِمَّة وضَعُفت المُنَّة ، فاعتقم الرأىُ ومات الخاطر ، وتبلَّد العقل[٨] ، واستبدَّ بنا سوءُ العادة .

وأكثَرُ مِن كتبهم نفعاً ، وأحسن ممَّا تكلَّفوا موقعاً[٩] ، كُتُبُ الله تعالى ، التى فيها الهُدَى والرَّحمة ، والإخبار عن كلِّ عبرة ، وتعريفُ كلِّ سيِّئةٍ وحَسَنة .

---

(١) فى الحيوان ١ : ٥٨ : « فى واضع الكتاب » .

(٢) ط : « التنازع » تحريف . وفى الحيوان : « والمنازع فى المسألة والجواب » .

(٣) ب ، م : « ويبقى كتبه » وأثبت مافى ط . والذى فى الحيوان : « وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه » .

(٤) فى الحيوان : « ويذهب العقل ويبقى أثره » .

(٥) ب فقط : « سرها » ، صوابه فى م ، ط والحيوان .

(٦) الحيوان : « كل مستغلق علينا » .

(٧) ب فقط : « أكثرهم » ، تحريف .

(٨) فى جميع الأصول : « العاقل » ، وأثبت مافى الحيوان ١ : ٨٦ .

(٩) فى الحيوان : « وأحسن موقعاً » فقط .

فينبغي أن يكون سبيلنا فيمن بَعْدَنا سبيل مَنْ قبلنا فينا . مع أنَّا قد وجدنا فى العِبرة[١] أكْثَرَ مِمَّا وجدوا ، كما أنَّ مَنْ بعدنا يجدُ من العِبرة أكثر ممَّا وجدنا .

فما ينتظر الفقيهُ بفقهه والمحتجُّ لدينه ، والذَّابُّ عن مذهبه ، ومُواسِي النَّاسِ فى معرفته ، وقد أمكن القولُ وأَطرَقَ السَّامع . ونجا من التقيَّة[٢] ، وهبَّت ريحُ العلماءِ .

٦ — فصـــل منه

واعلمْ أنَّ قصدَ العبدِ بنعم الله تعالى إلى مخالفته ، غير مخرجٍ إنعامَ الله تعالى عليه ، ولا يحوِّل إحسانه إليه[٣] إلى غير معناه وحقيقته ، ولم يكن[٤] إحسانُ الله فى إعطائه الأَداةَ وتبيينَ الحجَّة لينقلبا إفساداً وإساءة ؛ لأنَّ المُعانَ على الطَّاعة عَصَى بالمعونة ، وأفسدَ بالإنعام ، وأساءَ بالإحسان .

وفرقٌ بينَ المُنعِمِ والمنْعَمِ عليه ؛ لأنَّ المنعَم عليه يجب أن يكون شكوراً ، ولِيحقَّ النِّعمة راعِياً[٥] ، والمُنعِم منفردٌ بحُسْن الإنعام ، وشريكٌ فى جميل الشكر . ولأنَّ المنعِم أيضاً هو الذى حَبَّب الشُّكرَ إلى فاعله ، بالذى قَدَّم إليه من إحسانه ، وتولَّى من يساره[٦] ، ولذلك جعلوا النِّعمة لِقاحاً ، والشُّكر وِلاداً[٧] . وإنَّما مَثَل إعطاءِ الآلة والتكليف لفعل

(١) فى الحيوان : « من العبرة » .

(٢) التقية : الحذر والخوف . والذى فى الحيوان : « وخوى نجم التقية » .

(٣) ب فقط : « عليه » .

(٤) ب : « ولن يكون » ، صوابه فى م ، ط .

(٥) ب : « ويحق النعمة » صوابه فى م ، ط . وفى ب ، م « راغباً » ، والوجه ما أثبت من ط .

(٦) م ، ط : : « من ساره » ، ولا وجه له واليسار : الغنى

(٧) الولاد والولادة والإلادة كلها مصدر الفعل ولد .

الخير[(١)] مَثَلُ رجلٍ تَصدَّق على فقيرٍ ليستر عَورتَه ، ويُقِيم من أَوَدِ صُلبه ، وليَصْرِف فى منافعه . ولا يكونَ إنفاقُ الفقير ذلك الشيء فى الفسادِ والخلافِ والفَواحش ، لينقلب[(٢)] إحسانُ المتصَدِّق إساءة . وإنَّما هذا بصواب الرَّأى الذى لاينقلب صواباً وإن أنجح صاحبُه[(٣)] .

وقد يُؤْتَى[(٤)] الرَّجل من حَزْمه ولايكون مذموماً ، ويَحْظَى[(٥)] بالإضاعة ولا يكون محموداً .

٧ — فصــل منه

ولم يكن اللهُ تعالى ليضَعَ العدلَ مِيزاناً بين خلقه ، وعِياراً على عباده ، فى نَظَر عقولهم فى ظاهِرِ ما فَرَض عليهم ، وييسِّر[(٦)] خلافَه ، ويستخفّ بضدِّه ، ويعلم أن قضاءه فيهم غير الذى فَطَرهم على استحسانه ، وتحبَّب إليهم به ، فى ظاهرِ دينه ، والذى استوجب به عَلَىَّ الشُّكْرِ على جميع خلقه .

٨ — فصــل منه

وإنْ لم يكن العبد على ماوصفنا[(٧)] من الاستطاعة والقُدرة ، والحال التى هى أدعَى[(٨)] إلى المصلحة ، ماكان متروكاً على طباعه ودَواعِى شهواته ، دونَ تعديلِ طَبْعه وتسويةِ تركيبه .

ولذلك أَسبابٌ نحن ذاكروها ، وجاعِلُوها حجَّةً فى إقامة الإمامة ،

---

(١) فى جميع الأصول : « لفعل الخير » ، وإنما يقال كلفه بالأمر وكلفه إياه .
(٢) ب ، م : « لتنقلب » صوابه فى ط .
(٣) ب : « وإنما أنجح صاحبه » .
(٤) ب ، م : « يوقى » ، صوابه فى ط .
(٥) يحظى ، من الحظوة . وفى ب ، م : « يخطى » ، صوابه فى ط .
(٦) ما عدا ط « ويسر » .
(٧) ب « وصفنا به » و « به » مقحمه
(٨) ب ، م . « ادعا » ط : « ادعاه » ، والوجه ما أثبت

وأنَّ عليها مدارَ المصلحة ، وأنَّ طبع البَشَر يمتنع من الإجبار إلّا على مانحنُ ذاكروه ، فنقول :

إنَّا لما رأينا طبائعَ الناس وشَهواتِهم ، من شأنها التقلُّبُ إلى هَلَكتهم وفسادِ دينهم ، وذَهَاب دُنْياهم ، وإن كانت العامَّة أسرعَ إلى ذلك من الخاصَّة ، فكلٌّ لاتنفكُ[1] طبائعُهم من حَمْلِهم على مايُرْدِيهم[2] ، مالم يُرَدُّوا بالقَمْع الشَّديد فى العاجل ، من القصاص العادل ، ثم التَّنكيلِ فى العقوبة على شرِّ الجِنايَة[3] ، وإسقاط القَدْر ، وإزالة العدالة ، مع الأسماء القبيحة ، والألقاب الهجينة ، ثم بالإخافة الشَّديدة والحَبْس الطويل ، والتغريب عن الوطن[4] ، ثم الوعيد بنار الأبَد ، مع فَوْتِ الجنَّة .

وإنَّما وضع الله تعالى هذه الخصالَ لتكون لقوَّة العَقْل مادَّة ، ولتعديل الطَّبائع مَعُونة ؛ لأنَّ العبد إذا فَضَلَتْ قُوَى طبائعِه وشهواتِه على قُوَى عقلِه ورأيِه ، ألفِيَ[5] بصيراً بالرُّشد غيرَ قادرٍ عليه ، فإذا احتوشَتْه المخاوفُ كانت موادَّ لزواجر عقلِه ، وأوامِر رأيه . فإذا لم يكن فى حوادث الطَّبائع ودَواعِي الشَّهوات وحُبِّ العاجل فضــلٌ على زواجرِ العقل وأوامرِه[6] ألفِيَ العبدُ ممتنعاً من الغَيِّ قادراً عليه ؛ لأنَّ الغضب والحَسَد والبُخلَ والجُبْن ، والغَيرة ، وحُبَّ الشَّهواتِ والنِّساء ، والمكاثرةَ[7] ،

(١) ب ، م : « لاينفك » .
(٢) الإرداء : الإهلاك . وفى م فقط : « يؤذيهم » ، تحريف .
(٣) فى الأصول : « الخيانة » ، والوجه ما أثبت .
(٤) م : « والغريب عن الوطن » ، تحريف .
(٥) ب : « ألق » ط : « ألفى » ، صوابه فى م .
(٦) ب : « عن على زواجر العقل » ، و« عن » مقحمة وفى م « وأوامر العى » . تحريف .
(٧) ط : « والمكاثرة » . والمكاثرة : المباسطة

والعُجْب والخُيَلاءَ وأنواعَ هذه إذا قَوِيتْ دواعيها لأهلها ، واشتدّت جَواذِبُها لصاحبها ، ثم لم يَعلَمْ أنْ فوقه ناقماً عليه ، وأنّ له منتقماً لنفسه من نَفْسه ، أو مقتضِياً منه لغيره ، كان مَيلُه وذَهابه مع جواذب الطَّبيعةِ ودواعي الشَّهوةِ طِباعاً لا يمتنع معه ، وواجباً لا يستطيع غيره .

أوَمَا[1] رأيتَه كيف يَخْرَق فى ماله[2] ، ويُسرِع فيما أثْلَتْ له رجالُه ، وشيَّدت له أوائله[3] ، من غير أن يرى للِعَوض وجهاً ، وللخَلَف سبباً فى عاجل دينِه ، ولا آجِلِ دُنْياه ، حتَّى يكون وَالِي المسلمينَ هو الذى يَحجُرُ عليه ؛ ليكون مضَضُ الحَجْر وذُلُّ الحَظْر ، وغِلظةُ الجَفوةِ واللَّقبُ القبيح ، وتسليط الأشكال ، مادّةً للذى معه من مَعرفتهِ وبقيَّةِ عقله .

٩ — فصل منه

وقد يكون الرَّجلُ معروفاً بالنَّزَق[4] مذكوراً بالطَّيش مُستهاماً بإظهار الصَّولة حتَّى يتحامَى كلامَه الصَّديقُ ، ويُداريهِ الجليس ، ويَترُكَ مُجارَاتَهُ[5] الكَريم ، للذى يعرفون من شذَاتِه[6] ، وبَوَادرِ حِدَّته[7] وشدَّةَ تسعُّره والتهابه ، وكثرةِ فَلَتاتِه . ثم لايلبث أن يَحضُر الوالى الصَّليبُ والرجلُ المنيع ، فيُلفَى ذليلًا خاضعاً ، أو حليماً وقوراً ، أو أديباً رفيقاً ، أو صبوراً مُحتسِباً .

---

(١) ب فقط : « أوأما » ، تحريف .
(٢) الخرق ، بالتحريك : نقيض الرفق . ب : « يحزق » ، تحريف .
(٣) فى الأصول : « وشدت له أوائله » .
(٤) النزق : الطيش والخفة . ب : « بالنزف » م : « بالنرق » ، صوابهما فى ط .
(٥) فى الأصول : « مجازاته » بالزاى .
(٦) الشذاة : الشر والأذى . ب : « شداته » م : « شدانه » ، صوابهما ما أثبت . وفى ط : « شدته » .
(٧) ب ، م : « ونوادر حده » ، صوابه فى ط .

وقد نجده يَجْهَل على خصمه ، ويَستطيلُ على منازِعه ، ويهُمُّ بتناوله والغدرِ به[(١)] ، فإذا عرَفَ له حُماةً تكفيه ، وجُهّالًا تحميه ، وجاهاً يمنعُه ، ومالًا يَصُول به ، طامَنَ له مِن شخصه ، وألَانَ له من جانبه ، وسكَّنَ من حركته ، وأطفأَ نارَ غضبِه .

أو ما علمت أنَّ الخوف يطرد السُّكر ، ويُميت الشَّهوة ، ويُطفئُ الغَضَب ، ويحطُّ الكِبْر ، ويذكِّر بالعاقبة ، ويُساعِدُ العقل ، ويُعاون الرَّأى ، ويُنبِتُ الحيلة[(٢)] ويبعث على الرويَّةِ ؛ حتَّى يعتدل به تركيب من كان مغلوباً على عقله ، ممنوعاً من رأيه ، بُسكْرِ الشَّباب وسكر الغَنَاءِ[(٣)] وإهمال الأمر ، وثقة العزّ ، وبَأْوِ القدرة[(٤)] .

١٠ — فصـــل منه

وإنَّما أطنَبْتُ[(٥)] لك فى تفسيرِ هذه الأحوالِ التى عليها الوجـــودُ والعبرةُ ، لتعلمَ أنَّ الناس لو تُرِكوا وشهواتِهِم ، وخُلُّوا وأهواءَهم[(٦)] وليس معهم من عقولهم إلا حِصَّة الغريزه[(٧)] ونصيبُ التركيب . ثم أُخْلُوا من المرشِدين والمؤدِّبين ، والمعترضين بينَ النفوس وأهوائها ، وبين الطَّبائع وغَلَبَتِها ، من الأنبياء وخلفائها ، لم يكن فى قُوَى عُقولِهم ما يُداوُون به أدواءَهم ، ويَجْبرون[(٨)] به من أهوائهم ، ويقوَون به لمحاربَة طبائِعهم[(٩)] ، ويعرفون به جميع مصالحهم .

(١) ب ، م : « بتناوله بالأمر به » ، صوابه فى ط .
(٢) ب ، م : « ويسبب الحيلة » .
(٣) الغناء ، كسحاب : مقابل الفقر ، وهو الغنى ، تكسر الغين فيقصر وتفتح فيمد . ب ، م : « الغنا » ط : « الفناء » صوابهما ما أثبت .
(٤) البأو : الكبر والفخر .
(٥) ب ، م : « أطبت » ، ووجهه فى ط .
(٦) فى الأصول : « تركوا شهواتهم وخلوا أهواءهم » ، والوجه ما أثبت .
(٧) ب فقط : « العزيز » ، صوابه فى م ، ط .
(٨) الجبر : الإصلاح . وفى الأصول : « ويخبرون » .
(٩) ب فقط : « ويقولون به لمحاربته طبائعهم » ، تحريف .

وأيُّ داءٍ هو أردَى من طبيعةٍ تُردِى ، وشَهوةٍ تُطْغِى ؟! ومن كان لايَعُدُّ الداءَ إلّا ما كان مُولِماً فى وقته ، ضارباً على صاحبه فى سوادِ ليله[1] وبياضِ نهاره ، فقد جهلَ معنى الداءِ . وجاهلُ الدّاءِ جاهلٌ بالدواءِ .

١١ ـ فصــل منه

ولكنّا نقولُ : لايجوز أن يَلِيَ أمرَ المسلمين على ظاهر الرّأى والحزم والحَيْطة أكثَرُ من واحد ، لأنَّ الحُكّامَ والسّادةَ إذا تقاربَتْ أقدارُهم وتساوت عِنَايَتُهم[2] قويَتْ دواعيهم إلى طلب الاستعلاءِ ، واشتدَّت منافَسَتُهُمْ فى الغلبة .

وهكذا جَرَّبَ النَّاسُ من أنفسهم فى جيرانهم الأَدْنَيْنَ فى الأصهار وبنِي الأعمام ، والمتقاربين فى الصّناعات ، كالكلام ، والنجوم ، والطِّبِّ والفُتْيا ، والشِّعر ، ، والنحو والعَروض ، والتِّجارة ، والصِّياغة ،والفلاحة أنَّهم إذاتدانَوْا فى الأقدار ، وتَقَاربوا فى الطَّبقات ، قويَتْ دواعيهم إلى طَلَب الغَلَبةِ ، واشتَّدت جَوَانبُهم فى حبِّ المباينة ،والاستيلاءِ على الرِّياسة .

ومتى كانت الدَّواعى أقوى كانت النَّفس إلى الفساد أَمْيَلَ ، والعزمُ أضعف ، وموضع الروِيّة[3] أشغل ، والشَّيطانُ فيهم أطمع ؛ وكان الخوفُ عليهم أشدَّ ، وكانوا بموافَقَة المفسِدِ أحْرَى : وإليه أقرب .

وإذا كان ذلك كذلك فأصلح الأُمورِ للحُكّام والقَادة ، إذاكانت[4] النفوسُ ودواعيها ومَجرى أفعالها على ما وصفنا ـ أن تُرفَعَ عَنهم أَسبابُ التَّحاسُدِ والتَّغالب ـ والمباهاةِ والمنافسةِ .

---

(١) ب فقط : « فى سواء ليله » ، تحريف .
(٢) ب ، م : « عيناتهم » ، صوابه فى ط .
(٣) ب ، م : « الرؤية » ، صوابها فى ط .
(٤) ب فقط : « وإذا كانت » ، تحريف .

وإنَّ[١] ذلك أدعَى إلى صَلاحِ ذاتِ البَيْن ، وأَمْنِ البَيْضة ، وحِفْظ الأَطراف .

وإذا كان اللهُ تَباركَ وتعالى ، قدْ كلَّف النَّاسَ النظَر لأَنفُسِهم[٢] ، واستيفاءَ النِّعمة عيهم ، وتركِ الخِطار[٣] بالهَلَكة والتَّغرير بالأُمَّة ، وليس عليهم مِمَّا يمكنهم[٤] أكثرُ من الحَيْطة والتَّباعد من التَّغرير . ولاحالَ أَدعَى إلى ذلك أكثرُ مِمَّا وصفْنا ، لأَنَّه أَشبهُ الوجوهِ بتمام المَصلحة ، والتَّمتُّع بالأَمنِ والنِّعمة .

١٢ — فصـــل منه

فلمَّا كان ذلك كذلك علمنا أنَّه إذا كان القائمُ بأُمور المسلمين بائِنَ الأَمْرِ ، متُفَرِّدًا بالغاية من الفَضْل ، كانت دواعِي النَّاس إلى مسابقته ومُجاراتِه أقلَّ .

ولم يكن اللهُ لِيَطبَعَ[٥] الدُّنيا وأهلَها على هذه الطبيعة ، ويركِّبها وأَهلَها[٦] هذا التركيب ، حتَّى تكون إقامةُ الواحدِ من النَّاسِ أَصلحَ لهم ، إلَّا وذلك الواحدُ موجودٌ عند إرادتِهم له ، وقصْدِهم إليه ؛ لأَنَّ الله لايُلْزِمُ النَّاسَ فى ظاهر الرَّأى والحِيطة إقامةَ المعدوم ، وتشييد المجهول[٧] ؛ لأَنَّ على النَّاس التسليم ، وعلى الله تعالى قَصْدُ السَّبيل .

---

(١) ب ، م : « إن » بسقوط الواو .
(٢) ب فقط : « إلى أنفسهم » ، تحريف .
(٣) الخطار : المخاطرة . ط فقط : « الخطر » ، ولا وجه له .
(٤) ب ، م : « وليس عليهم أكثر مما يمكنهم » ، و « أكثر » هنا مقحمة .
(٥) ب ، م : « ولو لم يكن » . و « لو » مقحمة . وفى م ، ط : « ليطيع » تحريف . صوابه فى ب .
(٦) ط : « ويركبها أهلها » ، صوابه فى ب ، م .
(٧) ب ، م : « وتشريد المجهول » ، صوابه فى ط .

وهل رأيتم مَلِكين أوْسيِّدين فى جاهليّةٍ أو إسْلام ، من العرب جميعاً أو من العَجَم ، لايتحيَّفُ أحدُهما مِن سلطانِ صاحبِهِ ولا يَنْهَكُ أطرافَه ، ولا يُساجِلُه الحروبَ ؛ إذْ كلُّ واحدٍ منهما يَطمع فى حَدِّ صاحِبِه وَطرَفِه ، لتقارُب الحال ، واستواء القَرِىّ (١) . كما جاءت الأخبار عن ملوك الطَّوائف كيف كانت الحروب راكدةً وأمرهم مَرِيجٌ (٢) ، والنَّاس نَهْبٌ ، ليس ثغرٌ إلّا معطَّل ، ولا طَرَفٌ إلّا مُنكشِفٌ ، والنَّاسُ فيما بينَهم مشغولون بأنفسهم (٣) ، ملوكُهم من عَزَّ بَزَّ ، مع إنفاق المال (٤) ، وشُغْل البال ، وشدة الخِطار (٥) بالجميع ، والتَّغرير بالكلّ .

١٣ — فصـــل منه

فإن قالوا : فما صفة أفضلهم ؟

قلنا : أن يكون أقوى طبائعه عَقْلَه ، ثم يصل قُوَّةَ عقله بشدَّة الفحصِ وكثرةِ السَّماع ، ثمّ يصلَ شدَّة فحصِه وكثرةَ سماعه بحُسْن العادة . فإذا جَمَعَ إلى قوة عقله (٦) علماً ، وإلى علمه حَزْماً ، وإلى حزمه عزماً ، فذلك الذى لا بَعْدَه .

وقد يكون الرَّجلُ دونَه فى أمورٍ وهو يستحقُّ مرتبةَ الإمامة، ومنزلةَ الخِلافة ، غير أنَّه على حالٍ لا بدَّ من أن يكون أفضلَ أهلِ دَهرِه . لأنَّ من التعظيم لمقام رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يُقامَ فيه إلَّا أشبهُ

(١) القرى ، كغنى : مجرى الماء فى الروض . ب : « واستوى القرى » ، صوابه فى م ، ط .

(٢) ب : « وأمر مريج » . والمريج : المختلط . وفى الكتاب العزيز : « فهم فى أمر مريج » .

(٣) أى هذا نهجهم وسبيلهم . أى من غلب سلب . وهذا المثل لعبيد بن الأبرص ، أو جابر بن رألان . وانظر الضبى ٥٣ والفاخر ٨٩ والعسكرى ٢ : ٢٨٨ واللسان (بزز) .

(٤) ط فقط : « اتفاق المال » .

(٥) ط فقط : « الخطر » .

(٦) ب ، م : « إلى عقله » بإسقاط « قوة » .

النَّاسِ به فى كلِّ عصر . ومن الاستهانةِ به أَن يُقامَ فيه من لا يُشبهه وليس فى طريقته .

وإنَّما يُشبِه الإمامُ الرسولَ بأَن يكون لا أَحَدَ آخَذُ (١) بسيرته منه. فأَمَّا أن يُقارِبَه أو يُدانِيَه فهذا مالا يجوز، ولا يَسَع تمنِّيه، والدُّعاءُ به.

١٤ — فصــل منه

وإذا كان قولُ المهاجرينَ والأَنصارِ والذين جَرَى بينهم التَّنافسُ والمُشَاحَّةُ على ماوصفْنا فى يوم السَّقيفة، ثم صنيعُ أَبى بكر وقولهُ لطلحة فى عمر ؛ وصنيعُ عمر فى وَضْع الشُّورى وتوعُّدِهم له بالقتل إنْ هم لم يُقيموا رجلًا قبل انقضاء المدّة ، ونُجوم الفِتنة ؛ ثم صنيعُ عثمان وقولُه وصبرُه حتَّى قُتِلَ دونها ولم يُخْلَعها ؛ وأَقوال طلحة (٢) والزُّبيرِ وعائشةَ وعلىٍّ رحمة الله عليهم وعليها ، ليست بحجَّةٍ على ماقُلْنا — فليست فى الأَرضِ دَلالةٌ ولا حجَّةٌ قاطعة (٣).

وفى هذا البابِ الذى وصفْنا ، ونزَّلنا (٤) من حالاتهم وبيَّنَّا ، دليلٌ على أَنَّهم كانوا يرون أَنَّ إقامة الإمام فريضةٌ واجبة ، وأَنَّ الشَّركةَ عنها منفيَّة ، وأَنَّ الإمامة تجمع صلاحَ الدِّين وإيثارَ خيرِ الآخرةِ والأُولى .

---

(١) ب: « الآخذ آخذ » م: « لاأخذ آخذ » ط: « بأن يكون آخذا »، والصواب ما أثبت .
(٢) ب، م : « وقال طلحة » ، صوابه فى ط .
(٣) ب، م : « ونولنا » ، وفى ط : « وبينا » ، صوابهما ما أثبت .
(٤) ب، م : « ظاهرا » ، صوابه بالمهملة كما فى ط .

١٥ — فصــل منه

وأَىُّ مذهبٍ هو أَشنَعُ ، وأَىُّ قولٍ هو أفحش ، من قول من قال : لابُدَّ للشاهد من أن يكون طاهراً عدلا مأْموناً ، ولا بأْسَ (١) أن يكون القاضى جائِراً ، نَطِفاً فاجراً (٢) ، وهذا لا يشبه حُكْمَ الحكيم ، وصِفَةَ الحليم ، ونظَرَ المرشِد ، وترتيبَ العالِم .

---

(١) فى الأصول : « ولا يأمن » .

(٢) النطف : الذى ينطف بالفجور ، أى يرى به ويقذف ، اى من أهل الريبة . ب ، م : « نطقاً » ط : « نطماً » صوابه بالفاء كما أثبت .

٢٩

من كتابه في

مقالة الزيدية والرافضة

١ - فصـل

من صدر كتابه فى مقالة الزيدية والرافضة(١)

اعلمْ - يرحمُنا اللهُ وإيَّاك - أنَّ شيعةَ علىٍّ رضى الله عنه زَيدىٌّ ورافضىٌّ ، وبقيتهم بَدَدٌ لانظامَ لهم ، وفى الإخبار عنهما غناء (٢) عمن سواهما (٣) .

قالت علماءُ الزَّيدية : وجدنا الفَضْل فى الفعل دون غيره ، ووجدنا الفعل كلَّه فى أربعة أقسَام :

أوَّلها : القِدَم فى الإسلام حين لا رغْبَةَ ولا رهبةَ إلاَّ من الله تعالى وإليه.

ثم الزُّهدُ فى الدُّنيا ؛ فإنَّ أزهدَ الناس فى الدُّنيا (٤) أرغبُهم فى الآخرة ، وآمنُهمْ على نفائس (٥) الأموالِ ، وعقائل النِّساءِ ، وإراقة الدِّماءِ .

ثم الفقهُ الذى به يَعرِفُ النَّاسُ مصالحَ دُنْياهم ، ومَراشدَ دينهم .

ثم المَشْىُ بالسَّيفِ كِفاحاً (٦) فى الذَّبِّ عن الإسلام وتأْسيسِ الدِّين ؛ وقَتْلُ عدوِّه وإحياءُ وليِّه ؛ فليس فوقَ بذلِ المُهْجة واستغراق القُوَّة غايةٌ يطلبها طالب ، أوْ يرتجيها راغب (٧) .

ولم نجد قولًا خامساً فنذكُرَه .

---

(١) هامش الكامل ٢ : ٢٩١ - ٣٠١

(٢) الغناء ، بالفتح : الكفاية . ب : « غنا » م : « غنى » وأثبت ما فى ط .

(٣) ط : « عن سواهما » .

(٤) ط فقط : « فى الناس » .

(٥) ب فقط : « نفس الأموال » .

(٦) الكفاح : المواجهة والمضاربة فى الحرب تلقاء الوجوه .

(٧) ب فقط : « ويرتجيها راغب » .

فلمَّا رأينا هذه الخِصال مجتمعةً فى رجلٍ دون النَّاسِ كلِّهم وجَبَ علَينا تفضيلُه عليهم ، وتقديمه دُونَهم .

وذاكَ أنَّا سألنا العلماء والفقهاءَ ، وأصحابَ الأخبار ، وحُمَّالَ الآثار ، عن أوَّلِ النَّاسِ إسلاماً ، فقال فريقٌ منهم : علىٌّ ، وقال قومٌ : زيدبن حارثة ، وقال قومٌ : خَبَّاب . ولم نَجِدْ قولَ كلٍّ واحد منهم من هذه الفرقِ قاطعاً لعُذْر صاحبه ، ولا ناقلًا عن مذهبه ، وإن كانت الرواية فى تقديم علىٍّ أشهر ، واللَّفظُ به أكثر [(١)]

وكذلك إذا سألْناهم عن الذَّابِّين عن الإسلام بمُهَجِهم [(٢)] . والماشِينَ إلى الأقران بسُيوفهم ، وجَدْناهم مختلفِين :

فمن قائل يقول : علىٌّ رضى الله عنه ، ومن قائِل يقول : الزُّبير ، ومن قائل يقول : ابن عَفْراءَ [(٣)] ، ومن قائلٍ يقول : مُحمَّد بن مَسْلَمة ، ومن قائِل يقول : طلحة ، ومن قائلٍ يقول : البَرَاءُ بنُ مالك [(٤)] .

على أنَّ لعلىٍّ مِن قتلِ الأقرانِ والفُرْسان ماليس لهم ، فلا أقلَّ من أن يكون علىٌّ فى طبقتهم .

وإنْ سألناهم عن الفُقهاءِ والعلماءِ ، رأيناهم يعُدُّون عليًّا كان أفقهَهُمْ [(٥)] ، وعُمرَ ، وعبدَ الله بنَ مسعودٍ ، وزيدَ بنَ ثابتٍ ، وأُبَىَّ بنَ كعب .

---

(١) ب فقط : « واللفظ أكثر » .

(٢) ب فقط : « بمجتهم » ، تحريف .

(٣) انظر حواشى صفحة ٢٠٨ .

(٤) البراء بن مالك : صحابى جليل ، وهو أخو أنس بن مالك الأنصارى . وهو قاتل مرزبان الزارة ، يوم تستر . انظر الإصابة ٦١٧ .

(٥) ط : « يعدون عليا أفقههم » .

على أنَّ عليًّا كان أفقَهَهم (١) ، لأنَّه كان يُسأَل ولا يَسأَل ، ويُفتِى ولا يستفتِى ، ويُحتاجُ إليه ولا يَحتاج إليهم . ولكن لا أقَلَّ من أن نجعلَه فى طبقتهم وكأحدهم .

وإنْ سألناهم عن أهل الزَّهادة وأصحاب التقشُّفِ ، والمعروفين برَفْض الدُّنيا وخَلْعِها ، والزُّهْدِ فيها ، قالوا : علىٌّ ، وأبو الدَّرداء ، ومُعاذُ ابنُ جَبَل ، وأبو ذرٍّ ، وعَمَّارٌ ، وبلالٌ ، وعثمانُ بنُ مظعون .

على أنَّ عليًّا أزهدُهُم ؛ لأنَّه شاركهم فى خُشونة الملبس وخشونة المأْكَل ، والرِّضا باليسير ، والتبلُّغ بالحقير (٢) ، وظَلْفِ النَّفسِ (٣) ، ومُخالَفَة الشَّهوات . وفارقَهم بأنْ مَلَكَ بُيوتَ الأموال ورِقابَ العَربِ والعَجم ، فكان ينضَحُ بيتَ المال فى كلِّ جُمُعةٍ ويصلِّى فيه ركعتين . ورَقَّع سراويلَه بالقِدِّ (٤) ، وقطعَ ما فَضَل من رُدْنِهِ (٥) عن أطراف أصابعه بالشَّفْرة . فى أمور كثيرة . مع أنَّ زُهْدَه أفضلُ من زُهْدهم ؛ لأنَّه أعلَمُ منهم . وعِبادةُ العالِم ليست كعبادةِ غيره ، كما أنَّ زَلَّتَه ليست كزَلَّة غيره . فلا أقلَّ من أن نَعُدَّه فى طبقتهم .

ولا نجدُهم ذكَروا لأبى الدَّرداء ، وأبى ذرٍّ ، وبلال ، مثلَ الذى ذكروا له فى باب العَنَاء (٦) والذَّبِّ ، وبذْلِ النفس . ولم نجدْهم ذكروا للزُّبير ، وابن عفراءَ (٧) وأبى دُجانة ، والبَراءِ بنِ مالك ، مثلَ الذى ذكروا له

(١) ب : « أفقه منهم » .
(٢) ط : « والتبليغ » تحريف . والتبلغ بالشىء : الاكتفاء به .
(٣) ظلف النفس : منعها وكفها . ط : « وصلف النفس » ، تحريف .
(٤) ط : « ورقع سراويله » فقط . وفى ب ، م : « بأبقر » صوابه ما أثبت . والقد ، بالكسر : السير يقد من الجلد ، أى يقطع .
(٥) الردن ، بالضم : الكم . ب : « من دونه » ط : « من ردائه » والوجه ما أثبت من م .
(٦) ب ، م : « الغبا » ، والوجه ما أثبت من ط . وانظر ما سبق فى ص ٣١١ .
(٧) ب فقط : « وابن عمر » . وانظر ما سبق فى حواشى ص ٢٠٨ .

من التقدُّم فى الإسلام ، والزُّهد ، والفقه . ولم نجدهم ذكروا لأبى بكرٍ وزيدٍ، وخَبَّابٍ ، مثلَ الذى ذكروا له من بَذْل النفس والغَنَاء، والذَّبِّ بالسَّيف [1] ، ولا ذكروهم فى طبقةِ الفُقهاءِ والزُّهَّاد .

فلمَّا رأينا هذه الأمورَ مجتمعةً فيه ، متفرِّقة فى غيره من أصحاب هذه المراتبِ وهذه الطبقات ، علمنا أنَّه أفضلُهم ، وإنْ كان كلُّ رجل منهم قد أخذ من كلِّ خيرٍ بنصيب [2] فإنَّه لن يبلغَ ذلك مبلغَ من قد اجتمع له جميعُ الخَيرِ وصُنوفه .

٢ — فصــل منه

وضربٌ آخرُ من الناس هَمَجٌ هامجٌ [3] ، ورَعَاعٌ منتشرٌ ، لانظامَ لهم ، ولا اختيار عندهم ، أعرابٌ أجلاف ، وأشباه الأعراب . يفترقون [حيث يفترقون ، ويجتمعون حيث يجتمعون [4]] ؛ لاتُدفع صَولتُهم إذا هاجوا ، ولا يُؤمَن هَيَجانُهم [5] إذا سكَنُوا . إنْ أخصَبُوا طَغَوْا فى البلاد ، وإنْ أجدَبوا آثَرُوا العِناد .

ثم هم موكَّلون بُبغض القادةِ ، وأهلِ الثَّراء [6] والنَّعمة ، يتمنَّون النَّكبة ، ويَشْمَتُون بالعَثْرةِ ، ويُسرُّون بالجَوْلة ، ويترقَّبون الدائِرة .

وهُمْ كما وُصِفوا الطَّغامُ والسَّفلة .

---

(١) ب ، م : « والدب بالسيف » ، وإنما هو « الذب » كما فى ط . : الدفاع .

(٢) كل ، ساقطة من م .

(٣) الهمج ، بالتحريك : رذال الناس . وأصل الهمج ذباب صغير كالبعوض يسقط على وجوه الإبل والغنم والحمير وأعينها . والهامج : الذى ترك بعضه يموج فى بعض ، أو هو على المبالغة ، كما يقال ليل لائل .

(٤) التكملة من م ، ط .

(٤) م : « تهيجهم » .

(٥) ط : « وأهل الثرى » ، وهى صحيحة . وفى اللسان : « ثرى الرجل يثرى ثرى وثراء ، ممدود ، وهو ثرى ، إذا كثر ماله » .

(٦) ب : « وهم كلما وصفوا » ، صوابه فى م ، ط .

وقال عليٌّ رضى الله عنه فى دعائه : « نعُوذ بالله من قوم إذا اجتمعوا لم يُمْلكُوا ، وإذا افترقوا لم يُعرَفوا » . فهؤلاء هؤلاء .

وضربٌ آخرُ قد فَقِهوا فى الدِّين ، وعَرَفوا سببَ الإمامة ، وأقنعهم الحقُّ وانقادُوا له بطاعة الرُّبوبيَّة وطاعةِ المحبَّة ، وعرفوا المِحْنة(١) وعرفوا المَعْدِن ، ولكنَّهم قليلٌ فى كثير ، ومختارُ كلِّ زمان(٢) . وإن كثرُوا فهم أقلُّ عدداً وإن كانوا أكثر فِقْهاً .

فلما كان النَّاس عند عليٍّ وأبى بكر وعُمرَ ، وأبى عبيدة ، وأهلِ السَّابقة المهاجِرينَ والأنصار ، على الطَّبقات التى نزَّلنا ، والمنازل التى رتَّبنا ، وبالمدينة مُنافِقون يَعَضُّون عليهم الأناملَ من الغَيظ ، وفيها بِطانةٌ لا يألُونَهُم خَبَالًا(٣) ، لا يَخفى عليهم موضعُ الشِّدَّة وانتهازِ الفرصة ، وهم فى ذلك على بقيَّة(٤) ، ووَافق(٥) ذلك ارتدادُ مَنْ حولَ المدينةِ من العرب ، وتوعُّدهم بذلك(٦) فى شكاة النبى صلى الله عليه وسلم ، وصحَّ به الخبر .

ثم الذى كان من اجتماع الأنصار حيث انحازُوا من المهاجرين وصاروا أحزاباً وقالوا : « منَّا أميرٌ ومنكم أمير » ، فأشفقَ عليٌّ أن يُظهِرَ إرادةَ القيام بأمر النَّاسِ ، مخافةَ أن يتكلَّم متكلِّمٌ أو يشغبَ شاغب ممن وصفنا حالَه ، وبيَّنَّا طريقتَه ، فيحدُثَ بينهم فُرقةٌ ، والقلوبُ على

---

(١) فى الأصول : « المحبة » .

(٢) ب ، م : « ويختار كل زمان » ، والوجه ما أثبت . على أن هذه العبارة ساقطة من ط .

(٣) أى لايقصرون فى إفساد أمرهم .

(٤) ط فقط : « على تقية » .

(٥) ب ، م : « وافق » بسقوط الواو .

(٦) ب : « فى ذلك » .

ماوصفْنا ، والمنافقون على ماذكَرْنا ، وأهلُ الرِّدّة على ما أخبرنا ، ومذهبُ الأنصارِ على ما حكَينا .

فدعاه النَّظرُ للدِّين إلى الكفِّ عن الإظهار والتَّجافى عن الأُمور ، وعلمَ أن فَضْل ما بينه وبين أبى بكر فى صلاحهم لوكانوا أقاموه[١] ، لايُعادل التَّغريرَ بالدِّين ، ولايَفِى بالخِطار بالأنفس[٢] ؛ لأنَّ فى الهَيْج البائِقةَ[٣] ، وفى فساد الدِّين فسادَ العاجلةِ والآجلة . فاغتَفَر الخُمولَ ضَنًّا بالدِّين ، وآثَرَ الآجلةَ على العاجلةَ ، فدلَّ ذلك على رَجاجة حِلمِهِ ، وقلَّة حِرصه ، وسَعَةِ صَدْرِه ، وشدَّةِ زُهده ، وفرطِ سماحتِه[٤] وأصالة رأيه .

ومتى سَخَتْ نفسُ امرئٍ عن هذا الخَطْب الجليل ، والأمرالجزيل ، نَزَل من الله تعالى بغاية منازل الدِّين .

وإنَّما كانت غايتهم فى أمرهم أربَحَ الحالينِ لهم ، وأعونَ على المقصود[٥] إذ علِمَ[٦] أنَّ هَلَكَتهم لا تقوم بإزاءِ صَرْفِ مابين حالِه وحال أبى بكر فى مصلحتهم .

---

(١) ب : « لوكانوا أقاموا » م : « لوكان أقاموه » ، وأثبت الوجه من ط .

(٢) ط : « بالخطر بالأنفس » .

(٣) البائقة : الداهية ، يقال باقتهم تبوقهم بوقا : أصابتهم ، ومثله فقرتهم الفاقرة . ب : « لأن الهيج البائعة » ط : « لأن فى التهيج البائقة » ، وأثبت ما فى م .

(٤) ب ، م : « سماحه » . والسماح والسماحة بمعنى ، هو المساهلة ، وهو الجود والسخاء .

(٥) ب ، م : « وأعوذ المقصورعليهم » صوابه فى ط .

(٦) ب ، م : « واعلم » ، صوابه من ط .

٣ ـ فصل منه

وإنّما ذكرتُ لك مذهَبَ من لا يجعل القرابة والحَسَبَ سبباً إلى الإمامة ، دونَ مَنْ يجعل القرابة سبباً من أسبابها وعِلَلِها[١] ، لأنّى قد حكيته (فى كتاب الرّافضة) ، وكان ثَمّ أوقعَ ، وبهم أَلْيَق ؛ وكرهتُ المُعادَ من الكلام والتّكرارَ ؛ لأنّ ذلك يُغْنى عن ذكره فى هذا الكتاب ، وهو مَسْلكٌ واحدٌ ، وسبيل واحد .

وإنّما قصدتُ إلى هذا المذهبِ دونَ مذهب سائر الزيديّة فى دلائلهم وحُججهم[٢] ، لأنّه أحسنُ شيءٍ رأيتُه لهم. وإنّما أحكى لك من كلِّ نحلةٍ قَوْلَ حُذّاقهم وذَوِى أحلامِهم ، لأنّ فيه دلالةً على غيرِه ، وغِنًى عمّا سواه.

وقالوا : وقد يكون الرجلُ أفضَلَ النّاسِ ويلى عليهِ[٣] مَنْ هو دونه فى الفَضْل ، حتّى يكلّفه الله طاعتَه وتقديمَه ؛ إمّا للمصلحة ، وإمّا للإشفاق من الفِتنة[٤] ، كما ذكرنا وفسّرنا ، وإمّا للتغليظ فى المِحْنة وتَشديدِ البَلْوى والكُلفة[٥] ، كما قال تعالى للملائكة : ﴿اسجدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلاّ إبليسَ أبى[٦]﴾ . والملائكةُ أفضل من آدم ، فقد كلّفهم الله أغلَظَ المِحَن وأشدَّ البَلْوى ، إذْ ليس فى الخضوع أشدُّ من السُّجود على السّاجدِ له . والملائكة أفضَلُ من آدمَ ، لأنّ جبريل وميكائيلَ وإسرافيل عندالله تعالى من المقرَّبين قَبْلَ خَلْقِ آدمَ بدهرٍ طويل ، لِمَا قدَّمَتْ من العبادة[٧] ، واحتملَتْ من ثِقَلِ الطّاعة .

(١) ب فقط : « وعالها » ، تحريف .
(٢) ط فقط : « ولائهم » ، تحريف .
(٣) ب : « ويلى غيره » .
(٤) ب ، م : « وإما إشفاق من الفتنة » ، صوابه فى ط .
(٥) أى التكليف . وهذه الكلمة ساقطة من م .
(٦) من الآية ٣٤ من البقرة و ١١٦ من طه .
(٧) ب ، م : « المعابدة » . ووجهه فى ط .

وكما مَلَّكَ اللهُ طالوتَ على بنى إسرائيل وفيهم يومئذٍ داودُ النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو نبيُّهم الذى أخبر عنه[١] فى القرآن : ﴿ وقال لهم نبيُّهم إنَّ اللهَ قد بعَثَ لكُمْ طالوتَ مَلِكاً[٢] ﴾.

ثم صنيعُ النبي صلى الله عليه وسلم حين وَلَّى زيد بن حارثةَ على جعفرٍ الطيَّارِ يوم مُؤْتة ، وولَّى أسامة على كُبَراءِ المهاجرين وفيهم أبو بكرٍ وعُمر ، وسَعِيدُ بنُ زيد بن عمْرو بن نُفَيل[٣] ، وسعدُ بنُ أبي وَقَّاص ، ورجالٌ ذَوُو أخطارٍ[٤] وأقدار ، من البَدريِّينَ والمهاجِرِينَ ، والسَّابقين الأوَّلين .

٤ — فصل منه

ب ولو تُرِكَ النَّاسُ وقُوى عقولِهم وجِماحَ طبائعهم ، وغلبَة شهواتهم ، وكثرةَ جَهلهم ، وشدَّةَ نِزَاعهم إلى مايُردِيهم ويُطغيهم ، حتَّى يكونوا هُمُ الذين يحتجرون[٥] من كلِّ ما أفسدَهُمْ بقدر قواهم ، وحتَّى يقفوا على حَدِّ الضَّارِّ والنَّافع ، ويعرفوا فصْلَ[٦] مابين الدَّاءِ والدواءِ ، والأغذيةِ والسُّموم ، كان قد كلَّفهم شَطَطًا ، وأسلَمهم إلى عدوِّهم ، وشَغَلهم عن

---

(١) ب ، م : « عنهم » ، صوابه فى ط .

(٢) الآية ٢٤٧ من البقرة .

(٣) سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل بن عبد العزى العدوى ، أحد العشرة المبشرين بالجنة ، وهو زوج أخت عمر بن الخطاب ، أسلم عمر فى بيته . انظر الإصابة ٣٢٥٤ وجمهرة ابن حزم ١٥١ وفى الأصول : « سعد بن عمرو بن نفيل » . وليس فى الصحابة من يدعى بهذا الاسم . وانظر العثمانية ١٤٦ وكذلك ٦٥ ، ١٧٥ ، ٢٤٨ .

(٤) ط : « وذوو أخطار » فقط ، بإسقاط : « ورجال » .

(٥) الاحتجار : الامتناع . والحجر : المنع .

(٦) الفصل : الفرق . وفى جميع الأصول : « فضل » بالمعجمة . وفى ب : « ويعرف » ، وهذه محرفة .

طاعته التى هى أجدى الأُمورِ عليهم(١) وأنفعُها لهم ، ومن أجلها عَدَّلَ التركيبَ وسَوَّى البِنْية ، وأخرجهم من حَدِّ الطُّفولة والجَهلِ إلى البُلوغ والاعتدال والصحَّة ، وتمامِ الأَداةِ والآلة . ولذلك قال عزَّ ذكره : ﴿ وما خَلَقْتُ الجِنَّ والإِنسَ إلَّا ليَعْبدونِ(٢) ﴾ .

ولو أَنَّ النَّاسَ تركهم الله تعالى والتَّجربةَ ، وخَلَّاهم وسَبْر الأُمور(٣) وامتحانَ السُّموم ، واختبارَ الأَغذية(٤) ، وهم على ماذَكَرْنا من ضعف الحيلة(٥) وقلَّةِ المعرفة(٦) وغَلَبةِ الشَّهوة، وتسلُّط الطبيعة(٧)، مع كثرة الحاجةِ ، والجهل بالعاقبة ، لأَثَّرت عليهم السُّموم(٨) ، ولأَفناهم الخطأُ(٩) ولأَجْهَزَ عليهم(١٠) ، الخَبْط ، ولتوَلَّدت الأَدواءُ وترادفت الأَسقام ، حتى تصير مَنايَا قاتلة ، وحُتوفاً مُتْلفة ، إذْ لم يكن عندهم إلَّا أَخذُها، والجهلُ بحُدودها(١١) ومنتهى ما يجوز منها والزِّيادةِ فيها ، وقلَّةُ الاحتراس من توليدها .

فلمَّا كان ذلك كذلك علمْنا أَنَّ الله تعالى حيثُ خلق العالَمَ وسُكَّانه لم يَخلقْهم إلَّا لصلاحهم ، ولا يجوز صَلاحُهم إلَّا بتبقيتهم(١٢)

---

(١) الأجدى : الأنفع . ب ، م : « احدى » بالحاء المهملة ، تحريف مافى ط .

(٢) الآية ٥٦ من الذاريات .

(٣) السبر ، بالباء : الاختيار والامتحان . وفى الأصول : « وسير الأمور » تحريف .

(٤) ب فقط : « واختيار الأغذية » .

(٥) ب ، م : « فى ضعف الحيلة » .

(٦) ب : « وقوة المعرفة » ، صوابه فى م ، ط .

(٧) فى الأصول : « وتسليط الطبيعة »

(٨) ب ، م : « لأثر عليهم السموم » .

(٩) ط : « الخطر » .

(١٠) أجهز عليهم إجهازاً : قضى عليهم . وفى ب : « ولأجهر عليهم » بالراء المهملة ، تحريف مافى م ، ط .

(١١) ب ، م : « لحدوبها » ط : « بحدوثها » ، والوجه ما أثبت .

(١٢) ب فقط : « بتبقيهم » .

ولولا الأَمرُ والنَّهىُ ما كان للتبْقيَةِ[١] وتعديل الفِطرة معنًى.

ولما أنْ كان لا بُدَّ للعبادِ من أن يكونوا مأْمورين منهيِّين، بين عدوٍّ عاصٍ[٢] ومطيع ولِىٍّ ، عِلْمنا أنَّ النَّاس لا يستطيعون مُدافعةَ طبائعهم ، ومخالفةَ أهوائهم، إلَّا بالزَّجر الشديد، والتوعُّدِ بالعقاب الأَليمِ فى الآجِل، بعد التنكيل فى العاجل ، إذْ كان لا بدَّ من أن يكونوا[٣] منهيِّين[٤] بالتنكيل معجَّلاً ، والجزاء الأَكبر مؤجَّلا ، وكان شأْنهم إيثارَ الأَدنى وتسويفَ الأَقصَى .

وإذا كانت[٥] عقولُ الناس لا تبلغ جميعَ مصالحهم فى دُنْياهم فهم عن مصالح دينهم أَعجَز ، إذْ كان عِلم الدين مُستنبطاً من عِلم الدُّنيا .

وإذا كان العلمُ مباشرةً أَو سبباً للمباشرة[٦] وعلمُ الدنيا غامضٌ ، فلا يُتَخلَّص[٧] إلى معرفته إلَّا بالطبيعة الفائقة ، والعناية الشَّديدة ، مع تلقين الأَئمَّة . ولأَنَّ الناس لو كانوا يبلغون بأَنفسهم غايةَ مصالحهم فى دينهم ودُنْياهم كان إرسالُ الرُّسلِ قليلَ النَّفْع ، يسيرَ الفَضْل .

وإذا كان الناس مع منفعتهم بالعاجل وحُبِّهم للبقاء ، ورغبتهم فى النَّماء ، وحاجتهم إلى الكفاية ، ومعرفتهم بما فيها[٨] من السَّلامة لا يبلغون لأَنفسهم معرفةَ ذلك وإصلاحَه ، وعلْمُ ذلك جليلٌ ظاهرٌ سببُه

---

(١) ب فقط : « التبعية » .
(٢) ب ، م : « عدو وعاص » ، والوجه ما أثبت من ط .
(٣) فى جميع الأصول : « من أن يكون » .
(٤) ب ، م : « منهيين بالعمل » ، صوابه فى ط .
(٥) ب فقط : « وإذ كانت » .
(٦) ب ، م : « بالمباشرة » .
(٧) ب ، م : « لايتخلص » بسقوط الفاء .
(٨) ب ، م : « بما فيه » .

بعضُه ببعضٍ، كدَرْك الحواسِّ ومالاقته[١]، فهم عن التعديل والتجوير[٢] وتفصيل التَّأْويل[٣]، والكلام فى مجيء الأَخبار وأُصولِ الأَديان، أَعْجَزُ، وأَجْدَرُ[٤] أَلَّا يبلغوا منه الغاية، ولا يدركوا منه الحاجة[٥]؛ لأَنَّ علم الدنيا أَمران: إمَّاشيءٌ يلى الحواسَّ، وإمَّا شيءٌ يلى عِلمَ الحواسِّ، وليس كذلك الدِّين.

فلمَّا كان ذلك كذلك علِمْنا أَنَّه لا بدَّ للنَّاسِ من إمامٍ يعرِّفهم جميعَ مصالحهم.

ووجدنا الأَئمة ثلاثة[٦]: رسول، ونبيٌّ، وإمام.

فالرَّسول نبيٌّ إمام، والنبيُّ نبيٌّ إمام، والإمامُ ليس برسولٍ ولا نبيّ.

وإنَّما اختلفت أَسماؤُهم ومراتبهم لاختلاف النواميس[٧] والطِّبائع، وعلى قَدْر ارتفاعِ بعضهم عن درجةِ بعض، فى العَزْم والتَّركيب، وتغيُّر الزَّمانِ بتغيُّر الفَرْض[٨] وتبدُّل الشريعة.

فأَفضَلُ النَّاس الرَّسولُ، ثم النبيُّ، ثم الإمام.

فالرَّسول هو الذى يشرِّع الشَّريعةَ ويبتدئ المِلَّة، ويُقيم النَّاسَ على جُمَلِ مَرَاشدهم، إذْ كانت طبائعهُم لا تحتمل فى ابتداء الأَمر

(١) ب، م: «لاقتها».
(٢) فى جميع الأصول: «والتحرير» صوابه ما أثبت. وانظر ما سبق فى ص ٣٢، ٤٠.
(٣) ب، م: «وبفضل» ط: «وتفضل»، والوجه ما أثبت.
(٤) ب، م: «واحذر» صوابه فى ط.
(٥) ب، م: «ولا كوا منه الحاجة» صواب هذه ما أثبت. وفى ط: «ولا كنه الحاجة». والكنه: الحقيقة.
(٦) ب فقط: «ثلاث»، تحريف.
(٧) ب: «النوعان» م: «النومان»، وأثبت ما فى ط.
(٨) ط: «الفرض».

أكثَرَ من الجُمَل . ولولا أنَّ فى طاقة الناس قَبولَ التَّلقين وفهمَ الإرشاد، لكانوا هملًا ، وَلَتُرِكوا نَشَرًا جَشَراً(١) ، ولسقَطَ عنهم الأمرُ والنَّهى . ولكنَّهم قد يفضُلون بينَ الأُمورِ إذا أُوردت عليهم ، وكُفُوا مَئُونة التَّجربة ، وعِلاجَ الاستنباط . ولن يبلغُوا بذلك القَدْرِ قدرَ المستغنِى بنفسه ، المستبدِّ برأْيه ، المكتفِى بفطنتهِ عن إرشاد الرُّسُل ، وتلقين الأَئمَّة .

وإنَّما جاز أن يكون الرَّسولُ مرَّةً عربيًّا ومرَّةً عجميًّا ، وليس له بيتٌ يُخْطره(٢) ولا شرفٌ يَشْهَرُ موضِعَه ؛ لأَنَّه حين كان مبتدئَ المِلَّة ومُخرِج الشَّريعة ، كان ذلك أَشهَرَ من شَرَف الحَسب المذكور ، وأَنْبَهَ من البيت المقدَّم . ولأَنَّه يحتاج من الأَعلام والآيات والأَعاجيب ، إلى القاهر المعقول(٣) والواضح الذى لا يُخِيلُ أن يَشتهر(٤) مثلُه فى الآفاق . ويستفيض فى الأَطراف(٥) حتَّى يصدعَ عقل الغبيّ ، ويفتُقَ طبعَ العاقل(٦) ، وينقضَ عَزْمَ المعاند(٧) . ويَنْتبِهَ مَنْ أَطالَ الرقدة(٨) وتَخضع الرِّقاب(٩) وتضرع الخُدود(١٠) حتَّى يتواضع له كلُّ شرف ، ويَبْخَعَ

---

(١) ب : «نشراً وحشراً» ط : «نشرا حشرا» م: «نشرا أو حشرا»، والوجه ماأثبت . والجشر ، بفتح الجيم وأو بفتحها مع فتح الشين ، يقال بنوفلان جشر إذا كانوا يبيتون مكانهم لايأوون بيوتهم ولايرجعون إلى أهليهم .

(٢) أخطره إخطاراً : جعله ذاخطر وقدر . وفى م ، ط : «يحظره» ، تحريف ماأثبت من ب .

(٣) ب : «القاهر للعقول» .

(٤) ب ، م : «الذى يشتهر» .

(٥) فى الأطراف ، ساقطة من م .

(٦) ط : «ويضىء طبع العاقل» ب ، م : «ويفيق طبع العاقل» ، والوجه ما أثبت .

(٧) ط : «المعاند الآصل».

(٨) ب ، م : «من طول الرقدة» .

(٩) ب ، م : «ويخضع الرقاب» .

(١٠) ب ، م : «ويضرع». وفى جميع الأصول : «الحدود» صوابه بالخاء المعجمة .

له كلُّ أنف[1] ، فلا يحتاج حالهُ معه إلى حالٍ، ولا مع قَدْرِه إلى حَسَب .

وعلى قَدْرِ جهلِ الأُمّة وغَباءِ عقولها،وسوءُ رِعَتها[2]،وخُبث عادتها ، وغِلَظ مِحنتها، وشدَّة حيرتها ، تكون الآياتُ. كَفَلْقِ البحر ، والمَشْيِ على الماءِ ، وإحياءِ الموتى ، وقَصْر الشَّمس عن مجراها[3] . لأنَّ النبيَّ الذى ليس برسولٍ ولا مبتدئٍ مِلَّةٍ ،ولا منشئٍ شريعة ،إنّما هوللتأْكيد والبِشارة ، كبِشارة النبيِّ بالرسول الكائن على غابر الأيَّام[4] ، وطُولِ الدهر .

وتوكيد المبشِّر يحتاج من الأعلام إلى دونِ ما يحتاج إليه المبتدئُ لأَصل المِلَّة ، والمُظْهِرُ لفَرْض الشريعة[5] ، الناقلُ للنَّاس عَنِ الضَّلالِ القديمِ ، والعادةِ السيِّئةِ ، والجهل الراسخ . فلذلك اتَّقَى بشُهرة أعلامه ، وشرف آياته[6] ، وذكر شرائعه ، مِن شهرة بَيْتِهِ وشَرَفِ حسبه ، لأنَّه لا ذِكرَ إلّا وهو خاملٌ عند ذِكره . ولا شَرَفَ إلَّا وهو وضيعٌ عند شرفه.

* * *

انتهاءُ الفصول الّتى اختارها عُبيدُ الله بن حسان من كتب أبى عثمان عمرو بن بحر الجاحظ . رحمه الله تعـــالى . وكان الفراغ من نسخ هذه النسخة يوم الجمعة المبارك الثَّامن عشر من شهر صَفَرٍ الخير ، من شهور سنة أربع وتسعين ومائتين بعد الألف من الهجرة النبويَّة ، على صاحبها أفضلُ الصَّلاة وأتمُّ التحية ، على يد كاتبها الفقير عبد الله المنصوريّ ، اللهمَّ اغفِرْ له ولوالديه آمينَ ، آمينَ ، آمين .

---

(١) يبخع : يذل ويطيع . ب ، م : « ويبخل » وجهه ما أثبت . وفى ط : « ويرغم » .

(٢) الرعة ، كعدة : الورع والتحرج . و « سوء رعتها » ساقط من ط .

(٣) إشارة إلى قصة يوشع أو يشوع عليه السلام ؛ وهو يحارب أعداءه حيث « وقفت الشمس فى كبد السماء ولم تعجل للغروب نحو يوم كامل » . سفر يشوع ١٠ : ١٢ — ١٣

(٤) الغابر من الأضداد ، يقال للماضى من الزمان وللباقى .

(٥) ب : « وشرف حسبه آياته » وكلمة « حسبه » مقحمة هنا . وما بعد كلمة .

(٦) هذا هو ختام نسخة المتحف البريطانى .

وإليك نص ختام النسخة التيمورية :

انتهاء الفصول التي اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ رحمه الله .

وكان الفراغ من نسخ هـذه النسخة في يوم الجمعة المبارك الموافق لثلاث خلت من شهر ذي القعدة سنة ١٣١٥ خمسة عشر (كذا) وثلاثمائة بعد الألف من هجرة المصطفى صلى الله عليه وسلم . وقد تم نسخها بيد العبد الحقير ، المعترف بالعجز والتقصير ، عبد أهل السنة والجماعة ، الخاضع لله بالدعاء والطاعة ، الراجي لطف ربه الغني محمد بن عبد الله بن إبراهيم الزمراني ، غفر الله له ولوالديه ولجميع المسلمين بمنه وكرمه . والصلاة والسلام على خير خلقه ، والحمد لله وحده .

تمت بحمد الله وعونه وحسن توفيقه . آمين .

وقد نقلت هـذه النسخة المباركة من نسخة تاريخها في أوائل شهر رجب لأصم سنة ٤٠٣ ثلاث وأربعمائة كاتبها أبي القاسم (كذا) عبيد الله بن علي رحمه الله .

* * *

وهذا نص ختام المطبوعة على هامش الكامل :

انتهت الفصول التي اختارها عبيد الله بن حسان من كتب أبي عثمان عمرو ابن بحر الجاحظ رحمه الله تعالى . والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين وآله وصحبه أجمعين .

* * *

أتممت تحقيق هذه النسخة وتحريرها صبيحة الجمعة في السادس من رجب سنة ١٣٩٩ .

ولله الحمد على ما أنعم ، وهو ولي التوفيق .

عبد السلام محمد هارون

الفهارس الفنية

للقسمين : الأول والثانى

من الفصول المختارة

الفهرس الأول

١ — فهرس القرآن الكريم

الفهرس الثانى

٢ — فهرس الحديث

الفهرس الثالث

٣ — فهرس النصوص المأثورة

أقوال غير منسوبة

الفهرس الرابع

٤ – فهرس الأمثال

الفهرس الخامس

٥ - فهرس الأشعار

الفهرس السادس

٦ - فهرس اللغة(١)

أ

(١) ما وضع من الأرقام بين قوسين فهو من تفسير الجاحظ ، وما وضع من الألفاظ بين قوسين فهو مما لم يرد في المعاجم المتداولة .

ج

د

ف

ك

ن

كلمات غير عربية

الفهرس السابع

٧ — فهرس مسائل العربية

الفهرس الثامن

٨ — فهرس الأعلام(*)

أ

(*) ما وضع من الأرقام بين قوسين فهو موضع الترجمة .

ز

س

ش

ص

ض

ط

ظ

....

ع

ق

ك

ل

م

ى

الفهرس التاسع

٩ — فهرس القبائل والطوائف ونحوها

أ

ب

ت

ث

ف

ق

ك

ن

هـ

و

ى

الفهرس العاشر

١٠ - فهرس البلدان والمواضع ونحوها

أ

ب

خ

د

ذ

ر

ز

س

الفهرس الحادى عشر

١١ — فهرس الكتب (*)

(*) ما قرن بنجم فهو من تأليف الجاحظ .

الفهرس الثانى عشر

١٢ — فهرس الفهارس

مراجع الشرح والتحقيق

الآثار الباقية ، للبيرونى . ليبسك ١٨٧٨ م
إتحاف فضلاء البشر ، للدمياطى . حنفى ١٣٥٩ .
الإتقان فى علوم القرآن ، للسيوطى ، تحقيق محمد أبو الفضل . المشهد الحسينى ١٣٨٧
أدب الكاتب ، لابن قتيبة ، تحقيق محمد محيى الدين . السعادة ١٣٨٢
أدب الكتاب ، للصولى ، تحقيق محمد بهجة الأثرى . السلفية ١٣٤١
أزهار الأفكار ، التيفاشى ، تحقيق محمد حسن يوسف . الهيئة المصرية العامة ١٩٧٧ م .
أساس البلاغة ، الزمخشرى . دار الكتب المصرية ١٣٤١
الاشتقاق ، لابن دريد ، تحقيق عبد السلام هارون . السنة ١٣٧٨ .
الإصابة ، لابن حجر . السعادة ١٣٢٣ .
إصلاح المنطق ، لابن السكيت ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون . المعارف ١٩٧٠ م
الأصمعيات ، شرح وتحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون . المعارف ١٩٦٧ م
الأغانى ، لأبى الفرج الأصبهانى . التقدم ١٣٢٣
الألف المختارة من صحيح البخارى ، لعبد السلام هارون . المعارف ١٩٦٥ م
الألفاظ الفارسية المعربة ، لأدى شير . بيروت ١٩٠٨ م
أمالى الزجاجى ، تحقيق عبد السلام هارون . المدنى ١٣٨٢
أمالى القالى . دار الكتب ١٣٤٤
أمالى المرتضى ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم . عيسى الحلبى ١٣٧٣
الأمثال ، للضبى . الجوائب ١٣٠٠
إنجيل مرقس ، من العهد الجديد .
إنجيل يوحنا ، من العهد الجديد .
الأنساب ، للسمعانى . ليدن ١٩١٢ م .
البرهان ، ، الزركشى ، تحقيق محمد أبو الفضل . عيسى الحلبى ١٣٧٧
البيان والتبيين ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون . الخانجى ١٣٨٨
تاريخ ابن الأثير = الكامل
تاريخ الإسلام ، للذهبى . القدسى ١٣٦٧
تاريخ بغداد ، للخطيب البغدادى . السعادة ١٣٤٩
تاريخ الطبرى ، تحقيق محمد أبو الفضل . دار المعارف ١٩٦٩ م
تأويل مختلف الحديث ، لابن قتيبة . كردستان ١٣٢٦ م
تحقيق النصوص ونشرها . تأليف عبد السلام هارون . الخانجى ١٣٩٧
تحقيقات وتنبيهات فى معجم لسان العرب . تأليف عبد السلام هارون . الهيئة المصرية العامة ١٣٩٩
تذكرة أولى الألباب ، لداود الأنطاكى . الشرفية ١٣١٧
تقريب التهذيب ، لابن حجر . لكنو بالهند ١٢٢٠
التمثيل والمحاضرة ، الثعالبى . تحقيق عبد الفتاح الحلو . عيسى الحلبى ١٣٨١
التنبيه والإشراف ، للمسعودى . الصاوى ١٣٥٧

تهذيب التهذيب ، لابن حجر . حيدر أباد ١٣٢٧
ثلاث رسائل للجاحظ ، تحقيق فان فلوتن . ليدن ١٩٠٣ م
ثمار القلوب ، للثعالبي . الظاهر ١٣٢٦ .
الجامع الصغير ، للسيوطي . حجازي ١٣٥٢ .
جمع الجواهر ، للحصري ، تحقيق محمد علي البجاوي . عيسى الحلبي ١٣٧٢ .
جمهرة الأمثال ، للعسكري ، تحقيق محمد أبو الفضل وقطامش . المؤسسة العربية ١٣٨٤
جمهرة أنساب العرب ، لابن حزم ، تحقيق عبد السلام هارون . دار المعارف ١٣٩١
جمهرة اللغة ، لابن دريد . حيدر أباد ١٣٥١
جنى الجنتين ، للمحبي . الترقي بدمشق ١٣٤٨
جوامع السيرة ، لابن حزم ، تحقيق إحسان عباس ، وناصر الأسد . المعارف ١٩٥٦ م
حاشية الصبان على الأشموني . عيسى الحلبي ١٣٦٦
الحماسة البصرية ، لعلي بن أبي الفرج البصري . تحقيق مختار الدين أحمد ، حيدر أباد ١٣٨٣
حياة الحيوان ، للدميري . صبيح بالقاهرة .
الحيوان ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون . الحلبي ١٣٨٩
خزانة الأدب ، للبغدادي . بولاق ١٢٩٩
دائرة المعارف الإسلامية (النسخة العربية) . الاعتماد من سنة ١٣٥٢
الدرة الفاخرة ، لحمزة بن الحسن الأصفهاني ، تحقيق عبد المجيد قطامش . المعارف ١٩٦٦ م
دلائل الإعجاز ، للجرجاني . المنار ١٣٣١
الديارات ، للشابشتي ، تحقيق كوركيس عواد . بغداد ١٣٧٣
ديوان أمية بن أبي الصلت . بيروت ١٣٥٣
» البحتري . هندية ١٣٢٩
» جران العود . دار الكتب ١٣٥٠
» جرير ، الصاوي ١٣٥٣
» الحطيئة . التقدم . ١٣٢٣
» الحماسة ، لابن الشجري . حيدر أباد ١٣٤٥
» زهير بن أبي سلمى . دار الكتب ١٣٦٣
» الفرزدق . الصاوي ١٣٥٤
» كعب بن زهير . دار الكتب ١٣٦٨
» المعاني ، للعسكري . القدسي ١٣٥٢
» أبي نواس . العمومية ١٨٩٨ م
رسالة بولس إلى أهل رومية (من أسفار العهد الجديد)
رسائل الجاحظ ، لحسن السندوبي . التجارية ١٣٥٢
زهر الآداب ، للحصري ، تحقيق علي البجاوي . الحلبي ١٩٥٣ م
سفر أرمياء ، إشعياء ، التثنية ، التكوين ، الخروج ، صمويل الثاني ، العدد ، اللاويين ، هوشع (من أسفار العهد القديم) . .
سمط اللآلي ، للبكري ، تحقيق عبد العزيز الميمني . لجنة التأليف ١٣٥٤
السنن الكبرى ، للبيهقي . حيدر أباد ١٣٥٥

السيرة ، لابن هشام . جوتنجن ١٨٥٩ م
شرح ديوان الحماسة ، للتبريزي ، تحقيق محمد محيى الدين . حجازى ١٣٥٨
شرح ديوان الحماسة ، للمرزوقى ، تحقيق عبد السلام هارون . لجنة التأليف ١٣٧٢
شرح شواهد شروح الألفية ، للعينى (بهامش خزانة الأدب)
شرح صحيح البخارى ، للقسطلانى . بولاق ١٣٠٥
شرح المعلقات للتبريزى ، تحقيق محمد محيى الدين . المدنى ١٣٨٢
شرح المعلقات للزوزنى . السعادة ١٣٤٠
شروح سقط الزند ، تأليف لجنة أبي العلاء . دار الكتب ١٣٦٨
الشعراء لابن قتيبة ، تحقيق أحمد شاكر . المعارف ١٩٦٦
الصاحبى ، لابن فارس ، تحقيق محب الدين الخطيب . المؤيد ١٣٢٨
صحيح البخارى . بولاق ١٣١٣
صحيح مسلم ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقى . الحلبى ١٣٧٥
صفة الصفوة ، لابن الجوزى . حيدر أباد ١٣٥٦
طبقات القراء ، لابن الجزرى ، بعناية برجستراسر . الخانجى ١٣٥٢
العثمانية ، للجاحظ ، تحقيق عبد السلام هارون . دار الكتاب العربى ١٣٧٤
عجائب المخلوقات ، للقزوينى . المعاهد بالقاهرة .
العقد الفريد ، لابن عبد ربه . لجنة التأليف ١٣٧٠
عيون الأخبار ، لابن قتيبة . دار الكتب ١٩٤٣
الفاخر ، للمفضل بن سلمة ، تحقيق عبد العليم الطحاوى . عيسى الحلبى ١٣٨٠
فتح البارى ، شرح صحيح البخارى ، لابن حجر . بولاق ١٣٠١
الفرق بين الفرق ، للبغدادى . المعارف ١٣٢٨
فرق الشيعة ، النوبختى . الدولة بالقسطنطينية ١٩٣١ م
الفصل فى الملل والنحل ، للشهرستانى . الأدبية ١٣١٧
الفهرست ، لابن النديم . الرحمانية بالقاهرة ١٣٤٨
فوات الوفيات ، لابن شاكر الكتبى ، تحقيق محمد محيى الدين . السعادة ١٩٥١ م
قاموس الأعلام ، للزركلى . العربية ١٣٤٥
القاموس المحيط ، للفيروزبادى . الحسينية ١٣٣٢
قلائد العقيان ، للفتح بن خاقان . بولاق ١٢٨٣
الكامل ، لابن الأثير . دار صادر ودار بيروت ١٣٨٧
الكامل ، للمبرد ، تحقيق وليم رايت . ليبسك وكمبردج ١٨٩٢ م .
كتاب سيبويه ، تحقيق عبد السلام هارون . الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٣٩٧
الكنايات ، للجرجانى . السعادة ١٣٢٦ .
لسان العرب ، لابن منظور . بولاق ١٣٠٧
لسان الميزان ، لابن حجر . حيدر أباد ١٣٣٠
المبانى ، لمجهول ، تحقيق آرثر جفرى . الخانجى ١٣٩٢
مجالس ثعلب ، تحقيق عبد السلام هارون . المعارف ١٣٦٩

مجمع الأمثال ، للميدانى . البهية ١٣٤٢
مجموعة رسائل ، للجاحظ ، نشرة الساسى . التقدم ١٣٢٤
محاضرات الأدباء ، للراغب الأصفهانى . الشرفية ١٣٢٦
المحبر ، لابن حبيب ، تحقيق إيلزة ليختن . حيدر أباد ١٣٦١
المخصص ، لابن سيده . بولاق ١٣١٨
مروج الذهب ، للمسعودى . السعادة ١٣٦٧
المزامير (من أسفار العهد القديم)
المزهر ، للسيوطى ، تحقيق محمد أبو الفضل وعلى البجاوى . عيسى الحلبى ١٣٦١
المستقصى فى الأمثال ، للزمخشرى . بيروت ١٩٧٧ م
مسند أحمد بن حنبل ، تحقيق أحمد محمد شاكر . دار المعارف ١٣٧٥
المعارف ، لابن قتيبة . الاسلامية ١٣٥٣
معاهد التنصيص ، للعباسى . البهية ١٣١٦
المعتمد فى الأدوية المفردة ، لابن رسولا الغسانى . الميمنية ١٣٢٧
معجم الأدباء ، لياقوت . دار المأمون ١٣٢٣
معجم البلدان ، لياقوت . السعادة ١٣٢٣
معجم الحيوان ، للمعلوف . المقتطف ١٩٣٢ م
معجم الشعراء ، للمرزبانى . القدسى ١٣٥٤
معجم العلوم الطبية والطبيعية ، لمحمد شرف . الأميرية ١٩٢٩ م
المعجم الفارسى الإنجليزى ، لاستينجاس . لندن ١٩٣٠ م
المعجم الوسيط ، لمجمع اللغة العربية . دار المعارف ١٣٩٣
المعمرين ، للسجستانى ، السعادة ١٣٢٣
مغنى اللبيب ، لابن هشام ، تحقيق محمد محيى الدين . صبيح ١٣٧٨
مفاتيح العلوم ، للخوارزمى . محمد منير ١٣٤٢
المفضليات ، تحقيق أحمد شاكر وعبد السلام هارون . المعارف ١٣٨٣
المبانى = مقدمتان فى علوم القرآن .
مقدمتان فى علوم القرآن ، تحقيق آرثر جفرى . الخانجى ١٣٩٢
الملل والنحل ، للشهرستانى . الأدبية ١٣١٧
المواقف ، للعضد . العلوم ١٣٥٧
النجوم الزاهرة ، لابن تغرى بردى . دار الكتب ١٣٤٨
نخب الذخائر ، لابن الأكفانى ، تحقيق الأب أنستاس مارى . العصرية ١٩٣٩م
النزهة المبهجة ، لداود الأنطاكى ، بهامش التذكرة
النقائض بين جرير والفرزدق ، تحقيق بيفان . ليدن ١٩٠٥م
نكت الهميان ، للصفدى . القاهرة ١٩١٠
نهاية الأرب ، للنويرى . دار الكتب ١٣٤٢
همع الهوامع شرح جمع الجوامع ، للسيوطى . السعادة ١٣٢٧
الهوامل والشوامل ، تحقيق السيد صقر . التأليف ١٣٧٠
وفيات الأعيان ، لابن خلكان . الميمنية ١٣١٠
يتيمة الدهر ، للثعالبى . دمشق ١٣٠٢

استدراك وتذييل

القسم الأول

ص	س	
٦٦	١٣	ينقل رقم (٧) المشير لحاشية إلى نهاية البيت .
١٠١	١٤ح	يضاف إلى نهاية الحاشية (ص ٩٥) .
١٩٢	٦	يلغى رقم (٥) من هذا السطر ويوضع موضع (٦) فى س ٨ وتسلسل الأرقام بعد ذلك ليكون آخرها رقم (٧) . وكذلك تعدل أرقام الحواشى بعد حذف رقم (٤) وتسلسل الأرقام طبقاً لما فى الصلب

القسم الثانى

٣٠٥	٧	ينقل رقم (٣) ليوضع فوق كلمة « يز » فى نفس السطر .

صواب أخطاء الطبع

القسم الأول

٧	١٧ح	يعقدون الخرز
٣٢	٣	يعلِّمهم الكتابَ
٣٦	٨ ح	والتعبير هنــا
٦٩	١	لنعُدَّ خصالاً
٩٩	٥	ولقيس بن زُهير
١٠٠	١٢	والتمييل بين
١٠٧	٧	اعجبْ
١٢٥	٩	والهذّ
١٢٦	٧	وأَجتَرَّ
١٨١	٣ح	قحطبة
١٨٢	١ح	أبو عيينة
٢٠٥	٣ح	ما مضى في ص ١٩٩
٢٤٥	١٣ح	وانظر لغاتها
٣٠٠	٢	والجبْرِيّة
٣٠٤	١	عيسى بن مريم
٣٠٥	١١	لم نجعل
٣٣٠	٦ح	وأثبت ملكته
٣٣٤	٢	و (يد الله مغلولة)
٣٤٣	٩	الإباء
٣٤٧	٢	كلُّ يهوديٌّ

القسم الثاني

٧	٥ح	بالراء المهملة
٢٠	٢	خبّاباً وزيدًا
٣٨	٣	ذلك المستنبَطِ
١١٠	١٢	أَقنَعَ
١١٨	١٠ح	ب : «والباد»
١٢٠	٤	إتاوةٌ قَطُّ
١٣٠	١٤	وسوءُ الاستمراءِ
١٥٥	٤	ومَضَلَّات المُنَى
١٨٤	٤	عُيَينة بنُ حِصن
٢١٤	٦	وأُسِرَ طُلَيحة
٢٦٣	٥ح	بعوض صغار
٣٠١	١٣	ويُدارِيَه
٣١٩	٣ح	الاختبار والامتحان

فهرس الكتب والرسائل

رقم الإيداع ١٩٧٩/٤٩٨٤

المطبعة العربية الحديثة

٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
القاهرة — تليفون : ٨٢٦٢٨٠



